

إسحاق ماشباش

الشراكة

رواية تاريخية

ترجمة
وليد تحقاقة

لم تكن قد ظهرت بعدُ كتاباتُ تشهد على ما حدث في التاريخ. ولكن الشراكسة كانوا يعيشون منذ أقدم العصور في القفقاس. حُلِقُوا فيها، وسكنوها منذ الأزل.

ف. أ. شيرينا

أكثر الأقوام التي تعيش في القفقاس عدداً، وأشجعها هم الشراكسة.
و. ف. ماركغراف

الشراكسة الذين سكنوا القفقاس في القرون الوسطى، وكانوا زينة الأقوام، سفراء للإنسانية والرجولة. يتصفون بالحكمة والجمال. وقد منحتهم الحياة كل هذه الميزات. وأنا كنت أتعجب على نحو خاص من الإنسانية الصافية التي كنت ألاحظها فيهم. تميزوا دائماً بالتفاني والعشق الجارف للحرية. ولم يتنازلا عنهما البتة.

عمر. دي. غيبل

I

تنحدر الشمس متسللة إلى الجهة التي تتحد فيها السماء والبحر. والغيمة البيضاء الوحيدة استقرت على قمة الجبل القريب. وهمسات أمواج البحر اللطيفة تتراعى على الشاطئ. وطريق العربات المتلوي الذي تُظله الغابة يهدأ شيئاً فشيئاً. والبومة تصرخ بلا كلل أو ملل من بين الأشجار الملتفة غير البعيدة.

العجوزان اللذان وخط الشيب مفرقيهما جالسان إلى جدار حظيرة، متكئين بذقيهما إلى عصويهما، وقد استولى التفكير على وجهيهما كأنهما يريدان أن يعرفا سبب غروب الشمس، وهمس الأمواج إلى الشاطئ، والتقاء البحر بالسماء، ونداء البوم اللاهث.

أحدهما، وهو العجوز المتين القصير الرقبة، يرتدي قبعة اللباد المستديرة، والآخر، وهو العجوز النحيف الرقيق، يرتدي فلتسوة مدبة الطرف تضم طرفي أذنيه وإن كان الجو حاراً، فتكسيبه مزيداً من طول القامة.

- هذا بديهي، تحدث في العالم أمور كثيرة لا نعرفها... - قال العجوز ذو القبعة اللبادية دون أن تهتز ذفنه على العصا، وكأنه غير مهموم بشيء.
العجوز الرقيق الذي جلس مدة لا يرفع جفنيه أجاب بما يشغل باله:
- ليتنا عرفنا ما يجري في قريتنا الأصلية وإن لم نعرف ما يحدث في العالم... أولادنا كسالى بالقياس إلينا في شبابتنا، خيول عابثة...

- إن كنت محظوظاً يا ظاظمي، اصطنع العجوز ذو القبعة اللبادية سعلة، موهماً على العتاب الذي طفا على سطح أفكاره رغماً عنه، - فلن يسمعك الأخوان شقيق وأفمقوه، وغيرهما من الأمراء...

- ما الأمر؟ - انتفض ظاظمي ذو الذقن المدببة من على رأس عصاه، - أليس كلامي صحيحاً؟ هل أجانب الصواب يا لأماف إن قلت إن أولادنا كسالى، وأمرأنا عاجزون عن الحركة؟ ليسمعوا؛ ما أشد اهتمامي بهم! وماذا تريد أيضاً؟
- أجاب ظاظمي جاره بالمزاح على عادته.

- بالله عليك ألا تُخرجني، لا تُلْمَني، لا أريد شيئاً، - لم يرفع لأماف ذقنه عن العصا، بل لم يحركها، - ليسمع شبابنا ومسنونا، بل أمرأونا ونبلاؤنا، إن شاؤوا؛ وهل يمكن أن أوصل حديثنا أنت وأنا إليهم! لم أبداً في سُرْد أفكاري وقلقي من أجلهم، - رفع لأماف الآن جسده وذقنه متكئاً على العصا، فاستند إلى الجدار. وخلع عنه قبعة اللباد، ومَرَّ براحته على الرأس المخلوق حديثاً، ثم عاد ولبس القبعة، - ما يشغل بالي موضوعان.

- أسمعك. - أبعد ظاظمي الحصة بطرف عصاه من أمامه، وأصاخ متشوقاً إلى ما سيسمع.

- أكرر عليك إن كنت تسمع. لا تعجبني طريقة جلوسك. - كم قلت لك ألا تجلس إلى يميني. أنا أكبر منك بعام كامل. سنصم أنفسنا بالعار إن رأنا من هم أصغر منا سناً. سيسخرون منا قائلين: يريّون الناس في الوقت الذي لا يُحسنون فيه التصرف.

- الشمس تغيب، والليل يقترب. - نخض ظاظمي بصعوبة وهو يتذمر، وجلس إلى يسار مَنْ لأمه، - ومن يتشوق إلى رؤيتنا يا رجل؟! ومع ذلك فما حدث لي عجب، بقيت أفكر فيه إلى أن جلستُ إلى جانبك. لا أعرف ما الذي يشدني إلى يمينك. وكيف لك أن تعرف من أين جاء الأديعة بهذا التقليد الخالد؟ لا نعيش أحراراً في ظلِّ ما تفرضه علينا هذه التقاليد.

"جاري، - ضحك لأماف في سره، - كأنه تشوق إلى حريته حين اتخذ طريقه إلى القبر! يُفسد جلسات الجماعات التي ينضمُّ إليها. يجادلهم إن لم يوافقوه. وما أكثر ما ينصرف عنهم غاضباً! وفي النهاية لا يجد غيري وأرومتي القديمة يجلس إليّ وعليها. ولا يغير شيئاً من قناعاته مهما قلت له. يبدل مكانه معي دائماً. يفلت من لسانه الصالح والطالح، وينسى ما قاله. ولكنه، حتى لو دان سوء سلوك الأصاغر منه سناً وخمولهم، فهو لا يتصرف بما يتناسب مع عمره. يصدق عليه قولهم: يقود المركب من الشاطئ، ويسلخ جلد الدب دون أن يدخل الغابة. وأين أذهب به وهو جاري؟ نجد ما نخوض فيه من أحاديث ولو تناحرنا أحياناً فنفرج عن أنفسنا. ولا أعرف سبب تكاسل مَنْ في البيت..."

وفي اللحظة نفسها صدرت رائحة شواء طيبة من جهة الموقد.

- ألا تقول شيئاً يا جارنا الأسن! - سأل ظاظم الذي داعبت رائحة الشواء أنفه، وأضاف بسرعة: - نفذت لك أول مهمة من المهمتين اللتين حدثتك عنهما. وأنتظر الثانية.

وضعت الفتاة الطويلة القائمة ذات السبعة عشر عاماً طبق الشلامه¹ الطازجة أمام العجوزين. وحين صبت لهما من ماء العسل المخمر الذي جاء به الغلام قالت لهما بصوت لطيف صارم:

- تفضلا ؛ أرسلت به نانا إليكما!

- حياها الله يا بنتي، - دعا ظاظم لجارته الصبية السمراء ذات الوجه الصبوح. - ليمنح الله أمكم التي أرسلت لنا هذه المائدة شيخوخة سعيدة بينكم! هيا يا ولدي كلّ معنا من هذه الشلامه الساخنة.

- لا، - أسرع الصبي المتين البنية، ذو الأعوام العشرة بالرد وعيناه نحو جدّه، - لا آكل مع الكبار؛ هنيئاً لكما!

- ما يجب أن تقوله وتفعله يعلمك إياه جدك، حياك الله يا ولدي، نراك رجلاً إن شاء الله!

تابع لأماف راضياً الصبي المنصرف مع أخته، ثم صحا سريعاً، وقال لجاره: - تفضل يا ظاظم قبل أن تبرد الشلامه!

دعا ظاظم إلى الله، ثم طوى قطعة الشلامه دون أن يقطعها، ورفعها إلى فمه. وقال لنفسه وهو يحسو من ماء العسل البارد " هكذا تتصرف معك الأسرة الصالحة إذا كانت تودّ إكرامك أمام الصديق. وهكذا تفرض على الناس احترامهم لك... حقاً مضى وقت طويل على رحيل عجوز لأماف، ولكن أسرته لم تُحجّه إلى شيء. هكذا يتصرف معك الولد والكنّة الصالحان... أما أنا فكان من نصيبي منذ شبابي امرأة طالحة عشت معها تطلب مني المستحيل على مبدأ: "لا تخرج، ولا تُقيم في البيت، ولا أريد أن أراك فيه حين أعود". والولد الوحيد الذي ولدته لي لعبت بعقله، فهرب من البيت، ولا أعرف مكانه

¹ نوع من المعجنات المألحة المستعجلة للضيوف الطارئين. والحواشي على امتداد الرواية للمترجم.

منذ عدة سنين. بعضهم يقول إنه سافر إلى خان القرم، والآخر يقول إلى البسلني، فأسمع أن أرض القبرتاي صارت مأواه. لا يقل عمره عن والد هذه الفتاة وهذا الغلام اللذين جاءا بهذه المائدة إلا ثلاث سنوات أو أربع... أما يزال حياً يا ثرى؟ غريب ألا يُحْبِرنا بشيء... ما عتبك عليّ إن كنت غاضباً على أملك؟ أنا أيضاً لي ضلّع في مشكلته... أنا من سمح لها أن تطلب مني ألا أدعو إلى مضافتي المستنّين من أمثالي، بل ألا أسمح لهم أن يمروا من أمام باب دارنا. تقضي نهارها، لا يكفيها الليل، تأكل وتنام. وما إن تفتح جفنيها حتى تحاجني بلا وعي إلى أن تنفّس عن ضيقها. ليس فيها شيء مما يسمى بالرحمة..."

حين شرب لأماف كأس العسل بعد الشلامه تابع الخبر الذي بدأه معيداً العجوز إلى جوّ الحكاية بسعلة قسرية:

- سأحتتم المهمة الأولى قبل أن أبدأ المهمة الثانية يا ظاخي.
- أمّا قررنا أننا انتهينا من المهمة الأولى يا لأماف؟! أعتبر الحديث في مسألة العلاقة بين الكبير والصغير كافياً لهذا اليوم وللأيام القادمة.
- إذا كنت لم تستوعب إلى الآن ما تعنيه تسميه مسألة العادات التي لا تدعك تعيش على راحتك فلا أعرف وقتها ماذا أضيف... أوافقك على رأيك في أن الإنسان يجب أن يعيش حراً، ولكن تلك الحرية يجب أن يحرسها وازعج ما ويحميها. ما الفرق بين البشر والوحوش والحيوانات إن لم تكن بين كل شخصين، رجلين أو امرأتين، من أي أسرة ومن أي عرق كانا، ناظمٌ للعلاقة بينهما؟ هل تعرف ما سيفعل الغلام والفتاة اللذان جاءا بالمائدة إن أطلقنا لهما العنان دون تربية؟ يجب أن تجمعنا العلاقة التي بين الأب والأم، والاستقرار الذي بينهما، وتلصق أحداً بالآخر. يسرني أن تكون فطنة الكنة التي أرسلت لنا المائدة منها نفسها، هي ربيبة أسرة، ثم ربيبة أم، وربما اتخذت من أخلاق حماة العجوز قدوة ما. وربما ما نسميه "الروح الأديغية" هو التراث الذي ورثناه من مسنيننا، وهو ما يمدّنا بالحياة في هذا العالم المضطرب. وهل قليل من غزانا، ومن اندحر من بلادنا؛ وكذلك نحن لم نستقرّ. لا ننسى إلى الآن رغم انقضاء قرون سهيل حصان "بقان" الذي كان جاءنا من الغرب. ولا يفارق وقّع

حوافر خيل النغوي الذين نجونا من نارهم آذاننا وقد مضى عليه قرنان. هل تدري ما الذي نَجَّانا من أمثال تلك الأهوال، من الطاعون والكوليرا¹؟ رجولتنا وأديغيتنا!

- صحيح، حقاً يا كبيرنا المبارك؛ أوافقك: - صاح ظاظمي وطرف قلنسوته الجلدية المدببة يصغر. - كان والدك وجدُّك رجلين حكيمين. وهل كان الأمير العظيم شَبَق استمع إلى أغاني النارتيين وسَيَّرهم في مضافتك لو لم تكن هكذا؟! كلامك كله صحيح، لا تزيُّد فيه. ماذا قلت لي وضَفَّهم للصدق وللكذب؟ مهما كررت هذا القول المأثور لم أستطع الاحتفاظ به في ذاكرتي.

- الصدق يظل ينتصب أمامك ولو تصورت أنك تخلصت منه، والكذب يهوي في مكانه مهما حاولت.

- حقاً والله، حقاً. لن يصف أحدُ الصدق بأفضل من هذا. - شهد ظاظمي على صحة ما سمع. " انظرْ إلى ذكاء هذا الرجل ؛ لن تستحق أن تنتزع منه صدارة المجلس مهما أصرت ". ثم انتصب خيال عجوزه أمامه فجأة فتنهد:

- لأجل هذا قالوا: خذ الأم مثلاً قبل أن تتزوج من ابنتها... هذا قول مأثور أيضاً... - كان يود أن يمؤّه بهذا الكلام على ما خطر له نحو العجوز، ولكنه لم يستطع إلا أن ينادي محادثته: - والموضوع الثاني؟ أظنك أسهبت قليلاً في الموضوع الأول.

- ربما أطلنا الكلام على الموضوع الأول، - ضاعت ضحكة لأماف بعينه السوداوين المستديرتين تحت الأطراف الواسعة لقبعته اللبادية، وهو يحاول أن يكتم اختلاج عضلات وجهه، - ولكنني أظن أننا عاجزان عن إيفاء الموضوع الثاني حقه ولو سهرنا حتى الصباح. إذا كنا عاجزين على قول الأمير شبق عن فهم ما يجري في إقليم الأديغة السهلي - الجبلي، في نواحيها فكيف لنا أن نفهم ما يجري في البلاد الأخرى. أقصد ما جرى في ما وراء البحر؛ ألم تسمع؟

- سأجيبك إن أخبرتني به. - عبث ظاظمي بطرف العصا بين ركبتيه، واحتسى من كأس العسل بين يديه، وسأل باستخفاف عما سمع: - أيّ بلاد من

¹ ربما هما رمزان للمصائب لشدة ما عانى الأديغة منهما.

الاثنين تقصد؟ تركيا أم القرم؟ أوافق على قول العجوز المدببة الرأس في بيتي قبل أيام: لا مصلحة لنا مع أيٍّ منهما.

- إن كانت عجوزك سراس لها هذا الرأي في ما سألت عنه فلا بأس أن نتجاوز الموضوع. - ضحك لأماف باستهزاء وهو يمسخ براحتيه على لحيته السوداء وشاربيه.

- إن كنت تمنح للثروة التي في بيتي كل هذه الأهمية فأنت مخطئ. - استعجل ظاظمي، وسرعان ما سحب كلامه خائفاً أن يصل إليها: - أنا أسقّه دائماً من في بيتنا، ولكن عقلها يتجاوز طرف ثوبها، فيصل إلى مكان ما. ومع أي شاهدٍ على أنها لا تفارق بيتها فهي تحفل متى أتوا على ذكر خان القرم. وهو من تُخيف به أحياناً، لا أنا ولا غيري، الآخرين.

- لا عجيب في ما قلت عني وعن عجوزك. خان القرم ظالمٌ. وهو نهاب للأديعة، وهل قليل ما غرانا ونهبنّا؟!

- نعم نعم يا لأماف، يأتينا في العام مرة أو اثنتين طالباً للإتاوة. وإن امتنعنا سلبها منا بالسلاح. هل نسيت أيام شبابنا؟ لا تزال مواقع سياطهم وسيوفهم على أجسادنا. ليت الطاعون خلّصنا منكم أيها القذرون!.. ولكن ليس هؤلاء الموضوع الذي لا تكلّ من في بيتي عن سيرتهم. بل كنّتها وابنها.

- هكذا؟! - تظاهر لأماف باستغراب ما سمع. ولكنه تابع بإصرار أعظم:

- حين لا يتفق الرجل وزوجته فهو موضوع لا يقلّ خطورةً عن قضايا البلاد. ولكن هذا صعب أن يقال عن تركيا وخانية القرم. خان القرم هو سوط تركيا علينا. تطلب منه أن يلوّح به ضدنا فيرفعه. وإن طلبت منه ضربنا فعل.

- طبعاً، على رأي شبق وأفمقوه، ما سبب جلاء القبرتاي في رأيك عن ساحل البحر الموطي¹ إلى الشرق؟

¹ هو بحر آزوف. والموطي أو الميوبي تسمية إغريقية، لأن الموط، وهم فرع من أربعة فروع للأديعة وقتها: القسوغ والموط والزريخ والحكوف كانوا يسكنون على شاطئه. واسم بحر آزوف الذي يستعمله المؤلف أحياناً تسمية أديعية أيضاً بمعنى الفم الضيق كما هو شكله.

- وربما كان هذا أحد الأسباب، ولكني لا أظنه الوحيد... أظن أن الفرقة بيننا هي سبب دمارنا. يقال إننا لسنا وحدنا في هذه بل يعاني منها القبرتاي أيضاً. تنهد لأماف متألم القلب، وأضاف شاملاً كليهما في الموضوع: - يا حسرتي أيها الأديغي الصغير صاحب القلب الكبير، كما كان يقول جدّي، ما أشد تناثرك في أصقاع الأرض، لا تنفع راجلاً أو راكباً!
_ أضف إلى كل ما قلت: أيها الأديغي المنحوس!

- وهذا وغيره ينطبق علينا. يُقنينا ترئّص أحدنا بالآخر بدلاً من أن نوقف بين أهل البيت ونجمع الأديغة على رأي واحد. نفق على رؤوس أصابعنا، ونرفع أجسادنا عن ركاب الحصان نبحت في أصقاع الأرض الأربعة، شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، كأن أحداً سيدعوننا إلى مأدبة، ولا نرى ما يحدث عندنا.
كان ظاظمي كمن يريد أن يستمع إلى لأماف الذي يتحدث عن آلام الأديغة غير أن ما كان في ذهنه هذه اللحظة أمرٌ آخر. لم يكن يعرف كيف ستستقبله عجوزه متى عاد، ولا المائدة التي أعدّها له، ولا إن كانت ستجلس في مواجهه أم ستدير له ظهرها المحني. "العالم عالمٌ، ولكن إن غاب التفاهم عن أسرتك نسيّت إنسانيتك وأديغيتك... كنا رأينا ما يحدث لك أنت أيضاً لو لم تكن أسرتك هادئة وتحلّ بالأخلاق. وأنا كنت ترتب عالم الأديغة ومشكلاتنا مع خان القرم، بل مع تركيا أيضاً، لو وجدت وسيلة للتفاهم مع عجوزي الحية الرقطاء... " - سرّح ظاظمي نظره نحو الغابة الكثيفة محاولاً العثور على طريقة للخروج من أفكاره، وتظاهر بالحنين إلى صوت البوم الذي انقطع:
- ربما سمع الطائر شكوانا فخرس.

- ليس هذا مستبعداً... - ضحك لأماف، ولام جاره: - أظن الطيور كفت عن التغريد الليلة فحسب! - الليلة التي تعقب النهار عقلت لسان الطائر فبكى مع الشمس الغائبة. عجيب أنك لم تنتبه إلى هذا، لو سألت صبيّنا لأجابك.

- لا بأس، قلت ما قلتُ وانتهينا!.. - غضب ظاظمي، وأنهى بعتاب. - لا ترني في عقل الصبي الذي لم يولد بعد. حسناً، الظلام يحلّ، أنّه ما بدأت فيه

قبل أن ينادي اليوم، وتستدعيني العجوز. وصلاة العشاء اقتربت، بالله عليك
أليس للموضوع الثاني نهاية؟ اختتمه!

- إن كان هذا رأيك أيها الجار فلن أعارضك. السلطان التركي سليمان حسم
الأمر باختصار، مصطفى ابن الأديغة الذي كنا نتأمل أن يصبح سلطان تركيا
أمر والدّه سليمان بإعدامه.

- هذا مستحيل!.. - صرخ ظاظمي من هول الخبر الذي سمعه.

- جرى ما جرى وانتهى. الأديغة في الشمال والجنوب لا يقبلون ما فعل بابن
ابنتنا. وأنت، لا أعرف أين كنت إلى الآن. أرسل سفراء من الأديغة إلى تركيا
وإلى القرم. ولكن لم يُسمَح لهم بالاقتراب منهم. أجابوهم: " وهل عجيب إن
كانت ابنتكم زوجة للسلطان التركي؟ كان عليها أن تربي ابنها مخلصاً لوالده
غير طامع في الحكم. الأفضل أن نُشرككم في موضوع سلطاننا بدلاً من أن
تتدخلوا في شؤوننا بهذه الذريعة ".

- والله ما أسمع عجب!.. - كيف لم أعرف إلى الآن؟! أنا متأخر دائماً عن
غيري... والله لن أقبل منهم هذا يا لأماف ولو لم يبق غيري!
- هذا ما جرى وإن لم يُعجبك. أطلعُك على الخبر.

وفي اللحظة نفسها صدح من وسط القرية صوت المؤذن بمنطّ، يتعالى ويخفّ،
إلى السماء المظلمة بلا نجوم. وبدأ اليوم يصيح من قلب الغابة الكثيفة كأن هذا
الصوت أيقظه. وأرسل المؤذن نداءه "الله أكبر، لا إله إلا الله" إلى أربعة أصقاع
الأرض.

- توجّساً لننتقل معاً إلى صلاة العشاء! سنقف في حضرة الله تعالى، ونشكو له
ما يفعل بنا الترك والقرم المسلمون. أتأمل أن يتفهم الله موقفنا تجاه من يرتكب
الجرائم. وهل اعتنقنا دينه عبثاً!..

II

لو لم يوقظ صهيل الفرس قلّقت لنام إلى الآن. جعله الصهيل الثاني يقفز بكل
ضحامته من الفراش. مدّ يده فرعاً إلى تحت الوسادة وانزع الخنجر. ولما هرع
إلى أرض الدار فهم أن شمس الصباح المتأخر فيها هي من أفرعت الفرس. أغلق

باب إسطنبول الخيل. الدار هادئة، والشمس تنظر كسلى من وراء أشجار الفاكهة أمام البيت. وصوت السندان لا ينقطع من عند الجيران. ومع صوت السندان صوت المجرشة.

"فهمتُ يا صاحبي، فهمتُ ما يُقْلِقُك، - عاد قلقت فارتدى ثيابه باسمًا. لم يتحقق لنا ما كنا نسعى إليه أمس وأول من أمس والأسابيع القليلة الماضية... ما العمل، بقينا نقول إننا أمسكنا بذيل وَتَنَعِ الأعرج حتى اختفى عنا لا نعرف كيف. وكل مرة يجلب للناس المأساة التي تسبَّب لنا، أنت وأنا، فيها. هل شعرتُ حتى في ظلام الإسطنبول بالنهار الجديد الذي حلَّ علينا؟ هل تظن أنه سيحمل إلينا فرحاً ما؟.."

خرج قلقت ينحني قليلاً تحت عوارض الباب المفصَّلة على قياس والده الضخم. مرة أخرى ها هي العادة التي كان يلاحظها على والده منذ الطفولة سواء كان الجو صاحياً أم ماطرًا: يقضى بعض الوقت على المسطبة يتأمل الطبيعة حوله ويدعو لنفسه: كانت ليلتنا هادئة، فليكنْ نهارنا أيضاً آمناً. وانتصبت أمام مخيلته وهو يقلِّب الجمرة المخبَّأة تحت الرماد ذكرى أمِّه تشعل نار الموقد، تنثر الحب أمام الدجاجات، وأخته الصغيرة تلاحقه بإبريق الماء الذي يغسل به وجهه. لم يبق لقلقت غيرُ الذكريات. مضى على وفاة والده خمس سنوات، ومضى على لحاق أمه به أربع أيضاً. والفرحة الوحيدة التي كانت بقيت له وهي أخته داريه التي لم تتجاوز الحادية عشرة، اختطفها وَتَنَعِ الأعرج¹ في ربيع العام الماضي وباعها لتاجر من النغوي. وما بقي لقلقت الآن من داره وجوارها هو فرسه. ومنذ عام لا يعرف هو وإياها التوقف بحثاً عن المجرم وتنعِ الأعرج. وهو يأمل إن وجده أن يهتدي إلى الطريق إلى أخته. وهذا الأمل هو ما يمدّه بالحياة، ويمنع عنه اليأس.

يقول قلقت لحصانه وهو يفتح الباب:

- لماذا لم تعد تستقبلني بصوتك يا صاحبي؟- والآخر يتأمل به بأذنين مشرعتين وعينين باسمتين. ويخبط الأرض بقائمه الأمامية اليمنى كأنه يكلمه. - شكراً

¹ ليس اسمه الحقيقي، بل لمزٌ يعني سارق السروج كما سيأتي في موضع آخر من الرواية.

لك فهمتُ ما تريد أن تقوله لي. ولكن استرح اليوم، لا مشاوير أماننا. سأرويك حالاً ماء بارداً من النبع، وأطعمك شيئاً من الشوفان. وأطلقك في أرض الدار تتشمس فيها. أرهقُك هذا الشهر. يكفي ما قضيته في الغابات من ليال مظلمة.

بحث قلقْتُ عن شيء يفطر به حين انتهى من خدمة الفرس. غلى ماء الشاي بسرعة على نار الموقد، وقطع ما يكفي من لحم فخذ العجل المعلق بالمدخنة. وها هو يأكل اللحم مع الخبز غير المختمر اليابس وهو يبلله بماء الشاي. يأكل على مهل وإن لم يكن على مائدته شيء يُذكر. وصوت السندان لا ينقطع من محددة الجيران. في حين انقطع صوت المجرشة كأنهم انتهوا من جرش الدُخن.

كان والدي المرحوم يقول: " لا تحسد أحداً! أسسُ أسرتك بما تكسبه بقوة جسدك، وبعرق جبينك". - ذكره الصوت الصادر من محددة الجيران بوالده مرة أخرى. - أغبط جيراننا الأخوان فنشقوقه، لا أحسدهما، يا والدنا. الأمر الوحيد الذي لا أقبله منهما هو لقب الأمير الذي يُناديان به، لا عتب لي عليهما سواه. حيّاهما الله، لا يعدّاني غريباً. لا يزالان يسهران على حياتي وراحتي. لا يحرماني مما يُعدّان من طعام، ويزورانني، وأزورهما. ويساعدني فلاحوهما¹ في الاعتناء بالدار إن كنت حاضراً أم غائباً. وإن قررا ألا يُطلعاني على ما في قلوبهما فهما حرّان إذ لستُ قريبهما من جهة الأم أو الأب. من حسن حظي أن " أدبغيتهما " فوق كل اعتبار لهما. يحافظان على القول المأثور: الجاران مثلُ فردتي البنطال لا يستغني أحدهما عن الآخر. ليسا مثل من تسببا في قولهم: يظل يسأل عني ما دمْتُ في خير، وإن كنت في شدةٍ لم يسأل عني... حسناً، كفاني ترتيباً لأُمور الجيران! " - نهض عن المائدة يلوم نفسه معتمداً على

¹ بلغة الأدبغة: فقولاً. وترجمتها الموسوعة الفرنسية بالفلاحين الأحرار، ويمكن أن يقال: عامة الشعب. واضطُررت إلى ترجمتها بالفلاح لأن من الصعب أن نقول في النداء بخاصّة: "أيها العامي". ويبدو في روايات إسحق ماشباش، ولاسيما في "خان جري"، أنه كان لهم ارتباط ما بمالكي الأرض.

فخذيهِ براحتي يديه. ودخل دار قنشقوه وطُرُق السندان في أذنيه. وصل إلى الورشة، ووقف عند الباب.

– يعطيكم العافية يا جماعة! دعا قلقت للأخوين بصوت أجشّ.

أوقف شبق المطرقة الثقيلة قبل وصولها إلى السندان، ووضعها على كتفه، ثم استقبل ضيفه بوجه طلق:

– جُزيتَ الخير يا قلّئت. لا تقف على العتبة، تفضّل! تحجب الضوء عن الورشة. أضحكك مزحّة الكبير أخاه الأصغر أفمقوه. وضع المطرقة على السندان، وصافح الضيف محتفياً به. رفع قلقت صامتاً المطرقة الكبيرة من كتف شبق، وتفل في راحتيه، وقال لأفمقوه:

– أعدّ سكة المحراث إلى الملزمة، وسأشكلها لك كما تريد. – ثم غمز الأخ الأصغر، ونظر بطرف عينه إلى الأكبر. – لا تزال تلعب بالمطرقة الكبيرة منذ الفجر فاسترخ قليلاً... ما الذي جرى الآن إذن، أفموق حداد، وأنت ضاربُ مطرقة؟

– أخي صار أمهر مني في الحرفة. – ابتسم شبق راضياً. – العادة منذ الأزل: الأصغر يقتدي بالأكبر، ثم يسبقه. ما يخرطه أفمقوه من سكك الحراثة يسقيه بأفضل مما كنت أفعل، فتغدو أقسى.

– هذا يتبين حين يبدأ موسم الحراثة، – أجاب قلقت وشرع يطرق السكة مائلاً الورشة ضحيجاً.

انتهوا من صنع السكة وبرّدوها فأخذها شبق ليستنّها. وانصرف قلقت فشيّعه أفمقوه.

– إلى أين الآن؟ – نظر الصديق في وجهه لاوياً رأسه، وفي صوته نبرة سخرية خفيفة. – أما أعلنت أنك ستنام الليل والنهار ولن تخرج من البيت؟

– ولكنكما أيها الأخوان لم تدعاني أنام. بدأتما قبل طلوع الفجر تصدعان رأسي بصوت المطرقة. – شاكس قلقت الجار بخليط من الجد والهزل. – ويضاف إليه صوت المسنّ... أجبرتني على النهوض.

– لا أعرف إن كنا نحن من يحرمك من النوم، – يحاول أفمقوه تبرئة نفسه. – نبّهنا، أنا وأخي، صهيل حصانك فرفعنا رأسينا مراراً لا نعرف السبب.

- حسناً، كفى، هذا كله مزاح، - أعاد قلقت الحديث إلى سراطه الذي يريده.
- أودّ أن تسافر معي هذا المساء إلى قرية ترام - إن كان لزيارة الأنسة نُكُر
فبكل سرور. - وافق الصديق دون أي اعتراض.

حدد قلقت الوقت مسروراً بجواب صديقه:

- لنخرج من القرية قبل حلول الظلام، فنصل في حدود المغرب. - وبعدما
شرع في المسير توقف وتابع الصديق قائلاً: - لا أريد أن يعرف أحد سبب
زيارتنا. لا تدعني أطرق بابكم، تعال أنت. أنا سأعرج قليلاً على ظاهر القرية.
كان قد عاد إلى ذاكرة قلقت تعقبه ونتغ الأعرج حين أيقظه صوت حصانه
فوجهه نحو بيت زأكجي في طرف القرية. لم يصادف أحداً في الطريق حتى
تجاوز التبة الصغيرة غير العالية في شمال القرية إلا الغلام راعي الغنم. ثم تلتته
المرأة النحيفة السمراء التي كانت تُعيد الغراب إلى الجيران، فدخلت الدار وهي
ترد على تحيته. وجانبه صبيان مع تحية الصباح.

رأى قلقت زأكجي وهو يُقطع الحطب الناعم أمام الزريبة فاعتمد على السور
مرتاحاً لعدم اضطرابه إلى مناداته وإخراجه من البيت، واصطنع سعلة. التفت
المضيف الرشيق ذو الأنف الأقي والعينين الواسعتين، الذي كان يعجز أقوى
الرجال عن مصارحته منذ شبابه، وبدا على صوته شيء من الارتعاب وإن رسم
على شفثيه ابتسامة خفيفة. غرز الفأس في الأرومة وتوجه إلى السور:

- لماذا وقفت بعيداً يا قلقت؟ ألا تتفضل! - وتظاهر بالشكوى وهو يسرّ
صوته: - أنا المسؤول عن كل شيء، ليس في ذهن الولدين إلا اللعب...
أرجوك أن تتفضل.

- لا، لن أدخل، - حسم قلقت الأمر بصوت بارد وسحنة عابسة نوعاً ما، -
يجب أن تكون عرفت سبب مروري بباب دارك. أعرف أن ونتغ الأعرج من
أصحابك. إن كنت لا تبحث عن مشكلة فدلي على أثره.

وفي اللحظة شحب وجه زأكجي، وجحظت عيناه الواسعتان ساهمتين.
واختلجت عضلات وجهه. وترجاه بنبرة مسكنة وتضرّع:

- السماء تشهد لي يا قلقت على أن عيني لم تقع على ونتغ منذ أكثر من
سنة. قلت لي إنه صاحبي فلا أكتمك أي سافرت معه بضعة مرات، غير أنني

هجرتة لما عاينت سلوكه الإجرامي. أستحلفك بالله، وأتوسل إليك بشخصي، وراعٍ ولدي، وراعني أنا، ولا أريد أن آتي على ذكره، لن أرافقه أبداً في خير أو شر. وإن سمع أُنِي تسببتُ له بالأذى فسيختطف مني ولدي الراعي فينكبني.

- إذا كنت تخاف على ولدك أفليس اختطاف أختي الصغيرة وبيعها لتاجر من النغوي أمراً مهماً؟! - نهر قلقت المضيف بأعلى صوته، واقطلع العمودين اللذين يمسك بهما كعودين، ورمى بهما. وتراجع زأكجي مدعوراً، وخاطبه متلعثماً:

- الله شاهدي يا قلقت على أن لا علاقة لي بموضوع أختك، وأني تخلت عن رفقة ونتغ. وأنا حزنت جداً لما حصل لأختك.

- كفى يا زأكجي، صدقتك. - اكتفى قلقت من إنكار المضيف بهذا القدر، - ولكن أخبرني إن صدف أن قابلته. لن أبرك في ما سأفعل. سأكتم نفس هذا القدر إن عاجلاً أم آجلاً.

حين اتخذ قلقت طريق العودة لفت نظره إلى البحر الريح الباردة المالحة التي غرث أنفه. وتطلع إلى السماء قلقاً من أن تُمطر في الموعد الذي حدده مع صديقه للتوجه إلى بيت الفتاة التي يريد خطبتها. كانت السماء مغسولة الوجه، مضيفة زرقاء العينين، عالية، لا أثر لغيمة فيها من أي جهة. وارتاحت نفسه لتجهّم السماء قبل المطر ومداعبة الريح الباردة الخفيفة لوجنتيه. ووصل إلى بيته وهو يراقب من يقطفون عرائيس الذرة، ومن يقتلعون سوقها ويصقونها، ومن يقومون بأعمال أخرى في بساتين الدور، ويقارن بين هذه الأعمال.

كان لا يزال أمامه وقت طويل قبل الذهاب إلى خطبة الفتاة. ارتى قلقت في الفراش بلباسه ليكمل نومه أملاً في أن يرتاح قبل السفر، وأن يبدو في مظهر مقبول أمامها. لا يتحرك من مرقده، رأسه بين راحتيه، وعينه معلقتان في السقف. لا يفكر في شيء أملاً في أن يغفو قبل أن تغزو الأفكار رأسه. ولكن ما إن يغمض جفنيه حتى تنتصب أمامه نُكُر، الفتاة التي في مستقبل العمر، الصبوح المتناسقة القوام، تختار من خجلها أين تضع يديها.

"لن تقبل بك أي فتاة من زيارة أو اثنتين" نصح قلقت نفسه طمعاً في أن يرتاح. "إفرض إن أطلعنك على سريرتها بعد أن تعبد الطريق جيئة وإياباً من

عندها. ما العمل إن حسمت الأمر بالرفض التام؟ لم أفكر في الزواج إلى الآن، ولم أهتم بأي فتاة. إن أزاحتني أول فتاة خفق لها قلبي امتلأْتُ غضباً وأفناني الشعور بالخزي. - ارتعب قلقت من هواجسه وانتفض بجسده الضخم، وفكر بعدما انكمش على نفسه شاعراً بالضالة حانياً الرأس: - وأنا أعرف نفسي فلا أفخر بوسامتي ولكني لا أجد نفسي قبيحاً. أنا مثل كل الذين يتزوجون. وها هم كثير من الرجال القميئين في قريتي تزوجوا من أجمل النساء. وماذا ستنقص من ينكر وأبواها، ولأماف الزعيم الطيب؟ في أسوأ الأحوال لستُ شريراً ولا لصاً، أساعد بقدر طاقتي كل من يقع في ضائقة. وإذا كنتُ بقيتُ وحيداً بلا أسرة فهذا أمرُ الله ومصيتي أنا. ألا يجوز أن تعجبها وحدتي؟ ربما يشجعونها بذريعة أنها ستؤسس أسرة وحدها دون أن يكون هناك من يناكدها وتناكده؟.. " أخرجته الأفكار المتصارعة من الغرفة. ولما اقترب من باب جناح المواشي جاءه حصانه ينخر ويهز رأسه، فلاطفه ماسحاً على جبينه. وحكَّ أصول أذنيه، وامتدحه. وبعدها فارقه، وبقي في الدار وقتاً غير قصير، دخلت الدار مینسورا ابنة شبق ويدها طبقان، ووراءها صبية تحمل طبقاً ثالثاً، ودلفتا إلى البيت دون أي كلام ووضعتا الصحون على المائدة وخرجتا. ثم قالت مینسورا بصوت ناعم:

- فات موعد الغداء يا قلقت ؛ لماذا لم تأت إلينا؟ ملّ تات من انتظارك فأرسل لك هذا القليل من الطعام.

- لا أعرف كيف مضى الوقت وأنا أجوس في الدار، - أجاب قلقت الفتاة كمن يبرئ نفسه، ولكن بدا على صوته ارتياحه للفتهم عليه. كان مع عصيدة اللحم باسماً من الدُخن فأقبل عليهما برغبة إذ لم يذقهما منذ وقت غير قصير، وأتبعهما باللبن الرائب البارد. قال لنفسه: " الآن سأجهز حصاني كي لا ينتظرنني أقمقوه متى انطلق "أنا صاحبُ الشأن، لا هو، فلا كنّ جاهزاً!"

ليست المسافة بين قريتي قَنَشَقوه وترام بعيدة. كيف يسافران عدواً كأنهما مطارَدان في حين أن الطريق بضع غلوات حصان فحسب. التفت قلقت نحو الشمس الآيلة إلى الغروب، وخيل إليه أنه يرى صديقه، والحصان يعض لجامه

بعدما أدرك أنه على طريق سفر، وينكش الأرض بحافره، فيزيد قلق صاحبه الشاب.

ظهر أغمقوه من وراء السور، ملتصقاً بسرجه، معتداً بحصانه الأزرق المختال. فقفز قلقت إلى صهوة حصانه كالعصفور خلافاً لما توحى به جسامته. ودار حول مؤخرة حصان الصديق الأكبر سناً، واتخذ مكانه إلى يساره.

غادر الفارسان القرية هوناً دون أن يتبادلا الكلام. ثم انتقلا إلى الخشب خارج القرية. وبعدما قطعوا مسافة رفع أغمقوه كتفيه وقال:

- دعنا نعدو، حصانانا يرغبان فيه!

ودون أن يجريا وقتاً طويلاً عادا إلى الهون، ابتسم أغمقوه بخفة وقال لقلقت:

- انصب سلماً للطريق يا صديقي¹! نسير صامتين كأننا محرومان من اللسان.

- أنت أحقُّ بهذا، - قابله قلقت بضحكة سطحية جامدة. أنا لا أعرف كيف ستستقبلنا نكراً ولذا تتصارع الكلاب في قلبي.

- ما هذا القلق؟ لم أتصور إلى الآن أن هناك ما يُخيفك. - ضحك أغمقوه من

أعماق قلبه، - أظن هذه الصبية الرقيقة هدّت كيائك ؛ حقاً؟

- لا أكتسك، هذه حالي، - قال قلقت جاداً. - متى صرّحت بأنها لا تنوي

الزواج مني أو من غيري فلا تشكّ في أنها لا تريدني!

- لا يبلغ بك الخوفُ هذا المبلغ، ولا تتوقع الأسوأ بوجود الأحسن، - نصحه

أغمقوه بعدما هدأ، - وهذا سيجري كما قدّر الله. حسناً ما رأيك في مؤتمر

الأديغة القادم؟ قومنا يفقدون كل قوتهم في مواجهة الترك والقرم والنغوي.

كثيرون يودون التوجه نحو روسيا.

- وأنت يا أغمقوه، ما رأيك؟ - سأل قلقت حذراً دون أن ييوح بما في ذهنه.

- أنا من رأي أخي الأكبر أمير الجان الكبير²، وكيف أخالف أمره، - لم يجرو

أغمقوه على البوح بتردده حيال روسيا، ولكنه أضاف: - إن أذن مؤتمر الجان

¹ يُقصد بنصب السلم تزيئة الوقت في الأسفار بالحكايات أو الألغاز.

² يُنطق الاسم، وهو أحد فروع الأديغة، بألف مماله على النون، كما في القراءة القرآنية لاسم "الضحى": ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾، وكحرف ع في الفرنسية.

فهو يستعد للسفر. كل ما لا تعرفه يَحْيَلُ إليك دائماً أنه ذئب يترصد بك. إن شاء الله سيتبين روس مَسْكُو¹ عمّا تتأمله منهم.

- ألم يكن منهم الأمير الكبير مستيسلاف الذي صارع الأمير الكبير ردد؟ - لم يملك قلقك إلا أن يسأل وإن كان يتجنب الإساءة إلى مشاعر صديقه. - والذي سرعان ما أسرع في طلب الإتاوة من الأديغة الذين كانوا فرحين وقتها بأنه أزاح عنهم الخزر اللصوص.

- متى جرى هذا يا صديقي، - أجاب أفمقوه دون أن يُبدي استياء أو شعوراً بالإهانة، - كان الوضع آنذاك مختلفاً، والناس غيرَ أناس اليوم. - في كلامك نصيب من الصحة، - وافق قلقك، - سنتأمل الخير ممن تظن فيه الخير...

وصل الفارسان إلى ظاهر قرية ترام فانتقلا من الخبب السريع إلى مشية الهون. وقبل أن يصلا إلى منزل لأماف تماماً اقتربا من الفرسان الثلاثة المنصرفين من مربط الخيل، يتوسطهم رجل كهل، وألقيا عليهم التحية.

- وهؤلاء أيضاً كانوا عند نكر يخطبونها. - قال أفمقوه مومناً برأسه إلى الفرسان الذين صاروا خلفهما الآن. ولما رأى صديقه قد امتقع وجهه، أسرع بُنْصِجِه: - لا تيأس، لا منحني الله فتاة لم يكن عندها خطاب كثيرون!

وحالما ترجل الفارسان عند المربط ولم يمض الكثير على انصراف الثلاثة غضب لأماف في سرّه وهو ينظر عبر النافذة: "لماذا لا يهدأ هؤلاء وقد هَرَّوْوا أقدامهم؟! لا أعرف أن في بيتنا فتاة في سن الخطبة. وهل يجوز أن تطمع في نكر الصغيرة إن طالت قامتها كعود طري! أقول هذا ولكن جارتنا الصبية من عمرها أيضاً ومع ذلك فهي متزوجة. جانبنا الحظ ؛ لو كانت عجوزنا على قيد الحياة لنصحّتها ألا تتسرع في قراراتها".

وفيما يراجع العجوز أحزانه دخل الشابان إلى غرفة الفتاة. جلس أفمقوه منتصباً في حين انكمش قلقك على نفسه، يكاد لا يتنفس بانتظار الفتاة. أشار أفمقوه إلى صديقه دون أن ينطق بكلمة أن يعتدل بجسده. وفي هذه اللحظة دخلت

¹ النطق الأديغي لموسكو. وسنعود في ما تبقي إلى تسميتها موسكو.

نكر برفقة أخيها الصغير، ورحبت بهما. ولما نهض الشابان تورّدت وجنتاهما خجلاً، ورجتاهما الجلوس. ووقف الغلام ذو الاثني عشر عاماً يتفحص الشابين كلاً على حدة بعين حادة، وكأنه يريد أن يكتشف معدنهما.

- اجلسي يا نكر، لا بد أن من سبقونا أتعبوك بالوقوف. لن نعتب عليك إن جلست. - خاطبها أقمقه بصوت هادئ وعلى شفثيه ابتسامة. وبدأ يغازل لصديقه دون ماطلة: - سمعنا أن نصف قمرٍ سقط على سطح بيتكم فجئنا يا نكر. وأنت ما رأيك في هذا؟

- لا أطلب منكم القدوم وعدمه. خفضت الفتاة رأسها، وأجابت والقلق بادٍ عليها، - ولكن أليس الأفضل أن يمتلئ القمر؟ - كما أن الخوخ غير الناضج مُرٌّ فكذلك ما مضى موسمه صعبٌ أكله. - ارتفع صوت قلقت القوي.

- وكيف تعرف هذا يا صديقي؟ - امتلأ أقمقه فرحاً بكلام قلقت. - لن تفحصه كل يوم ؛ أليس كذلك؟

- الجيران وأهالي القرى المجاورة يكتشفون من آن أوأها قبل أن ينتبه إليها أهل البيت. - أوضح قلقت مرام كلامه.

- هذا صحيح، - أعجبت نكر بالكلام الموارب المليء بالحكمة، وألقت نظرة دافئة على قلقت، ثم أضافت: - ومع ذلك فأنا على كلامي. لا تؤكل فاكهة قبل أوأها.

فهم أقمقه أن هذا الجدال لا نتيجة له، وأنهما لا يستطيعان استدراج الفتاة إلى ما يريدانه فاستعجل قائلاً:

- يا أخي الصغير، أتحرق عطشاً، ليتك جئتني بكأس من الماء!
انصرف الغلام النشيط لجلب الماء قبل أن يُثم أقمقه كلامه، وترك الباب مفتوحاً وراءه، فتضاحك الجميع: نكر والأصدقاء، وقال قلقت:
- عندك أخٌ فطنٌ، مليء حكمة وانتباهاً. منحه الله حظاً مستديماً، سيكون رجلاً!

- لا يزال من المبكر الحكم على مستقبله، - لم تجد نكر من اللائق امتداح أخيها الصغير. - أفرح إذ أرى في ججان طباع جده.

- ليتك أسمعنا كلاماً يُفرحنا يا نكر! هذا الجالس إلى جانبي ترينه كرجل الغابة مظهرًا، ولكن صدره لم يعد يتسع لقلبه. - استلم أقمقهو زمام المبادرة. - إن فتحت نافذة لأمنيتنا عدنا والدنيا لا تسعنا من الفرح.

- اطلب من صديقك يا أقمقهو أن يمسك قلبه في راحة يده. - تكلمت نكر الآن بجدّ، - وأنا عندي قلب، ولكن لا أفتح له لكل من يأتي. إن كان قلقت لا يُطيق صبراً فلا يتأخر من أجلي. ليصبر على نضج الخوخ الذي تكلمت عليه.

- أنا لا أُلح على اليوم أو الغد. - استعجل قلقت وقد هيج كلام الفتاة قلبه، - سأنتظرك سنة أيضاً، بل سنتين وثلاثاً حتى تري الوقت مناسباً. ولكن هؤلاء المترددين على مضافتك يُقلقوني.

- الفتاة المهذبة خطبها كثيرون. أليس صحيحاً يا نكر؟ - ضحك أقمقهو وقد عاد إليه الفرح.

- لا أزال بعيدة عن هذا الوصف... - مرة أخرى توردت وجنتا نكر البيضاوان.

وفيما الخاطبان ينهضان وقد امتلأ اعتداداً مدّ الصبي العائد كأس الماء إلى أقمقهو.

III

تناهت جلبة الخريف المتأخر قرية ترام التي كانت آخر من يعلم بما يظهر من مآس في أرض الأديغة بعد أن يكون كل شيء انتهى. في وقت بين الصباح والظهيرة تدخل مجموعات من الفرسان عبر الشارع الوحيد في شمال القرية، وتخرج من جنوبها وهي تجمع الفرسان.

- ما الذي يجري في القرية؟- ينتزع العجوز طاظي الخنجر والسوط من على الجدار، وتخرج وراءه زوجته سراس وعلى رأسها غطاؤها الكبير، وتصيح من المسطبة ويداها على خصرها، وحقدتها يغلب عتابها:

- هيه يا سيد الشجعان، إلى أين؟

- نعم؟ - استدار ظاظم حتى التفت معه حزاما الركابين. - ما هذا الكلام، يا من أصاب الله فمها بالطاعون!

- ما يحملني على ما أقول هو أنه لا إسطبلك يحترق، ولا بيتك، ولا كومة الحشيش. - ردت سراس على العجوز بصوت خشن متراجعة نوعاً ما، لا تماماً.

- أستغفر الله، أي نوع من البشر هذه! - ألقى ظاظم السرج عن الحصان، وتوجه إلى المسطبة وهو يهز لعجوزه طرف السوط. - انتظري إن لم أكسر هذا الغم الذي تخرج منه كل هذه المصائب!

- بديهي أنك ستحطم فم العجوز البريئة، لابس غطاء الرأس، لولا أنك تحسب حساب لأماف الذي يفوق سائر الرجال. ها هو وابنه زغاشت - يا إلهي ما أحسن الولد الذي خلفه - يركبان حصانتهما. - لم تتحرك المرأة العجفاء المتكئة على الجارين من مكائها. وأضافت: - والغريب أن الرجلين - حماهما الله من المكروه - لهما اسمان ممتازان¹...

- أين هما؟ - التفت ظاظم إلى الفارسين اللذين يدنون من باب الدار. وخاطب الآن عجوزه بنبرة ألطف، مُسمِعاً الفرسان المتجمعين على باب داره: - ها هم الجيران أيضاً قد ركبوا. لسنا ممن يركبون لتزجية الوقت. هيا هاتي لي سيفي أيضاً من الغرفة! حالاً يا لأماف، حالاً. سأصل في غمضة عين.

- يا ولد، خاطب لأماف ابنه، - لا تجلس على صهوة الحصان بل جهّز لظاظم حصانه، وأمسك له بالزمام والركاب كي يركب.

استقر ظاظم على ظهر الحصان، وشدّ اللجام متذكراً أيام الشباب، متعالياً على عجوزه فجفل الحصان، وأرعب العجوز بهذه الحركة.

- هاتي السيف قبل أن تركضي فتصعدي إلى المسطبة! لا تخافي من الحصان، لن يعضّك، - وأتبعها قائلاً: "كان عليّ قبل زمن بعيد أن أصرّك بصدّره لا أن أدعه يعضّك" - لا يُمدُّ السيف بيد واحدة؛ كم مرة تبّهتُ! قدّمه على راحتك مقدّراً قيمته. قد لا نعود من حيث نساfer الآن. حسناً، ها هي

¹ لأماف: رجل الخير أو الرجل المبارك. وزغاشت، يعني مُرعب الجيش.

الطريقة الصحيحة لمدّ السيف، أرضيتني. إن كنت أنت يا لأماف من يطلب مني المسير فلن أسأل عن وجهتنا. لن أهين أديغيتنا، سألتصرف كما تمني علينا. — لم يتبادل الفرسان الثلاثة أي كلمة ريثما صاروا خارج حدود القرية. ولكن ظاظمي قال للفارس الثالث وراه، غير مرتاح إلى تأخّره عنهما: — أنت عشت عمر رجل يا زغاشت، ألا تقف على يميننا حسب العادات الأديغية في أن يكون الأحدث سناً على اليمين. لا أرى مكانك لائقاً.

— أنا في مكاني الصحيح يا ظاظمي. — حسم زغاشت النقاش بصوت غليظ. — والله لا يليق بك وأنت الرجل الكبير أن تكون وراءنا كأننا لا نريد صحبتك. — أنا أراه مناسباً يا ظاظمي، سألتصرف وقت الحاجة بما أرى الأكبر فيكم، على مبدأ: قائمة البقرة لا تقتل عجلاً.

— يا عجي يا لأماف! — صاح ظاظمي مُسمعاً من هم وراءه دون أن يخجل من أحد، — ما أشدّ ما تُقنيني بأديغيتك دون أن أجني منها أي فائدة. — إن كانت أديغيتك تنتهي هنا يا جاري فمن حظ الأديغة. — سمع لأماف هذا الكلام كثيراً ومع ذلك كان جوابه حاضراً. — ولكن سيحزنني أن تسقط فرداً من بينهم. ونحن على كل حال قليلو العدد. تفرّقنا بين البحرين. — ما العمل إذن؟ — تنهد ظاظمي الآن مما سيقوله، — ألسنت من قال: القليل ضعيف؟!

— لسنت القائل، بل الأديغة. بالقياس إلى الأقليات التي بيننا فنحن بفضل الله لسنا قلة. ولكن كان الأفضل لو كنا كثيرين كالترك والروس.

— لا تؤاخذاني، أسأل عما يشغل بالي، — استأذن زغاشت المشي وراءهما، — وخان القرم؟

— أملي مقطوع من جهة خان القرم وتركيا، لا أعرف شيئاً عنهما. — أجاب ظاظمي باختصار. — والدك لأماف الزعيم المبارك خير بهم فليُجِبْ!

— كيف أفيدك في شأن الأقوام الكريهة التي أجهلها... لو لم يكونوا يأتوننا معتدين هُنايين لاعتبرناهم جيران خير. ولخالطناهم، وطلبنا منهم مخالطتنا... ولكني سأطبعكم على ما أعرف. لا أتكلّم على تركيا، هذا شعب كثير التعداد، ودولة كبيرة. سكان خانية القرم لا يفوقونا كثيراً بالعدد. هؤلاء قليلون يتناولون

علينا تحت ظلّ تركيا. ونحن غارقون في الفرقة الداخلية فيصرعوننا واحداً واحداً، ثم يسيطرون علينا، ويستغلوننا، وينشرون بيننا الفتنة لتتقاتل. تناثرت أعراف الخيل من الريح التي هبّت عبر الفرجة بين الجبلين. ورفعت عالياً أطراف الأكسية غير المزررة. ولم يتأخر رفيقا لأماف عن حزم كساءيهما بالزناز كما فعل الكبير. ووقّع حوافر الأحصنة التي تحنّها الريح الباردة على الجري ينزلق من فوق ماء النهر فتخطفه. وما لا تستطيع ابتلاعه منها ترميه على الضفة الأخرى.

ضحك ظاهري في سرّه قائلاً: " كل ما تقوله صحيح. ولكن لا تظن نفسك راكباً على أرومتك - مضافتك وإن كنت راكباً باعتداد إلى جانبي. أستمع إليك فأجذك تنتقص مني دائماً بذريعة أنني أصغر منك سنّاً. وتريد أن تعلّمني الأدب وأنا أديغي. هل نسيت أقوالك أمس فتكررها اليوم؟ ثم إنك تعيرني كائناً من كان معنا بجلوسي إلى يمينك. أما كنت تغفر لي موقع جلوسي لو كنت سليل إمارة! الأخوان شبق وأفمقوه، وإن كانا أصغر سنّاً منك، ترك لهما صدر المجلس متى دخلا مضافتك... أفهم أنك سترد بأهمل ضيفان وإن كانا أصغر منك. وهل عجيب إن كانا ضيفين؟ كيف تنقض أدبيتك بنفسك إن كنت حريصاً على احترام الأسن؟ وأنا أود جداً أن أقف في حضرتك وأن أحظى باحترام من لا يعرفوننا وتقديرهم. يا حسرتي أيها الأديغة، لا أحب أن أصرح بهذا، وما أشدّ عنادنا! نقرر ثم ننقض قراراتنا. نفعل ونكرر. ومع ذلك لا أستطيع أن أقول إن هناك تناقضاً بين أقوال الأديغي وأفعاله. لا أحد يجتنب منك إن استنجدت به. لا يسأل عن نية رفيقه في السفر حتى لو كان في السفر هلاكه، كما فعلت اليوم. لن أسألكما أيها الأب والابن عن توجّهكما! وأنا لست محروماً من الصبر. أنا أهذي الآن. قضيت عمري متصاعراً. كانت العجوز على حق إذ بكت وصاحت إذ ليس مستبعداً ألا نرجع. أنا من طلب من العجوز أن تسلّمني سيفي من الغرفة. وقفنا على باب داري فرافقتهما دون أن أسألهما عن وجهتهما. أليست هذه رجولة؟ ربما هذا ما وراء قول الأديغة: أشباه الرجال كثيرون جداً، والرجال الحقيقيون نادرون... الحق أنني متلهف على معرفة وجهتنا! والرجال الذين خرجوا من القرية أين هم الآن؟".

- يا لأماف، يا زعيم الخير، - نَفِدَ صَبْرُ ظاظمي مهما تصبّر، ومهما نصح نفسه مُثْنِياً عليها، - لن أسأل عن وجهتنا ولو أنك تصاممت.

- إن لم تتخل عن رجولتك في آخر عمرك فلن تسأل،- أجب لأماف دون مبالاة بعد سكتة مُضْنِية.

- والله يا جارنا، - احتدّ ظاظمي من تلميح لأماف، ولكنه أزاح الجواب المتر الذي خطر له، - أنت، سواءً قلت هذا أم لم أقل، إنسان عجيب. لو لم يكن ابنك وراءنا لسابقتك، ولكن ما يزال أمانا متسع من الوقت له. ماذا قلت بشأن من يتعرض للإهانة؟

- من يُهَن يجد فرصة للانتقام.

- نعم، نعم، لن يقول الأديغة أصدق من هذا الكلام. ولكني أحتفظ بهذا القول كالحلوى بعد الطعام. وما لن أغفره لك بحضور زغاشت أمرٌ آخر. الحق أقول: هل كثير علينا إن بلغنا أنت وأنا السبعين؟

- لو قنعت بما عشت كما قنعت لما قلت هذا. كان هذا عمراً كبيراً لك. أجب لأماف مرة أخرى بلا مبالاة وهو يحتمل حصانه السائر متمهلاً جمل جسده الثقيل.

- هكذا؟ سأريك إذن! - شدّ ظاظمي لجام الفرس فأجبر الحصان على الوقوف على قائمته الخلفيتين. ثم حثّه فجّد في الجري. - إن كنت رجلاً إلى هذا الحد فالحقني، وأنت أيضاً يا زغاشت.

بعدما جرى الحصان بظاظمي منكباً عليه فهم أن لأماف لا يلحق به، ولا ابنه. وقف شاعراً بالإهانة مما يجري له، واستدار برأس حصانه إليهما معترفاً بخطئه. والتفت إلى الجانب أيضاً كأن سبباً وراء توقفه. وتفقد حزام الحصان. وأصلح وضع الخنجر دون مبرر. وأبعد عن رأسه القبعة التي كان ثبتها بإحكام خوفاً من الريح.

قال ظاظمي موجهاً نفسه: "ما أشد لامبالاة هذين الرجلين، الأب والابن، المعتدّين بنفسيهما!"، "الله أعلم بِمَ سيعلّق الأب على انطلافتي بالحصان.

- لو كان يعرف فيّ شيئاً من رجولةٍ لسحب اعترافه بما معتبراً ما فعلت تخلياً عنها واقتلاعاً لأصول الأديغة. أستحقّ أيّ توبيخ لي. وعلى مبدأ: لا تنصح

من هو أكبر منك، ولا تناده من ورائه، كيف أطلب منه أن يسابقني؟! سأتحمل مهما قال لي لأني من جلب لنفسه اللوم..."

تبيّن أن الأمر غير ما توقّعه ظاظمي. وعاد الفارسان الأكبران إلى النسق كأن لم يحدث بينهما شيء، ولا يزال وراءهما الأصغر. والحقيقة أن ظاظمي لحظة رجوع إلى مكانه المعتاد إلى اليسار من لأماف كان تطاول بقلبه إلى موقع الأكبر كما كان يحدث له عادة عندما يصل إلى الأرومة العتيقة جانب طرف الإسطبل، ولكنه عاد إلى وعيه بسرعة، وقال لنفسه: "لماذا من طبعي هذا الإصرار على هذا الموقع؟ لا فائدة ولا فخر فيه" فلم يسمح لنفسه بالخطأ. وتصبّر منتظراً تعليق رفيقه، ولكنه مرة أخرى لم يُطق صبراً مع أنه اعترف بذنبه:

- إن كنا سنسير إلى مبتغانا بهذه الطريقة فسنلتقي بمن سبقونا وهم عائدون.

- كنت أسرع بحصانك لا أعرف سبب توقفك إن كنت متلهفاً على مقصدنا.

- تبيّن أنه أعقل مني فرفض أن يحملني حين اكتشف خطئي.

- يسرني أن يلافيك من يعيدك إلى الصواب.

- فهمتُ، فهمتُ. - ابتسم ظاظمي وقد بدا من صوته شعوره بذنبه. - لا تفارق جماعةً لمثل هذه النزوة. ساحمني على ما فعلتُ أمامك بمأى من ابنك زغاشت، أليس شاباً من جيل ابني، ما كان يجدر بي فعّله. ولكن حين يكون القلب شاباً، ساحمني، لا يتناسب مع الهرم.

- يسرني يا ظاظمي أنك قيّمت سلوكك بنفسك. - ابتسم لأماف من خلال لحيته البيضاء وشاربيه. ولمّح له غير ناطق باسم ابنه على عادة الأديغة: - لولا أن من سميتّه الأصغر يلجمني لما اكتفيت بأن ألحق بك، وأنت تعرف قدرات حصاني، بل اختطفتك بيدٍ واحدة من سرج حصانك.

- الآن أمسكت بك يا جاري لأماف، يا زعيم الخير! - صاح ظاظمي من أعماق قلبه. - ما زلت تترصديني وتبحث عن هفواتي حتى وقعت في فخّي. - كيف؟ لا أعرف أي أخطاء.

- ومع ذلك فقد أمسكت بك متلبساً بالخطأ. - لمعت عينا ظاظم الصغفرتان
الصفراوان من محجرهما الغائرين، ورفّ بجفنيه الأصفرين - الأبيضين كطفل
بريء - كيف تمتدح نفسك أمام الأصغر، ثم إنه ابنك.
- اغفر لي! - برأ لأماف نفسه دون رياء. - الحصان يتعثر رغم أنه بأربع
قوائم.

- يا لشماتتي بك! تشقيت من والدك يا زغاشت. - توجه ظاظم بالكلام إلى
من خلفهما دون الالتفات إلى صديقه.
بدا ثلاثة فرسان من رابية الشاطئ. وأول من لمحهم كان لأماف. وسأل ظاظم
الذي لم يعرف ما جرى وهو يوقف حصانه:
- ماذا؟ هل هناك ما يُقلق؟ - ثم رأى الفرسان الثلاثة الذين توقفوا على رأس
التبّة.

ما يختلف فيه الفرسان الذين جابهوهم هو اصطفاظهم ثلاثتهم مع مراعاة الأكبر
والأصغر. ودون أن يعطي زغاشت الفرصة لوالده لينادي وقف إلى يمينه:
- الفرسان المستنفرون صباحاً كأنهم قادمون إلى حيث نضمي. - تذكر ظاظم
الكلمات التي ناكّد بها لأماف قبل قليل فغمغم ببضع كلمات. ونظر رافعاً
جسده على الركابين: - جموا خيولهم. يراقبوننا؛ لا أعرف ما ينوون بحقنا.
- أظنهم فرساناً من القبرتاي. - قال لأماف، والتفت إلى ولده: - اسبقنا يا
ولد لنرى كيف سيتعاملون معنا!
- وإن كانوا فرساناً من نغوي القرم؟ - لم يستطع ظاظم إلا أن يسأل عما
يتوجس منه.

- وهذا ممكن، - ينظر لأماف وقلبه مع ابنه المتقدم بخطا سريعة. - إن أخرجوا
من بينهم مندوباً منهم فهم أديغة.
- ربما عند النغوي أيضاً مثل هذا التقليد.
- لم يكن عندهم إن لم يقتبسوه منا. ها هم أخرجوا من بينهم واحداً؛ هم
أديغة. متى انطلقنا وتابعوا هم سيرهم فاطمئن! لا علاقة لهم بالنغوي.
- هل ترى؟ هم أيضاً تبعوا موفدّهم، - بدا من صوت ظاظم انتعاش قلبه،
وفرّح إذ لم يكشف عن كثير مما توجّس منه، - لم تخطئ على ما يبدو، هم من

أبناء قومنا. هل تعرف يا لأماف كيف تميّز فرسان النغوي؟ سأل، وأجاب مسرعاً خائفاً أن يسلبوه الجواب الذي يعرفه: - ليس زي الفارس فحسب، بل رؤوس الخيل اللعوبة، وأعرافها المتناثرة. وهل تعرف من هو مصدر هذه المعلومة؟

- ومن أين لي أن أعرف؟ كثيرون يأتون على ذكر فارس النغوي، وها أنت تروي.

- أول من سمعت منه المعلومة هو والدك أمزان. والله كان هو الآخر رجلاً صالحاً. جزاه الله خيراً حيث رحل. انظر هناك كيف يلتصق الفرسان القادمون إلينا بسروج خيلهم، وأطراف أكسيثهم ملمومة إلى أجناهم. والركائب محزومة إلى بطون الخيل. عالم الأديغة مرّكب بطريقة عجيبة كما كان أمزان زعيم الخير يقول. وأنت أيضاً تصيب أحياناً في وصف أبناء قومنا. - ولم يملك ظاظمي إلا أن يُسبّع مديحه للأب والابن بالعتاب المبطن: - ولكن يُخَيِّلُ إليّ أنك تتملقهم كأنك مدين لهم.

تظاهر لأماف أنه لم يسمع كلمات ظاظمي الأخيرة وهو المعتاد على كلامه منذ الطفولة، ولكن قلبه لم يتقبّله، وإن لم يغيّر الموضوع متوعداً بأن يُذكّره به في وقت آخر مناسب:

- ليس الأديغة وحدهم من فيهم مزايا حميدة. ليس ما عند الآخرين مما تقتدي به قليلاً.

- هل تقصد أن عند الترك والنغوي والروس ما يمكن أن تستفيد منه؟

- لا تستطيع الأقوام التي لا يغلب عليها الخيرُ الاستمرار في البقاء. يتفانون فيما بينهم، أو يفنون على يد الأقوى منهم.

- وهذا كلام حق. حتى الزلاقط تلدغك ثم تنفق.

تجابه الفرسان والطريق يفصل بينهم. وعاد الرجلان الكهلان المفاوضان إلى مكانيهما. وفرسان القبرتاي بالقياس إلى لأماف وظاظمي من جيل أولادهما. والفارس المتوسط بينهم حياهم رافعاً يده اليسرى:

- رافقتكم السلامة أيها الكبار المباركون!

- وأنتم بالأمان، - ردّ لأماف الأكبر سنّاً، وأفهمهم أنه هو المضيف:

- تفضّلوا، أنتم ضيوف. نحن من قرية ترام على قمة هذا المرتفع.

- وعليكم سلام، بالأفراح إن شاء الله. -ردّ التحيّة الرجل المتوسط ذو الأربعين عاماً تقريباً، المرتدي زياً وسلاحاً كاملين، منتصباً على صهوة حصانه. وأوماً صاحبه بجسديهما لإملاء احترام، - أنا من أسرة الأمراء قايت، من القبرتاي. واسمي الأمير أبشقوه. وهذان من حراسي. على يساري دداي - قان، وعلى اليمين تاوتاش. وإن عدنا إلى القبرتاي أيها الزعيم المبارك فعلينا أن ننفذ في قرية ترام مهمة السفارة التي كلّفونا بها من القرم. وعلينا أن نقابل برسر ظاظمي.

- هكذا!.. - جفل الحصان من صياح ظاظمي فنصب أذنيه. واحترار الضيوف في تفسير تصرّف العجوز. ولكنه عزّف بنفسه لاحقاً بالكلمات التي أفلتت منه: - أيّ مهمة أنيطت بي في القرم التي لا يعرفني أحد فيها؟!

- ها هو مطلوبكم يا أميرُ أمامكم. - لم يُن لأماف على نفسه استغرابه. - ولكن هذا لا يعني تنفيذ مهمتكم على الطريق؛ تفضّلوا!

- والله يا زعيم الخير لم يخطر لنا أن ننجز مهمتنا بهذه السهولة. فإن جرى الأمر هكذا فأنتم على سفر، وطريقنا نحن بعيد. لن نحرفكم عن مهمتكم. - استلم الأمير أبشقوه الحديث من لأماف كاتماً عدم سروره بانتهاء مهمته.

- هذا مستحيل. ما تقوله يتنافى مع شرعة الأديغة. ليس عجيباً إن كنا على طريق سفر. لم نبتعد عن قرينتنا حتى إننا لو نادينا أهلنا سمعونا. وإن لم نكن نساهم في مؤتمر شبق وأفمقوه فمعنا موفد يمكن أن يساهم فيه. هيا يا ولد، - التفت إلى زغاشت، - خالطهم وساهم معهم في الحديث، وشاركهم في ما يفعلون. ثم نُخبرنا.

- هل كانت وجهتنا المؤتمر الذي يقوده الأمير الكبير شبق؟ - سأل ظاظمي الذي لم يعرف إلى الآن سبب ركوبه وقد زاد اهتمامه بالمهمة التي كُلف بها معه الأمير القبرتاي، بنبرة لا تميّز أهو مسرور بالمؤتمر المعقود أم لا. من يدري ماذا سيقول له القبرتاي؟ وهل يحتاج إلى شهود أم لا؟ لو كان في وضع يسمح له بمقابلتهم وحده لكان مستعداً أن يمنحهم ما تجود به نفسه وما لا تجود. ولمّح للجار العجوز يريد صرفه: - وهل ترك زغاشت يذهب وحده؟ سيحتاج الجان

ذوو الوجهين إلى دارك أيضاً. وريثما تساهمون في المؤتمر وتعودون سأريح ضيوئي.

- وهل الولد صغير حتى يخاف السير وحده؟ تعال يا أمير، تفضلوا إلى قرية ترام!

اعتبر الأمير أبشقهو الذي عينه وراءه يريد أن يعرف ما سيحدث في مؤتمر الجان، وما سيقرر، مراده قد تحقق، ووقع على ذريعة ممتازة:

- إن كان هذا رأيكم يا زعماء الخير فلن ندع زغاشت يذهب وحده، بل أرفق به حارسي. هيا يا تاوتاش اركب مع زغاشت. ثم قال في إثر الرجل الربعة: وإن سأل عنا أحد فلا ضرورة أن تروي خبرنا للجميع...

"أي مهمة لهؤلاء معي؟.." ارتحى ظاظمي على أثر الكلمات التي سمعها. ولما نظر إلى لأفاف من تحت حاجبيه رأى في وجهه شكاً لا يرغب فيه.

IV

على ظهر موقع مؤتمر الجان انتشر الناس بين راكب وراجل. وكذلك في المضيق. ويبلغ المنادون الناس كلهم جميع ما يقوله من يتوسطون الساحة كلمة كلمة. والناس المجتمعون زُمراً ينصتون. ومن يعجبه ما يسمع يهز برأسه، ومن لا يعجبه تعرفه من خفي يده. ومن لا يوافقون المتحدثين في شرهم وخيرهم يضربون راحاتهم بالسياط المطوية أو "يتفششون" بأفواه جزماقم. والعرق يسيل من على الرؤوس المخلوقة حديثاً، التي أُجبر أصحابها على خلع قبعاتهم عنها في هذا اليوم الحارّ فتلمع تحت الشمس الحادة.

ورغم أن أمواج البحر القريب مسموعة فالأجساد والقلوب لا تتحمل حرارة ريحه. الجو الثقيل يهبط على كل مكان. والحشائش صفراء ذابلة. وأوراق الأشجار الداوية تحت الحر مرتخية. ولا أثر لسحابة تائهة في السماء الباهتة التي تُظلّ الناس. والحرّ ألجأ الجوارح التي تحوم منذ الصباح فوق البشر والخيول إلى الظلال.

ومن لا يعرف الراحة الذباب بأنواعه. يجبر الرؤوس على الانتفاض، والخيول تطرده عنها بأذنانها، فلا ينقطع صوت الخيول الغاضبة من الهواء.

والسواقى التي تنبع من التباب ومن أسافل الأشجار فتجري مغنية غير عابثة بعالم الجان المعكّر، وتصب في البحر، تنفّس عن ضيقها بمن يحتسى ماءها براحتيه، ومن يبرّد وجهه به.

- والأمير المبارك الأمير أبشقه . وتيمرقوه الأمير الأهل الذي هرب من القبرتاي الكبرى، فحثّ الخطا هارباً إلى جلاخستانيه البعيدة... - أصاخ تاوتاش السمع ماداً أذنه نحو زغاشت، ضاحكاً، فهمس في أذنه: - الجان أناس عجيبون. ما الفائدة من أن تفوّت رأس الحصان فتلحق بذيله؟ ما يزالون مهمومين بمقتل الشاب سليل السلطان التركي، فيهلكون أنفسهم تحت الشمس الحارقة. ولماذا جعلوا من تركيا وخانية القرم محطّ اهتمامهم؟ هل نسوا كيف أتاها خان القرم غازياً ليُخرسهم؟!

- ولكن أيها الضيف، - استغرب زغاشت ما يسمع، - أليس الصبي الذي أمر السلطان سليمان بإعدامه ابن ابنتنا؟

- هو ابن من أمر بإعدامه. ما الفائدة من اتهام خان القرم بعد أن حدث ما حدث؟ والذين قصّوا من نواحيكم لهذا السبب ليسوا قليلين. - اسمع، اسمع ما يقولون الآن في غاية العجب. - ضحك تاوتاش مخفياً رأسه وراء رأس الحصان. - أيّ روسيا وموسكو يذكرهما هذا الذي في الساحة؟

- يا زغاشت ؛ هل اصطاد كلبٌ من بجانبك ثعلباً فيفرّج كل هذا الفرح؟! - قال قلقته عابساً، وأضاف بصوت حاسم نادماً على الكلام المسيء الذي لا يليق بزغاشت: - يبدو من طريقة حديثه أنه ليس من عندنا. ربما يكون من البسلني أو القبرتاي.

- لم تُخطئ. - هو من أديغة القبرتاي، ضيفي اليوم. - هكذا إذن، - أدار قلقته رأسه نحو ساحة المؤتمر، خجلاً من كونه خطيب ابنته. واستمع إلى المبلّغ الذي كان يوصل إليه ما يجري في الساحة من حديث: يتكلم بصعوبة جداً الرجل الثخين القصير حتى لا يكاد يرتفع عن الأرض التي خسفت حشائشها تحت الأقدام، هازئاً طرف السوط الملموم: " استمعتُ إلى أفمقوه الذي كان يتحدث توّاً في الساحة. وقد كشف عن دُواره وجهله أين يدير رأسه. أيها الأمير شبق، ليس إنكاراً لاحترامك، ولا لرجولتك ومكانتك،

غير أني لا أتفق مع كلام أخيك الأصغر. ألا يكفيكم قُدمتونا ممسكين بأيدينا كالأطفال الصغار؟ نظرنا حين طلبتم منا النظر نحو خانية القرم، وحين طلبتم الاقتداء بتركيا لم يكفِ أن فعلنا بل تخلينا عن آلهتنا، واعتنقنا الإسلام. ولم نتوقف عند هذا الحد بل، أتكلّم عن تركيا وخانية القرم، طلبتم منا أن نُسدي معروفاً فصاهرناهم بأكثر من واحدة من بناتنا. وصار عندنا أولاد وبنات من آباء أترك ونغوي، وليس قليلاً ما ربّينا لهم من أولادهم. ومع ذلك لم يمتنعوا عن محاربتنا وهُزّبنا. ولا أظنك جاهلاً بما سمعت الآن من أخيك الأصغر أفمقوه. يقول لنا: دعونا نتجه نحو روسيا وموسكو، نبحث بينهم عمّن يساعدنا. ما ذنبنا حتى نملأ روسيا بالفخار فتيه علينا؟! الأفضل من هذا أن نتفق نحن الشابسغ والجان والناخوي. والبسلني والبجدوغ والقبرتاي والجمكوي منا، من قومنا. هم أديغة. دعونا نتفاهم خيرٌ من أن ننضوي تحت جناح أحد. ثم لا ننس أن ما يعطيك إياه من رجوتّه مساعدتك سيطلبك به..."

– المتحدث في ساحة المؤتمر رجل حكيم. تفكيره تفكير أدبي حقيقي.
– انطلق لسان تواتاش إثر ما سمعه ناسياً المكان الذي هو فيه، – وفي القبرتاي أناس أذكاء من نمط هذا المتكلم. من هو، من أي أسرة؟

– على ما أراك أيها الضيف، – تعكرت عينا قلقت السوداوان، – أنت أيضاً من نوع هذا الثرثار. وشرابك¹ غير مصقّى، وعسلُك مغشوش بالماء، فلا تُخفي القبرتاي الذين خرجت منهم. ومن حظك أنك ضيف على زغاشت، ابن لأماف خير الرجال. متى رجعت أخبرتك عن اسم هذا الثرثار ونسبه.

امتطى قلقت الرجل الجسيم الحصان حتى كاد يتداعى تحته. وتوجّه إلى ساحة المؤتمر فاتحاً طريقه بصدر حصانه. ووقف دون أن يترجل أمام الرجل القصير البدين الذي كان يتكلم. وتوقف الرجال الذين فوجئوا بسلوكه عن كل حركة بانتظار ما سيحدث. وتعرفوا على الرجل الضخم الذي وقف أمام المتكلم القصير ذي العينين الواسعتين والأنف المفلطح. رفع القصير نظراته إليه مرتباً مبتلعاً لسانه.

¹ يتكلم على شراب العسل المخمر.

- هذا أنت يا ونتغ الأعرج من عليه الخطُّ من شأن شبق وأفمقوه أميرى الجان،
والخوضُ في شأن الأديغة! - مدّ قلقت ذو الساعدين الكثيفي الشعر يده إلى
الأسفل، وحمل ونتغ الأعرج إلى غارب حصانه. - ساقك الله إليّ وأنا من
يبحث عنك منذ زمن بعيد.

- يا قلقت لا تُسئ التصرف أمام المؤتمر! - توغل شبق بين الرجال مُبعداً
إياهم عن طريقه، ووقف أمامه. - لا تدع أصدقاءنا وأعداءنا، وكلّ من حضروا
المؤتمر لبحث قضايا الأديغة يتحدثون عنا بسوء. ما فعله بك هذا الرجل إهانة
لك ولأختك. ولكن دعه يُنهي كلامه كي لا يُقال إنهم لم يسمحوا له بمتابعة
كلامه لأنه لم يعجبهم. ثم إفهم أيّ لن أقبل منك أن تختطف على الحصان
رجلاً من مؤتمر الجان.

- فهمت، يا شبق أيها الأمير الكبير. لن أهين نفسي لأنك تتكلم باسم الناس
وباسم المؤتمر. - قال قلقت دون أن يحرك ذراعيه الممسكتين بالرجل على
غارب الحصان. - سأبلي لك رجاءك الأخير، أنا لست مستعجلاً على هذا
الرجل. سأنتظر انفضاض المؤتمر. ما مضى كثيره سيمضي قليله. ولكني لا أظن
أنه يستحق تنفيذ رجائك إنهاء كلامه. - انبَلْتُ مؤخرته، - رماه قلقت إلى
الأرض مثل كيس مملوء.

حاول ونتغ النهوض وقد أشعلت الإهانة غضبه ولكن ركبته لم تحمله فتهوى
عليهما. وهجم على الخنجر ولكن غمده كان فارغاً.
قال قلقت الذي لم يكن ينوي التزلج للرجلين اللذين ساعدا ونتغ على
النهوض:

- اتركاه ؛ لا توسّخا جسديكما! سأبعد عنكم من وقف أمامكم بوجه وكلام
وسخين. - ثم مدّ يده وجرّه من ياقة كسائه.

هدأت الجلبة في المؤتمر بغمضة عين كما بدأت فجأة. واحتل الأمير شبق
الساحة كأن لم يحدث شيء:

-... لم نأل جهداً نحو تركيا والقرم. وكلما تصرفنا معهما بتعذيب كما تملي
علينا عاداتنا الأديغية ازدادوا وقاحة معنا. ومهما سلبوا منا استقلالهم. وكلما غيروا
أمراءهم وخاناتهم طلبوا منا أجمل الصبيان والصبايا وأذكاهم قبل المال.

- سألني أيها الأمير شبق، يا زعيم الخير، على مقاطعتك إذ أني أتذكر يوم مولدك كأنه اليوم. - صاح عجوز نحيل أحذب من بين الحضور يهزّ عصاه فوق رؤوس الجمع. ألن يفعل بنا الروس الذين تنوي التوجه إليهم ما يفعله بنا الترك والنغوي في أطفالنا؟ هل نسيت ما فعل هؤلاء قديماً بأسرة الأمير ردد¹؟ لا أعرف متى جرى هذا ؛ ربما في عهد جدي.

- وكيف يكون في زمان جدك! - ردّ أحد جيرانه عليه، - لم يكن خان القرم في ذلك العصر في مواجهتنا. ولم تكن تركيا في مكانها الآن.

- هكذا! - انكمش العجوز الأحذب، وتبادل المستمعون النظرات والابتسامات خفية.

- في كلامك يا كبير شيء من الصواب. - رأى شبق في كلام العجوز وردودهم عليه ما يستدعي الضحك ولكنه كان يعرف أن كل المسنين حساسون للإهانة فكنتم شعوره. - غلب الأمير الكبير ردد بالخدعة. ووقعت أسرته في الأسر. وإذا لم يكن روس موسكو فرضوا عليه الإتاوة فلا أعرف أحداً غيرهم فرضوها عليه.

خاطب العجوز النحيل نفسه راضياً عنها: "لابأس إذن".

- ولهذا أيها المؤتمر الذي ندعو إلى الله تعالى الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد أن يبارك لنا في مؤتمر الجان. في هذه المرحلة أملنا في حماية أنفسنا هو روسيا، ولهذا فسنخاطبهم، ونتفاوض معهم. ودون مساندة مثل هذه الدولة لنا فلن تدعنا تركيا وخانية القرم نعيش في هناء. هذه نيتي إن وافقتموني. لست أنا شبق بن قنشقوه أول من بادر إلى التوجه نحو روسيا. كان الموفدون برئاسة الأمير قانقوه مِشْقوه، من البسلني، تكلموا في العام الماضي إلى حاكم روسيا. وأجابهم بأنهم سيتشاورون ويتصرفون بما يرونه مناسباً. وقد سمعتم ما رواه الأمير دودارقوه من الأباطرة، أول من دعونه إلى الكلام، من أخبار

¹ أمير كبير حاول تأسيس دولة للأديغة في مطلع القرن الحادي عشر وأخفق، وقُتل.

ولكاتب هذه الرواية، وترجمة مترجمها، رواية باسم "ردد".

البسلي والأباطة. كلامكم كلامي، وأنتظر رأيكم، يا مؤتمر الجان! - غادر شبق الساحة متمهلاً، وعاد فوق إلى جانب ضيفه أمير الأباطة دودارقه. دوت أصوات المبلغين في أعالي الجبال وفي السهول. ودون انتظارٍ شهر المشاة والفرسان خناجرهم، ورفعوها تلمع في وجه شمس الصيف. مرة أخرى رجع الأمير شبق إلى الساحة باسم الأمراء، وخاطب من أيده بسحب الخناجر، ومن لم يؤيدوه:

- أرضيتوني، فليرض الله عنكم! والآن نختتم مؤتمرنا بصلاة العصر. سنقف في حضرة الله، ونبتهل إليه أن يحقق لنا نوايانا. وقف المؤذن على التبة وبدأ أذانه.

وانفض المئات من المؤتمرين فانكبوا على الوضوء بما معهم من الماء أو من الساقية. وحين توجه الأفندي إلى القبلة مع حركة من طري كسائه فعل مثله الجميع في أماكنهم، مديرين ظهورهم إلى الشمس الآيلة إلى الغروب. وكان زغاشت وتاوتاش، على اختلاف رأييهما، يقفان، يؤديان صلاة واحدة.

...

حين توغل زغاشت وتاوتاش المنصرفان من المؤتمر إلى عمق الغابة أوقفهما الحديث الذي سمعاه.

- أليس هذا صوت قلقت؟ قال زغاشت، وحث حصانه، وتبعه تاوتاش ويده على سيفه.

- لماذا لا تأكل؟! - وصله الآن على نحو أوضح صوت قلقت الأجرش. - هل تعدّ ما جرى لك إهانة؟

- كنت أفضل أن أموت بعدما فعلت بي ما فعلت في ساحة المؤتمر... ما كنت أحتاج إلا إلى طعنة خنجر واحدة. كنت استرحت واسترحت. قدّم لي هذه الخدمة من فضلك!

- تريد أن تفارق الحياة بوجع لحظة واحدة؟ لا يا سليل القذارة، أنا أنوي أن أحول نور دنيائك إلى نار جهنم.

- كيف؟ - قال ونتغ الأعرج، وصرخ متأملاً النجدة من صوت الحصان الذي طرق أذنه: - يقتلني، لا تتركوني بين يديه!

ألقى قلقاً بالمستغيث تحت الشجرة بضربة على أنفه، وقفز واقفاً والسيف بيده. تفضلوا أيها الضيوف القبرتاي. ماذا قلت لي اسمك؟ تاوتاش؟ تذكرت. نعم، نعم، تاوتاش. كنا افترقنا قبل أن أجد الوقت لأخبرك باسم هذا المهجج فأعادك الله في هذه اللحظة. هذا اسمه: وَتَيْغ الأعرج. ربما ليس في إقليم الأديغة أسرة لم ينكبها بسرقة طفل لها. ثم إن هذا المحترم يقف وسط ساحة المؤتمر ليربيننا!.. الحق أنه عبّر في حديثه عما في قلبي، ولكنني لست ممن لا يفهمون معاني أمثال هذه الكلمات التي تصدر من خارج القلب!.. إن كنت تريده أعطيتك إياه أيها الضيف. — اصطحبته إلى القبرتاي، يصلح لأن تربطه إلى ثور مثله فتحترث عليه!

— ونحن عندنا من أمثاله. فلماذا أزيد عددهم! إن كان مديناً لك فاجعله يدور بحملك، ورّد عليه بمثل ما فعل بك!

— وهذا ما أنويه. هل تعرف ما سأفعل به؟ سأصطحبه منذ الغد على الحصان في قرى الجان قرية قرية. وسأسأل عن جيرانه السابقين واحداً واحداً وأطلب منهم أن يخزوه بأسنة الخناجر. فإن نجا منهم كلّفته أن يورد الكلب الماء. وسأعطيهم مجاناً لأحد الأتراك أو النغوي. وهو، اللعبة، يرجوني أن أقتله بضربة واحدة. لماذا تمتطون خيلكم؟ ألا تترجلون؟ سأدّكره ببيعته أختي الصغيرة المسكينة في القرم. وكما يشرب النغوي دم الخيل سأجعلهم يشربون من دمه.

— لا، لا يا قلق، نحن على طريق سفر. تعال يا ضيف، ينتظرنا من فارقناهم. — ما إن انصرف زغاشت حتى تذكر ما سمعه عنهم ولم يره فيهم فصاح إلى من وراءه: — يا قلق ما الذي امتنع وتنع عن تناوله؟

— ها هو، — عرض قلق، كمن كان ينتظر هذا السؤال، الزاد الذي يحتفظون به في ظروف الكساء محل البارود. — وجدت في ظروفه ما يكفيه سنة كاملة. أدّسه في فمه ولكن حنجرتة الجافة تأبى ابتلاعه.

— أعطيتك من الماء إن لم يكن عندك، — صاح تاوتاش إلى وراء. — وكيف لا يكون عندي منه! بل إلى جانب سرجه منه... ولكنني سأجعله يتلعه مبلولاً بقطرات دمه!..

...

خرج الفارسان من عُمق الغابة فخرج من فم تاوتاش ما عجز عن قوله إلى الآن:

- ليغفر لي الله يا زغاشت إن كنت سأذنب. ولكن لا أرى فرقاً كبيراً بين قلقت وونتغ. كلاهما قاسٍ.

انتفض زغاشت مما سمع، ولكنه أجاب بعد ما مشيا مسافة:

- والله لا أعرف يا ضيف ما الذي يدفعك إلى هذا الحكم على قلقت. ونتغ الأعرج ظالمٌ، يستحق كل ما تصفه به. ولكن إن كان قلقت يتفوه ببعض الكلام أحياناً معتدّاً بقوته الهائلة فلا تأخذه عليه. إنه بسيط، طيب القلب. كريم نحو الأرامل والأيتام. أياكون التبس في ذهنك بشخص آخر؟

- هذا مستحيل. - قال تاوتاش وأضاف بسرعة: - صحيح قد يلبس بشخص ما. رأيت في القرم التي نأتي منها شخصاً يختلف عن قلقت شكلاً، ويشبهه في أقواله... تبقى قسوة حراس خان القرم دولت - جري مقبولة بالقياس إلى قسوته. وطلبُ هذا الرجل هو ما جاء بنا إلى قرية ترام.

- وهل اسمه مامي؟ - سأل زغاشت عمن يحدسه.

- أظنه ابن ذلك العجوز الذي كان معكم اليوم. لا أريد أن يسمع الأمير أبشقه ما قلت لك، لا يكفّ عن امتداح رجولة مامي... والأمير أبشقه، ربما لأن عنده صهراً من النغوي... قد يكون أمثاله السبب في قولهم: "كل من يشرب من دم الخيل ظالم متهور..."

- والله يا ضيف لا أستطيع إصاق هذه الصفة بكل النغوي الذين يشربون دم الخيل، لا أريد أن أجني عليهم أمام الله...

لم يكن حشدُ الرجال الساهرين في مضافة ظاظمي يريد الانفضاض ولو أن الوقت اقترب من منتصف الليل. الضيوف القادمون من أعلى القرية وأسفلها بالإضافة إلى الجيران لتحية الضيوف يستمعون إلى عزف لأماف على الرقابة الأدغية. والعجوز يغني لهم كلمات الأغنية واضحة. وظاظمي الذي هبط عليه الحظ فجأة يردد مع الأغنية بقلبه ولسانه. ولولا خجله من الضيوف لقفز إلى أرض الغرفة راقصاً. والعجوز الذي يغني المراثية القديمة يمزق قلبه بغنائها. ولكن ظاظمي الذي لم يطرق الحظ بابه إلا هذه المرة في حياته يعدّ الحظ جاءه مع هذه الأغنية؛ فلا يريد أن يصدّق أنها رثاء للأديغة بل للأعداء، شامتاً بهم، ويهزّ رأسه قائلاً لهم في سرّه: هذا ما كنا نعانيه فجزّوا الآن عاقبة أعمالكم. بل يرقص بمشطتي قدميه معها. وحين يعود إليه وعيّه ينتبه إلى سلوكه متوجساً أن يكون يرتكب العار بفعلته. يوقف إيقاع المشطين، ويخفف من هز الرأس.

بدا على وجوه الجالسين في المضافة الذين بدؤوا بتناول كبد الخروف الطازج أن المائدة التي كانت عامرة بالبस्ता إلى جانبها أضلاع الخروف المشوية وكؤوس الباخسمه لم يمض زمن طويل على رفعها. والأمير أبشقه المتورد الوجه يحتسي من وقت لآخر من كأس الباخسمه التي تركوها أمامه. وكلما رفع الكأس ووضعتها التفت إلى حارسه ددای - قان الحريص عليه كأنه يقول له إياك أن تظنني منتشياً. وإذا كان رجال القرية الذين أتوا لتحية الضيوف انتشوا قليلاً فهم يُخفون نشوتهم. ويرددون الأغنية مع لأماف.

ومن في مأزق هو ظاظمي. يكظم فرحته. وإذا لم يتقبل سلام ابنه مامي بالشكر الصريح فليس إرساله إليه بعض النقود الذهبية والفضية الصغيرة أمراً سيئاً إذ لا تزيد عن حاجته. إن كان عندك نقود وجدت في سوق الساحل كل ما تريد: اللباس والسلاح والسروج... وما يحتاج إليه الخدم إن كنت قادراً على إعالتهم. ألا يكفي أنه عاش عمره "قبعته كبيرة، ولا يعتدّ به الناس". الكيس الصغير للعجوز ثقيل، وفيه نقود غير قليلة، ولكن لا أعرف إن كانت ستُفرج عما حصلت عليه. الولد، بارك الله فيه لأهله، حين أرسل إلي زناً من الفضة، ماذا لو أرسل إلى أمه التي ولدته، أي شيء مصنوع باليد ولو لم يكن من الذهب أو

الفضة!.. هل عجيب إن وبَّخته، ونصحته؟.. لو كنت مكانه لأرسلت زناراً فضياً نسائياً بدلاً من الرجالية. ما إن تفحصتُ ما جيء به إلينا من القرم، ومن أجل ألا تحتج قائلة: أيّ ضيوف جئني بهم، وأدخلته إليه مع الخبر السار، حتى نظرت إلى ما فتحته دون اهتمام بابنها، فرمت بالكيس الصغير في عبّها خائفة أن يستردوه منها. ورغم أن العجوز الشعثاء التي في بيتي تصرفت على هذا النحو معي ومع ما أرسله ابنها فإن الضيوف الذين أجلس معهم، ورجال قريتي، ولأماف الذي لا تصل كلمته إلى الأرض لم يخرجوني. ونسوة الجيران اللواتي لا تكفّ عجوزي عن إزعاجهن لم يتفوهن بكلمة..."

ربابة لأماف تبكي وتئنّ: "... تركيا تأتينا من جهة البحر الأسود، خان القرم يتربص بنا شراً، وبحار الدم يسري فوق أرض الأديغة، فمن يسمعنا يا حسرتي؟!.."

لا يسمع ظاظمي هذا الكلمات لأول مرة اليوم. ما أكثر ما ردها مع لأماف. تمزق نياط القلب، وتستعصي الدموع فيختنق بها. فما الذي جرى له الآن فلا تعجبه؟ لماذا يُبكي ربابته دون اعتبار للضيوف الآتين إليّ بالفرح من القرم؟ لماذا يصب نغمته على خان القرم الذي وجد فيه ابني الوحيد ملجأ؟ ها هم ضيوف الأعراء يبدو من وجوههم عدم ارتياحهم للأغنية... بالله عليك أن تنتهي منها! ألا تلتفت إليّ وتسمعي! وهل من المعقول أن يسمعك؟! واسمع ماذا سمى ابنه زغاشت: مُرعب الجيش! سمع أن ابني تفوق عليه، وأكد فعل هذا، وهل يسمحون لك بولوج دار الخان دولت - جري إن لم تملك العقل والرجولة؟ إذا كان الأمير شبق يرتاد مضافتك فهل نحن محرومون من أيّ احترام؟ ضيفي الأمير القبرتاي الأمير أبشقه لا يقل مكانة عن الأمير شبق ومن أفمقهو إن لم يُفْقهما. لا تستكثر لقب السلطان عليه إن راقبت جلسته الوقور وطريقة حديثه. وليس مستبعداً أن يزورنا خان القرم الذي يدير ابني قصره. أليس لأجل هذا يقولون إن أسنان عجالات العربة تتناوب وطء الأرض؟ أظن أنه همّ بالسفر من حسن حظنا وإن تأخر قليلاً. اليوم الذي ساحتلّ فيه مكانك، إن غرت مني أم حسدتني قادم. ماذا تخمّن سبب محاججة عجوزي لي؟ الفقر اللعين! والآن يقول لي قلبي إن الولد الذي لم نعرف مكانه طوال هذه السنين

سيهيئ لنا شيخوخة سعيدة. اسمعنا يا إلهي، وانصر حظي أنا، برسر ظاظمي، على حظوظ الجميع. واجعل كل من كنت أحسدهم بمن فيهم جاري لأماف، يحسدونني.

انتهى لأماف من العزف على الربابة ومن المراثية. ونقض الأمير أبشقه الصمت الذي ران على المضافة:

- والله يا لأماف لم تترك مذمة إلا ألصقتها بخان القرم.

- وأضف تركيا إليها أيضاً... - أسرع ظاظمي الذي سمع ما يشتهي فتدخل، وأضاف: - ولكن لا أعرف كيف سيتصرفون معنا إذا سمعوا.

- وهل تظنني يا ظاظمي مؤلف المراثية التي كنت تردددها معي فلا يغفروا لي؟! - ابتسم لأماف الذي فهم ما يرمي إليه المضيف العجوز، وتنهد، - بل الأديغة الذين تحملوا منهم مصيبة لا يستحقونها. - ثم سأل بعد سكتة مؤكداً: - الأول مرة تسمع هذه المراثية؟

- نعم، ثم أليس هذا اليوم يوم فرحي؟.. - وجد ظاظمي ذريعة يموه بها على ما أفلت من لسانه، وحضرت بديهة الأمير أبشقه وذكاؤه:

- ما العمل إذن، كنا في هذه الحالة في زمن ما، وليس وضّعنا سهلاً الآن أيضاً.

- ليس في وضّعنا شيء سهل يا أمير، - تدخل أحد الضيوف.

- نعم، نعم، ما من مسألة سهلة في العالم. - قال الأمير أبشقه في سرّه متظاهراً بالموافقة على ما قيل له: " هؤلاء لا يجوز فتح باب النقاش معهم، مستعدون أن يضعوا أصابعهم في عينيك " ثم أبعد كأس الباخسمه من أمامه، وأطلعهم على ما يحزنه من خلال تنهده: - ونحن نتحمل جزءاً من المسؤولية... الأديغة غير متوافقين، ولا يسمع أحدهم كلام الآخر. هذا العيب يُضعفنا ويُضعفكم، ويسدّ علينا طرق الحياة. نظن أننا يفرح أحدنا لفرح الآخر ولكننا نتحاسد. ومن يسبقنا نتعلق بذيل حصانه لنلجمه. ومن تعلقو قامته علينا نخلع عنه قبعته. نولد ونموت دون أن نعرف لماذا نحترم الكبير ونقيم الصغير. - وحين انتبه إلى حركة رأس حارسه دداي - قان عبّر النافذة، سأل الأمير أبشقه بسرعة:

- ماذا يجري هناك؟
- لا شيء خطير يا أمير، - طمأن دداي - قان الرجال الذين انتفضوا برؤوسهم ولكنه أضاف: - بدا إليّ أن خيلاً ما هرب من ورائها.
- لم تخطئ يا ضيف. - ابتسم ظاظمي، ولم يكتف ما خمنه، - من رأيت خياله أظنها عجوزي الشعثاء الشعر... مولعة بالتنصت... ربما كانت المسكينة مهمومة بأخبار الولد... سأؤكد حالاً...
- ما إن خرج ظاظمي من المضافة حتى رأى العجوز على رأسها غطاء أبيض كبير، معتمدة على عمود المسطبة، فنهرا:
- لماذا أنت واقفة هنا كأنك ستطيرين مع الجن!
- أتأملك، لم تتأخر سراس في الجواب، - فأراكم جالسين منتصبين الرؤوس. يقولون: من يبالغ في المديح كمن يبالغ في الذم.
- لا تصرخي! سيسمعوننا...
- ما أشد ما أفرعتني! - أفكر في أن أسأل الضيوف الذين التهموا ثلاثة خراف قبل أن ينتصف الليل عن ولدي العنيد. هل أسس من أدعو له أن يبتعد الشر عنه أسرة أم لا؟ أخشى أن يتزوج فتاة من النغوي خزراء العينين فتشوة سلالتنا.
- منذ متى يا ثرثرة؟ - لاطفها ظاظمي يغالب ضحكته، - بدأت تحرصين على نظافة عرقنا؟
- منذ أن خرج ابني العاصي من رحمي... - أنا أعرف ممن سأزوجه. لا تسألني، لن أكشف عنها.
- كفى، لم نصل إلى هذا بعد. أظن ضيوفنا سينصرفون مع الفجر.
- وإن لم يعد الحارس المرافق؟
- حقاً، يبدو أن عليك وقتها أن تجهزي مائدة أخرى.
- وكيف ينتظرونه! - رفعت سراس فجأة مرفقها فسقط الزنار الذي كان تحت إبطها، فهزعت إليه وأعادته إلى مكانه. - أبعد الله هذا عني! ليس لي ومع ذلك أحمله معي منذ البارحة.
- أما وجدت له مكاناً في البيت؟

- ألا تعرف أن نساء الجيران ملؤوا بيتنا البارحة والعشية! لولم أخفه لما وقعت عليه عينك ثانية. أنا أعرف ماذا أفعل به!

- البسبه وغطيه بالثوب. قال ظاظمي كأنه حدس ما في بال العجوز.

- يا عجي! ما أشد ما تتفق أقوالنا وأفعالنا! حقاً، صرنا متشابهين في بعض الأمور وإن عشنا عمرنا في المناكفات. حسناً، عُد أيها العجوز إلى من فارقتهم. وافقهم في ما يقولون، ولا تُبرز نفسك. ولكن إياك أن تتصاغر أمام المرائي لأماف. وهو، إذ يأكل مع الضيوف، لا بأس أن يجود علينا بخروف. وإن رفض، وقد فعلنا ما بؤسنا، فليأخذ الضيوفَ إلى مضافته التي هي مرتاد الضيوف دائماً، وليطعمهم.

- ماذا تقولين أيتها البائسة؟! - غضب ظاظمي رغباً عنه. - الضيف لا يغير مضيفه عادة، - مهلاً، أسمع وقع حوافر حصان.

- إمض يا عجوز، هيا إلى المضافة. هذان زغاشت وصاحبه. سيعيبان علينا إن رأيانا على المسطبة.

عاد ظاظمي إلى المضافة فتبواً مقعده دون أن يأتي على ذكر سبب خروجه، ولا على سماعه وقع حوافر الخيل. وعاد يصغي نادماً على تفويته أفكار أمير القبرتاي الأمير أبشقهو المتعلقة بقضية الأديغة.

-... هذا هو الوضع القائم: الأديغة مشتتون بين البحر الموطي والبحر الأسود، وبحر قزوين من جهتنا. وبالقياس إلى الأعراق التي تعيش بيننا أو بجوارنا فنحن كثيرون، غير أن التشتت القبلي يلجمنا ويستنزف قوانا. وفي حال الضرورة لا بد من الامتثال لحال التشتت هذه، ولكن للجفاء بين الأعراق نتائج سلبية. كلٌ منا يريد أن يصبح كبير الأمراء. ويتنازعون على من فيهم الأذكى ومن الأقوى. وهذا الموضوع عندنا، القبرتاي، أسوأ مما عندكم. والصراع أشد.

- ساجني يا ضيف على مقاطعتك، - ابتسم لأماف من بين لحيته وشاربيه وهو يمسح عليهما براحتيه، - وفي نواحيننا يعيش الأديغة، الأديغي أديغي أينما كان. حتى إن عاش في تركيا أو في القرم يبقى أديغياً.

- صحيح يا لأماف، صحيح، - فهم ظاظمي مغزى الكلام، ولكنه استعجل حين سمع اسم القرم، حيث ابنه، يريد أن يستدرج المتحدث إلى الطريق الذي

يريده. - لن يصدر منك أصدق من هذا الكلام. إن كنت رجلاً فعليك إبراز أديعيتك في كل مكان. وبيننا من ينسى لغته وعاداته متى وقع بين قوم آخرين. ولماذا الابتعاد في المثال؛ هذا ولدنا...

- يا ظاظمي، يا زعيم الخير، - انتزع الجار منه زمام الحديث تحت ستار الامتداح. - أنت تسهو، موضوعنا مختلف. نعم يا أمير، في كلامك نصيب من الصحة، ولكن أمراءنا ليسوا أقل شأناً من أمرائكم القبرتاي. أوافقك، وجدنا الثاني كان يردد هذا، ولم ينسه والدنا، وأنا أكرره. نهايتنا ستكون على أيدي أمراء القرى الصغار.

قال الأمير أبشقه في سرّه: "هذا العجوز الجالس أمامي قد لا يكون سليل أمراء ولكن ما يعرفه كثير من خلال معرفتي به في هذين اليومين، وما يصل إليه بعقله أكثر. ولو نصبته الآن كبير أمراء لكان قادراً بحكمته على تولي المسؤولية. ولكن أديعيته لا تحب الأمراء وإن كنتم هذا الشعور. أدع إلى الله ألا يلقاك في طريقه وأنت اقترفت ذنباً. ويبدو من تركيزه على الحديث عن خان القرم أنه وجاره العجوز صديقان. وانظر إلى معارضته لي!.. سآتي على ذكر خان القرم أمامك مهما تصرفت، ومهما كان موقفك منه.

- نعم، يا لأماف، يا زعيم الخير، لا اعتراض على شيء مما قلت، - أخفى الأمير أبشقه رياءه، - من ستكون نهايتنا على أيديهم هم أمراء القرى الصغار. لا أنفي وجود أعراق مختلفة في خانية القرم، ولكن حين انتخبوا الخان الأعلى سكت الآخرون. وبعضهم توجه إلى نواحيكم، وإلى أطراف البسلني، تحت ستار الأتاليق¹. ولهذا فسّر تحول التتر إلى دولة قوية هو الطاعة للخان الأكبر. ولا يهاجم الأديغة فحسب، بل روسيا أيضاً تحشاهم.

- كأنك يا أمير تريد أن تقول إننا نحتاج إلى مثل هذا الأمير، - ألقى لأماف نظرة جانبية مرائية نحو الأمير أبشقه.

- أصبت ما في قلبي وما يقلقني أيها الزعيم المبارك.

¹ تربية أبناء الأمراء بخاصة في أسر أدنى قليلاً من أسرهم بقصد توسيع القربات وتنشئة الأولاد على شيء من الحشونة.

- إن كان هذا رأيك، وكانت قضية الأديغة تشغل بالك يا أمير فلماذا لم توافقوا الأمير تيمرقوه بن إيدار الذي توجه إلى جلاخستانيه؟ - صارع لأماف الضيف بما يعرفه.

- لا نتكلم على تيمرقوه في حضرة الأمير المنير الأمير أبشقوقه يا زعيم الخير! - استعجل الحارس دداي - قان ظناً منه أنهم يهينون أميره.

- لا تنفوه يا حارس بعد الآن في حضرتي وفي حضرة زعيم الخير بمثل هذا الكلام. - ساحني يا زعيم، حارسي قليل الصبر. - قال الأمير أبشقوقه دون أن تحتلج عضلة في وجهه، ثم أضاف: - يظن حارسي أننا لسنا في ضيافة الجان، بل على مائدة في قبرتاي الكبرى¹. - ثم سأل بنبرة لطيفة لا تميز جدّها من هزلها راغباً في التمويه على ما جرى: - هل يأتون على ذكر الأمير تيمرقوه في نواحيكم؟

- أما قلنا يا أمير إن الأديغي أديغي دائماً! - مازحه لأماف كأنه غير مهتم بما سمع، - نسمع أحياناً سيرتكم.

لم تمنح الأصوات الصادرة من جهة المسطبة الفرصة للأمير أبشقوقه للرد. دخل زغاشت وتاوتاش إلى المضافة، ووفقاً إلى قائمة الباب.

- ما الخبر الذي جئتما به من حيث عدتما يا ولد؟ - ثم سأل لأماف الضيف مموهاً على خطئه في التحدث إلى ولده أولاً بعدما نظر في وجهي الشابين: - ثم ماذا رأيت يا ضيف في من خالطتهم، وما انطباعك عنهم؟

- كل مؤتمرات الأديغة عندنا وعندكم متشابهة أيها الزعيم المبارك.

- تطابقت آراؤنا إذن يا تاوتاش، - ابتسم الأمير أبشقوقه، ولم يتأخر في أديغيته عن لأماف، فسأل الاثنين وإن كان السؤال موجهاً إلى من نطق باسمه: - ما القرار الذي اتخذته مؤتمر الجان حيث كنتما؟ ارويها لنا!

¹ يقسم نهر تيرك أرض القبرتاي إلى القبرتاي الكبرى غرب النهر، والقبرتاي الصغرى شرقه، وبينهما بعض الاختلافات اللغوية البسيطة.

- يا أمير، - استعجل تاوتاش في الإجابة من أعماق قلبه وإن كان يعرف أن الخبر لن يُعجب الأمير القبرتاي، - لم يُتخذ فيه قرار يريح الأديغة أو يرفع من شأنهم.

- بصراحة، - سأل الأمير كأنه ليس في المضافة غيره وغير حارسه وقد أنساه ما كان يتوجس منه أديغيته: - أي قرار اتخذته الجان إذن؟ - سأل نفسه بنفسه سؤال شائك: - ربما يعارضون خان القرم؟..

- على ما يبدو، - قال ظاظمي قلقاً على الجهة التي يقيم فيها ولده، دون توجيه الكلام إلى أحد، - سيوقعون بنا في المأساة التي تسببوا لنا فيها قبل أعوام على عهد صاحب - جري...

- الجهة التي تطلّع إليها مؤتمر الجان هي جلاخستانيه، الجهة التي يتطلع إليها الأمير الهارب تيمرقوه. - انطلق الآن لسان الحارس تاوتاش. - القرار الذي سترسل بموجبه الوفود إلى روسيا أكدوا عليه بصلاة العصر. - والله هذا معيب... - قلق ظاظمي مرة أخرى.

- ما العيب الذي تراه في هذا القرار يا جاري، - سأل لأماف وقد فهم مغزى كلام الضيوف والمضيف. - نمدح أنفسنا لا نرى أحداً يدايننا، ولكن متى فُقد التفاهم وجب عليك أن تعيش حيث أنت، حسب عصرك. عشنا إلى الآن نقول: إن كانت يدك مدهنة فامسح بها رأسك، انفع نفسك. كنا نستقبل بالخير من يخالطنا وليس في قلبه الخير. ومن تسميه خان القرم لم يفهمنا. أنحن من بخلنا عليهم بالأتالق؟ وهل نحن من تأخرنا عن مصاهرتهم ببناتنا المربيات خير تربية؟ صرنا كمن يقال فيهم: الكلب متى أكل ما رميته له تكبر عليك! مهما قدّمنا لهم لم يرتدعوا عن إيذائنا، بل أتونا محاربين. وتركيا التي تشجعهم على هذا السلوك معنا لا أريد أن أتكلم عليها. حقاً أوافقك يا ظاظمي على أن من الصعب تحمّل خبنا من قبل صاحب - جري. وهل هذه أول مرة يفعل بها خان القرم مثل هذا؟ لن تحطئ إذا اتعظت بالأخبار الموروثة من أجدادنا. إذا عدت متي عام إلى وراء أو أقل قليلاً أو أكثر، ليس هذا مهماً، فنغوي القرم طردوا الأديغة القبرتاي من ساحل بحر آزوف. أجبروهم على الرحيل، فاتخذوا من مكان إقامتهم الحالي موطناً. وربما هذا هو سبب توجّه الأمير شبق إلى

روسيا تحسباً من نوايا القرم نحونا. هل هذا الحل أحسن أم أسوأ؟ يُخَيَّل إليك أن الكلب الغريب عنك يحب العضّ. لن يؤذونا إن خالطناهم. ليسوا أسوأ ممن خبرناهم.

قال الأمير أبشقوه في سره وهو يهمّ بالعودة: "لا فائدة في مناقشة هذا العجوز"، - نسي أنني أمير وأني في حضرته. كأنه يتكلم في مؤتمر الجان الذي لم يصل إليه بسبب لقائنا المشؤوم به. لا أمير في قرية ترام حيث يُضيفوننا. ولو كان فيها لما سمحوا له بالإقامة فيها كما يقول هو. لا يُخفون أنها من قرى الشابسغ الذين لم يكن عندهم أمراء طوال عمرهم. كيف نسيث أن هذا العجوز يحمل نسب "ترام"! وربما كان هذا هو السبب في أن الحضور لا ينادونه باسمه بل "الزعيم المبارك". هو رجل حكيم ذكي لولا أنه عنيد متشبث برأيه. ولا أغبط ظاظمي على جاره. وإن عرف مامي أن لك هذا الموقف من خان القرم قصر عمرك. ولم يفتني ما لمح لي به عبر خان القرم. لا أكتف أن النغوي أصحابي. وأفضّل من تعادونهم على أن يكون عندي أمير مترف مراء. وهل يعرف أن لدى تيمرقوه الأمير المتجه بعواطفه وسياسته إلى روسيا أصحاباً من النغوي، كما يعرف أن عندي أصحاباً منهم، وأنه زوج ابنته الكبرى من بيكبولات خان أستراخان، والتالية لها منتينعمت، الخان الكبير للنغوي؟ يبدو من كلامه ومن عزفه على الربابة، ومن غنائه أن لا شيء يحجّله. لم أسأله، ولم أسمح له أن يبالغ في الاعتداد بنفسه. وكما حللنا عليهم على نحو مفاجئ سنفارقهم. ولكن لن أسمح لهم أن يظنوا أنني أتقبل آراءهم. سألمح لهم برأيي دون كثير من الإطالة. ومهما توددت إليهم فالشابسغ لا يغيرون رأيهم..."

- صحيح، صحيح، يا زعيم الخير، - وافق الأمير أبشقوه متخلياً عن رياه العجوز لأماف الذي كان يدي بآراء لا تعجبه، مكرراً كلماته الأخيرة، - ولم يستطع إلا أن يضيف: لا يعرف الخير من لم يلاق الشرّ. ثم إن هذه الكلمات حسّبت من تخاطبه والسبب وراءها، - لا يجوز مقاطعة خان القرم نهائياً. وبالقياص إلى روسيا المسيحية فنحن جيران، وندين بدين واحد. وتركيا دولة كبيرة. ومن جهة الشمال فقد عبرت البحر الأسود وامتدت حتى لامست ضفاف الدون. ومن جهة الغرب فعلى تسمية الروس تصل إلى ليتوي -

شليات. كنتُ يا زعيم الخير أود ألا أقول هذه الأمور أصدع بها رؤوسكم. وإن لم أوافقكم فما العمل؛ هذا عالمنا الثقيل الذي نعيش فيه. أقول باسم رفاقي: ساجحونا! لو كان ما في ذهن الإنسان، وما يقلقه فكرةً واحدة فحسبُ لفني من ورائها.

- حقاً يا أمير، وافقه الحارس ددائي - قان.

- نعم، نعم، يحدث ألا تتفق آراؤنا وأقوالنا أنا والعجوز رغم أننا في بيت واحد. - تدخل ظاظمي في النقاش. "كانوا قرروا أن يسافروا مع الفجر، فلماذا لا يزالون ساهرين يحللون موضوع الأديغة - النغوي ويكررون. وإن امتد الوقت مزيداً فقد بُلجئُوننا، كما تقول العجوز، إلى خروفين آخرين أو ثلاثة" - ماذا يقولون يا لأماف؟ الدجاجة تحفر قبرها بقائمتيها. ونحن الأديغة، وأُخْصُ الجان، أخشى أن يحدث لنا هذا.

- هل تريد يا ظاظمي أن تقول: من لا يهدأ يلاق مصرعه أخيراً. - أشع من عيني لأماف شيء من السخرية، وأُخَي بكلمات مبطنة متظاهراً بالمزاح: - لا نهجل أنهم لا يحشّون جانب الطريق المُترب، ولا أن الشجرة المريضة لا تحمل ورقاً.

- ما العمل؟ من غشيت المرارة لسانه حُيِّل إليه أن الحلو نَفِد من العالم. قال الأمير أبشقوقه، وضحك وحده. وريت بكفيه الضخمتين على فخذه مَلِيحاً إلى أن الوقت حان للانصراف: والله يا لأماف، ويا ظاظمي، يا زعيمي الخير أبهجتمونا الليلة. وكانت مائدتكم عامرة، وشرابكم لذيذاً. وعزفتم لنا على الربابة ما يُسعد القلب. ولم نترك في إقليم الأديغة مكاناً لم نبلغه بأفراحنا وأتراحنا. وسامحونا إن أفلت منا ما لا يقال. والحق أننا لم نكن ننوي البقاء في قرية ترام كل هذه المدة. بلّغوا سلامنا الصادق إلى أهل القرية وإلى الجان. وسنوصل تحياتكم إلى من سنعود إليهم. وتُطْلِعهم على عيشتكم. حياكم الله، وعشتم بخير وأمان. أدعو إلى الله أن نتزاور على خير. نحن على طريق. إن كانت مطايانا جاهزة فالفجر مناسب للسفر. سنركب.

ضحك لأماف في سره، وهو يستمع إلى الأمير أبشقوقه الذي كان أسر الجميع بطلاوة لسانه، قائلاً: "الحقُّ أن كلام الأديغة القبرتاي يقطر عسلاً، وشرابهم

نديّ، شئنا أم أئينا. ما أشدّ ما يُماطل في انطلاقه. ذكّرني بكلام جدي الثاني: اختصر كلامك، وأطل تفكيرك! هو رجل لبيب لولا إطنابه في الكلام. إنسان يمكن أن تستفيد منه الحكمة والعقل والفتنة والفكرة. وأخمن أنه أمير لا يختلف كلامه عن فعله. مهما قلتُ لم أستطع زحزحته عن رأيه. مرأى لطيف المعشر. أظني يغلب عليّ سوء الرأي في الأمير الضيف بسبب تنافر رأينا، وهذا غير لائق. من سوء الطبع أن ترى عيوب الناس ولا ترى عيوبك. عيبٌ أن أتهم الأمير القبرتاي الذي لم أعان معه، ولم أسافر معه، من خلال سهرة واحدة. يا ربّ، ما تفكير الأمير تيمرقوه الذي نسمع به ولم نقابله، وما مدى إنسانيته؟ الأمير شبق يثني عليه، ابن سلالة عريقة، ويقول إن أسرته متفاهمة، يتبادل أفرادها الاحترام. الأفضل أن تراه بعينيك من أن تراه بعيني غيرك. إن سافر إلى نواحيننا فسأطلب من شبق استضافته عندي".

حين ركب الضيوف باح ظاظمي للأمير أبشقه بما لم يستطع البوح به إلى الآن: - يا أمير، رافقتكم السلامة بإذن الله الأحد. يحزني جداً أنك لم تُقم معنا إلى الظهر. وأفهم أنك على طريق، وأمامك مهمات. أطلعنا أنا والعجوز على أخبار الولد. ولكن كنا نود المزيد من المعلومات عنه. لن يروق لي أن أعلن على رؤوس الأشهاد الحاضرين أنك لم تذق من لحم العجلة الطريفة التي أُعزّها. ولو ذبحناها من دونك لما استمتعنا بها، لا العجوز ولا أنا.

- حياك الله يا زعيم الخير، - بدا على صوت الأمير أبشقه سروره بما يسمع. - إن كان هذا رأيك فاعتبرني ذقتُ من لحمها. ولكن لا تستعجل على العجلة لهذا السبب إذ لا أظن أن ولدكم مامي صديقي الذي فيها رزقه سيدعكم تنتظرونه طويلاً. وليس مستبعداً البتة أن نرافقه إليكم في يوم من أيام الخريف... - هكذا يا أمير؟ - ألقى ظاظمي نظرة جانبية إلى لأماف، والتفت إلى عجوزه من خلال نافذة المسطبة. - لينطق فمك دائماً بالخير! مع السلامة يا ضيوف الأعرّاء.

...

قضى ظاظمي بعض الوقت بعد انصراف الضيوف عاقداً يديه وراء ظهره، لا يريد الدخول إلى البيت، ولا يعبأ بأمر العجوز التي تطلّ من النافذة. ثار من

جديد الخبر الذي هبط عليه فجأة البارحة، دون أن يعرف سببه، ولا ما سيحكم به عليه، ولا ماذا سيتصرف. استند ب صدره على السور لا يعرف إلى من يلجأ وإلى من يتحدث. "من سيفهم قلقي؟ أهى العجوز المستندة كاللوح إلى تلك النافذة؟ هل تسببُ في هروب الولد الوحيد واتخاذ النغوي ملجأ له؟" دخل ظاظي تتحكم به أفكاره المتناقضة إلى إسطل الخيل، لا يعرف ماذا حلّ به. نظر إليه حصانه بعينه الواسعتين الصافيتين كأنه يسأله عن ضيقه، فقال له:

- اطمئن يا حصاني الجميل! ليس لي غيرك أقاسم قلقي. اصطدمتُ بما كنت أتوجس منه. خان القرم الذي يكرهه الأديغة صاحبُ ابني. علمتُ أنه ليس مجرد لاجئ بل زعيم في قصره. فكّرُ أنتَ في زيارتنا له. وأنا سأفكر في مخرج ما. حين عاد ظاظي وقد نفّس عن ضيقه في الإسطل نادته سراس الواقفة على المسطبة:

- الحقّ ما وقوفك في أرض الدار شاردًا؟ لماذا لا تدخل البيت؟ لم يكف ما استنزفنا الضيوفُ القبرتاي فتريد أن تتبعهم بالعجلة!

- يا مَنْ أدخل الله الطاعون في فمها، - انتزع ظاظي عموداً من سور الإسطل متوتراً من إهانة العجوز له. - أيّ شرود وأي عجلة لا تفارقان لسانك؟

هُرعت سراس إلى الغرفة وطرفا غطاء رأسها يرفرفان في الهواء. وأعاد ظاظي العمود إلى مكانه وقلبه يعود إلى طبيعته، ثم نادى من الغرفة التي يجلس فيها وحده دون أن ينطق اسم المرأة حسب التقاليد:

- هيا، تعالي لحظة، أريدك في أمرٍ. ولما لم تظهر سراس بعد لحظات ناداها بصوت أعلى: - ألسِ من ناديتها؛ يجب أن نتكلم في موضوع الولد!

- ما الأمر يا عجوز؟ هل سمعت ما يُقلق؟ - وقفت سراس على الباب بكل هدوء كأنّ لم يحدث شيء.

- لا بد أن أسافر إلى القرم؛ ألا يجب أن أعرف أخبار الولد الذي أرسل إلينا كل هذا؟

- طبعاً يا عجوز، ما نجده اليوم لن نجده غداً. نجلس كالنا دون مورد... بديهي أن تسافر. تراه وتعرف أخباره. وتنصحهُ ألا يثق بكل من يلتقي به في

شأن الذهب والفضة. الضيوف القبرتائي لم يقطعوا خيطاً من زنار الفضة، ولكن من عدّ ما كان في الكيس؟ هل تظن أن أحداً لم يمد يده إليه؟ - أما أمرتك أن تسكتي! كرهتُ ارتيابك الدائم. كيف تستطيعين الاستمرار في الحياة بهذا الطبع!

- نعم يا عجوز هذا هو عالمنا الذي نعيشه - استدرجت سراسُ العجوزَ إلى الموضوع الذي تريده: - نعم من البديهي أن تسافر. من ستقابله، ومن سيكرمك، ويعطيك ابننا؟ وهل تتحمل السفر؟ أليس صعباً عليك؟ ألسْتُ من غضب الله عليها، لا أعرف ما يجري لك في ذهابك وإيابك؟! سأحترق وسأفني نفسي... ولماذا لا تسافر إن كنت واثقاً من قدرتك؟ وهل طريقك قصير! ولكن إن استمعت إلى نصيحتي فلا تصطحب أحداً. ولماذا تُطلع غيرك على ما لا تعرفه؟ الليلة استمعت إليكم بعض الوقت وإن كنت تُهرّني فما أشد اشتياق رجال قريتنا إلى أخبارنا؛ كلهم آذان صاغية. أمّا عدوُّنا الأزلي لأماف القبيح فلا حاجة لأن تأتمنه على أسرارك.

- وأنت يا عجوز لاحظتِ هذا؟.. وحضوره هو ما منعني عن السؤال عن الولد.

- من تظن يا عجوز السبب في قولهم "معروفي انقلب نحساً عليّ، وجاري صار عدوّي؟"

- والله هو نفسه... - قال ظاظمي جازماً حين تفكّر قليلاً في ما سمعه: - إن كان هذا رأيك يا عجوز فسأستعدّ منذ اليوم لرحلة القرم.

- لا حاجة إلى رفيق! - مرة أخرى أكّدت سراس موقفها.

- نعم، نعم، فكرتُ في هذا أيضاً. - قال ظاظمي ونظر إليها بوذٍّ، ثم عرّض بها بصوت أعلى وبنبرة عتاب، عابثاً بلحيته وشاربيه براحتيه الرقيقتين: - ولكن إنسي سؤالك: هل تستطيع السفر وحدك؟ هل تظنينه أول سفر لي؟ - وبعد سكتة أنهى برجاء مُراءٍ: - ألا تعطيني شيئاً مما ترك لنا الولد أستعين به على نفقات الطريق!

- وكيف أرسلتك إلى هذا الطريق الطويل دون نقود؟.. ولكن لا تطمع في الكثير مني. سأعطيك أجرة بداية الرحلة فحسب، والبقية على حساب الولد.

الولد المنحوس يلعب بالذهب وأنت لا تدري. ستعود أغنى مني بكثير.

- اسمع ما تقول هذه، ويم تفكر!.. - ضحك ظاظم من أعماق قلبه مرتاحاً

لما سمع.

VI

قرية فَنَشَقُوهُ ليست كبيرة ولا صغيرة. تريض في الجبل الواقع بين أنابه وطوابسه، بعيداً عن مستخقه، قريباً من ملتقى البحرين الأسود والموطي، تتناثر على أسفل الجبل. وسواء كنت على قمة المرتفع أم في المضيق، ستسمع في وقت صخب البحر الأسود أنينَ موجه كأنه سيهجم على وجهك. وفي ساعات هدوئه تحمل الريح إلى أنفك رائحة ملحه الرطب. وحين تأتي الريح من جهة البحر الموطي إلى الغرب تملأ رائحة الماء غير المالح المملوء برائحة السمك سماء القرية.

منذ اختار الأديغة الإقليم الجبلي الواقع بين البحار الثلاثة: الأسود والموطي وقزوين، موطناً قبل قرون كثيرة، لم يكن من عادتهم الإقامة قريباً جداً من البحر كما تفعل الأقوام الأخرى. وكانت لهم آراء متعددة في الموضوع تعلموها من الحياة، وكان أكثر ما اختبروه منها هو أن البحر يأتيك بكثير من الأهوال من كل النواحي. كانت أعماق المآسي تلك التي تأتي من سطح البحر الهادئ، لا من البحر الذي لا يني يعبر عن قلقه برياحه العاتية وأمطاره العاصفة ومياهه المالحة. كانت السفن تأتي بالغزاة المسلحين الذين لا يعرفون أصلهم. وبالإضافة إلى ما كانوا يسلبونه من أملاكهم كانوا يستقلون ما يحملون معهم من الفتيان الأشداء والفتيات الجميلات أسرى. وفي العديد من القرون التالية لم يعوضوا نقصهم العددي بل ينقصون. ثم ما كان يثير استغرابهم هو تغير أشكال السفن والناس الذين ينزلون منها. ولكن أعجب العجائب هو أنه، لا ثياب الأغراب الغازين من جهة البحر، ولا سلوكهم، ولا ترتيباتهم، هو ما يقلده الأديغة، بل

الأسلحة المشابهة لما عندهم، التي يحصلون عليها، والتي فيها فائدة لحماية أرضهم وشاطئهم.

وكان الأديغة يرتبون حياتهم بما يتناسب مع حال الأرض التي يشغلونها. وكان الخوف الأبدي قد زرع فيهم الحذر فاحتفظوا به إلى جانب رجولتهم وإنسانيتهم. وظلوا يستنبطون من حياة الاستعداد الدائم للرحيل خيلهم، وزيتهم - سلاحهم، ومواقدهم، ومضافاتهم، وزاد سفرهم، ومواطن إقامتهم، وسائر ترتيبات حياتهم. وعاشوا يُبعدون أسرهم وأعراقهم عن مواطن الخطر، ويجاهون العدو بصدور خيلهم.

فكّر قَتشَقوه في كل هذا حين اختار موضع القرية التي تحمل اسمه. وكان قد تذكر شَبَق وأفمقوه اللذين لم يشهد فرحهما، وولده الذي لم يعيش معه، ومات على يد خان القرم. والآن مات والد الأخوين شَبَق وأفمقوه، قضى مع غيره يدافع عن أرضه برجولة في الحرب الأخيرة حين غزاهم صاحب - جري خان القرم. وكان وقتها في الحادية والتسعين من عمره. وكان الأمير شَبَق لم يبلغ سنة واحدة حين جاء به على غارب الحصان إلى هذه الدار غير المكتملة. وبعد ثلاث سنوات على الحادث وُلِدَ أفمقوه في الغرفة الكبيرة التي أمامها هذه المسطبة المتطولة.

من الجانب الآخر للسور الحجري العالي دار واسعة تقابل البيت المتطاول. وإلى أبعد قليلاً جهة الحديقة بيتٌ يشرح القلب والعين مسقوف بالقصب، له مدخلان. وإلى جانبه غير بعيد عنه بيت شبيه به. ويبدو من جهة ذلك البيت صبيانٌ وصبايا دليلاً على أن هذا الجناح مخصص للنساء. وتبدو المضافة من جهة البوابة قرب مربوط الخيل. وفوقها بقليل، عند منعطف السور، محددة الأخوين، وإسطبل للخيل بثلاثة أبواب قريب من المضافة ليكون بلوغه سهلاً عند الحاجة. وفي مكان آخر فناء للمواشي وبئر. وأمام الغرف أشجار فاكهة متنوعة. وعناقيد العنب تتأمل الشمس بعين راضية.

لا تعرف الراحة المطحنة الحجرية المنصوبة تحت مظلة، غير بعيدٍ عن مخزني الذرة المحاطين بصفائر الفلفل، والثوم، والبصل. يديرها الرجال بالتناوب.. يصبون فيها اللحم المجفف المقطّع الممزوج بالدخن والفلفل والملح والثوم. ويهيل منها

مسحوق أبيض مُشربٌ بالحمرة يصبُّ في وعاء من القصب مستدير. وبالقياس إلى طخن الذرة والقمح يحتاج طحنُ زاد الطريق إلى قوة وصبر. وأصعب ما في الأمر حين تعلق قطع اللحم الملتفة على العظم فيضطرون إلى رفع الرحي لتمريها. وهذا هو السبب في إعفاء النساء اللواتي يسلقن كل هذه المواد من الطحن. وليس هذا وحده بل يُعَدن حين يُنحل هذا الخليط لأن هذا ليس من أعمال النساء.

الجو حارٌّ غير أن الثلاثة الجالسين في المضافة المنعشة لا يشعرون بالحرارة. دودارقوه الأمير الأباظي أصغر عمراً من المضيف، ولكنه يتبوأ صدر المجلس لأنه ضيف قادم من بعيد. ومقابله على طرف المائدة يجلس شبق. وأفمقوه لا يمد يده إلى العنب على المائدة بين الضيف وأخيه الأكبر، بل لا يجلس إليها، فيقف إلى جانب الباب.

- يا أمير شبق، - قال دودارقوه، - لم أندم على أي سمعتُ كلامك. كنت سأبقى على الطريق شهراً كاملاً إلى الأباطة والبسلني ذهاباً وإياباً. والفرسان الذين رجعوا س يحملون معهم الخبر. والحق أي أوصيتهم ألا يستعجلوا على عودتي لأن طريقي قد يصبح طويلاً.

- على كلامك يا ضيف، - قال الأمير شبق مسروراً لما يسمع، - كنت واثقاً من المهمة التي سافرت لأجلها.

- أكثر من الثقة يا أمير، - ابتسم دودارقوه بوجهه الطلق المرتاح بالتوافق مع نظرتة إليه. يسرني أن ما أكدوه لي قد تحقق. وكما أن خان القرم لا يدع لكم مجالاً للراحة، فكذلك لا يريحنا أمير النغوي الكبير وغيره من الخانات الصغار الظالمين، ولا يريح قرى القبرتاي المتناثرة حول جبل مشقوه. لماذا صحب الأمير تيمرقوه أسرته إلى جلكخستانية في رأيك؟

- وهل تظن يا أمير أن النغوي وحدهم السبب في هجرة الأمير تيمرقوه؟ - سأل شبق، والثفت إلى أخيه الأصغر. وأضاف دون توقف: - أنا، مع موافقتي على ما قلت، لي رأي آخر.

- وأنا، لي موقف آخر بالإضافة إلى ما قلت يا أمير، - لم يكتف دودارقوه ما يشك فيه. - أظن جماعة الأمير أبشقوه بن قايتقوه يعكرون عليه الأمن.

- وهذا سبب، ولكنه ليس الوحيد.
- إن كنت تعرف غيره فهاته، سنسمعه، - تناول دودارقوه الأمير الأباطي من العنب. والتفت إلى أقمقوه يريد أن يقول: سنسمع رأي الكبير، وابتسم، - مرة أخرى إن تطابقت هواجسنا وافقناك.
- الأمير تيمرقوه زوج ابنته الكبرى والوسطى لخان أستراخان وخان النغوي ولكن من الواضح أن أموره في القبرتاي الكبرى تتعرض للعقلة. استدعاه الأمير جلخستان حاكم تيرك فنجحت أموره حين ذهب إليها كملجأ. وصار أقرب أرضاً من قريه بيكولات خان أستراخان، ولكن من يعلم ما سيحدث إلا الله.
- وليس صهره أمير النغوي الكبير تينعمت بن إسماعيل بعيداً عنه. - أفهم دودارقوه أنه مطلق على المشروع الجديد. - ساجني يا كبير على استلام دفعة الحديث منك. - تدخل لأول مرة أقمقوه. التفت إلى الأمير ورد إليه نظرتة المرائية السابقة بمثلها. - الجميع يعرفون أن الأمير تيمرقوه يثبت أساسه. سنى هذا الرجل بالتأكيد أميراً كبيراً للقبرتاي.
- ليصبخ إن شاء! - باح أمير الأباطة الآن بما يشغل باله، - شريطة ألا يتحالف مع خان القرم كما فعل الأمير أبشقوه.
- إطمئنا من هذه الناحية. قال شبق للأمرين وكأن مجموعة متفاهمة تجادله، - من ذكرتما اسمه لن يحالفه أبداً. لا تنسيا أن الخانين الأكبرين يعرفان أن عواطفه نحو روسيا. يخيل إليّ أن الأمير أبشقوه اتجه إلى حيث اتجه أقرباؤه كي لا يسمح للأمرء الكبار ومن يتحالف معهم من الأمرء الصغار أن يتغلبوا عليه. فإن سمع أننا نسبقة إلى هذه الناحية فلن يكون راضياً.
- صحيح يا أمير، صحيح. - قال دودارقوه من أعماقه بصوت عالٍ، - لم أعبأ، إن كنتما تتذكران، برفض جماعة الأمير أبشقوه زيارة أمير البسلني مشقوه إيفان المتحالف مع أمير الأباطة يَلْبَرْقوه، لروسيا. ولكني استغربت احتجاج الأمير تيمرقوه.
- ما العمل يا أمير إذن؟ حتى من ولدتهم أم واحدة لا تنفق آراؤهم. - قال الأمير شبق، ونادى مبتسماً إلى قلقته الذي كان ينظر من الخارج عبر النافذة باسماء: - الآن يا جاري لن تستطيع مهما وبختك ومهما عاتبتك أن تتخلص

من عنادك الأزلي. ولكن التفّ حول النافذة وادخل من الباب. هيا يا أخي الصغير استقبلِ جارنا قلقت!

- هل هو يا أمير من اختطف الرجل من وسط ساحة مؤتمرالجان قبل أيام؟ لماذا تطلب من أخيك أن يستقبل من لم يحترمنا بالاحترام؟ سأل الضيف دودارقوه مستغرباً سلوك الأمير شبق غير المألوف لدى الأباطة، وألح على عدم رضاه عما سمع: - ما تغفرونه في نواحيكم للفلاحين لا يغفره أمراؤنا.

ابتسم شبق في سره كي لا يدع الأمير الأباطي يشعر بأن كلامه مضحكة. ولكنه أفهمه ما وراء سلوكه:

- هناك اختلاف ما بين علاقات الأمراء - الفلاحين في نواحيكم، وعلاقة المتنفذين - الفلاحين عندنا. لم يكن عند الجان أمراء في أي عصر. وإن رأيت في المؤتمر، ولاحظت في الأيام القليلة التي عشتها معنا، فالاختلاف بين الأعراق المتنفذة والفلاحين لا يكاد يُذكر. نحن آل قنشقوه لم نكن أمراء قط. أظن أن السبب في مناداتنا بالأمراء هو أن جدنا قنشقوه كان سليل أسرة متنفذة استطاع أن يُطوّع عرق الجان ويقودهم. - واختتم شبق ساخراً من نفسه وممن يتكلم عليهم: - ربما كنا فقدنا لقب الأمير لو لم نكن راضين به.

- لا بأس إذن. - منح الأمير الأباطي لنفسه شيئاً من الأهمية، وشهد على تبرئته نفسه: - لا بأس في أن تسأل عما لا تعرف.

- ولكن لا تظن يا أمير أن الجان كلهم ينادوننا بلقب الأمير. ومن طلبت من أخي الأصغر استقباله واحد من هؤلاء. ألا ترى تأخره تعبيراً عن لامبالاته! دخل قلقت متأخراً إلى المضافة بكل ضخامته، وبدأ أفمقوه من ورائه بصعوبة. ورغم أن الجار الفلاح كان يصغر الأمير شبق كثيراً فقد نحض قليلاً لاستقباله. وحيّاه، ودلّه على المقعد الذي بجانبه:

- تفضّل، اجلس يا جاري.

- حياك الله يا زعيم الخير. تفضل بالخير بإذن الله. - ألقى قلقت وهو يجلس نظرة جانبية إلى الأمير الضيف الذي لم يكد يحرك مؤخرته استقبالاً له. وسأله كأنه قلق عليه، لا يرى من اللائق به أن يُطلعه على عدم رضاه عنه: - يبدو أنك تعبٌ أيها الضيف، هل سافرتم الليلة إلى مكان ما؟

- لا، خُيِّلَ إليك فحسبُ، لا نزال نتحضر منذ أيام لطريقنا الطويل.
- لا بأس إذن. أنا رعيثُ الخيل قليلاً، ولكن مع ذلك فالكسل يُفني الإنسان.
- أليس صحيحاً يا أمير؟
- لا يُفنيك فحسبُ بل يحدث أن يقتلك.
- قال دودارقوه الأمير الأباضي: "ليست هذه أول مرة أخالط فيها الجان، بل الثالثة. وفي كل مرة أَطَّلِع على عادات وتقاليد لهم غير معروفة عندنا. لن ترى في غير الأباطة أيضاً مثل تلك العلاقة التي بين أمراء البسلني والفلاحين. البسلني والجان، والمخوش الذين كنا في ضيافتهم في طريقنا إلى هنا، واليَجْرَقَواي، والجمكوي والبجدوغ، وغيرهم من أعراق الأديغة لهم شرعة الأديغة نفسها. ويلبسون الرِّيّ نفسه، ولباسهم الحربي وسلاحهم هو هو. ولا تختلف أطباقهم كثيراً. وهم متشابهون، إن نظرت إليهم واحداً واحداً ذَكَرُوكَ مِنْ تشابهِهم بمن رأيت أولاً. ونساؤهم ونساؤنا الأباطة متشابهات في تربيتهن. وجوه أغلب الجان بين الأسمر والأشقر. تغلب عليهم العيون السُمُرُ الصافية. ووجوه أناسنا بين السمر، والصبح، والشقراء. وبينهم زرق العيون. طباعُهم حامية، نزيقون. لا يتخلون في أي ظرف عن إنسانيتهم ورجولتهم ورحمتهم. غير أنهم يختلفون في علاقات الأمراء - النبلاء، والأعراق المتنفذة - الفلاحين، والعبيد - الخدم. البسلني أقرب إلينا نحن الأباطة. ولا أظن أحداً يمكنه التفوق على الجان في علاقاتهم ومشاعرهم المتبادلة. هؤلاء، حمواتهم وكنائهم، وبناتهم وخادماهم، يمارسن العمل نفسه دون تمييز، دَعَكَ من رجالهم. ولو لم يكن إلا انتشالنا عربة الخطب من المستنقع ونحن عائدون قبل أيام لصلح أن يكون قصة. لم يكفِ أن حراسنا ساعدوا الثيران على الخروج بل حُضْنَا نحن أيضاً في الوحل. جعلنا مضيقنا نقضي النهار كله إلى جانب النبع نغسل ملابسنا ونجففها قائلاً: "وهل اللباس مشكلة؟ سيزول عنه الوسخ بغسلة، قد فعلنا حسنة مع البهائم إذ لم نتركهم لمصيرهم. وأعجب ما رأيته هو الأمير أفمقوه يدير الرحي مشمراً عن ذراعيه، يطحن معهم زاد الصباح... وماذا عن الفلاح الذي جاء يستعير موسى الحلاقة؟ أجلسه أمامه، فشَدَّ له لحيته وشاربيه..."

- صحيح يا شبق، صحيح، - صاح قلقت راضياً عن تفهّمهم قلقه، وانتشاله الضيف من أفكاره، - لا أعرف أين أذهب بنفسي لأنني لم أخرج من البيت البارحة واليوم. ساعدت الفلاحين في الطحن قبل أن أقف على نافذتكم فنقّسْتُ قليلاً عني، وحين عرفت أنكم ستحملونه معكم في الطريق إلى روسيا تركتهم عاتباً على نفسي.

- ما الأمر يا قلقت؟ ألا توافق على القرار الذي اتخذته مؤتمر الجان؟ - استعجل دودارقوه مكان أمير الجان شبق، وأضاف مؤكداً كلامه: - وهذا القرار نفسه اتخذه الأباطرة الذين خرجت منهم.

- إن كان هذا رأيكم، وتعتقدون أن من تتأملون مساعدته سيفعل لوجه الله فهذا حسن، - لاحت أسنان قلقت البيضاء المترصّة، ولمعت عيانه الصافيتان اللتان يغلب عليهما التفكير، - ولكن إن أردتم الحقيقة فأنا غيرُ مهموم بما أنتم مهتمون به. أظنكم تسافرون عبثاً.

- هل تنقض قرار مؤتمر الجان؟ - سأل الأمير شبق كاظماً غيظه لم يعجبه ما سمعه. - وهل أنت أعقل من مئات الفرسان الذين أيدونا بخناجرهم المشهّرة؟ رفع دودارقوه رأسه فجأةً مما سمع. ولكن سؤال مضيفه المعبر عما في قلبه هو أعاد إليه الهدوء. وأعاد رجلاً على رجل بعدما رفعها عنها. والوحيد الذي يعرف أخبار قلقت أفضل من غيره، والحديث الذي دار قبل لحظات، وهو أعمقوه، ابتسم واقفاً على الباب مخفياً مشاعره. وحين ألقي شبق نظرة على الأصغر الذي جاءهم بلامبالاة أعاد إليه الوعي.

- وأين أذهب بنفسي يا أمير مخالفاً زعماء الجان الأخيار؟ - نطق قلقت لقب "الأمير" لأول مرة أمام الضيف. ولم يكتف ما في نفسه: - لا أعرف إن كنت عاقلاً أم مجنوناً، ولكني أخبرك أنني لم أكن من بين الذين شهروا خناجرهم.

- كلُّ إنسانٍ حرٌّ في ما يقول ويفعل يا جاري. - لا نمنع أحداً من إبداء رأيه. هذه طبيعة العلاقات بين الجان. نتصرف وفق رأي الأكثرية. تراجع قليلاً الأمير شبق الذي يعرف طبيعة جاره كي لا يثير مشكلة في حضرة ضيفه، ولكن لم يستطع إلا أن يعرّض بسلوكة أمام المؤتمر: - ظننت أنك توافقنا حين سحبت وفتح المحتقر من الناس، الذي شرع يجادلنا دون أن نعرف السبب.

- وهذا ما ظننته أنا، - وافق دودارقوه المضيف أيضاً.
- أيها الزعماء الأخيار، - ضحك قلقت ثانية وأسنانها البيضاء تلمع من بين لحيته السوداء وشاربيه، - لم تفهموا السبب في ما فعلت بؤتغ الأعرج. - واصطنع سعلة وأضاف بنبرة فيها شيء من الخبث: - لا أعرف الخبر الذي ستأتون به من طريقكم القادم، ولكن كان لي فيه فائدة من جهة ونتغ. لم أقبل ظهور سليل القذارة وسط ساحة المؤتمر، ولا قبولكم بتصرفه وأنتم تعرفون عنه ما تعرفون.
- وماذا قررت أيها الزعيم المبارك بشأن المجرم ونتغ، لم أسمع شيئاً؟ - سأل الأمير شبق يريد وقف الجدال، وتحقيق ما يريد المضيف والجار والضيف.
- لا تحسدوا ونتغ. - لم يدع قلقت من في المضافة ينتظرونه، - أرسلته إلى تركيا يصرخ لبيع فيها بخمس كوبيكات ذهبية.
- هل تعني أنك ربحت من المجرم القذر خمس كوبيكات! - استغرب دودارقوه.
- وكيف أجني من المجرم ذهباً أيها المضيف؟ أنا من دفع لأجله. لم أكن أريد إلا أن يغرب عن وجهي.
- والزاد الذي كان في الطرف على صدر كسائه؟ - كان أفمقوه يعرف خبره ولكنه يريد إطلاع الحضور عليه.
- وكيف أسمح لمن طلبت أن يرموه على الشاطئ التركي باصطحابه يا أفمقوه؟ - تقاسمته مع أول فارس وحيد التقيت به.
- ومن يا ترى هذا الفارس الوحيد؟ - سأل دودارقوه الآن وقد بدا عليه القلق، - أياكون مجرمًا مثل ونتغ؟
- لا يا ضيف، لا مجال للشك فيه. هو أبزاحي من أسرة تسي، اسمه داور، هو الآخر يبحث عن عمه الذي اختطف إلى شاطئ البحر. ربما أصغر مني بستين أنا الذي في الخامسة والعشرين. شاب ممتاز يتحلى بالرجولة والرحمة والاحترام.
- هذا ما يحدث في أسرة الأديغة - الأباطة يا أمير، - تنهد شبق مما سمع من خبر الفارس الوحيد... سواء وافقنا قلقت أم لا فليس في داخل أسرتنا نظام. يشي بعضنا ببعض. ويغتاب أحدا الآخر. ونسرق، ونتفانى. وندمر من يبرز فينا. ونعمل على إفشال من يُتوسَّم فيه الخير. ونصرع من يحاول النهوض من

عثرته. وإن كان أقوى منا أشعنا عنه ما لم يقله وما لم يفعله بهدف النيل من كرامته... نزعم أن شرعة الأديغة تُربينا ونعتد بها ولكننا لا نرى ما يقفأ أعيننا من مفساد يجب اقتلاعها من حياتنا. ومتى تجالس اثنان منا اغتابا ثالثهم بدلاً من البحث في عيوبنا. ومن نغتابه يعيش على راحتته، يسرق ويُجرم، على مبدأ: "أنا حرٌّ ومَن في العالم أقتدي به؟!"

- وأنا فكرت اللحظة في هذه القضايا يا أمير. ونحن الأباطة فينا كلُّ هذه المثالب. - ثم اختتم بما يقلقه: - وكيف يُطيعك الفلاحون، والأمراء لا يتفقون؟!

- الآن أيها الزعماء المباركون، وإن شئتم أيها الأمراء، أوافقكم. - صاح فلقت راضياً عما يسمع في المضافة، وفرك راحتيه بلا قصد وإن كان يعيب على نفسه ما يقوله في حضرة الأكابر سناً. أكرر ما قلت: إن كنت لا تعتمد على نفسك، بل على أيٍّ كان: روسيا، القرم، تركيا، فارس، في أي جهة: شمالاً، جنوباً... وتريد أن تستدرجه إلى الأديغة غير المتفقيين، ليتدخلوا في أمورنا، فلا أوافقكم. - ثم نهض قائلاً بين الجد والمزح: - تعال يا أفمقوه، يا جاري الأسنّ، لن نقطع الأفكار التي نبتت بين أمراء الأديغة. أحتاجك في أمر إن لم يكن عندك مانع.

بقي الأميران وحدهما لا يعرفان سبب الانصراف المفاجئ لقلقت فتبادلا النظر كمن علقا في مستنقع لا مخرج منه. ثم نقض الأمير الأباطي الصمت أولاً: - جازكم قلقت هذا يا أمير أرى فيه رغم صغر سنه بالقياس إلينا، وخلافاً لِمَا يوحي به مظهره، رجلاً عاقلاً. ولكن لا أعرف مصيره متى اكتسب قلب الرجال.

- نعم يا أمير، نعم، أنت على حقّ. أسرته تتميز بضخامة الأجسام، فورث جسده من والده. كان المرحوم شجاعاً رحيماً إنساناً بمعنى الكلمة، ومن ضحايا هزيمتنا أمام صاحب - جري. ثم لحقت به والدته غير متحملة ما جرى لزوجها، فعاش مع أخته الصغرى يعتني أحدهما بالآخر إلى أن سرق ونتغ الفتاة في العام الماضي، وباعها لتاجر من النغوي. فبقي كما تراه وحيداً. يخدم نفسه بنفسه، ومتى سافر غاب بضعة أشهر. دأبه مكافحة أمثال المجرم ونتغ. يقتلهم،

ويتبرع بما يستولي عليه من أملاكهم للأرامل. ويُعيد الأسرى والأطفال الذين ينتزعهم منهم إلى أهاليهم. والحق أن جاري قلقت لا يستحق اللوم؛ ساحمه إن لم يُرضك شيء مما بدر منه.

- لا يا أمير، لا عتب لي عليه. الحق أني لم أوافق على ما فعله بنا في ساحة المؤتمر، ولا على وقوفه إلى النافذة، ولم تعجبني كلماته الأولى غيرُ المسؤولة، ولكن حين أعدتُ التفكير في الأمور التي قال إنها لا ترضيه تعيّر رأيي فيه. أليس له أهل وأقارب؟

- إن لم تعتبرنا نحن أهلاً فلا أحد له في العالم. والده ووالدته أتيا بهما من الأسر إلى قريتنا، فبقيا فيها لا يعرفان أصلهما. وتزوجا. وتباينت أقوال الناس في أصلهما: أمّه جيء بها من جهة أدميه، ووالده من جبال الأبراخ. وليس مستبعداً أن يكون جيء بهما من جهتكُم، الأباطة. - ضحك الأمير شبق من كلماته الأخيرة.

- لماذا تضحك يا أمير؟ ولم لا يتبين يوماً ما أن والدته قلقت من الأباطة. - لم يملك دودارقوه إلا أن يضحك من جوابه الأخير. واختتم بعد سكتة قصيرة: - زوّجوه يا أمير، وليؤسس أسرة، من الواضح أنه سيكون له شأنٌ مستقبلاً!

...

أفمقوه وقلقت جالسان تحت شجرة التفاح. قلقت بملابس رقيقة، وكساؤه القديم معلق بالشجرة. ويرتدي رغم شعوره بالحر بقعة من جلد الخروف ورثها من والده. يجلس على مقعد وطيء مُسنداً قدميه الضخمتين إلى جذع الشجرة. وأفمقوه الجالس إلى جواره لا يبدو من وراء ظهر مُجالسه إذ لا يساوي ثلث قياسه.

- ما الأمر يا فلقت؟ لماذا لا ترفع يديك عن لحيتك وشاربيك؟ - سأل أفمقوه وهو يختبر حِدّة الخنجر بيده. وبدأ يمهد لِمَا سيطلبه منه: - أنظر إليك فأرى لحيتك - شواربك تليق بك.

- ألسن يا أفمقوه من طلبتُ منه أن يحلق لي بدلاً من أن أفعل بنفسِي؟ - لا ترجني إذ قررتُ ما سأفعل. لا تشكّ في خنجر والدي، احلق به لي!

- هذا سهلٌ عليّ... ألا ترى نفسك يا قلقت أحياناً في المرأة؟- يماطل أفمقوه
في ما طُلب منه. - ألا تعرف كيف تصبح حسن القوام متناسقاً مع لحيتك
وشاربيك؟ وسأقول لك شيئاً آخر: لا تنس أنها تزيد في جهامة وجهك حتى
تتملاً قلب عدوك رعباً.

- نعم يا أفمقوه، نعم. حياك الله، قلت لي إنك لن أندم على ما طلبت منك.
كنت قررت ألا أبوح بسري لأحد ولكن إن لم أبح لك به يا صديقي العتيق
فإلى من أبوح به؟! هل تتذكر كيف كانت الصبية نُكّرُ التي أصارحها بما في
قلبي تتأمل لحيتي وشاربي بعينين مرتعبتين حين ذهبنا إلى قرية تامي لمغازلتها؟
لماذا أرعبها إن كانت ستصبح شريكتي؟ هيا احلق لي على الصفر. أتوقع أن
يعجب وجهي الحليق الصبية التي في أول شبابها. متى صارت في بيتي، وألفنتي،
ولم تعد تطيع أوامري، أطلقت لحيتي المربعة وشاربي كما تقول. سأخيفها بها،
هيا إلى الموسى!

- سأفعل، لا أسهل من هذا، ولكنك ستندم يوماً ما يا صديقي القديم.
- إذا كان من أجل نكر فلن أندم! - جزم قلقت، وشرب كأس ماء التي مدها
إليه برشفة واحدة: - شكراً، كنت عطشان.
- لم أقصد أن أروي ظمأك، بل أردت أن تبلّ بها لحيتك وشاربيك. - لم
يستطع أفمقوه إلا أن يعاتب صديقه وإن رأى تصرفه مضحكاً.
- كنت تنوي أن أبلّ لحيتي وشاربي فتسخر مني كالدبّ الأصهب الذي حموه
في الماء؟

- قلت أمام الأمراء الأكبر سنّاً إنك لا تخطو خطوة ليس فيها فائدة لك، ولذا
فسأحلق لك مرعباً كل من ينظر في وجهك رغم تنبيهي إياك إلى أن ابنة
زغاشت بن لأماف زعيم الخير لن تعجبها هذه الحلاقة. وفي الحال حلق أفمقوه
إحدى وجنتي قلقت مستغرباً عدم اختلاج أي عضلة في وجهه.

- يا للراحة يا أفمقوه! - كان قلقت مسروراً لما فعل وإن كان يشعر ببعض
العار وهو يمسح على وجهه الحليق، - تنفّس وجهي، - ثم لام الأجداد
متفاخرين بما فعل: - لا أعرف ماذا وجد الأديعة في اللحية والشاربين، مُضفين
على وجوههم العبوس... هل ستعيد الكّرة على وجنتي؟

- نعم، مرة أخرى، سأجعل نكر ترى صورتها في وجهك. سأخلق لك بموسى أنعم من هذه.

- لا، لا تجرحني لأننا سنذهب الليلة إلى نكر.

غمغم أفمقوه وهو يسئ الخنجر:

- أنا مسرور لأني أرعبتك مرة... - ثم تذكر قبل أن يفكر في الجواب إرساله ونتغ الأعرج إلى تركيا، فسأله عما لم ييح به أمام الأميرين الأكبر منه سنًا: - الحق يا قلقت ماذا ستفعل إن عاد المجرم الذي عبروا به البحر؟ لماذا لم تُرهق روحه بدلاً من هذا التعقيد؟

- ما أكثر ما توسّل إليّ من أجل هذا، ورفضت. فضّلت العذاب الذي سيسومونه في تركيا يوماً، أسبوعاً، شهراً... لا أقول إنهم لن يطعموه البتة هناك، حتى الكلب يرمون له قطعة خبز. ولكن أن تجرّ رجلينك في بلاد غريبة، تنظر عبر البحر من بلاد غريبة، فتري بلادك في قلبك، ألم من الموت بضربة سيف. إن عاد فربما فعلتُ به ما اقترحت. تجرّي في العالم مفاجآت كثيرة. إن رجعت اعتبرته رجوعه نوعاً من الرجولة وفكرتُ في حلّ آخر. ولكن ليس هذا ما أفكر به يا أفمقوه. - توهجت وجنتا قلقت، وخار صوته قليلاً. - لم أكن أريد أن يلوّك الناس سيرتي في شأن ما فعلتُ بلحيتي وشاربي من أجل نكر، ولذا فليبقَ بيننا. حياك الله يا أفمقوه، عاملتني منذ طفولتي دون اعتبار لعلاقة النبيل بالفلاح. أنا واثق منك.

VII

تاريخ الأديغة فصول متعاقبة من الآلام.

وكان القرن الثالث عشر من أشقّ الأزمنة التي شهدتها الأديغة. جحافل الفرسان التتر - المغول بقيادة باتيخان حفيد جنكيز خان، غزت شمال القفقاس كموج البحر، محاولة ما تصل إليه إلى رماد، ثم عبرت إلى أوربا. حمت الجبال، الملاجئ الأزلية، الأديغة رغم أن النار لفحت وجوههم. ولم يسمحوا للهب المتطاير أن يجرفهم. ولم يقولوا إن كنتم تجرون فنحن أيضاً نجري، فيجرفهم الغبار المتطاير من حوافر خيلهم. حموا أنفسهم، ولكن مهما فعلوا، ومهما قاوموهم، وتشبثوا ببلادهم، لم يستطيعوا تجنّب الوقوع تحت سيوفهم المعقوفة، وتحت نير إتاواتهم. وقد حدث هذا في عهد مؤسس خانية القرم حاج - جري في منتصف القرن الرابع عشر وبالتحديد في عام 1499 الذي استقروا فيه في القرم باعتباره خانية للتتر - المغول. كانت عيشتهم تعتمد على التنقل والمواشي، ولكن قبل هذا على الإغارة على جيرانهم، وفرض الضرائب عليهم، وملاحقة من يرفض الدفع بالحرب، وتجارة العبيد، وفرض الرسوم على التجارة العابرة أرضهم.

سيطر خان القرم على الأديغة المعتادين الحرية منذ الأزل ولكنهم لم يتحملوا سلوكه. حين تحالفت تركيا مع خانية القرم زاد تحمّلهم صعوبة، ولم يعد الأديغة يعبّون بما يدفعون من إتاوة، بل بالإهانة من انتزاع أولادهم منهم. وإذا كان هذا يسيء إلى شرفهم فعلاقات الأديغة - القرم كانت مرّكة بطريقة عجيبة، فمن جهة يتصارعون، ويسفكون الدم بينهم، ومن جهة أخرى يتواصلون ويعتبر بعضهم بعضاً أقرباء وأهلاً، فيزوجون نساءهم من أولاد الخان، ويتطوعون في جيشهم، فليس من يخدم منهم في قصر الخان قليلاً. والأسر الأديغية المتنفذة يريّون للنغوي أولادهم في بيوتهم صبايا وصبيان، على طريقة الأتالق فينشئون الأولاد على الروح الأديغية، واستعمال السلاح والدفاع عن الحرية، وحبّ الوطن، والتصرف في الأزمات. ويريّون البنات على الأخلاق والتهذيب والحفاظ على شرف الجسم وآداب الحديث، والتعامل مع أسرة الزوج، والمهارات الفردية والطبخ والكوي... وربما لم يكن السبب أن النغوي لا يعرفون

تربية الأولاد فما من قوم إلا لهم فضائل كثيرة، ولكن نمط حياتهم القائمة على الترحال المستمر مختلف عن حياة الأديعة.

ثم تنهض فكرة أخرى من هذا الوضع: عامة الناس لا يتعاملون بهذه العلاقة: الأتاليق والأولاد الذين يربونهم، بل درجت بين الأمراء - الخانات - الأسر المنتفذة. ولكن حين يصل الأمر إلى الملك والقوة فمن تلجمهم القربات كانوا قلة. وكانت العلاقة نفسها قائمة بين الأديعة والترك.

وإذا كانت علاقات الأديعة والخان القرم مختلفة ففي بحجساري، لم يكن استعمال لغة الأديعة بعد اللغة التتية - النغوي قليلاً: تسمعها في الدكاكين والأسواق والبيوت، وعلى السنة الأطفال في لعبهم. وتعبث بالقلب في أغنية مفاجئة.

ليست بحجساري مدينة جميلة. ولا ترى فيها بيوتاً واسعة. وهي مسقوفة بالقش والقصب غير متقاربة ولا متباعدة، متقابلة ومتراطة بالدروب المعشبة. والشوارع المثربة تتلوى وتتطاوّل فتلتقي عند قصر دولت - خان. وأعرض شارع يستعمله الناس هو الشارع المؤدي إلى قصر الخان. وعلى جانبي الشارع تقوم الدكاكين، والمطاعم - المقاهي، ومجالخ الخناجر والسيوف، وورشات الحدادة التي تصدر منها أصوات الطرق على السندان، والمدابغ. ومئذنة الجامع ترتفع عالياً، وفناؤه نظيف واسع. والأطفال المتجولون يبيعون الشاي والماء. وضجيج البيع والشراء يعيش في سماء المدينة. ويُسمع نقيق الحمير مختلطاً بصهيل الخيل. والديكة لا تكلّ عن التذكير بالوقت. فتتجاوب بين أعلى المدينة وأسفلها.

يتوقف الناس الذين رأوا الفرسان الثلاثة يتدافعون، ويتعدون إلى جانب الطريق، أو يلتجئون إلى الدكاكين. ومن لم يجدوا الفرصة للابتعاد يحنون ظهورهم. ومن لم يحنوا يلهب الفرسان ظهورهم بالسياط:

- احنوا رؤوسكم، اركعوا على ركبتكم! موفد الله، خان القرم دولت - جري عائد من الحرب!

ووراء الفرسان مشاة يرشون الماء ليستقر الغبار. ودولت - جري الذي يثير حصانه بعض الغبار يتقدم الفرسان السبعة. وإلى جانبه حارسان يتأخران عنه بمقدار رأس حصان. ودولت جري يستقر خفيفاً على صهوة الحصان، ومن

لباسه ومن تجهيزات الحصان يُشعّ الذهب. وغمدا الخنجر والسيف يلمعان،
والجعبة على يساره مليئة بالسهم. والقوس إلى جانبه يجده قريباً منه عند
الضرورة.

دولت جري أسمى نحيفُ الوجه دقيقُ الأنف، لا يوحي مظهره بأنه تجاوز
الخمسين. ويكتسي العبوسَ من لحيته السوداء وشاربيه. ونظراتُ الحذر من
الفرسان المتأخرين عنه تلقي في قلبك الرعب. ووقعُ الخوافر الحادة تحرك على
الانحناء، وعلى السجود على الركبتين.

كان بعضُ خدم الدار يسترقون النظر إليه حانين ظهورهم ريثما يترجل الخان،
ولكن لا أحد يرفع رأسه. وحالماً أبعدُ حصان دولت - جري هرعَ إليه الرجل
الأديغي النحيف المدجج بالسلاح، وبالزي الأديغي، وقال له حانياً ظهره:

- لا أخبار حسنة من نواحي الأديغة، يا موفد الله يا خاني.
- ماذا الآن أيضاً؟ - سأل الخانُ الرجل الذي لم يرفع ظهره بعد. - ما الذي
لا يُعجبهم؟

- أرسلوا وفداً إلى روسيا عدونا. - حتى الرجل ظهره ثانية بما يعني استعداد
لتلقي ضربةٍ جزاءً على خبره السيء.

- ألم يتوقف قانقوه مشقوه البسلني بعد؟! - استدارت عينا دولت - جري
السوداوان الضاربان إلى الصفرة، ثم نصح بنبرة ساخرة الرجل الذي كسر ظهره
بانحنائه: - كفى يا مامي، ارفع رأسك. هل تظن نفسك تخبرني لأول مرة
بتوجه الأديغة البسلني إلى روسيا؟

- اضرني، إجِلِدْني يا خاني، يا موفد الله، - توسّل مامي بصوت مرتعش. -
ليس البسلني وحدهم بل الجان أيضاً، جماعة الأمير شبق...

- ها، - أنّ دولت - جري مما سمع، وضرب راحته بالسوط المدبب الرأس
بالرصاص، ثم قال له: - لن أغفر لك إذ جئتني بخبر سيء. - انحال بالسوط
على الظهر المحني، وفيما هو منصرف دون جلدة إضافية، قال إلى من وراءه: -
عرج عليّ مساءً متى عاجلتَ ظهرك لتعرف على أخبار الأديغة.

قوّم مامي الذي تلقى ظهره السياط ظهره كأن لم يحدث شيء و إن تضعضع
قلبه. وأصلح وضع الخنجر والسيف وهو ينفذ ثيابه. وعلق بمعصمه سوط

الخليل المدسوس في عُنق جزمته. نظر من فوق حاجبيه خائفاً أن يكون أحد يراقبه ولكن لم ير أحداً في الفناء. ونصح نفسه موهِماً إياها أن أحداً مسح له ظهره: "لا بأس، لم يَقوَ ضرته وأنا أسرد له الخبر المزعج. شهدت كثيرين ممن هم أقرب إليه مني وقد أركعهم على ركبهم. حين أخبرته قبل الآن بخبر وفد البسلني لم يسْطِط إلا مرة واحدة منذ صرْتُ مسؤوله المالي والإداري¹. ولكن حين هاجمناهم انتقاماً انتقمْتُ أنا لنفسي، فرح وفرحت إذ حوّلنا قراهم إلى ركام. ما أكثر من أسرنا من صبيانهم وصباياهم! لم يُبق من المئين الذين اختطفناهم أحداً في القرم. باعهم بالذهب إلى تركيا. وكان بينهم فتيات جميلات ناضجات جديرات بأن يُمنحن للمبغى... وبينهن فتاة رشيقة صبح أعجبني. وأتصور من نظرهما إليّ أني أعجبتهما... ولكن خجلت أن أطلب إبقاها. يا ربي كم عمر نكّر بنتٌ زغاشت الآن يا ترى؟ كانت فتاة يافعة تجلس على أرومة قديمة مستندة إلى لأماف. وكانت أُمي السليطة اللسان تعِدني أن تزوجني منها... وما أخبار والدنا يا ترى؟ عجيب إن لم تكن أُنّا رَحَلته من هذا العالم. ألا يكون الأمير أبشَقوه أوصل إليهما ما أرسلته لهما؟ كان أخبرني أنه سيزور القرم بعد مدة وجيزة. والآن، سيتوجب علينا حسب تطور الأوضاع تأديبُ الجان. سنعاقب الأمير شبق إن كان سيزور موسكو! وهو الآخر يربي فتاة جميلة ويدللها. هي من يجب أن يُرمى بها في أحد مباغي القرم. كنا سنرى كيف يعوي آل قَنَشَقوه. أنا غير مهتَمٍّ بحالي. بلغت الثلاثين وما زلتُ عازباً. سأجد واحدة تصلح سنداً لي بين الفتيات الصغيرات اللواتي تأتي بهن من الأديعة، ولكن عليك انتظارها بضع سنين. وننغ لم تقع عيني عليه منذ وقت طويل... ظهر رجل اسمه قلقت يرتب شؤون إقليم الأديعة فوعدي وننغ أن يسرق لي أخته الصغيرة، ولكن لا أعرف ما جرى له..."

سمع مامي صهيل حصان الخان دولت - جري فانتفض برأسه. دخل الإسطبل بدون صوت، وسأل السائس:

¹ الكلمة في الأصل هي " بسقاق " باللغة المغولية، وانتقلت إلى الروسية. وسنستعمل

الكلمة المنغولية في سائر النص.

- لماذا يصدر حصان موفد الله الخان هذا الصوت؟
- وكيف لي أن أعرف؟ ربما سمع صوت قدومك. - أجاب السائس صادقاً.
- كم قلت لك أن تخاطبني باسم "زعيم الخير"؟
- سامحني يا زعيم الخير! نسيت، - أسرع السائس الأسنُّ من مامي هليعاً.
- لن أغفر لك! - ساطه مامي بكل قوته. - ونحن لننقُص عن ضيقنا مرةً.
اسمع: ادهنْ ظهري باللبن البارد!

كان الظَّهر المتورم يشعر بلذع اللبن الحامض فيستطيل النهار. وكان بيته منعشاً وإن لم يكن مزئياً كبيت الخان الذي يتجه إليه وبالقياس إلى عيشة أقرانه العازبين فحياته مرقَّهة جداً. السجادة المطرزة على الجدار، وعلى الأرض. والمقاعد مغطاة باللون نفسه. ومقعدان عميقان متجاوران. وعلى الطاولة بينهما صحن خشبي مليء بالحلوى. وإلى جانبه صحن متناول مليء بالفواكه. وعلى البساط الجداري خناجر وقرون جميلة. وعلى أحد الجدران عُلقَت مكشاة الذباب المطلية بالفضة، ومن طرفٍ طربوشٌ مغربي مطرز بخيوط الذهب. وعلى الرفِّ قرآن. وعلى الجدار المقابل زِيٌّ أدغيي، وآخرٌ تترى حسب الحاجة.

سأل مامي نفسه راضياً: "ماذا ينقصني؟ كل شيء عندي. تنقصني فحسبُ امرأةٌ أحمل إليها شكاوي وأحزاني. الإهانة التي ألحقها بي الخان اليوم... لا، لم يبدأ بي ولن ينتهي عندي؛ فكيف أعدّ ما جرى إهانة؟ لن أعتب على من يَسُر لي مثل هذه المعيشة ولو سلخ جلدي. كل ما أشتهيه وضَّعه بين يدي باستثناء الزوجة. كل ضيقي سببه غياب المرأة من حياتي، وفي هذا أنا أتحمّل جزءاً من المسؤولية، ويتحمّل الخان جزءاً. لو لم أكن أجد في المبعي مرادي لما بقيت إلى الآن دون زوجة... وخادمتي مريم واحدة منهن... - وسرعان ما غيّر موضوع المرأة التي نطق اسمها خجلاً: - هذا الخنجر الجميل انتزعت من أحد أمراء البسلني. وذاك السيف أفنيت به أسرة من المخوش. ولكن كان الأفضل من كل هذا أن تكون لي زوجة لطيفة..."

نفض مامي حين شعر بأنم مفاجئ في ظهره. ومع تمشّيه قطف أكثر من عنقود من العنب الأبيض والتهمه. ومع انحنائه آلمه موضع السوط فوقف أمام النافذة

ريثما غاب الألم. "ها هو السائس الذي نَقَسْتُ عن ضيقي عبْرهُ يجمع الروث كأن لم يحدث له شيء. ليعرف هو أيضاً أن الجلد ليس متعة. كانت أمي تعَنِّفني كل يوم ولكن تعنيفها كان في محلّه. كنت كالدجاجة تنبش قبرها بقائمتيها. كان عليّ ألا أسمع الخبر الذي جاءني به الرجلان الأديعيان..." حين فارق مامي النافذة وقف إلى جانب الصندوق الحديدي الضخم، واكتفى بالنظر إلى مفتاحه الضخم، ولم يفتحه كما كان يفعل أحياناً. ابتسم مامي وما يفكر فيه يملأ وجهه نضارة: "ليس في كل إقليم الأديعه ما يساوي محتوى الصندوق الصغير داخل الكبير. لم تقع عين أحد من الأمراء والنبلاء والمتنفذين على مثله. يعيشون حياتهم يتناحرون ويتآمرون. وبينهم قلقت الثرثار الداعي إلى لمّ شمل الأديعه والتقريب بين أفكارهم. لا تُحقّق شيئاً من أهدافك بيد فارغة. مهما عابت الإنسان أو نصحته، أو أفنيت نفسك من أجله فلا فائدة دون مال. ما يؤسس للبلاد هو الذهب والفضة".

أعاد أذاً العصر مامي إلى واقعه ولكن لم يفكر في الصلاة. جلس على حافة السرير المغطى بسجادة دون أن تختلج من جسمه عضلة.

"ليحاسب الله الخان على تركي صلاة العصر!..." "خاف مامي أن يسمع موفد الله ما أوحى به عتابه، فعصّ على طرف لسانه يريد أن يكتمه." والله بدأ الوجع يشتد على ظهري. لن أستطيع الذهاب إلى الخان هذا المساء، وإن لم أذهب، - تراءت لمامي في نظرة مفاجئة الأرومة العتيقة في دار جاره العجوز لأماف، فتنهّد عميقاً متذكراً طفولته. وعلى مبدأ: مرض العين ظاهرٌ ومرض القلب خفيّ، فلن يفهم الخان سبب غيابي. الأديعه قد لا يفهمون مرة واحدة في حين أن النغوي لا يفهمون البتة".

فتحت مريم المرأة الرقيقة الباب بحدوء تحمل الإبريق والطست. وضعت أمامه طست النحاس، وأمسكت بالإبريق. المرأة ليست شابة ولا مُسنّة. ربما تكون أكبر منه ببضع سنوات. وقبل زمن غير قصير أُسْتُدْعيت مريم من مبعي دولت - جري. وقد أهداها الخان إليه حين جُلب له مالٌ كثيرٌ من فولاخيا مع مئة وأربعين من السبايا. وافقت الهدية قلب مامي، وفي بعض الأوقات يفكر في اتخاذها زوجة، ولكنه يقول لنفسه: "أكان سلاطين الترك وخانات القرم،

وأولادهم وأحفادهم، بحثوا عن نساء الأديغة لو كانت نساء التتر صالحات؟! لا أظن أن الترك والنجوي لا ينجبون نساء جميلات، ولكن عيونهم على نساؤنا. لن يخلوا عليك بشيء إن أعطيتهم امرأة أديغة أو بعثهم. وهما ابنتا الأمير تيمرقوه كئتان للنجوي. ويقال إن عنده ابنة أخرى تخطف الأبصار. لا ينقطع الأمير أبشقه عن معابتي لأني لا أعرج على القبرتاي، ولذا عليّ الاهتمام بالأمر، والسفر إليه. وما علاقتي أنا بالعداء بين قاتلهم وتيمرقوه؟!.."

غسل مامي يديه دون جهد والمرأة تصب عليهما الماء. ورفع رأسه ببطء ونظر إلى المرأة التي تمسك المنشقة فوق رأسه. وتفقد القبعة المستديرة المغطاة بقماش من الأطلس الأبيض. والثوب اللامع بالنقوش الذهبية، والحذاء القصير الرقبة المعقوف من الأمام، غير أنه كنتم ألم ظهره عن المرأة.

خمن مامي صاحب الخطوات القادمة نحو الباب والمرأة تكاد تحمل أدوات الغسيل، فنصّ برأسه. وقال الرجل المدجج بالسلاح الداخل إلى الغرفة:

- موفد الله خانُ القرم يطلبك حالاً! - واستدار وخرج.

- لم يحن الموعد الذي حدده؛ فما الذي جرى يا ثرى؟ - قفز مامي، ونطق الآن اسم المرأة التي كانت تنظر إليه مُشفقة: - لاحقاً يا مريم، كيف أجلس إلى المائدة والخان يطلبني!

حالما دخل مامي إلى غرفة الخان، أدار سيفه جانباً وحيا الحضور. ثم تراجع إلى جانب الباب. وأمام كل شخصين أو ثلاثة من أعضاء المجلس الأعلى للخانية أقداخ الشاي، وصحون الفاكهة. وكلٌّ من دولت - جري وابنه عادل - جري يجلس إلى مائدة مستقلة. "هل انتهى هؤلاء من صلاة العصر بسرعة؟" قفز إلى ذهن مامي السؤال لا يعرف تفسير جلسة الخان وابنه الهادئة. الخان لا يفوّت صلاة مهما كان ظرفه باستثناء صلاة الظهر الوحيدة التي حرّمنا منها الجان. وكان مسؤولاً عن فواتها نوعاً ما. كنا عاقبنا البسلني والأبزاخ، وفي انصرافنا ونحن مرهقون، وفيما أظننا نتجنب الجان، أمرنا بالهجوم عليهم فلننا نصيبنا منهم..."

- يا مامي - شدّ مامي قامته المشدودة أصلاً حين سمع دولت - جري بنطق اسمه، وصاح:

- تحت أمرك يا موفد الله، خان القرم الكبير.

- غداً قبل طلوع الفجر، - سكت قليلاً يعيد التفكير، - تسافران أنت وابني عادل جري، مع مئة فارس من حرسى، بل مئتين، وتقطعون الطريق على موفدي أمير الجان. منذ متى تمرد الجان الذين عليهم إتاوتنا؟ أيُّ طريقٍ اتخذوه إلى أعدائنا دون خوف من تركيا، ودون استشارتنا؟ توجه إلى عادل جري ابنه بوجه بشوشٍ عابسٍ معاً. - ستلقون القبض عليهم وتأتون بهم إليّ مقيدين فيركعون أمامي!

- ثِقْ بنا، يا خان القرم الكبير، يا موفد الله! - قال عادل جري، وحنى رأسه لوالده، ولم يتأخر مامي عن الانحناء وراء قائده.

- من يعرف؛ طريق روسيا له تفرعات كثيرة، - أضاف دولت - جري إلى كلامه، - إن لم تجدوهم على ضفاف الدون فعودوا عن طريق بلاد الجان، وسينتظركم بأمر مني خمسمئة فارس من تلك الجهة. أحرّقوا قراهم المتاخمة للقرم دون أن تتوغلوا فيها. تعودون مع حرائقهم المتزايدة، ولا تنسوا أن تأتوا بأولادهم إيلاماً لهم.

تحمس عادل - جري لطلب والده سبّي الأطفال أكثر من حماسه للحرائق.

VIII

الخريف الناعم يضح بالحركة في القبرتاي. وبعض النباتات بلون الفضة تتطاير في الهواء. وتتعلق بأغصان الأشجار والعيدان اليابسة. وضوء الشمس الحبيب يتناثر في النهارات. والنجوم تلمع ليلاً في السماء الخالية من أي غيمة نائية. كان الناس قد أنجزوا أعمالهم الحقلية ليستمتعوا بحلاوة الخريف. ولن ترى في ريف القبرتاي إلا الثيران والحراثين. وهؤلاء قليلون اليوم بالقياس إلى الأيام السابقة. والغربان تنقصّ بصدورها على الأرض تتنازع الديدان التي تنتزعها المحارِث. وضحيجها يرتفع إلى قبة السماء. والقمم البيضاء غير القرية وغير البعيدة تتطاول إلى عنان السماء. والعصافير تتجاوب بأصوات مختلفة في الغابة - القرية وفي أكمة الخوخ البري. والغربان ذات البطون البيضاء تنتقل من شجرة إلى أخرى على جانبي الطريق كأنها تعدّها.

لوى الأمير تيمرقوه زمام حصانه نحو الحراث العجوز فالتفت معه الفارسان اللذان يتبعانه، ولحقا به، واتخذ كل مكانه. ولم يكن الفارسان، ولداه، أصغر من تيمرقوه الجسم إن لم يكونا أكبر.

أوقف الفلاح العجوز الثيران حين دنا منه الأمير وصاحبه، وغرز سكة المحراث في جانب الأرض المحروثة. ولم يتأخر الفارسان عن الترجل وراء الأمير. وأمسك الأصغر منهما زمام حصانه.

- بورك في عملك يا صالح، - حيا تيمرقوه العجوز.

- حياك الله يا أمير، رد العجوز التحية رافعاً يده اليمنى. وأضاف بشيء من الرياء: - لن أتعبكم بدعوتكم، ولكن أدعو لكم أن تجدوا خيراً مثل هذا اليوم.

- شكراً يا صالح، - هسّ تيمرقوه بوجهه الصبح للعجوز. وأضاف ما يشغل باله: - أيامنا كما ترى ملأى بالبركة، ولكن لا أعرف القادمة منها.

- يا حسرتي يا أمير، لو كنا سنفني أنفسنا تحسباً من الغد لما رأيتني هنا أحرث الأرض. وهل كنت ربيت ولدي العامل مع الثيران¹ للأدبغة وللأرض؟

- نعم يا صالح، الأمل ميراث. - ابتسم تيمرقوه في سرّه قائلاً لنفسه: عرف العجوز بم يجيبني. وشهد على صحة كلامه: - صحيح، حقاً ما ييقينا أحياء هو الأمل.

- نعم يا أمير. هذا حفيدي الصغير أتأمل منه أن يصبح رجلاً ويرعاني، راضياً بالخير الذي زرعته فيه.

- حقق الله أمنيتك يا صالح! - نادى الأمير تيمرقوه ولديه وكأنه نسي شيئاً:

- اسمع يا دومانقوه ومامسرقوه، إذا كان الثوران نالا قسطاً من الراحة فأربحاً صالح والصبي الذي يقود الثيران. ونحن سنتكلم قليلاً.

أمسك دومانقوه الأخ الأكبر دفعة المحراث، وأمسك مامسرقوه قيادة الثيران.

عمل الأخوان بمهارة تتم عن أنهما ربيا على أعمال الأرض. ووقف الصبي يهز العود إلى جانب الثور مستغرباً إتقان أولاد الأمراء للحراثة، مرتاحاً لما يرى.

¹ يبدو من رواية أخرى، ومن وجود الصبي مع العجوز هنا، أن الحراثة تتم بأربعة ثيران.

ومهمة الصبي هي المحافظة على خط سير مستقيم للثيران.

- هذا يا أمير هو السبب في ما أقول، - تنهد الفلاح العجوز بعمق. - أحرث لأني أمل. ولكن ما قطعْتُ الأمل منه أمرٌ واحد: إن هاجمنا مرة أخرى زعيم القوموق الذي سلبني أولادي، واختطف مني هذا الحفيد فكل ما عشتُهُ وما رأيته عبثٌ، ولن يتحمل قلبي أكثر من هذا. أليس لنا مخرج من مشكلة القوموق يا أمير؟ ما أعجب أننا نحن الأديغة جئنا إلى العالم ضعافاً بقلوب كبيرة! أفكر فلا أرى أنفسنا بلا رجولة، ولا دون إنسانية. عمال نشطاء.

- يا صالح، - تكلم تيمرقوه الذي كان ينتظر سكتة للفلاح، - ما تتكلم عليه يحزنني أنا أيضاً. ولكن ليس الأديغة بلا مخرج. كل مشكلاتنا تبدأ وتنتهي عندنا، عند علاقاتنا، عند اختلافاتنا. هل تعرف سبب خروجي من القبرتاي الكبرى؟ لم يسمح لي الأمير أبشقوقه، وأسلاننج، وتيسشقوقه، وقايتقوقه، وجانسرخ، بأن أعيش فيها، منفذين أوامر والدهم الخبيث. لو لم يطلبني ابن عمي جلاخستان لتوجهت إلى البسلني.

- كلامك صحيح يا أمير، - لا نجهل أخبارهم وأخبار غيرهم. حسناً فعلت إذ عدت إلى القبرتاي الصغرى. اصطحبت أربعة أبناء، وهل هذا قليل؟! سنحتمي بكم عند الضرورة. ومن لا يودوننا سيكفون عن إيذائنا كرمي لكم. وها أنت استقبلت أمير أستراخان وأمير النغوي بالحسنى. وقربتهم بالمصاهرة. أعرف أن المرأة لا تسعد بالزواج من غير قومها، وقد أقنعت البنيتين بمصيرهما. لم يعودوا يزوروننا للسرقة، بل زيارة قرى. ونحن لسنا عاجزين عن فهم هذا الوضع. نقول لك: حياك الله.

انتهى دومانقوقه وأخوه من الوجه الأول للحراثة، وعادا إلى والدهما والفلاح العجوز فلم يملك الأمير تيمرقوه إلا أن يتكلم على ما لاحظته:

- يا زعيم الخير، لا أعرف لماذا تثرثون بشكل دائري. الثور مربوط إلى الداخل لم يعد قادراً على التحمل. غيرًا مواضع الثيران يا مامسرقوه، أو احراثا على خط مستقيم دون دوران.

- والله أنا المسؤول عن هذا يا أمير. قام ابن الجيران بالوجه الأول للحراثة فلم أستطع أن أنتقد عمله. ولم يبق الكثير ولن نستطيع أن نقوم أنا وعليم خان بالتبديل. والآن سأضيف إلى ما انقطع من حديثنا: - تصرفت بحكمة مع

النعوي. لم تُحسِن إلى نفسك فحسب بل نحن ممن أحسنت إليهم. نحن راضون عنك، هل تعرف ماذا يقول العمال يا أمير؟

- ماذا؟ سأل تيمرقوه بشيء من القلق وإن كان حديثهما يدور في جو وُدِّي.
- لا يقولون سوءاً يا أمير، لا أعرف كيف ستفهم أنت الموضوع، ولكنهم يودون أن تتوجه بابتك الصغرى إلى أمير القوموق. كيف سنعيش حياتنا وهو ينهئنا؟ - حسم العجوز صالح الأمر، وأنهى بعتاب: - ألا يجب وضع حدٍّ لاعتداءات القوموق؟!

كان تيمرقوه مرتاحاً لِمَا يسمع لأن الموضوع جزء مما يتكلمان فيه ويتجادلان. ولكن الكلمات التي لم يتوقعها جرحته، وارتجف لها قلبه. سأل نفسه: " هل تسمع ما يقول هؤلاء؟ وماذا يخطر لهم؟ لا يراعونني، ولا أسرتي... ألا يكفي ما فعلتُ بابنتي الكبيرتين؟ لم أفعل ما فعلتُ لشخصي فحسب بل لكم ولجلخستانيه التي أنا أميرها. وها أنت قلت الآن بنفسك إن المرأة لا ترتاح مع غير قومها ومن لا تعرف لغتهم وتقاليدهم. فكيف تصاهرهم، وتربي أولادهم ولا يربطك بهم إلا الإسلام. هذا يتجاوز حدَّ الصعوبة بل هو المأساة. يكفي ما سفحت المرأة التي خرجنا من رحمها من دموع... وفيما نحن نظن أنفسنا هدأنا قلباً وروحاً وصلتم إلى الصبية التي بقيت لنا... لو فعلتُ هذا لحرمني أحبابي وأعدائي ومن في بيتي من مقومات الحياة... أنا من لا يريد صهراً من الأديغة؟.. أنتم تزوجون بناتكم إلى أبناء قومكم، وأنا أربيهن للغرباء؟!"

فهم العجوز صالح أنه أساء القول وهو يظن نفسه يتودد إلى الأمير. تأمل في وجه تيمرقوه لا يعرف كيف يمّوه على ما قال. ثم دان نفسه صراحة:
- ساحجني يا أمير على ما قلت بشأن ابنتك الصغرى. لا يتورع الملهوف عن شيء إلا عن روحه.

- لا أعتب عليك يا صالح. لم تتكلم على ما لم أفعله أنا بنفسي. ولكن لو توسلت إليّ القبرتاي، بل الأديغة كلهم، لما فعلتُ بابنتي الصغرى هذا. - ثم أنهى بصوت أعلى ونبرة أحزم: - سنضع حداً للأمير القوموق بطريقة ما فلا يظأ أرضنا ثانية. أستودعكم الله يا زعيم الخير. والأولاد سيتبعونني.

قال تيمرقوه لنفسه بعدما سار مسافة: "لا أعتب عليك يا صالح. مددت إصبعك إلى الندبة التي على قلبي، غير أنني أنا المسؤول. أنا من دفعك إلى ما فعلت. وأنت أنطقتُك بما نطقَتِ المآسي التي مررت بها. أنفَهُم أنك قلق على الولد الوحيد الذي بقي لك. بَم أنفَعك وقد حمل عليّ جماعة الأمير أبشقوقه فلم أعد أعرف لنفسي راحة. وزعيم القوموق ينهبنا، وحرمننا من وسائل العيش في القبرتاي الصغرى. طلبتُ من الأمراء أن يقفوا معي فتصامَّ أمراء القبرتاي الكبرى كمن يقولون: إن كانت يدك مُدهنة فامسح بها رأسك. ومن ابتسم من وراء ظهري لم يكونوا قليلين. متى كبر أولادي وساندوني فعدت إلى مكاني في القبرتاي الكبرى فسأريكم كيف يجب أن تعيشوا... والبسلني والأباطة الذين كنت في زيارتهم لا يهتمون إلا بمصالحهم الضيقة. قالوا لي: أنتم إن هاجمكم زعيم القوموق فخان القرم وبالتحالف مع تركيا لا يدعُنا نعرف طعم الحياة، يهاجمنا كل عام مرة أو مرتين. وأعجب ما تعجبُ منه هو أنه لم يكفِ إرسال البسلني والأباطة موفدين قبل أعوام إلى موسكو فأرسلتِ المجموعة التي يقودها الأمير شبق من الجان إلى روسيا... وخان القرم لن يقبل هذا. وتركيا هي من لن تقبل البتة. سيكرر خان القرم مع الجان ما فعله بالبسلني والأباطة قبل أن يعود قانقوه مشقوقه من موسكو... ولكن علينا نحن أيضاً أن نفعل شيئاً. ولن يفيدك شيئاً اعتمادك على أقاربنا النغوي. وحين احتلت روسيا خانية قازان استدارت خانية أستراخان النغوي إلى روسيا... وربما كان لبناتنا فضلٌ في هذا..."

لحق الابنان بتيمرقوه، ومشوا مسافة لا يلتفت إليهما وهما وراءه بقليل. قال دو مانقوه حذراً:

- هل يجوز أن نقف على صِغِّك يا أمير؟
- نعم، أسمعكما.
- لا نعرف سبب ركوبك المفاجئ.
- لا تهتموا بهذا، - ضحك تيمرقوه، - ألا يكفي ما جلستُ إلى العجوز؟ وأنتما هل كنتا تنويان أن تحرثا له البرية كلها؟! ألكونان أسأتما إلى صالح؟ - قال بقلق، والتفت إلى مامسرقوه صاحب العواطف الحارة.

- لا يا والدنا، لا تدع مجالاً لهذه الفكرة، - قال دومانقوه بدلاً من مامسرقوه، ودّعنا راضياً عنا. ومسحنا على رأس عليم - خان، الولد النشيط.
- هذه هي الحياة أيها الأميران. كلُّ وما يستطيع به الاستمرار في الحياة، وما يحمي به نفسه. منذ زمن بعيد لم نسمع أخبار أختيكما. كان حسناً لوزرتهما قبل قدوم الشتاء. - حتّ حصانه عند هذه النقطة من الحديث، وخرج من بين ابنيه. وحين ارتقوا التل بدت قريتهم " إيداريه " أسفله.
- ترجل العجوز صالح بعد الظهر بأبهى لباس، وعلى حصان ممتاز أمام مربط خيل بيت تيمرقوه. رأى سلطان، الأمير الفتى، الجالس تحت شجرة التفاح أمام البيت وأخته الصغرى عُشُوناي، صالح، فنهضا لاستقباله.
- أوّد مقابلة الأمير تيمرقوه.
- تفضّل، يا صالح، لماذا أنت على باب الدار؟ نزل الأمير تيمرقوه من المسطبة، واستقبل العجوز.
- دارك عامرة يا أمير، لن أتفضل. عندي لك رجاء إن كنت ستفهمني. طلبت من العجوز إعداد دجاج مقلّى مع شيء من الباخسمة؛ أوّد أن تكون ضيفي اليوم. لا تُخرجني أمام العجوز التي قلت لها إن عندي لساناً منحوساً، أكرم خاطري. لم أدع أحداً، ليس إلا أنت وأنا. أتوسل إليك.
- كفى يا صالح، لا حاجة لكل هذا الرجاء. لا تُحجّلني... هيا جهّزوا لي حصاني، - نادى تيمرقوه الخادم في الفناء.
- ...
- بعدما مالت الشمس إلى الغرب بمدة تعرّف تيمرقوه على صوت الحارس الذي وقف على باب دار صالح. فغمغم وهو يحتسي الباخسمة فوق الدجاج المقلّى:
- هؤلاء سيجدونك ولو شققت الأرض واختبأت!
- هناك خبر مزعج يا أمير، - استعجل الفارس، - فرسان زعيم القوموق صاروا على الضفة الأخرى لنهر تّرج.
- استنفروا حالاً جيش الفرسان والمشاة.
- هؤلاء جاهزون يا أمير، ينتظرونك.
- وأنا سأجهز حصاني حالاً يا أمير، - أعلن العجوز قلقاً غير مدعور.

- أما زلت مطلوباً إلى القتال يا صالح؟! - لم يجد تيمرقوه انطلاق صالح مناسباً.

- أنا قادر على حمل السيف يا أمير ما دمتُ قادراً على توجيه دفعة المحراث. - اعترض المضيف العجوز، وخرج وراء الأمير تيمرقوه من الدار. وبعد قليل خرجت من إداريه مجموعة من المشاة والفرسان ترجّح الجسر. وعلى عادة الأديغة حين يطلقون صيحة الاستنجداد "ماؤج" استنفرت قرى القبرتاي الصغرى.

IX

دولت - جري كالبحر الأسود،¹ من الصعب أن تعرف كيف سيتصرف معك. - يرفع مامي كنفه يحاول ألا يمسّ اللباسُ ظهره المتألم كأن أحداً يعضُّه، ولكنه ينسى فيوهنه القميص الذي يحتكّ به. - ظننت أن الخان رأف بي بالقياس إلى غيري ممن تلقّوا سوطه، ولكنه لم يُراعِ صدقي فلم يوفّر جهداً لإيلامي. لم أشعر ساعة السوط بألم كبير؛ لا أعرف إن كان السبب استعدادي حين ضربني. لا يتركك دولت - جري متى حملتَ إليه خبراً سيئاً، سواء كنت قريباً منه أم بعيداً. وهو في هذا الموقف يسودُّ قلبه كبحر هائج. كنت عرفت السبب وأنا ما أزال في القرية. ممن سمعتُ تلك المعلومة؟ أهو والدي؟ لا، ليس والدي فطيناً إلى هذا الحدّ... تذكرتُ: هو لأماف: "حاولْ جهدك ألا تكون أول من يحمل الخبر السيئ إلى المعنيّ به. كلّف غيرك به. سيعتب عليك كأن لك ضلعاً في المسؤولية. وسيحتقرك في سرّه..." لا أعتب على خان القرم في هذا. لو كنت مكانه لتصرفت على نحو أقسى. لا بأس إن كان تشقّى بظهري عقاباً على الخبر السيئ، فلا يستحق كل هذه المحاكمة. سأتحمل ما فعله بي. ليس من قضى تحت سيفه منذ تقربت إليه واحداً أو اثنين، بل العديد من الناس. ثم إن التقيت بدولت - جري في ساعة صفوه فهو كالبحر بعد العاصفة، بمائه الدافئ المالح الأزرق الصافي. يُظلُّك برعايته، ويجد من الكلمات ما يُنعش قلبك. أنا راضٍ عنه، صادقٌ معه. ما كنت أحلم بما وفّره لي من

¹ هياج البحر الأسود وتقلباته، لا لونه، سبب تسميته هذا الاسم.

عيشة ولا بثلثها طوال حياتي في قريتي. وما عندي الآن من بيت مرتّب، وفرش فاخر، ومال، لا يطمع به أغنياء... " - نسي مامي آلام ظهره حين طفا على السطح ما يُنسيه إياها. ولكنه عاد وقد بدا على وجهه استياؤه، إلى البيت الذي دُعي منه على عجل. ووقف وسط الغرفة، لمست مريم كتفه فيما هو واقف يتأمل البساط المزخرف كأنه يراه أول مرة. كانت لمسة خفيفة تفوح منها رائحة الطيب. كانت تود أن تحضنه من خلفه تودداً إليه.

رفع مامي يده اليمنى منتفضاً كأن حية لدغته، ثم استدار ببطء، وأسبل يده وإن أظلم وجهه.

- أيّ لمسة هذه؟! أرعبتني، - ألقى مامي نظرة قاسية عليها.

شحب وجه مريم المستدير وقد امتلأت رعباً. واختلجت أطراف شففتها. ودانت نفسها إذ فهمت ما جرى:

- ساجني يا مامي، كنت أود ألا تذهب إلى الخان حاملاً إليه الخبر. ولكني خفتُ فامتنعت عن إبلاغك.

- وما أدراك وقتها أني ذهبت إلى الخان الأكبر حاملاً إليه خبراً؟ قال مامي بصوت لا يحمل تعجباً ولا غضباً، وعبس بعينه لخادمته الضئيلة.

- شهدتُ بلا إرادة على ما قاله لك الفارس الأديغي الذي جاءك مسرعاً. ودنوت من الباب أريد التحدث إليك فسمعتُ. - حدّثته مريم بصوت مرتعش. ثم كنت أريد إبلاغك بأن الخبر الذي جاؤوك به لم يكن واضحاً. لم يكونوا يعرفون بالتحديد اليوم الذي سيسافر فيه الموفدون إلى روسيا. ثم أنت أيضاً تعرف خطورة إخبار الخان الكبير بخبر سيئ؛ فكنت أريدك أن تكلف غيرك بإخباره... - لم تكن مريم تريد بكلماتها المتقطعة إلا تهدئة مامي ونيل رضاه. - أتوسل إليك ألا تغضب. جرى ما جرى، اخلع ملابسك ونم على بطنك. سأدهن ظهرك بدواء يسكن الألم. لا تخف، لن أولمك.

أطفأت توسلات المرأة التي لا ذنب لها غضب مامي المفاجئ. ولان نادماً على أنه تشفى من مريم وإن لم يحقد على الخان الكبير. وبدأ يخلع عنه بصمتٍ ملابسه الخارجية والداخلية حتى خصره. ثم انبطح على صدره.

- أكنت تستحق كل هذا العقاب والندوب وأنت لم تقتل أمه ولا أباه كما يقال؟ - تدهن مريم بأصابعها الناعمة ظهر مامي بالدواء متظاهرة بالتوبيخ، ومع كل لمسة منها يختلج مامي، وينبّتها:

- احرصي عليّ، لا تكوني قاسية... الحقيقة لم أشعر ساعتها بالألم لأني كنت محموماً... ها هو يا مريم، عودنا خاننا الكبير أن نشعر متى ضربنا بأنه يقبل جباهنا.

يحس مامي بدفع اليد الناعمة على مكان السياط. ولا يعود الظهر كله يشعر بالحرق. وترتخي العضلات، ويداعبه النعاس. ولكن الوقت ما يزال مبكراً على النوم إذ لا يزال المساء في بدايته. غير أنه لا ينوي التأخر عن النوم لأنه يجب أن يسافر مع الفجر.

جمع دولت - جري المجلس الأعلى للقرم بعدما انتهى من إيقاع عقوباته بين أتباعه، ووضعهم في صورة الخبز المزعج. لم يكن مامي هو مَنْ عُيّن قائداً للفرسان المثنين الذين سيأتون بالوفد الأديغي المتوجه إلى روسيا مقبدين إلى حضرته، بل عادل - جري ابن خان القرم. وإذا قرر الهجوم على بلدة أو قُصْبها أو إحراقها فالقائد هو مامي. وإن كانت المسألة كبيرة فابنُ الخان. وقد أغضب هذا القرار مامي قليلاً، ولكنه يعرف الموقف الذي هو فيه فيتظاهر بأنه في منتهى الرضا. وها هو حين منحه مريم التي تمسح ظهره الآن براحتيها اللطيفتين، لتخدمه وتعتني به، وتُشيع غرائزه، فقد تقبل الهدية حانياً ظهره مراراً كأن أهدي سلة من ذهب...

ارتفع مامي بيديه عن الفراش حذراً، وانقلب إلى جانبه الأيمن. ونامت مريم في حضنه رافعةً ثوبها المفتوح إلى كتفيها. وهمست في أذنه والطَّيب يفوح منها:

- تعال إليّ؛ برِّد الدم الحار الذي غزا رأسك!

- لا ينقصني تدخُّلك؛ لم يُقصرْ معي دولت - جري في سفك هذا الدم الحار. - ابتسم مامي هذا المساء لأول مرة. - دعينا ننام براحة. أمامي طريق طويل. أريد أن أستريح.

- حسناً، سأتركك نائماً. لا أعتب عليك، كان خطر لي أن قد تكون اشتھت... - لاطفته مريم بكل إمكاناتها الأنثوية، - ولكن يُقْلِفني أن تسافر

إلى بعيد وظهرك في هذه الحالة المزرية. ما كان عليه أن يوقع بك كل هذا العقاب وهو ينوي تكليفك بعمل مهم.

- كفى يا مريم، ليس من شأننا توجيه مهام من يطلّ علينا كالشمس. رأى الظرف مناسباً فسامني هذا العقاب وحسب. تجاوزنا كثيراً من هذه التصرفات. متى طلع الفجر ركبْتُ كأن لم يحدث لي شيء. - لم يكن مامي واثقاً من المرأة التي لا تبخل عليه بشيء، فلا يريد مزيداً من هذا الحديث.

حدّث مامي نفسه: "استنزف الخان خلال سنوات ما في مريم من لذة، ولما بدأ الزمن يفعل فعله في جسدها الناعم الشاب رماها إليّ عظمة بلا لحم... لن أقول إنها فقدت كل أنوثتها وإن كانت تكبرني بوضع سنين، لا تزال على جمالها. ليس في وجهها ما لا يتناسب مع عينيها المدورتين. صحيح أن بعض التجاعيد بدأت تظهر على عنقها ونحرها، وهي العلامة الوحيدة على تقدّمها في العمر، ولكن ما تبقى من جسدها: خصرها النحيل، وساقها الناعمتين، وكثفيها المنسابتين، يضفي عليها طابع الفتاة البكر. تعجبني حقاً ولكن لا يمكن أن تكون زوجة. أشفق عليها حين تتودد إليّ فتشير فيّ شعوراً بالرحمة، ولكن متى فكرت في أنها قضت سنوات في حريم الخان أزحتها من بالي. من يعرف إذا كان دولت - جري الذي لا حدّ لحُبّه قَرّبها إليّ تتجسس عليّ؟ ولكنها مهما تصرفت معها، وخاطبتها، بل صفعتها أحياناً، لم يدر منها ما يشكّكني فيها. يقال إن نُكِر صارت فتاة جميلة جداً فلو حقّق لي وننّغ رغبتى... يشغل بالي غيابُه. حين أخبرته بقيمة ما أُرسِلُ له من ذهب وفضة صاح رافعاً رجله العرجاء... ليست مريم امرأة سيئة بعواطفها وإنسانيتها... ولكني أفصّل عليها امرأة أدعية، ربما لأني منهم. يُقنن بالخفر غيرهن من النساء فيُغضين حياء متى وقعت عينك عليهنّ، ويغلب عليهن الحرص على الشرف. يحتفظن بسراً ما دائماً. في السنوات الأخيرة، قبل أن أغادر القرية، لا أنسى ما كنتُ أسمع من رفاقي المتزوجين مما عانوا في لياليهم الأولى من استعصاء العروس وتأنيبها عليهم. ومن هذه الناحية لا تحيئك مريم إلى رجاء... تلي لك كل ما تريد... ما العمل إذن، لا ألومها، رُيّت في حريم الخان".

لا يعرف مامي كيف استغرق في النوم فيما هو يحلّل مشاعر الشهوة والغضب. ولم يحسّ بالوقت حتى أيقظه لغطّ الجنود واصطفاف أحذيتهم. وجلس مسرعاً لا يعرف سبب وقوف أحدهم عند رأسه، وسأل وهو يرتدي ملابسه ناسياً لآلام ظهره:

- هل غرقتُ في النوم يا سَرباي؟ لم تكن عندي هذه العادة... - وحين التفت لم ير مريم في الفراش. كانت في الغرفة المجاورة حيث تصدر أصوات الصّحون.
- لم يطلع الفجر بعدُ، - أجاب الرجل الضخم الواقف عند رأسه بصوت قوي، - أنا من استعجل.

ارتدى مامي لباسه وسلاحه واثق الخطوة رشيقاً، وخرج من الغرفة جاهزاً. خرج الجنود يتقدمهم عادل - جري ومامي بالخبب السريع من المدينة. ولما صاروا في البرية انقلبوا إلى العدو. وبعد مسافة طويلة انصدع عمود الفجر. ومضى النهار وتبعه الليل والفرسان يجرّون بما يملكون من طاقة. يقتلون من يصادفهم، والناس المذعورون يهجرون قراهم إلى الجبال.

في نهاية اليوم الثالث قال مامي وهو ينظر عبر بحر آزوف على يمينهم:
- تجاوزنا قرية آف من أرض الأديغة.

- وكيف تعرف وأنت وراء البحر؟ - استغرب عادل - جري.
- حين خرجتُ من القرية، وحتى التجأت إلى والدكم موفد الله، مررت بكل إقليم الأديغة. ولكن لم أجد راحتي في أي مكان منه. حتى وصلت لحسن حظي إلى دولت - جري، الرجل الحقيقي.

- ووالدنا خان القرم الكبير يقدر قيمتك، يتأمل منك الكثير، - ألقى عادل - جري نظرة رضا على مامي، مرتاحاً لكلمات الأخير في حق والده.

سأل عادل - جري وقد نفذ صبره بعد ثلاثة أيام من الجري:

- إلى أين وصلنا الآن يا مامي، هل بقي أمامنا الكثير أيضاً؟

- تجاوزنا قرية شحام. إن ثبت أن من اتجه إلى ضفة الدون هم موفدو الأديغة فسنقطع طريقهم. - أجاب مامي واثقاً.

- لنحسّ الخطأ إذن مرة أخرى! - التفت عادل - جري، وأبلغ سرباي، ودفع حصانه بطرف الركاب.

ليس الطريق الذي قطعه الفرسان بين عدوٍ وخبب بمحاذاة نهر الدون قصيراً. كانوا يسألون كل من يصادفونهم، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، ولم يُجب أحد بأنه رأى فرسان الأديغة.

دبّ اليأس في قلب قائد فرسان القرم وفي قلب معاونه. وفهما أنهما تأخرا ففانت فرصة القبض على الموفدين. ثم قضيا ثلاثة أيام على طريق العودة شاعرين بالرهبة والخرع أمام دولت - جري إن عادوا خائبين، وقد بقي لهم أملٌ واحد وهو تنفيذ ما أمرهم به إن لم يتحقق هدفهم الأول.

توغل الفرسان التتر بقيادة عادل - جري ومامي في أرض الأديغة وهم يلتفتون حول ساحل البحر الموطي. ووصلوا إلى إمارة جانيه.

لم يجد الناس فرصة للصحو لأن الفجر يكاد يطلع. - كان الفرسان يصرعون بصدور خيلهم الناس الذين تطردهم النار من بيوتهم، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، دون تمييز، قائلين لهم: "أرسلوا موفديكم الآن إلى روسيا!" ويقتلونهم بضربة سيف. ويختطفون الصبيان والصبايا ذوي المظهر المقبول، فيرفعونهم من ظهورهم يصرخون ويكفون إلى غوارب خيلهم.

ولما فرغوا من أسفل القرية، واتجهوا إلى أعلاها ركب شباب الأديغة ورجالهم الذين وجدوا الوقت الكافي، وإن لم يكونوا كثيرين، ورافقهم المشاة فاعترضوا طريق التتر بالسيوف والفؤوس والمذاري، ولكن ماذا يمكن لبضعة أشخاص أن يفعلوا أمام جيش هائج، فسحقوهم، وإن كان النغوي خسروا بضعة فرسان أيضاً.

كان الرجل النغوي الكهل الواقف إلى جانب مامي وهم عائدون من غزوة البسلني والأباطة، قد عرض بمامي: "أنت ظالم لا طريق للرحمة إلى قلبك!". والآن أسرع هذا الرجل من يساره ولحق بفتاة ذات جسد ناضج وشعر ينسدل إلى الخصر. ولكنها التجأت إلى إحدى الدور دون أن يلحق بها. وصل الرجل، ولحظة عبوره الباب، قُتل على ظهر حصانه بالمذرة. صاح مامي وانطلق، فدخل الدار. ولما لم يجد ذا روح فيها، حثّ حصانه دون الالتفات إلى الجندي الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، وانفلت من الدار. والتحق برفاقه وهم يخرجون من القرية.

تفقد مامي وهو يعبر الفرسان الذين نقص عددهم الآن عن المئتين فلم يجد أكثر من اثني عشر مخطوفاً من الصبيان والصبايا. قال لائماً نفسه، غير راضٍ عما حدث: "الجنود الستة أو السبعة الذين خسرناهم أعلى من هؤلاء الأطفال بكثير". وفيما يتخذ مكانه إلى يسار عادل - جري، أفهمه بنبرة خائفة خطورة الخنب الذي تجري به الأحصنة:

- ابق على وضع العدو يا خاني المنير، لا تزال أمامنا قرى أديغية كثيرة. سيستنفر الجان قواهم متى رأوا القرى تَحترق، فيقطعون طريقنا.
- لم يقرّبك والدنا إليه عبثاً يا مامي. - أسرع ابنُ الخان بالحصان.
كانت قرى الأديغة متناثرة كقرى النمل. رأى سكان القرى الحريقَ في قرية وسُتغيه فزاد عدد من قرروا اعتراض النغوي. ولم يقل ما خسره الأخيرون عن خمسة عشر. ولم يزد الأطفال الأسرى عن ستة أو سبعة. ولكن ما كان يُطمئن قلوب النغوي هي النار المتصاعدة من قرية كُرْكُحابله.
كانت قرية جَعْن في الوهدة، فلم ير أهلها النار المشتعلة في القرى المجاورة. فوجئ السكان بالجنود النغوي كما لو كانت أول قرية داهموها. أحرقوا القرية دون خسائر. وكان عدد السبايا من الجنسين أكثر مما أسروا من القريتين الآخرين.

كان الجنود النغوي يتدافعون نحو بحر آزوف وأملهم في النجدة التي وعدهم دولت - جري بإرسالها لهم. ومامي الأسمر النحيف منحن برأسه يلقي أحياناً نظرة لَهفة نحو الخان الشاب. ولا يسمح لجانبه الأيمن الذي يُتَوَقَّع أن يأتي منه فرسان الجان أن يغيب عن بصره. وارتسم دون أن يدري كيف، الرجلُ الكهل النغوي الذي قُتِل بالمذراة، ولامه كأنه يركض إلى جانبه: "كنت قلت لي أيها المسكين لما قطعْتُ رأس العجوز الأباضي: أنت ظالم، وانظر ماذا فعلوا بك الآن. وهل كنت تريدني أن أرأف بمن قابلني بالسلاح بحجة أنه عجوز؟! لو عشتَ في الجوّ الذي نشأتُ فيه لرأيتُ إن لم تكن أنت أيضاً ظالماً! كانت أُمِّي تستقل ضربها لي بيديها وأنا صغير فتضربني بالعصا أو بمزلاج الباب، أول ما يقع بيدها. وأنا كنت أنتقم من الأولاد حين ألاعِبُهم. ولكن كان يحدث أحياناً أن أتلقي ضرباً مبرحاً يشوّه وجهي..." تجاوز مامي الذكريات المريرة حين

لمح الفرسان النغوي وهو ينظر بقلق إلى الخان الشاب. وقبل أن يجد الفرصة ليهدأ قلقه صاح عادل - جري:

- انتهى الخطر! برّ والدنا الخان الأكبر بوعده. ولقنا الجان العصاة درساً! أجبرت أصوات حوافر الخيل مامي على الالتفات إلى يساره قبل أن يجد الفرصة للفرح. كان فرسان الجان ينحدرون من أعلى الجبل كصخور تتساقط. هرب الفرسان الحاملون أسرى معهم إلى النجدة الآتية إليهم. وأحاط عدد من الجنود يقودهم سرباي بعادل - جري من كل الجهات. وأكد مامي على هؤلاء:

- ستدفعون حياتكم إن أصيب عادل - جري بأي خدش! تجابه فرسان الجان والنغوي، وارتفع صليل السيوف ومحممة الخيل. كلٌّ يصرخ بلغته، ويشتم. هذا يسقط من على الفرس، والآخر يجره الحصان الجافل ورجله ما زالت في الركاب. ومن أسقط السيف من يده يحاول انتزاع الفارس المعادي من سرج حصانه.

لمح مامي وهو يصرع من في طريقه زغاشت. "لن أسمح له أن أقع في يده" وفي الحال عطف الفارس الضخم كعمالقة الأساطير رأس حصانه إلى اليمين، وهو يُعمل سيفه يميناً ويساراً على الجانبين. وسمع صوته الثخين القوي:

- الله ساقك إليّ أيها الخائن اللعين!
"إن رحمك الله أبقى على حياتك... يا ربي..." ما إن نطق مامي بوجه مذعور حتى قطعت ضربة قلقت الفارس النغوي الذي وقف أمام مامي يحميه إلى نصفين؛ فهرب مامي من الموت في رقة عين غير مصدّق ما جرى.

X

لا يزال موفدو الجان على الطريق منذ شهر ونصف. كان شبق ورفاقه يعرفون جيداً أن سلوكهم سيُخرج خان القرم عن طوره، وأنه لن يدّخر جهداً في قطع طريقهم، ولن يرأف بهم، فأطلقوا خبراً كاذباً عن خطّ سيرهم، وسلّكوا غيره. وكان السبب واضحاً. لما توجه موفدو البسلني والأباطة سابقاً إلى قيصر روسيا إيفان الرابع كان استقبلهم استقبالاً حسناً، ولكنه لم

يستطع أن يحقق ما كان يشتهي هو، وما يريده الآخرون. كان جابه جيش النغوي هو ووفد البسلني والأبابة حين سمع القيصر خبر استعداد خان القرم لغزو روسيا. ولكن جيش فرسان النغوي بدلاً من أن يتوجه إلى روسيا هاجم البسلني والأبابة في حملة انتقامية عقاباً على توجه الوفد إلى موسكو. وفي العام التالي 1554 هاجم خان النغوي الأديغة في حملة مدمرة. وبدلاً من أن يحقق القيصر رجاء البسلني والأبابة الذين يسمع أخبارهم، ولا يعرف حقيقتهم، أرسل إليهم شيبوتيف أندريه بويارين موفداً ليعرف سبب موقف الخان الذي هو عدوه أيضاً منهم. وكان سيقدر، تبعاً لما سيأتي به موفده، إن كان سيتحالف معهم أم لا.

وكان السبب في ضرورة ابتعاد شبق ورفاقه عن طريقهم عن ضفة نهر بشزة هو اللقاء بموفد القيصر شيبوتيف أندريه بعد انتظاره ليلة ونهاراً. والحق أن هذا الوقت الإضافي هو ما ضلل فرسان النغوي. ولكن الأمير شبق ورفاقه والموفد الروسي لم يكونوا مطلعين على ما اقترفه النغوي من جرائم في إقليم الأديغة. لم يكن شيبوتيف أندريه جديداً على مهمات السفارة، وإن كان يخالط الأديغة القاطنين في الغرب لأول مرة، وأصغر عمراً من الأمير شبق. كان زار خانية القرم المعادية أكثر من مرة، وزار تركيا أيضاً. وكان في خانية قازان قبل أن تحتلها روسيا وبعد الاحتلال. وعنده معلومات غير قليلة عن تدابير خانية أستراخان وإمارات النغوي، ونواياها في التوجه إلى روسيا، وعن تركيا وخان القرم الذي يدور في فلكها، ويرى أن اهتمام بلاد فارس بإمارة القوموق أمرٌ حميد.

ليس شيبوتيف رجلاً جسيماً ولا ضئيلاً، لا بدنياً ولا نخيلاً. ولا يتميز من الفرسان المرافقين له بتركيبه الجسدي، وبطريقة امتطائه حصانه إلا بملابسه. أشقر اللحية والشاربين، غائر الجبين. وفي العينين المكتسبتين لون سماء الصيف الباهتة ترى الفكر والرجولة والرحمة والتصميم.

منذ زمن بعيد فارق الفرسان الخمسة عشر، ومعهم شيبوتيف، شمال القفقاس. وسلكوا يمين نهر الدون. وكلما توغلوا جهة الشمال قطعوا في كل يوم من أيام الخريف التي تقصر يوماً بعد يوم، مسافة لا بأس بها من طريقهم. وليل الخريف الطويل استراحة لهم ولخيلهم. وكلما توجهوا إلى الشمال خلّفوا الحرّ وراءهم،

وهجمت الريح الباردة على وجوههم. وبحنوا عن الملابس الدافئة. وقد بدلت الأحصنة كثيراً من نعالها خلال الشهرين، ونفق حصانا الحارسين. وبدلوا في إحدى القرى الروسية حصاناً خارت قواه. وجلب مطر الصباح البارد ثلج المساء الرطب.

ليست العلاقة بين قَتَشَقُوهُ شَبِقْ، وشيبيوتيف أندريه جديدة. كان الأول تعرف على الثاني في بَحْجَسَارِي حين كانت علاقته بخان القرم ودية. وحين أرسلوا الأخير إلى البسلني والأبازة مرّ أولاً على أرض الجان وقضى فيها عدة أيام يتعرف على أحوالهم. وكان شبق قائد الفرسان الذين شيّعوه حتى جبال الأبراخ. وأرسل أخاه الأصغر أفمقوه إلى البسلني مرافقاً للضيف. ولكن مهما كانا صديقين فليس إلى الحد الذي يقول معه: "أنا أعرف طبيعة موفد قيصر الروس، وأعرف نط معيشته".

وكما يقول الجار قلقنت، وإن كان شاباً "ليس كلُّ من أطعمته من طعامك صار صديقاً لك". ليس قليلاً من يعاديك ويصرعك. ومن يوهمك أنه صديقك ثم يغدر بك أكثر. — ابتسم شبق غير مدرك لماذا خطر له قلقنت. — "كل إنسان مرّكب بطريقة عجيبة. ويحدث ألا يُطْلِعَكَ على ما في قلبه نحوك مهما ظننت أنك تعرفه جيداً. خزان الخشب المغلق لا تعرف إن كان مملوءاً أم فارغاً، يجب أن تفتحه لتعرف، ولكن لا يمكن أن تفتح قلب الإنسان. ولن يُطْلِعَكَ على سريره إلا برغبته فكيف تعرف ما يجري فيه؟! نشأ قلقنت معنا منذ طفولتنا ولم ينقطع عن مخالطتنا، وامتزج طعامنا بطعامه، ولكن لم أعرف ما الذي يقلقه، ولا ماذا يريد إلا في مؤتمر الجان الأخير. كان يتكلم في المؤتمر معارضاً المشروع الذي بدأناه. ومن كان يعبّر عما في قلب قلقنت هو ونتغ. ولا أفهم إلى الآن سبب منعه إياه من إكمال حديثه. أقول لأنه اختطف أخته داريه ولكن ما عرّض به له في البداية أمرٌ آخر... وقد أذنب بحق ونتغ باختطافه من قلب المؤتمر وشحنه إلى تركيا، وتغيّر هو بسرعة. قال: "أنت لم تفهم الموضوع ولن تفهمه" ودانني... والوحيد الذي لم يودّعنا حين شيّعنا الجان هو قلقنت. ركب، ومرّ من جانبنا مثيراً سخرية الناس منه، وخرج من القرية. كان عليه ألا يفعل هذا بنا ولو كرمى لوالده الذي كان من رجالات القرية. ولم أكن وحدي المستاء بل

شاركني أخي صديقهُ أقمقوه، وابني الأكبر كُتْناق. والله لا أعرف نيته الحقيقية. إن كانت جمْعُ عروق الأديغة لم يتحقق هذا حتى مع من هم أفضل منه. ولا يتوَهَّم أنه سيتحقق له. وهل تستطيع أن تجعل من الحصى المتفرقة حجراً واحداً إن عصرتها بكفك؟! الأديغة من هذا القبيل..."

الثلج الرطب يسقط حيناً، ويتوقف. والهواء البارد العاصف يعبث بأعراف الخيل، ويهجم على وجوه الفرسان فيقرصها. ومن لا يجد وسيلة للاحتماء هو كُتْناق الذي تجمد شارباه الجديدان. لا يرى شبق من اللائق الالتفات إلى ابنه المتأخر عنه بعدة أحصنة، ولكنه يعرف ما يجري له حتى كأن في ظهره عينين. غير أن الابن لا ينقذ ما يبلغه عبْر الوسطاء أن يفعله. الريح تمزق أصوات حوافر الخيل، ومن أطراف الحواجب يقطر الثلج الذائب. ويخفُت مع الطريق نخير الخيل. ولا يزال المساء بعيداً عن أن يتراءى للفرسان.

- هل بقي الكثير لنصل إلى موسكو يا أندريه؟ سأل شبق وهو قلق على ما يعاني ابنه من نزلة البرد.

- نفترب من حدود تولّا، - أسرع شيبوتيف بالإجابة. ثم سيربوخوف، واختتم بضحكة مزاح: ثم ما تسمونه أنتم مَسْكو. - واختتم سريعاً بصوت أعلى: - إلى كرميل (الكرميلين). حيث يقيم القيصر الرابع لروسيا إيفان.

- ما هذا يا رجل؟ ما أبعد هذه المسافة! - صراح دودارقوه، الأميرُ الأباطي. - ما كنا نصدّق حين كان قانقوه مشقوه يروي لنا.

- كم يومٍ مسيرٍ بقي لنا في رأيك؟ - سأل شبق السفير غير عابئ بكلام الأمير الأباطي.

- إن لم نُشفق على خيولنا فسنصل في أسبوع.

- مضى على خروجنا من بيوتنا شهر ونصف. قال كُتْناق لا تستطيع تمييز ارتياحه لطول الطريق أو استيائه، والتفت إلى عمّه.

- ماذا كنت تظنه إذن؟ أنت من اندفعت للسفر معنا. - قال شبق لابنه، ثم تذكر ما يرفض الولد أن يفعله فأفهم أخاه الأصغر مؤكداً - إن كنت لا تريد يا أقمقوه ألا يُسَاط أخوك الصغير فلبليس البرنس. - وبعد سكتة قصيرة قال بصوت أشد حزمًا: - ألسَتْ يا ولد من طُلب منه ارتداء البرنس!

مشى الفرسان المختلفون عن أهل البلاد بلباسهم مدة مرتاحين لارتداء الأمير الشاب غطاء الرأس، مجبرين الفرسان والعربات والمشاة القلائل في طريقهم على التنحي وهم يتأملون الغرباء بوجوه مذعورة. وكان ما يستغربه من يسمون إشارة الصليب هو وجود السفير بويارين مع شخصين آخرين بلباس الروس في موكب الأديغة. بعضهم يَحْتَمِنون أنهم من القرم الذين يجلبون لهم دائماً الرعب، وآخرون يرون أن من الصعب معرفتهم من مظهرهم، فيبدؤون رسم الصليب، فيجلب وجود أبناء قومهم مع الفرسان القلق والراحة لهم معاً.

وما يفكر فيه شبق الأمير وما يشغل باله شيء آخر: بواعث فلقه تزداد كلما اقتربوا من موسكو. ولم يكن السبب الندم على ركوب الطريق، ولا جهله بطريقة استقبال من يقصِدونه بآمالهم. إن أردت الحقيقة فليس من السهل التفاوض مع أغراب لا تعرف من لغتهم إلا كلمات معدودة، فكيف تُفهمهم ما في قلبك؟

كَلَّمَ شبق نفسه: "وهذه ليست مشكلة! ما يجرمني من الراحة أمراً آخر: هل أجد جواباً عند من أقصِدهم، إذ ما من أحد إلا عنده أعداء، فلا يسمحوا لمن ليسوا أصدقائي ولا لأعدائي أن يسخروا مني؟ وهل أجد عندهم من الصدق ما يحميني؟ أسأل بوريان بشكل غير مباشر منذ صار رفيقنا عما سيجري لنا فيجبيني، ولا أعرف من أين تعلّم المثل، من البسلني أم من نواحينا: أَلستم من يقول: "العمل الذي لم تبدأ فيه مرصودٌ بأفعى"؟ فييتسم لي ولا يدعنا نتكلم صراحة في أي موضوع. وحين ألحّ عليه يجبيني: "من يجيئك ويحلّ مسألتكم يقيم في الكرملين بموسكو". من البديهي أن تكون عندك قدرة على حلّ الأمور، وتتحلى بشيء من الصدق حين تحكم بلاداً كبيرة. ما قدرتي أنا وإن كنتُ أمير الجان؟ ليس قليلاً ما تنقض كلامي وفعلي ساحه المؤتمر. وهل الجان مشكلة؟ الأباطة ينقضون ما نقره، والبسلني يسخرون، والجمكوي والبجدوغ والأدميه، مترددون حيالنا. الحاتيقوي واليجرقوي لا يعرفون حتى إن كنا على سطح الأرض. والقبرتاي ينظرون إلينا شزراً كأننا نسلبهم شيئاً، وينافسوننا. أما جماعتنا الحكوف والناخوي فيتفانون في ما بينهم، يلدغ بعضهم بعضاً ويشي به تسابقاً إلى الأقوى... ما العمل إذن؟ ربما هذا هو السبب إذن في أن الأديغة

الذين لا يتفاهمون، ويتناحرون، غير قادرين على ترتيب بيتهم من الداخل، يعيشون في كل مشقة، يسلب أحدهم الآخر غير مدركين ما يجري في جهات العالم الأربع..."

- المصاييح تظهر! - فرح دودارقه بالأضواء الساطعة من ثلج الطريق، فقطع أفكار شبق.

- هذه أضواء تولا! - شهد شيبوتيف، - سنصل في بضع غلوات حصان.

- لن نرهِق الأحصنة إن لم يبق غير هذه المسافة، - قال شبق، ثم أعاده إلى أفكاره نخير الأحصنة التي شعرت بقرب استراحتها.

قال شبق: "يبدو أن مصيرنا يتعلق بسفير القيصر الذي يتكلم في قضايا البلاد.

لم نصلِّق كلام بعضهم، ولكن يبدو أن القيصر أرسله إلينا للاطلاع على أوضاعنا وتكوين فكرة عنا. تبين أن ما كان قاله لي لأماف الزعيم المبارك، ومن جاؤوني من القبرتاي الكبرى، وجماعة قلقت، صحيح. هذه هي المعلومة الوحيدة التي استطعتُ استخلاصها منه بعد شهر ونصف قضيناه على الطريق.

وهل هذا سرٌّ؟ حين نتكلم في غير قضايانا يأتي عقلنا، نحن الأديغة، متأخراً

كما يقول قلقت. تصل إلينا الأخبار التي نسيها العالم جديدةً إلينا. سمعنا بعد

ثلاثة أعوام خبر أفر السلطان سليم، سلطان الترك، بإعدام ابنه ذي الأم

الأديغة، فخيل إلينا أن الحادث جرى اليوم، فانبرنا نتوعده، ونرسل إليه

التهديدات حتى أغضبناه، فاضطررنا أن نحشد كل طاقتنا بوجه جيش الفرسان

الذي أرسله إلينا صاحب - جري حتى حمينا أنفسنا بصعوبة. ليت دولت -

جري لم يهاجمنا متى عرف بتوُّجُّهنا إلى روسيا... كان من الممكن أن أرسل

أخي أفمقوه بدلاً مني، ولكن لم يخطر لي هذا، ورفيقه أحد رجالات الأباطة.

ضحكت حين طرح عليّ قلقت بعض هذه الأفكار قبل السفر، ولكن نغوي

القرم لا يؤمن جانبهم البتة... ولا تخلو الجان من عدد من الأمراء ولكنهم لا

يشعرون بما نعيشه من مأساة ما لم يعانون بأنفسهم. يرفعون أسوارهم الحجرية

ويدعمونها ولا يهتمون بمساعدة من تهدم سورهم. أجادل لأماف أحياناً، ولكن

رأيه هو أن أمراء الأديغة بدءاً من القبرتاي وانتهاً بالجان، صغارهم وكبارهم،

يجب أن يُجمَعوا، ويُحرَموا من الطعام والماء حتى يعودوا إلى وعيهم. كل قرية وكل

إمارة دولة بحالها. أحسنت يا قلقنت! أفصّل أفكارك الفلاحية على أفكار
الأمراء... الحق لماذا لا يفارق قلقنت ذهني؟ ليته لا يصاب بمكروه! كنا رجونا
أن يشرف على أسرتنا، فلتبتعد عنا مثل هذه الوسوس، الله يحميننا. لا، لا، بدأ
قلقنت يخطر لي كثيراً منذ ركبتُ هذا الطريق الطويل فحسب. لم تكن أقوالنا
وأفعالنا تتوافق فهل من الممكن أن تتلاقى آراؤنا القومية الآن؟ يا ربي، ما
مصير مهمتنا حيث نساfer؟.. - كان شبق يفكر في صمت ولكن سؤاله
الصامت أعاده إلى واقعه فانتفض برأسه.

قضى الموفدون الأديغة المرهقون ليلتهم الشتائية دون أن يشعروا بطولها. ثم
غسلوا وجوههم، وتناولوا بعض الطعام، واستأنفوا رحلتهم إلى موسكو. وتوجّب
عليهم قضاء ليلة في سيربوخوف، وفي ظهيرة اليوم التالي بدت موسكو. وأول
ما لاح لهم هو قصر الكرملين الواقع على تل بوروفيسك، فتوقفوا.
كان الفارسان الروسيان قد بدأ يرسمان الصليب حين رأيا معابد وشيئينسك
وبلاغوفيشينسك وأرخانجيلسك العالية. نظر الأديغة بعض الوقت لا يعرفون يم
يشبهون المدينة التي لم ير الجان مثلها قط، والكرملين. ثم أدار شبق حصانه إلى
القبلة مربعاً رفاقه، فلما فعل رفاقه مثله ناداهم رافعاً يديه:
- قولوا: آمين!

كان الفرسان الأديغة العشرة يرفعون الدعاء. وإذا كان مظهرهم مختلفاً وطباعهم
متفاوتة فما في قلبهم اللحظة واحد: أن يتحقق لهم الخير في المدينة التي
يدخلونها، ولا يتعلق بهم فيها رفاقٌ سوء، ويعودوا إلى أهاليهم في صحة وسلام.
نظر أفمقوه إلى نفسه بعدما انتهى الأديغة والروس من ابتهالاتهم المفاجئة
واستأنفوا السير، ثم نادى كُتاق الواقف في مكانه:
- لماذا أنت واقف؟ تعال!

- نعم يا ولدي، ماذا جرى لك؟ - عاد شبق سريعاً بحصانه.
- لا أعرف يا أمير تفسيراً لهذه البيوت العالية التي تناطح السماء. أتعجّب
منها، - قال كُتاق دون أن يرفع نظرة الدهشة عن موسكو، عالية حتى لتسقط
قبعتك عن رأسك إن نظرت إليها. كيف رصفوا البيوت أحدها فوق الآخر؟

- نعم، البيوت عالية، وأحدها فوق الآخر، وهذا يحتاج إلى مهارة، - لطف شبق ولده خائفاً أن يكون أحدهم سحره. - تعال يا ولدي، سنرى فيها أعجب منها أيضاً. قف إلى يساري، لا وراء الفرسان. في بخجساري جامع عالٍ أيضاً ولكن لم تره. ومنارتها تطرق السماء. وما في إستانبول من الجوامع أعلى أيضاً.

- أهي أعلى من هذه؟

- نعم، نعم، عالية، - نظر شبق إلى ولده من طرف عينه، وقال له مطمئناً إذ عرف أن ليس فيه شيء مما خطر له من عيوب: - من يعرف؛ متى عدنا إلى الديار، وصدف أن سافرتُ إلى بخجساري أو إستانبول فسأصحبك وأريك إياها.

- لا عمل لي فيها يا أمير، - حسم الموضوع بصوت عادي.

- ولماذا تقول هذا يا ولدي؟

- من تأتي على ذكركم أعداؤنا.

- هكذا؟ لا بأس إذن. - أجب أمير الجان على ما استغربه جواباً لطيفاً.

الطبيعة الخالية من الريح زرقاء. وتُنف الثلج المتفرقة تلسع الأيدي والجباه، وتذوب في اللحى والشوارب. والثلج يتساقط من حوافر الخيل الرطبة، والخيول التي ترى أنفسها في عالم آخر تنخر. ترتدّ بأذانها جافلة. أو تُسبِلها. والموفدون الأديغة يسرحون النظر. البيوت المختلفة المنظر، المبنية من الحجر والقرميد متراصفة تنافس في العلو. وليست مسقوفة بالقش ولا بالقصب. وتبدو أطراف صفائح التوتياء من تحت الثلج الذي يغطيها. وتبدو بيوت غير قليلة من الخشب. وتزحف في الشوارع زلاجات يجرها حصان أو اثنان أو ثلاثة. بعضها يركبه أشخاص يرتدون معاطف ثقيلة وقبعات كبيرة، وغيرها يجر عربات خشبية أو أمتعة أخرى. والعجيب هو أن عدد النساء على الشوارع لا يقل عن عدد الرجال. والصبيان والصبايا يلعبون بكرات الثلج. الناس، رجالاً ونساء، يدخلون الدكاكين ويخرجون منها غير عابئين بالبرد. يتحادثون، ويتضاحكون. ومن يتزحلق ينهض ضاحكاً أو شاكياً ألم ظهره. والهواء مشبع برائحة الشواء والدخان وأصوات البشر.

- ما هذا العالم الذي نحن فيه؟ يسأل دودارقوه شبق مستغرباً ما يرى.
- وهل ارتعبت؟ - يبتسم شبق بدلاً من الإجابة. ولكن جواب المسؤول قاطع ما كان يريد أن يُضيفه:
- ولماذا أخاف والله معي؟
- لمح كتاك الرجل الجسيم الواقف على زاوية من الشارع مرتدياً معطفاً مفتوح الأزرار، ممسكاً بقبضته الشعثاء بيسراه، معرضاً للمارين ببعض الكلمات، مزحلقاً إياهم، فلفت إليه أنظار الفرسان:
- انظروا إلى هذا كيف يعبث!
- لأنه شرب ما لا يطيقه، - قال شيبوتيف غير مستغرب كثيراً ما يرى، شاعراً أنه رجع الآن إلى أبناء قومه.
- وهل عندكم أيضاً من الباخسمة؟ - نفد صبر أقمقوه الذي لم يتكلم إلى الآن.
- الأنواع المتوفرة هنا أقوى مما عندكم، - ابتسم شيبوتيف، ولكن السكران حين رأى الفرسان الذين يلبسون ملابس وأسلحة غريبة عليه تسمّر في مكانه ناسياً المسكر الذي شربه. ثم هددهم بقبضته وأشار نحوهم إشارة مهينة.
- أيّ إهانة يُلحقها بنا هذا المهرج! - لجم دودارقوه حصانه. وتبعه أقمقوه، وابتعد عنهما الحارسان الأباطيان:
- عودا! - أوقف بشق الحارسين، - لم نأت إلى هنا للقتال!
- كان الناس الذين يراقبون فرسان الأديغة من رصيف الشارع قد فهموا أن السكران سيجلب لهم خطراً مفاجئاً فبدؤوا يتفرقون ويختبئون في الدكاكين والمطاعم والزوايا، وشيبوتيف يضبط أعصابه في حضرة الضيوف ولكن لم يتحمل سفالة السكران، فأكد على أحد حراسه أن يوقفه عند حده.
- قاد شيبوتيف ضيوفه دون انتظار السكران الذي نهض بعدما صرعه الحراس، ونزلوا في واحد من أحسن فنادق القيصر. وهياً لهم كل الخدمات ووسائل الراحة. ثم قال لشبق:
- استريحوا! تصبحون على خير. سأحمل نواياكم إلى القيصر نفسه غداً. ونتصرف حسب تعليماته. نلتقي على خير غداً.

XI

بعد انطلاق شبق وجماعته إلى روسيا بأيام قليلة هجم التتر على الجان وأحرقوا قراهم. فتألموا لما جرى واعتبروه إهانة. وأقيمت المآتم في القرى. وغمرت الهموم من اختطف له ولد. وكما يقال، فمن يبق على قيد الحياة يفكر في طريقة العيش. شرع من أحرقت بيوتهم في بناء بيوت جديدة قبل حلول البرد. وعلى عادة الأديغة سَرَّع العمل التطوعي في بناء البيوت. وحديث التجارين متى رفعوا رؤوسهم عن العمل، وكذلك النساء الطباقات، هو الكلمات المهينة التي كان

النعوي يوجهونها إليهم: "أرسلوا الوفود إلى قيصر روسيا الآن!" كان الرجال يتساءلون في ما بينهم يعيون جاحظة: "إذا لم يكن أحد أبناء قومنا أوصل إلى الخان خبر توجُّه الوفد إلى روسيا، وبالتأكيد لم ينزل عليه الوحي، فكيف عرف؟ ثم يبدو أنهم لاحقوا الوفد فهاجمونا من جهة الشمال وليس من جهة القرم على عادتهم..." وإذا كان الرجال يتوجسون أن ينطقوا بكلمة احتجاج فالنساء اللواتي فقدن أطفالهن احتقنت قلوبهن ويشكون مع البكاء: "ما كانت حاجتنا إلى روسيا؟ لماذا لم نستكين لضعفنا فنلازم بلادنا؟.. نكبونا، سلبوا ما عندنا، أحرقوا بيوتنا... ما عيشتي وأنا لا أعرف إن كان نور قلبي أكل أم لا، نام أم لا. أهو حي..." وكانت تتبع الشكوى أصواتٌ توصي بالصبر.

كانت الضربة التي أصيب بها قلقت حين جابهوا النعوي في السهل المقابل لقرية جَعْن ثقيلة ولكن لم يشعر بالألم في حينها. الضربة التي تلقاها على جانبه الأيمن من جندي عدوٍّ ليس أقصر منه، ولكن أرشق، أجبره على ملازمة الفراش. وقضى ثلاثة أيام لباليها في حمى شديدة. ومهما صبر ففمه جافٌ، وشفته تنشقان، والألم مبرِّحٌ. وطوال هذه المدة لم يبق أحدٌ في القرية أو الحي لم يعده. ولم يتركوه وحده. والآن غابت الحمى، ويستطيع الصبر على الألم، وشرب حساء الدجاج بشهية.

يُغمض قلقت جفنيه، ويعيد ترتيب ما حدث: "يا حسرتي. الكلمات القليلة التي قتلها لهذا الـ "مامي" الأسمر النحيف حين أصبح مقابلي أفقدتني حذري! أظن اسم صاحب الوجه الطويل القبيح هو سرباي الذي فقدته قبل أن أستدير. سأعرفه أينما وجدته. لن أكتفي بقصّ ضلوعه بل سأشطره شطرين.

بالعُنا في الاستعجال، لم تنتظر الفرسان القادمين من القرى المجاورة؛ وإلا ما كنا سمحنا لفارس من النغوي بالنجاة..."

ومن حاز على رضا قلقت التام هما جاره الأخوان فَنَشَقُوهُ. لم يدخر من بقي في البيت من الذكور، والإناث جهداً. والآن انتهى الخطر، وغدا قادراً على الخروج إلى الدار لقضاء حاجاته. وكما يقول لمن تعبوا لأجله: فالحمد لله الذي غمره بعطفه أولاً، ثم الشكر لجيرانه وأبناء حيّه.

شمس بداية الخريف تطل عبر النافذة منذ بعض الوقت. بقي على الظهر وقت غير قليل. وفي هذه اللحظة، استدار برأسه فجأة، ونظر نحو الباب، وأنصت قبل أن ينتبه الرجلان.

- خمدت أصوات حوافر الخيل عند الباب، أظنهم ضيوفاً. ليتك يا "بَسْمِت" استقبلتهم!...

دخل لأماف وعلى فمه ابتسامة خفيفة، مع ابنه زغاشت، والعجوز ظاظم بينهما إلى الغرفة.

- تقوم بالسلامة يا ولدي إن شاء الله! - دعا لأماف له، وحاول قلقت النهوض فاستعجل العجوز: - ابق نائماً، لا تقم! أرجوك وأستحلفك بالله ألا تأخذك الأديعية فتؤذي نفسك. - ثم مازحه وهو يجلس إلى جانبه: - والله يا قلقت لم أعرف أن هناك من يستطيع أن يوقع بك جرحاً يُلْزِمُكَ الفراش، إلا أن يكون من عمالقة الأساطير!

- لم يقدر علي يا زعيم الخير، أسرع إلى جانبي في لحظة غفلة فضريني. وفي الوقت نفسه اختفى من أمامي. - قابل قلقت وهو يبرئ نفسه لرغاشت الواقف في حضرة المسنين. وألقى نظرة عابسة إلى ظاظم. ولكن العجوز لم يكن ينظر في وجهه، بل أطرق وغرق في أفكار مزعجة.

التقط لأماف سريعاً نظرة الشاب الجريح. وتوجه إلى صديقه، وقال بنبرة نصيحة خفيفة:

- لا تعتب على صديقي هذا المسكين الذي لا ذنب له، بل على من أدار ظهره لنا، لئيبعد الله المكره عنه. ونحن سمعنا كما سمع ظاظمي، فلا تسأل عما

يعانيه. اصطحبته مُجرّجاً يقول: " كيف أنظر في وجهه من جُرح هذا الجرح البليغ؟"

- قال لأماف الحقيقة. - سُمع صوت ظاظمي بصعوبة. وألقى نظرة مذنبه على الشاب الجريح، ثم أغمض عينيه. - صدّقني يا قلقت لم آت إليك لأبرئ ولدي الخارج عن حده. أرجو منك مسامحته... ما الفائدة مما أقول؟ لم تُحسن تربيته، ولم نستطع أن نزرع فيه الإنسانية والرحمة.

بدأ غضب قلقت الذي لا ينطفئ يخبو مع الصوت المرتجف للعجوز الضئيل. واختفت النظرة المرة التي حجبت عينيه، ولان قلبه سريعاً. ثم نظر إلى ما وراء العجوز وقال لنفسه: "من حظ الخائن مامي، ومن حظي أنه لم يُقتل على يدي. لم أخرج روح العجوز. في كل الأحوال يبقى ابنه، سيتألم له قلبه وروحه. ولكن إن وقع بيدي ثانية - ولا يُلْمُني أحدٌ - فلن أحرص على حياته".

وكان ظاظمي من جهته يشتكي إلى المريض يغلبه ذنبه - براءته: "من أين لك أن تدري يا قلقت ما الذي دفع بولدنا إلى طريق الخطأ؟ لم يشعر بحارة عاطفة الأم ورحمتها منذ وُلد. ولم يسمع منها كلمة حلوة. ظلت تُسمعه العتاب والشتائم، وتضرب ظهره بما يقع تحت يدها حتى زرعت في صدره قلباً شريراً، فهرب بجلده. والآن لن يتأثر مهما نصحته أو دلتته..."

كان من يفهم ما يختلج في قلب العجوز، وما يعكّر نظرات الشاب الجريح هما لأماف وزغاشت. ولكنهما اعتبرا أن لا حاجة إلى التدخل في أسرة العجوز، ولا إلى إطلاع قلقت على ما لا يعرفه. والصديقان الجالسان في عيادة المريض أحدهما يُغضي برأسه كلما دخل أحد، وبُسِمت الغليظ يقف قليلاً إلى جانب الباب ثم يخرج موعزاً بأنه يقوم ببعض الأعمال، المائدة التي يسعى إليها وصلت ولكن العجوزين تظاهراً بأتهما يمدان يديهما دون أن يأكلا شيئاً.

- قيل يا قلقت: إن الضيف متى انتهى من الطعام نظر إلى الباب، - لطم لأماف فخذه ونظر نحو النافذة. ثم قال: - ليسهل الله جرحك عليك، يحدث مثلك هذا للرجال. لا داعي لليأس. هذا الدواء مما أعرفه من أدوية الجروح. وعشبة "لسان الكلب" ليست سيئة. لن تسمح للجرح أن يتقيح. متى دهنوك

بدوائي سكن الألم حالاً، والتأم الجرح سريعاً. اطلب أن يدهنوا لك مرة كل ثلاثة أيام.

- لن أنسى لهفتك عليّ حتى لنفكر في ما أحتاج إليه من الأدوية. حياك الله ورضي عنك. - كان رضا قلقت عن اهتمام العجوز المعروف بلا حدود.

نُحِض قلقت ليشيع الضيوف فلم يقبل لأماف. وشيعهم بسمت إلى الباب وعاد، غير أنه لم يُطِل الجلوس. ولما بقي قلقت وحده تعمقت عاطفته نحو ابنة زغاشت. وسرت فرحة الأمل إلى شفثيه.

لم ينقض أكثر من يومين أو ثلاثة على عيادة العجوز المحترم في الجان حتى أتاه صديقه الجديد تسي داور من الأبخاخ. وقضى عنده ليلة وسافر في الصباح التالي. وتلاه فارسان من البسلني، ولكن أكثر من أثار اهتمام الجيران وحديثهم هو الفارس القادم من الأبخاخ، ذو الساعدين المكسوين بالشعر، والوجه الطافح المشعر أيضاً. ولا يقل عن قلقت كثيراً في تركيب جسمه. مدججاً بالسلاح، مكسواً بعناية. وبقيت ضحكته الخشنة في آذانهم أكثر من أسبوع.

بدأ الجيران يستغربون تقاطر الزوار على قلقت الذي ليس عنده من المال شيء يذكر، وليس من المشاهير، من مسنين معروفين محترمين في المنطقة، إلى أصدقاء يقطعون مسافات طويلة، مهتمين به، محترمين إياه. فتكلم أهل الحي، ثم القرية، ومن الناس من قال: "من الواجب الاهتمام بمن جرح في ساحة المعركة في موقف بطولة، والتعب عليه. ويستحق أن تقام له حفلات" الجابشه¹ فقلقت مستعد أن يضحى بروحه من أجل القوم". ولكن كثيرين مطّوا شفاههم، إما بدافع الحسد أو لاعتبارهم إياه لا يستحق كل هذا التكريم، قائلين "لا يميز لأماف زعيم الخير بين من يستحق الزيارة ومن لا يستحق".

لم يكن قلقت يعرف أن في القرية آراء متضاربة حوله. كان مهموماً بالوفد المسافر إلى روسيا، والبيوت التي أحرقتها النغوي، ومصير الأسر التي بقيت بلا مأوى، ومتى سيشفى جرحه فيعود إلى حصانه. ولكن ما كان يخض كيانه أكثر

¹ هي أشبه بحفلات سمر متنوعة كانت تقام لتخفيف الآلام عن أصحاب الجروح البليغة والكسور الخطيرة.

من كل ما سبق، ولا يستطيع القبول به، هو طريق الوفد المسافر إلى روسيا. فرك قلقت وجهه باليد السليمة، شاعراً بالصغار إذ لم يقبل الأمير نصيحته: "لا أستطيع أن أحكم على جاري الأمير الكبير شبق بالافتقار إلى العقل. أفمقوه يتفهمني أكثر من أخيه ولكنه يتحرج أمام الأكبر. من يحملك إن لم تكن له مصلحة في حمايتك سواء كانت روسيا أم تركيا أم النغوي؟ حقاً أرى أنا أيضاً أن الروس قد يتحللون بالإنسانية والرحمة أكثر من الآخرين، ولكن حتى أحسن الناس يطلبون منك ثمن الدم الذي سفحوه من أجلك. وسيحاولون متى هيمنوا عليك أن يزرعوا فيك شيئاً من عاداتهم وتقاليدهم. وسيطلبون أن تدين بدينهم. ها هم الأتراك، برفقة النغوي، لم يتركوا إلا أن فرضوا علينا الإسلام دينهم. نحن لسنا أمة كبيرة ولكننا لسنا أمة صغيرة أيضاً. أليس الأفضل أن نتعاضد فنحلّ مشكلاتنا القومية بأنفسنا؟"

دخل بسمت إلى الغرفة وهو يمسخ قطرات المطر الخريفى الذي بدأ في الصباح. وقال بعدما خلع ثيابه الخارجية، ناسياً تحية الصباح، فاركاً يديه: "انقلب إلى جانبك الأيمن ودعني أدهنك بدواء لأماف!

استدار قلقت قائلاً في نفسه، مبتسماً: "لا بد أن صديقي خرج من البيت وقد أغضبته المرأة!" ولما أزاح بسمت الضماد استدار وقد لمعت عيناه الضيقتان الرماديتان صارخاً:

- دواء لأماف يستحق أكثر مما امتدحه به، التأم كل مكان من الجرح إلا المكان الذي نفذ فيه السيف عميقاً. وهو الآخر بدأ يلتئم أيضاً.

- وأنا، وإن كنت لا أرى كتفي، عرفتُ من اختفاء الخدر من أصابعي أن الجرح يلتئم بسرعة، - شهد قلقت على صحة ما سمع، - ألا يكفي، مضى أكثر من شهر عليه!

وكما اعتاد هو لم يكن الشاب يريد البقاء في الفراش مزيداً من الوقت، مفتّح العينين، وإن كانت يده ما تزال خارج طاعته. كان اشتاق إلى الرياضة، وإلى متابعة أعماله، وإلى الأصدقاء الذين لم يلتق بهم منذ زمن بعيد. لم يقبل قلقت أن يسافر حال وقوفه على قدميه وعودة قوته إليه. والسبب الأهم هو إعادة ترويض الحصان الذي فقد لياقته وإن كانوا ينزهونه أحياناً. قرر أن يعيد إليه

لياقته خلال الأيام القليلة القادمة في نزعات على تخوم القرية. وصدق ما توقعه: لم يطل الأمر بالحصان حتى بدأ يقذف الزبد من فمه.

في اليوم الأخير اختبر الحصان على تخوم القرية، فرآه قد عاد مثله إلى لياقته، رجع إلى القرية ناوياً السفر. لمح وقد اقترب من الباب الحصانَ المربوط إليه. وفي الحال تعرف على الشاب. - أنت صديقي داور! فحث الحصان ووصل سريعا.

- من جئنا لعيادته في مرضه عاد إلى جولاته، الحمد لله على السلامة يا قلقت. يسرني جداً عودتك إلى حالك الأولى. - عانق داور صديقه بحماسة، - ولا أكتفك أني كذبتُ عليك قليلاً: جئت متوقفاً أن تكون شفيت، كي ترافقني.

- حسناً فعلت. - وضع قلقت يده على كتف صديقه وسار به نحو البيت باشاً في وجهه. - من حظنا أنك أسرع وتيقنا. كنت قررت أن أزورك غداً.

خرج الفارسان قبيل أول ضوء من القرية متجهين إلى الجنوب. ولم يبق ما لم يتطرقا إليه طوال الليل. وتوافق رأيا الصديقين على رفض فكرة توجُّه الوفد إلى روسيا. ولم ينس قلقت أن يأتي على دَكرٍ ونتغ الذي أزاحه من وجهه. وما ساقه إلى هذا الحديث هو عدمُ تمكنه من الإمساك بخيط يقوده إلى أخته. وداور من جهته يتابع خاطفي عمه. وقد وصله خبر مفادُه أنه شوهد في بيت قريب من المرفأ، فلم يجد من المناسب مواجهة اللصوص الثلاثة وحده، فجاء طامعاً في مساعدة صديقه.

الصديقان يسيران على طريق العربات فيقتربان حيناً من البحر، ويتعدان حيناً. ويحدث أن تغلق المرتفعات المكسوة بأشجار مختلفة مرأى البحر أحياناً. والبحر الأسود عابس وإن لم تغط أمطار غزيرة أو تهبّ رياح قوية. يلطم ضفافه غاضباً، ويقذف الزبد وماء البحر المالح في الهواء.

- سيسوء الجو بين اليوم والغد. قال قلقت وهو ينظر من فوق الأمواج المزبدة كقطعان من الخراف.

- السماء صافية، والشمس لطيفة. - تلقت داور حوله غير مصدق ما سمع.

- العادة أن تحمل أمواج البحر المطر متى تعكّر ماؤه. - شرح قلقت سبب اعتقاده.

دخل الفارسان مدينة توم بُعيد الظهر بين خيب وعدوٍ واستراحة. وبعدما سارا مدة داخلها أخرجهم الطريق منها. ثم سلكا طريقاً متعرجاً ملتفاً حول التلال إلى الجنوب فوصلا إلى البيوت الثلاثة القائمة عند أصل الغابة. الرجل القصير الذي خرج لا يوحى مظهره بالشر. ليس قادراً على أن يختطف أحداً إن لم يختطفوه. دعاهم بحارة إلى التفضل ولكنهما رفضا. وصارحاه بمرادهما:

- والله يا شباب رأيتُ هذا الرجل الذي تصفانه. نظر الرجل الصغير مرتعباً وقد شعر بمزيد من الصغر إلى الشابين الجسيمين. - قضى في بيتي أكثر من شهر. كان يحرسه رجلان ضخمان، يخفيانه ليلاً في القبو، ويطلقانه نهاراً مقيداً. وأنا لا شأن لي بهما ولا بمن تبحثان عنه. ولا أعرف من هما. هاجماني ليلاً، وأجبراني أن أقسم على حفظ السرّ. ولا أخفي أنهم أعطاني بعض الذهب. وأخبراني أن الرجل المخفي لص ومجرم، ولكن لم آخذ عنه مثل هذا الانطباع. لم يمض أسبوع على إخراجه من بيتي.

- حياك الله يا أخي، أصلّق ما رويته، - امتطى داور الحصان وقد اكتسب أملاً ما. وركب قلقت أيضاً، ملتفتاً إلى الرجل القصير، غير مصدّق تماماً كلامه. وصاح المضيف في اللحظة نفسها وراءهما:

- نعم، تذكرتُ، اقتادوا الرجل بضع مرات إلى المرفأ، وإلى السوق أيضاً. ولكن لا بد أن أمورهم لم تتحقق كما يريدون.

فتش الشaban المرفأ بدقة. ولم يترك أحداً لم يستجوباه. ولكنهما لم يحصلوا من أحد على خبر مفيد، فقررا أن يزورا السوق ولو أن الوقت وقتٌ إغلاقه، وقبل الوصول إليه لفت انتباه قلقت فارسان قادمات باتجاههما، ومعهما حصانٌ غيرُ مسرج، وعلى غارب أحد الحصانين غلام يافع. نصّ الفارسان برأسيهما، وتبادلا بعض الكلام. ورفع أحدهما الغلام وأركبه على الحصان العاري.

- يا داور، هذان الفارسان يدعوان للارتياح. توسّط أنت بين حصان الغلام ومن إلى جانبه، واطلب من الرجل الترجلّ دون أن تكلمه. وأنا كفيل بالآخر.

- وما مأخذك عليهما؟ أتعرفهما؟ - نظر داور إلى قلقت مندهشاً.

- لاحقاً، - حثّ قلقت الحصان مع الكلام.

ألقي الفارسان نظرات حذرة مرتعبة، ولكنهما لم يتوقعا أن يحدث لهما ما يحدث. وألقى قلقت وداور الفارسين عن حصانيهما في غمضة عين. والخارجون من السوق يراقبون المشهد فاغري الأفواه، لا يعرفون ما يحدث. وجرى بعضهم مذعورين يتلفتون وراءهم. يلكم قلقت بيده الضخمة وجه الفارس الملقى على الأرض بعدما أمسك بتلابيبه. ويمزج معه صديقه:

- لا تضربه بكل قوتك! أخاف أن يُقتلا فنُذنب بحقهما وإن كانا لا يستحقان الرحمة.

بعدما سال دم الرجلين من فمويهما توجه قلقت ضاحكاً إلى الغلام الذي قفز من الحصان وشرع يقاتل مع داور:

- لا أعرف إن كان أحدهما والدك، سأمحنا إن أذنبنا بحقك!

- لا، تباً لهما! - أسرع الصبي بالردّ، - هل كنت أقاتل والدي؟ اختطفاني...

- فقدت والدي وليس لي إلا أمي وأخوأي الصغيران - انفعل الصبي وهو يتكلم بحماسة، وشرع يمسح دموعه براحتيه، وأضاف: - أمسك بي هذان وأنا في الغابة لآتي لأمي بحزمة حطب... أمي تنتظري، ليس لها ما تطبخ به...

- ألسنت رجلاً؛ لماذا تبكي؟ - نصح قلقت الصبيّ الأسمر ذا العينين اللواسعتين، مشرّع الرجل، - ستجد أمك، وتحمل إليها حزمة الحطب.

- ستطبخ، وتطرد الكلب، وتُطعم الأسرة، وتنيهما، وتغلق الباب بالمزلاج، - نصح داور ضاحكاً الصبي بخبر الأسرة التي لا طعام عندها، والمتداول بين الأديغة.

- من أين أنت يا أخي الصغير، وما اسمك؟ - سأل قلقت لا يعرف ماذا سيفعل بالصبي.

- أنا من قرية سَنَحابل، واسمي ميناج، - أجاب الصبي باختصار وقد عاد إليه الوعي. ثم استأنف: - كانوا يحملونني إلى السوق لبيعي. ولما كان السوق في آخره لم يدفع أحد شيئاً. والآن كانوا في طريقهم بي إلى المرفأ. ولما رأياكما ارتعبا، وأكّدا عليّ ألا أقول شيئاً، وأركباني الحصان العاري. وكنت قررت أن أتوسل إليكما...

- والله يا قلقت أنت حاد الملاحظة، - الآن فحسب فهم داور أن صديقه عرف أن الرجلين لصّان. - أنا من جهتي كنت أقول: ما اعتراضك على الرجلين، وأنت فهمت الموقف حين أركباه على الحصان العاري.

- متى عشتَ ما عشتُ أنا وصلتُ فطنتُك إلى فطنتي، - مزح قلقت مع الصديق.

- ستدعي أنك عشتَ ما لم يعيشه غيرك. - وافق داور صديقه مع شيء من المرح، - لا فرق كبيراً بيني وبينك. - ثم توجه إلى الصبي: - ألم تر في السوق رجلاً مقيداً؟

- لم تقع عيني على أحد غيري يُباع أو يشري.

- لا شاغل لنا إذن في السوق، - قرر داور أن يكفّا عن البحث.

- وماذا نفعل بميناج إذن؟ - نظر قلقت قلقاً إلى الصديق، لو كنتَ يتيماً لتبنيّتك ولداً، ولكن لا يجوز هذا وعندك أم وأخوان في انتظارك. لن أسبب الألم لأملك، هل تحتدي وحدك إلى قريتك إن أركبناك الحصان وأطلقناك؟

- ولماذا أركب؟ - لم يقبل الصبي. - لن أركب حصان هذين اللصين. ولا أريد أن أراها ثانية.

- وكيف نرسله وحده! - تدخّل داور: ألا أكون رفيقه!

- ثم ما أريد أن تفهمه يا أخي الصغير، - مرة أخرى نصح قلقت: - سألتك إن كنت قادراً على العودة وحدك لأختبرك، ولكن لم يخطر لي أن أطلقك وحدك. والأحصنة التي لا تريدها لا تساوي عذابك وعذاب أملك، ولا هما كسباها بمالهما، بل سلباها. ولذا اركب أحد الحصانين المسرحين لننطلق.

ركب ميناج واثقاً دون اعتراض على قلقت، في حين ساق الصديقان الحصانين الآخرين معهما في الطريق.

XII

استلقى موفدو الجان - الأباطرة ليقبلوا عند الظهيرة ولكن العاصفة الثلجية التي هبت لم تسمح لهم بإغماض عيونهم. نهض شبق ووقف إلى النافذة. الثلج الرطب ينزلق على الأرض المتجمدة. والريح التي تهب فجأة مثل كلبٍ غدار

تحمل الثلج، وتنتثر إلى الأعلى والأسفل. والبرد القاس المفاجئ يئن ويضحك. ويعبث بمزلاج النافذة، فيصدر هو الآخر أصواتاً غير مفهومة. وزجاج النافذة الذي ينظر عبره يتجمد شيئاً فشيئاً. ومع أن ناراً هائلة تلعب في قلب الفرن فالبرد يملأ الغرفة شيئاً فشيئاً.

"لابد أن رفاقي المتعبين استغرقوا في النوم" - ينظر شبق دون أن يلتفت إلى الغرفة الأخرى التي ينام فيها كُتّاق وأفمقوه، - "لينا ما إن لم يكونا قلقين!.. الصبي الأمير شابٌ ولكن أفمقوه؟ البلاد التي جئنا إليها باردة جداً، لا أعرف ما تنوي لنا. أنكون نحن وزيارتنا لها نحن ما لا تقبله؟ سألت مضيفنا فضحك مني مستقلاً ما يرى. شتاؤنا الحقيقي لم يبدأ بعد. والله لا أعرف إذن ما هذا الشتاء... الأفضل أن ننهي عملنا ونعود قبل أن يحاصرنا في البلاد الغريبة... وهل نام الأمير دودارقوه ما إن وضع رأسه على الوسادة! والله رفاقي أناس لا مبالون كسالى! يبدو أن اتهام فلاحينا لنا، نحن الأمراء، صحيح: نأكل، ننام، نتحدث، وكفى! نعترض على قلقنا أحياناً فلا ندعه يكمل كلامه، ولكنه صريح إلى حد الوقاحة... - كان شبق يحتج ولكنه ابتعد على رؤوس أصابعه عن النافذة كي لا يوقظ من ينامون في الغرفة الأخرى، وجلس إلى الموقد. وظلّ يقلّب الجمر بالملقط حتى أعاده إلى توهجه. وألقى فوقه بضع قطع من الحطب. وبدأ الظلام يستوطن زوايا الغرفة شيئاً فشيئاً. - الحق لا تعرف ما لم تجرب، هذا المكان الذي جئنا إليه بعيد والله كأنه معبر الأموات.¹ حتى لو وافق على ما نطلب فكيف يأتي بجيشه من هذه المسافة ليحارب معنا؟ وهل ننجو إلى وقتها من أعدائنا القريبين منا؟ لا تطمع في أن تقف دولة أخرى إلى جانبك وأنت بلا دولة! ستطمع هي أيضاً فيك مع الأيام. - أبي شبق حسداً وغيره مُرتّين أن ينطق اسم قلقنا، جاره الفلاح، صاحب هذه الأفكار، بعدما وصل إلى رأس لسانه، عارفاً سبب امتناعه، فعاد إلى أفكاره. أأكون أتجه إلى الأسوأ وأنا أظن العكس؟ لا أعرف ماذا سيكون جواب القيصر الذي

¹ يشبه التعبير ما يسمى في الأسطورة الإغريقية بالعالم السفلي الذي يدخله الأموات

Hadès، ولا يخرجون لأنه محروس بالكلب سيرير.

قصدها؟.. نتحمل إن وقف إلى جانبنا أيّ حملٍ يُحمِلنا إياه. ونقدم له ما نستطيع..."

أصوات الأجراس المتجاوبة التي سُمعتْ أيقظت شبق من أفكاره. ارتقى على النافذة الأميرُ الذي أفزعته الأصوات الرنانة غيرَ مدركٍ ما يجري. وخرج من الغرفة الأخرى كئافاً وأفمقوه، وانضم إليهم الأمير دودارقوه الذي أيقظوه بصعوبة، وقال بشيء من التوجس:

- هل جرى شيء في هذه المدينة؟

- إما أن شيئاً يحترق، أو أن المدينة تتعرض لهجوم. - باح أفمقوه بما يَحْمَنه.

وتوجه كئافاً إلى عمه خجلاً أن يعترض على الأمير الأباطي:

- لا يا أفمقوه، لا شيء مما تتوجس منه، أجراس هؤلاء تشبه دعوتنا نحن إلى الصلاة متى حان وقتها.

- وما يُدريك؟ التفت الأمير شبق.

- هل نسيتم أننا سمعنا مثل هذه الأصوات حين وصلنا إلى تولا، فرسم رفاقنا الروس الصليب وتوجهوا إلى الكنيسة؟

- نعم، نعم، - شهد دودارقوه على صحة كلام الأمير الشاب.

- لماذا تقفون أيها المسلمون؟- قال شبق لرفاقه، وتابع: - لا تدعونا ننسى صلاتنا نحن أيضاً. لتوضّأ ولتقف في حضرة الله. وأخبروا الحراس. أنت يا أفمقوه، توضّأ أولاً، وأذن لنا حتى يسمعنا المسلمون أمّة الله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد.

لم يتأخر أفمقوه في الوضوء، وسأل من ينتظرونه بعدما أزاح الإبريق وارتدى لباسه:

- ألا يكفي أن أقف فوق هذا المقعد الوطني لأؤدّن؟

- مناسب جداً، - وافقه شبق.

"الله أكبر، لا إله إلا الله..." يبدأ أفمقوه بالجنوب وإصبعه في أذنه، وباليَد الأخرى يمسك طرف الأذن الأخرى.. يرفع الأذان بصوت عالٍ مستديراً إلى كل الجهات. كان العمال الذين لم يألّفوا مثل هذا الصوت قد تجمعوا ينظرون

من خلل الباب، ولكن المسلمين لم يعبؤوا بهم، ولم يقطعوا وضوءهم. وقف شبق أمام المتوضئين، ووقف وراءه الأمراء والحراس يبتهلون إلى الله.

قال أحد الحراس بعدما انتهوا من الصلاة بقليل:

- والله يا أمير قطع أذانك أجراسَ المسيحيين. الله الأحد سمعنا ولو أننا هنا.

- وهل في هذا شك؟ رد أفمقوه بسرعة. - بديهي أنه سمع، وأوقف أصوات نواقيسهم.

نقض كُتّاق الأمير الشاب صمّت الغرفة:

- لا أعرف رأيكم، ولكن صوت الناقوس يعجبني.

عاد الصمّت الثقيل إلى الغرفة من جديد. ولم يعد يُسمع صوتُ خفق الهواء واحتراق الخطب في الموقد. وذابت الشموع. واصطنع أحد من لم يعجبهم الموقف سعلة. ولاطف الأمير شبق ابنه بعدما انتظر الجميع جوابه:

- يا ولدي، لا تحطّر لك مثل هذه الأفكار وأنت تنصرف من أمام الله. أعرف ما تذكّرت في هذه المدينة البعيدة. - نظر شبق إلى ولده بعين الرضا، وتفقد الجالسين، - أعاد إلى أذنيك صوتَ المطرقة على السندان في ورشتنا. نعم، نعم، لا يزال صريف الحديد في أذني أنا أيضاً.

أَيّد الجالسون كلام شبق بعدما تفهّموا أساسه والقلق الأبوي المنبعث منه، وقبل أن يجد الضيوف الفرصة ليتكلموا في موضوع آخر دُعوا إلى العشاء.

اختلى الأخوان شبق وأفمقوه فأشار الأكبر برأسه إلى الغرفة التي فيها ابنه، وهمس في أذن الأصغر:

- لا يعجبني سلوك كُتّاق يا أخي. ألم تلاحظ ونحن ندخل موسكو كيف تسرّ في مكانه؟

- لا يزال كُتّاق شاباً يا شبق، ولا يجوز أن تصدّق كل ما يقوله.

- صحيح، وأنا كنتُ في سنّه حين طلب مني السلطان سليم التحالف معه. وأنت تتذكر أنني رفضتُ.

- رفضت لأنك والجان لم يكونوا يقبلون الإسلام.

- ما الفائدة من أن تشير إلى ما فات؟.. أجبرونا بالسيف على قبوله. لا يزال في الجان من لا يريدون الإسلام... اغفر لي يا إلهي ما أقول إن كان من قلبي

أم من خارجه. كفانا كلاماً في الموضوع. تصبح على خير. أَدع إلى ربك، واحرص على أخيك الصغير. ليس مستبعداً أن يعيش الجِرّ في هذه الأنحاء. أوى شبق إلى السرير غير أن النوم جافاه. يرفّ جفناه محاولاً الإغفاء. والريح لا تعرف الهدوء: تخفق وتصفر وتتنّ. تحسبها أحياناً قطّة تموء، وأحياناً إنساناً يضحك.

يلقي شبق الغطاء عن جسده غاضباً، ويقفز بحركة واحدة من الفراش. يلبس مسرعاً الجراب الصوفي كأنه سيركب. ويضع رجله في الحذاء. ويلقي الكساء على ظهره. يتعد عن البلور المتجمد لا يستطيع أن يرى من خلاله. يتوقف فجأة على أرض الغرفة وقد حُيِّل إليه أنه سمع صوتاً. ينصت إلى جهة الغرفة التي ينام فيها ابنه وأخوه. لا شيء يدعو إلى الارتياب. يُحَيِّل إليه أن الريح التي تصدم الغرفة تهزها. يخلع ما لبسه قائلاً لنفسه: "لا معنى لوقوفي" ويعود إلى الفراش. ويقلب الوسادة بعد قليل. ويعيدها غير مرتاح لها.

"يا ربي لو وصلْتُ إلى حلٍّ للمسألة التي تكفّلت بها لكان خيراً كي لا يشمت بي أعدائي بين الأمراء، والأسر المنتفذة، والفلاحين، وكذلك بين الجان والأبزاخ والجدوغ والبسلني والقبرتاي... لو تفاهمنا مع خان القرم لفعلنا خيراً، ولكنه قريب منا أكثر مما ينبغي، وليست القرم كتركيا، فيتدخلُ فينا كثيراً. ولا نطبق إتاوته. البلاد التي جننا إليها يقال إنها كبيرة جداً فإن اتفقنا فسيكون تدخلها فينا أقلّ لأن أرضها بعيدة عنا. وستجبر الطامعين فينا على صرف النظر عن طمعهم..."

وفي الحال انتصب من جديد أمام عيني شبق الرجل المفتوح أزرار كسائه، الذي كان يهددهم. تقلّب وأصلح وضع المخدة التي بدت له كالحجر. وتنهد عميقاً، وقال لنفسه: "نعم، نعم، في العالم أمثاله. لن تستطيع فرض محبتك على الجميع. ولماذا الابتعاد في المثال؟ حين نخرج من الجان ندخل أرض الناقحوي نتلقى التهديد كثيراً رغم أننا من عرق واحد. أما صاحبنا هذا فمعدور لأنه لا يسيطر على عقله بعدما شرب... إن كان قد شرب فلماذا دعانا بالنغوي؟ هل في هذه الأنحاء، كما عندنا، تمييز بين البشر؟ والله لا أعرف وقتها... يبدو أن ما في قلب السكران على لسانه. لم أتقبّل وقتها صرّعه بصدر الحصان ولكنه

يستحق. من حظي أني لجمتُ حارسيّ وإلا لما اكتفيا بصرعه، بل قطعاً رأسه. وهل يجوز أن تحفظ في قلبك مثل هذه القسوة؟! ورغم أن الولد رأى هذا فهو يعرب عن إعجابه بصوت جرسهم... يا ولدي، يبدو لي أن هؤلاء الذين جئنا إليهم لا يجوز أن تبالغ في مديحهم، ولا أن تغبطهم على عيشتهم... سنرى ما سيجري... " - غفا شبق دون أن يعرف كيف.

كأن شبق يحلم ولا يحلم. هو وحده يعبر البحر فارساً وسط عاصفة ثلجية. ثم يقتحم الصيف الحارّ بسيف مسلول. ومكان الشمس يرى القمر في السماء المتدلّية. يهوي عليه بالسيف، يقف على رؤوس أصابعه فوق السرج، ولا يستطيع بلوغه. تنشق الأرض وتبتلع الحصان، وتحمله هو ريح عنيفة، وتلفّ به، وترميه على الجليد، تُجلّسه على ركبتيه أمام الرجل الضخم الجالس على مقعد منخفض. تُفهمه اليدان اللتان تضغطان على رأسي كتفيه أنه ليس حرّاً في نفسه. ولكنه حين يخرج من كابوسه ناهضاً رغماً عنهم، يرى الطبيعة دون ريح، ونار الموقد تشتعل، وكُتّاق يصطلي بها.

- هذا أنت يا ولدي! - يجلس شبق في الفراش. يُذكي كُتّاق نار الموقد كي لا يرى والده في ملابسه الداخلية، - لام شبق نفسه وهو يلبس مديراً ظهره لولده: طال نمومي على غير عاديّ. ثم يسأل: - أين رفاقك؟

- أفمقوه ودودارقوه في أرض الفندق، يستغريان طبيعة روسيا البيضاء. - تناول كُتّاق الماء الذي سيصبه على يدي والده.

- وأين الحارس الذي عليه أن يفعل ما تفعل الآن؟ - سأل شبق وإن كان راضياً عما يفعله ولده لأجله.

- صرفته من الغرفة لخدمة الأحصنة.

- وهل هذا وقتُ خدمتها؟ - سأل شبق دون غضب، وأجاب ميرزاً للأمر الشاب علاقة الأديغة الأزلية بالخيّل: - راكب الحصان يهتم بأمر الحصان الذي يحمله. ويُطعمه، ويسقيه، وينظف، ويشكره.

- نعم يا والدنا، نعم. - كان الحارس ينتظر استيقاظك وقد أنجز خدمة الخيل، فصرفته عنك لأقوم أنا أيضاً بشيء مما عليّ نحوك؛ فإن أخطأت فساجني.

- لا، سرّني ما فعلت، - لان صوت شبق. وأضاف بعد سكتة قصيرة: - مَنْ في العالم يؤدّه مثلُ يد ولدك؟! هل نمت مرتاحاً يا ولدي؟

- نعم، واكتفيت من النوم يا والدنا.

- بديهي أن ينام الشاب مرتاحاً ويكتمل نومه. وكيف يتصرف مضيفونا؟ ألم تر شيبوتيف؟

- فطور مضيفينا جاهز. ولكن جاءنا رجل ضخّم مكان شيبوتيف.

- وماذا يريد؟

- يقول إنه حريص علينا.

- لماذا لم توقظني يا أمير؟

- نبّهنا ألا نزعجك.

- هو يقول ما عليه، وأنت تفعل ما عليك. - قاطع شبق كلام ابنه بصوت أشدّ حِدّةً، وجلس على المقعد المتجه نحو النافذة. ومرّ براحتيه واحدة واحدة على لحيته، ولم يستطع إلا أن يحتجّ على ما لا يعجبه. - ولكن لا يرضيني تغيير المضيف. نحن الأديغة لا نفعل هذا. ألم يظهر شيبوتيف البتّة؟ والله هذا لا يجوز! هيا نادوا يا أمير من يقول إنه حريص علينا!

الرجل الضخم الذي دخل به أفمقوه إلى الغرفة لا يتسع له الباب. ودودارقوه وكُتّاق اللذان وراءه يخفيهما جسده. لم يقابل أحداً يشبّهه به إلا جاره قلقّت. وبدا شبق الذي نهض للروسي صغيراً بالقياس إليه.

- أدعو إلى الله أن تحالطنا بخير، وأن تتوطد علاقتنا، - حنى الرجل له رأسه انحناء خفيفة. وقَدّم إليه نفسه: - نسبي هو فيشنيفيسكي، واسمي ديمتري، وأنا قائد عسكري. سمعت باسمك البارحة. وتعرفت على رفاقك للتو. هم أناس ممتازون. وابنك أمير شاب يتمتع بالفطنة والاحترام.

- حياك الله، تفضّل، واجلس! - أشار له إلى المقعد القريب من النافذة. ووقف ريثما جلس الضيف. ولاحظ فيشنيفيسكي أن الأمير دودارقوه جلس بعد الأمير أبشقوه وأن الآخرين بقيا واقفين فأفهمه الأمير أبشقوه الوضع من ناحية التقاليد الأديغية: - قلت لي إنك تعرفت على هذا الأقرب إليك، وهو أخي، والآخر ابني. وهما لا بأس أن يقفا في حضرتي. ما أخباركم يا

فيشينسك، وكيف صحتكم؟ - سأله شبق بالقليل من الروسية التي يعرفها. -
وقيصركم أليس بصحة جيدة؟ ندعو إلى الله أن يحقق لروسيا إنجازات كبيرة. -
حتى رأسه قليلاً رافعاً جسده عن الكرسي، معبراً هكذا عن احترامه للقيصر.
وفعل أمير الأباطة مثله. وحنى الواقفان رأسيهما على نحو ظاهر.

- حياك الله، - لم يتأخر فيشنيفسكي في الجواب. "لم نكن نصدِّق شيوتيف
أندريه بويارين حين كان يروي لنا أخبار الأديغة ولكنهم ليسوا كما كنا نتصور.
يحترمون أنفسهم، ويحملونك أيضاً على احترامهم. ألا ترى جلوسهم ووقوفهم
على ترتيب الأكبر والأصغر!" وقبصرنا بخير، ويسرُّنا أنكم قطعتم كل هذه
المسافة من جهة بعيدة وجئتم إلينا. - كان قد قرر أن يقول "بلاد بعيدة"،
ولكنه تراجع إلى "جهة بعيدة". فأفهمهم أنه يعرف حال الأديغة. - ونحن
ندعو لكم أن تصبح وحدتكم - تفاهمكم أقوى. لو كان عندكم حاكم واضح
لسألنا عنه. قيصر روسيا الكبرى التي جئتم لمقابلته سيدعوكم في أحد الأيام
المقبلة. لا تؤاخذوه؛ حين تكون البلاد كبيرة تكون مهام الحكم فيها كبيرة
أيضاً.

- كان الأفضل ألا يتجاوز الموعد الغد. - اضطرب دودارقوه لما سمع من
خبر الموعد.

فهم شبق ما يريد أمير الأباطة أن يقوله فابتسم. ونظر باتجاه أخيه وولده. ثم
أعاد النظر في الضيف بوجه طلقٍ لا يخلو من المראה. واستبق من يريد أن يسأله
بالجواب:

- لا يخلو كلام الأمير الأباطي، وضحكنا أنا من سبب. الأديغة يقولون إن
الضيف يصبح جزءاً من أسرة المضيف بعد ثلاثة أيام، فهذا سبب استعجال
الأمير دودارقوه. وهو سبب ضحكنا. - ثم أنهى بصوت جازم مع شيء من
المزاح: - لو أنهينا مهمتنا قبل أن نصبح جزءاً منكم لسافرنا. ولكن كان بودي،
إن لم يزعجك، أن أسألك عن أمر لا أوافق عليه: - ما سبب تغير مضيفنا
شيوتيف؟

- يسرني أن تراحوا يا أمير. - كنتم القائد العسكري فيشنيفسكي الضحكة
التي داعبت شفثيه. - وإن لم أعجبكم فلا بأس. ليس شيوتيف من نوع

الرجال الذين يتخلى عن ضيوفه. حاكم روسيا كلفنا هو وأنا بضيافتكم. السفير شبيوتيف عند القيصر في هذه الساعة في الكرملين. وسنتنظره إلى أن يعود. وسنتصرف تبعاً لأمره.

مضى النهار، وتبعه الليل، وكان اليوم الثالث يبتعد عنهم. وفي كل يوم يضحّ الجرس الكبير في أرجاء المدينة مرتين. ولم يعد الموفدون الأديغة في بيت واحد كما البارحة وما قبلها. ولم يصلوا معاً كما فعلوا في اليوم الأول. ولكن مهما اعتمل في صدر الأمير أبشقهو لم يترك الأمير الشاب ابنه. وكلما غاب عن نظره قلق عليه، فأعاده إلى رفقته. وكان أقمقوه عرف هذا فيتركهما وحدهما فإرفق دودارقوه.

القائد فيشنيفيسكي يتردد بين الفندق والكرملين. وفي هذه اللحظة أرسلوا وراءه فارساً استدعاه. وكتاق يتظاهر بعدم سماع أصوات الأجراس لأنه يعرف عدم إعجاب والده بها. ولكن هذا لا يمنع أن يتكرر الرنين في دمه.

- ما رأيك يا أمير في تركهم إيانا يومين بلا أي عمل؟ - سأل شبق الذي كان يمسح من جديد القماش الرقيق الذي لفَّ به السيف والخنجر الذهبيان المجهَّزان لإهدائهما إلى قيصر روسيا.

- ربما تركونا ننتظر على مبدأ أيام الضيف الثلاثة عند الأديغة. - ما إن نطق كتاق هذه الكلمات التي لا تدري أهى جدُّ أم مزاح حتى تتهمهم وقع حوافر الخيل. وقبل أن يرفعوا رؤوسهم دخل شبيوتيف وفيشنيفيسكي الغرفة. وقال شبيوتيف ووجهه يشي بأنه يحمل خبراً سعيداً:

- إن كنتم مستعدين يا أمير فنحن أيضاً، - يدعوكم قيصر روسيا كلها. ربما كان تلميحهم بمبدأ الأيام الثلاثة للضيف هو ما تذكَّره فيشنيفيسكي حين ابتسم متأملاً في وجهي الأب وابنه.

لم يدعهم الموفدون الأديغة ينتظرون. كانوا جاهزين حسب تعليمات الأمير شبق. ركب الأمراء الأديغة ووراءهم بعضُ ساسة خيلهم.

اليوم بالقياس إلى البارحة المشرقة يوم كالح ترافقه ريحٌ خفيفة. وطبقة الجليد تنثر وراءها وقع الحوافر. وتنزل الأحصنة أحياناً. والأمير شبق المرتدي كساءً قصيراً أبيض يتوسط شبيوتيف وفيشنيفيسكي. والقلنسوة على رقبته. وأذناه ملمومتان

تحت القبة الجلدية الزرقاء. والفرسان الثلاثة وراءه يتوسطهم أمير الأباطة بصفته الأكبر فيهم، وعلى يساره كتناق ابن الأمير. والحراس السائسون يتبعونهم بالترتيب نفسه.

خرج الفرسان من منعطفات شارع أرباب الضيق، واقتربوا من رابية بوروفيسك التي يقع عليها الكرملين. ثم ارتقوا التبة ووقفوا أمام البوابة القائمة وسط الجدار القرميدي الذي تسقط قبعته عن رأسك إذا نظرت إلى أعلاه. ومع نداء فيشنيفيسكي نظر من أعلى الجدار ثلاثة حراس مسلحون بالحرايب. وانتبه آخرون من أطراف البوابة. ثم فتح بضعة رجال مصراعي البوابة السميكين بصعوبة. وبعدما اجتاز الوفد رتلين من الجنود دخلوا ساحة سوبورن الفسيحة. وكان همُّ الأمير شبق حين دخلوا الكرملين هو الأمير الشاب كتناق الذي لا يرى من اللائق أن يلتفت إليه. ولما ترجل الفرسان واصطُحبوا إلى القصر العالي عبر الممرات الضيقة التي في كل خطوة منها حارس، كان يوّد أن يكون الصبي الذي لا يفارق ذهنه إلى جانبه. ولكن موقعه بصفته الأمير رئيس الوفد كان يمنعه. يقول شبق لنفسه: لو عرفتُ أن الصبي سيرى هذه الممرات المظلمة فحسبُ لما كان عليّ أن أُخرجه من الجنة التي نعيش فيها وآتي به إلى هنا. ومع ذلك يقول إن رنين أجراسهم المتجوبة يعجبني.

أدخل أميراً الجان والأباطة إلى الصالة الفسيحة التي تلمع جدرانها بالذهب والفضة. وعلى كلّ من جانبي الدرج غير العالي يقف اثنان من الحراس مدججين بالسلاح. شعر شبق بالحرارة تسري في جسده. ومع أنه كان يوّد خلْع كسائه فقد بقي واقفاً بعض الوقت ينتظر أن يُسمح لهم بخلع أكسييتهم. وبقي شبيوتيف وفيشنيفيسكي بمعاطفهما. انفتح الباب الكبير فرأى شبق من بعيد القيصر الجالس على عرش مرتفع. واصطُحب الموفدون كما جرى الاتفاق أمس، ووقفوا قبل مكان القيصر بوضع خطوات. استغرب الأمير عدم نخوض القيصر لاستقبالهم، واكتفاءه بحركة رأس خفيفة، فاكتمى هو بمثلها. ثم خاطبه: - يا قيصر روسيا كلها، جاءك وفدُ الجان- الأباطة مع كل احترامهم لك في مهمة. نخيكم باسم من أوفدونا. ونشكركم على استقبالنا، وهذه الهدية أرسلها إليكم شعبنا.

وقف الأمير الشاب كُتّاق إلى يسار والده وعلى راحتي يديه السيف والخنجر والزّنار الذهبيات.

- قَرِّبْهَا إِلَيْهِ يَا وَلَدِي، لَا تَخَفْ! - وَأَتْبَعَهُ سَرِيعاً بِقَوْلِهِ، - لَيْسَ أَكْبَرُ مِنْكَ عُمْراً بِكَثِيرٍ.

لَمْ يَكُنْ فِي عَيْنِي كُتّاق بِكَسَائِهِ الْأَسْوَدَ وَقَبْعَتِهِ السُّودَاءَ الْمُنْسَجِمَةَ مَعَ الْكِسَاءِ، وَالَّذِي يَصْبَحُ رَجُلًا دُونَ أَنْ يَحْسَ بِهِ أَحَدٌ، أَثَرٌ لِلرَّهْبَةِ. وَحِينَ بَدَأَ يَقْتَرِبُ مِنْ عَرْشِ الْقَيْصَرِ وَكَأَنَّهُ يَخْسَفُ مَا يَطُوهُ، أَشَارَ الْقَيْصَرُ إِشَارَةً خَفِيفَةً إِلَى الْحَارَسِينَ الْمُرَافِقِينَ لَهُ أَنْ يَتْرَكَاهُ. قَطَعَ كُتّاق الدَّرَجَاتِ وَأَصْبَحَ عَلَى بَعْدِ خُطْوَةٍ مِنَ الْقَيْصَرِ. تَبَادَلَا النَّظَرَ بَعِوَتْهُمَا وَقَلْبَيْهِمَا. جَسَّ الْقَيْصَرُ مَا عَلَى كُتّاقٍ مِنْ لِبَاسٍ وَسِلَاحٍ. وَنَظَرَ فِي وَجْهِهِ مَعْبِراً بِعَيْنَيْهِ عَنْ إِعْجَابِهِ بِهِ. وَهَزَّ لَهُ رَأْسُهُ بِخَفَّةٍ. وَفِي الْحَالِ اقْتَرَبَ مِنْهُ رَجُلَانِ، وَاسْتَلَمَا الْهَدَايَا. وَلَمَّا عَادَ هُوَ بَعْدَ مَا حَتَّى رَأْسُهُ لِلْقَيْصَرِ قَالَ إِيْفَانُ حَامِلُ الصُّوُلْجَانِ الذَّهَبِيِّ قَبْلَ أَنْ يَعُودَ الْأَمِيرُ الصَّبِيِّ إِلَى جَانِبِ وَلَدِهِ: - هَاتِ لَنَا رَجَاءُكَ أَيُّهَا الضَّيْفُ الْقَادِمُ مِنْ بَعِيدٍ!

- لَا يَدْعُ لَنَا خَانَ الْقَرَمِ وَسِيلَةَ حَيَاةٍ آمِنَةٍ يَا قَيْصَرُ رُوسِيَا كُلِّهَا. بَدَأَ الْمُرْتَجِمُ يَنْقُلُ كَلَامَ شَبَقٍ إِلَى الرُّوسِيَّةِ، يُغَيِّرُ عَلَيْنَا التَّنَزُّرَ - النُّغْوَى مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فِي السَّنَةِ، يَنْهَبُونَنَا، وَيَحْرِقُونَ قَرَانَا، وَيَسْرِقُونَ مَوَاشِينَا. يُخَطِّفُونَ أَطْفَالَنَا، يَأْسِرُونَهُمْ، وَيَبِيعُونَهُمْ. حِينَ جَاءَكُمْ مَوْفِدُو الْبَسْلَنِ - الْأَبَاطَةُ بِرِئَاسَةِ مَشْقُوهِ لَمْ تَجِدُوا وَقْتاً لِلاتِّفَاقِ. وَقِيلَ إِنْ عَدَوَانُ خَانِيَةِ الْقَرَمِ الْمَدْعُومَةِ مِنْ تَرْكِيَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً. إِنْ تَخَالَفْنَا أَنْتُمْ وَالْبَسْلَنِ وَالْجَانِ وَالْأَبَاطَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأَعْرَاقِ فَسَنْجَابُهُ نُّغْوَى الْقَرَمِ وَإِنْ لَمْ تَتَّصِلْ حَدُودُنَا تَمَاماً. وَأَمَكُنَّا أَنْ نَرُدَّعَهُمْ. وَنَتَأَمَّلُ أَنْ تَدْرُسَ رَجَاءُنَا وَتُخَبِّرَنَا بِرَأْيِكَ. وَلَكِنَّا نَرْجُو أَلَّا تَتَأَخَّرَ فِي الرَّدِّ عَلَيْنَا. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَنْتَظِرُونَ مَا سَنَحْمِلُهُ إِلَيْهِمْ. - اخْتِمْ رَجَاءَهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْأَدْبِغَةِ.

جَلَسَ الْقَيْصَرُ إِيْفَانُ الرَّابِعَ صَامِتاً بَعْضَ الْوَقْتِ دُونَ أَنْ تَخْتَلِجَ عِضْلَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْوَجْهِ الْمُنْتَطَوِّلِ. وَصُورُجَانُهُ الذَّهَبِيُّ فِي وَضْعِهِ الْعُمُودِيِّ. وَالْقَبْعَةُ الْمَطْرُزَةُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ عَالِيَةً. وَمَا لَفَتْ انْتِبَاهَ الْأَمِيرِ شَبَقٌ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الزَّيْنَةِ هُوَ عَيْنَاهُ الْقَلْقَتَانِ اللَّامِعَتَانِ. "وَأَعْجَبَ الْعَجَبِ هُوَ أَنْ يَنْصَبُّوكَ حَاكِماً عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْكَبِيرَةِ وَأَنْتَ لَمْ تَتَعَدَّ السَّابِعَةَ وَالْعِشْرِينَ!.. - تَذَكَّرَ شَبَقُ

أقوال فيشنيفيسكي أمس. — الحقُّ أنه تيمّم وهو صبي فلقي عذاباً، ولكنهم لم يستطيعوا قهره. اتَّخَذَ منه قدوة يا ولدي. لا يستعجل على الجواب، يربّبه، ويبحث عن الأفضل. ليتني أطلعتُ جاري فقلت على هذه الأجواء! ما كان العمر يكفيه ليروي ما رآه. لا تستعجل، لا تستعجل، لا تدعنا نعود خائبين، ولا تدع أعداءنا يشمتون بنا، وأخيرنا بما نريد حتى نعود.

كان جواب القيصر جاهزاً منذ البارحة حين استدعى شيبوتيف وفيشنيفيسكي وتشاور معهما. كان قيصر روسيا محتاجاً جداً إلى مقترحات وفد الجان-الأباطة من أجل ردع غوي القرم فلم يتناقشوا طويلاً فيه. ولم يكن الأمر يحتاج إلى ملاحظة للإجابة كما يفعل القيصر الآن. وتبادل شيبوتيف وفيشنيفيسكي النظرات آملين ألا يتراجع القيصر عن قراره. قال فيشنيفيسكي كاظماً قلقه: "من يعرف إلى من تكلم القيصر بعدنا؟ كل زواره ممن يوشوشونه ويدفعونه إلى الخطأ. وسيلفيستر وأداسيف لا يفارقانه. وظلّ سكوراتوف يتجسس عليه من ثقب الباب حتى غدا أحدب وأحول...".

نقض القيصر إيفان الرابع بقرعة من صولجانه الصمت المرين على القاعة الفسيحة:

- سيأتيكم جواب رجائكم خلال ثلاثة أيام. — وأوحى إليهم بانتهاء اجتماعهم بإسراعه في النهوض. واستدار بقامته الطويلة، وولج الباب الذي فُتح له.

"أتساءل أليس لمضيفينا عادة الدعوة إلى التفضّل والسؤال عن الأحوال؟.. كان شبق يبحث في طريقه من القصر عن تسويغ للسلوك غير اللائق لمن أتوا إليهم حين هاجمهم الهواء البارد، وحين ركبوا خيلهم في ساحة سورورن، مزيجاً فكرة تأجيل الجواب ثلاثة أيام. — لم يدعنا القيصر إلى مائدته ولكنه أمر جماعته باستقبالنا على نحو حسن. لم يتركونا يوماً، بل ساعة. وعُرفنا دافئة ونظيفة. ولم يخلوا علينا بالطعام. ويعتنون بجيلنا... ورغم ذلك ماذا كان ضرره لو دعانا إلى مائدته شخصياً، ألسنا من قوم آخرين، دعك من قدومنا من بعيد. الحقُّ أننا لم نأت لنأكل ونقيم، ولكن لو عبّر لي القيصر عن احترام ما لي أمام ابني، وإن لم أحمل لقباً ملكياً؛ ألسنُ أمير الجان؟ والله لا أعرف... لو لم

نكن ندعو أي ضيف يأتينا إن كنا نعرفه أو لا نعرفه لكننا سمّرنا باب مضافتنا منذ زمن طويل..."

- أظن أيها الأمير شبق أن الريح التي تعصف على ربوة الكرملين أثّرت فيك. لا تقول شيئاً، - تظاهر فيشنيفسكي بالمزاح مع الأمير.

- لا يا فيشنيفسكي، لا شيء من هذا القبيل، - خرج شبق من أحزانه كمن كان ينتظر هذه المداعبة. - أفكاره وبواعث قلقي مختلفة...

...

في أواخر اليوم الثالث، الموعد الذي حدده القيصر للوفد، في الوقت الذي يتناحر فيه أول الظلام وآخر الضوء، جاء شيبوتيف وفيشنيفسكي بخبر من الكرملين. وقبل أن يتاح لشيبوتيف الجلوس ابتسم لشبق وأخبره:

- استجاب القيصر لرجائكم أيها الأمير، - قال شيبوتيف وبدأ يقرأ الورقة، فأوقفه شبق بإشارة من يده:

- لا تستعجل! ليسمع رفاقي أيضاً. والحراس أيضاً. هيا نادوا الجميع! تدافع الموفدون الجان والأباطة إلى الغرفة بعيون جاحظة تترقب الخبر السعيد. يشير الأمير شبق إلى أمير الأباطة متذكراً جلوس القيصر وحده، غير مرتاح لجلوسه وحده والأمير الأباطي واقف، فيجلسه إلى جانبه. وحين يرى كلاً اتخذ مكانه يأذن لشيبوتيف أن يكمل قراءة الورقة معتبراً وقوفه هو وفيشنيفسكي صحيحاً. يقرأ شيبوتيف كلمات المقدمة من الورقة التي ليس فيها كلام كثير، ثم يختم: "طلبتم من القيصر المساعدة ضد خان النغوي فتكرم ولّي طلبكم مقابل أن تمنحوه أراضيتكم، وتصبحوا عبيداً له".

انتهى شيبوتيف من قراءة ما في الورقة، ثم أضاف الكلمة التي دفعت شبق إلى الانتفاض برأسه:

- لم تنته مهمتكم يا أمير بورقة القيصر. يطلب القيصر أن تتركوا لنا من طرفكم شخصين ليكون اتفاقنا ثابت الأساس ذا قيمة.

- يطلب أم يرجو؟ سأل شبق وهم يكظم غيظه من نهاية الخبر غير السعيدة. وتفقد رفاقه بنظرة خاطفة.

- افهم ما سألت عنه كما تريد يا أمير، - حسم شيبوتيف الموقف بكلام جازم:

- قيصر روسيا يطلب، لا يرجو.

انقطع فجأة فرح وفد الجان- الأباطرة بسكنة ثقيلة. وانقطع صوت الريح، وتوقف لهيب الموقد.

-لم يخطر لنا أن ينتهي الخبر الذي انتظرناه إلى الآن بهذه النهاية. إن كان هذا قرار قيصركم فستشاور فيما سنفعله. ونستشير حراسنا في تحديد الشخصين.

- لم يقصد القيصر حراسكم يا أمير، بل الأمير الشاب كتاق من الجان، وأمير الأباطرة دودارقوه.

- هل تقصد أن نترك لكم نصف الوفد رهينة؟! - نهض الأمير رغماً عنه بعد الطلب المؤلم، ولم يجد دودارقوه الجلوس لائقاً، وارتفعت ضجة من مكان تجمع الحراس. وتسمر شبق على أرض الغرفة، وقال لممثلي القيصر: - لا تُجبروني على ما لا أستطيعه. وإن قبلتُ فماذا ينوي قيصركم أن يفعل بالأميرين المطلوبين؟ توقعُ هذه النهاية... - استأنف شبق ذرع أرض الغرفة مطرق الرأس. ووقف أمام أفمقوه ونظر في وجهه بما يعني: ماذا سنفعل؟ وصعب عليه الالتفات إلى ابنه. وكرر السؤال: - ماذا؟ قولاً فيم تحتاجوهما؟

- سينضممان إلى الجيش الروسي ويحاربان معنا. - كان جواب القائد العسكري فيشنيفيسكي الذي لم يقل شيئاً إلى الآن مختصراً، - وإن قبلنا اعتنقنا ديننا.

- ستضمونهما إلى جيشكم، ويساندانكم، ويعتنقان دينكم... - عاد شبق إلى مجلسه مكرراً ما قيل له، ثم قام، وتابع مشيه على أرض الغرفة، وغمغم بصوت ألطف كأنه خضع للطلب: - سيسخر أعدائي مني قائلين: ترك لهم رفيقيه ونجا بجلده. وسيدخل الشك قلوب من لا يكرهوني.

- يا شبق، يا أمير، لا تُفني نفسك! - نادى دودارقوه الأمير الأباطري رئيس الوفد، - إن ذكروا اسمي فليس ذنبك. سأبقى كرمي لمن أرسلونا. سيفهمون موقفني.

استدار أمير الجان من الكلام الذي أتاها من الخلف، وكان اقتراح أخيه أفمقوه أعجب ما سمعه:

- سأبقى مكان أخي الصغير!
- كلام القيصر واضح، - لم يوافق فيشنيفيسكي، - من اختاره هو كتاك الأمير الشاب.

- إذا وصل الأمر إلى هنا فسأبقى يا والدنا إن أردت. - قال كتاك الذي كان يرغب من قلبه في البقاء في روسيا، - وأنهى باعتقاد جازم: - ماذا سيجري لنا وأنا مع الأمير دودارقه؟ سيجري لنا ما يجري للناس الذين استبقونا! تنهد الأمير شبق وهو يجلس لا مخرج له، وقال كأنه من عالم آخر، لا ينظر في وجه من يتحدث إليه:

- إن كان هذا رأيك فماذا بيدي؛ لا حيلة لي... لا تظنا أننا أهملناكما إن تركناكما هنا. سنبقى نرعاكما، ونسأل عنكما... - وأنهى بعد سكتة قصيرة ضابطاً مشاعره: - لم يبق لنا ما نقيم لأجله في موسكو... غداً نتخذ طريقنا.

...

لو كانت الأمور تجري في الدنيا كما تريد!..

لم يكن نور الصباح انبلج حين توجه شبق ورفاقه إلى الجنوب الشرقي في طريق عودتهم. ولم يكونوا وحدهم فقد شيعهم إلى ضفة نهر الدون، حيث حدود شمال القفقاس، عدد من الفرسان الروس المدججين بالسلاح.

قضى شبق الليلة الأخيرة مع ابنه وأمير الأباطرة ولكن عينيه ظلتا تنظران وهو في الطريق إلى حيث هما. فارقهم دودارقه، وبقي هو وأخوه وابنه فتكلموا في كل شيء يتعلق بالأديغة والروس. ومهما قالوا فموئل حديثهم هو ألا ينسى كتاك ابن الأمير إنسانيته وأديغيته، ولا ينسى أسرته وقومه. وحين خرج أفمقوه إلى الغرفة الأخرى ليبقى الأب وابنه وحدهما سهرا الليل إلى وقت الركوب، وكلامهما قليل، ونظراتهما أكثر.

بقي كتاك ابن العشرين في خيال والده وهم يغادرون موسكو. قال شبق لنفسه مستغرباً الصلابة التي أبداها ابنه، راضياً بها: "تبين الولد عما لم أتوقعه، شهد على صواب تسمية جده له "كتاك" بهذه الرجولة¹ وصلت فطنته إلى كثير مما

¹ محور عجالات العربة.

نسيته... ماذا كان قال لي؟" إن سمع أعداؤك الأمراء أنني أخدم في الجيش الروسي فكما قال فيشنيفيسكي القائد العسكري، سيسمعون كلامك إذا أرسلنا القيصر إلى نواحيننا... ألا يكفي ما يnehون الأديغة؟ ألا يجب حمايتهم آخر الأمر؟" "ليس أعدائي مشكلة يا ولدي، أنا كفيل بهم. أنت المشكلة أتركك بين الأغراب دون أن أستعد للأمر..." - تألم قلب شبق، والتفت رغباً عنه لأول مرة إلى الورا.

بدا مرتفع الكرملين من بعيد من خلال الظلام، فأدار رأسه غير قادر على النظر إليه. وحُيِّل إليه أن جسده يتداعى. ومرة أخرى التفت غير قادر على الصبر. وامتلأ خداه بدموع الحزن - الإهانة. وفيما هو يتأمل أن تخففها الريح البارجة استدرتها من جديد مشية الحصان المترنحة.

نصح أفمقوه الحريص عليه منذ زمن بكلمة واحدة:

- يا شبق!..

- لا، لا يا أخي، السبب هو الريح الباردة فحسب... - وجد شبق حجة وإن كان أخوه عارفاً بما جرى له: - أظن البرنس يفيدني إن سترت به رأسي. لا تقلق يا أفمقوه؛ قد يكون هذا الأمر مكتوباً على جباهنا...

لا يفهم الشراكسة البتة أن كل إنسان له الحرية الخاصة بالأرض. هؤلاء يملكون كل شيء جماعياً - الأرض والهواء، والنار، والماء - أنت حرٌّ في أن تمتلك منها مجاناً بقدر حاجتك. ما يعده هؤلاء خاصاً بهم هو الأيدي البشرية التي تعمل في الأرض.

ج. أ. لونغفورت.

الشراكسة مسيحيون على المذهب البيزنطي. ولكن بسبب معلوماتهم المحدودة جداً عن دينهم، لم يخالطوا المسيحيين الآخرين. ومن هذا الزمان انطفأت عقيدتهم. وحلَّ محلها الإسلام.

ي. غ. غيرير

يعد الشراكسة الشجاعة هي الفضيلة الأولى. والشجاعة العظيمة التي يربي هؤلاء الأولاد عليها، والصبر، وطاعة الوالدين، واحترام المسنين، وما يحكم العلاقات بينهم هي طريقة التعامل الإنسانية بينهم بدلاً من القانون.

ر. سكاسي

I

الخبر لا يعرف البعيد والقريب، دمه وجناحه سريعاً الجري.

لم يكن الخبر الذي حمله موفدو إقليم الأديغة الغربي خلال إقامتهم في موسكو، وخلال الشهر والنصف الذي قضوه على طريق عودتهم يرافقهم فحسب، بل سبقهم إلى خان القرم، وإلى أديغة الشرق، وإلى تركيا عبر البحر. ولم تُحرم الداغستان من الخير.

الربيع في بدايته، ولا يزال أمام الشمس وقت غير قليل لتتبوأ مكانها في كبد السماء. والطبيعة الخضراء التي تخلصت من الشتاء تسرح عينيها واجمة كسلى. وعلى أطراف الوهاد والطرقات الظليلة وجوانب المستنقعات بقايا ثلج وسخ. وبين أغصان الأشجار التي لم تُحسّ بعدُ بالدفاء تمر ريح خفيفة. والثلج البراق على قمم أوشحه - مافه، غير بعيد ولا قريب، يشهد على أن شتاء القبرتاي كان عنيفاً. والغيوم البيضاء المائلة إلى السواد تتجاوب في السماء المتجهمة كسلى. وهذه تهبط إليها السماء أحياناً فتخفيها.

لم يستطع الأمير أبشقوقه الذي يرتدي كساء من جلد الذئب الأغبر البقاء في الدار الواسعة طويلاً. ليس لأنه يشعر بالبرد في الطبيعة الرطبة التي تخلع لباسها شيئاً فشيئاً، بل لأن الغرفة التي تشتعل فيها نار الموقد استدعته بعدما أضيف إلى النهار الثقيل ضيق قلبه. ولما ارتقى المسطبة القائمة على أربعة أعمدة عاد فاستدار كأن من تركه في أرض الدار صاح وراءه، فالتفت إليه. ولكن لم ير ذا روح فيها. ليس إلا خزانات الحبوب الثلاثة المسقوفة بالقصب، وإسطل خيوله الطويل، والمجرشة والمطحنة الحجرية، والصقّة التي يقضي تحتها أيام الصيف الحارة. لم ير خدم الدار الذين اختبئوا بذريعة البحث عن شيء يفعلونه، كما يقول القبرتاي، ولكن بدلاً من أن يعتب عليهم اعتبر انخفاءهم الخفيفة احتراماً له نوعاً من المديح فعاد مبتسماً.

تبعه الحارس تاوتاش قبل أن يضع قدمه في الغرفة، وتسمر عند قائمة الباب:

- هل ناديت يا أمير؟

- لا، لم أنادِ،- حسم الأمر بكلمة واحدة دون أن يلتفت إليه. ثم أكمل بجفاء: - هيا انزع الفراء عن ظهري!
- ولكني ظنتك تنادي... - نزع عنه الفراء بحذر، وتسلسل بهدوء خلافاً لما دخل به الغرفة.

لم يكن الأمير أبشقه عابثاً بطريقة دخول الحارس تاوتاش الغرفة أو بطريقة خروجه منها. وقف بعض الوقت قريباً من الموقد دون أن يجلس إليه، يراقب الجمرات القافزة، مخمناً أنها ستأتيه بضيف. ولكن لم تكن المشكلة هنا، بل الخبر الذي جاؤوه به أمس، فحرمه من النوم الليلة، ومن الهدوء اليوم. وليته كان خبراً واحداً، كانا خبرين، وكل منهما أسوأ من الآخر!.. لا يمكن إصلاح شيء في الخبر الآتي من جهة الجان من الغرب. قال الأمير أبشقه لنفسه: "كنا نسخر من هؤلاء كما من البسلني ولكن وفدهم عاد من موسكو محققاً أهدافه. وما كنت لأصدق أن قيصر روسيا وقف إلى جانبهم لو لم يتركوا لهم أمير الأباطرة وأمير الجان الشاب... لا أعرف كيف تترك لهم ولدك من أجل قضية الأديغة إلا أن تكون مختل العقل. الحق أن قرم الخان كان حقق للأمير شبق مطالبه القليلة حتى لو لم يُهرع إلى روسيا البعيدة... - ابتسم الأمير أبشقه وهو يعيد إلى النار الجمرة التي قفرت منها: - انظر إليه ما أحبته وما أحرصه على فائدته الشخصية! يدّعي أنه يُحسن إلى الجان الهبل في حين أنه يلاحق مصلحته الشخصية... حسناً، سنرى ما يحدث لكم الآن. كأنكم مددتم أيديكم إلى الجمر وأنتم تشكون من لفحه..."

استلقى الأمير أبشقه في لباسه على الصوفا المغطاة ببساط مزخرف وعيناه في السقف. وضع رأسه بين راحتيه، ثم أبعدهما وقد تذكر أن أمه تصف هذه الوضعية بأنها فآل نحس. مد يده إلى الجدار وأنزل الخنجر المعلق به. وتأمل الغمد المزخرف بالذهب والفضة. ثم أمسك بمقبض الخنجر وحركه في الهواء بعض الوقت. ثم أخرج نصف الخنجر من الغمد وقرأ ما كتب عليه بالعربية: "لا تستلّ الخنجر دون حاجة إليه، ولا تندم متى أخرجته!" رماه كأنه أحرقه. ثم جلس بعض الوقت ورجلاه تتدليان. "ليس الجان والبسلني، والأباطرة معهم، مشكلة، هؤلاء بعيدون عنا. واختلاطهم بنا محدود. المشكلة في تيمرقوه بن

إيدارقه ذي الرأس الضخم. هو الآخر عنده بعض المشاريع، يقال إنه يتطلع إلى جهة الشمال..."

أعاد الصوت الصادر من جهة المسطبة الأمير أبشقه إلى حاله. رأى أخاه الأصغر أسلانج عبر الباب المفتوح. وكان وراءه بمسافة قصيرة تيشنق. - أنتما ضيفان يا أخويّ الصغيرين، ادخلا! - استقبلهما أبشقه بوجه طلق. واستبقهما بعباته: - والله طال غيابكما كأنكما تركبان خيلاً لا تمشي. وأين الآخرون الأصغر سنّاً.

- لا نسمح لك أن تهين خيلنا يا كبير! - تظاهر أسلانج بالمزاح عارفاً أنه هو المقصود بكلام أخيه. ثم برأ نفسه: - وصلنا في الموعد المقرر لنا. والأصاغر يتبعوننا. لا يزالون في مراسم الاستقبال والترحيب. ألا تعرف طبيعة جانسخ؛ يتصابي فيحتفي به الجميع.

- ما العمل إذن، ما يُدريكم أنتم سبب قولهم: الأصغر هو الأقرب إلى القلب؟ - ألقى أبشقه نظرة مرئية على أخويه ملاطفاً وممازحاً إياهما، معتداً بهما. - ألحقتماه قبل أن يجد الفرصة للدلال؟ هل جانسخ المرائي هو من غلبنا جميعنا؟ نشأ في ظلنا دون أن ينعم بحنان أمانا. - اختتم الأكبر كلامه ودكّر الأم أضعف صوته.

أفلت جانسخ واقتحم الغرفة مع أنه أصغر من قايتقه ببضع سنوات دون أن يفسح الطريق للأكبر. عانق إخوته الأكبر منه واحداً واحداً بدءاً من أبشقه. ولم يحرم من عناقه أخاه الأكبر قايتقه الذي كان معه في غرفة النساء. وبعدما رحب بجملة بإخوته وقف في مكانه الذي تفرضه عليه عادات الأديعة.

- يا إخوتي الصغار، - توجه أبشقه إليهم، - أفهم من وقف إلى جانبه موجهاً الحديث إلى الآخرين، - لا تعتبوا على هذا الأخ لوقوفه في غير مكانه، دلّناه أنا والوالد، يتناسى أحياناً تقاليدنا. دعونا نعارضه.

- أنا أعرف ما أفعل به، - يقول قايتقه، - هيا اذهب أيها العنيد وأتيني بكأس ماء!

- سأتيك يا أمير بالكأس، ولكن هل يلقبون من يحمل لقب الأمير بالعنيد!

- يخرج جانسوخ متظاهراً بالاحتجاج، ويعود بكأس الماء، ويمدها إلى من طلبها.

- كم مرة قالوا لك: - أدِرْ له مقبض الكأس للسائل! - لام تيشنق الولد الأمير أيضاً.

يشرب قايتقوه الكأس بعد أن يعرضها عليهم واحداً واحداً، ثم يعطي القدر الفارغ إلى أخيه الأصغر:

- شكراً يا أخي الأصغر. أنت طيب كالماء. لتعش حياتك محبوباً!

تبادل الإخوة الأربعة النظرات، وشاع بينهم جو من المرح. ووافقوا دون مزاح أو دلال أو رجاء على الدعاء الأخير لأخيه الأصغر. وجانسوخ من جهته تفقد إخوته الكبار شاعراً أنه يكتسب شيئاً لم يكن فيه، وأن جسده ينمو. ولم يعد إلى الأمير أبشقوقه الذي كان معه، بل وقف إلى يسار الأكبر منه قايتقوه.

- السبب الذي دعاني إلى دعوتكم اليوم، - قال أبشقوقه الآن بصوت أحزم، - علينا أن ندخل على والدنا، ونحن الإخوة الخمسة معاً. تعرفون ما يجري في القبرتاي، نحتاج إلى من نستشير. سنصغي إليه مهما قال لنا، أعجبنا أم لم يعجبنا، دون أن ندع الشكّ فينا يُدخله. هل فهمتم؟ تعالوا إذن!

غرفة الأمير قايتقوه بعيدة عن البيت المزدهم دائماً، أقرب إلى غرفة الأمير أبشقوقه، بين أشجار الفواكه. ليست كبيرة ولا صغيرة. وأمامها مسطبة على ثلاثة أعمدة. تصعد إليها من الجانبين والوسط بثلاث درجات. وغير بعيد يقوم كرم العنب. وتحت شجرة الإجاوص حيث يخفق الآن الهواء البارد مسترخٍ صيفي. وقريباً منها عُرفُ خدم الأمير العجوز، والعبيد، والنساء الخادמות. ومرحاض من العيدان المطيئة، خاصٌّ بالأمير العجوز.

غرفة الأمير الكبير فسيحة، مضيئة نظيفة. في أحد الجدران فتحت ثلاث نوافذ، وعلى الجدران الثلاثة الأخرى علّقت بُسُطٌ مزخرفة، وسيوف وخناجر نفيسة. والمطرزات الذهبية والفضية عليها تتلامع. ومن جهة رأس الصوفا عُلّق على البساط مكشّة ذباب تصل إليها يده إن احتاجها. وغير بعيد عن الوجاق مائدة مستديرة. وعلى المقاعد الوطيئة أغطية مطرزة. ويبرز من الرفّ عدد من الكؤوس الملونة. وعُلّق على الجدار درع من الجلد. وعلى الدرع خوذة متطاوله.

وعلى الرف المقابل كل ما يحتاج إليه صانع الجلد من أدوات. والسرّج الذي في أوسطه وسادة من جلد الأيل مُسند إلى الجدار. مرفوع على مقعد غير عالٍ. ومن الجانب الأيمن للباب الكساء والبرنس وسوط الخيل. وأمام الباب إبريق للغسيل وطستٌ.

الأمير قايتقوه على المائدة وجنبه إلى نار الموقد. أمامه قدح القشطة. والخبز الطازج في الصحن، وإلى جانبه قدح قشطة آخر. وإلى جانب المائدة المقعد الذي سيجلس عليه مؤاكله. يُفطر قايتقوه متأخراً مفتخراً بنفسه وبطعامه. يرتدي كساءً أسود على قميص أبيض كأنه سيركب حال انتهائه من الفطور، وعلى رأسه قبعة سوداء تتناسبُ وسائر ملابسه. وعلى جانبيه السيف والسوط. ويحمل معه على زناره الفضي موسى الخلاقة في جلدها دائماً.

لم يعبأ قايتقوه بالأصوات الصادرة من جهة المسطبة. ابتسم فرحاً بأصوات أولاده المعتاد عليها. رفع جسده قليلاً عن المقعد ترحيباً بأولاده الخمسة دون كلام، وتابع فطوره. وقال بعد بضع لُقَم:

- والله يا جانسخ أحرّت فطورنا على غير عادتك. اجلس، طعامك وملعقتك جاهزان.

- ساحّني يا أمير، - قال جانسخ "أمير" بدلاً من "تات"، فقطع طريق لقمة والده، وجعل إخوته يتبادلون النظر، - مضى عليّ وقت لم أر فيه إخواني، فانتظرتهم، فأحرّت فطورك. لسْتُ جائعاً، بالعافية. مثلي مثل إخواني الكبار.

- حسناً يا أمير، - أراح قايتقوه المائدة من أمامه بما يعني انتهاءه من الطعام، - يسرّني أنكم تتبادلون الاحترام. أديغيتنا فوق كل شيء عندنا وعند غيرنا. وهي ما حمت أجدادنا وآباءنا، وستحمي أُسْرَكم. - رفع الأمير النحيف الأشيب الذي صمد أمام الهموم المتلاحقة طوال كل هذه السنين قامته وأسلحته، واقترب بصعوبة من الإبريق والطست. سكب جانسخ الماء على يدي والده. والأمير الابن قايتقوه، على اسم والده، واقف بيده المنشفة.

وبعد الفطور ارتاح الأمير الوالد على المقعد وقال لأولاده المتراففين حسب أعمارهم:

- أُنصِت إليكم أيها الأمراء. لا أظنكم جئتموني دون أن يكون لكم معي طلبٌ ما. اجلسا يا أبشقوه وأسلاننج، والبقية لا بأس أن تبقوا واقفين.
- لن نفعل هذا في حضرتك يا والدنا، - رفض أبشقوه.
- اجلسا، أتما الأكران. الأديغة يقولون: من يأذن لك بالجلوس لا يعود فيعتابك. - ألقى الأمير نظرة رضا على والديه، وقال لنفسه معتداً بها: "أنا راض إن رحلتُ عن الدنيا برعاية مثل هؤلاء الأبناء. ولكن الوقت مبكر على مثل هذه الخاطرة الآن. لا يزالون يحتاجونني". وحين لئى أبشقوه وأسلاننج رغبة الوالد جلس الأب صامتاً لحظة، ثم مازحهما: - سأبدأ إذن. ماذا يجري في العالم؛ ما أخبار القبرتاي؟ - سأل أسلاننج وتبششقوه اللذين لا يقيمان معه في القرية: - أليست القرى التي جئتما منها في سلام؟ ماذا يقول أبناء الأسر المتنفة والفلاحون، وماذا يفعلون؟ هل هم راضون عنكم أم لا؟
- قرى أخويّ الأصغرين وقراك في سلام يا أمير. ولا بأس بوضع المتنفذين والفلاحين. والأمراء الصغار المحيطون بنا في نواحي نهرى باقسان ومالقه، أقوالهم وأفعالهم متلازمة. يرتّون ويعملون ويعيلون أنفسهم. وكما كتب الله على جباهنا يقيمون حفلات الرقص والمآتم.
- حدد الأمير الوالد ما سيبدأ به أبشقوه مناسبة جمعه إخوته الأمراء:
- يا أمير لا حاجة إلى الإطناب، قل الخلاصة. يبدو أنك تريد أن تقول إنه في غير باقسان ومالقه تحدث اضطرابات؛ صحيح؟
- أنت تعرف يا أمير أن وفد البسلني والأبازة كان موحداً في العام قبل الماضي حين ذهب إلى قيصر روسيا، - الأمير أبشقوه الذي نصحه والده بالاختصار، اضطره ثانية إلى التدخل:
- أعرف عودة الأمير شق من موسكو قبل قليل.
- وتيمرقوه بن إيدار يقال إنه ينوي الأمر نفسه.
- ينوي أن يعمل في هذا الاتجاه؟
- يقابل الأمراء كلاً على حدة.
- ومن هؤلاء الأمراء؟

- أولاد جلخستان يا أمير، - لم يصبر أسلانج حين وجد فرصة: - وقيل إنه تكلم مع تاوسلطان شَوَلْخ أيضاً.

ارتعب الأمير قايتقوه في سِرِّهِ: " أَحْوَلُ ما يُثقل الأولاد إلى مزحة. لم تأت أخبار طيبة من جهة وُزْخ وَتَرْج. إذا كان كلُّ سيِّتصرف في إقليم الأديغة كما يحلو له فلن تكون النتيجة إلا صراع الأمراء والأعراق. كل أمير عنده بعض رؤوس الماشية وحارسان أو ثلاثة يجد نفسه كبيراً وأميراً حقيقياً. ويخيل إليه أن تسع القرى أو عشرها المحيطة به بلاد كاملة. ونحن، رغم أننا أخلاف الأمير إينال المنير، أقدم أسر الأمراء وأكبرها من حيث أفراد الأسرة، يقارن أئفهُ الأمراء نفسه بنا، ويستعدينا قائلاً: إن كنتم أمراء فنحن أيضاً. وكلنا ننتمي إلى عرق واحد. ويُعرضون علينا المتنفيدين بما يوسوسون به إليهم ويتوسلون. ويهيجون الفلاحين... والأمير تيمرقوه ووالده إيدار من صلب الأمير إينال الخير. وعنده ما لا يقل عن أملاكنا إن لم يكن أكثر من المال والأرض. استولى على أكثر أراضي جلخستان الابن الوحيد لمينبولت، مستقلاً ما عنده من أرض في نواحينا، فترك أبناءه الأربعة يشكُّ أحدهم بالآخر. ولن يوافق أولاد جلخستان الأربعة على مطالب تيمرقوه العظيم الرأس. ولكن من سيؤيده: أهو حمرز أم لاوُزْسَن أم قانشاو أم زغاشت؟"

والآن سأل الأمير قايتقوه بشيء من القلق وقد استدارت مقلته واصفرت عيناه عن ذي قبل:

- من أولاد جلخستان الأربعة سيؤيده؟
- أربعتهم يتكتمون، - أجاب أبشقوه، - يحتجون فيما بينهم حين ييقون وحدهم.

- وماذا يقال عن جواب تاوسلطان شَوَلْخ؟ - سأل بصوت حاد قايتقوه ذو القبعة الكبيرة على رأس صغير ووجه ضيق، وأجاب نفسه بنفسه جواباً حاسماً:
- ليس هو الآخر إنساناً جديراً بالثقة، ولكن يجب الاجتماع به. وأضاف: - ولا يجوز إهمال أولاد جلخستان.

- أظن حمرز سيسمع كلامي، - قال أبشقوه.

- وكيف العلاقات بين الإخوة انفسهم؟

- يتفقون.

- سيكون إذن من الصعب الإمساك بهم بمجرد الكلام. وكما كان يقول جدكم: ما يفرق هؤلاء، ويطوّعهم ثلاثة: الكلام والذهب والفضة... ماذا يقول الأديغة إن أرادوا إنزال اللعنة بك: لينشر الله في أسرتم الكلام الفتنّة! مرة أخرى لام الأمير قايتقوه نفسه في سرّه. لهذا كلما طرقت السندان بالمطرقة ارتدّت الصدمة على ساعدك... ظننا أننا نُرهب هؤلاء بتوجّهنا نحو خان القرم فبحثوا عن اتجاه آخر... ما تنظرون إليه بعيد ولكن لا أعرف بم سيفيدونكم... الذنب كله ذنبي. وتيمرقوه ليس بريئاً. ضيّقنا عليه الخناق هنا حين عرفنا أنه طامح إلى الإمارة الكبرى للقبرتاي. وحين حرمانه الراحة حيث هاجر، بسبب هجماتنا عليه، بالإضافة إلى هجمات نغوي أستراخان، اتخذهم أقرباء عن طريق ابنتيه. ما العمل؟ ونحن لا نفعل أكثر من الإدانة. ظننا أننا نتجاوز آل أنزور وأتحقوه، فاتخذنا من النغوي أقرباء عن طريق ابنة الأميرأشقوه. الحقيقة أنه لا يجوز أن تبخل بشيء في سبيل قومك وإمارتك. وهذا ما فعله تيمرقوه بن إيدارقوه. وهذا ما يريد أن يفعله مع جهة روسيا. ولكني سأعرق خطته ولو لم يبق غيري. أنا أسئ منه بكثير، الإنسان كعشبة نجمت من الأرض، ولا أعرف من سيجف قبل غيره ومن سيموت أولاً. وفي جميع الأحوال أعهد إلى أولادي أن يحققوا عهدي... " خرج العجوز قايتقوه من أفكاره الثقيلة، وأضاف كمن لم يسكت طويلاً: - عليكما يا أبشقوه وأسلاننج أن تسافرا إلى جهة تَرْج، غداً على أبعد تقدير. ستبدآن من أولاد جلدخستان وتنتهيان في مضافة تاوسلطان شولخ دون شهود.

- وإن التقينا بالأمير تيمرقوه أو بأولاده؟ - سأل أسلاننج عما يشغل باله.

- أَلستم أديغة فتتخلّيا عن أديغيتكم إن التقيتم! لا تقتربا من مضافتهم. ولا تذوقا من طعامهم. ولكن لا تنسيا مهمتكما! وماذا بقي علينا نتكلم فيه؟ وأنتما يا تيبشلقوه وقايتقوه، خالطاً متنفذي بخسان ومالقه وفلاحيهما بحدوء، ليس اليوم أو غداً. وليّحا تلميحا، لا بصراحة جارحة، إلى أن ما فعله البلسني والأباظة والجان ليس صحيحاً، وكذلك مطامح تيمرقوه، وأن النتائج

على الأديغة ستكون سيئة. وإن رأيتم أننا انتهينا من مهماتنا فليبق أبشقوه
ولينصرف الآخرون. أريد أن يفصد لي دمي لأن رأسي يؤلمني منذ الصباح.
- ألم نتفق يا والدنا أن تستعمل العلكة؟ - كان جانسخ بين إخوته مسترجلاً،
ولكنه سأل تغلبه الشفقة الطفولية على والده.

- كنا اتفقنا ولكن تبين أن الفصاد أنجح لي، - شمر الأمير عن ساعده، واستعد
لتلقي الدم الذي سينزف بالمنديل النظيف. ونصح أبناءه وهو ينظر إليهم بؤد:
- سأرتاح أكثر يا أولادي إن تركتمونا وحدنا.

لم يكن الأمير أبشقوه جديداً على هذا العمل، فعرض المفصد الصغير الذي
يشبه الفأس للنار. ولما برد وضعه فوق العرق وطرقه بلطف فسال الدم غزيراً.
وبعد قليل أطبق على الجرح بالمنديل بقوة. وقال الوالد وهو يستريح على السرير
راضياً:

- الحمد لله، صار رأسي أخفّ. روّحت عن نفسي. والآن نادِ إخوتك
المهمومين.

...

قضى أبشقوه وأسلانج برفقة خمسة حراس ثلاثة أيام في تَرْج. كانا في ضيافة
تاوسلطان شوخ الذي يقيم على يمين النهر. لمّح له بالموضوع الذي يتابعانه
دون الإفصاح تماماً عنه، ولكن الأمير المخادع تاوسلطان خرج عن الموضوع
قائلاً: لماذا أعتاب لكما جاري الأمير؟ أنتما جئتما من باخسان البعيدة. ونحن
الاثنين سنبقى أحداً للآخر في أفراحنا وأحزاننا، فلم يضغطا عليه. ولكن في
ساعة وصولهم إلى طريق الأمير تيمرقوه على يسار نهر ترج لم يملك شوخ إلا أن
يذكّرهما بعتابه:

- نحن عاتبون يا أبشقوه على الأديغة الذين يقيمون نواحي باخسان ومالقه.
- ماذا يا أمير؟ لماذا تعتب على أديغة نواحيننا؟ سأل أبشقوه الذي توردت
وجنتاه الطافحتان من الباخسمة ناسياً أنه جاء يحرك الأجواء ويجرّض.
- وكيف لا نعتب عليكم؟ ألسنا أديغة من عرق واحد؟ هاجمنا أمير القوموق
في خريف العام الماضي، فأرسلنا إليكم نطلب النجدة، فلم تفرغوا لنا. ولم

تَهمّوا بأمرنا. ومن حسن حظنا أن تيمرقوه تزعمنا، ووقف إلى جانبنا الأوستين والإغوش، وأنجدنا فرسان النغوي المحتشدون مقابلنا، فنجونا من شرّهم.

- هل تقصد خريف العام الماضي؟ - تظاهر أبشقوه بالسؤال مماطلاً في الجواب، ثم توجه إلى أخيه الأصغر أسلانبيج: - أين كنتُ في خريف العام الماضي؟ حقاً؟ كنتُ في القرم. وسافرت إلى الجان، سمعت حين عدتُ ما جرى لكم. وها هو أسلانبيج شاهدي، وعاتبته، عاتبت متنفذي باخسان وفلاحيتها. وتبيّن أن والدنا الأمير الكبير لم يكن مطلعاً تماماً على الوضع. وبعدها لم يقبل من الأمراء سلوكهم. طبعاً، نحن أدعية، ومن أصل واحد يا أمير. ومن يعاوننا متى هاجمنا الأعداء إن لم نتعاون فيما بيننا، ومن يحمي أرضنا معنا؟ وهل من يريد البسلني والجان هو قيصر روسيا التي لا نعرف شيئاً عنها؟ وأين هو هذا؟ يمكن أن تقول في معبر الأموات!

- لا تعتب يا أمير على الجان والبسلني والأباطة! هم أيضاً يهاجمهم الترك والقرم كما يهاجمنا القوموق.

- حقاً، صحيح يا شولخ، أرفع هذه الكأس من أجل وحدة الأديغة، - ينهض أبشقوه بكل ضخامته، - دعنا نشربها إلى آخر نقطة، ثم نعود إلى طريقنا. ألا نخبي أيضاً الأمير تيمرقوه، وأولاده، وأولاد جليخستان، تحية أهل باخسان! وسنكشف أمامهم خطيئتنا في الخريف الماضي التي أطلعنا عليها، ونتصالح. - صدق أبشقوه فأفرغ الكأس في جرعة واحدة وتابع طريقه.

...

لم يطل غياب الأخوين على الضفة الأخرى لنهر ترج. أخيراً بغياب أولاد جليخستان الأربعة فنزلا عند الأمير تيمرقوه. دخلا مضافته. فلما تأخر المضيف عنهما بعض الوقت قال لهما الفلاح الذي جاءهما بمائدة مستعجلة ما حتمناه وهو أن الأمير وأولاده غائبون. تابع أبشقوه بنظره غُشُوناي التي جاءتهما بماء العسل. وقال لأسلانبيج:

- ها هي غشوناي، هل رأيت ابنة تيمرقوه الصغرى؟ ليست كوالدها ذي الرأس الكبير، هي رشيقة كعصفورة.

- تستحق هذه الفتاة التي كنا نسمع اسمها ولم نرها أن يأتي المرء إلى هنا ولو لأجلها فحسب. - قال أسلانج راعباً في الفتاة لأجل أخيه الأصغر جانسخ. - لا تدع أخاك يخطر له هذا! - تظاهر أبشقوه الذي أكل قبل قليل بأنه أكل شيئاً كي لا يقال إنه ترفع عن الطعام. - هؤلاء الذين نجلس في مضافتهم لا يودوننا. إن كان عندك خبرة فبنات باخسان في نواحيننا يُنسوك هذه الفتاة. هيا نتابع طريقنا؛ ما الفائدة من الجلوس في مضافة رجل غائب؟ ألم تسمع ما قال لنا الفلاح؟ دومانقوه وماسرقوه وأخوهما الأصغر سلطان سافروا إلى النغوي لزيارة أختيهم. والله أعلم أين بلغايقوه ووالده. ولكن لا أعرف لماذا أولاد جليخستان الأربعة معهم.

- أليسوا أقرباء، إخوة؟

- حتى لو كانوا أقرباء! - احتدّ أبشقوه المنتشي من خمر العسل، ونحس، - ونحن أيضاً أقرباؤنا كثيرون. ولكننا لا نتعامل معهم كأقرباء... - خرج من المضافة وركب مردداً في نفسه: "القرية التي لا أمير لها ضعيفةٌ جدية بالاحراق".

بعدما فارق الأخوان قايتقوه حدود القرية بقليل التقيا في عمق الغابة بتيمرقوه العائد ومعه عدة فرسان. تبادلوا التحيات، ولم يقبل أبشقوه عدم دعوة تيمرقوه لهما كما يقتضي الواجب:

- عليك يا أمير أن تدعونا ولو بسبب وجودنا في أرضك.

- ما فائدة دعوة من لم يهتموا بنا حين كنا في مأزق يا أمير؟ - أجاب تيمرقوه مجادلاً.

- ألم يُنسك إياه قُرُ الشتاء؟ - أجاب أبشقوه بسؤال ساخر، كاظماً غيظه على عدم احترام مكانته، واختتم بكلام أنعم: - ومع ذلك يا أمير ترحلنا على باب دارك، وجلسنا في مضافتك.

- أعرف.

- يبدو أنك كنت تعرف فتجنّبنا، - خاف أبشقوه من ارتفاع صوته، ومع ذلك لم يملك إلا أن يعيّره بما يعرف عنه: - لا تعرف؛ قد تحتاجنا غداً أكثر من الجهة التي تتجه إليها.

- إذا كانت عيناك تسمّرتا نحو القرم فلماذا لا أتجه أنا إلى روسيا؟ - لم يمهل تيمرقوه في الجواب الأمير الأصغر منه سنّاً المعارض له.
- سنتظر، ولكن لن يتحقق.
تجادلا، وافترقت الجماعتان اللتان نسيتا أديغيتهما على جفاء دون أن تتحاربا.

II

رغم أن ساقّي الربيع هشتان ففي الطبيعة التي تفيق في حضنه الدافئ ينقّس الإنسان عن ضيقه، وتعود القوة إلى رجله. وخلافاً لأي وقت آخر تسيطر الرحمة على الكبار والصغار. ويُشعرهم بلذة الحياة.
حين خرج شبق من الشتاء القارس، وعاد إلى ما كان يسميه في موسكو جنة الدنيا، فالحق أن ما رجع إليه كان جنةً. الربيع الوليد يهيمن على أرض الأديغة بشمس لطيفة، ولكن لم يكن يظهر له ما يبهجه أو يفرحه، أو يعده وعداً صادقاً. والورقة التي حصل عليها بمشقة أثارت حولها آراءً متناقضة لم يتوقعها.
حين دخل وفد الأديغة إلى أرضه لم يجد شبق من اللائق أن يُعيد الحراس المتنفذين، مرافقي الأمير دودارقوه إلى الأباطة وحدهم. كان طريق العودة الآمن إلى البيت يقع في جهة الحاتيقواي، ثم إنه بصفته أميراً، عليه أن يُعلم أسرة الأمير وأهله شخصياً سبب تأخر صديقه دودارقوه عنهم، فسافر معهم إلى الأباطة.

استغرب شبق وأفمقوه وصول رجال مختارين حالما ترجّل الفرسان على باب دودارقوه ودخلوا إلى المضافة.

- الأمير دودارقوه صديقي بقي في روسيا برغبة القيصر ورغبته هو شخصياً. - تذكر وهو يعود من الأباطة كيف بدأ كلامه وهو ينظر في وجوه رجال الأباطة القلقة. - لا تظنوا أنه التحق بالروس! - كان قد رسم ابتسامة خفيفة على وجهه. - سيقتى أميركم وسيطاً بيننا وبين القيصر على تنفيذ الاتفاق الذي عقدناه...

- ألم تجدوا غير أميرنا تتركونه في موسكو؟! - قاطع كلام أبشقوقه كهل قصير بصوت عالٍ قبيح وهو يخلع قبعته العالية، ثم أضاف: - لو كان القيصر بحاجة إلى أمير لكان الأفضل أن تبقى أنت أو أخوك.

- يشهد لي على هذا رفيقي من موفدي الأباطة، - توجه شبق إلى الحارسين الواقفين إلى جانب الباب، وأضاف: من تطوع قبل الجميع للبقاء هو أقمقوه، ولكن موفدي القيصر لم يتراجعا عن طلبهما القيصر.

- أيمكن أن يتبين أن الروس كنعوي القرم وهم يدعون أنهم يحموننا؟ - ساهم الشاب الطويل الأسمر الجالس قريباً من النافذة.

- لا يا رجل! - كان الرجل الوسيم الجالس مقابل شبق قد عارضه. أنا أخالط روس نمر الدون، وعندي منهم أصدقاء ممتازون، هؤلاء بالقياس إلى النعوي تجد عندهم الإنسانية والرحمة.

- إن كان هذا ما تريده فالأديغة أيضاً عندهم أصدقاء من النعوي. - لم يكن الشاب يتراجع. - موضوع الصديق مختلف. أما أن تضع نفسك في يد دولة أخرى فلا أعرف... أنا أفضل ألا أعيش في ظل أي سيف. ولا أصدق أنهم لم يستبقوا الأمير دودارقوه إلا ضماناً وشاهد.

- بالله عليكم أن تسكتوا لحظة! - كان الرجل الوسيم قريب دودارقوه قد تدخل بصوت عالٍ: - أمير الجان لا يصرح كرمي رجولته أنه ترك ابنه أيضاً مع أميرنا...

سكت الأباطة بعد هذه المعلومة. ولكنه حين قابل زوجة دودارقوه لم تفارق شبق كلماتها الحاسمة، والنظرات الواجمة في عيون الحاضرين، وارتياحهم، حتى دخل أرض الجان. فهزت كيانه الأفكار المتضاربة قائلاً في سره: "الله أعلم ماذا يُقال في نواحيننا إذا قابلنا الأباطة بهذه الطريقة؟!".

قضى شبق أسبوعين لا ينام الليل بسبب الدموع التي ذرفت الأسرة سراً وعلناً كأهم دفنوا الأمير الشاب. الأم وأولادها، وأسرة أخيه، تنظر إليه نظرات باردة كأنه أنزل بهم نكبة لا رد لها. ونادراً ما يتحدثون إليه. وأقمقوه الوحيد في الأسرة المتفهم للموضوع، والعارف أن الأب ترك ابنه كمن يقطع من لحمه. ولكن شبق لا يريد أن يرى منه أخوه ضعفاً. ومع أن الجار قلقت يحاجهم

ويعارضهم كثيراً فلو وجده الآن مجادلاً له لنُفِّس عن كربه. ولكنه غائب من قبل أن يصلوا، يتابع موضوع أخته في نواحي وَسْتغِيه وَجَعْن.

لن يقول صاحب القول المأثور: "عقل الأديغي يأتي متأخراً" أصدق من هذا. كان الأمير شبق يكلم نفسه في مضافته بعدما انتهى من العشاء، وأنجز أعمال يومه. — استلمنا ورقة القيصر ببلاهة فرحين بعدما قطعنا كل هذه المسافة وأقمنا في موسكو. ولم نفهم تماماً ما كُتِبَ لنا. كيف تستوعب معاني كل كلم وأنت لا تعرف اللغة؟ حين سمعتُ أنه سيحميننا من خان القرم لم أعبأ بما تبعه. حتى لو استمعت إليه بعناية فلم أسمعهم ينطقون الكلمة الروسية التي تعني في لغتنا العبد، البواب. ولن يقبل أفقر الأديغة هذا العمل. ولو عرفتُ لما قبلتُ منهم. وحين وصلتِ الورقة قبلنا كانت أكثر دواعي تهيج الأديغة. وهل هذا معقول! — صرخ شبق من أعماقه من قلة الثقة والتعجب. — الورقة أعطانا إياها — نحن الموفدين — ممثلو القيصر. ولم يسبق أحدٌ من الوفد رفاهه فيعود إلى دياره، ولم يكن بيننا من تشك فيه؛ ومع ذلك وصل إلى خان القرم كل ما قلناه وما فعلناه وما قدموا لنا وما فعلوا بنا، انتشر في إقليم الأديغة كله. لا أعرف ما تفسير ما جرى. إذا كان حول قيصر روسيا العظيمة أناسٌ يوصلون مع الريح الكتاب الصادر عنه فمن المخيف الثقة به والاتفاق معه... حسناً، سنرى ما تكشف عنه الأيام. آباؤنا وأجدادنا لم يسلّمونا نحن وأرضنا للفرس وللمغول وللترك. ورنباً بأنفسنا أن نفعل ما لم يفعله هؤلاء. ولن نجعل من أنفسنا ممسحة لأحد..."

دفعت أصوات الخطأ شبق المحاصر من الأفكار الثقيلة إلى النافذة. وقبل أن يدور برأسه ظهر قلقته مائلاً الباب بجسده الضخم يذكّره بمشيته وحركاته بالقائد الروسي فيشنيفسكي. تبادل الجاران التحية والترحيب.

بعدما سأل قلقته عن الوفد بالتفصيل، وأطلع شبق على زيارته باختصار، ألقى السؤال الجارح الذي كان ينتظره شبق وإن كان السائل يتظاهر بالابتسام:

— ألم تندم يا شبق على زيارة موسكو؟
— في الأمر ما ندمتُ عليه وما لم أندم يا قلقته، — ألقى المضيف على ضيفه نظرة جامدة وسُحتته تغير، — لن يغير علينا خان القرم مرة أخرى نتيجة

الاتفاق الذي عقدناه. إن هاجمنا فلن يرى منا خيراً. وسيساعدنا قيصر الروس بالرجال وبالسلاح. ومن الجهة الأخرى...

- كيف قبلت يا شبق أن يعتبرنا قيصر الروس عبداً وخدماً، وأضفت إلى هذا ابنك الأمير كُتاق؟ اعتبرتك يا أمير الجان الكبير، أنا وكلّ من يسري في عروقه دم أديغي، أعلى من أن تقبل هذا. لم يستطع قلقك إلا أن يقاطع كلام الأمير وعينه تحفظان.

- دعني أكمل ما بدأت! - أضاف شبق ضابطاً أعصابه وإن احتدّ في لحظة ما: - ومن الجهة الأخرى، أنا ورفاقي جرى لنا ما ندمنا عليه. صدّقني يا قلقك منذ شبابنا وإلى الآن ليس عندي سر أخفيه عنك أو مناورة. ما تقوله سراً أو كذباً سيظهر غداً، ويجلب لك العار. أنا مدين بما تقوله من أي أعطيت قيصر الروس أرضنا، وحوّلت أناسنا إلى عبيد له. لم أعرف ولم أفهم إن كان اتفاقنا يتضمن تلك الأفكار. من الصعب تفسير ما كتبوا لك في الورقة وأنت لا تعرف جيداً لغتهم... - سكت شبق قليلاً ثم تنهد ولان صوته. ونظر في وجه جاره بلا حول ولا قوة. - لم أطلع غيرك حتى أفمقوه وسائر أفراد أسرتي، الولد الأمير الذي عيّرتني به هو من صلي. ولا أستطيع إلا أن أقدم له قلبي وروحي. تركته لهم وكأني أقطع قطعة من قلبي. أخرجوني حين أعطوني وثيقة الاتفاق. حين قالوا إن القيصر حدد الأميرين دودارقوه وكُتاق، وكلام القيصر لا يمكن تبديله، صعد الدم إلى رأسي، وكان قلبي يحدثني أن أرمي في وجوههم ورقة الاتفاق، ولكنني ضبطت أعصابي. عللت نفسي بأنه سيعيش على نحو ما، ما دام في صحته وفي حريته. رضخت للأمر معتبراً أن أهم قضية هي أن تحمي القوم، وتُبقي على كيانهم، وتحميهم من الأعداء... هذا ما جرى، احكم عليّ الآن بالإدانة أو بالبراءة. إن فهمني الأديغة فحسن. وإلا فماذا بيدي، لست أولهم ولا آخرهم...

- ساخني، - أطرق قلقك برأسه الضخم خجلاً، وخلع قبعته الجلدية ونفضها على ركبته، - قيل في المثل: أسأل عما لا تعرف، وإن لم تجد من تسأل فاسأل قبعتك! وأنا تسرعتُ يا شبق. - لاطف الأمير مسيطراً على صوته الأَجَش. متى بدأ القول زاد فيه كلّ من عنده فنصبوا مئة كومة حيث لا واحدة. يقول

فيك الأمراء والنبلاء في بضع القرى التي دخلتها كل ما يأتي على رؤوس ألسنتهم. يشيعون عنك أخباراً سيئة، بل إنهم يتهمونك بالجري وراء مصلحتك الشخصية بلا وعي، غير عابئ بشيء، حتى بأولادك.

- ليس ما يشيعون عني مهماً. - ابتسم شبق وقد عاد إلى عينيه شيء من الفرح، - متى وصلهم الخبر الصحيح فسيندمون على كل ما قالوا، وستهدأ قلوبهم. ما يسرني هو اتفاق آرائنا في السنوات القليلة الأخيرة. ألسنا جازين: يقولون: اخترّ الجار قبل أن تبني الدار.

- هذا صحيح يا أمير، -نظر قلق في وجه الأمير بوجه طلق مشدداً على الكلمة الأخيرة. - لا شيء في الدنيا أعدله بكم. وما قلته في شأن كُتات ألم قلبي. ولن يسوءني أن يصبح الروس سنداً لنا، ولكني لن أرضخ ما دام في عروقي دم للخديعة التي مارسوها معك باعتبار أرضنا أرضهم، ونحن عبيداً وخداماً. لم أعبأ كثيراً بما يشاع عنك، ولكن هيجني أنا أيضاً موضوع العبيد. وأخرج الأمراء والنبلاء عن طورهم.

- والفلاحون؟

- أليس عجيباً أنهم لم يهتموا كثيراً بالخبر؟! قالوا: إن كانوا سيُتيحون لنا أن نحيا دون أن ينهبنا أحد أو يحرق قرانا أو يسرق أولادنا فلا فرق عندنا بين الروس والنجوي والترك. نريد من يجلب لنا الراحة.

- ومن بين الأمراء والنبلاء يحتد أكثر من الآخرين؟

- الأمير تاخ، أمير قرية جَعْن، هو من يشعل النار. أعرف ما يهيج هذا النحيف الطويل الأنف، حاني الظهر، كأنه ينظر من تحت قبو. كان يهيج الأمراء والمتنفذين حين سمّوك في صدر المؤتمر أميراً للأمراء، قائلاً: "وهل تظنون أنه سيتصرف بعقل والده وأفكاره؟ ليست معرفة أناسنا والنجوي والترك لي أقل من معرفتهم له؛ ألسنت أكبر منه عمراً!" ولكن لم أخبرك كي لا تعاديه.

- والله لا تقصّر في وصف الأمير تاخ، - ضحك شبق من أعماق قلبه.

- لن تصبح أميراً بأن تنفش جسدك، وترفع جناحك يا أمير. ها أنا لم أرك منذ عرفتك تميز بين الناس. في حين أن ذلك القبيح أرسلت إليه أي أريد محادثته فأجابني جواباً مهيناً: "فيم يمكن أن يحدثني من لا أصل له؟ لا أريد أن

أَتخذ منه محادثاً فحسبُ بل لا أريد أن تقع عيني عليه، ليلازم ضعفه خيرٌ له من أن يظل يتنقل بين القرى!"

- أمير متكبر، انحنى ظهره ولم يعد يعرف كيف يقومه. - أجاب شبق ساخراً مازحاً.

- سأريك يا أمير، إن عاجلاً أم آجلاً، ظهره الأحدب مقوّماً، وأنفه الطويل الذي يشرب معه الماء مجدوعاً. حقاً نسيت: قال لي أحدهم بكثير من السرية: في منتصف الليل سيأتي إلى الأمير تاخ عدد من الفرسان المتخفين، وعلى ظنه أتون من القرم. وبين النغوي أناس من الأديعة من نوع مامي.

- لا شك في هذا يا قلقت، - ارتعب شبق مما سمع. - الأمير تاخ، وغيره من الأمراء والنبلاء والمتنفذين يؤلبهم خان القرم. ألا يصدر عنهم ما يشي بأننا سنتوجه إليهم؟

- أليس هذا على رأس حديثهم؟! - ارتفع صوت قلقت الحاد. - يقولون للناس: "إذا كان الأمير شبق بحاجة إلى من يقف إلى جانبه فليتوجه إلى الخان. ديننا واحد، وعاداتنا وتقاليدنا أكثر تقارباً. وليس بيننا إلا خليج. يصلون حال سماعهم إشارة منك. ما نفع الجيش الروسي الذي تأمله الأمير شبق؟ ما إن يحتاج الأمير إلى عون تركيا التي تستنير بنور الله حتى يأتي ملائكتُه يغطون وجه السماء، فيحطمون المعتدين" فيرعبون الناس ويملؤون النفوس بالرهبة.

- ونحن مسلمون، نعدُّ أنفسنا نستظلّ بظل الله. ولكن لماذا لا يرسل لنا من يتضرع إليه الناس، ولا يتضرع هو إلى أحد، ملائكتُه حين يأتي جنود النغوي يحرقون قرانا وينهبونا ويخطفون أطفالنا؟ - فجأة رفع الأمير يديه إلى وجهه مرتعباً: - يا ربي اغفر لي إن تعديت حدودي. أوصلوني إلى هذه الدرجة من الغيظ واليأس... يا جاري، هذا مجرد كلام. ما يقلقني أنا شيء آخر: المحرضون النغوي سيصلون، لا إلى جغن فحسب، بل إلى قرى أخرى. ولن يتوقفوا حتى يحققوا مرادهم. علينا الحذر.

- لا أكتف أن ما سمعته في شأن الأمير تاخ ملأني حقداً عليه فبتُّ في جغن ثلاث ليالٍ إضافية. ورصدته ثلاث ليالٍ، لا فرق عندي بينه وبين الفرسان المتخفين الذين أرسلوهم إليه، ولكن لم يظهر أحد منهم.

- وماذا كنت تنوي بحقهم؟ - الفرسان المتخفون يستحقون أي عقاب تقرره، ولكن هل تتعرض للأمير يا قلقت!
- ليس تعرضاً فحسب، بل كنت أنوي قطع رأسه وتعليقه على باب مضافته. ولكن من حظه لم يخرج مرة واحدة من الغرفة.
- وحراسه في الدار؟
- وماذا كان بإمكانهم أمامي! كنت ألحقهم بأميرهم الأحذب أو أفقدتهم الوعي. تعرف أن أربعة أو خمسة لن يصمدوا أمامي. ومع ذلك سأخبرك بما فعلت: عرفت طريق رجلين من جماعته، لا بد أن يكونوا من حرسه، بعدما انتهوا من نوبتهم ليلاً. توجه أحدهما إلى طرف القرية، والآخر الضخم المعتد بنفسه، إلى أعلاها. كمنت له في زاوية السور فضربته حتى سال الدم من فمه وأنفه. وحين اقتنع أنني سأقتله أخبرني الفرسان المتخفين من القرم.
- والله أنت داهية يا قلقت، أظنك لا تتورع عن شيء، - استولى القلق على شبق وإن كان موافقاً على سلوك جاره. - أليس العقل أفضل من القوة؟
- من لا عقل له يجب إفهامه بالقوة وإلا فلن يفهم مهما نصحته. - ضحك قلقت بين الجد والمزاح، - أنت تعترض على التعرض للأمير، وهو يأكلك إن استطاع. يسير على جسدك، ويتسيد الساحة.
- فتح الأمير الصبي قامبولت الباب ببطء، ودخل إلى المضافة تسبقه المائدة. ودخلت سَوْرَت الصبوح الرشيقة وراء أخيها الأصغر تحمل الإبريق والبطست. لاحظ قلقت حين بدأ الطعام أن المضيف يكاد يمد يده إلى الطعام، ورفع رأسه ولكن لم يجد الفرصة للسؤال:
- أنا أكلتُ قبل قليل يا قلقت فلا تهتمّ بي. أنت عائد من سفر؛ كل جيداً. لا تخجل!
- وهل أنا ضيف لأخجل! - وفيما الجار يعض اللحم المشوي حانياً رأسه ضحك: - كأني أكلُ في بيتي.
- هذا كلام حق، ليس مثل بيتك فحسب، بل هو بيتك. ولكني أريد أن أسألك في أمر.
- على كلام الأديغة: قل كل ما عندك وأنا مستعد للعواقب.

- ماذا ستفعل بي إن بدر مني شيء مما يبدر من الأمير تاح؟
- لا فرق عندي بينك وبين غيرك. لن أرأف بمن يعترض طريقي في شأن تفاهم أبناء قومي. - توقّف عن الطعام، ونظر بعينين سوداوين بارزتين في وجه الأمير. - ولكن مهما اختلفت آراؤنا، أنت وأنا، فأظننا متفقين في هذا الموضوع.

- ثِقْ بي في هذا. لم أعد أهتمّ بشخصي وأسرّي. لن أقصّر عنهم في الطعام واللباس ما داموا في صحتهم. سأبذل كل جهدي من أجل حماية الأديغة وتعاونهم، - أنهى شبق كلامه من أعماق قلبه وعيناه تتقدان.
- كان عليك إذن أن تسمع كلامي؛ ما كان عليك السفر إلى روسيا تعاني مشاق الطريق ثم يهينونك. ولا حاجة بنا إلى تركيا، ولا يتدخل فينا القرم. دعونا نتصرف بأنفسنا في شأن أديغيتنا.

حين بقي الأمير شبق وحده في المضافة الخالية لام نفسه لا يعجبه ما قال وما فعل. وقفز قلبه إلى ولده الذي تركه في موسكو. ووجم من نظرات أفراد أسرته المهينة الحزينة. وأشعره حديث الضيف بشيء من المهانة. لأجل هذا قيل: " معروفي انقلب عليّ نحساً، وجاري صار عدوي ". أبناء قومي على ما أرى لن يشكروك ولو ضحيت بنفسك من أجلهم. وإن أحجمت عن أي عمل وجدوا ما ينتقدونك عليه. ما تفعله من أجلهم يذمونك عليه. ويدينونك على ما لم تفعل. وقلقت لن أستطيع أن أقول له: الجار والبنطال¹. لن يرحمني إن خالفت اتجاهه ولو عشنا وبيننا خبز وملح. أعرف منذ زمن طويل أن ليس عنده خوف. والأبوان اللذان كان يمكنهما أن يزرعا فيه الرحمة رحلا عنه منذ طفولته. يعدّ كل من لا يسير في الطريق الذي اختاره عدواً. ولسانه حاد، ويعرف ما في القوم من أقوال ماثورة وتمارين نطق ومزاح، ولكن قوته المفرطة التي منّ بها الله عليه تغلب طبعه. وكما اختطف وَتَبَّع الأعرج من ساحة المؤتمر فقبضته القوية كالمطرقة تسبقه..."

...

¹ إشارة إلى القول المأثور: الجار كالبنطال.

نهض قلقنت مع الفجر وهيّا حصانه. وخرج قبل أن يفيق الناس من القرية التي تفوح منها رائحة الربيع العطرة. وجعله الشك الذي تولّد في نفس شبق تجاه الفرسان المتخفين من جهة القمر يغير نيته قبل أن يغرق في النوم، فغيّر طريق الأبراخ إلى الطريق الساحلي.

"لم يصل حتى الآن هؤلاء الخبثاء الذين لا يعرفون غير الذهب إلى عمق بلاد الأديغة. - قال قلقنت لنفسه وقد تجاوز نهر طف وبجط، واقترب من نهر بسبه. - يسرون ليلاً بدلاً من النهار، ويختبئون في طرقات الغابات الجبلية، ثم يخلعون جلد الثعلب عن أجسادهم فيهيجون الناس، ويحرضونهم على جاري الذي لا ذنب له. صارحته ثانية وإن آثاره رفضي لزيارته لروسيا. لو فرضوا علينا هيبتهم بالسلم بدلاً من تسمية العبيد والخدم لأعادوا نغوي القمر إلى وعيهم. ها هما القريتان اللتان دخلت إليهما، سألت عن مقدّميهما فأضافوني، لا أعرف إن كانوا أمراء أو نبلاء أو متنفذين. ولم يتصرفوا معي مثل الأمير تاخ الطويل الأنف. بل عاملوني باحترام وإنسانية. وتقبّلوا ما قلّت لهم بخصوص الأمير شبق. ورقّت له قلوبهم. الحق أنّهم أنكروا أن يكون اندسّ بينهم محرضون ولكنهم يعرفون جيداً مضمون الورقة التي جاءت من موسكو. ومع ذلك لم يبين أحدٌ منهم ناقل الخبر إليهم. وهذا نوع من اللامبالاة الأديغية..."

فيما الشمس تسعى للغروب، تجاوز البيوت الوطيئة المتراسة الصغيرة التي تقوم أمام معظمها المساطب في قرية بسبه الصغيرة التي لم تكن كروم العنب وأشجار الفواكه فيها قد اكتست بعدّ بالورق، فلما وصل إلى البيت الأعلى بينهاخرج الرجل الربة المتناسق من الدار، وتأمله مديراً رأسه إليه، ودعاه إلى الدخول.

- والله سادخل، - ترجل قلقنت راضياً، وفي الحال خرج الغلام الذي يشبه والده من الدار، وأمسك بزمام الحصان، - النهار ينتهي، وحصاني متعب. وأنا لا يضيرني أن أستريح قليلاً. ما الذي يجعل الغرباء الذين يخالطوننا يقولون: ليتنا خلّقنا بقلوب أديغية يا مضيقي؟ أديغيتنا وطبيعة العلاقات بيننا!. ندعو الضيف القادم إلى الدخول إن كنا نعرفه أم لا. نستقبله بطعامنا. - وقبل أن يُكمل قلقنت كلامه استعجل المضيف على باب المضافة:

- لا تؤاخذني أيها الضيف، عَرَفَني باسمك وإن لم يكن من عاداتنا نحن الأديغة.
- أنا اسمي لِأُحْج. وصاحب البيت الذي أمام بيتي هو مقدّم القرية. وأنا معاونه، ومن يحل محلّه متى سافر. وسبب سؤالك عنك واضح نوعاً ما، اليوم قبل الفجر، جاء إلى جاري رجل أسمر نحيف ليس شاباً جداً وطلب الضيافة، ونام إلى الظهيرة. وبعد الظهر جمعنا هذا الرجل الصغير، أنا مع عدد من الرجال، وكلّمنا وهو يمسح على لحيته السوداء براحته. ولكن حين بدأ الحديث وعيناه تدوران في محجريهما، ولا تتفحصان وجوهنا، يكيّل الشتائم للأمير بشق، ويهيل المديح على النغوي، لم أتحمّل فسألته:

- هل نسوا هجومهم علينا كل عام، وزيادة الإتاوة المفروضة علينا، وتمزيقهم أُسْرنا؟

- لا يا أخي، لا أحد إلا الله تعالى معصوم من الخطأ. وهؤلاء ندموا؛ ألسنا أنتم ونحن مسلمين وحيراناً؛ أليس الأفضل أن نتفاهم؟
- لن يسمعك من غرزت السيف في جسمه إن طلبت منه الصفح. - لم يستطع أميرنا إلا أن يعترضه.

وفي الحال ارتفع صوت قلقت من الخاطر الذي هيّجه:

- هل على وجه هذا الرجل ندبة؟

- لاحظت شيئاً من هذا على الطرف المدبب لذقنه.

- تباً له! - صرخ قلقت، وضرب بالسوط المطوي عنق حذائه، - ليتني عرفت أن مامي الرجل الأسود الضئيل وصل إليكم، كنتُ طرُتُ إليكم لو عرفت. هذا خائن يا لأخج. قاتلٌ لا رحمة ولا مبدأ عنده. قل لي أين توجه ولا أريد منك أكثر من هذا!

- لا تستعجل يا قلقت، - اعترض المضيف الضيف، - تأخرت، هل تظن أن من لا خير في قلبه يخبرك بوجهته؟

- والله هذا صحيح، - ظل قلقت يكرر هازراً رأسه الضخم، موجّهاً نفسه. ودخل المضافة أمام المضيف. وقال حالما جلس: - دعنا نتنفّس قليلاً إن لم يكن عيباً. إن جمعت لي رجالاً القرية أخبرتهم بحقيقة مامي عديم الشرف، ورويت لهم الخبر الحقيقي الذي أعرفه شخصياً...

III

ما يفهمه دولت - جري من مبدأ: عليك أن تُفهم من لا يفهمك خطأه، شيء آخر: القريب منك والبعيد لن يحسب حسابك إن لم تستعمل معه المخز. لا فرق عنده في هذا بين أفراد أسرته، وأولاده، وأمراء جيشه، وخدمه، وحرمة.

من يُبلِّغ أن الخان يطلبه يرتعب. ومن يسمعه يختبئ. ولكن إذا أخذنا خانيتة إجمالاً فمن يحظى برعايته شخص واحد هو عادل - جري. وليس سلوكه مع ابنه في السنوات الثلاث أو الأربع الماضية. وحرصه عليه، والتوسُّل إليه أحياناً، دون سبب؛ وهو أمر السلطان التركي سليمان بإعدام ولده. لم يخلُ من الشك في أن يتآمر عليه ويطمع في ملكه. ولكن من يعرف مع ذلك؟ الأشرار والحاسدون كثيرون. وليس من يوشوشون في أذنك فيخدعونك قليلين. ولذا لم يكن ينفك يراقب ابنه محدثاً نفسه: لا تنس ما كانوا ينوون فعله بسليمان في شأن ابنه. الله حريص فكن أنت أيضاً حريصاً يا دولت - جري.

لا يجوز أن يخطر لك أن تقارن دولت - جري بصلابته، وطباعه، بسلفه صاحب - جري، بل لا يمكن أن تلصقه به مهما حاولت. فبالقياس إلى سلفه لم يكن في خانية القرم ما لا يعرفه دولت - جري، من الناس الذين يتهامون، إلى الطيور الطائرة في سمائها. ومهما تظاهر أبناء قومه بالانحناء احتراماً له فالسبب ارتعابهم منه، وهذا سبب ثقة سليمان به، ومساعدته له في أي حرب من أي نوع.

كان دولت - جري يحدث نفسه حين يبقى وحده مع أفكاره: " صحيح أن سليمان واثق مني ولكن عليك الحذر منه والتزلّف إليه. لا يكفيه ما نخوض من حروب فيلقينا من جديد في جمرها، ثم يتظاهر هو بإطفاؤها. أفهم أن علينا تربية الأديغة الذي لنا عليهم الإتاوة، وأن علينا أن نمنعهم من التوجه إلى روسيا عدونا دون الخوف منا... ولكن لماذا يتجاوز بنا فولاخ¹ و أوكرانيا والشليات

¹ منطقة تاريخية كانت جزءاً من رومانيا شمال الدانوب الأدنى.

إلى ليتوف¹ فنحارب فيها؟ ألا نهم أعداء قيصر روسيا؟ إن كان هذا فقد هاجمنا الروس مراراً ونهبنا منهم الكثير. وأحرقنا كل قرية ومدينة قاومتنا. ولكن لا يجوز أن ننسى الوصية التي تركها لنا حاج - جري، مؤسس خاينتنا الذي كان يرى أننا يجب أن نراقب القريب أولاً قبل أن نتطلع إلى البعيد. ثم إننا هنا بلا جذور خلافاً للأديغة الأصلاء. لم يمض الكثير على استيطاننا للقرم بالقياس إليهم، قرنٌ ونصفٌ على الأكثر، ولا قيمة لهذا في عمر التاريخ. يقولون إن هذه الأرض كانت للأديغة قبل قرون من مجيئنا... ومع ذلك نغضب حين يصفوننا بالغرباء. والأديغة والروس من هؤلاء. والفولاخ يسخرون منا... "

وقف دولت - جري أمام النافذة التي تتسلل إليها أشعة الشمس اللطيفة. كل القرم اكتسى حلة ربيعية خضراء - بيضاء. أفكاره القلقة عند الأديغة القاطنين شمال القفقاس بين بحر آزوف غرباً وبحر قزوين شرقاً. كلما توتر ساط حُقه الجلدي لينقّس عن غضبه. يفارق النافذة، ويدرع أرض الغرفة المبلّطة بالحجر الملون، المغطاة بسجادة مزخرفة. يلقي سوط الخيل ويعود إلى النافذة. "لا نستطيع إخضاع الأديغة مهما حاربناهم وفعلنا بهم. - يغلي قلبه من وفدالجان إلى روسيا وتحالفهم معها. - من هذا الـ "فيشنيفيسكي قائد الجيش الذي ينتظرونه؟ يجدر بنا أن نواجههم مرة جديدة ونُثخن فيهم... لم تعد المشكلة في جيراننا الجان والبسلني والأباطة ؛ يقال إن القبرتاي، ولا سيما في ترج، يتطلعون إلى روسيا ويتأملون منها الخير. والأمير أبشقوه أظنه يخدعنا بكلامه الكثير وفعله القليل. ورغم أننا أجتنيانهم على ركبهم أمام الله فهم يلمّحون لنا بأننا أنسيناهم أهتهم. ومن يرسمون الصليب خفية ليسوا قليلين. هل قصّرنا في نُصحهم وعتابهم وإجبارهم بالسيف؟ من أجل هذا يقال إن كل ما يتحقق بسهولة له عواقب سيئة... مضى أكثر من شهر على إبلاغنا السلطان سليمان أخبار الأديغة، ولم يُجَبنا بخير أو شرّ. ليس هذا من عادته. أ تكون الدولتان تتواطآن علينا تاركين إيانا نتحارب؟ لن أنتظر، سأزوره... -" رفع الخان عينه فرأى مامي في فناء القصر الفسيح. بدأ يشير بيده الإشارة التي كان يترفع عنها

¹ ليتوانيا الآن.

طوال حياته. وفهم الآخرُ فهُرِعَ إليه برأس مطرق. ارتاب الخان في الضجة التي
ثارت عند البوابة الكبيرة فأشار إلى الحرس أن يُدخلوه إلى قاعته.

- ألا يسمحون لك بالدخول رغم أنك من الحاشية؟- سأل الخانُ مامي عما
فعلوا به أمام باب غرفته، دون أن تعرف إن كان مسروراً بما فعلوه أم لا.

- حسناً يفعلون، - أجاب مامي الجواب الذي سيسرّ الخان، كاجحاً غضبه
الذي أثارته الإهانة التي ألحقها به الحرس، مقررّاً ألا يسمح له بخداعه، - ليس
لكل من يدنو من بابك، إلا عادل جري، شغلٌ فيدخل إليك يا موفد الله.

- وعادل - جري، وإن كان ابن الخان، لماذا يدخل إليّ إن لم يكن له شغلٌ
معى؟ - تظاهر دولت - جري بالسؤال، وألقى نظرة رضا على مامي، - أنت
صادق معى، وأنا واثق منك.

- حياك الله يا موفده، - مطّ مامي جسده أكثر عند قائمة الباب. وأضاف
بسرعة: - إن طلبت منى حياتي لبيت لك حالاً.

- وأنا واثق منك في هذا أيضاً، ولكن لم نصل بعدُ إلى هذا. ما طلبتك لأجله
موضوع آخر. الأديغة لم يتفقوا معى إلى الآن رغم انقضاء سنين كثيرة على
علاقتنا. بناهم في بيوتنا، يرين أولادنا، ويعشّون لأجلنا. وبيننا قرابات عن طريق
الأثاليق. زوجة سليمان سلطان الترك أديغية. وابنة الأمير أبشقوه كتننا، وابنتا
تيمرقوه الذي سمعتُ أن طموحه يتجه صوب روسيا زوجتان لاثنين من
الخانات. وزعيم القوموق، على ما يقال، قريب من جهة النساء من الأديغة. لا
أفهم كيف يزوّجوننا نساءهم، ويكرهنا رجالهم... - وكرر الجملة الأخيرة بشيء
من التقطيع والرياء: - رجالهم، باستثنائك أنت، يكرهوننا. ماذا يمكن أن
نسعى هذا؟

- لا تعُدني يا موفد الله بعد الآن في تعداد من تأتّى على ذكركهم.

- ألم تعُد أديغياً؟ - استغرب الخان ما سمع.

- منذ زمن بعيد، - حسم الأمر.

- على ما تقول أنت استقررت بين من خالطتهم.

- صرث منهم.

- تملأ نفسي تهيئاً؟

- شاهداً على ثقتك بي وإخلاصي لك، سأقطع خنصري على بابك يا موفد الله المنير، - أسرع مامي بيده إلى جنبه، غير أنه تذكر أن حراس الخان جردوه من خنجره، فانتزع يده من زناره.

- أنت تثرت يا رجل! - احتد صوت دولت - جري. ثم قوم من أمامه بحزم لا هودة معه: - أقول كلمتي ولا أكرها. أنا واثق من الكثيرين، ولكن لا أسمح لكل من أثق به أن يمثل أمامي.

الآن فحسب أدرك مامي أنه انطلق في حديثه في حضرة الخان بلا روية، إذ تذكر أن الخان حين ثرثر قبل بعض الوقت أخذ الخدم الجنود في حضرته أمر بقطع لسانه. فتداعت أعضاؤه، وارتخت. ولكنه سرعان ما شد قامته، فتوسل إلى الخان بلسان معسول وإن لم تكن عيناه خاليتين من أي فرح:

- اغفر لي يا موفد الله المنير!

- اغفر لك إذ عرفت ذنبك. - الآن دولت - جري يقف إلى النافذة مديراً ظهره. ومامي يسترق النظر أحياناً إلى سوط الحصان الملقى على العرش، - ولكن ليس هذا سبب استدعائك. لا أفهم، كما قلت، طريقة ممارسة الأديغة لشعائر دينهم. هل سمعت أن ابن الأمير شبق اعتنق المسيحية ولما يمض شهر على إقامته في موسكو؟

- لا، - أسرع في الجواب.

- أخبرك إن لم تسمع. لا أظن الجان وصلهم الخبر إلى الآن. أخبرنا بريدينا البارحة. وفعلوا الأمر نفسه بأمر الأباطة. - وبعد قليل أنهى بنبرة أقرب إلى الرياء: - يُعتقد أن جماعتك الجان ستحدث فيهم مفاجآت كثيرة... - لم يرتعب مامي مما لُوح له به إذ أن مفاصله ارتخت من كلمة "جماعتك". - حسناً، تابع أعمالك. اسمع، - صاح الخان في إثره قبل أن يصل إلى الباب، - تعال اقرب من النافذة. هل ترى الأرومة المدورة الكبيرة أمام المنجرة؟ إقطع إصبعك الصغيرة شاهداً على إخلاصك لي!

- حالاً يا موفد الله المنير، - أخفى مامي آلام قلبه، واستدار كمن يرسلونه إلى فرح وقال له: - بكل سرور. - وإن شئت جلبتها لك ذكرى وشهادة.

"وماذا أفعل بها، - سخر دولت - جري من خادمه الأديغي، - نراها لاحقاً، لا يضيع ما قُطع"

وضع مامي إصبعه الصغيرة على الأرومة ونظر باتجاه النافذة التي يقف عليها الخان. ثم ضربها بالخنجر فقصها. لم تحتلج عضلة في وجه دولت - جري. ولما لم يكن من شاهدٍ على ما فعل فقد أشاع أنه قطعها بالخطأ فيما يسرّ العمود. وبعد يوم نسي الناس الموضوع. وبعد أسبوعين رفع مامي الضماد. وبعد أيام التقى الخان ومامي وحدهما فمازحه الخان: "لا تقف في حضرتي أكثر من هذا باسم حياتك وإصبعك". ولكن ما قاله دولت - جري لابنه يوم سلك طريق تركيا شيء آخر:

- اليوم أنا مسافر بجرأً إلى تركيا يا عادل - جري. وأعهد إليك بخانية القرم. من فيها موضع ثقة لك؟
- كثيرون ثقاتي يا موفد الله، ولكن من يُعتمد عليهم قليلون. لست متأكداً إلا من الجيش.

- الجيش جيد، وهو أساسنا وأملنا. ولكن إحفظ في قلبك أن كل جيش هو مثل قطع الغنم. سيتبعك أينما سقته متى تقدمته. وأنا حدث لي أن فقدت ثقتي في موافق كثيرة. ولم أضلّ الطريق. يسرني أنك لا تثق بأحد. وهذا يشهد على أنك اكتسيت قلب الرجال. ولكني أعرف رجلاً يمكن الوثوق به عند الضرورة.

- لا أعرف من هو؟ يسرني أن تدلني عليه.
- لا سرّ بيني وبينك يا ولدي، ولن يكون. أتكلم على البسقاق مامي.
- مامي؟ - تعجب عادل - جري مما سمع. ولم يكتف ما هجم على خاطره: -
الغريب الوحيد بيننا!

- هل شككت فيه في أمر ما؟ - نظر دولت جري في وجه ابنه وقد أثار استغراب الابن ارتياح الأب. ثم سأله عما كان يقلقه هو في الأيام الأخيرة: -
أم يُريبك فيه مبالغته في إخلاصه لنا؟

- نعم، كان جواب الابن مختصراً، ولكنه فضّله: لمست ما كنت عاجزاً عن الإفصاح عنه.

ابتسم دولت - جري، وقال لنفسه مرتاحاً: "لا يُخفي أنه من صليبي. وأفكارنا متطابقة. إقْدِ بي يا ولدي، ما زال أمامك طريق طويل".

- حسنٌ أن تتلاقى أفكارنا يا عادل - جري، - أبرز الخان لابنه اسمه بصوت لطيف، وأضاف: - الأفضل ألا نخدع أنفسنا بثقة لا ضرورة لها. وأنا أحفظ بمامي مختبراً إياه في النار والعذاب لأني لا أثق به. ولكنني اختبرته قبل أيام في ما أعلن استعداداه لفعليه فتبين أني لو طالبت منه روحه، لا إصبعه، لما أشفق على نفسه!

- حقاً! - صاح عادل جري، - لم أعرف أن مامي فقد إصبعه لهذا السبب. قيل إنه قطعها خطأ وهو يسنّ العمود فصدّقت. عجيبٌ ما أسمع! شتان ما بين أن تُقتل في الحرب، وأن تفعل بنفسك هذا. ومع ذلك فسلكه هذا... - هذا هو يا عادل - جري، هذا هو، - لم يجد الأب ارتياب ابنه في محله، - وأكثر ما يرضيني فيك قولك "ومع ذلك" و"ولكن". أبقِ في قلبك دائماً هذا التحفظ. ولا تنس تلك الكلمات الأزلية الخفية التي لا تفارقت حتى مع أشدّك ثقة فيه. والآن بضع كلمات عن سبب موقف مامي منا: هل سمعت بمثل الذئب الوحيد؟ مامي الذي احتضنّه حالياً مثلُ هذا الذئب. الذئب يصيد وحيداً حقاً ولكن لا يستطيع الاستمرار في هذا كثيراً. يملّ، ويعوي، ويعجز عن الاستمرار في الحياة. وحين يقع في اختبار العراك مع الكلاب يسكت رغم أنه أقوى منها وأخبث. ويعنّف نفسه، ويعضّها إن لم يتحقق ما يريد. يؤمر بالجري فيجري، وبالجلوس فيجلس. ويؤدّه أقرانه حتى يُنسوه عبارة "ومع ذلك". هاتان الـ "ومع ذلك" والـ "ولكن" المعبرتان عن الارتياب هما ما يعيش بهما الإنسان ويحيمانه... سرُّنا، مامي وأنا، لا أريده أن يشيع. أبقِ على ثقتك فيه، وإن أبقيتها فاحذر منه. لن أطيل زيارتي إلى السلطان سليمان، ومع ذلك فلا تغفل عينك عن قادة الجيش. ولا تدعهم ينفردون وحدهم. اجمعهم إليك بحجج من ابتكارك.

في ظهيرة اليوم التالي وصل دولت جري إلى المدينة التي يُعرّها الترك الآن، مسمين إياها إستانبول، وكان البيزنطيون يسمونها قبل مئة عام كونستانتينبول، والروس تسارغراد. وكان عثمان، أحد أمراء السلاجقة، قائد جيش الوغُر

التركماني، انتزعها عام 1453 من دولة بيزنطة الشرقية. ولكن لم يكن الأذان يصدح في أرجائها بعد. كان المؤذن الذي يصطحبه دولت - جري أينما سافر، يتوضأ استعداداً للصلاة التي سيُسمِعها للمسلمين. ويُسمع صوت الإبريق البرونزي اللامع الذي يحمله الخان في سفراته. ومصلاّته المصنوعة من جلد الماعز حاضرة.

لم يقف دولت - جري إلى جانب نافذة مقصورته في السفينة فيراقب المدينة بماذنها التي تطاول السماء. ليست المرة الأولى التي يرى فيها دولت - جري المدينة التي تزداد "إسلامية" كل يوم وكل أسبوع... قضى فيها طفولته وتعلّم. وزاد تفكيره النعوي وهو يراقب الأتراك ويقتدي بهم. والآن صار في هذه المدينة صديقاً لسلطانهم سليمان الأول، فاقتدى بمن احتل الشام وفلسطين ومصر، ووطّد دولة بني عثمان. وحضر عرسه حين تزوج الفتاة الأديغية. ويتذكر، كأنه اليوم، مولد مصطفى ابن المرأة الأديغية الذي أُعدم قبل سنوات. وكان هو من دفع بدولت - جري إلى زعامة خانية القرم بدلاً من صاحب - جري سلماً. ولم يحدث أن تخلف دولت - جري منذ أصبح خاناً عن زيارة إستانبول في السنة بضع مرات. وحدث أن توجب عليه زيارتها مرتين في الشهر نفسه. ولكن هذه أول زيارة له في السنة الحالية. ووجد بسهولة حجة للزيارة في سلوك الأديغة والروس. وليست المشكلة في الجان والبسلني والأباطة، فسلوك هؤلاء واضح كالنهار، بل الأخبار التي تخرج من الأديغة الذين يتزعمهم تيمرقوه، فتعبر في ظلام الليل القبرتاي في شرق الأديغة، وتصل إلى القرم.

تطايرت أصوات المؤذنين من فوق إستانبول. ووقف مؤذن دولت - جري على حافة السفينة، وتوجه بصلواته إلى أطراف الدنيا الأربعة. وصارت جزءاً مما ارتفع فوق المدينة. وقف دولت جري حانياً رأسه أمام الله الذي يقود أمة المسلمين. ثم جثا على ركبتيه، ثم سجد. وأخيراً دعا إليه: "لَيْنِ لي يا الله قلوب من لا يودوني، وحقق لي هدف سفري. واجعل موفدك سليمان يستقبلني بقلب ودود. واكشف لي خبيّة قلبه إن كان له مثلاًها. أنت معبودنا الوحيد، شمسنا وقمرنا ونجومنا. آمناً برسولك مُحمّد. وعدوك عدوّننا. اغفر لي كلامي في حضرتك على قوم عصاة. ولكننا نحن لسنا كالأديغة أصحاب الوجهين وإن

ادّعوا تقبلهم الإسلام. يحلفون على القرآن ولكنهم يُهرعون إلى المسيحيين فيتحالفون معهم بدلاً من أن يسجدوا لك. وليس الجان والبسلني والأباطة وحدهم في هذا التوجه، بل أديغة الشرق أيضاً نواحي ترج...أعرف أن كل الأعمال مقدرة، ولكن ادعو إليك أن تحقق أهدافنا الإسلامية..."

لم يفتح باب السلطان سليمان في اليوم الأول من هذه الزيارة، كما كان يفتح سابقاً لحظة وصوله، ولا في التالي. الحق أن مراسم استقباله في تركيا لم تنقص هذه المرة إن لم تزد. استقبله بكل احترام في الميناء الرجل الثاني في الدولة، واصطُحب إلى أحسن فندق في عربة مكشوفة وأمامه ووراءه الفرسان، وحُدم بكل أمانة. ولكن أفهموه نتيجة لعدم ترتيب الموعد بينه وبين السلطان أن الأخير لا يستطيع استقباله في أول يومين. وثار في نفس الخان ارتياب بارد وإن كنتم: "وهل عجيب إن لم أخبرك؟.. وهو أيضاً جاءنا أكثر من مرة دون علمنا، وأنا أيضاً. مهما رحبتم بي ففي المسألة ما يدعو للارتياب. أُعقل أن يتدخل الروس بيننا حال إبلاغهم بإي الخبر؟.."

وفي الليلة نفسها أمر الخان جواسيسه في تركيا أن يأتوه حالاً بالخبر اليقين. وجرحه الخبر الذي أتوه به في الصباح، فلما خلا بنفسه حدثها: "أظن السر الذي توجست منه صار علناً. موفد القيصر الروسي يخرج اليوم من إستانبول... ما طريق سفره: البحر أم البر؟ هكذا أكون جئت إلى من أقاسمه سري بمجرد خطوره على ذهني دون التدقيق في الأمر. لا، هذا مستحيل. إن لم نتبادل نحن الثقة فبمن نثق؟ الشرق والغرب، والشمال الذي قيل إن الموفد الروسي أتى منه كلهم أعداء لنا. فصلوا عنا قازان وأستراخان، وخانية النغوي الكبرى، والخانية الصغرى. والفرس يعادوننا. لا تظن يا سلطان الترك أنك انتهيت من ترتيب أمورك إذ استوليت بالقوة على الشام وفلسطين ومصر، تحالفت مع ليفون¹، وتتهامس أنت وقيصر روسيا. لن تعرف من أي جهة سيأتيك الد أعدائك... ومع ذلك سأرى كيف يتصرف معي غداً. إن كنت ستدهن شفتيك بالعسل فلن أحول عسلي إلى مرارة. ولكن يحزنني أنك تكتم

¹ منطقة جنوب أستراليا حالياً.

عني مسائل الأديغة في نواحي. ثم من موضع ثقتك؟ الروس الذين هم الد أعدائنا. ربما ما كانوا أعداءنا لو لم تحرضونا عليهم!.. وهل يخالف سليمان جده فاتح وإن أظهر نفسه لأعدائي سنداً ونصيراً؟ رياه وعلمه كثيراً من جوانب الخبث".

وفي هذه اللحظة تذكر ما فعله مراد والد فاتح بجذ سليمان، ولا يزال يتناقله الناس. يقال إن فاتح بن السلطان مراد كان شاباً جذاً، في الثامنة عشرة أو العشرين، حين تنازل الأب له عن سلطنته، وأقام في مدينة صغيرة تعجبه. وفي الحروب كان السلطان هو المسؤول عن قيادة الجيش والمسير أمامه. فهم فاتح في وقت توجهه إلى البلقان أن قادة الجيش لا يثقون به لحدائه سنه، فكتب إلى والده مراد: " قادة الجيش يعدوني حدثاً فتعال وقُد الجيش التركي كله " ولم يتأخر مراد في الجواب: " إذا كانوا رأوك أهلاً للسلطنة فتقدّم الجيش وحارب من أجل تركيا " وفي الحال أرسل فاتح إلى والده هذا الجواب: " إن كان رأيك هكذا، وكنت سلطان تركيا، فتعال وقِفْ إلى جانبي!". ساعة ركب دولت - جري الطريق تذكر حديثه مع ولده عادل - جري فابتسم: " لن يفعل بي ابني ما فعله ابن مراد به. ويسرني أن يبلغ تفكيره هذا المبلغ. وسأقول له: عشت يا ولدي. ولكني بدأت اليوم أفهم تلازم حب السلطان سليمان وذكائه وطلاقة وجهه وجهامته؛ سأرى كيف يتصرف معي غداً... ".

بعد الفجر أصرّح دولت - جري إلى قصر السلطان في الموعد المحدد. ومن الأبواب المذهبة إلى القاعات المزخرفة الجدران بالذهب وصل إلى باب السلطان. ولما كان دولت - جري رأى كل هذا سابقاً لم يستغربها. دنا من الباب المذهب والمفضّض وذنه مشغول بالخبر الذي أتى به عن الموفد الروسي. كان يستعد للإشارة إليه إن لم يخبروه بخبره. ولكنه كان جاهزاً أيضاً لما سيجيب به إن لم يكتموا عنه الخبر.

استقبل سليمان ضيفه على أرض القاعة بالعناق. وفيما هما يتصافحان قال له سليمان:

- أهلاً أيها الضيف خان القرم. لم نلتق منذ خريف العام الماضي ولكننا نلتقي اليوم ونحن بخير وبصحة جيدة. يسعدني جداً أننا نلحاً معاً في هذه الدار

العاجلة. - واختتم بما يرددانه في كل لقاء: - ليبق الأعداء الكفار تحت أقدامنا، ولبيق أصدقائنا في حماية الله تعالى!

- ليبق الأعداء الكفار تحت أقدامنا، ولبيق أصدقائنا في حماية الله تعالى! -
كرر دولت - جري الكلمات الأخيرة للسلطان حرفاً حرفاً. ثم اقتربا من العرش القائم أسفل الجدار. وجلسا متقابلين بينهما مائدة عليها أنواع الفاكهة. قال الخان: - لا تزال يا موفد الله على حالك قبل عام. - واختتم بمزحة مديح: - لم ينقص منك شيء إلا أن تزيد في أرضك. والعين الحاسدة ليعمها الله عنا وعنكم!

- لينطق فمك بالخير دائماً يا أخي دولت - جري خان! - أجاب سعيداً، واختتم بنبرة خبيثة: - ولكننا نعرف من يريد الانفصال عن الدولة الكبيرة التي أسسناها. وأنت لست جاهلاً بالموضوع، ولا شك أنك قلق من أجله.

- إن كنت تقصد الأديغة ما وراء البحر يا موفد الله فقد أصبت المهم الذي جئت به إليك. ولكن لم أعرف أنك مطلع على الأمر. - قال دولت - جري لنفسه: "سنرى الآن حلّك للموضوع الذي طرحته، إن كتبت عني خبر الموفد الروسي أكدت أنك لا تتق بي. وإن كنت عاجزاً عن مكاشفتك بما يعتلج في قلبي فستأتي مناسبة أخذك بها".

- نعرف، - جزم السلطان واعتداده بنفسه واضح من صوته، واختتم بنبرة حافلة بالرضا: - لا يحدث شيء في العالم لا يخبر به سلطان الدولة العثمانية. - ارتفع سليمان الأول بجسده الرشيق عن العرش الوثير على نحو أرعب دولت - جري، ولما حاول خان القرم أن يفعل مثله أمره بالبقاء جالساً. وأكمل كلامه متمشياً على أرض القاعة، عاقداً ذراعيه وراء ظهره: - نتكلم على الأديغة يا أخي، ولكن هل نحن أحرار في أن نتكلم عليهم كما نريد؟ لا سلطان تركيا ولا خان القرم حُرّان. لا إذن لنا، ولا لكم.

- وكيف لا إذن لنا يا موفد الله؟ - بدأ دولت - جري بما لا يوافق عليه ولكن السلطان لم يدعه يكمل.

- أعرف ما تريد أن تقوله يا خان. - لا يُسمح لك أن تشرف عليهم لتحرمهم الحرية بأن تهاجمهم وتفرض عليهم الإتاوة. هل يكفي أن تُغيروا على

روسيا وتنهبونها لتعتبروا أنفسكم أنجزتم احتلالها؟ والأديغة مثلهم... أظن الأفضل أن تترثوا في شأنهم...

- ولكن يا موفد الله، - تظاهر دولت - جري بمعارضة السلطان بلباقه، - ألا نرسل إليهم نبلاءنا؟¹

- ألا تعرف طبيعة الأديغة؟ هل يحترمون نبلاءكم أم لا؟ لماذا نحن جالسان هنا؛ الغداء ينتظرنا هناك.

ظل يكرر: "سلطان تركيا يخفي عني موضوع الموفد الروسي... ومع ذلك سأذوق من طعامك. سأكنم انفعالي، ولكن متى عدت إلى القرم فسأجد الصخرة التي تخفونها ورائي..." ويعدّ ما يفعلونه به إهانة، حتى نخض ضابطاً مشاعره...

IV

حتى من لعنه الله لا بد أن يظهر له شيء من السعد. مضى بعض الوقت على ونتغ الأعرج على وقوعه في الأسر معدماً، يدين نفسه على جشعه، بعدما كان غناه بلا حدود. زادعداؤه قلقته في أثناء وجوده على البحر وفي تركيا، يكاد لا يأكل شيئاً. في الأيام المتتالية التي يوقظونه فيها بالقوة مع الفجر ليعمل في البستنة إلى الليل، يزداد عداؤه إلى أقصى مداه. ثم بدأ ينحسر. وربما هان الأمر لو كانت الرجال تؤديان وظيفتهما. كان عجز الرجل، والجوع، والسوط الجاهز في كل لحظة ليهوي على الظهر، كان كل هذا يتجاوز حد المأساة. وكانت القوة الجسدية تتناقص، والشعور بالعار يأكله، فيقضي الليل يوصي نفسه عاجزاً عن النوم.

قال ونتغ لنفسه محملاً إياها المسؤولية عن حقه على قلقته "في مثل هذا الموقف قال الأديغة: تعدّي مرة واثنين، وفي الثالثة تسقط. أنا قفرت ليس مرة أو اثنين أو عشرة. بل أكثر من المئة. ولم أتوقف. الحصول على المال دون تعب جشع نهايته اللعنة. فعلت مرة دون أن يكتشفني أحد فاستولى عليّ الشره. ثم

¹ الحديث عن "ميززا" التي هي لقب من مير، أي أمير، وزاد، أي ابن الفارسية. استعمله الفرس والعثمانيون.

غرقت بلا شعور. لم يستوعب عقلي سبب عدم إرسال الأبراخ العنيدين أولادهم المراهقين إلى الفلاحة وحدهم. لحقني الفارسان اللذان كانا يستريحان على نُحْم الغابة فأجبراني على رمي الولد عني. وحين وصل إليّ أحدهما استلقى حصاني الذكي من حسن حظي فأصاب السيف رجلي اليسرى وإلا كان مزقني به. لا أعرف المكان الذي انحدر فيه حصاني دون أن يقع ؛ أكان وهدة أم مضيقاً. كان الله قدّر لي النجاة فأزاح عني ملك الموت. الناس الأقوياء لا يسمحون لك بأن تردفهم، وإن أسأت إليهم عفواً لم يغفروا لك. لم أتعظ مما حدث لي مع الغلام الأبراهيمي. وقلقت أعطاه الله قوة مجنونة. لا يعرف خوفاً ولا يردعه رادع. نشأ متفرداً قليل التربية، يفعل ما يخطر له. وأنا فعلتُ معه ما فعلت! ومن كان يحتاج إلى أخته الصغيرة التي لم تبلغ بعد؟! كان مامي بعينيه الوقحتين أول من لمح لي بها. ثم شجعني الأمير تاخ، وأوصى التاجر حامز أن يدفع لي فيها سعراً أفضل مما للغلمان الذين كنت أبيعهم للنغوي، فشجعني. ماذا كان رأى في الفتاة العجفاء الصغيرة؟ أوقعْتُ نفسي بسببها في الأسر والعبودية وعندي كل هذا المال. كثيرون ممن يتباهون بالإمارة بقبعاتهم العالية، وحوهم الخدم والحراس، لا يملكون نصف ما خبأت في القرم وإن ضاع من يدي. وأنا هنا كالمعدم الذي ينتظر فئات المائدة. ويعلمونني من جديد أصول العمل..."

والحق أن يدي ونتغ لم تكونا منسجمتين مع العمل، ولا رجله اليسرى تعينه، ولكن المرء يقف على ركبتيه ساعة الضرورة ويزحف على مؤخرته. الروح غالية ولذا يدفعك الخطر المحقق بك أن تفعل ما تتوهم أنك لا تقدر عليه. لو كان مع ونتغ الأبتز حصائهُ اللبيب لاختفى في ليلة لا يعرف أحد أين. كان يعرف أنه لن يستطيع الإفلات بعيداً على رجله فيتخلى عن فكرة الهروب كلما خطرت له.

وفي يوم، وقد بلغ به اليأس كل مبلغ، قطف من شجرة عدداً من حبات الكرز السوداء التي لم تعد فيها فائدة، فأكلها مقاوماً مرارتها. وبعدها بقليل مرض بشدة. وبدأ المرض يحرق جوفه واللعب يسيل منه. أوصله رب عمله إلى بيت

التاجر، فسقّوه بعض الأدوية والحليب المخمّر حتى أنقذوه من الموت. ولكنّه بقي في الفراش خائر القوى أسبوعاً واثنين وثلاثة، وأخيراً خرج إلى أرض الدار. "الكلب يطعمونه لحراسة الدار، وأنا ما نفعي للتاجر التركي؟ كان ونتغ منصرفاً يلوم نفسه على ما فعل بحقّها. لحق به الصبي العامل وأعطاه نصف رغيف فلان قلبه وسال دمعته. مسح على رأس الصبي وحثّ الخطأ إلى الميناء. وسأل نفسه وقد عاد إليه شيء من الأمل: - إن عدتُ حراً فلا تُوكّل على الله وأجّع أجرة السفينة وأرجع إلى ديارنا... والأفضل أن أتوجه إلى القرم أولاً وأسترجع أموالِي، كان حجري تحوّل جبناً وقتها كما يقال.

تبَيّن أن الحصول على عمل في الميناء ليس سهلاً. كان الرجال يتنافسون. ويحدث أن يشتبكوا. ولم يكن بوسع ونتغ انتزاع عمل منهم بالقوة. ولكن ذكاه أنقذه. تأمل في مجموعة الرجال الذين يستريحون في ظل الجدار، وجلس إلى جانب من يتأمل منه المساعدة أكثر من الآخرين. وتقاسم معه رغبته، فنظر الآخر إليه مندهشاً وأخذ منه وحديثه بالتركية مبتسماً له، وكان جهلٌ ونتغ بالتركية أحد همومه الكبيرة فأجابه بالأديغية تغلبه لغة الإشارة. ولكن الشفقة التي أبداهها الصبي الذي منحه نصف رغيف جعله يقنع بالحياة مع الحمالين. وبعد أيام من عملٍ ونتغ في الميناء، وفيما الحمالون ينتظرون رُسوّ السفينة القادمة، تراءى له بين من نزلوا منها شخص من معارفه. ولم تخطئ عيناه. كان الشخص هو " نَرْت " الذي التقى به في بيته بالقرم بضع مرات. والده أديغي، وأمه من النغوي. ولا فرق عنده بين اللغتين. وهو مساعد ربان السفينة التي خرج منها. صاح ونتغ لا يصدّق الحظ الذي ابتسم له:

- نرت!

توقف الرجل الطويل العريض الكتفين وتعرف عليه:

- هذا أنت يا ونتغ! أي إله جاء بك إلى هنا؟

- كما ترى، وصلّت إلى هنا ولكن لا أستطيع العودة... - وفي اللحظة انفعل ونتغ فاندفع إلى صاحبه يعانقه ليخفي عنه دموعه، ووقف جامداً بعض الوقت ورأسه على صدر صاحبه.

- ماذا جرى لك يا ونتغ؟ لا تعجبني حالك.

- هذا حديث يطول يا نرت. - استعجل ونتغ كأهم يسلبونه الأمل الذي لاح له. - أستحلفك بالله أن تُخرجني من هذه البلاد، وسأردّ لك جميلك يوماً ما إن شاء الله... لا أعرف لغتهم ولا عاداتهم. أنا كئاثه في البرية، أتوسل إليك يا نرت!

- بالله عليك، لا حاجة إلى كل هذا، تعال!
سافرا بعد ثلاثة أيام.

كان ونتغ مستعجلاً على مغادرة الميناء. يخشى أن يظهر له أناس متحقّون في السفينة فيُنزلوه منها. وفيما يتجول في السفينة غير مصدّق ما تحقق له سمع صوت نرت من ورائه:

- أيّ حب تتركه في أرض تركيا؟ - قال له مازحاً: -أنظر إليك فأرى عينيك تسمرتا على الميناء.

- لا أتمنى حتى لأعدائي مثل هذا الحب.. - تنهد ونتغ، - لا أحد غيرُ الله يعرف ما عانيتُ هنا.

- كفى يا ونتغ، - نهره نرت بصوت حازم، - لا تدعُ نغوي القرم يسمعون منك مثل هذا الكلام. سيلقون بك في البحر كريشة. هل نسيت أننا حلفاء تركيا، منضون تحت جناحها! هيا إمض واعمل شيئاً. لا يرك رفاقي عاطلاً عن العمل!

- اطلب مني أن أحرث البحر فألبي. لن أنسى ما عشتُ معروفك... - انحال عليه بالثناء. وانطلق جاهزاً لأي طلب.

ما إن فتح عينيه في اليوم الثالث من الإبحار حتى هبّت العاصفة البحرية. وشرعت السفينة ترتجّ. والماء المالح يصدّمها كالجدار، ويصيب الناس فيخضّهم، ويلجئهم إلى الحبال. ولا يستطيع ونتغ الوقوف في وجهها، فيسقط، ويقوم من حلاوة الروح، ويتمسك بأي شيء يمكن أن يحميه. ويشكو مرتعباً: "نجا من الطاعون لتقتله الكوليرا! فرحتُ بنجاتي من الأسر فهل رमित بنفسي في المهلكة؟ يا إلهي إن بقي عندك ما تقدمه لي فارحني وأنقذني... اخترتُ خطورة المطر البحري مراراً. وسمعتُ ممن خبروه. ولكن لم أعرف أنه مدعاة لليأس كالآن..."

انقضت العاصفة فجأة بعد ساعات كما بدأت. وأشرق الشمس، غير أن الموج لم يهدأ طوال النهار. وفرح لما رأى ونتغ عودة الهدوء إلى البحر في الصباح:

- لا عجب في هذا، - أفهمه نرت. - غير المطر اتجاهه، يحدث مثل هذا في الصيف.

لما وصلوا إلى شاطئ القرم التفت ونتغ، وعبر سطح البحر الهادئ بنظرات متجهمة غير مطمئن له. ثم توجه إلى الجنوب، ودعا إلى الله: "أنا راض عنك يا إلهي العزيز لإنقاذك إياي. لم تغب عن قلبي غمضة عين. وآمل أن تحقق لي آمياني في المستقبل".

انشغل نرت بتفريغ حمولة السفينة فلم يرافقه ونتغ. وإن رافقه فلن يستطيع التوجه سريعاً إلى محباً كنزه. والآن سيتجه إليه. ولم يبق إلا القليل لينتقل من موقع العبودية إلى موقع الغنى.

قبل أن يصل ونتغ إلى دار مامي بقليل تعرف على الرجل الطويل الخارج منها، فناداه:

- سرباي، سرباي!

- أهذا أنت يا ونتغ! - لم أرك منذ زمن بعيد. أراك نحفت. وعلى رجلك على غير العادة.

- كنت مريضاً. نجوت من المرض بصعوبة. ولا أعرف ما جرى لحصاني. أصبح يعرج مثلي فبعته بنصف سعره. - كذب ونتغ على صاحبه إذ لا داعي لأن يعرف ما جرى له.

- حسنٌ إذ رأيتك، نلتقي ثانية. - انصرف سرباي.

استقبل مامي صديقه وسنده كما لا يستقبل أحياناً له. ونرت الذي أنقذه من الأسر والعبودية لم يُفصح لسرباي وغيره ممن التقى بهم عند الباب عما جرى، ولكنه لم يكتف عن مامي ما جرى لونتغ. ولو لم يقل الحقيقة لانكشف كذبه إذ تبين أن ونتغ وقع بيد قلقته الذي باعه للتجار الأتراك.

- أتكون رويت خبري لبعضهم؟! - سأل ونتغ مرتعباً.

- أتظنني مغفلاً إلى هذا الحد؟ - لم يرتح مامي لما سمع ولكنه ابتسم. - ما يجري لك من مكروه يرتدّ عليّ.

- أعرف أنك ذكي، ولكن، - ضحك ونتغ فاتحاً فمه العريض، - سأقع في موقف حرج إن تبين أنك كذبت على نرت وسرّباي.

- والآن ماذا تنوي؟ - جرّ مامي الحديث إلى ما يريد، - ما يزال ما خزنت لك من الذهب والفضة على حاله، وأضفت لك شيئاً أيضاً. أنتظر الصبية: إما نكر بنت زغاشت أو سورت بنت الأمير شبق. - من تتمكن منها لا فرق. وعلى ظني نكر أقرب منكناً إليك.

- وماذا تفعل بها يا رجل؟! - أشار وتغ بشفتيه ويديه، - أنا أفضل خادمك على الصبية الغضة. جميلة، حسنة الطباع، تعرف كل شيء، تحب.

- ها أنت قتلها بنفسك يا وتغ. مريم خادمتي، لا زوجتي. أنا أنتظر فتاة أديغة تصلح أن تكون زوجة جيدة، وأنت وعدتني...

انفتح الباب بلطف ودخلت مريم بالمائدة. امرأة جميلة بعينين مدورتين وأنف مفلطح، ووجنتين ممتلئتين. لم يتغير فيها شيء منذ رآها وتغ آخر مرة. وضعت المائدة أمامهما، - وحيّت الضيف بالحناءة وابتسامة. وسألت بلغة الأديغة عن صحته.

- شكراً يا مريم، - ردّ وتغ بابتسامة متفحصاً جسدها من الرأس إلى القدمين. - صرت تتكلمين لغتنا جيداً.

- ماذا تظن السبب وراء قول مُسنّينا: متى علّمت النغوي لغة الأديغة لم يترك لك مجالاً للكلام! ويحدث أن تصحح لي لغتي أيضاً. - ابتسم مامي بطريقة لا تعرف إن كان الحديث يعجبه أم لا.

حين بقي الرجلان وحدهما إلى المائدة مدّ مامي يده التي ظلت إلى الآن على فخذه إلى الخبز. فسأل وتغ مستغرباً:

- أين إصبعك الصغيرة يا رجل!؟

- والله تدخلت في ما ليس من شُعلي فقطعتها وأنا أنجرّ العمود. - أجاب كأنه غير مبالي. وأضاف بعدما انتهيا من الطعام: - استرح أنت، أما أنا فقد

أرسل عادل - جري ورائي، ولن أغيب طويلاً إن لم يكن هناك شاغلٌ خطير.
ثم نذهب إلى السوق، ونشتري حصاناً بسرجه، ولباساً وسلاحاً.
- حياك الله يا مامي! عندي نقود من فضل الله. - وبعد قليل أضاف متصنعاً
الخنجل: - ثم لم أضاجع امرأة بعد رحيلي من هنا... إلى المبغي الذي
اصطحبني إليه...

- ألهذا تفحصت خادمتي كأنك ستبتلعها؟ - ضحك ما مي بصخب، - لو
ألقيت مثل تلك النظرة على نساء تركيا حيث كنت لاقتلن عينيكم... لا
بأس، لا مشكلة في هذا.

فيما ونتغ مستلقٍ على السرير وقد خلع الحذاء الذي فقد لونه، اختفى وقع
حواضر مامي من الشارع، ودخلت مريم إلى الغرفة بصمت، فجلس ونتغ.

- لا تهض، أنت قطعت طريقاً طويلاً. - جلست مريم على حافة السرير، -
يا ونتغ أنا امرأة، ولست حرة في حالي. لا أخطو خطوة قبل أن أفكر في ما
سأقول وما سأفعل. يظنون أن من لا يتكلم لا يعرف شيئاً ولكني سمعتُ كلام
مامي، وأعرف ما في قلبه. يعتقد أنه سيموت إن لم يجد زوجة أديغة فأنت من
يأمل منه أن يجدها له. وأنا بم أتاخر عنهن يا ونتغ؟ هل أنا أبشع منهن. هل
أنا عاجزة عما يقلن أو يفعلن؟ هل أنا المذنبه إذا كنت سقطت في قصر الخان
من سوء حظي؟ لن يستطيع مامي بعد الآن أن يتآلف مع الأديغة الذين
يعيشون في صراع دائم. أرجوك ألا تلبي له طلبه، وأنت من يضع أمله فيك،
في هذا الشأن. لا أكتمك أي أحب مامي، وهو لا يكرهني.

- لنقم بالتالي إذن يا مريم، - تأمل فيها ونتغ مشفقاً عليها. - لن أحرم
صديقي من الأمل، وأنت لا تتواني عن التقرب إليه.

عادت المرأة إلى أعمالها لا يسعها الفرح، وونتغ راضٍ عنها.
عاد مامي قبل الظهر مرائياً باسماء. وجاءه مؤقتاً بحصان، فركبا معاً، وتفحصا ما
في السوق من خيل، ثم اختارا بالاتفاق حصاناً أديغياً جاهزاً.

- ماذا؛ ألا يعجبك؟ سأله مامي وهو يتفحص الحصان.
- لا بأس، ما من حصان تشتتته في السوق غيره. - أجاب بفتور، - لن
يكون مثل حصاني، ولكن سأجده يوماً ما.

- وأين تجده؟
- أعرف لمن أعطاه قلقت. سأسترجعه منه. كان كالإنسان لولا أنه لا يتكلم؛ يعرف ما في نفسي.
- كفى، ستقول لي إن حصانك كان إنساناً. - منح مامي وركب. - والآن سندور على المخازن.
- دعنا نمرّ على نرت أيضاً. - لم يطلب مني أجرة، ولكن أريد أن أشكره على اصطحابي من تركيا.
- بدأ مامي يدور حول الموضوع في أثناء جولتهم، وسرد له حكاية وفد الأمير شبق الذي سافر إلى روسيا، واتفاقهم مع القيصر في ورقة مكتوبة على تحوّلهم إلى عبيد له. ثم أفهمه ما يريد منه:
- وأنا خالطت الأديغة عندنا والأباطة والأبازخ. وأرسل عددًا من طرفنا إلى الأديغة بأمر الخان الكبير دولت - جري. علينا إفهام أبناء قومنا أننا لا نقبل بالاتفاق مع قيصر روسيا. ولن يظهر أحدٌ في إقليم الأديغة يقبل بهذا. خان القرم كفّ عن مهاجمة الأديغة. ويود أن يؤاخيهم. وبغضّ النظر عن أي شيء يا ونتغ ألسنا نحن والنغوي مسلمين؟ أليس إلهنا واحداً، ومعتقدنا؟.. قلقت هذا الذي أرسلك إلى تركيا من رأينا رغم سيئاته.
- وأنا لا أؤيدهم. قلّْتُ هذا في ساحة المؤتمر. وأنا مع قلقت في هذا. - قال ونتغ كأنه غير عابئ بالخبر.
- إياك أن تقف إلى جانب عدونا بهذه الحجّة! - قلق مامي، نحن سفكنا دمه من أجلك. وأنت تنطق اسمه بلامبالاة.
- وماذا فعلتم به؟
- من حسن حظّه أنه استدار في الوقت المناسب وإلا كان سرباي جرّ رأسه. أصاب كتفه فلازم الفراش أكثر من شهر.
- ليس من السهل إصابة قلقت إن لم تأت من الخلف. - نظر ونتغ في وجه صديقه غير مصدّق. - أنا لم أشارك في أعمال القتال، بل أعمل في اختطاف الصبيان والصبايا. وحدث أن قابلت بعضهم بحد السيف. ولكن لم ألتق بفارس

مثل قلقت. لا يفسح لك الوقت لتتنفس أو تتحرك. في خِفة القط حين يصيد الفأرة.

- صحيح أن الله أعطاه قوة مجنونة، ولكن لا تُسمِعي ثناءً عليه! سنجد من هو أقوى منه...

أقام ونتغ في بيت مامي ثلاثة أيام يقدم له فيها النساء وغيرهن. استغل خروج المضيف، ودخل المدينة. وفيما هو يتأمل الدكاكين التي يمتلكها حامز رأى داربه أخت قلقت في الدكانة المجاورة لبيت حامز. فابتعد دون أن يسمح لها أن تتعرفه.

عاد مامي وقال له وهما يتعشيان:

- استعدّ، سينتظركم الليلة الأمير تاخ. أرسل إلينا يطلب الإسراع في إرسالك إليه. أنا مشغول، سأرفق بك سرباي.

- من أبلغ الأمير تاخ بخبري قبل أن أعود...
لم يسمح المضيف لونتغ بإكمال كلامه:

- ما من خبر لا يشيع. يا صديقي، فكّر بالسلاح الذي ستحمّله معك!
دخل ونتغ وسرباي أرض الأديغة دون أي عوائق، واستقبلهما الحراس حالاً، وأوصلوهما إلى مضافة الأمير تاخ. نهض الأمير الطويل القامة المتمدّد على السرير خفيفاً، ورحب بهما ولاهما قليلاً:

- تأخرتما... لم يبق على الفجر إلا القليل. لن أطيل الكلام، ظهر في نواحينا شاب مشاكس اسمه قلقت، وهو، على تفاهته، يستعد لقتلي. أريدك أن تكتّم نفسك سريعاً.

- هذا يحتاج إلى مال يا أمير، - كان ونتغ جاهزاً للجواب.
مدّ الأمير يده إلى خلفه وأخرج كيس الذهب من تحت الفراش. وهزه في كفّه يُريه وزنه:

- هذا لا يقل عن دية رجل. ومن أرسلك لقتله ليس إلا ابن كلب...
حين سلكا طريق القرم عائدين تأمل ونتغ وجه سرباي العابس، ورتّب أهدافه هو في ذهنه، وقال بلهجة الناصح:

- تعبتَ معي يا سرباي، - مدّ يده إلى الكيس وأخرج حفنة دون عدّ، ومدّها إلى رفيقه، - ولكن لا أريد توريطك في هذه المهمة القذرة. يكفي الجرح الذي أوقعته بقلقت. والحق لو عرفت أنه سبب استدعائي لما جئتُ.

- وأنا لن أقترّب من هذا الشاب الجسيم، - قال سرباي بصوت ناعم يبرئ نفسه: - حين رأيْتُ مامي في مهلكة ارتقيت أمامه.

- هكذا؟ - انتفض ونتغ برأسه.

- أرجوك لا تخبره، - نظر سرباي مرتعباً في وجهه.

دخلا بخجسراي فترجل ونتغ على باب دار مامي محتفظاً بِنَيْتِه الخفية. أخبرته مريم أن صديقه في قصر الخان فالتهم بمزيد من السرور ما على المائدة، ونام قليلاً. ولما أفاق عرّج على التاجر حامز قبل أن يحلّ المساء.

- لماذا لا تهدأ يا ونتغ؟ التفت التاجر البدين القصير وهو يخفي قطعة الذهب التي يمسحها، - هل جئتني أيضاً بصبية لطيفة؟

- لا يا حامز، بل جئت لأشتري منك الفتاة داريه التي بعْتُها لك. أرجو أن تفهمني. أخو الصبية خبيث جداً. لن يدعني حياً، وأعيد إليك ما دفعت لي.

- هذا ليس كلاماً يا ونتغ، - غمزه التاجر مشيراً بيده. - ألم أُطعم الصبية وأكسُها، وأويها!

- وهذا صحيح؛ كم تطلب إذن؟

- ضعفي ما دفعتُ.

- موافق، تريد ذهباً أم فضة؟

- أنا أعطيتك ذهباً...

أتوا بالصبية إلى الغرفة فارتمت مرتعبة في حضن المرأة التي بجانبها. وألقت نظرة سُخْطٍ على ونتغ، وأخفت وجهها في جسد المرأة.

- لا أنوي بك شراً يا داريه، قررتُ أن أعيدك إلى أخيك الكبير، - قال ونتغ بنبرة ملاطفة، وخطا خطوة نحوها فصاحت الصبية:

- ابتعدْ، لا أريد أن أراك!

- لا تقولي هذا؛ الله شاهدي على أي لا أنوي لك إلا الخير. - نصحتها وتنع من مكانه، وتدخّل التاجر، فطوعها بصعوبة بلغته الأديغية وما تعلمته هي من لغة النغوي...

...

جاء بخبر سيء لقلقت فيما هو خارج من البستان: وتنع الأعرج عاد، جاء ليلاً من القرم إلى الأمير تاخ ومعه رفيق. خاطب قلقت نفسه وقد امتزج ضحكُه بغضبه: "هذا الكلب الأعرج لو ألقيته في البحر لنجا. هذا لن يسرق من النغوي، سيعود عاجلاً أم آجلاً إلى نواحيننا. وحينها لي سلوك آخر معه..."

فهم قلقت أنه لن يعثر على وتنع ولو عاد إلى جغن. بحث في القرى المجاورة لها، ثم عاد إلى أعمال المنزل. لم يكن قلقت من نوع المسافرين الدائمين الذين يعتاشون على ما يسلبونه في الطرقات. كان يحرق بستانه، ويعمل فيه، ويزرع الدخن للحصان، والحبوب له في حقله.

حشّ قلقت في إحدى الأمسيات ما سيعلف به حصانه. وحالما جلس إلى المائدة سمع وقع حوافر خيل على الباب فاستنفر حواسه. وما إن خرج من البيت متوقفاً قدوم أحد أصدقائه حتى هُرعت إليه داريه وارتمت عليه وشرعت تبكي:

- أيّ إله جاءني بك يا أختي!- انفعل قلقت واغرقت عيناه بالدموع، - أي فرحة أرسلها إلي الله! ما أوسع رحمتك يا إلهي. - ولما نظر وهو يمسح براحتيه على رأس أخته رأى وتنع، فأبعد أخته وخرج إلى باب الدار. ولحقت به داريه: - أرجوك يا قلقت ألا تؤذيه ؛ أعادني بطريقة لائقة خلافاً لما اختطفني بها. - تفضّل يا وتنع إذن، ما كان ليخطر لي أن تتحلى يوماً بهذه الإنسانية. - فتح له الباب، وأشار إليه عابساً، - الأديغي يدعو قاتل أبيه إلى الدخول إن أتاه، ويُضيفه.

تدافع الجيران وأهل الحي إلى بيت قلقت مع دخول وتنع دون اعتراض. لم يبق رجل أو امرأة سمع بالخبر السار لم يحضر حتى ضاق بهم البيت. يعانقون داريه،

ويتفحصون ملابسها الأنيقة. ولا يقبل المسنون والشباب إلا أن يضافحوها. يهنتون قلقته، ويتظاهرون بعدم رؤية وتنع الجالس يتصب عرقاً. نخض وتنع حين هدأ أهل الحي وفرغ البيت، وقال للمضيف وهو يمد إليه كيس الذهب:

- سامحي يا قلقته؛ ألمئك كثيراً. وأنت سببت لي المتاعب. ولكن ما كنت لأعود إلى رشدي فأفعل ما فعلت اليوم لولا تجربة الأسر هذه. يسرني أن تقبل مني هذا المبلغ كفارة عما فعلت.

- لا يا وتنع، لن آخذ منك شيئاً. هذا الكيس يحمل دم إنسان بريء.
- تُخطئ يا قلقته، - أجب وتنع وضحكة خفيفة على شفثيه. - هذه دية دمك لا غير.

- لا يزال دمي في جسدي. - استغرب قلقته ما سمع.
- ما حدده الأمير تاخ دية لك هو ما في هذا الكيس. - اكتشف قلقته مغزى الخبر ولكنه رفض الكيس.

V

الإبرة تحرك في غير المكان الذي تتوقعه ولو ضاعت منك في كومة قش. هذا ما جرى لشبق تماماً: كانت نتيجة زيارته لروسيا غير ما توقَّعها. انقسم إقليم الجان قسمين وثلاثة وأربعة. النبلاء من جهة، وانضم إليهم الخدم - العبيد الذين لم يفتحوا أفواههم طوال عمرهم. ومن يبدو أنهم على وفاق انقسموا قسمين أو ثلاثة ؛ وليس الموضوع أنهم كانوا يعادون الأمير شبق على اتجاهه إلى روسيا، وليس الأمر أن أكثرهم لا يفهمون ذهاب الوفد بمقررات المؤتمر الذي عقدوه بناء على مشاوراتهم، ولا أنهم لا يفهمون الخبر الذي عاد به الوفد، ولكن كما يقال: خصومك يتدعون لك التهم دون أن تدري، كان كلُّ يفسر ويغير إذ ظل الكلام يجر كلاماً. ومن هذه الجهة كان أنصار القرم لا يهدؤون. ولم يكن الخان دولت - جري الذي لم تفلح مساعيه في تركيا يألو جهداً في ما يستطيع وما لا يستطيع. وكان قد أرسل الكثير من عملائه الخفين عبر البحر. وله في كل قرية مواضع ثقته، إن كانوا أمراء أم نبلاء أم متنفذين أم

عبيداً. وكانت الورقة التي حصل عليها الوفد إلى روسيا مقابل أميرين دون أن يعرفوا محتواها، موضع سخريتهم. وكُتِّق الأمير الذي لا يزال حليب أمه يسيل على شِدْقِيهِ هو من لا يفارق ألسنة من يشفقون عليه ومن لا يُشفقون. ويتناسون أمير الأباطرة، ومتى جاء أحدهم على ذكره أجابوه بأنه بلغ سن الرشد ومبلغ الرجال فهو حرٌّ في ما يقول وما يفعل.

الكلام المتسرب عبر النافذة المفتوحة أجبر الأمير شبق على النهوض عن مائدة إفطاره. ولما ابتعد عن أرض الغرفة سمع حديث خديم الدار:

- يحزنني يا بُجَمَت ما حدث للأمير الشاب كُتِّق. إن كان محظوظاً ظل في رعاية أمير الأباطرة يقيه من الإهانات التي لا يستحقها.

- ما لا أفهمه يا حاتاي هو هل سيعاملون كعبيد مثلنا؟

- هذا ما لا أعرفه! أقول لك الأمر الوحيد الذي أعرفه هو ما رواه الحرس المرافقون للأمير وهو أن حياة الروس تختلف عن حياتنا. ولغتهم غير لغتنا.

- أما أنا فكنت أظن لغتنا ولغة الروس واحدة كما لغة الترك والنجوي. كيف سيستطيع أميرنا الشاب إذن أن يتألف معهم؟ سيكون بينهم كالأخرس.

- لا أعرف، لا أعرف... لماذا قطع أميرنا كل هذه المسافة إليهم بصفتهم أهلاً وأقرباء؟ ألم يكن الأفضل لو توجه نحو تركيا؟ هم على مسافة يوم وليلة منا وإن كان بيننا بحر، وديننا واحد. ولغتهم إن كانت مثل لغة النجوي فهي أسهل علينا.

- يا من بارك الله فيك، أليس هؤلاء الترك والنجوي هم من ينگدون علينا حياتنا؟! ثم هل يعجبك دينهم وتقبله؟ ما فائدة أن تنادي من لا تراه "الله أكبر" مسكاً طرقي أذنك، أو راکعاً على ركبتك أو ساجداً؟ أليس الأفضل من هذا أن تقف أمام صورة الإله وترسم علامة الصليب له؟ وتنحني له مكلماً إياه بلغتك؟ فهم أميرنا أننا سنفنى على يد الترك والنجوي، وأنهم سيفرضون دينهم علينا بالقوة فتوجه إلى الروس.

- سأقول لك إذن رأيي الشخصي في الموضوع يا حاتاي. سترى عاجلاً أم آجلاً، وقد لا يشهد جيلنا هذا، إن لم يفن الأديغة بين تركيا وروسيا. أنا لا أوافق أحداً في هذا.

- لا، أكيد توافق.

- من؟

- قلقت.

- نعم، حقاً، لا جدال في هذا. أوافق، - ارتفع صوت حاتاي الشاب، - إن طلب مني مرافقته سافرت معه ولو راجلاً.

- لن تبقى دون حصان يا حاتاي... - ابتسم بجمت موعزاً أن العبد الشاب يمكنه الحصول على حصان إن أراد.

ابتعد شبق عن النافذة لائماً نفسه على إنصاته للعبيد على غير عادته، ولم يعد إلى المائدة بل جلس على مقعد بعيد كي لا يسمع حديثهم. خطر له أن يغلق النافذة ولكنه خاف أن يلاحظوا حركته فتناسى خاطرته، وقال لنفسه: "الله يفعل بك، والناس يعيرونك به". ربما كان وراء هذا القول شبيهة بما جرى لي. ما العمل؟ لو كنت ألاحق موضوعاً شخصياً لتحملت كل ما يقال عني. كنت سأقول: أشتموني وعيروني وانعتوني بابن الكلب، المهم أن أبقى حياً وفي صحي كما كان أحد رجال قريتنا يقول. كنت عشت حياتي أستمتع بها. ما ألاحقه وأصدع به رأسي موضوعٌ أديغي، موضوعكم أيها البؤساء. ومن أجلكم اقتلعت ابني من لحمي. الحقيقة أن الترك والنعوي ليسوا أعدائي. والروس الذين تصفونهم بأنهم بعيدون جداً عنا كيف أكرههم؟ لا أريد إلا أن يتركونا نعيش في أمان دون أن يهاجمونا وينهبونا. ما كانت حاجتنا إليهم لو استطعنا أن نرتب بيتنا الأديغي؟ ولكننا نود أن نتعلم منهم ترتيب أمورهم لأنهم مقياس نتعلم منه. وإن كنتم تظنون أننا اعتنقنا بإرادتنا الإسلام أو المسيحية اللذين تتحدثون عنهما فأنتم مخطئون. من جهتي أفضل آلهتنا المتعدين، ولكن العالم يتطور خلافاً لما نزن. يعتقد فيه كل ما يتقبله، وي طرح ما لا يتقبله. هذا مبدأ سهل بالنسبة إلينا وإلى أجدادنا. وأنا تأكدت من الشاب الذي ترون أنه سيدوب بين الروس، أعجبه رنين أجراسهم وطعامهم ولغتهم من قبل أن يخالطهم. ولماذا نذهب بعيداً: الأديغة الذين يقعون بين الترك والنعوي لا يضيعون بينهم... وها هو مامي مثلاً: أنتم تقولون إن القدم لا تستقر في الأرض الغريبة. أيكما قال هذا؟ هو حاتاي لا بجمت. إياك أن تقع تحت رحمة لسانه. كنت أريد بيعه

صبياً كما اشتريته، ولكنه صار رجلاً دون أن ندري ونحن غارقون في قضايا الأديغة التي لا تنتهي. وإن فعلت به هذا لما نجوت منه... - كرر شبق الكلمات التي استقرت في الصميم: "القدم لا تستقر في الأرض الغريبة". - أنتم أيضاً غرباء، لستم من القرية، ولكنكم مستقرون بيننا... ثم سأل شبق نفسه في موضوع الشك الذي كان يراوده: "هل استقروا بيننا؟...". ثم صرخ من الغرفة بصوتٍ خالٍ من الود مُشعراً إياهما بأنه استمع إليهما:

- هيا، أنتما من أخاطبهما، ارفعا المائدة!

توجّس الداخلان إلى الغرفة شراً من طريقة تمشّي شبق على أرض الغرفة. ولكنهما حملا المائدة كاتمين شعورهما. ولحظة وصولهما إلى الباب ناداهما شبق:

- من منكما قال: "القدم لا تستقر في الأرض الغريبة"؟

- أنا يا أمير. - نظر حاتاي مرتاباً إلى الأمير.

- لم أخطئ إذن.

- أسحب كلامي يا أمير إن كان خطأ، - وأضاف حالاً: - المثل ينطبق عليّ فقلتُ ما في نفسي.

- حسنٌ أنك تعرف أنك لست من القرية، - ابتسم شبق، ولم يقل ما قال عن حقد. - ولكنك لست غريباً في نظر أسرنا ونظر أهل القرية. كبرت في هذه الدار، واشتغلت، ولم يبق لك لتجمع ثمن حريتك إلا أقلُّ من عام. ولكني لا أقارنك ببجمت. أصبح واحداً منا بالمصاهرة فنعمل معاً. أنت موضوعك مختلف. أنت عازب، وعشت معنا بصعوبة، موعداك مع حريتك متى قررت، لا أقول اليوم ولا غداً. من يعرف إن عدت إلى قومك الحاتيقواي¹ عثرت على أسرتك. ولكن لا تطلب من أحد أن يهبك حصاناً بسرجه. أنت كسبته منذ زمن بعيد. هيا ارتح الآن، وسنكمل حديثنا لاحقاً.

- حياك الله يا أمير. - سأفكر في ما قلت لي، وأستشير نفسي. ولستُ محروماً من الأصدقاء. ولكننا نوافقك في معظم موافقك الأديغة. يقال إن قائمة البقرة

¹ ابن الحات، يُعتقد أنهم أخلاف الحاتيين كما تدلّ ترجمة جزأي الكلمة: حات - يق.

لا تقتل عجباً، فلا ندينك بشأن الأمير كتناق. جماعة الأمير تآخ وجدوا ما يلوكون فيه فهم يجرون غصناً آخر.

قال شبق في إثر حاتاي الخارج من الغرفة: "عبدي حاتاي سليل فلاحين ولكنه بالقياس إلى بجمت الساذج شابٌ ذكي. يصل عقله إلى أمور كثيرة. تخطر له أمورٌ كثيرة نحن في غنى عنها، وعثراتٌ لا تخطر لنا. يفوق بمظهره وتركيبه وطريقة كلامه كثيراً من أولاد الأمراء... - هاجمته فجأة الفكرة التي كان يتحاشاها منذ العام الماضي: - لا أعرف لماذا تحتفظ بمثل هذا الشاب خادماً في دارك... والصيبة مينسورا من جهتها تكبر عاماً بعد عام ويسأل عنها الكثير من الأمراء ممن عندهم أولاد في سن الزواج. يرسلون وراءها عربات الركاب ولو أننا لا نسمح لها إلى الآن بالمشاركة في حفلات الرقص. ماذا إن حدث شيء في دار الإمارة لا ننتظره، ونحن ندعي أن لا فتاة عندنا في سن الزواج، على مبدأ: "قريب من العين قريب من القلب"... الحبُّ نار متى اشتعلت يصعب إطفائها. لا، لا، يجب أن تخرج من داري بعلمنا... ولماذا أقول هذا؟ في الوقت الذي يُخيفنا فيه الأمير تآخ بأن يحوّل "دُمَلتنا" إلى "قيح" نسمح للفلاح - العبد في دارنا أن يسترجل قائلاً: "سأفكر في ما قلت لي، وأستشير نفسي. ولسْتُ محروماً من الأصدقاء".

طلب شبق تجهيز حصانه لا يستطيع البقاء في البيت ولا في الدار. وطلب من أول حارس صادفه، ومن الفلاح بجمت، ومن الخادم حاتاي اللحاق به، فتبعه الثلاثة. جرى الأمير بحصانه بعض الوقت على شاطئ البحر لا يلتفت إلى من وراءه. ثم رأى الفرسان السبعة على قمة المرتفع فلجم حصانه. وقف الحارس على يساره، وسبقه الآخرون..

- انتظروا، - نادى شبق الفارسين أمامه، أظنهم جماعة أفمقوه. ركبوا أمس ورجعوا بسرعة. كان موعدنا بعد أسبوع؛ لا أظنهم يأتون بخير سعيد. همّ الفرسان العائدون بالترجل أمام الأمير الكبير فأشار إليهم شبق أن يبقوا على خيلهم. وطلب من رفاقه التريث في تحية الأمير الأصغر، وقال لمن أمامه: - أريد أن أهنئكم بسلامة العودة فأراكم لم تأتوا بخير سارّ. أسمعك يا أفمقوه.

- أرسل الأمير تاخ فرسانه لملاقاتنا متخلّين عن أديغيتهم وإنسانيتهم، فلم يسمحوا لنا بالدخول إلى قراهم، بل لم يسمحوا لنا بالاقتراب منها. -
حاصرونا دون قتال فبقينا مستنفرين يوماً وليلة على صهوات الخيل. وفي عودتنا عرفنا من الراعي أن مامي ضيفٌ عنده. وفرسان النغوي في القرى.

- وهل كان من حاصروكم كثيرين؟

- أكثر من عشرين فارساً.

- أحسنتم صنعاً إذ لم تمشقوا سيوفكم غير أن الأمير تاخ قد يستفزنا إلى هذا.
- وأضاف بعد قليل كأنه يحدث نفسه: - يبدو أنهم يسلبوني منصب الأمير الكبير. ولكن هذا مستحيل. صاح شبق غاضباً، - كبير الأمراء ينتخبه الأمراء ولا يَنتزع المنصب منه تحالفُ أميرين أو ثلاثة. عودوا إلى البيت، ونحن سنعرّج على قرية ترام ؛ لم أتحادث مع لأماف منذ زمن طويل.

عرف الأمير شبق، عندما انصرف الفرسان فحسبُ، أنه على المرتفع الذي عقد فيه الجان مؤتمرهم. كان هذا المكان سعداً على شبق منذ العام الماضي ؛ يفتتح أي قضية للجان في هذا المكان، أو يأمرهم بالشرع فيه. ومنذ عدة سنوات وهو يُنتخب كبيراً للأمراء دون منافسة، ولم يُحبطوا أمراً قرره. وكان يحدث أن يتجادلوا إن لم تتفق آراؤهم، ويشهروا السيوف، غير أن الخلافات كانت تتوقف حين يقف بين المتعارضين فيوقف بينهم. واتفقوا على رحلة روسيا في هذا المكان. ولم تحدث بينهم فتنة إلا حين جرّ قلقت غريمه ونتغ من الساحة. وهذا الخلاف ارتفع حينها كاللهب وانطفأ... كان شبق يعرف ما يجري في الجان، غير أنه سأل نفسه كمن لا يعرف شيئاً: "والآن ماذا يجري؟" - أُلستم من طلب مني الذهاب؟ ولما ذهبْتُ رفضتم ما فعلت لأجلكم. ولا تتقبلون تركي أحد شقيّ هناك... مهلاً، مهلاً، ليس أمراء الجان وحدهم من أوفدوني إلى روسيا. كانوا حشداً من الأمراء والنبلاء والمتنفذين والفلاحين. ومجموعة الأمير تاخ هي التي لم تحضر المؤتمر..."

ترك الأمير شبق وراءه مرتفع المؤتمر والمضيق والغابات الكثيفة وهو يقلّب الأفكار، يدخل إليها ويخرج منها. ولا يمرّ عليه وقتٌ يغيب فيه ابنه كتاق عن البال مهما كان غارقاً في أثقل الأفكار، ومهما أوصله إليه قلقه. وما لم يكن

يفهمه حين تأتية مثل تلك الحالة هو رنين الأجراس الذي يقرع في أذنيه بطيئاً، ثم تهديد الرجل السكران ذي المعطف المفتوح الأزرار، أكثر من لقائهم بالقيصر. ثم ينتصب في مخيلته صرغهم إياه بصدر الحصان. وتعقب كنتاج لهم بنظراته؟.. يتنفس بصعوبة حين يتمثل لعينه المنظر كمن انثبث من الماء. ثم يهدئ نفسه رغم ذلك قائلاً: "إذا كان الأمير الشاب بقي عندهم برغبته فما ذنبي أنا؟" ولكن أسئلة العتب التالية تصرعه ثانية: - من الذي أوعز له بالسفر؟ ومن أغراه به؟ وماذا كنت تريد أن يفعل حيث لا عمل له؟ أتستحق ما جرى لك أم لا؟.. ألم تعثر من عنادك بالحجر الذي رميته أمامك؟.."

انحدر الفرسان من المرتفع غير العالي ودخلوا السهل الضيق الواقع بين النهر والجبل الملتف. كان حصان شبق بدأ يسرع وقد أحسّ راكبه أن هناك قرية قريبة. ثم بدأ بالخبب السريع. لم يكن مهتماً بحلول وقت صلاة الظهر أو انقضائه. ولكنه يشعر بالقلق حين ينظر أحياناً نحو النهر الذي يمكن أن يتوضاً فيه حراسه الثلاثة.

ما في عيني الأمير شبق وما في أذنيه في هذه اللحظة شيء آخر: مساء اليوم الأول الذي وصل فيه إلى موسكو لا يعرفون تفسيراً لأصوات الأجراس المتجاوبة في سماء المدينة. وحين يقال للضيوف الأديغة الذين كانوا أمس أو أول من أمس في الدين نفسه إن موعد توجه المسيحيين الروس إلى كنائسهم حان، فهم يرددون مع أفمقوه الواقف على الكرسي يؤذن للدين الجديد الذي لم يتقبلوه بعد بقلوبهم، بدلاً من أن يتذكروا ماضيهم القريب. يسأل شبق نفسه: "لماذا تقبلوا هذا الدين بهذه السرعة؟" ويبحث عن الجواب الذي لم يكن يخطر له إلى الآن: أهو وجودنا في مدينة لا نعرف أناسها إلى الآن أم لنبرز أننا عرق آخر؟ أعيد التفكير فأجد أنّ من خالطناهم أناسٌ مثلنا وإن تكلموا لغة أخرى أو ارتدوا زياً آخر. لنا عيون كما عندنا وأنوف. نتكلم ونضحك كما يتكلمون ويضحكون. وطعامنا متشابه وإن اختلف قليلاً. وينطبق الحكم نفسه على الترك والنجوي والأقوام الأخرى التي تعرفت عليها... أيكون الدين؟ أيجمعنا أم يفرقنا؟ لا شك أنه يضمننا إليه من أعراق مختلفة... ولكن لماذا يتبادل أتباع الدين الواحد نظرات الكراهية؟ ولماذا يتحاربون كثيراً؟.."

ألقى الأمير نظرة على حراسه وهم يلتفون حول النهر. وخاطبهم خائفاً من أنه يتجنى عليهم:

- حان وقت الصلاة إن كنتم تريدون التوضأ.

- كما تريد يا أمير - قال الحارس الأسنّ بنيرة لا تعرف إن كان يتقبلها بقلبه أم لا. وحسم الأمر: - الحق أن الدين الذي حمله إلينا الترك والنعوي لا أتقبله شخصياً.

- لا أعرف سبب كلامك وأنت من يحمل اسماً جميلاً من أسماء النعوي أيدار؟ لم يكن الأمير شيق يسمع لأول مرة كلام الحارس فابتسم بلا مبالاة. وسأل من على يساره: - وأنت يا بجمت؟

- والله أنا لا أستطيع كما فعل أيدار أن أقصّ الغصن الذي أجلسوني عليه. سأتصرف على رأي الأكثرية.

- وأنت يا حاتاي؟ - سأله الأمير دون أن يلتفت إليه، - أود أن أعرف ما في قلبك أيضاً.

- أنا قلبي مفتوح يا أمير. كما يقول قلقت: أنا مع ما يتقبله أكثر الأديغة.

- على ما يبدو، وعلى رأي شيوخنا، سنقوّ صلاتنا لأننا على سفر. الإنسان قد يحدث له ما يمنعه من الصلاة فما العمل؟ وهذا سيغفره لنا آلهتنا. ولن يحاسبونا على ذنوبنا. ها هي قرية ترام قد ظهرت. خرج شيق بصعوبة من الوضع المعقد الذي شبك فيه نفسه بنفسه.

حين اقتربوا من حدود قرية ترام وكلّ فارس غارق في أفكاره المتنافرة، قال أيدار:

- سامحني يا أمير إن كنت أقطع أفكارك. تذكرت ما يحدث لي أحياناً من وراء اسمي النعوي. حين أقع بين الترك والنعوي دون أن يعرفوا أنني أديغي ينظرون إليّ بعين الرضا، ويسألون عن اسم أسرتي. وحين أقول: أنا أديغي، أسقط من عيونهم كأوراق شجرة خريفية.

- ألا تقول لهم أيها البائس: أصلي من النعوي ولكن الأديغة أنسوني لغتي فنكبوني.

أجاب أيدار وقد فهم أصل الموضوع رغم أن الأمير كان يمزح معه:

- لن أقول أبداً: لست أدنياً وأنا أدنياً. - تفكر في ما قاله متسرعاً، وأقبل الموضوع: ليس كل النغوي سيئين.

- ساجني يا أمير، - استأذن حاتاي نافداً صبره: - أتكون يا أيدار تود أن تغير اسمك إلى اسم أدنيا؟

- وهذا له ما يسوغه، - قال أيدار دون أن يلتفت، - ويحدث أن يحتقري الأدنيا متى سمعوا اسمي. ولكن لماذا يحمل مامي ابن قرية ترام اسمه في القرم وأغير أنا اسمي بين الجان؟ - ضحك أيدار مما قاله. وافقه رفاقه والأمير معهم. المضيف الأدنيا باب مضافته مفتوح دائماً وطعامه جاهز. وفيما الأمير ولأماف مشغولان بالمصافحة والعناق وصلت إلى المضافة المائدة عليها اللحم المقلي والباستا والبرك الساخن واللبن الرائب. وحين دخلت مائدة أخرى عليها جرة الباخسمة وقدهان أعادها شبق بإذن من المضيف. كان شبق يأكل من لحم ضلع الخروف المشوي مع الباستا باستمتاع. وأحياناً يرشف من قرح اللبن الرائب. ولأماف يحاول ألا يكثر من اللحم ويكتفي باللبن، ربما بسبب تقدمه في السن.

كان شبق التقى بالمضيف حين عاد من روسيا، وتطرقوا رغم ذلك إلى موضوعات كثيرة. وأعادوا القول في موضوع روسيا. ودخلوا القرم، ولم يتناسوا تركيا، وداروا في القبرتاي. وتكلموا على الأمير أبشقه، وعلى الأمير تيمرقوه الذي معلوماًهما عنه أقل. وكان ما يتجنبانه وكل ينتظر الآخر كي يفتح الموضوع هو موضوع الجان. ولم يكن أحدهما ينتظر الآخر كي يبدأ خبثاً بل يعتبر الاثنان موضوع الأدنيا أهم على مبدأ: لا يحل مشكلات بيته ويريد حل مشكلات الآخرين. ولكن شبق وصل فجأة إلى الجان:

- ربما يتجنبني جارك ظاظي بسبب ابنه مامي يا لأماف، لم يظهر اليوم.

- ما قلته دفع جاري إلى السفر.

- هل تقصد أنه على طريق القرم أيضاً؟

- لا، في العام الماضي دفعته العجوز إلى طريق القرم، ولكنه رجع لأن الطريق طويل وخطير. ما يقصده الآن أقرب. وأرفقته بزغاشت. سمع أن ابنه في ضيافة

الأمير تاح فسافر معتبراً أن ابنه يهينه أمام الأديغة. ولكن لا أظنه قادراً على ثنيه عن عزمه.

- الولد الذي لم يرأف طوال هذه السنين بحال والديه لن يرده شيء. هو واحد من أشرار الجان. يريق دم الأديغة، ويجعل سادته يهبوننا. لا تسمع عنه إلا أخبار الشر.

- ليت جاري لم يرتكب مأساة في شأن ابنه لن ينجو منها طوال عمره... - تنهد لأماف من الخبر الذي نشأ بينهما، واختتم.

وبعدما جلسا مدة صامتتين، طرح شبق بنبرة عتاب الخبر الذي سمعه في العام الماضي والذي تذكّره الآن:

- الأمير أبشقهو نفسه الذي عرّج عليه قبل أعوام فحرضه وأرسله إلى القرم لجلب المال لن يستطيع ما تكلمت عليه. هذا يحتاج إلى رجولة عظيمة.

- لا أحد يعرف جاري يا أمير كما أعرفه. المسكين ظاظمي عالق بين عجوزه وابنه. ظاظمي الأمس ليس مثل ظاظمي اليوم. لا أعرف، نصحته، وأكّدت على ابني.

- هيه يا لأماف، يا لأماف! - زفر شبق عميقاً. - الولد نار هائلة. لو لم يحدث معي لما صدّقت أحداً. وبعد كل هذا يسمح الأمير تاح وجماعته لخان النغوي أن يخذعهم، فيقررون عقد مؤتمر الأمراء وانتزاع إمرة الأمراء مني. أشاعوا بين الفلاحين أنني بادلت القيصر بورقته بابني. كل يغتابني كما يُخَيَّل إليه. يقولون: أين الذين أمْلوك؟ لم يظهروا منذ أكثر من نصف عام.

- من يقولون أمثال هذا الكلام يا أمير، - رفع لأماف رأسه الثقيل بسرعة كما يفعل حين يسمع ما لا يعجبه، - هل نحن مدينون لقيصر روسيا؟ يعيش الأديغي حياته وهو يماحك ولا يعرف فيهم يماحك. ألا يفهم الفلاحون، دُعك من الأمراء والنبلاء والمتنفذين، ولا أريد أن أذكرهم، سبب إحجام النغوي عن مهاجمتنا في نصف العام الماضي؟ كما يرمون للكلب عظمة يرمون لهم ما لا يستطيعون هضمه فيأكل بعضهم بعضاً. إن لم نراجع أنفسنا، ونتعاطف، صالحنّا مع طالحنّا، ويحم بعضنا بعضاً، فالخوف من أن ندوب في الأقوام الكبيرة، ونفنى عندها. الحقيقة يا أمير أنه لم يعجبني وقوف القيصر الذي

قصدهم إلى جانبنا بركة رأس. ولكننا اليوم بلا أمل وفي مأزق. ماذا كان مسنوناً يقولون: المضطر لا يعرف مرارة لسانه. أنت جزعيت لحماية قومك فلا تندم على ما فعلت. لو كنا نعرف أيّ من طريقي العصا يتجه إلى الخير وأيّ إلى الشر كنا بترنا الشر وأبقينا لأنفسنا على الخير. ولكن الحياة ليست مرغبة من الخير الخالص أو الشر الخالص. نفرح لمن يولد، ونبكي على من يموت...

- صحيح، صحيح يا زعيم الخير، - يهز شبق رأسه، يأتي بعد الربيع الصيف والخريف والشتاء. ويحين موعد الثلج. ويذوب. ويهطل المطر جالباً لنا الخصب. - نعم يا أمير، ويأتينا بعد القلق الاطمئنان. لا تقلق لإمارة تاخ. في هذه البلاد يعيش غيرُ أمراء الجان، النبلاء والمتنفذون والفلاحون. وهؤلاء من أوحوا إليك بالتوجه إلى روسيا وليست جماعة الأمير تاخ. وعند الضرورة هم من سيرفعونك ومن سيهون بك. وكنث نصحتك بعقد مؤتمر للجانب فور عودتك لولا انشغال الناس بأعمال الربيع فتخبرهم وجهاً لوجه بما جئت به بدلاً من أن يصلهم قولاً عن قیل. ولكن قضايا البلاد لا تميز مبكراً عن متأخر؛ دعنا نقرر عقده في الشهر الأول من الصيف القادم. ونحن جاهزون متى أخبرتنا. سنتفق معك باسم قرية ترام، ونطوّع الناس. ومن لن يطيعنا سيجد ما يقول وما يفعل ولو حشوت فمه تراباً أو ذهباً. لا أرى في الجان إلى الآن ما يدعو إلى اليأس. ماذا ترك لنا أجدادنا بخصوص القلب المتعثر؟ مزح العجوز مع ضيفه.

- متى فقد القلب الأمل كفّ الحصان عن الجري. - كان جواب شبق حاضراً كمن ينتظر السؤال. ومازح المضيف طلق الوجه، ممتلئ القلب أملاً: - يقولون: متى أكل الضيف نظر إلى الباب. ولذا سنركب نحن أيضاً طريقنا. استمتعنا بالجلسة، وتحديثنا يا زعيم الخير. روحت عن قلبي. وملاّني اعتداداً. لم تكن زيارتي المفاجئة عبثاً. لن يحف جذر الأدبغة بوجود المسنين الحكماء من أمثالك.

VI

الأمير تاح عالي القامة، أحذب، ذو عنق طويل نحيف، ورأس رقيق ضيق، ووجه حسود. تكتشف من النظرة الأولى أن قلبه مفعم بالشر. والعينان السوداوان الضيقتان ساخرتان، لا يخرج منهما إلا ماء الظلام.

يعرف ما وراء قولهم "لن تكبر وإن ارتقيت الجبل" ولكنه يؤمن في قلبه به، ويطبقه متعالياً على أقرانه، غير قادرٍ على إبراز شخصه. وهو يعرف ما لا يعرف، ومعارفه القليلة تنمو. ويحلّ حيث لم يكن. ويبلغه ما لم يسمعه. والفرسان الذين لم يصلوا إليه يدخلون باب داره. الجميع يقصدونه، وباختصار يشبه من يقال فيه: يحيي الميت.

أنفق الأمير تاح نصف سنواته الستين في محاولة بلوغ منصب كبير أمراء الجان. ولم ييخل بالمال والقوة والخبث والتوسل. كان يدنو من الجبل المغربي، وحالُه: إن نظر إلى الأعلى سقطت عن رأسه قبعته، ومتى فارقه ليرى قمته لم تسهل العودة إليه. ولم يكن يجهل أنك لا يجوز أن تختبئ في زاوية وتراقب منها إن طمحت إلى منصب كبير الأمراء. ولكن حين لم يوافقه من كان يختبرهم في مضافته وغيرها على نحو موارد فهم أن مشروعه أخفق، فلجأ إلى الصراحة والسيف. ولم يكن مهتماً بأن يكون الأمير الكبير الذي يتكلم عليه صاحب إنجازات أم لا. ومع أن المستمعين كانوا يفهمون أنه ينقّس عن ضيقه حين يتكلم مازجاً العيب بالدناءة فلم يكن قليلاً بينهم من يفرحون في سرهم خافضين رؤوسهم، كاتمين ما في نفوسهم. وكان بين مندوبي مؤتمر الأمراء من يحمون أنفسهم قائلين: "لن يفهمك من يوزع كل هذه النصائح دون اعتبار لكبير أو صغير مهما نصحته أو لُمته. نخشى أن يعيّرنا بما ليس فينا"

والأمير شبق الذي تكرر انتخابه في السنوات الأخيرة غريم الأمير تاح، ولا يتردد في انتقاده. وليس الأمير شبق عاجزاً عن الرد عليه، ولكنه يكظم نفسه على مبدأ: متى دخلت بين الأشواك علقت بك. لم يعد كلام الأمير تاح في كل انتخاب "الأمير شبق كالدب الذي قطعوا أذنه حتى استطاعوا جرّه إلى العسل، فلما دنا منه اقتلعوها من جذرها حتى يبعده عنه" يدعو إلى الضحك. وبتعبير آخر: ما ينقضي موسمهم يفقد حلاوته.

غرفة الإمارة واسعة، غير أن ما فيها من هواء لا يكفي الأمير تاخ. يقوم ويقعد. يذرع أرض الغرفة مخني الظهر. والمرض الذي ولد معه، ويحمله معه غالباً سراً يسبب له السعال. يتنفس بصعوبة. اعتاد على البلغم غير أن الدم الذي يأتي معه أحياناً يدعو لليأس. وبدلاً من أن يدعوه المرض إلى الرقة فهو يحسد كل من يتمتع بصحة جيدة، سواء كان أميراً أم فلاحاً أم عبداً، بل يحمله ما عليه من صعوبة لو استطاع. ومتى سمع بمرض أحد من يحسدهم شمت به حتى ليكاد يكون دواءه: ما أسعدني إذ أراك يوماً وقد هاجمك المرض أيها الطافح الوجه؛ جرّب مرارته!

الأيام الأخيرة من الربيع الجميل عاصفة— يصعب عليها أن تذوب في الصيف الحارق، وكأنها لم تترك شيئاً لم تأت به من حشيش وزهور وهواء نقي. والشمس اللطيفة ترنو من بين أوراق الأشجار باسمّة، وتصدع متمهلة إلى كبد السماء. والعصافير تغرد لليوم الجديد، والديكة تتنافس في الصياح. والنحل المتوزع في خلاياه المبتوثة بين أشجار الفواكه في بستان الأمير تاخ شرعت في العمل منذ زمن بعيد. وأشعة الشمس عبر النافذة تلعب فوق أرض الغرفة. وتلمع فوق الأسلحة المعلقة إلى البساط الجداري. وترتمي في الزوايا وتيرها.

لا تحس عينا تاخ المزمومتان بجمال الطبيعة. توحى إليه نظراته القائمة أن الشمس كُفّت عن الشروق، والعصافير عن الغناء، والناس عن الضحك، والنحل عن الطيران. يحس بثقل الهواء في الغرفة، وينظر إلى النافذة التي تُفَتِّح له عادة، ولكنه يبتعد عنها خائفاً من الهواء أكثر من ترفُّعه عن فتحها بنفسه. يصبح من الغرفة، ويعتف الخادم الذي دخل:

— كم أمرتك أن تجدد هواء المضافة!

— كنت جالساً فيها فانتظرتك يا أمير.

— هل يحكك جلدك فتشتهي السوط؟! — توقف الأمير على نصف استدارة.

— نفذ ما يُطلب منك. أنظر إليك فأراك موفور الصحة حتى لتكاد تشق...

تاخ الذي انتظر ريثما سخن الهواء الداخل إلى المضافة، رجع وعلى ظهره كساء خفيف. وجلس بعض الوقت على المقعد المنخفض ينتظر إن كان السعال سيعود أم لا بعدما تناول شراب العسل الذي انتفع به. وراودته من

جديد الأفكار التي انقطعت: "أعجب ما في الأمر أنني كلما هاجمت سراً أو علناً القبيح شبق الذي لا يدانيني في خلق وعلم ورجولة، حقق مكاسب أكثر من ذي قبل بدلاً من أن تنقص. يؤيدونه مهما قال أو فعل. يحترمونه. أظني أسقطته فإذا به يصعد إلى أعلى، ولا يقف الثناء عليه عند حدود الجان بل يتعداها، فلا ينقطع ذكره في الأبراخ والقبرتاي والبسلني والمخوش والقرم وتركيا. ولم يكفه كل هذا فوصلت شهرته إلى روسيا؛ بالخير أم بالشر؟ من يهتم بهذا؛ من يرك صالحاً تبقى صالحاً في عينه دائماً، ومن يرك طالحاً لا يغير رأيه فيك. أفضل أن يحكم الناس عليك إيجاباً أم سلباً ورأسك في خلية النحل، تستمتع بالعسل الذي تخرجه. إن كنت جريئاً، بل وقحاً معهم، فتخيفهم احترسوا منك أو خافوا... والآن يجب التفكير في حلٍ آخر: الخبر الذي أشعناه بين الجان بشأن ابنه الرهينة عند الروس سيؤذيه، غير أنني أظنه لا يكفي في هذه المرحلة. هذا الموضوع يحتاج إلى مال، ولكن لن أسمح لأحد أن يخدعني كما فعل معي ونتج الأعرج في مهمته مع قلقت. يجب تخريب المؤتمر الذي سيعقده الأمير شبق في الشهر القادم. لا يجوز أن نسمح له بتحقيق أهدافه منه. إن وجدنا نقطة ضعف له انتهينا من موضوع انتخاب كبير الأمراء..."

"هل هو في البيت؟" - انتفض الأمير تاخ من الصوت الصادر من جهة المسطبة. وتعرف على السائل. وغضب في سرّه: "إن سمحت لمثل هذا الذي يسيل لعبه أن يتخذك صديقاً بالإكراه أو بالتوسل سأل عنك الناس كأنك بلا شهرة... ما الفائدة من اتخاذك أمثال هذا الأهل الذي أتى صاحباً؟ لن تكسب منهم فكرياً أو فطنة. مثله مثل من يقال فيه: من لا ثور عنده يربط العجل إلى المحراث. ثم متى صار الأمير فواخ صديقاً لي؟ اتفق قولنا وفعلنا حين بدأ يعارض الأمير شبق فحسب. عشنا ومتى تقابلت نظراتنا راودني الغثبان. وعلى مبدأ: من ترفع الكلفة معه كسر ساقيك، يسأل: "هل هو في البيت؟" فيهيني أمام خادمي، ولا يتنازل أن ينطق اسمي". انفتح الباب فدخل فواخ القصير بوجهه الطافح الغي، ومؤخرته المرتخية، وقبعته الضخمة. وهُرع إلى الأمير تاخ بيديه القصيرتين الممدودتين. ومسح بيديه السميكتين على كتفيه. وقال له: - أحبي صديقي أميرنا رائد كل الأمراء، من ينهض له كل من يسمع اسمه

في حضوره وغيباه. أدعو لك أن يزداد غناك وقدرتك، وخلقك ونماؤك، وتعيش سعيداً دائماً مع أسرتك. تعتدّ بك الجان كلها. ويعضدك الله الواحد الأحد.

- حياك الله يا أمير، تفضّل واجلس! - لم يتفصح الأمير تاخ كما فعل ضيفه،
- حقق الله لك أضعاف ما دعوت لي به! ما الأخبار في نواحيكم؟ أليست جماعتك بخير وبصحة جيدة؟

- لا يتكلم الناس في نواحيننا يا أمير إلا بما فعله بهم الأمير شبق الأهل. -
قال فواخ مرتخفاً، ضاحكاً بصوت أجشّ، ضاغطاً على أضراسه لا تعرف إن كان يسخر، وأنهى بما كان يشغل باله: - لا بد أن نفعل شيئاً بهذا الرجل! يتصرف بعقله دون استشارة أحد. ستتكب الجان كلها على يده قبل أن يجني ما يكفي لإطعام ثورين.

- صحيح يا أمير، صحيح. قلت حقاً، - وافقه الأمير تاخ لأنه عبّر عما يريد تماماً، - لم تؤيدوني منذ عرفته ولو فعلتم لما تجاوز رأسه.

- نحن مدينون يا أمير. خالفناك كثيراً إذ كنا نقول: لعلك عاتبٌ عليه، فبين الرجلين تحدث أمور كثيرة، فنتبادل نظرات الارتباب، ونتهامس، وأنت تعرف طباع الأديغة، مبدؤهم: نحن مع الثور الغالب. والآن عندك رفيق. لا تتراجع! لو لم يبق غيري لقضيئ عليه من أجلك. متى أرحناه عن منصب كبير الأمراء أقمتُ الولايم لك حتى ليتعجب من يسمع. وأنا واثق من هذا متى استلمت الإمارة الكبرى التي كنا نراك أهلاً لها منذ زمن بعيد. وأنت بهذا تتذكرنا يوماً ما. سنبدّر معك دون أن نفقد حبة قمح حتى لو لم نرفع معك يد المحراث منذ البداية. وسيسعد معك الجان وقد انتهوا من الحروب والكوارث فرحين بما حصدنا.

- والله لم يخطر لي قطُّ يا أمير ما تذكره. أعيش عمري منذ شبابي وأنا أناضل في سبيل الصدق. وليس في العالم من يغيظني أكثر من الإنسان غير الصادق، الخبيث صاحب الفتنة، يأكل ما لا يجني، ويهدد من الخلف، ويقول ما لا يُقال. ماذا تظن سبب صراعي مع الأمير شبق طوال هذه السنين؟ لا أنفي أن هناك من يظنني أقاتل من أجل المصالح الشخصية، ولكنهم مخطئون. ألا ترى يا مبارك النسل أنهم يمدونه بما يستحق وما لا يستحق باسم كبير الأمراء! يتدخل

في كل شيء كأن لم يبق في الجان أذكى منه. يؤثرونه بالرقصة الأولى في حفلات الأعراس. وفي المآتم، وما كنت أحب الحديث في هذا، يتحلق حوله الحضور فيسمعونه ناسين الحزن. وفي المآدب لا يحق لرفاقه أن يتحركوا قبل أن يمسك هو بالمعلقة. بل في الغزوات لا يقبل لأحد أن يتقدمه بنصف رأس حصان. ولأني لا أتحمل مثل هذه المبالغات يتهمونني بما ليس من ذنبي: سيء وعنيد وقاس.

- لا يا أمير، لا يقال في حضرتي مثل هذا الكلام. ولا أقبل أن يقال ؛ اطمئن من هذه الناحية! أنت على حق في شأن شبق النّجّاج، ولن أراجع أمام أحد في هذا الشأن. ولا أستطيع استدراك خطئي إذ لم أقف في صقك إلى الآن. وضعت أمني وثقتي في أمراء آخرين كسالى فخدعت نفسي بهم. - قال فواخ الأمير، وابتسم في سرّه: " وأنت لست صالحاً جداً. أراقبك في السنوات الأخيرة فأراك واضحاً في أحاديثنا الخاصة، ومتى وقفت في الساحة تراجع. سأؤيدك بلا شك هذه المرة إن لم يخدع أحدنا الآخر. ولكني لست ساذجاً فأشرب الماء من أنفي كما يقال، سيتوقف كل شيء على ما ستقول في المؤتمر".

- لا تتخدع بكل ما يقال في حق الأمراء في غيابهم... - قطع السعال المفاجئ كلام الأمير تاخ. غطى فمه بالمنديل، وسعل بضع مرات حذراً، ثم توقّف. وبرأ نفسه كعادته: - كنت أصطاد قبل أيام في جوّ معكّر فأصابني البرد... أهمّ ما أماننا هو التخلص من شبق اللعين.

- لا يجوز إهمال هذا الموضوع، - قال فواخ وابتسم ثانية: "يكنتم عني المرض الذي يمزّقه متستراً ببرد أصابه في حين نظننا نتصارع في مواقفنا... حتى لو شهدت عزل الأمير شبق، وحللت محله، فلن يطول بقاؤك في المنصب الذي نتهالك عليه كلانا، بسبب مرضك. متى صرّت معاونك فسيصلي المنصب في شهر أو اثنين أو نصف سنة على الأكثر. وإن حالني الحظ فلن أسمح له بالبقاء في الجان يوماً واحداً" - لا شك أننا سندفنه، هو نفسه، في المؤتمر الذي ابتدعه بعد وقت طويل. أنا التقيت يا أمير بثقاتي في هذه المسألة. يا مبارك النسل لسنا وحدنا، هم أيضاً عاجزون عن التحمل.

جيء إلى المضافة بمائدة متعددة الألوان. ذاقا من الباستا والعصيدة. ومن أجنحة الدجاج، طعام الأمراء. ولكن فواخ الشكاك لا يهناً بالطعام. يتجنب كل ما لامسته يده المضيف.

- يا فواخ، يا أمير، أراك لا تهتم بالباخسمة التي أعدتها ربة البيت. - لام الأمير تاخ ضيفه. - ستعجب علينا إن لم نذقها.

- والله يا أمير أنا لا أحب الشراب. ولكن لن ندع السيدة تعتب علينا. والمضيف هو المسؤول إن أوهنت ساقِي.

- لن ندع الأمر يصل إلى هذا الحد. ابتسم تاخ فرحاً بما سيمتعه. - ارفع كأساً ننعش بها قلوبنا!

- الكأس لها خطابات كثيرة لا أعرف ما يعجبك منها، - قال فواخ، ثم رفع الكأس عالياً، وقال كأنه هو المؤلف: - ليقف أحبابنا في رعاية الله تعالى، والأعداء تحت أقدامنا!

- خطاب جميل يا أمير، - "الكلام الجميل الذي انتحلته إنما هو لي. أنت اعتدت أن تبدي للناس ذكاءك فسأجعلك تفكر قبل أن تدعي أمثالها لنفسك!"، - ابتسم تاخ في سرّه، وابتسم ظاهراً يريد أن يفهمه أنه لا يحمل حقداً عليه، - ولكن ما قلته ليس لك!

- حقاً! - صاح فواخ، وقد جحظت عيناه، كأنهم انتزعوا شيئاً من جسده، ثم صحا، وبرأ نفسه بصوت منكسر: - والله هذا غير مستبعد، - ألا ندعى إلى مناسبات شرب كثيرة نسمع فيها خطابات كثيرة، فرمما بقي منها شيء في الذاكرة...

- هذا صحيح يا أمير، - ونحن في مآدب لا تنتهي. لا يكاد يمر يوم دون دعوة، كأن طعامهم لن ينزل في حلوقهم دون حضورنا. وأحياناً تقع في حيرة إذ لا نعرف أين نتجه بالحصان. لا مشكلة، مررنا أنت وأنا بكثير من هذه المواقف. وإن أردت أذكرك أين سمعت الخطبة؛ أليس في القرم؟

- والله صحيح!

- ليس خان القرم وحده من سمعه، كانت الخطبة الأولى عند السلطان التركي. - ثم أضاف بعد قليل بلامبالاة: - والله هذا أيضاً عجيب يا أمير، أعجب

خان القرم بخطبة لي في مناسبة ما، ووصلت إلى فم السلطان التركي، ثم عادت إليّ على لسانك. كررها أيضاً وأسمعي حلاوتها وجدّتها ثانيةً.

- ما يعلق في القلب سهلاً تكراره يا أمير. ولم أعرف أن هذه الكلمات البليغة صدرت منك، - قال الأمير فواخ في سره: "أنت تنسب لنفسك الكثير. وإن ظننتني أصدّق كل إدّعاءاتك فأنت مخطئ"، ثم كرر الخطبة بصوت منخفض. وبعدما شرب الكأس اختتم بثناء مُراءٍ: - يا أمير، سواء كنتَ القائل أم غيرك فقد انتشر الكلام بين الناس، وتقبّلوه. والله لو تحول شبق اللعين إلى قِطٍّ حاجٍ لما صدر منه مثل هذا الكلام الصائب. لأجل هذا يا أمير أقول: يجب أن تتقلد منصب الأمير الكبير.

- الكلام الصائب قوي جداً. ويفتح طريقه وينتشر بسرعة. وأي سعادة تعدّها! كيف تفهم قولهم: "الرصاص الكثير أدقُّ رميةً من الأفواه الكثيرة، والأفواه الكثيرة أعقلُّ من الرصاص الكثير"، ربما كان السبب واحداً مثلك أو مثلي.

- جرح اللسان لا يشفى، وجرح السيف يُشفى. - أسرع فواخ بالقول خائفاً أن يسبقه صاحبه إليه، مذكّراً بأنه هو أيضاً لا يخلو من المعرفة.

- نعم، هناك مثل هذا القول المأثور، ليس عند الجان فحسب بل عند القبرتاي والبسلني والأبزاخ وغيرهم.

- أليس القبرتاي أديغة يا أمير؟ - سأل فواخ مع ابتسامة ساخرة.

- وهل هذا كلام يا أمير! حقاً القبرتاي والبسلني أديغة لا يُعلى عليهم. ربما جنثُ على ذكر القبرتاي لأن صديقي الأمير أبشقه خطرٌ لي. وهو الآخر في مشكلة مثلتنا. الأمير تيمرقوه الذي برز في ترج كالأمير الأناني شبق عندنا لا يدع لهم مجالاً للراحة. ولكن أمراءهم بالقياس إلى أمرائنا الجان الذين جعلوا أنفسهم ممسحة لأولئك الذين نسميهم بالنفاجين، أمراء يتمتعون بالصلابة، يستعدون للحرب. كان من المفيد أن نزور القبرتاي يوماً ما. يعاتبني الأمير أبشقه على عدم زيارتي له. - قال تاخ ضاحكاً وقد احمرّ وجهه النحيف من الباخسمه: - أقول له أنت تعجّب عليّ في طريقك إلى القرم، ولكن كيف أزورك

دون شغل لي معك؟ لا أعرف إن كنت لن أزور الأمير الداغستاني ضيفاً. بأي حجة أنزل ضيفاً على القوموق الذي لا أعرفه؟

- ليس الأمر هكذا يا أمير، - لم تُعجب الأمير فواخ الكلمات الأخيرة للمضيف، - وشبق ذو العقل المحدود هُرع إلى روسيا دون أن يكون له أصحاب فيها.

- ألا ترى ما فعل بنا بزيارته؟ - احتدّ الأمير تاخ، ثم رشف من الباخسمه، وأصلح موقفه بكلام حاسم: - تسبب في جفوة خان القرم نخونا، وكذلك تركيا.

- ما سمعته إذن يا أمير شيء مختلف.

- ماذا يمكنك أن تسمع خلاف ما سمعت؟ - اعترضه فجأةً غاضباً من معرفة غيره بما لا يعرفه هو. ولكنه تراجع سريعاً، - من البديهي يا أمير أن تسمع أنت، وهل تعيش في الجان مقطوعاً من شجرة. أنت من خيرة الأمراء. - لستَ مخطئاً في هذا، - قال فواخ نافخاً صدره، متباهياً بنفسه، - ونحن في الساحة التي أنت فيها. وموضع ثقة. ويأتوننا للاستشارة. سمعت أن بين تركيا والقرم نوعاً من سوء تفاهم.

- أظنك تتكلم على الخبر الذي جاءنا به مامي قبل أيام من القرم. هل صدّفته؟ قائمة البقرة لا تقتل عجلاً. يحدث بين هؤلاء كثير مما لا نعرفه. يتخاصمون ولكنهم يتصالحون. هذا هو السبب. أقول كأني أعرف وإن كنت لا أعرف. سبب الخلاف بين الدولتين هو زيارة شبق المشؤومة إلى روسيا.

- حقاً؟ أظنك أصبت يا أمير. متى هاجمنا خان القرم فسأرسل، وإن لم يبق غيري، ذلك العنيد إلى حضرة الخان وعليه اللجام.

ارتعب الأمير تاخ في سرّه: " ما أشد ما تتعكر عيناه متى سمع اسم شبق، كأنه يفقد عقله. حماك الله من أن يكون مثل هذا الإنسان عدوك! إن أطلقت له الحرية أفناك، دمرك وهو يبتسم لك... كان هذا عدواً لي أيضاً حتى العام الماضي. حسناً فعلتُ إذ قُربته إليّ باللسان. صرّح بما يمكن أن يفعل بي أيضاً. يبدو أنه لا يجوز، لا أن تكلمه، بل أن تسمح له بالاقتراب منك، أو تحسبه في عداد البشر. سأستفيد منه إذ اتخذته صاحباً إلى أن أحقق هدي في ثم أبعده عني.

لا يجوز دفعه إلى مخالطة الناس، بل يجب الاحتفاظ به مربوطاً إلى عمود...
أ تكون الباخسمة كشفت جنونه؟ كثير من الناس يحدث لهم هذا... على كل
حال سأنتزع من فمه ما في قلبه..."

- يا أمير كان بودي أن أسألك منذ وقت غير قصير، - بدأ الأمير تاخ يناور
من بعيد، - أنا لستُ على وفاق مع شبق اللعين منذ عهد بعيد، وليس بيننا
سبب مهم للعداء، غير أنني أعارضه على ما تسبب به من أذى لأعراق
الأديغة. ثم لا أرى من اللائق أن أستقصي ما لم أعرفه إلى الآن. وأنت؟ ما
سبب نفورك منه؟

- وأنا يا أمير، هذا الذي ذكرت اسمه، - بدا من اختلاج عضلات وجه فواخ
كرهه لشبق، - لم أصطدم به، ولكن أوافق على ما قلته. لا أطيق الأدعياء.
ويهيحوني. وأعجب العجائب أن هذا الذي يُشيع عن نفسه كل هذه المآثر لا
يستطيع أن يجلس في مضافة ويروي خبراً كاملاً. إن سمع منك ما يعجبه
فسرعان ما يلتقطه وينسبه لنفسه. ما فعل بي قبل أعوام لم أروه لأحد احتراماً
لنفسي. وأنت أول من يسمعه. هل تتذكر يا أمير؛ كنت شرعت ببناء بيت
جميل على مرتفع يراه الناظرون، ثم هدمته؟ سرق مني تصميم البيت الذي
احتفظت بسرّه سنوات وبني شبيهه تماماً في داره. صرفتُ النظر عنه كي لا أزع
الناس يسخرون مني. ولكن سترى إن لم أعد بناء البيت السابق في المكان
نفسه! والآن سأصارحك، ولا أريد أن أسمى مثله إنساناً، ولا يجوز أن تثق به
فتقدّمه عليك كبيرَ أمراء.

- لا طبعاً يا أمير! - لم يعد تاخ يتحمل ضيفه أكثر من هذا رغم جوابه
القاطع، فسأله يريد تنبيهه إلى دنوّ موعد انصرافه: - هل معك أحد يا أمير؟
- لستُ وحدي، الله معي! - ضحك الأمير فواخ من أعماق قلبه. وأضاف:
- كان عدد من الأمراء يريدون مرافقتي دون رضاي حين توجهت إليك،
فصرفتهم عني. وهم ممن لا يتقبلون كلامنا وفعلنا. ما حاجتنا إليهم يتجسسون
علينا! جلسنا ما يكفي يا أمير، تجاذبنا أطراف الحديث، وأنا على طريق سفر.
أنتظر اليوم أو غداً مامي الذي كان ضيفك. أرسل إليّ خيراً.
- هل تعرف أن العجوز الجان يتتبع أثر ولده؟ عرّج علينا قبل أيام في غيابي.

- نعم أعرف ؛ ما الذي يريده هذا العجوز الأرعن؟ مرّ علينا أيضاً في غيابي.
- يريد أن ينصح ابنه ويلومه بدلاً من أن يعتدّ به. هل تعرف من يرافقه يا أمير؟

- أعرف، هو زغاشت بن لأماف، والدُ الفتاة التي يغازلها قلقت الذي يثير المشكلات لنا. ولكن هذا العجوز، وسأذكرك بكلامي فيه، ينتظره مصير غير حميد.

ابتسم الأمير تاخ وهو يتابع بعينيه الأمير فواخ الذي ركب مع عدد من الحراس، وأتبعه بقوله: "ظاظمي العجوز مهموم بمأساته ولكن ما الذي لا يسمح لك بالهدوء؟ هل لأن تصميم بيتك سُرق منك أيها الأبله؟!"

VII

تعشى شبق قبل حلول الظلام. وحين خرج حاتاي بماء الغسيل من المضافة أجبره حرُّ الصيف الوليد على التوجه إلى النافذة. رأى حاتاي ومينسورا يتحداثان بؤدٍّ، فالتصق بجانب النافذة. صعد الدم إلى رأس شبق. فارق النافذة وشرع يذرع أرض الغرفة متنازلاً. وبعدما قرر استدعاء بجمت لإعطائه الأوامر تراجع عن الباب. ثم خطرت له فكرة أخرى ففتح الباب:

- تعال يا بجمت!

- أسمعك يا أمير ؛ هل يقلقك شيء؟
- أليست حياتنا كلها مما يُقلق! - نظر إلى الرجل من طرف عينه وقد انكسر صوته. - أرسل إليّ سيدة البيت، بلِّغها أن تأتي حالاً!
فتحت السيدة زهره الباب بحذر شديد ووقفت إلى جانبه. امرأة رشيقة معتدلة القامة، سمراء صبوح. والإيشارب الحريري متناسق مع الثوب الطويل. تنظر إلى الرجل بعينين ذكيتين حذرتين.

- لماذا وقفت بعيداً جداً؟ تعالي اجلسي هنا! - ابتسم شبق بصعوبة. ولما جلسَ أمامه عاد الرجل إلى عبوسه وسألها: - كم قلت لك أن لا تخرج الصبية عن رقابتك؟! أنتن النساء لا تسمعن الكلام ما لم تُعاقبن.

- ما المنكر الذي لاحظته على الصبية التي تكاد تراهق يا شبق؟ رفّت جفون الأم القلقة، - لا تخرج من الدار، ولا تخالط الناس.

- يكفيني سلوكها في الدار، - قاطع شبق كلام زوجته محاولاً المحافظة على هدوء صوته. - أهذه تربيتك لها، تحادث الشاب الخادم، وتبتسم له؟

- يا شبق، يا أمير، هل تغضب كل هذا الغضب إذا ابتسمت لحاتاي؟ - قالت زهرة بنبرة ناعمة كعادتها وهي تبتسم، - هو الآخر مثلٌ ولدٍ لنا. نشأ في دارنا، ورّبي هو ومينسورا معاً.

- كُفّي عن هذه الابتسامة، ولا تُسمعي اسم الولد العبد! - أفلت صوت شبق منه، ثم عاد إلى وعيه، ونصح زوجته: - كلّمي مينسورا كي لا تعضي إصبعك ندماً في المستقبل. ربّيها على التمييز بين من ترفع الكلفة معه ومن لا ترفع. ماذا تعرف هذه من الحياة؟ من كلمة حلوة يلتهب قلبها ولن تسأل عن أب أو أم. أفهميها أنها بنت أسرة إمارة، وأنها تسحق كفوّاً لها.

- فهمتُ يا شبق، اطمئن من هذه الناحية، - ألقت زهرة نظرة جامدة على زوجها وانصرفت.

"لا أظنها فهمت الكثير، - حين بقي شبق وحده لم يعجبه ردُّ فعل زوجته. - أنن ترين أولادكن أطفالاً ما داموا في حضرتك. وحين يفلتن منكن تلطنن أفخاذكن. لماذا قيل: إحن العود وهو طري؟ انتظري ما يفعل من رأيتهما ورأيت الود الذي بينهما، هل يبقيان في الدار نفسها إلى الخريف! ستقول لك: سأنتحر إن رفضتم زواجي منه!.."

أبعد الوسوس التي سببتها له ابنته المراهقة، وبعد ثلاثة أيام أو أربعة، فيما يفكر في ما أثارته زيارة موسكو من مشكلات تصدع الرأس، نظر حاتاي من خلل الباب وسأل:

- هل تسمح لي بالدخول يا أمير؟

- تعال، تفضّل يا حاتاي، - جلس شبق المستلقي على السرير للاستراحة.

- ما الذي يشغلك؟

- لا شيء يُقلِّقني يا أمير، - نظر إليه الشاب الوسيم بذكاء، - إن كنت ستنفذ لي الوعد الذي قطعته لي فأنا راغب في السفر مع قلقك غداً. سننطلق فجرًا.

- يبدو أنك راغب في السفر، - قال شبق لنفسه وهو يخط كلماته باسمًا: "وصل دعائي إلى الله قبل أن يحدث بيننا ما يستدعي العتب. هذا، كما قالت زهرة، صار كولد لنا. اعتادت عيوننا عليهما ولكن لم تلدهما أم واحدة. ومهما حاولت لن يتحولاً إلى أخوين. وسيتلاقى قلباهما إن عاجلاً أم آجلاً. هو شاب لا يمكن لامرأة إلا أن تشتهيه. لا يمكن أن تعرف أنه ابن أسرة فلاحين. ولكن افتقاره الزائد إلى الحياء يدلُّك على نوع الدم الجاري في عروقه". - أصبحت رجلاً إن كنت نويت هذا... استدع لي بجمت.

حين عاد حاتاي إلى المضافة وأمامه بجمت بدأ قلبه ينبض وقد دخل التوجس إليه نتيجة السكوت الطويل للأمير خوفاً من أن يكون قد تراجع عن وعده. ولكن ما قاله الأمير لبجمت أرغمه على الابتسام.

- اطلب منهم أن يجهزوا الحصان الأصفر الأغبر بكل لوازمه. - وحين خرج بجمت يلهث توجه الأمير إلى حاتاي: - أنا كلمتي كلمة. لا أخلف بوعدي. الأديغة يعتقدون أن الحصان الأصفر الأغر مبروك فليبارك لك الله فيه. ومن الناحية الأخرى سننطلق صباح الغد فرافقتك السلامة. أمنحك حريتك. توجه حيث تشاء. وإن قررت العودة إلى القرية فقد قضيت فيها سنوات؛ فكّر في ما سيصلح معاشاً لك.

- حياك الله يا أمير. لن أنسى معروفك طوال عمري. أنت والأسرة لم تسببا لي ألماً ولا حزناً. سأذكركم بالخير أينما كنت. - انحنى حاتاي انحناء خفيفة وخرج من المضافة يكاد قلبه يطير من صدره.

نظر شبق من النافذة بعد قليل فرأى حاتاي يخرج بالحصان من الدار وبجمت يشيعه، فقال لنفسه: "حسناً فعل إذ لم يمرّ من أمام مضافتي راكباً، بل خرج من الدار ممسكاً رأس الحصان. تعلم بعض العادات منا بإرادته أو بغيرها... "

...

الفتاة داريه التي تطرّز غطاء المخدة جالسةً تثرثر مع حاتاي. وقلقت أمام طاوله عليها المخرز والإبرة والمطرقة والمقص يصلح سرجه وتوابعه، يستعد للسفر. فجأة ارتسمت مينسورا في عيني حاتاي لا يعرف كيف. نفض رأسه مذعوراً وتساءل: ما هذا؟ صحت ابتسامة بنت الأمير في وجهي تلك العشية قلبي. لست كفؤاً لها إن لم أُجنّ. حين قلتُ لها: "سيبدأ أولاد الأمراء باكراً يتخاطفونك، أصبحت جميلة كالصورة" أجابني: "وأنت صرت شاباً وسيماً طويل القامة. ستزوجك أي فتاة تشير إليها". تقاذفتني الآمال الكاذبة بعد هذا الحديث طوال الليل. صدقتُ ما لا تعنيه مزحة مينسورا لأني مجنون. — ألقى نظرة واجمة على داريه الغارقة في التطريز. وتأملها بعمق. — وهذه امرأة صغيرة جميلة لبيبة، نما جسدها على نحو ملحوظ. ستصبح فتاة ناضجة مع الربيع القادم. أليس عجيباً أن أبناء الأب والأم أنفسهما يختلفان: قلقت كرجل الغابة العملاق، وداريه رشيقة حلوة المعشر... إيه يا حاتاي الأبله! صارحك قلقت بما في نفسه فطمعت في أخته. هذا لا يجوز، ترفضه الإنسانية والاستقامة. وفي كل الأحوال ننتظر ما يحدث. هذه أنسب لي بالقياس إلى ابنة الأمير. وتوافقني في نشأتها... مهما أحسن قلبي فلن أغدر بقلقت من وراء ظهره. سأتصرف بما يشير إليّ. أعرف أنه سيُجنّبني الخطأ..."

أفاق حاتاي قبل الفجر ف شعر أن نومه لم يكتمل. أضيفت إلى الفرحة التي تحققت له البارحة المشاعر التي زرعتها في قلبه مينسورا وداريه فلم يعرف النوم طريقاً إلى عينيه. ومع ذلك لم يسمح للنوم أن يغلبه في حضرة قلقت. ذاق الاثنان على عجل شيئاً من مائدة داريه، وانطلقا قُبيل بزوغ الفجر.

— إن لم أخطئ فأنت تركب لأول مرة يا حاتاي، — أدار قلقت وجهه الطافح إليه دون أن يفعل، وألقى عليه نظرة رضا. — أدعو لك باليسر لأول سفر لك. ليس من عادة الأديغي أن يسأل من يدعوهُ إلى الركوب: إلى أين. ولذا أبادرك فأقول لك: سندخل أرض الأبراخ، ونحلّ ضيفين على صديقي داور.

أجابه حاتاي بشكرٍ مختصر. وتفحص دار الإمارة بنظرة خفية. ومَرَّ سريعاً على النوافذ المعتمدة. ولكن الدار والبيت كانا موحشين يدعوان لليأس. تذكر حاتاي

بسعادة لا توصف أن قامبولات الأخ الأصغر لمينسور، في مساء ما، ليس منذ زمن بعيد، وفي غياب الأمير شبق وأخيه أقمقوه وأمهما زهرة، تعلّق بيد أخته وسحبها من غرفته. كانت قالت لي "ليس في هذه القرية من أشبّهك به من جهة قسمات وجهك، وجسدك، وفطنتك". ومازحها: "من يستطيع منافستي وقد رُيّت في أسرة إمارة!". هل كانت مينسورا تتوجه إليّ بمثل هذا الكلام لو لم يكن في قلبها عاطفة ما نحوي؟!

- قلبك ينفطر لأجل دار الإمارة. ولا بد أنه تألم؛ صحيح يا حاتاي؟ - لميح قلقت إليه، وكأنه لاحظ شيئاً، فارتعش قلب الشاب، وافقه مرتاحاً لعدم بلوغه ما يفكر فيه:

- عرفتني يا قلقت. عشْتُ سنوات طويلة في دارهم. وأقمْتُ في بيتهم. وأسدّوا إليّ كثيراً من المعروف. وهذا ما يُحزني.

- ستنسى كل هذا متى أصبحت رجل أسفار. - أسرع قلقت بالحصان، وخطب حاتاي نفسه: - "سأنسى دار الإمارة، وأنسى شبق وزوجته، وغيرهما، ولكنني تركت ورائي شخصاً لن يفارق قلبي".

- هل عندك خبرة بالناية بالخيّل؟ - سأل قلقت أيضاً.

- وكيف لا! لم يكن لي شاغل أيام غياب الأمير إلا الإسطبل. كنت أعاون السائسين. وكانوا يسلمونني كثيراً حصاني هذا لأروّضه. كنت أوردّه الماء. وأحممه حتى ألْفَنِي وألْفُتُهُ. - امتدح حاتاي نفسه صادقاً.

- لا بأس إذن! - هزّ قلقت رأسه الضخم، - الحصان الأصيل صديق مخلص. وأنا خبرْتُ هذا من الحكايات ومن عمري القصير.

- وكنت سمعتُ أن لدى وتنغ حصاناً ممتازاً جداً.

- كان، ولكن ليس عنده الآن. أعطيته لشابٍ من الناقحوي حين أرسلت وتنغ إلى تركيا.

- وأنا أعجبني حصانه حين عاد بداريه وتمنيته.

- كفى، لا أريد سماع سيرة وتنغ. - قال قلقت محتداً.

- ولكن ألم يُعِدْ أختك؟

- أعادها لأنه كان اختطفها. ولن أشكره على هذا. - حسم قلقت، ليس صديقي وليس عدوي.

لم يكن أمام الفارسين مهمة ملحة. كانوا يقطعون الطريق بين سير وعدو واستراحات. وقلقت حريص على راحة الحصانين وخدمتهما أكثر من حرصه على شخصيهما. "رجل الأسفار لا يحتاج إلى الكثير. متى حللت ضيفاً في المساء على إحدى الأسر نسيت بالنوم تعب النهار. وإن قسوت على الحصان فلن تستطيع إعادته إلى لياقته في أسبوع" يلقن قلقت أصول الأسفار لرفيقه شيئاً فشيئاً.

لم يكن حاتاي يجهل أن جاره متكلم ممتاز. وكان يعتقد أنه يجب الكلام نتيجة خبرته ولكنه لم يقل الكثير خلال يومين على الطريق إلا أن يرشده إلى ما فيه درس له. غير أن حاتاي كان يغبط قلقت على كثرة من يعرفونه: التقيا في الطريق بكثير من الرخالة، وترجلوا من خيلهم لأجلهما، وتحذثوا إليه. ولم يكونوا بحاجة للبحث عمّن سيتخذونه مضيفاً.

دخلوا أرض الأبراز بعدما عبروا مضائق الجبال، والتفّوا حول الأنهار الصغيرة، إلى الضفة الأخرى. وبعدها عبروا بضع قرى رفع قلقت سوط الحصان وقال:

- ها هي قرية صديقي داور.

البيت الطويل المتراصة عُرقه، المرتفع عن السور المبنية جدرانته من الأعواد، مسقوف بالقصب. والمسطبة المحمولة على أعمدة رفيعة تلاصق البيت. والدار واسعة، والحظائر، وأقنان الدجاج، والمطبخ الصيفي كلها تحيط بالبيت. ترجل الفارسان وربطوا الحصانين على الباب. ولما لم يظهر أحدٌ تفقد قلقت أرجاء الدار قلقاً. ثم سألت الصبي الحليق الشعر الذي ظهر على المسطبة:

- أليس داور في البيت يا أخي الصغير؟

- ها هو، سأنادي به حالاً. - خرج الصبي من الدار راكضاً. عاد الصبي بأسرع من الكلام. وظهر داور وراءه لاهثاً. وتبادل معهما المصافحة والعناق. ثم قال بادي السرور:

- والله حسناً فعلتما بمجيئكما. غداً سينعقد المؤتمر. تجتمعنا نحن أيضاً بضعة أشخاص، وستشاور في ما سنقول ونفعل.

- ألم نعطلك هكذا عن مهمة كبيرة؟ - قلق قلت، - عُدْ إذن، ليس أماننا نحن مهمة عاجلة.

- هل رأيت يا قلت أديعياً يفعل مثل هذا؟ تريد أن تدفعني إلى الخطأ ثم تسخر مني. انتظاري قليلاً، نكاد ننتهي. متى ما استرحتما قليلاً سيزوركما أصدقائي أيضاً.

لم يطل غياب المضيف. وبعده حضر الصبي الحليق وفتاة تكبره ببضع سنين مع الإبريق والطشت. ولم تتأخر المائدة المستعجلة عنهما.

وبعدما انتهيا من الطعام، وقبل أن يدخل داور في موضوع عمه المختفي، دخلت مجموعة صاحبة من الشباب يغلب عليها المرح والمزاح، تعرف من مظهرهم أنهم من الأبراخ. وبعدهما تصافحوا وجلسوا عاد الصمت من جديد إلى العرفة.

- دخلتم بكل ضجيج فلماذا سكثتم الآن؟- لام داور أصدقاءه، - أمير الجان الذي كنتم تغتابونه قبل قليل جارٌ صديقي قلت. وحاتاي... - تعثر المضيف يبحث عن تقديم مناسب للشاب.

- قل الواقع يا داور، لا يهمني، - ساعده حاتاي، - اشتراي الأمير شبق وأنا صبي، فعملت عبداً - خادماً عنده. ولا أخجل من هذا. لا أتذكر أنه أهاني، لا هو ولا أحد من أسرته.

- حرره الأمير شبق قبيل سفرنا. وأهداه حصاناً مجهزاً وثياباً. - استلم قلت زمام الحديث، - أميرنا بريء مما تسمعون عنه من أخبار.

- نحن الأبراخ لا نميز بين أمير ونبييل وفلاح وعبد، - قال شاب عريض الأنف واسع الفم. وأكمل رافعاً كتفيه: - ولكنكما غيرتما رأيكما في شبق إلى رجل أديعي حقيقي.

- ما يحمله إلينا القادمون من جهتك من أخبارٍ مختلفٍ عما تقولان، - خلع شاب رشيق أشقر قبعته، ومسح براحة يده على رأسه المدبب، وجّهز حنجرته للكلام، -: يُخبروننا أنه باعنا، كل الأديغة، وأراضينا إلى روسيا. والآن جاؤونا بخبر اعتناق ابنه الذي تركه في موسكو، والأمير الأباضي، للدين الروسي.

- وهل عجيب إن أصبحوا مسيحيين؟ - عارض شاب أسمر صغيراً المتحدث.
 - هل تعدّنا صرنا مسلمين؟ لا تتظاهروا بأنكم لا تعرفون أن أغلب الأسرى
 الأبراخية تخفي أطفالها في الغابة! ومع ذلك تغتابون غيركم...
 - حسناً، اهدؤوا قليلاً، - أوقف قلقت الجدل بصوت عالٍ، - كلامكم في
 محلّه أيضاً. وليس قليلاً ما يصدع رؤوسنا ولا يزال دون تفسير. وكما يقال: من
 فقد ابنه لم يزل صوته في أذنه، دعونا نرفع رؤوسنا ونرى العالم من حولنا.
 الموضوع الأكبر من موضوع الأسرة والقرية ما يزال أمامنا. خانية القرم على
 صغرها، دغك من روسيا التي توجه إليها شبق، ومن تركيا التي جاءتنا
 بالإسلام، أسست دولة مستقلة. ما نريده، شبق ونحن، هو ألا ينهبنا النغوي
 بعد الآن، وأن نتعاون، نحن الأديغة، وإن لم نتحد في دولة. صدّقوا أن شبق
 ليس مهموماً إلا بقضية الأديغة. ومن تقولون إنهم يأتون من ناحيتنا ليسوا منا.
 هاج في قرية جغن أمير قدر اسمه تاخ يحفر لشبق. حالف النغوي، وجند مخبرين
 من الأديغة، وأرسلهم يتجسسون عليكم وعلينا. يريدنا أن نقبل جباه النغوي
 الذين نكدوا علينا حياتنا. فكروا في الأمر إن كان حسناً أم سيئاً: منذ اتفق
 شبق مع روسيا على تلك الورقة صار النغوي يخافون من مهاجمتنا. أليس لهذا
 قيمته؟

- وكيف يكون بلا قيمة! - أيّده الرجل الأسمر القصير. - لا يهاجمنا النغوي
 كثيراً كما يفعلون بكم، ولكن القليل من هجماتهم مأساة كبيرة.
 انصرف الشبان فارتاح قلقت وداور لانتهاه سهرتهم على خير، والوصول
 بنقاشهم إلى التفاهم. وأعادوا ترتيب أفكارهم. ولم يساهم حاتاي في نقاشهما.
 بل جلس مصغياً يريد استخلاص ما يفيد من النقاش.
 اصطحب داور ضيفيه دون تأخير إلى مؤتمر الأبراخ الذي سينعقد ضحى اليوم.
 أحاط المؤتمر القادمون من القرى، فرساناً ومشاة، بالمرتفع المسطح الذي
 يتوسط مجموعة القرى. كان اليوم الصيفي المبكر جميلاً. الريح خفيفة، والشمس
 لطيفة. والسحب الممزقة تزحف في السماء لا تهدد بالإمطار، تستقرّ أحياناً
 تحت الشمس. وقلقت يعرف أن العم الأكبر لداور هو مدير المؤتمر. وكانوا
 ينوون التوجه نحو بلاد المخوش بعد انتهاء المؤتمر، فطلب قلقت من داور أن

يترجى عمه بأن يبكر في إعطائه الكلمة. ولكنه لا يعرف إن كان سيسمح له بالتحدث أم لا.

تبين أن بقان كهلٌ حازم: يقاطع من يماطل في كلمته، وينهره:

- لم نأت إلى المؤتمر لنروي أخباراً. نريد اللبّ فحسب. إن لم يكن عندك ما تضيفه فارجع إلى مكانك!

يتهاشم الأبخاخ ويتضاحكون. ويمزحون مع من يطردهم بقان من الساحة. وأكثر المداخلات يدور حول المصالح الشخصية. لا يريدون إلا بلاد الأبخاخ التي وهبهم إياها الله.

وقف رجل طويل جهّم في الساحة، وبدأ الحديث مع الإشارات:

- سأضع جانباً تضامننا، وتوحيد قوانا. لن أذهب بعيداً. لماذا كان البجدوغ نائمين حين كان إله الأرض يوزعها علينا؟ الآن يقتحمون مراعيينا ويحاولون فلاحتها. إن توخّدتنا فسيحتلون بساتيننا أيضاً. أنا من جهتي لا أخاف من الترك ولا من الروس ولا من النغوي. الجبالُ حصوننا، والغابات بيوتنا!

طافت في المؤتمر صيحات التأييد، فملؤوا قلب قلقت بأساً. وندم على إبلاغهم برغبته في الحديث. ولكن حين أعلن بقان اسمه لم يكن أمامه إلا الارتقاء إلى مرتفع المؤتمر.

- إخواني، أبناء قومي الأديغة! - هَذَا قلقت العاملين في المؤتمر. - حضر إلى اجتماع اليوم أناس أكبر مني سناً وأوفر عقلاً. لم أقف في الساحة لأريكم وأعلمكم ما لا تعلمون. ولكن دعونا نفكر دون توتر أو شعور بالإهانة. من هم الأبخاخ، ومن هم البسلني، البجدوغ والجمكوي والجان والقبرتاي وغيرهم من الأعراق؟ كلنا أديغة، نتكلم لغة واحدة، ونعيش بشريعة واحدة، تختلف لهجاتنا قليلاً، ولكن أليس الأفضل ألا نتوقف عند هذه الاختلافات الطفيفة، وعن تبادل نظرات العداء، ونصرف إلى التفاهم وتوحيد القوى والأفكار؟ ألن نصبح أقوى؟ لنقتد بالأقوام التي ألقت دولاً عظمت وجيوشاً كبيرة! إن هاجمتنا إحداها مرّقتنا واحدة واحدة...

- ما أكثر ما تثرثر يا ولد! - أوقف بقان قلقت عن الكلام. - بدأت متعهداً بعدم تربيتنا، والآن تلقي علينا دروساً. نحن أيضاً نعرف وضع تركيا وروسيا.

ألسنا قادرين أن نصبح مثلهما؟ الأبخاخ مستقرون على أرضهم، وبين جبالهم، وتحت سمائمهم. يعملون ويربّون، ويأكلون من نتائجهم. سنعيش كما نريد نحن. جبالنا حصوننا، وغاباتنا بيوتنا، ونتحدى من يُرّبحنا عنها!..

أنهى الأبخاخ مؤتمرهم بعد الظهر دون مهاترات، وتفرقوا.

أحببت معاملة الأبخاخ قلب قلقت المفعم أملاً. وتردد في التوجه إلى المخوش. ولكنه حين فكّر في الشباب الأبخاخ، أصدقاء داور الذين وافقوه في اليوم السابق، والذين كانوا يصيحبون مؤيديه، قال لنفسه: "من الصعب إقناع كل هؤلاء بوضع كلمات. ولكن إذا كانوا أبخاخاً، ونشرث في بضعة أشخاص منهم أفكارهم، فسنبشرونهم أيضاً في غيرهم؛ فلنخاطب المخوش، ونتعرف أحوالهم وأخبارهم!.."

بعد الغداء عبر قلقت وحاتاي، وبرفتها داور، النهر الجبلي، ودخلوا أرض المخوش. وفي بداية عتمة المساء دخلوا قرية قُراش الفخمة. وبيوت المخوش بالمقارنة مع بيوت الأبخاخ، محاطة بالكروم والأشجار المثمرة، وأكثر أناقة.

بدا من طريقة استقبال الأسرة المضيفة لقلقت وصاحبيه أن الصداقة بينه وبين المضيف قوية وإن كان يكبر قلقت ببضعة أعوام. المضيف رجل أبيض الوجه منتفخ الجفنين هادئ. يُفهم ولده الواقف إلى جانب الباب ما يريد دون كلمة واحدة: خرج فجاءهم بمائدة. ثم تسلّل دون أن يلاحظوا خروجه، فبدأ الرجال يتوافدون إلى المضافة. وكان من أوائلهم ونتغ. ابتسم لقلقت، وسأل عن أخته، ولكن الأخير لم يُعره اهتماماً. ولما دخل أخيراً رجلٌ متدلّي الشفتين، أعرج كونتغ، غمز المضيف ابنه ناهراً إياه، فرّم الولد كتفيه وخرج، ففهم الحضور أنه أتى دون دعوة.

بدأ قلقت حديث تضامن الأديغة وحدثهم، وهو الموضوع الذي يدور بقلقت. قاطع الرجل المتدلّي الشفتين، وقد بدت أسنانه العريضة كبذور القرع، كلام قلقت:

- أنتم الجان تريدون أن تعلّمونا زاعمين أنكم أعقل الناس وتعرفون كل شيء. يأتي أحدكم فيشدّنا إلى جهة النغوي، والآخر إلى روسيا. وأنت تدعو إلى وحدة الأديغة. إذن لا أحد يحتاج إلينا، الأبخاخ.

- أُسْكُتْ يا بَنَكْس! - نهر وتغ الرجل الضخم الفكين.
 - ومن أنت فُتْسِكِتْنِي! - رد عليه بنكس بمثله.
 وفجأة قفز وتغ وكأنه لم يعد أعرج، فاندفع نحو الرجل. ولكن المضيف قيده بيديه. ونظر إلى الرجل الضخم الفكين ساخطاً، وقال له:
 - ألا تنصرف يا بنكس! لماذا تثير الفرقة بين الجماعة؟
 خرج بنكس مائلاً على جنبه الأيمن مغمغماً.

VIII

"أفضل أن تكون عبداً للعقل من أن تكون سيداً للجنون" - لا يفارق هذا القول المأثور ذهن شبق منذ عاد من روسيا. يقتحم أفكاره المتلاطمة فجأة، سواء كان راكباً أم راجلاً أم على المائدة أم في الفراش. ويعتبر نفسه المقصود بالأقوال الصائبة. يقول لنفسه: "هذا يعود إلى طريقة تفكيرك ومن يفكر لأجلك. ثم هل يُضمر من يفكر لأجلك الخير لك أم الشر؟ إن كان لأماف، الزعيم الخَيْر فهو حسنٌ، ولكن إذا كان معه الأمير تاخ فهو سيء جداً. ولكني لم أحاول أن أوقف كيساً فارغاً كما كان والدنا يقول. لن يظهر في العالم من يفعل ذلك بالقوة أو بالعقل. لم يعيّرني أحد بأني لا أفعل الخير لقومي، أو لا أريد الخير لهم، أو لا أحزن لأجلهم. أنا أعيش مثل كل الناس الذين دعماهم هو أساسهم المغروس في أرضهم. أعيش مع الفرح والحزن. وفي الجان أمراء أغنى مني جداً لا يُحصون قطعان أغنامهم وأبقارهم، وذهبهم المكنوز، ولا يصلون إلى حدود مراعيهم وأراضيهم المزروعة. والأميران تاخ وفواخ، وإن تظاهرا بالحزن دائماً، من هؤلاء الأغنياء. يرتدي كلٌّ منهما كساء أزلياً مهترئاً، وقبعة باهتة فقدت لونها، تفوح منهما رائحة العرق. لبس فواخ قبل أيام قبعة جديدة فهنأته، وإن لم يكن صاحبي، على راحة رأسه، وراحة عيوننا. ومن يبشّر بأن تاخ غير كسائه الباهت يستحق حلواناً... ما ذنبي حتى أرتب أمور الدِّ عدوين لي؟.."

- نهر شبق نفسه.

وفي اللحظة نفسها سمع الأمير شبق صوت المبلِّغ فانتفض برأسه.

- أيتها القرية، وأيتها الحيّ أذكّرکم بأن مؤتمر الجان سينعقد يوم الجمعة، يوم الله. ندعو كل دُکّرٍ بالغ يرتدي قبعة إليه، سيُطلِعُکم الأمير شبق الذي تجاوزت شهرته شهرة الأمراء الآخرين برجولته وعقله على ما جاء به من رحلة روسيا. قال شبق لبجمت الذي استدعاه:

- استدع لي حالاً الأمير أقمقوه!

- صباحك سعيد يا أمير، - حيا أقمقوه.

- يُحبُّك الله يا أخي الصغير! - هل تسمع ما يقول المبلِّغ؟

- نعم، - أجباب غير مدرك سبب السؤال، - صوّته حادّ.

- لا أسأل عن صوت المبلِّغ يا أمير، - ارتفع صوت شبق المستاء رغماً عنه، ولكنه لئن صوته غير راضٍ عن موقفه من أخيه: - متى صرْتُ أعلى من كل الأمراء؟ ألاّني كبير أمراء الجان؟ وهل عجيب إن كنتُ اليوم كبير الأمراء؟ قد ينجح غيري غداً في الاقتراع ويحمل اللقب. وإن كان السببُ زيارتنا لروسيا فقد فعلنا مضطرين، ولم نذهب للتسلية. - وقال لأخيه وصورة ابنه الذي تركه في روسيا، ولا يعرف أخباره إلى الآن، تنتصب أمام عينيه: - اذهب بنفسك وأكّـد على المبلِّغ أن يلغي هذا المديح من ندائه. كم ألحّـث على المبلِّغين ألا يفعلوا هذا! وبلِّغ غيره من المنادين في القرى الأخرى عدم رضاي عن هذا المديح.

بعد قليل انقطع صوت المنادي في الحيّ الآخر. ثم استأنف النداء وقد حذف ما اعترض عليه الأمير الكبير.

قال شبق راضياً دون ادّعاء: "هذا مقبول، بل أحسن. لماذا هذه المبالغة التي تدعو أعدائي إلى السخرية؟ المبالغة في المديح والذمّ سيّان. ما الذي جرى حتى يرفعوني من الأرض إلى السماء؟ بدؤوا بمدحوني ولما يمحض على لقب الأمير الكبير نصف سنة. كنت جمعتُ الأمراء وأفهمتهم أني أكره المديح الزائد. وكذا في الانتخاب الثاني والثالث. والآن بعد رجوعنا من روسيا لا أعرف ماذا جرى للجان. تغيّروا جداً: الأمراء يغتابوني، والفلاحون يمدحوني. النبلاء يوافقوني، والأسر المتنفذة تكتفي بالابتسام. وإذا تكلم العبيد عليّ بالخير سكت الفلاحون. أنا المسؤول عن كل شيء كما قال لي لأماف. كان الوقت بداية

الربيع، وكنت حريصاً على الناس الغارقين في العمل، والتطوُّعِي منه، فتأخَّرْتُ في عقد المؤتمر، فانتشر الموضوع الذي تعبْتُ لأجله بروايات مختلفة، فأستغرب كلما وصلني كلام. سَعِدْتُ جماعة الأمير تاح والأمير فواخ وأمثالهما. وعلى نحو خاص يصلني من جهتهم كلام الأمير تاح ذي الرقبة الطويلة، يقولون للناس: امدحوا فَنَشَقُّوه¹ إن كان يستحق أو لا يستحق، هو مجرد كلام، لا تبيعون ولا تشترون، فلماذا تبخلون عليه؟ وأنا أعرف أساس هذا الكلام، وما يسببه لي من أذى. ولا أجهل أنهم سيعيرونني به يوماً ما. ولكن ما العمل؟ يصعبُ سُدُّ أفواه الجميع. وإن حاولت معارضتهم فمن سيمدون أيديهم إلى عيني أكثر...

أنقذ أذان الظهر المدوي شبق من أفكاره. وخلافاً للأيام الماضية في السنوات السابقة بدأ يُنصت للأذان وتخطر له أسئلة جديدة عليه. وكان ما لا يجد له جواباً أكثر مما يجد له. ويتذكر، كأنه اليوم، الدعاء الذي علَّمته إياه أمه وهو في سنته السادسة أو السابعة، وإلحاقه بالمدرسة الجديدة، والصعوبة التي وجدها في تعلُّم الأبجدية العربية. وربما ما كان نفر من الإسلام لو لم يكن المولى التركي قاسياً معه. كان من ينطق شيئاً بلغته يعاقب بالعصا على راحتيه الصغيرتين...

ما مضى مضى وانتهى. ومَرَّتْ سنوات كثيرة على أيام المدرسة. وقد مضى أكثر من مئة عام على الإسلام الآتي إلى الجان وغيرهم من الأديغة، وأقدم من هذا تعدد الآلهة، والمسيحية التي جاءتهم من بيزنطة الشرقية. وبعد الترك والنعوي الذين حملوا إليهم الإسلام فانتشر رياءً ونتيجة مؤامرات مرعبة وهدايا قيمة وحروب عند الضرورة، جاء الشيوخ والملاي وأناس متخفون آخرون. وإذا عجز أهل القرية عن بناء جامع ساعدتهم الأغنياء الأتراك. ويأتي من تركيا والقرم ومن بلاد العرب التي جاء منها القرآن رجال دين متنوعون يلبسون العباءات، ويغطون رؤوسهم بالأبيض والأخضر. والقادمون منهم من تركيا والقرم يحاربون القادمين من الشام كأنهم يخافون أن يسلبوهم ما ليس لهم. وأعجب من هذا أن يظهر أمثالهم من بين الأديغة المتناحرين الذين لا يعرفون معنى "بسم الله". ومن

¹ المقصود هو شبق، والأديغة غالباً ما يكتفون بالنسبة دون الاسم.

يردّون عليهم قائلين: لا تغيروا طريقة ركوبنا الخيل، ولا حلّنا للبقر، ولا تعيدوا تربيتنا، ليسوا قلائل.

مضى على الأذان بعض الوقت ولكن لا يزال ماء الوضوء الذي جاء به بجمت على حاله. ولا يزال شبق في مكانه. وصل بقلبه إلى موسكو التي ترك فيها ابنه دون أن يعرف كيف خرج من أفكاره الأديغية. وهاجمه فجأة رنين الأجراس المتجاوبة. ومَرّت أمام مخيلته من خلال السحبِ الغاديةِ الرائحةِ الرائيةُ التي يقع عليها الكرملين والبيوٲ القائمة عليها، والكنائس، والجدران الكلسية المنتصبة.

زفر شبق: "يا ربّ ما أخبار ابني؟ أُمريض هو أم سليم؟ هل اندمج بمن خالطهم؟ - ماذا أقول: خالطهم أم أُجبر على ذلك؟ لا، لم يفعل ذلك بإرادته. كان فيشنيفيسكي احتدّ علينا باسم قيصرهم إيفان كأن لهم علينا ديناً. وجحظت عينا شبيوتيف كأننا نراه لأول مرة. هكذا كلّفْتُني ورقتهم غالياً. حقاً هذه ورقتهم الغالية التي حصلتُ عليها. والعجيب أن جماعة الأمير تاخ يدينوني ويشتموني من أجل ابني وكأنه ابنهم، وكأنهم يحبونه أكثر مني... لا تجدون ما تلجموني به وليس حباً بابني ولا لطفة على الأديغة الذين تُبقوهم في مأساتهم مع غوي القرم بعلمكم أيها الحاسدون!.. على ما أرى لا أجد فرقاً كبيراً بين توقيتنا وتوقيت موسكو. الوقت عندنا وعندهم هو الظهر. وكما يُسمع صوت الأذان هنا، يُسمع رنين الأجراس هناك... وفي الحال ارتعب شبق شاعراً بأنه آذى ابنه وآذى نفسه. وتجنب الحديث في ما خطر له: لا، لا، هذا مستحيل!.. سيجعني تاخ وجماعته مُضغة في أفواه الجان المسلمين فيحاربوني، هذا خبرٌ كاذب. - وكما أن الملهوف لا يستطيع أن يعصّ مرفقه، وجد لنفسه حجة صادقة: الروس لا يقرعون الأجراس ظهراً... لن يفعل كُنّاك هذا دون أن يستشيرني، ودون إعلام عمه أفمقوه... ولكن إن أجبروه كما فعلوا بنا؟.."قفز شبق من مكانه كأن أحداً دفعه من الخلف فأنساه كلامه. جلس إلى جانب الطست، وتوضّأ ووقف إلى الصلاة. وبعد الصلاة جلس وألّف بلغته: "يا إلهي، يا من يتهل إليه الكثيرون ولا يتهل إلى أحد، اجعني من المسلمين الذين ستملهم رحمتك. الملهوف تحظر له أفكار كثيرة، فإن أخطأت في كلامي فساجني. لم أتابع عملاً لشخصي منذ أصبحت رجلاً

وإلى الآن، أحيا من أجل القوم الذين خلقتهم. أنا من أمتك التي هجرت الآلهة المتعددة والمسيحية. وأعرف أن بعض ممارسات هؤلاء تصدر عني. وأنت تعرف ثقلها عليّ. لا أستطيع حين أتوجه إليك في المآزق إلا أن أتذكر تلك الآلهة. ولولا أن سلطان الترك وخان القرم اللذين حملانا على الإسلام يسيطان علينا، فتفرض علينا الإتاوة، ويُخطف أولادنا، وتُسلَب أرضنا لما واجهناهم بالسيف، ولا بحثنا عمّن يساعدنا في الدفاع عما وهبنا من أرض، ولعشنا بسلام مع الجيران. وما لا أفهمه هو أن الدين لا يلجم المسلمين والمسيحيين عن الحرب. اعطف على ولدي الذي تركته بين المسيحيين مضطراً. من يعرف، لا يزال كُنّاك شاباً طائشاً، أخشى أن يعتده من حوله. وأعتقد أن هذا ممكن. أخشى أن يتجه إلى دين أجداده. لا تلمّه، وحملني ذنبه أحمله معي في الدار الفانية. وأتحمل نارك متى عدت إليك. ووقّني في عقد مؤتمر الجان الذي عندك علمه، ودعني أصرفهم في سلام. وحقّق لي الهدف الذي حملتني إياه. ولا شك أنك ستبقى في قلوبنا إلى الأبد ولو أننا استنجدنا بالمسيحيين لنحتمي أنفسنا" –

تلا: قل هو الله، ثلاث مرات بالعربية، ونهض من أمام الله.

ترجل فارسان عند مربط خيل شبق مع حر الظهيرة. أحدهما ظاظمي والآخر زغاشت. ودخلا مضافة شبق مرهقين، يبدو من هيئتهما أنهما قطعاً طريقاً طويلاً. استقبلهم الأمير بالترحيب. وما إن اغتسلا واستراحا حتى حضرت المائدة.

الحياة الأديغية مركّبة بطريقة عجيبة. العلاقات بين أصحاب النفوذ، وآراء بعضهم ببعض واحدة: أحوال العبيد والخدم والخادومات واضحة. يفيقون كل يوم قبل الشمس. ومتى هدأت الدار وبيت الإمارة أووا إلى الفراش وأمامهم المهمة نفسها. ويحدث أن يحسد بعضهم بعضاً وإن كانت مهامهم واحدة. العبد ينقذ ما يطلب منه بخدافيه مهما كان ثقيلاً. وإن عرف السيد بالمصادفة أنه لم يحن له رأسه أو أهمل واجبه ينهره ويسوطه. وهناك من يُخفون إن كان يندر من السيد أو امرأته مثل هذا. والحلّ الأخير هو بيعهم وشرأؤهم على شاطئ البحر. ولكن السيد والسيدة لا يبدلان العبيد إلا في حال الضرورة القصوى. العبيد يحسدون خدم الغرف، ولكن لا يندر أن يحسد الخدم

الفلاحين الرعاة الأحرار. حقاً حسنٌ أن تبقى تحت رقابة السيد والسيدة، ويحدث أن يتسما في وجهك، ويُسمعوك كلمة حلوة، وكذلك أن يوتخوك ويغضبوا عليك، ولكن تنفيذ مطالب شخص واحد أمرٌ صعبٌ. وبين السادة من يتغير رأيه في الأيام الطويلة سبع مرات.

يستطيع شخص واحد أن يطوّر أو يهدم الروح الأديغية التي تركها لنا القدماء. خصّ الأميرُ شبق الفلاح الجان بصدارة المائدة دون اعتبار كونه أميراً، وأجلس زغاشت إلى يساره. وتحدثوا في كثير من الأمور في سياق الكلام على مؤتمر الجان القادم مهتمين وغير مهتمين. وخطبوا مع الكأس، كلٌّ في دوره مع أفضلية الضيوف. وطوال الجلسة لم يسأل المضيف ضيفيه عما يُقلقهما، إذ ليس من تقاليد الأديغة. ولكنه لم يكن غير مستعد للإجابة على ما يمكن أن تثيره أسئلة المؤتمر من أسئلة جانبية، ولا أهمل التفكير فيها. وإذا توجه إلى المؤتمر الذي ربط به حياته في السنوات الأخيرة دون تحضير وضع منصبه على كِفِّ عفريت، واستعدى تركيا والقرم وجماعة الأمير تاخ، وضاع الهدف الذي هُرع من أجله إلى قيصر روسيا. استخلص من العجوز ظاظمي ومن زغاشت حِكماً ومغازي عن طريق المناورة. وأعلمهم أنه أرسل فرساناً رُصاداً على شاطئ بحر آزوف.

- هذا قرار صحيح، - أيده ظاظمي، - الله يقول: احرص على نفسك أحرص عليك. - لو كان هناك من يقصّر ألسنة هؤلاء...

- سيحضر المؤتمر كثيرون من الثرثارين، - ساهم زغاشت أيضاً برأيه. حياك الله. يقولون إن أساس الكذب هشٌّ ولكن يحدث أن يصعب اقتلاعه. مهما دعمت نفسك بالأنصار فلن تندم إن بقيت حريصاً... يسرنا يا ظاظمي أن تلقى كلمة أخرى مع الكأس!

- بكل سرور يا أمير، - رفع ظاظمي القدح متحمساً، - من أجل أن تتحقق نواياك، وتحفّ عينٌ من لا يودّك، ويعلو منصبك، وتعيش أسرّتك في سعادة، وتدوم صحتك وتبقى معنا طويلاً طويلاً، أرفع هذه الكأس يا أمير.

- حياك الله يا زعيم الخير، - قال الأمير ورضاه عما سمع بادٍ على وجهه وعلى صوته. واكتفى بنصف الكأس كي يقال إنه اهتم بالنخب المخصص له، - منذ زمن بعيد لم أسمع مثل هذه الكلمة الموجهة إلى شخصي. يُجئِلُ إليّ أن من

عادوني سرّاً أو علناً أكثر ممن وافقوني حين توجهت إلى قيصر روسيا لأضع حداً لما يفعل بنا خان القرم من مآسٍ.

- أنت تخطئ بهذا يا أمير، - قال زغاشت الحريص على نفسه أمام الأسرّ منه، - سامحني يا ظاظمي، قد لا يكون لي الحق في الكلام. ولكننا دخلنا إلى كثير من قرى الجان، والتقيننا بأشخاص مختلفين، وتحدثنا إليهم، فوجدنا أن من يذكرونك بالخير أكثر بكثير ممن يغتابونك.

- نعم يا زغاشت، نعم. لا تجافي الحقيقة، - استلم ظاظمي الكلام منه موافقاً له، - أنا كنت توجهت إلى القرم مضطراً. ولم أستطع الوصول رغم وجود رفيق لي. الحقيقة أن من أتابعه هو الولد الذي لم نستطع تربيته، ولكن هذا لاحقاً... - تنهد ظاظمي ثقيلاً بوجهه هرب منه الدم. ثم صحا، وأكمل بسرعة: - نعم التقينا بكثير من الناس، وتكلمنا على كثير من الموضوعات. ألا ترى يا أمير أنك إن تتقدم الناس فلن يحبك جميعهم، وها أنا قدّر الله لي امرأة لا أستطيع مهما فعلت إرضاءها، وهي السبب في هروب ولدنا الوحيد من البيت. حسناً ليست هذه مشكلات خطيرة. اذهب إلى مؤتمر الجان رافعاً رأسك دون الاهتمام بأقوال الناس كما يقول جاري لأماف. أنت منذ عرفناك واخترناك كبير أمراء لم تعمل لصالحك الشخصي. نحن همّك. مهما تصرف الناس معك فحسبك الأخير استقامتُك وإنسانيتك. والله أعينك يا أمير. وما كان في ذهننا أن نطيل الجلوس عندك. ولكن لم نر من اللائق أن نمر بدارك على أعتاب المؤتمر دون أن نترجل عندك. ولن أصدع رأسك بموموي في وقت التحضير للمؤتمر... - نهض ظاظمي، ثم توقف وزغاشت وراءه، - سنتقابل ثانية يوم المؤتمر بالخير يا أمير.

- نعم يا ظاظمي، إن شاء الله. بلّغ تحياتي إلى لأماف. كنت عنده يوم سافرتما. وبلّغوه ثانية رغبتني في رؤيته بين كبار المؤتمرين. ومن الجهة الأخرى أعرف يا ظاظمي منذ زمن بعيد ما يغتلي في قلبك بشأن ابنك مامي. لابد من حلّ ما له. أليس أديغياً، ألن يصحو؟!

- لا أظن يا أمير، - قال العجوز، ثم أضاف هازراً رأسه بأسى: - من برقبته كلّ هذا الدم الأديغي لن يعود إنساناً ولو صحا.

لا يتذكر الأمير فواخ أنه رأى مثل هذا العذاب الذي لقيه في مؤتمر الجان خلال السنوات الماضية، وقد أضيف إلى همّه غيابُ الأمير تاخ عن المؤتمر، وهو الذي أقام الدنيا وأقعدّها، فكان يحث بعقبَي قدميه من وقت لآخر جانبي الحصان الذي لا يشكو من شيء. إن حاول الإسراع لجمه، وأجبره أن يقذف بذنبه، ويدور بمؤخرته، ويحفر الأرض بقوائمه. والحرس الذين يتبعونه يعرفون أن هذا سلوك معتاد للأمير فيتبادلون نظرات الريبة مدركين أنه فال شرّ. ويتساءلون على ظهر من سيقع السوط أولاً.

الأمير فواخ يعذب نفسه والحصانَ قائلاً: "كيف تسمي المؤتمر الذي لم تُقل فيه جملة مفيدة مؤتمراً؟! ما أشد ما خدَعنا الأمير شبق ونحن الذين حكمنا عليه بالغفلة!.. روى لكل هؤلاء خبر روسيايضع كلمات دون أن يتهيب، واستمطر المديح من بضعة مسنين يرتجفون على عكاكيزهم، وصرف الفلاحين البلهاء، والأمراء أيضاً... لو لم يدعُ إلى إصدار قرار باسم المؤتمر لتصدينا له... ولكن الفلاحين التعاء أيدوه بسيوفهم المشهورة، فلم تبق فائدة مما تقول أو تفعل. وهل الأمير تاخ المحرّض أفضل من الأمير شبق الخبيث؟ اختبأ حين عرف أن مشروعنا خاسر. وتركني أنا للإهانة. وألحق بي العار أمام حرسِي وفلاحِي. لن أغفر له هذا! إن كنا سنتضامن فلنُفعل، وإلا فانصرف عني! انتظرني ريثما أصل إلى بيتك. ستنال نصيبك مني! مهلاً، مهلاً! - لجم الأمير حصانه فوقف على قائمتيه الخلفيتين. واستدار بسرعة إلى الحراس وراءه وسألهم:

- مَنْ مِنْكُمْ شهر سيفه؟

- أنا يا أمير، - وقف أمامه فارس بضعفي حجمه، - كنت شهرتُ سيفي ظناً مني بأننا وقعنا في مأزق. لم أسئ النية.

- حُذَّ أيها المهرج، كل هذا مع نيتك الخبيثة - ضرب الأمير حارسه بسوط الثيران الثقيل على وجهه، واستدار كأن لم يفعل شيئاً. وحثّ الحصان.

عرف الأمير تاخ حين لم يترجل الأمير فواخ عند مربط الخيل على باب داره أن لا خير ساراً، فنزل من على المسطبة متظاهراً بالُم في خاصرته:

- تفضّل يا أمير؛ ما جلوسك على ظهر الحصان؟!

- لن أتفضل، أنا مستعجل. ما سبب غيابك عن مؤتمر اليوم؟

- ما أشد ما انتهيت الحضور يا أمير! ها أنت ترى حالتي. خصري...
- أنا أركب معك سواءً كان خصري يؤلمني أم لا. وأنت تُريني نفسك تجرّ مؤخرتك! - احتدّ الأمير فواخ وتعكّرت عيناه، وضحك بشفتيه الرقيقتين.
- يا أمير أنت تهينني!.. - ضبط الأمير تاح الذي زاغت عيناه أعصابه بصعوبة، ولكن صوته ارتفع. ثم لامه كأن بلا سوء نية: - الحق هل جئت تقاتلني؟!
 - لا، ولكن سأصارك بحقيقتك: حان الوقت لتتخلى عن عادة تهيج الناس! - حث فواخ الحصان يتبعه حراسه، قائلاً في نفسه: "الذئب ذنبٌ من يثق بأمثالك!"

IX

- خرج المضيف بالضيوف إلى الفناء مشعراً إياهم بأن وقت النوم قد حان. ليلة صيفية لطيفة. عيون النجوم تلمع. والقمر الوليد يتجه إلى الغروب متدلي الطرفين. ومن الجبال يهب نسيم بحري رطب خفيف.
- قد تاطر الليلة، - قال قلقت وهو يتفحص السماء، ثم استدار إلى الغرب وأضاف: - والشهر كله سيكون ممطراً.
- السماء مضيئة ملأى بالنجوم، ابتسم حاتاي غير مصدّق ما سمع، - ولا تظهر الغيوم، ولا يُسمع رعدٌ من بعيد.
- قلقت يعرف ما يقول، -شهد له داور، - الهواء البحري الحار داخلته رطوبة. وهذه علامة اقتراب المطر. وإذا تدلّى طرفا الهلال فهذه علامة شهر مطير.
- لم أعرف هذا، سألني يا قلقت إن أخطأت، - مرة أخرى اعتذر حاتاي مع ابتسامة خفيفة. - الهواء الرطب والهواء الجاف سيّان عندي. ولم أكن أعرف عاقبة طرقي الهلال المتدليين. شكراً لكما على ما أضفتما إلى علمي.
- ونحن في عمرك، كان أهلنا يقولون لنا إنهم وجدونا تحت حمامة فنصدّقهم.
- أجاب قلقت صاحبه بصوت أجشّ دون مسحة هزل فتضاحك الرجال.
- سيتبين صحة ما قلتُ في منتصف الليل أو في الفجر.

أجفلت قطرات المطر المتساقطة على النافذة قبل طلوع الفجر حاتاي. وكان كلٌّ من قلقَت وداور متكئاً على طرف أريكتيه بعدما أفاقا ولبسا، والفراش الملفوف عند قدميه.

- استغرقتُ في النوم!.. - جلس حاتاي، أوْحَرَكما.

- لا بأس يا حاتاي، - طمأن قلقَت رفيقه، - المطر شرع تَوّاً يهطل. وسيصبّ ما عنده بسرعة. يقولون: من يُفق باكراً تلدُ له بقرته عجلاً. أفقنا باكراً لتؤكد إن كان كلامك صحيحاً ولكنك ترى ما حدث. - وحالاً بدأ المطر ينهمر مع ريح قوية. ولمع البرق، ودوى الرعد ملقياً الرعب في القلوب. - المضيف لا يطردنا، وخيلُنا في مكان جافّ فلا داعي للقلق. أليس صحيحاً يا داور؟
- ماذا قلت يا قلقَت؟ - كأني نعستُ من جديد دون أن أدري، - تظاهر داور بالسؤال.

- العاصفة المطرية ستتحسر بسرعة لأنها مصحوبة بالريح. ومتى جفّت الأرض قليلاً ركبنا.

- هذا أحسن قرار. لا أحد يطاردنا. - وافقه داور.

لم يطل المطر العاصف كما توقع قلقَت، واختتم بمطر ناعم. وأطل قرص الشمس على وجه الأرض المغسول حديثاً. وبدأ النهار الجديد بتغريد الطيور وصيح الديكة المتجاوب. وأصدر المضيف أصوات حركة من الدار ليتأكد من استيقاظ الضيفين.

دخل ونتغ الأعرج إلى المضافة قبل أن يمدوا أيديهم إلى الطعام. وقف إلى جانب قائمة الباب عارفاً أنه أتى في وقت غير مناسب، وهزّ يديه:

- لا ينهضون عن الطعام عادة. بالله عليكم أن تجلسوا، هنيئاً لكم طعامكم.

- شاركنا يا ونتغ، تفضل واجلس، دعا شَرِخ المضيف الجار ونتغ.

- لا، أكلتُ تَوّاً.

- لا بد أن يتسع لشيء، قلت لك: إجلس! - صاح المضيف على ونتغ. - كيف نأكل وأنت تنظر إلينا؟!

- لا بأس إذن في قليل من الطعام. - جلس ونتغ إلى المائدة ماداً رجله العرجاء تحتها، متظاهراً بالحياء. وألقى نظرة خوف على قلقت. ولكن الأخير كان يأكل بشهية مفتوحة غير عابئ بشيء.

بادر ونتغ بالحديث خائفاً أن ينصرف الضيوف حالما تُرْفَع المائدة.

- أرى يا قلقت أنك لا تطيق رؤيتي. وأعرف أنك لم تعد تفكر في إيذائي بعدما أصلحت خطئي. حسمت الموضوع قائلاً لي: لست صديقي ولا عدوي. ولكن لم يبق لي همٌّ إلا أن أصحبك. - تصبب جبين ونتغ عرفاً من إسرعه في الحديث. ورفع عينيه الواسعتين عن قلقت ونظر إلى داور وحاتاي والمضيف. وأقولا الحقيقة في حضرة هؤلاء دون خجل منهم: أنت من أبعدتني عن الطريق الخاطئ، ومن أعادني مجدداً إلى الحياة. ما كنت بدأت في سرده حين اختطفتني من قلب المؤتمر على ظهر الحصانхо أفكارك. ولكنها كانت حينها مجرد كلام وليست عن قناعة. لم يكن عندي هدفٌ إلا مناكدة الأمراء والمتنفذين الذين يحتلون الساحة. والآن صار هدفك في توحيد الأدبغة جزءاً مني. وهذا هو السبب في إلهابي جوّ السهرة أمس ضد بنكس حين بدأ يعارضك بكلام مسموم. ولولا التزامي بعهدي لأزهقتُ روح هذا الضخم الفكين. هذا الكلب القذر اللعين هو من ورّطني في هذه الأعمال المشبوهة. وأنا صرْتُ أعرج من وراء هذه المهنة. أنت لم تلاحظ يا قلقت حين دخل بنكس إلى المضافة مساء أمس كيف كان ينظر إلى حاتاي نظرات غير مريحة. صار عجوزاً فاستغنى عنه رفاقه اللصوص تقريباً ولكنه لا يستطيع نسيان ما اعتاده...

- ما أكثر ما تثرثر يا ونتغ، أتعبتني، وأمللت رفاقي، - قاطع قلقت الحديث، ثم قال مع ابتسامة خفيفة: - قل لي ماذا تريد مني في النهاية!

- لا أريد منك شيئاً بل أريد أن أقدم لك. - مرة أخرى نثر ونتغ الكلام مستيقاً الوقت. - اسمح لي أن أرافقك. ما أريده ليس كثيراً. متى جئت إلى نواحيننا فاسمح لي أن أرافقك إلى البسلني أو الأباطة. سأجول معك دون انقطاع إذ ليس عندي ما يشغلني من امرأة أو أولاد. ما من إنسان يفيض عن

الحاجة. ولن أصفك بما لا يجوز. أودّ أن أعمل في ما تبقي من عمري معروفاً
يذكرني الناس بعده بالخير.

- ما رأيكم يا شباب؛ هل ترون من المناسب أن يرافقنا ونتغ؟ - استشار
قلقت رفاقه بعينيه.

- الإنسان يخرج من الأزمة من أحد الطرفين، - ساهم شرح، - إما أن يصبح
أشدّ ظلماً أو يستقيم طريقه. ونتغ عاد إلى طريق الصواب.

- نقبله رقيقاً، - قال داور وحاتاي، ووافقهما قلقت.

- جهّز حصانك يا ونتغ، ولكن اعلّم أن أدنى شك فيك سيكون نهايتك ولو
كنت بسبع أرواح.

- وحصاني الذكي ينتظري جاهزاً يا قلقت، - أسرع ونتغ نحو الباب لا يسعه
الفرح وقد نسي عرجه، ثم توقف، وقال في غمرة الفرح: - حين استرجعت
حصاني من الشاب الناحوي حاول ألا يأخذ مني حصاني فأخرجته فأخذه.

صار ونتغ وراء الباب فقال شرح بنبرة رضا:

- كسبت ثواباً يا قلقت، أزحت عن صدر ونتغ حجراً ثقيلاً. لم يبق أثقل عليه
من إهمالك له بعدما عاد إلى رشده...

قاد شرح الفرسان للضيوف إلى ظاهر القرية وعاد، تجاوزوا أول مرتفع، ورأوا قطعاً
كبيراً من الغنم إلى اليسار، وإلى اليمين غابة كثيفة تنتهي إلى الجبل. التفت
ونتغ قلقاً وهم يتسلقون الطريق الصاعد:

- ماذا يا ونتغ، هل تريد العوة؟ - سأل قلقت.

- ليس عندي مثل هذه النية. ولكن فارساً يلاحقنا.

التفت الفرسان فم يروا فارساً أو راجلاً. ولكن فارساً يركب حصاناً صغيراً ظهر
على المرتفع فيما يصعدون.

- هذا ما بقي من خيل لبنكس القبيح بلثته البارزة، - قال ونتغ لرفاقه بنبرة
استياء، وتأخر عنهم. وصل بنكس وحاول الاقتراب منه ولكن ونتغ صده. -

ماذا تريد؟ هل طمعت في الشاب المرافق لنا تبيعه؟

- وهل هي فتاة حتى أطمع فيها؟ - أجاب بجفاء، وتوجه إلى الفرسان
الآخرين: - أحب أن أقول لحاتاي بضع كلمات إن لم يكن عندكم مانع.

- تبادل الفرسان النظرات، ثم توجهوا إلى قلقت الذي أشار بالموافقة، فتقدم حاتاي:

- أسمعك يا بنكس.

- هل حاتاي اسمك الحقيقي أم...

- أطلقت علي أمي هذا الاسم، وماذا بعد؟

- حياك الله، حصلت على الجواب المطلوب. - ابتسم بنكس للشاب، وانحرف إلى اليسار. ثم تجاوز الراعي الذي يحمل عصا معقوفة طويلة، واختفى في الوهدة.

- هذا القدر ينوي لنا شراً. - نظر وتغ قلقاً في وجوه رفاقه.

- وهل سيلاقينا بجيش، ماذا بإمكانه؟ - لم يهتم قلقت كثيراً بما حدث. - لا أرى بينكم جباناً. - ثم أضاف: ربما يشبه حاتاي بأحدهم.

تضاحك الفرسان وحثوا خيولهم. ومنذ بداية طريقهم، وفيما يراقب حاتاي حصان وتنع، مستغرباً كيف لا ينخسف ظهر الحصانذي الرأس الرفيع، غير العابي بحمله، الخفيف القوائم، الراغب دائماً في سبق الآخرين. وفي الوقت نفسه كان سؤال بنكس يحيره، فتدور به أفكاره: " أين يعرفني بنكس؟ أراه ويرانياول مرة. أقول كان بين من خطفوني وأنا طفل ولكن لا أذكر أنه كان بينهم شخص أعرج. أليكون التقى بهم لاحقاً؟ كانوا مقنعين حين حملوني ولكني أتذكر أصواتهم إلى الآن. أليكون حاضراً يوم باعوني أو كان سمساراً؟ لاشك أنه يعرف ما جرى لي..."

وفيما هم يجتازون النهر الصغير الذي لا يبلغ بطون الخيل جفل حاتاي إذ أمرهم قلقت بالإسراع. وتلفت حوله جزعاً، غير أنه لم يلمح شيئاً. فتحت السحابة القائمة التي تتقدم إليهم من ناحية الجبل كالجدار فمها. وعبر وراء رفاقه المرتفع المسطح. ولما التفت تعجب من المطر العاصف الماز مع الضفة.

- لأجل هذا يا حاتاي قيل إن مطر الصيف لا نظام له. - نظر إليه داور بضحكة تفسير، - وراءنا مطر، وأمامنا شمس.

اقترب الفرسان من القرية الصغيرة الجاثمة على ضفة النهر، والتفوا نحو الشرق. وعلى مسافة غلوة حصان ظهرت غابة مستديرة غير كبيرة. وقال وتنع:

- هناك عدة فرسان مجتمعون في الغابة. وإلى المائدة الخشبية الطويلة يجلس عدة رجال.

- ربما يستمتعون، - لم يهتمّ قلقت، وطمأن رفاقه، وبقي الوحيد الذي لا يفارقه القلق - الخوف.

وجّه قلقت حصانه نحو مجموعة الرجال حين صاروا مقابل الغابة:

- هنيئاً لكم طعامكم! - ترجل قلقت وتوجّه إلى الجالسين إلى المائدة. - فائقوي ليست قريبة ولا بعيدة، غريب توفّقكم هنا.

- وأنتم حللثم على مائدتنا المرتجلة، مُدّوا أيديكم إليها، - دعاهم الأمير مشقوه باسم الرجال الذين وقفوا ترحيباً. - كنا في قرية أباته، وكلما رجعنا من تلك الناحية استرحنا في هذا المكان. نستجمع أقوالنا وأفعالنا ونربّيها. ونشرب بعض الباخسمه. أنتم على طريق، إن كنتم بحاجة إلى رفقة رافقناكم.

- لا يا أمير، لا حاجة، قصّرت لنا طريقنا. نظر قلقت في وجه الأمير بعدما أكل قطعة لحم وشرب جرعة.

- أظنكم تبحثون عني. - فهم الأمير مشقوه ما وراء كلام قلقت. - سنركب حالاً. إن سمع الأمير شبق أني استضفتكم في الغابة استاء مني، تعالوا إلينا.

- هذا المكان مناسب لنا يا أمير، فلا تقلق! - طمأن قلقت الأمير. - حمّلي جاري الأمير شبق تحياته، ومتى عدتْ أبلغته تحياتك وأنتك بصحة جيدة.

- حياك الله، - جلس الأمير منتصباً، ونظر إلى الشاب الفلاح برأس عالٍ قائلاً في نفسه: "من الذي ربّي هذا؟ ما يجب ان نقوله له وما نسأل عنه يقوله لنا سلفاً. الأمير شبق بكلامه اللطيف يربي الجيران والأصدقاء. ويلقّنهم العادات والتقاليد. ألا ترى أننا لما سافرنا إلى موسكو قاطعين كل هذه المسافة رجعنا خائبين في حين عاد هو بوثيقة الاتفاق" - إن كنتم لن تفضلوا فهات المهمة التي تتابعونها!

- ما نحاوله يا أمير مهمة كبيرة لمن يهتم بها، ولا قيمة له لمن لا يهتم بها. وهناك من لا يريد سماعها البتّة. - قال قلقت مطرقاً برأسه الكبير، ونظر إلى مشقوه باسمًا. - شبق ودودارقهو على ما سمعنا لاحقاً، وتيمرقوه وأنت، عيونكم نحو روسيا. إن صدق حدسكم فلن أقول إن مسعاكم خاب. ولكن الورقة التي

أعطوها لشبق، لا يعرف ما فيها، تعطينا لروسيا عبيداً، وأرضنا، أمتنا جداً. أليس اتفأفأنا، نحن أعراق الأديغة، فنعيش موحدتي القوى، أفضل منها؟!

- وأنت كيف تفهم هذا يا قلقت؟ - ابتسم الأمير في وجه الفلاح الشاب الضخم مبطناً صوته بشيء من السخرية. - كل شيء سهل بالكلام، والمخرج والحل صعبان. وأنا أسمعهم يتكلمون على ما تطلب أنت. وأعرف أن تركيا وروسيا وغيرهما صارت دولاً، ولكن عقلي لا يستوعب كيفية توحيد الأديغة. قل أنت إن كنت تعرف الطريق. ضَعْنَا عليه! وإذا توقف الأمرُ عليّ فلن أتجه إلى روسيا ولا إلى تركيا.

- والله أفحمتني يا أمير، - تجمدت نظرة قلقت على وجه الأمير، - كنت أعتقد إلى الآن أن هدفنا سيتحقق إن كانت نوايانا، أتم ونحن، واحدة، ولكن أظن أن الكلام وحده لا يكفي.

- هذا هو، وافقْتَنِي وإن لم تكن راضياً عن كلامي. ارتاح مشقوقه راضياً عن نفسه. ولام في نفسه الفلاح الضخم: - "لا تظن أننا نحمل عبء الإمارة ونحن لا نعرف غير ما تعرف أنت. لا يكفينا النهار فلا ننام ليلنا وسط أفكار متصارعة" - ألم تخالط الأبراخ وتسمع رأيهم؟ لا يريدونكم، ولا يريدوننا، ولا غيرنا. كل أسرة تعتبر نفسها دولة مستقلة. وبالإضافة إلى ذلك فهم دون أمراء. الأعراق التي عندها أمراء يظن كبارهم وصغارهم أنهم يسلبونهم إمرتهم. يذكّرني الأبراخ بالجواميس حين تهاجمها الذئاب تدافع عن أنفسها في حلقة ومؤخرتها إلى الداخل وقرونها إلى الخارج. لن يسمحوا لك بمخالطتهم، ولا يخاطونك. - ما المخرج في رأيك إذن يا أمير؟

- توحيد الأديغة يحتاج إلى قوة خارقة. - طرق الأمير المائدة بقبضتيه، - وهذا ما اكتشفته في موسكو. سفك القيصر إيفان كثيراً من الدم ليؤلف دولة. قتل الأمراء الذين لا يريدون الدولة مثل أمرائنا. ومارس كثيراً من الظلم ولكن لم يكن له حلٌّ آخر. من متنا نحن الأديغة يمكنه أن يكون مثله؟ يجب أن يكون عندك جيش مخلص قوي لتحقيق هذا الهدف. من أمرائنا، كبارهم وأذكيائهم، حتى المبرزون منهم، عنده ما يسمى جيشاً؟ من عنده مئة فارس أو مئتان أو ثلاث؟ بضعة حراس فحسب. إن هاجمنا عدو استنفرتنا بضعة آلاف

من الفرسان، ومتى انتهت الحرب تفرقوا كلٌّ إلى ناحيته. لن نصبح دولة هكذا يا قلقت، أليس صحيحاً؟

- ويتجاوز الصحيح يا أمير. أثّرت في ذهني كثيراً من الأفكار. ولكن أليس من العار أن نياس فنتقاعد عن السعي؟ لماذا لا تتكفل بتوحيد الأديغة وعندك مثل هذا العقل وهذه الأفكار؟ لم أُلّلق إلى الآن بأمر أو نبيل أو متنفذ أو فلاح يستحق هذه المهمة مثلك. ارتفع صوت قلقت رغماً عنه مع الحماسة. وارتفعت أصوات مجموعتي الرجال الذين لم تصدر منهم نامة إلى الآن، غير أن الأمير مشقوه هدّأهم:

- قال الأديغة: لا تسمح لقبعتك أن تبرز من بين أخواتها. متى عرفوا أنك أعقل منهم، ويصل تفكيرك إلى ما لم يصلوا إليه حطموا رأسك وقبعتك معاً. لا أقول نحن قوم مجانيين، إنهم أذكاء ويرتبون أمور العالم، ولكنهم لا يعرفون مصلحتهم.

- والله كلامك في محلّه تماماً، - لم يُطق ونتغ صبراً، - كيف تتحول إلى جيّ وتدخل إلى قلب كل فرد منا لأننا لسنا مجانيين ولا عقلاء كما يقال.

- لا أقصد بكلامي أي قاعدٌ مكتوف اليدين. - نظر الأمير إلى الجالسين راضياً يريد ألا يوقعهم في اليأس، - متى يئس المرء عجزت الرجلان عن السير. لا تدعونا نتخلى عن الأمل. يقال إن ما تردده كثيراً يتحقق فخالطوا الناس، وليسمعوا دائماً ضرورة وحدتنا.

لا تزال كلمات الأمير مشقوه تتفاعل في قلب قلقت وهم يلتفتون حول نحر بشرة يساراً حتى يتجهوا إلى الجنوب. تغرق أفكاره في ما يتمناه، فيرى نفسه حيناً قائداً لجيش كبير، وعلى يمينه أمير كبير مثل مشقوه حيناً، ومثل شبق حيناً. ومتى نظر إلى رفاقه الثلاثة انقطع أمله. وفيما ينظر بطرف عينه إلى ونتغ يتراءى له الأمير تاخ، فيقول له في قلبه ساخطاً: "هذا الذي كأن عنقه إجاصة، واللعب يسيل من شدقيه كان يريد التخلص مني بكيس من الذهب.. ستنفق كثيراً من الذهب قبل أن تصل إلى عنقي يا تاخ اللعين. ثم لماذا يُعادينا؟ لا يُطبق توجّه شبق إلى روسيا. يريد أن يسلبه منصب كبير الأمراء، ويتجه بنا إلى القرم النغوي. وأنا يريد أن يقطع رأسي لأني مهتم

بمستقبل الأديغة. يريدنا أن نعيش نتحارب وتبادل نظرات العداء، ويسرق بعضنا بعضاً. وكما يقول ونتغ: نحن لسنا عقلاء ولا مجانين. لن تصبح أمة وأنت تعمل وتأكل، ولا تعرف ماذا يحدث لك غداً..."

- يا قلقت، ها هي قرية دودارقوايه!

- هل تظنهم حضّروا لك من البرك الساخن فتلمع عيناك؟!

- من يعرف؟ ألا يمكن أن تكون جدتي فيها فتستقبلني؟ - مازحه حاتاي.

أشار داور بطرف السوط ضاحكاً وقد اقتربوا من ظاهر القرية:

- انتظر يا حاتاي، ها هي جدتك تستقبلك بالبرك الساخن!

وقف الفرسان الأربعة مواجه الفرسان السبعة الذين وقفوا أمامهم لا يفصلهم إلا بضغّ خطوات. حيّوهم، وردّ الآخرون بلا حماسة. وخاطبهم بجميز الأمير الأباطي بجفاء:

- أخبرونا بمهمتكم.

- إن دعوتنا يا أمير صارحناك بما. - أجب قلقت باختصار، وأضاف بسرعة رغباً في تجنّب أي إشكال حول احتقار الأمير لهم: أنا وحاتاي نأتي من قنشقوه، ومعنا الفارس الأبخازي داور، وونتغ من المخوش.

- جمّعنكم مضحكة. - ابتسم الأمير الأباطي، - من ينقصكم بعد؟

ابتلع قلقت الإهانة، وأجاب بصوت جازم:

- والآن لو انضم إلينا ممثلون عن الأعراق التسعة الباقية لاكملنا. أنتم ونحن نتابع قضية واحدة. تركنا أميرنا الشاب وأميركم في موسكو.

- يا أمير! - ضحك الرجل البدن الواقف إلى جانب الأمير بصوت مسموع،

- هل دودارقوه غير المعروف أصله من تسمونه أميراً؟

شرح قلقت لحاتاي كلام الرجل البدن. ثم توجه إلى الأباطة: - لا يليق بكم السخرية من الموفدين!

- اسكت أنت يا قلقت الفلاح. عُذ إلى الجان التي أتيت منها، وقل للأمير

شبق أن يجلس يلحق الورقة التي عاد بها من موسكو. يتباهى بأنه تحقق له ما لم يتحقق لأميرنا يلّيز، ويرسل إلينا الوفود.

- لا علاقة لشبق بمجيئنا.

- اسكت يا فلاح، سأصرعك بصدر الحصان وأعجنتك مع التراب! - صرخ الأمير بجمرز وعينه تكدان تخرجان من محجريهما.
- لا تصلوا إلى القتل! - نادى قلقت رفيقيه، وألقى بالفارسين اللذين هجما عليه من الحصان، أحدهما بمقبض السيف، والآخر بقبضته.
- سأل الأمير بجمرز وقد شحب لونه واختلجت شفاته:
- أيّ حرب تشنونها علينا لا تميزون أميراً أو نبيلاً؟
- جوابنا مثل تحيتك. - ردّ قلقت، - لا أريد أن يقال عني: جاء الكلب المذنب فطرد الكلب البريء، وإلا فأنا أعرف ما تستحق. ما حققه شبق ولم تحقّقه رجولتك يمزّق حنجرتك. تتركونهم ينهبوننا غارقين في خلافاتكم...
- وفي الحال ألقى قلقت نظرة قلق على مجموعة الفرسان المدافعين. وعاد فاستل سيفه تحسباً من معركة جديدة. ولكنه طمأن نفسه معتقداً أن لن تحدث مشكلة معهم.
- قبل وصول الفرسان قفز الفارس الكهل الذي يتقدمهم من الحصان فزعاً، وتوجه إلى حاتاي يركض من حين لحين. وقفز الولد من الحصان:
- يا ولدي!
- يا والدنا! - هجم حاتاي على والده ييكى بدموع الفرح.
- كفى، كفى؛ ألسن رجلاً! - نصح جامبج ابنه وإن دمع عيناه أيضاً.
- صحا الأمير بجمرز، واقترب منهم ملاطفاً إياهم:
- يا أمير، لو عرفت أن ابنك بين هؤلاء... تعالوا، تفضلوا!
- والله لو أعطيتني سلة غسل لما دخلت دارك، بل ما مررت بها من بعد! - توافق قلقت مع الأمير الأباطي.
- تعالوا، القرية تنتظركم مجتمعة. لم يتحقق لأحد مثلاً ما تحقق لي من السعد!
- امتطى جامبج الحصان، واتخذ طريقه وابنه وقلقت إلى جانبه دون أن يودّع الأمير الأباطي بخير أو بشر.

X

طريق العودة إلى البيت سهل دائماً ومع ذلك كانت الأفكار الثقيلة تهيمن على قلقت.

قال قلقت جداً حين بقي الفارسان وحدهما:

- قف إلى يميني يا حاتاي. كنا نظنك البواب والخادم حتى تبين أنك ابن أمير، وهذا من الحظ السعيد.

- لا تدفعني إلى الخطأ يا قلقت. - قال حاتاي باحترام وإن كان قلبه مترعاً بالفرح. - أنت المقدم عندي حتى لو كنت ملكاً، لا أميراً فحسب. وثقت بي، اصطحبتي مائلاً نفسي بالاعتداد. لولا أنت لفارقت الحياة لا أعرف أصلي. لن أقف على يمينك مهما كانت الظروف.

- يسرني أن تشعر نحوي هذا الشعور. - نظر قلقت باشاً في وجه من عاد فأصبح أميراً. وأنا صادق معك. ولن أسمح لشيء أن يفرق بيننا ما استطعت.

- حياك الله يا قلقت. - لن أنسى إنسانيتك مهما حييت.

- لا داعي للشكر، - كان قلقت يؤيد كلام الأمير الشاب بلسانه ولكن الوسائس كانت تغزو قلبه. كان يتوجس قليلاً من عودته إلى حيث لا بيت له ولا شيء، تاركاً بيته، ولكن السؤال يلاحقه رغماً عنه: - لم تستجب لنداء والدك الأمير ولهفته ؛ أي قوة تعود بك إلى فنشقه؟

- أنت يا قلقت، قوئك، قضية الأديغة التي نذرت لها نفسك حملتني على أن أسافر معك. والدي والأمير مشقوه صاحبان. ويتوافقان في الآراء. وهو لم يرك سابقاً ولكنه سمع باسمك مراراً. ويؤيدك في مشروعك القومي. ضحك حاتاي مصطنعاً الحياء، وأنهى: - حين أقنعت والدي نصحتني: "صار عندك صديق يملك قلب رجل، ستصبح برفقته رجلاً. الولد وكلب الصيد نزيههما باصطحابهما. أنت انتزعوك مني فبلغت سن النضج دون أن ألتقي بك. لا تنس أن بيت إمارتك بانتظارك. وأنا لن أعمر ما لم يعمّرهُ البشر. سيحتاج أخوك وأختك الأصغران إلى ظلك..." ما رأيك في كلام والدي يا قلقت؟

- رجل ذكيّ. نصحك بما يفيض حكمة. مدّ الله في عمره. - دعا له قلقت من صميمه، - أقول هذا ولكن لم ألتق بأمير عاش طويلاً إلا الأمير تاخ ذي الصدر المريض.

- لماذا؟

- يقضون في الحروب والنزاعات. من يقود رجال القرية متى استنفروا؟ الأمير! - هذا صحيح- وافق حاتاي بصوت كئيب، - لا بأس ليرعّه الله، لن أغفر لنفسي إن حدث له مكروه في غيابي ونحن لم نعش معاً كل هذه السنين.

- لا تفكّر بالأسوأ بوجود الأحسن يا حاتاي. - قال قلقت وحثّ الحصان بهطل رذاذ من المطر مع الهواء الدافئ الذي يلفح العيون. والحديث الذي جرى مع الأمير مشقوه، علق في ذهن قلقت، ولا يزال صداه في أذنيه. ثم يطفو فوقه اعتراض الأمير بجمرز طريقه، ومحاولته إهانته، وتحريض الحراس عليه، ثم نظرات التوسل من الأمير فزعاً بعدما جرى لحراسه. وبعد كل هذا ترتسم دار الأمير الذي وجد ابنه أخيراً لم تعد تتسع للفرح، وقد اختُزِلت في صورة حاتاي الصبي يلعب مع أقرانه في السهل المقابل للغابة. وبعد أن يشبع الأولاد لعباً يتفرقون ناسين رفيقهم المخطوف. ويستنفّر الحرس وقد اقترب أذان المغرب، ومن يسألوهم تتفق أقوالهم: "كان معنا، لعبنا معاً..."

هاجت القرية: الفرسان والراجلة، فتشوا الغابة طولاً وعرضاً. والطرق الخارجة من القرية، وتخومها. وعادوا فجراً مرهقين. ثم عادوا إلى الغابة في الصباح لعلهم يجدون حذاءه أو مِرْقاً من قميصه أو بنطاله إن كان افترسه ذئبٌ أو دبٌّ. ولكن بلا أثر.

عاشت الأم سنوات في عذاب متصل لا تطيق عنقها حمل رأسها. ثم رُزقت بصبي. فرح الأمير وكل من يحيط بها. وأعقبته صبية بعد بضع سنوات أيضاً. وبعد سنتين أو ثلاث قتل الهمّ الأم. ولم يتزوج الأمير حتى كبر الصبي والصبية. ولكن هل كان الأمير يقضي بقية عمره أرملاً وهو في عزّ الرجولة؟! تشاور أصحابه فزوجوه من عانس من أسرة أمراء. وقد استقبلت هذه حاتاي بكل بشاشة. ورنت كلمات الأمير المفجوع في أذني قلقت: "لو شككت في أن ولدي مخطوف لبحثت في أطراف الأرض، لوصلتُ إلى تركيا، والقرم، لجُئتُ

أرجاء الأديغة. ومن أخبرني أن ابنك معي هو بنكس من المخوش، لا بد تعرفه، فكافأته في الحال بحصان مسرج، ولحقت بكم. ولم أصدّق أني سألقاكم... "

لم يعد قلقته راغباً في الحديث بخير أو بشرٍ عن بنكس. ولكنه خمن أنه كان على صلة باختطاف حاتاي.

"سليل مثل هذا الرجل الطيب القادر يعرف قيمة ما خدمته به فيُحسن الظنّ بي. ولكن كما يقول المثل: "البيلسان يُزهر وكلُّ يعود إلى أصله، فأين سيذهب حاتاي متجرداً من أصله؟" يبدّد قلقته أفكاره ملقياً نظرةً جانبيةً على رفيقه. ولا يصدّق إلى الآن أنه تبين عن ابن أسرة إمارة حقيقية. "سنرى كيف يتصرف مستقبلاً. وهناك سبب لعودته إلى قريتنا. يكتم سرّاً ما غير ما يقول لي. مهلاً، مهلاً، ما سبب إعتراف شبق لحاتاي بهذه السهولة والسرعة؟ لم يخطر لي ولكن شبق لم يفكر في أن يبني له بيتاً وهو الذي ربي في بيته كولد له، بل أطلقه تاركاً له قرار مصيره. ما الذي لم يكن شبق مرتاحاً له؟ أيكون شكٌّ في أن عينه على مينسورا؟ لا، رُتّباً معاً كأخ وأخت... حسناً دعك من هذا، ستكشف الأيام ما لانعرفه..."

ما يفكر به حاتاي أمرٌ آخر. يجي في نفسه، في غمرة فرحه، الأمل في تحقيق حبه المكتوم بعدما تبين أنه سليل أسرة إمارة: "لن يحجب الأمير شبق عني مينسورا متى عرف أني ابن أسرة إمارة. كنت أتصاغر معتبراً نفسي لا أستحقها. كنتُ من تُوجّه إليه كلماتها الدافئة وإن كنت أقنع نفسي بأنها تمازحني فحسب. وإذا دعت الحاجة فسأفتح قلبي لقلقته لأن شبق يُصغي إلى كلامه. سأوصيه ألا يعترض طريقنا..."

- ماذا إذن يا أمير، كلانا صامتٌ منغلِق على نفسه، - اقتحم قلقته أفكار الشاب، - ألم تشبع هواء بعدما خرجت من أعماق البحر؟

فهم حاتاي كثيراً مما تخفي مزحة قلقته، ولكنه لم يقبل لقب الأمير:

- أتوسل إليك يا قلقته ألا تناديني جداً أو هزلاً بالأمير. لا تُناديني باسمي الحقيقي ولا بالأمير. أريد أن أبقي على حالي معك.

- كفى، أتعهد ألا أكرر هذا اللقب.

استقبلت داريه الصغيرة الفارسين تطير من الفرح، وعانقت أخاها واشتكت إليه:

- ما أطول غيابكما! كاد قلبي ينفطر قلقاً... هل نسيتما أنني وحيدة في البيت؟

- من يبقى في قلبي إن نسيته يا أختي؟! - مسح براحتيه على رأسها، ولامها بلطف: - أما اتفقنا أن تنام معك ابنة الجيران؟

- ولكنها مثلي أيضاً، يغلبنا الخوف متى انتهت حديثنا.

- سأرفقك إذن متى سافرتُ بصبي نشيط كي لا تخاف.

- اسمع يا حاتاي ماذا يقول هذا! - تتعلق بذراع أخيها ضاحكة. - هل يُقال مثلاً هذا للأخت!

أعدت داريه للرجلين المائدة بخفة. وقال قلقت لأخته قبل أن يشرعا في الطعام: - هايتي أخبارك الآن!

- كيف لي أن أعرف ما يجري في القرية وأنا لا أخرج من البيت، ولا أنظر خارج الدار. - زمت داريه كتفيها الرفيعتين، زارتني قبل ثلاثة أيام مينسورا فأخبرتني بعقد مؤتمر الجان.

- نعم؟ قلت لي مؤتمر؟ غضب قلقت وألقى الملعقة الخشبية على الطاولة. - وهل كان شبق مجبراً فيعقد المؤتمر في أثناء غيابنا؟! نعم، ونتحمل ما نتحمل من أجله... ولكن أقول دائماً: ليس من يشعل النار هو من يتدقأ عليها. - وكيف جرت أعمال المؤتمر؟ - سأل حاتاي ولهفته على والد مينسورا بادية عليه.

- حسناً، لا مشكلة في غيابنا عنه؛ المهم أن يكون جرى كما يودّ شبق. - فال قلقت بنبرة تراجع، - كانت جماعة الأمير تاخ تستعد لشرب حرب عليه.

- جرى المؤتمر كما أراد أميرنا حسب أخبار مينسورا، ووافقه المؤتمر على ورقة موسكو. - أعلنت النهاية السعيدة للمؤتمر وهي تضع على المائدة عصير

الحميض، والقشدة، وأضافت: - هذا العصير والقشدة جاءني بهما مينسورا.

- هذا خبرٌ سعيد، طمأننت قلبي يا أختي. - نظر قلقت راضياً إلى أخته، وعاد فأمسك بالملعقة.

كان سماعُ اسم مينسورا ثلاث مرات أطيب إلى حاتاي من كل ما على المائدة. ونظر نحو الباب الذي دخلت منه كما لو أنها تدخل الآن. وسرت سعادة ملحوظة في أنحاء جسمه.

- ألا تأكل يا حاتاي، كأنك لم تكن على سفر؟ - أعاد سؤال داريه وضحكتها حاتاي إلى الواقع.

وقف حاتاي إلى النافذة فلمح الهلال الصاعد إلى كبد السماء. ثم رأى باب الإسطبل مفتوحاً فتذكر أنه لم يقيم بخدمة الحصانين، فخرج من البيت على عجل، لائماً نفسه، متذكراً نصيحة قلقت عن ضرورة اعتياد كلٍّ من الفارس والفرس على صاحبه. رأى جانب الحصان يلمع تحت ضوء القمر المتسلل عبر فتحة السقف، فسأل قلقت:

- ألا نسدّ هذه الفتحة غداً يا قلقت!

نظر قلقت نحو الفتحة وابتسم:

- وهذه نتيجة كسلي. الريح العاصفة في هذا الربيع جرفت القش عنه. والقصب الذي جئت به لا يزال وراء الحظيرة. سأطلب من أحد الخبراء بالقصب أن يسد به الفتحة.

- ولماذا تطلب من أحد في وجودي؟ - استلم حاتاي الحديث، - سنسقفه وحدنا، وعند الأمير قصبٌ للسقف.

- لا، لا حاجة إلى ما تقول، - ما عنده للبيوت فحسب، - وأنت أين تعلمت تركيب القصب؟

- في العام قبل الماضي أعيد سقف ما في دار الأمير من ملحقات بالقصب. تعلمت من خلال مساعدة الفلاحين.

نادى حاتاي قلقت من على السطح وهما في غمرة عملهما:

- بَسِمْتَ يناديك.

- ليدخل إلى الإسطبل إن أرادني، لن أنزل من أجله.

- أهكذا يُستقبل الصديق يا صاحب الرأس الكبير؟ - صدرت ضحكة

بسمت الناقدة من قلب الإسطبل. يقولون: من تعتمد عليه يصبح غريمك. جئتُ أعاتبك.

- ما عتبك عليّ يا بسمت؟
- لماذا لا تخبرني إذا كنت تريد إعادة تغطية الإسطبل؟ متى صار حاتاي أقرب إليك مني؟
- مضى أكثر من نصف شهر على إقامة حاتاي في بيتي.
- لا أعلم لي، - تراجع صوت بسمت. - هل حدث خلاف بينه وبين الأمير؟
- لا، لم يحدث بينهما ما يعكّر علاقتهما. حرّره فحسب.
- أعرف أنه رافقك في السفر، أخبرتني داريه.
- سأخبرك الآن إذن بأمر عجيب لا تعرفه: تبين أن الشاب الذي عاش بيننا سنوات عبداً - خادماً هو سليل أسرة إمارة.
- وهل هذا ممكن؟ أم تخدعني؟
- حاتاي، هل تسمع ما يقول هذا؟
- أسمع جيداً، - قال حاتاي وقد أخرج رأسه من الإسطبل. - لا خدعة ولا مزحة في الموضوع يا بسمت. عثرت بفضل صديقك على والدي وأخي وأختي الأصغرين. أنا من قرية غَشْتِغوايه، القرية التي والدي جامبج أميرها، إذا زرت المخوش يوماً...
- لا يا حاتاي، لست كثير الترحال مثل قلقت، أعرف أن هناك أعراقاً كالمخوش والبسلني والأبزاخ وغيرهم ولكن لم أخالطهم.
- قلّ لنا إذن ما تريد، ولا تعطلّنا عن عملنا. - قال قلقت بين الجد والمزح.
- لا تجزع، سأعوّضك الوقت، جئتُ أساعدك، لا لالتحاد معك. - لم يشعر بسمت بالإهانة إذ اعتاد على مزاح صديقه. - وأنت هل ترى من اللائق أن تكلف الأمير الشاب بهذا العمل في وجودي؟..
- أنا من بادر إلى هذا العمل، لا قلقت. - قال حاتاي، وأضاف:
- رجوتُ قلقت، وأرجوك أنت ألا تنادوني بلقب الأمير. لأبقَ حاتاي كما كنتُ.
- كما تريد، - نظر بسمت مندهشاً إلى الأمير الشاب الذي يأبى الإمارة. ثم اختتم بضحكة قصيرة: - أفقدني ما سمعتُ وعيي فنسيْتُ أن أهنتك. ليُدِمَ الله السعادة عليك، وليطُلْ عمر أبيك وأخويك فيشهدوا فرحك...

سَرَّ انضمام بسمت إليهما العمل إذ استُغني عن السِّلَم. ولما انتهوا من العمل خلف الحظيرة وانتقلوا إلى الأمام قل الوقت اللازم عن سابقه. أخرجوا من الماء عيدان القصب المنقوعة يوماً كاملاً، وربطوها من أسافلها، وحنوها من المنتصف. وتبيّن أن بسمت ماهرٌ في عمل القصب كما حاتاي. نظر حاتاي من خلال القصبات فقال:

- وصل الأمير...

- اتركه يستريح قليلاً، وإلى وقتها نكون أنهيّا العمل هنا فنذهب إليه. - شعر فقلت بأن حاتاي متلهّف على مقابلة الأمير فأجابه بكلام يسعده: - البسّ الكساء الأزرق الذي على صدره ظروف بيضاء، فنبهر عيني شبق!

انتهى العمل في الإسطبل، وفرغ الثلاثة من الطعام. ودّعا بسمت، ولبس حاتاي ما طُلب منه، مع الجزمة الحمراء. والقبة الكبيرة من جلد الخروف. - الآن صار منظرُك يأسر الأبواب تماماً. - أثني فقلت على الشاب الذي يتأمل نفسه.

- اقتربا من باب مضافة الأمير شبق، تأخر فقلت قصداً ومد يده إلى خصر حاتاي، ودفعه يريد أن يكون أمامه، ولكن الآخر رفض. واستقبلهما الأمير بالترحيب:

- طال غيابكما يا فقلت، أهلاً بكما. وأنت يا حاتاي كيف كانت أول سفرة لك؟ - تأمله الأمير مع الكلام، من القبة العالية إلى الجزمة الحمراء. - لابد أنها موفّقة، رجعتَ كأنك ابن أمير حقيقيّ.

- ليس مثل ابن أمير فحسب يا أمير، بل عاد ابن أمير حقيقياً. - أصلح فقلت كلام الأمير فخوراً بصاحبه.

- ما أعجب ما تقول! - صاح شبق، - هل حاتاي ابن أمير حقاً؟

- نعم يا أمير، هل تعرف جامبج أمير قرية عَشْتِغوايه؟

- وكيف لا أعرفه؟ - صديق عزيز للأمير مشقوه. قابلته مرتين أو ثلاثاً.

- إن كنت تعرفه فحاتاي هو الابن البكر للأمير جامبج. قضينا ثلاثة أيام في الاحتفال الذي أقامه بمناسبة عودة ابنه.

- لماذا عدتَ إلى هنا وقد وجدت نفسك أخيراً في أسرة إمارة؟! - تأمل شبق حاتاي ثانية بدهشة مستغرباً عودته أكثر من استغرابه كونه ابن أمير. - لا عندك بيت ولا مأوى...

- لا يولد الناس وعندهم كل شيء يا أمير، - ابتسم حاتاي للأمير بلطف، - والدنا يستعد لزيارتك ليعبرَ لك عن امتنانه الشديد. ويرسل إليك تحياته.

- حياك الله يا ولدي، - تبادل الاثنان علامات الاحترام، - أطل الله عمر والدك والملائكة يتناقلون سلامه، والناس يشتهونه... إن كنت عدتَ إلى القرية حباً فيها فستجد بيتاً. وسنفكر في هذا... - قطعت الذكرى البعيدة التي خطرت الآن كلمات شبق، قال لنفسه نادماً على أنه أجاب حاتاي حين قال وهو صبي: أنا ابن أمير، فلم يقبل منه: "أخطأتُ كان عليّ متابعة الموضوع..." روى قلقته للجار ما قال لأعراق الأديغة الذين خالطهم وما أجابوه به، وبعدما أطلعه الأمير على سير المؤتمر انصرف الشابتان. وما إن وصلا إلى الباب حتى تراءت مينسورا لحاتاي صبوحاً ملأى بالحبور. فارتعش قلبه، وصعد الدم إلى رأسه. حاول أن يخطو إلى الأمام كأنه يريد استقبالتها، ولكن قدميه لم تطاوعاه. ولما ظهر الأمير من وراء قلقته عادت مينسورا مدعورة إلى الغرفة.

أقام حاتاي المساء كله يروي ما يعرف عن والده وأخيه وأخته، غير متحمس لحديث قلقته، ولا مصغياً لثرثرة داريه. الآن تأكد أن الأمير شبق ارتاب في شعوره نحو ابنته: "فهمت لماذا لم يكن يريدني أن أعيش المزيد في دار الإمارة. ولكن مينسورا أسرتني. لماذا؟ تريدني، تحبني. وأنا أحبها. كلانا يريد الآخر. ألا يجب أن يلتقي القلبان المتحابان؟ ألا يمكن أن يفتح للشباب الأمير الطريق الذي أغلقه أمام الشاب العبد؟ الآن يعرف والدُها من أنا، ووالدي من معارفه. فماذا يستطيع أن يُمسك علي؟ إذا كان الأمير رأى كيف أثار وجه مينسورا كالشمس حين نظرت إليّ فعليه أن يسلمها من يدها إليّ..."

قضى حاتاي الليلة كلها يتقلب في الفراش والكأبة تغلب الأمل والفرح. وقبل الفجر بقليل غلبه النوم. أفاق قلقته مرة أو اثنتين فلاحظ أرق الشاب، غير أنه لم يكلمه. والآن هو بين الحصانين يريد ألا يوقظه، ولم يُفطر. حصان حاتاي قلقٌ إذ أنه في غير داره. ومن مدة لأخرى يصهل بصوت لطيف ويهز رأسه.

ويبحث بعينه عن مخرج من الدار. يحكّ قلقت له رقبتة، ويمسح على جبينه، ويهذّئه. ثم يرفع رأسه مع الصوت القوي الذي دوى فجأة.

- أين تذهبين؟ عودي حالاً!- السيدة زهرة تنادي غاضبة في إثر أحدهم، - أنت من طلبتُ منها أن تأخذ القشدة لداريه أم أخوك؟ سأجلدك يا كلبة!

- وماذا إن أوصلتها بيدي؟ - يُسمع صوت مينسورا الرفيع. - سأعطيها لداريه وأعود حالاً.

- سأفهمك ما فيها، - قلتُ لك عودي فحسب، - السيدة الأولى لا تتراجع.

يرى قلقت رجوع مينسورا دون رغبتها ويدها جرة القشدة. "ما حدث عجيب!.. كنت أقول حاتاي ومينسورا أخوان فإذا بهما عاشقان متيّمان. ولكن لا زهرة ولا شبق يريد حاتاي على ما أرى. ما الذي جرى؟ إذا كان عبدّهم أمس فالיום يقف أمامهما ابن أمير!.. أعرف يا أمير شبق ما الذي تتوجس منه: لا تريد أن تتكلم عليك القرية ساخرة: الشاب الذي ظل عبداً عنده سنوات إذا به ابن أمير، فزوجه ابنته فرحاً!.. ولكن، لا أنت ولا غيرك، يمكنه الوقوف في وجه ما قدره الله. وأنا أكنم في نفسي ولكن أفضي المهلة التي حُدّدت لي يوماً بيوم. إن سمعني يا شبق فلا تدخل بين النارين. إما أن تحرق، وإما أن تحرق العاشقين..."

XI

العالم كبيرٌ كالقلب، وصغير كالقلب أيضاً.

إن نظرت من خلل سور بيتك لم تصل عينك إلا إلى دار جارك. ومتى تركت حيّك إلى القرية حُيِّل إليك أن الأرض والسماء تلتقيان. هل الأفق قريب أم بعيد، وماذا وراءه؟ السؤال يلد سؤالاً.

إن اضطُرت حنيت رأسك، وانتفضت بها، وتفكرت في أوقات ضيقك، وجعلتك تلك الضرورة تبحث عن المخرج. أهو أحسن أم أسوأ؟ لاحقاً تكتشف هذا. إن عميت البصيرة عمي العين، ولم تتحرك القدم. منذ زمن بعيد فهم الأمير الكبير إيدارقوه تيمرقوه كما الأمير شبق. بدءاً من اليوم الذي هرب

فيه اضطراراً وبحثاً عن الفائدة إلى باقسان القبرتاي. وتجاوزُهُ أبناء قومه فتزويجُه ابنتيه من الغرباء جزء من هذا. كان زَوْج ابنته الكبرى أَلْتَنجَاجِه من بيكُبولات، خان أَسْتَرَاخان. وابنته مَلْخُزْبِه من تينْخُمت بن إسماعيل، خان قبيلة النغوي الكبرى...

كانت خانية أَسْتَرَاخان في عامي 1459 - 1460 غير بعيدة عن المكان الذي يصبُّ فيه نهر إيدِل في بحر قزوين. وحين تمزقت دولة القبيلة الذهبية انفصلت خانية أَسْتَرَاخان عنها واستقلت مسمية نفسها هذا الاسم. كان الخان يُعدُّ رأس الخانية، ولكنه لم يكن يملك من القوة ما يتناسب مع اسمه ومع الإمارة. الأغنياء هم من يسيطرون على الدولة متظاهرين بالتودد والتزلف إلى الخان. وكان من يسمُّون "الناس السود" القاطنون في بلداتهم¹ العاملون في الأرض يدفعون الإتاوة لهؤلاء الأغنياء.

وكما لم يكن في إقليم الأديغة وحدة لم يكن في خانية أَسْتَرَاخان أيضاً. كلُّ يعيش وفق استطاعته من حيلة وخبث، ورجولة وإنسانية. ويسيطر تبعاً لثروته، ويساهم في أعمال الخانية. وكما كانت أصقاعُ الأرض الأربعة تتنازع على دولة الأديغة التي لم تولد، فكذلك كان في العالم قوتان تتجاذبان أَسْتَرَاخان. - قبيلة النغوي الأقرب إليها مسافةً، وخانية القرم الأبعد منها من جهة البحر. وروسيا هي التي تسيطر على أَسْتَرَاخان راغبة في الاستيلاء على القوتين معاً. كانت تطمع في طريق التجارة الشرقي فوصلت إليهما. واستطاعت إزاحة قبيلة النغوي بالرياء والخبث والرشوة، وأزاحت الخان يامِراي، ونصّبت مكانه درويش علي المقرب منها. ثم تحالفت خانية القرم وقبيلة النغوي حين كان درويش علي يميل باتجاه القرم، فتحركت روسيا واحتلت خانية أَسْتَرَاخان، وضمّتها إلى دولتها. ولما أزيح درويش علي حلَّ بيكُبولات زوج أَلْتَنجَاج، المتحالف مع روسيا بقلبه وبعقله، محلّه.

كانت المرّة الثالثة التي يسافر فيها دومانقوه على طريق أَسْتَرَاخان. في المرة الأولى سافر مع زفة العروس، والمرّة الثانية كانت زيارة أقرباء، وفي هذه المرّة يزور

¹ يستعمل كلمة منغولية "ولوس" تعني نوعاً من المستوطنات الزراعية.

أخته باسم الأسرة. وكانت الرحلة الأولى لأخيه الأصغر مامسرقوه، يستغرب ما يرى، ويعلق بما يظن.

- ألا يزال الطريق طويلاً؟ - سأل مامسرقوه الصامت منذ الصباح. وعلق الزمام بطرف السرج، وخلع قبعته اللبادية، ومسح العرق بقبعته عن جبينه كما لو لم يعد مهتماً بالسؤال. ابتسم دومانقوه على يمينه، ولم يصدر عن الفرسان السبعة وراءه صوت. وبعد قليل غلبه عتبه: - ألا تقول شيئاً يا دومانقوه!

- هل تعبت يا أخي الصغير؟

- وهل أععب يا دومانقوه! - أبى مامسرقوه على نفسه ما سمع. - أليست للتنجاس التي لم أرها كل هذه الأعوام أختي؟ أود أن أراها، اشتقت إليها.

- يسرني أنك تحب أختك. - قال دومانقوه دون التفات، ودون مبالاة، وضحك من تحت شاربيه، - هي أخت غيرك كما أنها أختك.

- وهل تظني أجهل هذا؟ - سأل الأصغر بوجه ضاحك مزوح. - أتساءل فحسب أما من نهاية لهذا الطريق الذي نسير عليه منذ أسبوع.

ظل السؤال بلا جواب.

الأحصنة التي رعت في الليل العشب الطازج تدرج على الطريق تنخر حيناً وتنصب آذانها حيناً، وتنشر وقع حوافرها في البرية التي ابتعد عنها الصباح، الملائى بالأزهار المتنوعة الألوان. السماء عالية صافية كالمرآة. والفراشات تتطاير، والجنادب تتقافز على جانبي الطريق كأنها ترقص مع الفراشات. والشمس تصعد متمهلة إلى قبة السماء. والشمس تلعب فوق الأرض. ولا سحابة تائهة في السماء إلا النسيم اللطيف مع أوراق الأشجار.

- يا أخي مامسرقوه، - سأل دومانقوه كمن يعيد التفكير، - هل تعرف ما يسمى بالجنة؟

- سمعته يتحدثون عنها. ولم أدخل إليها. - مازح مامسرقوه أخاه، ولكن بان من صوته عدم رضاه التام عن أخيه.

- لا تخدع نفسك بهذه الحجة. لا تستعجل عليها. انظر حولك تجد كل ما حولك جنة.

- وأنت إحدِر أن يسمعك شيوخ الأمير أبشقه، - ضحك مامسرقوه، وأيد أخاه الأكبر. - نعم يا دومانقوه، جميل يسلب منك العين ويروي القلب. وأنا فكرت هذه اللحظة فيها. عالمنا جميل وإن تناحرنا فيه وتحاربنا، وربما هذا هو السبب في أن أحداً لا يريد مفارقتها متشبهاً بها بأصابه العشر. لا أحد يستغني عن حياته بإرادته معتقداً أن جنة الآخرة بانتظاره... المجنون يقتل نفسه بجنونه، والعاقل يفارق الحياة وهو يحمي روحه بسيفه... لا أعرف إن كان يخاف من جهنم؛ ما رأيك يا دومانقوه؟

نظر دومانقوه إلى مامسرقوه الذي لا يقل طول رجله عن ارتفاع الحصان كثيراً، وابتسم موافقاً أخاه في الحديث الذي نبت فجأة: "كنا نسخر من أخي إذ أعطاه الله قوة مجنونة، ولكنه يفكر في البعيد خلافاً لما يظهر لنا. ويتمتع بالفتنة..."

- غير بعيد البتة، ربما في الحياة أمور كثيرة لا نعرفها... ولكن في عالمنا ما يشبه ما يسميه شيوخنا جنة وناراً. الجنة أمام عينيك هذه اللحظة، وجهنم أمامنا غداً أو بعده.

- نعم، أوقف مامسرقوه حصانه مصدقاً ما قيل له.

- تعال، هيا، أمازحك فحسب. - نادى دومانقوه إلى الخلف، ولما وقف الأصغر إلى جانبه أكمل كلامه: - تتظاهر بالرجولة ولكنك ممن يرتعون من جهنم.

- لا أحد يريد ما دام يتنفس... -تمتم مامسرقوه، ولم يملك إلا أن يسأل: - هل أنت جاد؟

- ستري إن كنت جاداً أم غير جاد متى اجتزنا أرضنا الأديغية إلى الأرض التي أختنا سيدة فيها.

- أهذا ما تتكلم عليه؟ - ضحك مامسرقوه كأنه تذكر شيئاً كان يعرفه، ولحق بأخيه الأكبر.

سار الفرسان في نهار الصيف الطويل دون أن يستريحوا إلا مرات قليلة. ومع أن الخيل تمشي على الأرض التي يفرحون بها كلما تأملوها، وتحتهم الأرض نفسها، وفوقهم السماء نفسها، والشمس نفسها، فقد بدأ المنظر يسوء: الحشيش

نصف يابس، وأوراق الأشجار تصارع اليباس. وتغطي الأراضي السوداء شيئاً فشيئاً الرمال الصفراء، واختفت الفراشات، والشمس تعشش في الرؤوس، والسواقي الجافة تطل عليك بضفاف مهذّمة.

فيما يقضون الليل في أسفل مرتفع أجرد أيقظت الريح الحارة التي تفوح منها رائحة الملح الفرسان كلهم. كان الوقت فجراً مبكراً ومع ذلك فالظلام عامّ كأنه لن يعقبه نهار. والريح الرملية تلتف حول نفسها، والجبل الشرقي أحمر - أسود. والرمل الناعم يعبث فوق الأرض، ويمأأ العيون والأنوف والأفواه.

- اجمعوا الخيل واجعلوا رؤوسها إلى الداخل! - ينادي دومانقوه الحراس. - هاتوا أغطية الرؤوس والأكسية!

- أيّ قيام ساعة وقعنا فيه؟! - نصح مامسرقوه الحصان الذي وضع على ظهره راحته الضخمة، ونصح نفسه: - اطمئن! سنقع في كثير من هذه المواقف. وسننحو منها.

لا يتذكر الفرسان المدة التي قضوها مجتمعين. تتناقص قوة الريح وصوتها. وتتخلى عن ذرات الرمل عاجزة عن حملها. والجبل الشرقي الأسود يجمّر. ويبدأ النور الخافت يغلبه. والخيل نصبت من جديد آذانها وإن ظلت خافضة رؤوسها.

بعدما نفّض الرجال الرمل عنهم قال لهم دومانقوه:

- لن نفطر الآن. سنفكر فيه متى هدأت الريح ووجدنا مكاناً هادئاً. استغرق التفاف الفرسان حول المنبسط العاري الذي ليس عليه شجرة ولا نبتة وقتاً طويلاً. وخلال له توقفت الريح، وطلعت الشمس متمهلة. وبعدما مشوا مسافة توقفوا عند ساقية تنبع من أسفل المرتفع. أفطروا وسقوا الخيل، ولما صعدوا إلى المرتفع المسطح الأجرد كان ما صدم أعينهم منظرًا آخر: لا شيء حتى الأفق غير الرمل. ولا نبتة إلا بعض أشواك قليلة متجمعة هنا وهناك. ولا يبدو أحد في المدى المنظور غيرهم. والهوام التي كانت تقلقهم وخیلهم من ذباب وبعوض وغيرها اختفت كأن الريح كنستها. صمّت القفر الرملية يشدّدك إلى اليأس والملل. وكلما ارتفعت شمس الصيف قويّ لدغها. والكثبان الرملية

التي جمدها بردُ الليل تسخنها أشعة الشمس الحارقة. وتبدأ الرمال التي تتناثر من تحت حوافر الخيل تتصاعد إلى السماء.

- أيّ عالم بائس هذا الذي نفتحه الآن يا دومانقوه!.. - لم يتحمل مامسرقوه الذي ملأ الرمل صدره إلا أن يعلن.

- وهل هو أشدُّ بُساً من نار جهنم؟

- على قول مشايخنا في جهنم زبانية يُذكون النار، وبعض الأصوات الشاكية ؛ هنا لا أحد.

- وهذه مثل جهنم الأدیغة فلن ترى فيها شيئاً. ما أشدَّ استغرابك! ألم تسمع كيف فني الأدیغة في جهنم؟ - ابتسم دومانقوه، - اسمع إذن: قدّر جهنم تفور، والمذنبون يُلْقون فيذوب أكثرهم فيها. ومن يتسلل منها يُعدّون على الأصابع. حين وصل الدور إلى الأدیغة الثلاثة قيل لهم: " سنلقيكم في القدر فإن نجا أحدهم منها غفرنا له ذنوبه " ماذا تظن نهاية قصتهم؟ لم ينج أحدٌ منهم، كان من يُخرج رأسه يجره رفيقاه إلى القدر، فقضى الثلاثة في الماء المغلي... وهذا يا أمير ما يجري لنا في هذه الدنيا. ولكن ليست هذه الصحراء القفر مدعاة لليأس المطبق كما تتصور. انظر، هل ترى ما فوق كومة الرمل تلك؟

- هذا جرّذون.

- وسترى الأفاعي تزحف على الرمل، والخنافس تخرج من تحت الرمل. وهذا العود اليابس فيه روح. الطبيعة هنا مختلفة تماماً عن نواحيها. ولكن الأرض الممتدة إلى الأفق موطن أصهارنا. ولن يتنازلوا عنها ولو بخزان من الذهب... - وبعد مسافة سأل أخاه الصامت: - ماذا يا مامسرقوه "؟ ما الذي عقل لسانك؟ أهو ما حدث للأدیغة في جهنم أم هذه الصحراء؟

- أفكر في الاثنين... إن كنا سنعيش هكذا، أسرتنا، وعرقنا، والجبان والبسلني والأبناخ وغيرهم، فأنا أخاف أن تنفاني في دنيانا الجنة قبل أن نصل إلى جهنم... ما سبب تزويج والدنا أختنا البائسة لهؤلاء؟ وكذلك ملخرب كنه الغوي؟ حسناً فعلنا إذ لم ندفع بأختنا عُشُوناي إلى هذا الطريق. ونحن؟ صار علينا أن نحجر أرضنا التي ولدنا فيها وعشنا طفولتنا...

- يا أخي! - كان دومانقوه مرتاحاً لما يسمع، - لم أعرف أن عندك مثل هذه الأفكار مع مهارتك في المصارعة.

- نعم، أهتم بها، ولأنك أنت تهتم، وأخونا الأصغر، ووالدنا... - لم يكتف مامسرقوه بالقول بل انفطر قلبه، وسأل بعد قليل: - هل تجاوزت حدودي في الكلام يا أمير؟

- لا، بل نطقت من أعماق قلبي، - وافق دومانقوه أخاه الأصغر، ولكن لم يملك إلا أن يسأله عن الخلاف الذي نشب قبل أيام بين الإخوة الأربعة: - إن كان هذا رأيك فلماذا اتخذت من مسألة وحدة الأديغة التي يدعو إليها قلقك مادة للسخرية؟

- سأقول لك، وسأكرر، - كان مامسرقوه مستعداً للجواب. - وافقني والذي أيضاً إن كنت تتذكر. أجهل هذا الـ "قلق"، لا أعرف حتى إن كان يحمل نجمة في جبينه، ولكن ما يصعب تأييده هو كونه فلاحاً. ليس توحيد الأديغة وتأسيس دولة من مهام الفلاحين، بل الأمراء. يسرنا أن يتحقق هذا لوالدنا الأمير تيمرقوه، أو للأمير شبق، أو للأمير مشقوه... أمراؤنا الأديغة من الأمير أبشقوه والأمراء آل قايتقوه والأمير تاخ والأمير فواخ، والكثيرون من أمثالهم غيرهم، دُعك من خان القرم، وزعيم القوموق وسلطان تركيا، لن يسمحوا لك بهذا!

- أظن، حسب الظروف، أن روسيا التي يتوجه إليها والدنا هي أملنا. - نعم يا دومانقوه، وأنا أرى هذا أيضاً. إن لم نجد سنداً فستحرمنا جماعة الأمير أبشقوه، والترك والتتر من أسباب العيش.

اسودّ الأفق الشمالي الشرقي فجأة. وهطل المطر، وتوزّع على عدة فروع ممتدداً متمزقاً. وتلوّن شيئاً فشيئاً بالأصفر.

- المطر غزير في الجهة التي نساfer إليها... أو هبت عاصفة رملية... - استدرك مامسرقوه سريعاً.

- لم تخطئ في الاحتمال الأخير، - شهد دومانقوه على صحة ما يعرفه، واختتم بخير طيب: - لا خوف، العاصفة تتجه نحو الشمال. - ثم أضاف مشيراً لأخيه بطرف السوط المطوي: - هل ترى هذا اللون الرملي الأزرق

الواسع أماننا؟ لا أقصد الكئيبان الرملية، بل وراءها إلى اليمين، هذه مستنقعات
ينبت فيها القصب. وإلى جانبها شيء من العشب للخيّل. سنتعدى في هذا
المكان. سنريح الخيل، ونعيد ترتيب ملابسنا ومتاعنا. إن تحسّن الجوّ فسنسير
في الليل على ضوء القمر، وغداً نكون عند أختك.

- حسناً إذن، وها هو مستنقع القصب يقترب.

- لا تتخدد بالمستنقع يا أخي،- ابتسم دومانقوه، - افرح إن وصلنا بعد
الظهر. وهذه مثلُ جبالنا: تنظر إليها فتراها قريبة، وتمشي فإذا هي بعيدة. ما
أخبار من يتبعوننا؟

- آتون... - لفتت تنهيدة مامسرقوه رأس أخيه الأكبر، - ما لا يظهر هو
جبلنا أو شحه مافه.

- حسناً أن تحتفظ به في قلبك. وأنا أيضاً لا يفارق قلبي أينما سافرت.
حلمتُ به مرة وأنا في القمر. وفي طريق عودتنا عند التقاء نهر وارب بنهر بشزه،
نَجَمَ أو شحه مافه من الأرض، وانتصب أماننا مستنداً بقمّتيه إلى السماء.
- أتكون تخيّلت؟

- لا، وهل أنا طفل لأتخيل؟ - احتدّ دومانقوه في وجه أخيه. ثم شهد مسروراً
من أعماق قلبه:- في طريق الصعود إلى أعلى نهر وارب ستراه لا مرة فحسب.
ولكن يجب أن تكون سماؤك صافية وأرضك ليظهر أمامك.

- لا أعرف إذن ما يجري... - استغرب مامسرقوه، - الغيوم السوداء -
الصفراء الزاحفة نحو الجبل الشمالي لا تؤذينا. نهارنا منير، وسماؤنا صافية.
والشمس تعشش في أدمغتنا.

- لا تنس وقوعنا في المنخفض الذي يشبه قدور جهنم الفائرة. - ضحك
دومانقوه حتى جفل حصانه. واختتم بين الجد والمزح: - لئيبعد عنا الله هنا ما
جرى للأديغة في قِدر جهنم!..

- لن يحدث لنا هذا يا دومانقوه! - لم يدع مامسرقوه أخاه ينتظر، - ولكن لا
تنس أنت أيضاً أنه سيكون هناك أديغة يتشاجرون. وليبقِ جبلنا دائماً أمام
عيوننا!

لم يخطئ دومانقوه في تنبئه بليلة مقمرة. كان القمر ملاً السماء حتى لا تبدو إلا بضع نجوم. والأرض الرملية منيرة حتى لستطيع التقاط الإبرة التي تقع منك. الخيل تحب من حين لحين، وتنخر، ومن تحت حوافرها يتناثر الرمل الرطب. وأحياناً تأتي من بعيد أصوات وحوش تمزق نياط القلب. والأقرب منها تختبئ في الرمل بعيون لامعة.

يقول مامسرقوه وهو يرتدي البرنس: "وهنا تمضي الحياة بما يتناسب مع الأرض الرملية. حرٌّ في النهار لا تعرف معه أين تذهب برأسك، وبردٌ في الليل يجعد الأصابع. يقول شيوخنا إن الله عادل في عطائه، ولكن ما هذه الأرض بالقياس إلى أرضنا؟ نحن من أعطى الله، وليس أهل هذه المنطقة. مضت عدة أيام ونحن في الصحراء لم نر خلالها إنساناً. يمكنك أن تعيش عمرك الذي كتبه الله عليك وأنت لا تموت ولا تحيا. أفضل على هذه الأرض المضيق الأجرد الذي لعنه الله في نواحيننا. إيه يا أختنا الحبيبة، أي حظٍّ جاء بك إلى هنا على قول أمنا؟! تصرف والدنا مرغماً ولكن لماذا روسيا لا تفارق هذه المنطقة؟ ماذا رأت في هذه الأرض اليباب؟.."

- يا مامسرقوه، يا أخي الصغير، هل نمت على السر؟

- لا يا أخي، أتأمل.

- تأمل، فكّر! من يفكر ومن يبحث سيان.

- إن وجدت ما تريد فماذا تفعل بدنياك؟

- وهذا صحيح. لا أظن أن للصحراء التي نحن فيها طريقاً واحداً فحسب.

- ويمكن أن تقول: لا طريق البتة! - جزم الأخ الأكبر. - الطريق الذي نفتحه الليلة سيختفي من تلقاء نفسه غداً. هل سمعت قولهم: طريق القلب هو طريق العين؟ هذا هو سرُّ كلِّ الصحارى.

- نحن مضطران بسبب أختنا، ولكن ماذا تبغي روسيا من المنطقة التي غضب الله عليها؟ - لا يستطيع مامسرقوه إلا أن يسأل عما لم يجد له جواباً.

- ستعرف هذا صباح الغد، حين تصبح في حضن أختنا الدافئة. ثم أظنك تتناسى أن تركيا والقرم والفرس، بالإضافة إلى روسيا تطمع في أرض صهرنا.

أحرص على أن يستوعب رأسك الكبير أقوال والدنا أحياناً. ثق أن روسيا ضمنت إليها خانية أستراخان!

- ما أعجب ما يحدث في هذا العالم!.. - صاح مامسرقوه بصوت أجفل الخيل، وتبته الحراس. - كان عليك أن تضيف زعيم القوموق إلى من عددهم من الطامعين... - لا أعرف إذن ما يجري. كل مكان في العالم، لسنا وحدنا، ساحة للصراع. قل لي الآن ماذا ستفعل!

غاب القمر وخبت النجوم كأن الفجر يلاحقها. لم تفسح الشمس التي تتبع نجمة الصباح لعالم الصحراء الوقت للعتمة. وكلما احمر الأفق الشرقي تغير الجو. وتبدو من عالم الفجر الرمادي مستنقعات القصب، وبعض الأشجار القميئة. والطيور أكثر ما يصادفون. وحين ارتقوا المرتفع مع انخفاض الكثبان بالتدريج رأوا شيئاً يصحو في الطبيعة غير الفجر. العشب الخفيف ينمو متمهلاً على جوانب الصحراء. وينحسر اللون الأزرق شيئاً فشيئاً عن الفجر.

تبدو الغابة ذات الألوان المتعددة من بعيد. وتترأصف في البرية البيوت المستديرة المنصوبة، ويصادفون قطعان المواشي من خراف وأبقار، وجمال وخيل، وبعض الفرسان. وبينهم من يحييهم ومن لا يفعل. ومنهم من يدير رأس حصانه ويهرب جافلاً.

- ألم تسمع يا أخي الصغير النغوي يتكلمون على النهر الذي يسمونه "إيدل"؟ سأل دومانقوه عند نهاية رابية. ولفت أنظار رفاقه: ها هو النهر الكبير الذي يسميه النغوي: إيدل. والروس يسمونه اسماً آخر حسب ما سمعت من والدنا الأمير. ماذا يسميه الروس؟ أولغا؟... نعم، نعم، تذكرت: أولغا. ¹ ولكن النغوي لا يريدون أن يسمعوا هذا الاسم. يقولون إنه يححو اسمنا الجميل.

- هذا لا يهمني. نعب القري، وتهاجمنا الكلاب، والناس يتابعوننا بأنظارهم... أما يزال الطريق طويلاً؟ - سأل مامسرقوه مستاءً.

- متى قطعنا بضع غلوات حصان على يمين نهر إيدل أو أولغا فسنصل إلى أستراخان. ثم لن ندعهم يستخفون بنا فيقولوا: من هؤلاء القادمون؟ سنرسل

¹ هو الفولغا أطول أنهار أوربا، ورابع أطول أنهار العالم.

بضعة فرسان أمامنا يخبرون أقرباءنا أن يستقبلونا استقبالاً لائقاً. دُعهم يعرفون أن الأديعة لم يستقلوا من فوق شجرة! وقال في نفسه وقد أغاظه أخوه الأصغر بعض الغيظ، غير مُسمِعِ الحراس: "لا يظنوا أننا أرسلنا أختنا إلى هذا البعد من هيامنا بهم!"

استقبلت نخبة من فرسان النغوي الوفد قبل وصولهم إلى أستاخان بقليل. وخرج منهم أولاً شابٌ هو حفيد الأمير تيمرقوه، في حدود السادسة عشرة، اسمه سعيد - بولات، مكسوٌ بالذهب هو وحصانه. لجم حصانه أمام خالتيه، وخاطبهما بلهجة خليط من القبرتاي ولهجات الأديعة الأخرى:

- أهلاً بكما يا خالتي الجميلين. تفضّلاً إلى خانيتنا! وقفز من صهوة الحصان ناسياً كونه ابن الخان، غير مكترثٍ بالكبار الذين يرافقونه. وترجل من كانوا يتبعونه. وترجل خاله والحراس. وعانق الشاب خاله الأكبر فالأصغر، وحيّا الحراس. ثم أذن لرفاقه بلغة النغوي أن يركبوا ويسبقوه. ولما ركب هو بمساعدة الحراس ممسكين بالزمام وقف إلى يمين دومانقوه. وبقي مامسرقوه في مكانه. توجه مامسرقوه إلى ابن أخته حين وجد فرصة:

- من علّمك طريقة الأديعة في ترتيب الوقوف؟

- وكيف أجهل هذا وأتّي أديعية؟! - أجاب سعيد - بولات، وروى لخالتيه رغم أنهما يعرفان: - حديث أمانا يبدأ دائماً بعادات الأديعة. تربييني عليها إن أحسنْتُ التصرف أم أسأت. ولا يمضي يوم دون أن تتصرف بهذه العادات مع من يحيط بي. ثم إن كنت تتذكر يا مامسرقوه، كنت طلبتَ مني، وأنا في زيارتكم، أن أقف إلى يسارك. وكنت لطمتني بخفّة...

- نعم، نعم، كنت توجهت إليك ببعض النصائح أطلب منك التخلي عن عبثك. وكيف لم تنس هذه الحادثة؟ - ثم رجاه مامسرقوه بضحكة خفيفة: - سامحني يا بن الخان!

- استفدتُ من الحادثة، فأقول لك شكراً، لا داعي للاعتذار.

- هذا حسنٌ يا سعيد - بولت. - ساهم دومانقوه بضحكة خفيفة أيضاً. - ولكني لا أرتاح لنشرٍ والدتك عادات الأديعة بين النغوي... ماذا إن لم يقبل والدك الخان بيكبولات وطلّقها؟!

تغصّ دار الخان الواسعة بالناس، وتسمع منها أصواتٌ أوكورديون. وعلى جانبي الطريق بين المتجمهرين اصطفت فرسان مسلحون من الجيش. والشباب والبنات يستقبلون الضيوف بالغناء. والأخ الأصغر للخان استقبلهم برفقة امرأتين بمائدة عليها "العيّان" واللحم المسلوق. ولما انتهى الترحيب دُعي الضيوف إلى غرفة الخان.

نفض الخان بيكبولات من السرير الناعم على جانب الجدار، ورحب بهم طلق الوجه، ودُعي دومانقوه وماسرقوه إلى الجلوس في مواجهته. وأجلس إلى جانبه ابنه سعيد - بولات الذي سيترجم. وأمر أخاه الأصغر باستدعاء أختيهما بعد انتهاء المجاملات. ولكن ظهر من لغة الولد النغوي أنه يرفض شيئاً من أوامر الوالد. ابتسم الخان، ونادى الولد.

- استدعوها حالاً. الولد يقاتلني من أجل أمه.

- لا تُشعّ فينا عادة ليست لنا يا سعيد - بولات. لم يقبل دومانقوه من ابن أخته. - سنرى أملك في الوقت المناسب. ألسنا رجالاً، ألا نلبس قبعات! - ألقى نظرة رضا على ابن الخان. - هذه أختنا الكبيرة؛ نحن سنذهب إليها أولاً. أفهم الخان ضيوفه رضاه عما سمع بحزة رأس. وابتسم لابنه بما يعني: هذ المرة أخطأت في أدبغيتك. ورد الآخر على والده بابتسامة بريئة. وبعد المجاملات بدأ الخان يناور من بعيد بما يشغل باله، وتذكر جنكيز خان وباتّي خان ووالده. ودعا لهم أن تكون اللجنة مثواهم. ثم أنهى باختصار:

- تفككت دولتنا الكبرى، وبقينا لا شيء في العالم!

- سامحني يا خان، - لم يصبر دومانقوه، لو كان الأمر بيدي لما سمحت لك أن تقول "لا شيء". أنتم بالمقارنة بنا دولة مستقلة.

- لو لم نتحالف مع روسيا، - تنهد بيكبولات خان، - كنا دولة مستقلة... ولكن لم نجد أماناً في عهد والدي، ولا فيما أتذكر... من يمنحك الأمان في أرض استوليت عليها بالقوة! أنتم، رغم أنكم غير متفاهمين، الأرض التي تعيشون عليها أرضكم، تحتاجون إلى رجل حازم يجمعكم ويؤلف منكم دولة.

- مثل هذا الرجل الحازم يا خان، - قال مامسرقوه وضحكة خفيفة على شفثيه، وعيناه نحو أخيه، - ظهر بيننا نحن الأديغة، واسمه قلقت. والحق أنه لم يصل بعد إلى القبرتاي.

- وأنا سمعت اسمه يا أمير، - ابتسم الخان بيكبولات أيضاً، - روى لي أخباره الضيف الذي جاءني من القرم.

- هل تسمع يا دومانقوه؟ وصل خبر الفلاح الجان إلى هنا، - بدت السخرية من صوت مامسرقوه.

- غير بعيد يا أمير، غير بعيد يا مامسرقوه، - أجاب الخان بدلاً من دومانقوه بنبرة لا تميز جدّها من هزلها. - ما سيأتي به عقل ورجولة الفلاح الذين تأتون على ذكره. هذا فلاح حرّ. جنكيز خان احتل العالم من البحر إلى البحر بعدما عاد من الأسر... من كان يدري أن الوغز، القبيلة ذات الأصل التركي ستصل إلى بيزنطة، وتؤلف دولة بني عثمان؟ وأن خان القرم سيقف إلى جانبه؟.. والروس؟ من كان يعرف أنهم سيرفعون رؤوسهم من جديد ويستولون على خانية قازان، وخانيتنا أستراخان، وبلاد النغوي الكبرى، وبلاد النغوي الصغرى؟.. - تنهد الخان بيكبولات، وعاد حالاً من عالم آخر كان فيه: - لماذا أصدع رؤوسكم يا أقربائي الغالين وأنتم فارقتم طريق السفر تواء. لا فائدة من أن ندهن شفاهكم بالدهن ولا نطعمكم. قابِلوا أختكم، لا تدعوني أذنب بحقها. سيحين موعد صلاة الظهر ريثما تتناولون الطعام. ثم نتكلم في موضوعاتنا النغوي - الأديغة على نحو أكثر تفصيلاً... وأضاف وهو يلتفت إلى الأمير الشاب ويعتدّ به: - احرصوا على الأقرباء، لا تُشعروهم بأي هاجس. هيا أسمع أحوالك الكلمات الماثورة الأديفية التي علّمتك إياها والدتك.

- المحافظة على القريب كالمحافظة على البيضة. - قال سعيد - بولات بالأديغة، ثم وجه القول الأديفي الآخر إلى والده بلغة النغوي. وترجمها إلى الأديفية: المضيف قائد والضيف لا رأي له.

- أحسنَتْ يا بن أختنا! - أفلت كلام الشاب لسان دومانقوه. لم تضعنا في موضع سخرية في حضرة والدك الخان الكبير. أبلغه هذا الكلام بخذافيره!¹

...

لم تسمح ألتنجاج خلال السنوات الثماني عشرة التي عاشتها بين النغوي أن يتكلموا عليها بسوء. ليس سهلاً الاندماج في قوم لا تعرف لغتهم ولا عاداتهم، فتصبح واحداً منهم. ستكون حياتك سهلة إذا حملت معهم أفراحهم وأحزانهم، وتجاهل ما يفرحهم ولا تُظيقه أنت، ولا تتعالى على لغتهم، ولا تتصام عن أغانيهم ورقصاتهم. كل هذه التجارب مرت بها ألتنجاج. وليس السبب في قدرتها على هذا التكيف أنها زوجة خان، بل لأن أساس تربيتها هو الشرف الذي غرسه فيها أسرتها الأم. وفرضت عليهم محبتها بطبيعتها. كان النغوي يقابلونها بقولهم المأثور: "أولادها يعيشون، وما تحيطه لا ينفق".

جلس الأخوان طويلاً بعد الغداء لا يشبعان من رؤية أختهما. وتكلما معها في أمور كثيرة. وطوال هذا الوقت لم يفارقهم سعيد - بولات. يستعذب ويستحلي كل ما يراه ويسمعه. ويساهم في الحديث أحياناً بما يبلغه عقله فيؤيدونه ويؤيدهم. وليس قليلاً ما يعارضهم فيه حين يصل الحديث إلى روسيا. وحين يحدث خلافٌ ما بين الأم وابنها تتخلص ألتنجاج من الموقف مازحة بقولها: "ابن أختكم هذا قلبه موزعٌ بين النغوي والأديغة والروس". ولم يكن سعيد - بولات يعقب على ما يقال له مسروراً في داخله.

ألتنجاج امرأةٌ وسيمة كما أخواها الجسيمان. طويلة الوجه، ممتلئة. سمراء صبوح. ويتناسب الأنف الرفيع مع الحاجبين الرفيعين المتباعدين. وتطل العين ذكية صافية من تحت الرموش الطويلة. والشفتان المدورتان تناسبان الوجنتين الحمراوين. تحافظ على قوامها معتدلاً تحت الشال الحريري. وعلى الرأس قبعة ملونة موشاة بالذهب والفضة. والقرطان، والخواتم، المرصعة كلها بالأحجار الكريمة، والثوب الضافي على العقبين، كل هذا تفحصه مامسرقوه.

¹ هذا المقطع بلهجة القبرتاي.

يقول مامسرقوه: "من منا تشبه ألتنجاج؟ فيها شيء من أمنا، ولم تفقد أثر والدها بعينيها الذكيتين. ومن دومانقوه لا تحمل إلا شكل الشفتين. ومني لا تحمل شيئاً. لا، بل تشبهي قليلاً في جبهتي الناتئة. أما بُلغايِرقوه فلا أعرف من أين أتى، ليس فيه شيء منا. يقال إنه يشبه جده لأمه. ومَلْخُرب؟ يعدّونها أقرب إليّ. الآن فهمت من تشبه ألتنجاج: لولا زُيْها النغوي فهي عُشُوناي..."

- أنا مسرور يا دومانقوه، - أضافت ألتنجاج إلى كلام أخيها، - حسنٌ أن زعيم القوموق هدأ. وقد شكرتُ صهركم على هذا. ولكن لا أعرف مصيركم إن اتجهنا نحن إلى موسكو... لن تتراحوا مع جماعة الأمير أبشقوه، وسيهيجون عليكم خان القرم بلا حدود... قرار والدنا بالتوجه إلى روسيا صحيح، وبلّغوه رضاي عنه. تبقون في كل الأحوال تحت حماية روسيا. وسمعنا أن أمير الجان شبق كان هناك وتحالف معه. ولما كان قيصر روسيا ولّانا خانية قاسم فإن صرنا في تلك الناحية أمكننا أن نرعاكم على نحو أفضل.

- ومتى سيحدث هذا؟ - سأل دومانقوه، - أطلّعنا الصهر على مرادكم ولكن لم نجد من اللائق سؤاله عن الموعد.

- هذا ليس سرّاً يا دومانقوه، - قالت ألتنجاج ما تعرفه، - نتوقع ألا يتجاوز هذا الخريف. ولا تظنّ يا أخويّ أن الوضع مستقر هنا جداً. يعيشون في خلاف وصراع كما عندكم. وكل المصائب تأتي من الخانات الصغار.

- إذا كنتم أنتم أيضاً في هذه الحالة، - قال مامسرقوه، - فما الذي نتابعه نحن؟ ما الذي لا نفهمه إلى الآن؟

- الأديغة والنغوي ليسوا متشابهين يا أخي الصغير الوسيم، - التفتت ألتنجاج إلى ولدها نادمة على احتداد صوتها، ثم تابعت بصوت ألطف: - النغوي الذين أربي لهم ولدهم رُحُلٌ منذ الأزل. والأديغة مستقرون. ثم إن من أنا كنّتهم أسسوا دولة. لا يكفي لحماية القوم أن يجتمع الناس ويختاروا كبير أمراء على عادة الأديغة. لا يعدّ نفسه أمةً من ليس له دولة! تركيا أسست دولة مستقلة، وفي روسيا سُفِكَ الدم لهذا الهدف، وهذا ما يقوّي دولة فارس... - ثم سألت ألتنجاج أخاها دومانقوه عن سبب التفاته المستمر إلى أخيه طوال حديثها: - هل ترى أخاك لأول مرة؟

- يا أختي، أفكارك هذه يطرحها رجل من الفلاحين خرج من بين ظهرانيها، ولذا أنظر إلى أخي أذكره به.

- لا أتذكر اسم هذا الفلاح. سمعنا نحن أيضاً بأخباره، - أعادت ألتنجاج ذكر من تكلم عليه بيكبولات صباحاً كأنها كانت حاضرة معهم.

- سأذكر بك باسمه إذن يا أختي، هو قلقت، ثرثار من الجان، - قال مامسرقوه ساخراً وضحك.

- لا مأخذ على هدف الفلاح قلقت يا مامسرقوه، - استغربت ألتنجاج رفض أخيها، - ربما يحركه القلق على حال الأديغة. يستحق أن تؤيده إن كان يتمتع بالقوة والعقل الضروريين.

- هل سمعت يا أخي؟ - سأل دومانقوه بصوتٍ مرج.

- سمعتُ ولكن نسيتهُ! - جزم مامسرقوه، وأنهى بالمزاح: - الحقّ أتساءل ألا تنام خانية القرم ليلاً؟ هل تريدون أن نسهر الليل كله؟! ...

مدد الضيوف الأديغة أيام زيارتهم الودية لأستراخان إلى سبعة. وداروا بهم في أرجاء الخانية. وصادوا الغزلان. وزاروا نهر إيدل وبحر قزوين. وأكلوا من لحم الخيل وشربوا من العيران وحليب الخيل حتى عافته نفوسهم. واستعرضوا أمامهم سباقات الإبل والرمي بالسهم. ولم يبق كثير على تزويج مامسرقوه العازب من فتاة من النغوي...

ولم يملّ الضيوف في طريق العودة من تكرار الحديث في نزول مامسرقوه فجأة إلى حلبة المصارعة، وانتصاره على بطل النغوي...

الحب الذي يَكُنهُ الشراكسة بلا حدود للحرية والشجاعة لا يستطيع أيُّ كان أن يلجمه. لا يعرفون منذ ريعان الشباب مآثرة إلا تقوية الجسد، وإجادة استعمال السلاح، وامتطاء الخيل، والانتصار على العدو. ويعدون الجبن عاراً.
ج. ف. أ. تَبو دو ماريني

تتوزّع شركيسيا على أربع عشرة إمارة، يعيشون كلٌّ ضمن حدود إمارته. ولكن متى طمعت في سلبهم حريتهم تضافروا جميعاً كعصا واحدة.
ك. غلافاني

يثقن الشراكسة الكرم إلى أقصى الحدود. يقدمون إليك عن طيب خاطر كل ما عندهم إلا الخيل والسلاح.
د. إنترينانو

I

من الصعب فهمُ العلاقة بين تركيا والقرم: ظاهراً ترحب إحداهما بالأخرى وتبشّر في وجهها، ولكن من الصعب معرفة ما في النفوس. ومن يعرفُ بأمر سوء التفاهم الحادث بين الدولتين في العام الماضي شخصان: السلطان والخان. وربما يشعر به ولا يجهله بضعةُ الأشخاص المقربين منهما، ولكنهم يخافون من الخوض، بل التفكير فيه. وليس السبب أن زعيمَي الدولتين يتنازعان شيئاً ما، بل لأن علاقتهما بالأديغة لا تدع لهما راحة.

منذ توغل الأتراك في بيزنطة، ومنذ أسسوا دولتهم، كانت أرض الأديغة الخصبة وراء البحر الأسود من جملة مطاعمهم. ولكن سُبُل الاقتراب من الأديغة الذين يعيشون على حريتهم ورجولتهم كانت محدودة. وكانت خانية القرم من بين الأسباب التي تصعبُ الموضوع. لم تكن تركيا تجد من اللائق أن تتجاوز دولةَ القرم الأقرب إليها لغةً وفكراً وعاداتٍ وغطّ حياةٍ، المسيطرة الآن على الأديغة، فتستولي على أرضهم، لا حباً بالقرم ولا لهفة عليها، فمن الصعب إقامة علاقة من هذا النوع بين الدول التي لا تنتهي من الحروب، وهذا هو السبب في الارتياح المتبادل بينهما. ولكن توجب أن تأتي من جانب الأديغة المبادرة إلى المشروع التركي الذي انتظرته طويلاً. وقد ساهم السلطان والخان في الأمر بعلمهما وبدونه. تطّلع الأديغة نحو روسيا سنداً حين أرهقهم المدّ من الجانب الآخر، بعدما كانوا متفردين بآرائهم لا يستشيرون أحداً على رأي الترك والنجوي. وأول من فعل هذا هم البسلني والأباطة في العام الماضي. والجنان هذا العام، قبل وقت قصير. وقبرتاي منطقة ترج الذين يتزعمهم تيمرقوه.

كان مصدر المأساة التي يتعرض لها الروس والأديغة هو خانية القرم، فكانت تركيا تسعى لاستغلال هذا الوضع بهدف تحقيق نواياها الأتلية. كانت القرم فقدت في السنوات الست أو السبع الأخيرة قوتها السابقة ؛ فقدت خانيات قازان وأستراخان والنجوي التي صارت حالياً جزءاً من روسيا. ولم يبق لها ملجأ إلا تركيا وبولونيا العدو الأتلي لروسيا. ولكن القلق كان يساور دولت — جري

بعدما فهم أن تركيا ستتخلى عنه شيئاً فشيئاً. ولما كان موضع ثقته الوحيد هو عادل - جري، ابن زوجته الأديغة، أولى زوجاته الأربع في الترتيب، فقد قال له يوماً:

- هذا هو الوضع يا ولدي، بدأ جيش فرساننا يتفرق.

- ثِقْ بالفرسان الثلاثة المتبقين يا موفد الله.

- من أين تعرف إن لم يبق غيرُ ثلاثة؟- ارتعب دولت - جري مما سمع.

- أنا مهموم بما أنت مهموم به يا موفد الله. لم أتصور أن قازان وأستراخان والنغوي ستنفصل عنا بهذه السرعة.

- وهل تظنهم كانوا معنا؟

- أعدُّ أعداء روسيا حلفاءنا يا موفد الله..

- وهل تصدق يا ولدي أنني موفد الله؟

- يا والدنا!

- نعم، نعم يا ولدي. لا أحد في هذا المكان غيرنا.

- نعم، أصدِّق..- أجاب عادل - جري بما يعني: ما هذا السؤال، - هل كانت أمتك تطيعك لو لم تكن موفد الله!

- أفهم يا ولدي، أفهم... - بدا على وجه دولت جري رضاه عن سرعة بديهة ابنه أمله. وأضاف بعد قليل: - سرّني أنك فهمت المغزى حتى لو لم توافقني في ما سألت. من سميتهم أمتي لا يُعتدّ بهم، هؤلاء كما تربّهم... ولكن لا تتصور أن كل أعداء الروس إلى جانبنا. نعم، هذه الخانيات التي عددها فعلت ما استطاعت لفائدتها. كنا معتمدهم. لم يستطيعوا حماية أنفسهم. ربما لم يحدث لهم ما حدث لو سمعوا كلامنا. كانوا ينتظرون ما سيحدث لنا حين نغزو الروس. والآن يندبون حالهم، ويرسلون إلينا الموفدين يطلبون منا عدم التراجع.

- كلامك كله صحيح يا موفد الله. - وافق عادل - جري والده مشدداً على الكلمتين الأخيرتين. - ولكن كان بينهم من لم يصدّق معنا. ومن خيّب أملنا تماماً هو بيكبولات. وبالقياس إليه كان درويش علي مخلصاً لنا.

- يقولون: الرجل لا يأكل رجلاً، والكلاب لا تميّز. كان درويش علي مقبولاً بالمقارنة مع بيكبولات، ولكنه لم يكن أيضاً صالحاً جداً. كان أحسن الرجال

هو الخان يامرغجي. بأيٍّ من الفارسين اللذين عادا فوقفا إلى جانبنا من بين الثلاثة المذكورين تثق؟ - سأل دولت - جري على نحو خبيثٍ غير صريح دون أن يذكر اسم السلطان سليمان وسيغmond زعيم بولونيا. وبشّ له:

- لا تعجبني طريقة سؤالك يا موفد الله، ولكن سأعطيك رأيي إذ سألت: لن أستطيع التخلي عن ابن عرقنا وديننا سليمان إلى من ليس منا ولا من ديننا، سيغmond الكافر. ولكن الأفضل ألا تثق بأي منهما تاركاً إياهما يتأملان منك. الحقيقة يا والدنا، أثق بمن تثق به.

- شكراً يا ولد، ليس بيننا غير هذه العلاقة. ليس كلُّ من ولدتهم أم واحدة إخواناً. ولا كلُّ من الزوجين ثقة الآخر. وكذلك الأصدقاء. ليس اليوم فحسبُ تدين أسرتنا بهذا. وليست قليلة المرات التي تركنا حلفائنا فيها للسلب والخطف. أليس لهذا قالوا: من الصعب إخفاء ما في البطن وما في البستان. كان السلطان التركي أخفى عني سرّه في لبيب قطن الفتيل، غير أن رائحته وصلت إليّ. ظلّ يتسم في وجعنا زاعماً أنه معنا، ويهمس من ورائنا في أذن القيصر الروسي. والآخر يحبه بكلمات معسولة لأن هذا ما يريده.

- هذه خيانة يا والدنا! - استدارت عينا عادل - جري الصغيرتان الصفراوان. - ليست هذه خيانة فحسبُ!.. - صبر دولت - جري بصعوبة أمام الشاب ولكن لم يستطع إلا أن يصيح، ثم أضاف باسمًا: - يبدو أننا نحن والأديغة هم هدف احتيالهم.

- وهل يعرف الأديغة السرّ بين روسيا وتركيا؟ - سأل دولت خان ابنه بصوت غاضب، وحين نظر الولد في وجه والده الداهل، عاد إلى وعيه: - سامحني يا والدنا... ولكن لم يخطر لي قطّ أن يمارس السلطان التركي من ورائنا مثل هذه الخيانة. ما موقف الأديغة الأذكياء - المجانين، دغك من الروس أعدائنا الأذليين.

- وأنا أتعجب من الأديغة... - تنهد دولت - جري عميقاً وكأنه مشفق عليهم. وارتسم في عينيه ما جرى للخانيات التي كانت كلُّ منها دعماً للأخرى، فتساقطت، ووقفت إلى صف الروس، وكيف كانت علاقاتهم تتم من خلال الوفود، وكيف لم يكونوا يتقبلون الروس الكفار كبشر وكدولة، ويسلبونهم

بالغزوات: "الآن يزيد حزني مع توسُّعهم المستمرسنة بعد سنة على خانية أستراخان أكثر من حزني على خانية قازان إذ قطعوا طريق التجارة بين الشرق والغرب. سيغتنون من هذا، وسيمتدون إلينا منتشين كما يُجَنِّ الدبُّ حين يفترس إنساناً، مستليلاً لحمه..." - أعادت سعدة الابن الخان إلى حاله، وخرج من أفكاره المتصارعة. وأضاف: - نعم، من أتعجب منهم هم الأديغة: عرق جميل يعيش الحرية، شجاع في حماية أرضه. وتتسع عقولهم للكثير من الأمور. وتصلنا فضائل عاداتهم أيضاً، وتصل إلى تركيا... لو لم يكن منهم، وهم أخلاف الممالك الذين احتلوا مصر أكثر من مئة عام، إلا قانشاوغر¹... لن أسمح لك يا ولدي أن تصف الأديغة أقربائك بالـ "الأذكياء المجانين" لأنهم ليسوا أصدقاءنا. هل كان الأديغة الذين لا يحنون رؤوسهم لأحد أسرعوا إلى الكفار لو كانوا يعرفون بأسرار تركيا وروسيا؟!!

- إن كانوا لا يعرفون حيي رؤوسهم فنحن من يجب أن يعلموهم يا موفد الله. - كان عادل - جري يبدي تشدداً أمام والده، غير مستغرب ما يسمع، وغير مستعد للانحناء. ولم يكن دولت - جري يود تصوير المهمة سهلة لولده وإن كان مسروراً لكلامه. فقال له مُفهِماً إياه:

- ليس لهذا أسلوب وحيد. وهذا سبب اجتماعنا أنت وأنا اليوم. ولا يعرف غيرنا بالمسألة. فكرت كثيراً ووجدت أكثر من مخرج. هذا الموضوع كالعصا التي لها طرفان. الطرفان يخرزانك ما إن تمد يدك وإن لم يكونا مسنونين. ولكن علينا أن نصبر على أحد الطرفين وإن جرحنا، وهو تركيا التي تريد أن تلعب معنا لعبة الغميضة. وعلى رأيك ما قيمة بولونيا التي تجاهد طوال عمرها للهدف نفسه دون نتيجة. ومألنا نحن في هذا العالم هو تركيا إن كانت صالحة أم طالحة، هو السلطان سليمان...

- فهمتُ يا موفد الله، - قال عادل - جري ملاطفاً والده الواقع في ورطة. - علينا أن نحرص على تركيا مهما تصرف معنا. ولكن سنعرِّفها قيمتها في وقت

¹ قانشاوغوري. والغوري هو تعريب "غر" بمعنى النحيف. وقانشاوغوري من كلمتين: قان: من

رباه غير أهله. وشاوغوري: الشاب.

مناسب لنا. ونحن كما يقول الأديغة لا نشرب الماء من أنوفنا! - أكمل بصوت أعلى.

اليوم فحسب، بل الساعة، عرف دولت - جري صاحب الستة والخمسين عاماً، الممسكُ بزمام الخانية منذ ما لا يذكر من الأعوام، أنه إنسان، أبّ. وإذا كان لا يصدّق هو نفسه أحياناً أنه موفد الله، فلاول مرة انتبه إلى أن الشمس تقتحم غرفته، ويتنفس فيها، ويفرح ويقلق. ألقي نظرة ودّ على ابنه، وابتسم له كمن يقول: هل عرفتني؟ أنا والدك! ودعا له: "يا إلهي الذي يتوسل إليه الكثيرون ولا يتوسل إلى أحد، أطل لي عمر ابن الخان هذا، جيّبه السهام والسيوف، واعطف عليه. لا أهمل أولاد سائر زوجاتي الأخريات، أنت منحتني إياهم، وأنا أحبهم، غير أن عادل - جري الجالس في حضرتك هو أُملي في خانية القرم التي ورثنا إياها أجدادنا فحقّق لي هدي، وانصبرني على الكفار الذين يهاجمونا. ولتّ لي قلب السلطان سليمان، وخيّب أهدافه التي يكتمها عني. ولي رجاء آخر يا إلهي، دع الأديغة يسالمونا وإن تصارعوا فيما بينهم. وقو قلب سيغموند الذي حالفتنا به ضد الأعداء. وأعد من فارقونا من قومنا إلى رشدهم!"

قال دولت جري لابنه وقد هدأ قلبه بعدما انتهى من دعائه:

- حياك الله، رفعت من عزيمتي. لينطق لسائلك بالخير دائماً!.. أنا واثق من أن فرصة ما ستحين لنذكر سليمان بما قلته. وأعرف أن دعائي ودعائك سيصلان سريعاً إلى الله. لا سرّ لحليفتنا تركيا مع أحد، تعادي الروس الكفار. وسيفها مشهر عليهم دائماً. وروسيا هي من يرسل الموفدين السريين بشأن الأديغة. تستدعي من جهة الموفدين الأديغة إليها، وتعددهم بمساندتهم، وتضمّ بعضهم إلى جيشها. ومن جهة أخرى تخاطب تركيا وخانية القرم سراً، وأنا متأكد يا عادل - جري مما أقول. تقسم روسيا إقليم الأديغة من الشرق إلى الغرب إلى ثلاثة أقسام: تحتل واحداً منها، والثاني تعطيه لنا، والثالث لتركيا. هذا رأيي في هذا الموضوع؛ هل فهمتُ ما أقصده؟

- فكَرَّتْ بِذَكَاءٍ، - التمتع عينا عادل - جري فرحاً، ثم انقلب إلى القسوة:
- ستكون فتنة بين الروس والترك والأديغة، وسيجرونا إليها، ولكن على كلِّ
طرف منها البحث عن المخرج الممكن؛ أليس هذا ما تريد قوله يا موفد الله؟
- نعم، وإلى حينها سنتجهز بالجيش وبالسلاح. لا يجوز انتظار ما سيحدث.
سنهاجم القيصر إيفان وندحره. وسنجر المخادع سليمان على أن يفتح فمه
دهشة. ولكن موضوعنا لا يكفي الكلام فيه. علينا إطلاق المخبرين بكثرة بين
الأديغة.

- وماذا سيكون موقف من يودوننا منهم؟
- نحن لا نميز بين من يودُّنا ومن لا يودُّنا من الأديغة، كلهم سواءٌ عندنا. -
أشعَّ الغضب من عيني دولت - جري. - لا تحدِّثني عن الأمير أبشوق. يخاطبنا
حين يزورنا بلسان معسول، لماذا لم يتصدَّ لموفدي الأمير تيمرقوه إلى الروس؟
أبلغونا بعدما وصلوا إلى حيث قرروا الذهاب.
كان عادل - جري قد شرد كأنه صار في عالم آخر، فغيَّر صوتُ ضحكة
الخان الثقيلة سُحْنَتَهُ:

- ليس مامي البسقاق في عداد من لن تثق بهم إن كان هو من ببالك.
-أصبت، ولكن لم يخطر لي هذا بشأن مامي. وليت مسؤولينا ومحاربينا كانوا
مثله؛ كنا أحرقنا منذ زمن طويل طريق موسكوالكافرة!.. - اختتم عادل -
جري كمن يحدِّث نفسه، ولكن يُسمع والده.
- وسيحين هذا الوقتُ يا عادل - جري. حقق الله أمنيَّتنا! - ثم أعاد الخان
التفكير في مامي وقال: - لا يجوز إطلاق البسقاق مامي على المشروع الذي
اتفقنا، أنت وأنا، عليه بحجة أننا واثقون منه.
- هذا أمرٌ منتهٍ يا موفد الله، قال عادل - جري باختصار، وأردف بما يشغل
باله: - غاب طويلاً في الجانيه، يشغلني تأخُّره.

- لا أظنه أوقع نفسه بيد ميرزا التتار الخائن... لم أرتكب يا ولدي حماقة في
السنوات الأخيرة أشدَّ من تركي إياه يخرج سالماً من القرم. يتهمني بما أستحق
وما لا أستحق، بما فعلتُ ولم أفعل... فضحني بين الأديغة الذين علاقاتي بهم

ليست جيدة... ليتني شهدت رأس الميرزا التتار ملقى أمامي. وكنتُ أفنع بأن أنكبه بأحد أولاده. وإن بدأت بالولد، وأوجعته ما دام حياً فهو أفضل!

...

بعدما تحدث الأب والابن بأسبوع توجهت مجموعات من مروجي الأخبار من القرم إلى الأديغة.

استقرت مجموعة بين الجانيه - الناختوي - البجدوغ، وثانية بين الأبخاخ - المخوش - البسني، وتوجهت الثالثة إلى القبرتاي. والمجموعات الثلاث موثوقة من قبل الأديغة، تزور باسم القرابة.

لم ينفذ البسقاق مامي تماماً المهمة التي أرسلوه بها إلى الجانيه ولكنه أتى لدولت - جري، لا برأس تتار - ميرزا الذي كان ينتظره، بل برأس الصبي الأصغر كأنه سمع ما قيل له وهو منصرف.

II

ما تريده يؤدي إلى ما لا تريده، وقد يأتي ما تريده مما لا تريده...

"ماذا كان مصير الإنسان لو كان ما في العالم غير موزع، فتأخذ ما تشاء وتترك ما تشاء دون أن يخص المال هذا الشخص أو ذاك؟ وعلى سبيل المثال: لو كانت الطرق والدروب مستقيمة تماماً، والأشجار عمودية، والأخار صافية، والنهار والليل لا يتعاقبان، والناس متشابهين بألوانهم وأشكالهم وأصواتهم، ويتكلمون لغة واحدة، ولا يشي بعضهم ببعض، ولا يتحاربون. ولا دول ولا حكام، ولا ينقسمون إلى أمراء وفلاحين وعبيد وخدم، كلٌّ يعيش على هواه..." - قطع صوت الباب أفكار شبق، وخرجت من قائمتي الباب زهرة سيده البيت بملابس النوم الرقيقة الجميلة.

- تعالي، تعالي... يسرني أنك جئت إلي على غير عادتك. أنت جميلة، أنيقة...

- أريد أن أكون جميلة دائماً في نظرك يا شبق... ولا تنظر إليّ كأني مبتذلة أو متمرده. ولا تسخر مني: هذه أول مرة أقوم فيها بهذه المبادرة طوال سني حياتنا المشتركة...

- لا، وكيف يخطر لي مثلُ هذا يا حبيبتِي؟ - اختلجت أطراف شبق. وسرت فيهما لذة ناعمة. وجعله الدم الحار في رأسه يقوم ويترج الباب. وأسدل ستائر النوافذ التي لم يمد يده يوماً إليها. وسأل المرأة بنبرة دلال: - وهل أطفئ الشمعة؟ - تركها منيرة يا روحي الوحيدة. يرى أحدنا الآخر، ويرتوي منه، - طوّقت زهرة بيدها الناعمة الرجل، وضمته إلى صدرها. رفع شبق حذرًا الرأس الصغير الدافئ المرتاح على صدره المشعر، ولامس شفتي المرأة الحمراءوين الملتهبتين. واتحدت أنفاسهما ودقات قلبيهما.

استعجل شبق:

- لماذا نجلس هنا... هيا إلى الغرفة الأخرى.
- لا تستعجل... - نظرت زهرة إلى الرجل بعينيهما الدافئتين، وهمست له: - دعنا نجلس قليلاً ورأسي على صدرك...
- ألن تغتر عاطفتنا يا حلوتي؟..
- لا يا روحي الوحيدة، لا، لا أتذكر أن برودة سرت بيننا يوماً... - رأس زهرة على صدر شبق وعيناها مغمضتان، وقد استولت عليها رغبة عارمة فيه. واختفى من العالم أصدقائه وأعداؤه بعدما تفجرت رجولته. وغاب عن مرآه كُنّاك الذي يتردد على باله كثيراً كل يوم، ومينسور التي تنتظر مصيرها. ولم يبق في العالم غير الزوجين.

زهرة في هذه اللحظة امرأة محظوظة. يحبونها، ويدللونها، ويثمنونها. وزوجها يحمي راحتها واطمئنانها وشرفها. "حسناً فعلتُ إذ أرحتُ حيائي الأديغي وجئتُ إلى هنا، - تفرح السيدة من جديد بما قدمت لنفسها، - لن أخبره بسبب مجيئي. لا بأس أن يتذكر هو. لم أتوقع أن تبقى بيننا كل هذه العاطفة الحارة في كبرنا. بل لا أتذكر مثل هذه اللحظة في شبابنا... هذا المسكين يعاني صعوبات كثيرة ولكنه يكتمها. هذا يناحره، والآخر يلدغه، يحاربونه علناً وسراً. ومن يحسدونه أكثر ممن يغبطونه... انصُرْ حظنا يا إلهي على من يعاديننا، واحمنا، واشملنا بعطفك... " رفعت زهرة رأسها ونظرت في وجه الرجل بوجه طلق، ومدت إليه شفتيها المتوردتين، وهمست:

- تعال يا روحي إلى الغرفة الأخرى...

خلعت زهرة الثوب الطويل المفتوح، ونظرت إلى صدرها وقالت له: تذكّر لقاءنا الأول، فُلِّك لي حالته! وفيما هو يفعل هذا همست في أذنه: - مضى على ليلتنا الأولى اليوم ثلاثون سنة!

كان الوقت ما يزال مبكراً حين أفاق شبق. كانت زهرة انصرفت، وكان يعرف أن هذه عادة السيدة الكبرى فلا داعي للقلق. ولكنه ابتسم إذ توقّع أنها خجلت مما فعلا في الليل، وتفقد المكان، وأنصت باتجاه الغرفة الأخرى فلم ير شيئاً ولم يسمع. مد يده إلى الوسادة التي يفوح منها عطرُ الأُنثى، ونام عليها مسروراً. ولولا أنه ترك ابنه في بلاد غريبة، وإمارته في صراع، ولولا أن مشاريع قلقت تشغل باله، ولو لم يُضَف حاتاي إلى ما سبق، لما كان في العالم أسعد منه. وأحس هذه الليلة مرة أخرى بأنه محبوب.

"ما العمل إذن، - غرق شبق من جديد في أفكار البارحة، - ليس العالم مركباً كما تريد. الأمير لا يولد أميراً، ولا الفلاح فلاحاً، ولا العبد عبداً... من عرف أن عبيد حاتاي ابن أمير؟ قلبي يحدثني أنه سيتسبب لنا في مشكلة مع ابنتنا. يجب أن أفكر في حلٍّ ما. ليس من اللائق، وقد اكتشفت أنك ابن أمير، ألا تعود إلى قريتك، بل تتخذ من بيت صديقك مستقراً... ثم إن في بيت صديقه قلقت فتاة لم تعد صغيرة. الحقّ أتساءل: ألا تصلح هذه لحاتاي؟ لا تعرف ماذا يمكن أن يجري بينهما في إحدى غيبات قلقت... أنا أصدع رأسي بكثير من الأمور متمنياً لو كان للعالم نظام آخر، وخالياً من مشكلة الذكر والأنثى. كلُّ يلاقي ما كُتب على جبينه، يصطدم به! لتكن الشجرة مستقيمة أو عرجاء، ولتفيض الأنهار أو تجفّ، ولتفنِ المرضُ الأمير تاح، وليخرج الأمير فواخ عن طوره، وليتعاقب الليل والنهار! نومي إلى وقت متأخر هكذا غير مقبول..." - ألقى شبق اللحاف عنه، ونحض نشيطاً.

وفيما يتمشى صباحاً على أرض المضافة بعدما انتهى من الفطور أغضبه من كانوا يدخلون إلى الدار، فارتفع صوته:

- ماذا يريد هؤلاء ولم تشرق الشمس بعد!

أتى الخادم بحمت بالرجلين إلى المضافة:

- صباح الخير يا شبق، - حيّاه قلقت، وقدّه حاتاي.

- حياكما الله ووفقكما من كل شرّ، تفضلاً، - وأضاف على نحو لا تميز جدّه من هزله: - اجلس أنت هنا، وحاتاي هناك. إن لم أعطك حقك الأميري من المجلس فلن يقبل قلقت.

- لا يا أمير، لا، أنا أعرف مكاني، لن أجلس في مرتبة أعلى من قلقت.

- كيف حالك يا شبق، لم نتقابل منذ مدة. - سأل قلقت الأمير.

- لا بأس، ما نزال على رجلينا. وأنتم؟

- كما تعرف، نحن على الحصان، نطوف في إقليم الأديغة.

- وكيف يقابلكم من تتصلون بهم؟

- بينهم من يؤيدوننا، وليس معارضونا قليلين.

- مَنْ يعارضكم مثلاً؟ " هذان يريدان أن يقولوا لي شيئاً. أياكون جرى على الطريق مكروء لأفمق الذي أرسلته إلى الأمير تيمرقوه، ويتحرجان أن يخبراني؟" كتم شبق القلق الذي ساوره، وحدد من سأل عنهم: - هل هم أمراء أم متنفذون أم فلاحون؟

- الفلاحون يؤيدوننا، وليس من يؤيدنا من المتنفذين قليلين. - قال قلقت، وأضاف ضاحكاً: - ساحني يا شبق، لا أعدك أنت بينهم: لا نستطيع التفاهم مع أمراء كل القرى، أغنيائهم وفقرائهم.

- على قولك يا قلقت، - ضحك الأمير، - من لا تقابلونهم هم مثلي أنا، ومثل الأميرين تاخ وفواخ. - ثم عبّر عما في نفسه: - قل لي: مَنْ يسمح لك بوعيه أن ترميه من ظهر الحصان؟ حتى الفلاحون يحمي كلّ منهم شخصه. وما رأي والدك الأمير جامبج يا حاتاي؟

- والدنا يفهمنا يا أمير.

- ليت من نأتي على ذكرهم كانوا مثل جامبج... - قال قلقت ولام شبق: - أظنك لا تفهم يا شبق ما نريد بالضبط كما سائر الأمراء.

- إن كان هذا رأيك يا جاري، - ابتسم شبق برقة حاجب، - فأفهمني!

- نحن لا نريد أن نسلب أحداً إمرته أو أرضه أو مواشيه. ها هي روسيا التي زرقوها، وتركيا، والقرم، يقال إن فيها أمراء، ولكن عندهم أميراً كبيراً يجمع الأمراء والعامّة إليه. ويعيشون في دولة قائمة. هذا ما نريده، وهذا هدفنا.

- أوافقك يا قلقت على مشروعك هذه السنة في تأسيس دولة أكثر من مشروع العام الماضي، أي دولة الفلاحين العامة. - تغير صوت الأمير ولونه، - ولو عرفت أن هذا سيتحقق لتخلت اليوم، لا غداً، عن إمارتي الكبيرة لمن يسيل لعبه لأجلها.

- إياك أن تتخلى بهذه الحجة عن منصبك للأميرين تاخ وفواخ. - ضحك قلقت بصوت أجش، - وفي ما تسميه مشروع العام، ومشروع العام الماضي فأنت على حق. لماذا قالوا: عقلاً خيراً من عقل واحد؟ تشاورنا، نحن مجموعة أصدقاء، فاخترنا مشروع هذا العام واعتمدناه. - وصلت المائدة فقال قلقت: - لم نأت لنجلس طويلاً يا شبق، جاء بنا إليك أمرٌ غير سار، لا أعرف إن كنت تعرفه.

- أسمعك، - شحب وجه الأمير.

- قلْ يا حاتاي!

- لا بأس أن أقوله أنا أو أنت يا قلقت... - جدّد حاتاي ما كان بدأه بالمناورة: - قيل إن هناك اتفاقاً سرياً بين تركيا وروسيا على اقتسام إقليم الأديغة.

- أعرف هذا، الخبر منتشر في الجانيه.

- ليس في الجانيه وحدها، - ساهم قلقت، - سمعناه في الأبراخ والمخوش والبسلني. ويتكلمون فيه في القبرتاي وإن لم أكن متأكداً من صحة الخبر. لا يجوز يا شبق بأي طريقة أن نسمح لهم بهذا. - اختتم قلقت بصوت حازم. ثم أفهم الأميرين بنبرة سخرية كما لو يحدث نفسه: - أظن أن من سينتخب الأديغة على أيديهم، تركيا وروسيا، ظهرت، ونحن نشكو من أن خان القرم يخطفنا، يأكلنا.

- وهذا ممكن. - قال شبق بعد سكتة، ولكن لا تدعونا نستعجل على الخبر. وهذا سبب من أسباب إرسال الأمير أفمق إلى الأمير تيمرقوه. كان الأخير قد أرسل رُسْله إلى القيصر إيفان، ولذا سنتصرف تبعاً لما يأتون به من أخبار. ولكن أخبركم أنني لا أثق بما يقول أي إنسان ما لم أختبر بنفسي وأر بعيني. إن وصلثما الليلة فأنتما لا تعرفان المأساة التي جرت في القرية.

- هل تقصد الابن الصغير لتتار - ميرزا، - استلم قلقت الحديث من شبق، - أخبرتنا داريه، أحرزنا الخبر، وسنعزيه ولو تأخرنا. لم يكف ما نكب خان القرم أخته الصالحة فيلاحقه أينما ذهب. ويأكل من لحمه. أيّ عالم بائس نعيش فيه!.. - تنهد قلقت متألماً.

"لا يعرف هذان أن مامي هو من ارتكب الجريمة. وأنا عندي أسرة، لن أسمح لنفسني أن أكون ضحية هذا المخادع المجرم" جفل شبق على غير عادته، وغير الموضوع. وأغضبته الذريعة التي وجدها لما أخفاه حين خرج الضيفان صباحاً من عنده: أين شجاعتك يا أمير؟ إذا كان الفارس العنيد أفزعك فأعد إليهم منصبك، وتخلّ عن المشروع القومي الذي تحمله. واختبئ خلف امرأتك... هذا غير مقبول. أ تكون الشيخوخة بدأت تُضعفني؟!

تابع شبق بنظراته الضيفين الخارجين من المضافة: قلقت، وإن كان يبدو من القفا كخزان مملوء، رشيق منتصب القامة، لا تثقل عليه يده وأرأسه الكبير. وحатаي الذي يتبعه فسيلة غضة من شجرة. ليس فيه ما لا يتناسب مع سائر جسده. الخصر الذي يقطعه زنار فضي متناسق مع الكتفين العاليتين. وهو حريص على مشيته عارفاً أن من في الدار ومن في البيت يراقبونه.

"ليس قلقت مشكلة. - قال شبق، - مشكلتنا هو هذا، حاتاي... هذا ما يجعلني أقول: ما تودّه ينشأ عنه ما لا تودّه، وما لا تودّه ينشأ عنه ما تودّه. من كان يعرف أن هذا سيحدث لنا؟ لم يكف ما انتكنا به من جهة كُتّاق فزاد هذا المشكلة... هل سيلتفت يا ترى؟ إن كان يحترم نفسه فلن يفعل هذا. ولكن عينيه إلى ما وراءه. وقلبه؟ - نظر شبق إلى غرفة النساء. لم ير ميسور على النافذة فاطمأن قليلاً. ثم غضب: - ما الذي يحملني على هذا الموقف كأني لم أكن يوماً ما شاباً؟! إن كان لابتك مُغازِل... ولكن، على رأي زهرة، ليس كل الخطّاب متشابهين. هذا يعرف كل ما في بيتنا من إيجابيات وسلبيات، وأسرار. فكيف أتخذه صهراً والحال إن غضب يوماً على ابنتي عيّاها بكل ما يعرف، وعيّر الأسرة. وهل عجيب إن كان سليل أسرة إمارة؟ من في القرية الآن ليس أميراً؟ لا أعرف فلاحاً رفع رأسه قليلاً لم يجعل من نفسه أميراً. وها هو قلقت الذي راعينا فقره وجيرته ولا نعرف أصله، نخض أمامنا، وبدأ يمد يده إلى

عيوننا. ألا ترى حاتاي أيضاً كيف يجهّز نفسه؟ ألم تسمع جوابه حين طلبت منه أن يجلس في موقع أعلى من موقع الفلاح؟ لا يستحق من لا يحترم موقعه الأميري ابنة كبير أمراء الجانية. وكيف سيقبّلي الأمراء الذين سيقابلونه ويسمعونه؟.. لن أتنازل عن ابنتي لمن لا يستوعب عقله هذه الأمور!.."

- الحصان جاهز يا أمير، قال بجمت الداخل إلى المضافة بهدوء.

- وهل كنت طلبته منك؟.. - سأل شبق الذي كان نوى السفر فنسي.

وأخفى ما هو فيه وإن لام نفسه، وهز رأسه اعتباطاً. - حسناً الآن، حالاً.

دخلت زهرة إلى المضافة بحركة فتح باب لا تليق بما فالتفت إليها الأمير والخدم. ونقضت السيدة الصمت فجأة بكلام مُغرَض:

- اغرب عن وجهنا يا بجمت! - وأضافت حالما اختفى الخادم: - لا أفهم طبيعتكم أنتم الرجال.

- ما الذي جرى فتهينيني في حضرة الخادم يا عجوز آل قنشقوه؟! - رد شبق بصوت عال على امرأته.

- يا مصيبي، ما هذا النداء: عجوز! - سألت زهرة بصوت منكسر لا تعرف أتستغرب أم لا.

- كما سمعت، - أصرّ شبق أيضاً.

هبطت زهرة على المقعد الذي تقف إلى جانبه بسبب الجواب البارد لزوجها. وسخرت من نفسها وهي تسأل حذرة سؤالها العاتب:

- كنت الليلة عروساً، فأصبحت اليوم عجوزاً؛ هكذا؟!

- كانت تلك متعة ليلية عابرة، والآن صباح مُرّ، - أخفى شبق تراجع قلبه، وقال دون أن يهز رأسه المتعالي المنتصب، ودون نبرة حقد: - أسمعك، لا أظنك جئت بلا سبب.

- نعم يا شبق، نعم يا روحي الوحيدة، أستحقّ، لم تقل لي ما لا أستحقه بكلامي. والآن برأت السيدة نفسها بلهجة لطيفة: - أغاظني جاراي النفاجان، وابتنتا قليلة التربية. وأنت أظن من زارك وتراك.

- أليس هذا ما أرفضه؟.. - غير شبق موقفه وذكرى الليلة اللذيذة تلّينّه، ثم سأل نفسه متوازعاً اللوم معها: - متى صار حاتاي جاراً لنا؟ لماذا لا يعود إلى قريته بعدما وجدها؟ والده من رجالات البسلني...

- دغك منهم! - لا أعرف كيف تعيش بين البسلني ذوي اللسان الأعوج! - تراجعت زهرة بعدما عرفت أن كلاماً غير مسؤول خرج من فمها بسبب خوفها على البنت. - يا حسرتي، أين نذهب بحاتاي المسكين! ريناه، علّمناه، كيف لا تشفق عليه؟ إن كان سيعيش مع المرأة المرائية التي جاءت برفقة الأمير جاميج فلا تحسده!.. لماذا قالوا: زوجة الأب والقاعد على ذيل العربة سيّان؟

- ليست كل زوجات الآباء متشابهات. - لم يوافق شبق زوجته، واستبّقها بما يقلقه هو: - ما الموضوع الذي نتكلم فيه ولا نجد له تفسيراً؟ لو كان خادمنا السابق مهموماً بما يهمننا نحن لثبتت نفسه في الدار التي رُبي فيها، ولم يستقر في بيت قلقت يراقب منها البنت... أليس في ذلك البيت أيضاً صبيّة؟

- أكيد، - رفعت زهرة حاجبيها الرفيعين وقد فهمت ما يرمي إليه الزوج. - تهد صدرها، وحان وقت زواجها.

- أنت أدري بهذا، - ابتسم شبق، - إذا كان هذا السبب في ما صبيت عليّ من غضبك فاطمئني. أسأحك على سلوكك. وأنت مدينة لي بليلة مقابل عفوي... - واختتم خجلاً قليلاً مما قال: - وأنا سأفكر في قرار حاسم بشأن من لا نفارق قلبه. ولكن لا تنسي أنك مدين أيضاً بليلة... - مرة أخرى أشار إلى الليلة.

- هذا هو السبب يا روعي الوحيدة وإن عتبت عليّ، - ابتسمت زهرة بنظرة دافئة لزوجها. - في قلبي: لا أعرف طبيعة الرجال... أنت وأنا نعيش عمرنا وكلّ مدين للآخر، غير أيّ أود أن أعرف ما تفكر فيه بشأن من أوقعنا في مأزق إن لم يكن سراً.

- ليست هذه مسألة نسوية، ولكن سأخبرك. ولا يجوز أن يخرج السر من بيننا، أفكر في الاتفاق مع أحد مجرمي الناحوي أن يقتله بلا شهود.

- ألا يجوز أن تفعله بنفسك؟ - استعجلت زهرة.

- لا، - ألقى شبق نظرة لهفة وشفقة إلى زهرة، وتنهد: - لا أستطيع أن أفعل هذا بجائتي!

- نعم يا حسرتي... حتى دجاجة الدار يصعب ذبحها... أخشى أن يفضحك من تثق به.

- أستطيع أن أجابه لاحقاً من سأكلّفه بالأمر. - تقابلت النظرات الحذرة للزوجين. وتبادلا الابتسام من قلبين مفتوحين. وخطر لهما الخاطر نفسه دون اتفاق: "أليس بُرُّ الحب الأول لابنتنا مدعاة إلى الرهبة. نتبادل ديون الليالي العذبة ونحن في هذه الأجواء الكثيبة..." حملت الأفكار السيئة الاثنین على رفع رأسيهما معاً...

...

بُعید ظهيرة ذلك اليوم، عادت مجموعة أفمق من القبرتای. وأخبار كُتاك التي جاؤوا بها: سليم، في صحة جيدة. يخدم في الجيش الذي يقوده فيشنيفيسكي، استنفرت دار الإمارة.

حين مضى بعض الوقت على الخبر السعيد قال أفمق لأخيه وكنّته: - والآن خبرٌ مزعج.

- يا مصيبي، ما هو؟ - أسرعّت السيدة.

- اهدئي قليلاً. - أشار شبق بيده بعفوية، وتوجه إلى أخيه: - أسمعك! - الأمير كُتاك اعتنق المسيحية!

- ومن يفعل مثل هذا يا ولدي الصغير؟! - مرة أخرى لم تصبر زهرة.

- ليس هذا مستغرباً. - قال شبق من تحت رأسه المطرق متفكراً: - توقّعت أن يحدث هذا... - ثم قال بصوت عالٍ رافعاً نظراته المتكبرة: - لم يخطئ كُتاك! وأنا لو كنت في مكانه لفعلت ما فعل. نعم، الأفضل أن تندمج في من تعيش بينهم دون أن تنسى من فارقتهم. وهذا نوع من الرجولة.

- غيّرُوا اسم أخي الأصغر حين عمّدوه ؛ - قال أفمقوه دون أن يفسح المجال ليسمعا ويفكرا، - سموه ألكسندر، وسموا دودارقه: إيفان.

- ماذا تقول؟ انتفض شبق برأسه، وأجاب بعد قليل: - اختاروا لهما اسمين جميلين... هل عرف رفاقك بالموضوع؟

- لم أشأ أن أطلع قبلكم أحداً.
- لن يكون سرّاً يا أمير، - ليعرف من يريد، وليصل إلى من لا يعرفون!
- أخرج أفمق من جيبه لفافة صغيرة وفتحها على مهل مستلذاً بها. وتشوّق شبق وزهرة لمعرفة ما فيها.
- هذا الخاتم يا سيدة من ابنك كُثاق - ألكسندر، والقرطان لمينسور، وأنت يا شبق وأنا بلا شيء. - اختتم أفمق بمزحة.
- شكراً يا بني. لم تنسني وأنت في هذا المكان البعيد، - قبّلت زهرة الخاتم دامعة العينين، وضمته إلى صدرها. ولم تحرم أختك، ربما لم تستطع تقديم شيء لوالدك ولعمك...
- ماذا تقولين، وهل نحن نساء فتهدينا! - احتدّ شبق، - أغلى هدية هي أنه بخير، ولم ينسنا.
- صحيح يا شبق، صحيح، - أيّدت زهرة زوجها واختتمت باكية: - ولكن ابني ترك ديننا!..
- أيّ دين تبكين عليه؟ - سأل شبق متحليماً، - هل تتذكرين في شبابتنا أننا كنا نرسم الصليب ونحن نتأمل صورة مريم العذراء؟ لا تبكي على ما لم يدخل في أعماقك. الدين الذي زرعه الأتراك فينا لم ينفعنا إن لم يضرنا. من وقع ابننا بينهم بشرّ. مصيره مصيرهم.
- ويقال إن القبرتاي تركوا في موسكو عدداً من الأشخاص. - سهّل أفمق على الوالدين مصيبتهم.
- هل تسمعين؟ - نظر شبق في وجه زوجته بوجه أكثر بشاشة. - ابننا ليس وحيداً، معه عدد من الأديغة.
- نصّ أفمق رأسه وقد تذكر شيئاً. لا أعرف ماذا جرى لي اليوم، أتهم الطريق الطويل، ولكن لا أنذكر أنني تعبت. هناك خبر آخر: جاء القبرتاي بخبر مفاده أن القيصر سيستضيفك مرة أخرى في الربيع القادم.
- أهو مجرد خبر أم حقيقة؟ - سأل شبق بلامبالاة. - تعرف أنني لا أحب الأخبار المجانية.

- نعم، الخبر أكيد. والورقة التي فيها الدعوة عرضها علي قائد الجيش الروسي. وسيوصل إليك بيديه الأمر القيصري.

- حسنٌ إن كان قيصر روسيا أرسل مثل هذا الخطاب. - مطّ شبق قامته، وسروؤه بالخبر واضح. - بديهي أن من يحتاجك يدعوك. ومن لا يحتاجك لا يسمح لك بالاقتراب من نواحيه. سنذهب إن وصلتني ورقته. ولماذا لا أسافر إلى حيث بقي ابني! وأنا كنت أنوي هذا من قبل.

- وإن لم يسمح لك أيضاً بالعودة؟ - ارتعبت زهرة.

- من يدري؟ ليس مستبعداً... - ابتسم شبق، ومازح امرأته وعيناه على أخيه الأصغر: - ادعي إلى ربك إذن أن يعيدني سالماً، واجلسي إلى صورة مريم وارسمي الصليب في حضرتها. إذا كانوا أتوك من روسيا بخاتم فسأجود عليك بقرطين... كلٌ هذا حسن، والله يحب المزاح، ولكن يا أفمق، ليعرف الناس بدءاً من اليوم أو الغد بخبر دعوة القيصر لي. ليسمع به الكبير والصغير! والقليل الذي بقي للأميرين تاخ وفواخ لينزعوه منهما...

III

كانت أرض الغربية بساطاً لقدمي كتناق في نصف السنة الأولى في روسيا البعيدة. لم يكن يعرف كل ما يرى في موسكو وما يجري للناس ولكن يشعر به في نفسه. وكان الشتاء البارد الطويل قصيراً في نظره، والعواصف الثلجية المصحوبة بالرياح العنيفة سهلة عليه، ويشتهي الشمس المطلة على الطبيعة المجنونة. قباب الكنائس المدببة الملبسة بالذهب، وزين الأجراس، والشوارع الطويلة المتعرجة، الملائى بالفرسان، والناس، والزلاجات، وخليط الرجال والنساء الصاخب بين الجد واللعب، ورائحة الشواء الصادرة من المطاعم - الحانات، كل هذا كان يستقر في قلبه يوماً إثر يوم.

نادراً ما يُمضي كتناق - ألكسندر يوماً خارج الكرملين الواقع على مرتفع بوروفيسك. ورغم أنه لم يُسمح له بالاقتراب من القيصر إلى الآن، ففي كل أسبوع عنده نوبة حراسة على أحد مداخل الكرملين. ويتغير المدخل أسبوعياً. ويحدث أن يحرس باب قصر القيصر. ويرافق أحياناً من يأتون بالماء. ومن يعرفون

الثلج من أمام باب سوبور، ومن يعلفون خيل القيصر، ومن ينظفون الزبل... ومهما حدث فالأمير الشاب الذي بقي بناء على إرادة القيصر، واعتنق المسيحية برضاه، يعيش في موسكو، ويخدم في الكرملين... ولا يتعلم الروسية مجبراً. إنما الهواء الذي يتنفسه؛ فإن لم يتعلمها ويطوّع لسانه عليها فكيف يعيش مع أصحابها. ولا يسمح لنفسه أن ينسى لغته الأم؛ يتواصلان بها هو ودودارقوه مساءً. ولكن الأمير الأباضي يُسمِعُه أحياناً مثل هذه الكلمات:

- أنا أنسى لغة الأباطة في تواصلني معك بلغتك الأديغية يا أمير... أنت لا تريد أن تتعلم لغتي. كأنك لا تتنازل أن تتكلمها لأنكم أكثر منا عدداً.

- كيف تقول لي هذا ونحن في بلاد بعيدة، وأنت أكبر مني!

- لا أقول هذا ترفاً يا أمير، يجبرني الموقف الذي وجدنا فيه أنفسنا. إذا كنت لا تريد تعلّم لغتي فما الذي يجبرني أن أتعلّم لغتك؟!!

- أليست أمك أديغية يا أمير! - لام كتناق الأمير الأباضي متجاهلاً مغزى كلام محدّثه: - الأباطة أقل عدداً، وأنت قلت هذا، فوجب عليكم، شئتم أم أبيتم، أن تتكلموا الأديغية.

- تسوّغ الأمر بكون أُمّي أديغية، وكونكم أكثرية، - يضحك دودارقوه، ويردّ على القلق الذي كان يساوره حول نمط الحياة الروسية، - أظن أن ما تقوله لي سيحدث معك تماماً وإن لم تكن أمك روسية.

- ساحخي، لا أقصد كل هذا...

- نعم، نعم، كلُّ إنسان يعيش وفق ما يعجبه... ولكن إن استبقّونا هنا زبّالين فهذا لا يليق بنا كليناً؛ ألسنا أميرين! أهذا هو الهدف من تطويع قائد الجيش فيشنيفيسكي لنا؟ ما من خبر يبقى سراً فإذا وصل الخبر إلى من أرسلونا سخرُوا منا...

لم يكن كتناق يستطيع إلا أن يفكر في أقوال دودارقوه متى بقي وحيداً، وإن عارضه أحياناً. مضى على إقامة الأميرين الأديغي والأباضي في موسكو عدة شهور. الربيع ينتهي في إقليم الأديغة الواقع جنوباً في حين يكاد الشمال يستقبله. الحشيش بدأ ينجم من الأرض الرطبة، والخضرة تتسع يوماً بعد يوم. والأشجار المبكرة تُبرِّعم. والمطر أدفاً وأقلُّ من ذي قبل. ونعيق الغربان يتطايّر

إلى السماء. الليل يقصر والنهار يطول. والعمر يهرب من أمام عيون المسنين، ويتعد بصعوبة من أمام الشباب.

اليوم، في عزّ الربيع، يرصد كتاك في أحد أبواب القيصر. وشابُّ أشقر لا يعرف اسمه على الطرف الآخر للباب. كلاهما حرٌّ في النظر إلى الآخر ريثما يحين موعد التبديل. ولكن الكلام، بل الهمس، ممنوع. يقفان على الباب وكلٌّ يحمل عصا حديدية. ومنذ وقت غير قصير لم يدخل أحد إلى الباب ولم يخرج.

قال كتاك لنفسه: "الباب الذي نحرسه اليوم، وأمس، والأسبوع الماضي ليس مدخل القيصر. أمكن أن يتذكرني القيصر الذي أعطيته الخنجر والسيف إن رأي؟ وكيف يتذكرني دون الزي الأديغي! لباسي كلباس من أمامي: معطف طويل مزترّ، وقلنسوة مدببة. وكيف أتوقع أن يميزني بلوني الأسمر؟ أرفض آراء دودارقه، ولكن يجري شيء غير مفهوم في وضعنا. ألا يثقون بنا؟ ليس بعيداً. يكلفوننا بحراسة أقل الأبواب ارتياداً، وتنظيف إسطبلات الخيل، لأنهم لا يثقون بنا. قد لا نكون نحن موضع ثقة، ولكن هذا روسي حقيقي؛ ألا يثقون به هو الآخر؟ أم يراقبنا؟ لا أتذكر أننا قمنا، أنا ودودارقه، بعمل مشترك. لا أعرف إذن... لا نعرف ما يجري في نواحيننا. - ألقى كتاك نظرة على الشاب يريد الخروج من أفكاره. وابتسم له، فرد عليه بابتسامة كأنه كان ينتظرها. وندم على الريبة التي ساورت ذهنه. - لا، ليس هؤلاء أناساً سيئين. تخطر لنا أفكار في غير محلها. يجب نُصَحُّ دودارقه الأكبر... انظر إلى الطبيعة ما أجملها، افرح بها! ما العمل إذن يا دودارقه، لن نغير أهمية لمن سيسخرون منا. سنكنس، وننظف الإسطبلات، ونصبر على بعض ما لا يليق بنا..."

سُمع من وراء البيت الآخر أصوات خيل، وأصوات فرح ومرح ترتفع شيئاً فشيئاً. وارتفع صوت دبّ. وأُرسل كتاك وزميله إلى حيث الضجيج.

ما يراه كتاك يتعدى العجيب. كرسي القيصر مقابل الدائرة المفرغة والمحروسة. ووراء القيصر ضباط الجيش الكبار، ومن النوافذ تطل النساء. الدب الضخم يصوّر واقفاً على قائمتيه الخلفيتين فوق شبك حديدي. ويلف الأماميتين على قضبان القفص الحديدي. ويعضها، يسيل الزبد من فمه.

رأى كتاك دودارقه بين الحشد فاقترب منه:

- ماذا ينوون بحق الدب الغاضب؟

- أظنهم يريدونه للمصارعة.

سمع الرجل إلى جانبيهما اللغة الغريبة فنظر إليهما عابساً، وابتعد مغمماً. ثم همس في أذن الرجل ذي اللحية البيضاء إلى جواره، فعبس هو الآخر.

- كفى، لا تتكلم بالأديغية! - أشار دودارقوه إلى كتاك. - هؤلاء لا يريدون سماع لغتنا.

- ماذا ؛ وهل لغتي أبشع من لغتهم؟! - قال كتاك غاضباً مُسمعاً الرجلين، وأضاف بصوت عالٍ شكواه: - يحزنني أني لا أعرف لغة الأباطة، كنت كلمتك بها.

ظهر القيصر إيفان الرابع فحنى الجميع رؤوسهم له. ولما استقر بعصاه الذهبية على كرسيه جرّ أربعة رجال رجالاً ضخماً يتمسك بأي شيء في طريقه، وألقوا به في القفص الحديدي حيث الدب. وألقي أمام الرجل بسكين، يعنون بها أن إذا كانت روحك غالبية عليك فدافع عنها!

- وهل هذا ممكن؟ - قبل أن يكمل كتاك الجملة، وقبل أن يلتقط الرجل السكين، صرعه الدب.

الدب يصدع الدنيا بصراخه، والرجل يستنجد، والناس في هياج. والقيصر المسترخي على كرسيه لا تختلج عضلة في وجهه. الدب يعث بالرجل ولا يمزقه. حين يبتعد الرجل برأسه عن قائمة الدب يصيبه في كتفه فيصرعه. والدم يسيل من اللحم الذي تمزقه الأنياب. ويبدأ الوحش الذي لا يقع الرأس بين يديه يخرج عن طوره. وحين يرى الرجل يلتقط السكين يصرعه الدب بضربة واحدة. ثم يقتلع اليد اليمنى الممسكة بها، ويقبله، ويبدأ يقتلع أطرافه الأخرى... ثم يتخطى الجثة ويعود إلى قفصه ملقياً نظرات غاضبة على الجمهور.

كانت أصوات الناس المهتاجين ومنظر الدم الإنساني لا تزال في أذن كتاك حين رجع إلى الغرفة. ولا تزال عضلاته ترتجف، لا يستطيع العودة إلى وعيه.

"كان الناس الذين وقعنا بينهم ليسوا أردياء، - يراجع كتاك أحداث يومه والأيام السابقة، - فيهم رحمة واحترام. وهم رفاق طيبون في السفر. وجوه طليقة ونفوس صريحة بريئة... ولكن ما الذي رأيته اليوم؟ كنت سمعتُ أن القيصر

يجب إجراء مصارعات بين الرجال والديبة... لتتصارع الوحوش! هذه طبيعتهم وحياتهم، ولكن إلقاء الإنسان للوحش وتزكّه يمزقه يتجاوز الظلم. لو رأى والدنا هذا المنظر لخرج عن طوره. أرسلنا إلى هذا البعد يائساً من قدرته على مقاومة خان التتر... ومن فارقناهم ومن جئنا إليهم سيّان. ما العمل، هذا علمنا، كما يقول قلقت. ما استغربته هو جلسة القيصر. أيتدرب على الظلم أم انتهى منه؟ لا أعرف، لا أعرف، كلاهما بعيد عن الإنسانية..."

دخل دودارقوه إلى الغرفة فقفر كتاك الذي كان مستلقياً غارقاً في التفكير.

- جئت لك لأني لا أسمع صوتك ولا حركتك. ما رأيك يا كتاك، كأننا تسرعنا في اعتناق دين الناس الذين لا نعرفهم جيداً بعد. أنا لا يهمني، المشكلة فيك أنت. الأباطرة ليسوا كالأديعة، يحافظون على الدين القديم والدين الجديد. قل لي إن كنت ندمت يا ألكسندر سيبوكوفيتش، كما يناديك مضيفونا.

- هل كنت آتي إلى هنا رغم إرادة الجميع لو كنت أندم على ما أفعل يا أمير!

- وهذا صحيح، ولكن سنبقى هنا إلى الصيف، ثم نعود قبل حلول البرد.

- يا أمير، أقول لك ولنفسى، - ارتفع صوت كتاك، - لن أخطو خطوة دون إذن والدي الذي تعهد أمام القيصر، ولو أجبروني أن أُورِدَ الكلب الماء.

- ولو رموك إلى الدب؟ - سأله بين الجد والهزل.

- إذا كنت ستفي بوعدك لمن يتأملون منك فليس بعيداً أن تفعل كرجل اليوم يا أمير. - لم يتراجع كتاك. - لماذا يا ثرى تصرف القيصر والناس المتجمهرون بهذه القسوة مع الرجل؟

- يقال إنه مارس الخيانة في حرب ليفون، وتسبب في قتل كثير من الناس.

- هكذا! - تغير صوت كتاك ولونه، ثم أدلى برأيه هو: - لا رحمة مع الخائن أياً يكن!.. وماذا لو غلب الخائن الدب؟

- كانوا غفروا له خيانتته.

- لا يا أمير، لا مغفرة للخائن. كرر كتاك موقفه.

لم يردّ دودارقوه لقناعته أن الأمير الشاب لن يتراجع، وأن لا فائدة من مناقشته.

...

انقضى الربيع دون أن يتغير شيء في حياة الأميرين الأديغي والأباضي. وبدأ الصيف الذي يخاف منه كتناق. وكفّ دودارقه عن التعليق على الفكرة التي طرحها مرة. ويوماً عن يوم تسوء العلاقات بين الأميرين، لا لأنه دخل بينهما جفاء أو غضب، كانا شرعاً يُحسان أن الوقت المطاط الذي يمر دون نتيجة يغير قلب الإنسان. ولما كان الوصول إلى القيصر عن طريق كتناق مستحيلاً قررا مقابلة شيبوتيف وفيشنيفيسكي، واتفق الطرفان على الموعد.

IV

- أنا نظفتُ أرض الدار وأمام الباب، وأنت ما أطول الوقت الذي استغرقه عملك يا قلقت؟! - نادى داريه أخاها الأكبر الذي يرمم سور البستان. - عملك اليوم بطيء على غير عادتك.

ألقي قلقت نظرة عابسة على أخته دون كلام. ثم فرد وجهه، وتابع مزاحه العاتب:

- تركت الجاموس يهدم السور تحت نظرك، ولم تتحركي. وهل تظنين ترميمه سهلاً؟ - غرزت الأعمدة من جديد. ورصفت العيدان.

- لو كان سوراً جيداً كما تقول لما خرقة الجاموس. - اعترضت داريه. كنت طفلة حين بنيتّه. ثم ليتني أريتك هذا الجاموس الضخم. حين بدأ يركض نحوي وعلى قرنيه السلم، والدم يغشى عينيه ارتعبت والتجأت إلى البيت. وأنت لو وجدك أمامه كان قتلك.

- يا حسرتي أيتها الأرنبة الصغيرة! كان قلبك وصل إلى مشط قدميك، - ضحك قلقت، والتفت ثانية وهو ينظف أحد عيدان الجدار: كانت داريه تعود إلى البيت بقامتها الرشيقة المتكبرة، وعلى رأسها غطاء رأس ملون رقيق، " انظر ما أرى! - قال لنفسه بين الفرح والقلق، - صارت فتاة ناضجة دون أن أنتبه. سيختطفها مني أحد الشباب فأبقى في البيت الفارغ كأرمل عجوز. ولكن سأتزوج قريباً من حسن حظي. الموعد اقترب. أدعو إلى الله ألا يعترضني أو يعترض نكر ما يعرقل زواجنا. - ارتعب قلقت كمن أفاق بعدما نام سنة. وتذكر محاجة بسمت له قبل أيام معترفاً بصحتها: - كلامك صحيح يا

صديقي. الناس يتكلمون عليّ بالخير وبالشر إن شئتُ أم أبيتُ. هدف توحيد الأديغة شهري بين الناس. ومن يودني يذكر اسمي ويقف إلى جانبي، وماذا يجد من يعاديني من مثالب: لستُ لصاً ولا مجرماً ولا قاتلاً. يقول: ما فائدة الشخص الأبتز: لا أسرة ولا مال؟ وهذا يقوله أيضاً غير أعدائك. الأديغة لا يحترمونك إن لم تتزوج. وأنا مهموم بالموضوع في يومي، ومتأمل في غدي. ومن مدة إلى أخرى أجد حجة أزور فيها نكر. الموعد موعد ولكن لا يمكن الاستمتاع دون لقاءات. وها قد مضى شهر على نزولنا بمضافة لأماف ونحن عائدان من البجدوغ، أنا وحاتاي، وأنا أظنه عاماً. خرجت من القرية معتداً بنفسي، كان زغاشت غائباً، ولكن تخيلت أن جدّها فتح لي قلبه لأول مرة. أظن قرب حاتاي مني، وهو الذي تبين أنه ابن أمير، وحياته في بيتي، لطفاً قلبه. وهو يسمع أن الناس بدؤوا يبدون نحوي نوعاً من الاحترام. ولا أظن محبي نكر بالمائدة برفقة أخيها الأصغر ججان كان بريئاً. وإن كنا بعيدين بعيوننا فنحن أصبحنا قريين بقلبيننا. ومع ذلك فالموعد اقترب جداً. والقلق يستولي علي كل يوم أكثر من سابقه... ترجيت حاتاي أن يصطحب معه داور متى عاد من زيارته لوالده. أريد أن يكون إشبينا قوياً لي وقت زفة العروس، وأفمق لن يتخلى عني. رافقني أكثر من مرة إلى زيارتها. عاد مطمئناً من القبرتاي..." -

نظر قلقت جانباً راضياً عن العمل الذي أنجزه. وبرّد النسيم اللطيف المرافق للشمس وجهه. خيل إليه أن أحداً ناداه ولكنه لم ير أحداً. لابد أن الأولاد يلعبون.

نظر قلقت الخارج من أفكاره القلقة نحو دار الإمارة. راجع في نفسه الأخبار التي عاد بها أفمق من القبرتاي. خبّر تقاسم القيصر الروسي والسلطان التركي أرض الأديغة سراً منتشراً في القبرتاي وفي غيرها. أنصار الأمير أبشق يؤلبون الناس ضد الأمير تيمرقوه، ولكن الأخير ليس مكتوف اليدين. جاء الوفد العائد من موسكو بخبر مفاده أن لا اتفاق سرياً كما يزعمون، ولذا أرسل الأمراء والنبلاء والمتنفذين والفلاحين إلى كل مكان يكذبون الخبر. ولكن قلقت لم يستطع إلا أن يشك في الخبر الذي رواه أفمق.

"لسنا بلا عقل، وليس الروس والترك أذكى منا. ضغطت قلقت على العمود في يده، ومررت أمام مخيلته المأساة المحتملة. كل طرف يسعى إلى تقوية دولته، ولا يعطف علينا. والروس لن يكشفوا لنا عن خبيثة نفوسهم. وإن سافرت إلى تركيا فالسلطان سيحبك بأن لا شيء من هذا. لا أظن أن هناك طريقاً آخر يُبقي على الأديغة غير طريقي. ولا أرى بين الأمراء من يتكلم بصدق، ويعبر عما في نفسي مثل مشقوه وجامبج. أما جاري شبق فقد ارتعش قلبه كأن جناحين نبتا له حين صارحته برأيي في الأمراء الأغنياء. لا يريد زعيماً من عامة الناس، فلاحاً. أنا أبحث عمن يوحّدنا ويقودنا لأقف إلى صفه، ولا أتكلم على أمير أو أسرة إمارة. أنا واثق من شبق، لا يخلو من الغيرة على قومه، ونظره بعيد، ولكن أفمق لاحظ بسرعة التغير الذي طرأ عليّ لأنه أسرع انتباهاً. — ابتسم قلقت، وتوجه إلى البيت، — قال لي بشبه مزاح: "الهمّ يُبرز ما في العين، ويكشف ما في القلب. داخلك أمرٌ غريبٌ كأن أحداً كتّفك. يأتي الموعد الذي حدّدته نكّر لك، فالهمّ يُضنيك. والقلق يستولي عليك. وأنا اختبرت هذا، والرجال والنساء عندهم هذه الظاهرة. متى حان موعد الزواج للجنسين سيطر عليك قلق — خوف يصعب تفسيره..."

عند الأديغة عادة متأصلة منذ القدم وهي الاستعداد لمناسبات الخير كما للحزن: يرتبون البيت من الداخل، ويزينون بقدر الإمكان، ويمتد التحضير إلى أرض الدار، ويرمون أبواب الدار والإسطبلات. ويعلفون المواشي المعدة للمناسبة.

تتّم قلقت باكراً، ولكن الأبوين زرعاً فيه ما ساعدتهما الظروف عليه من تربية. وفي شبابه تعلم البقية من الجيران وأهل القرية والأصدقاء. فنشأ في قلب العقل الأديغي. لم يُخبر أكثر من اثنين أو ثلاثة عن المناسبة التي ينتظرها، ولا أخته. ولكن الاستعدادات تمت في البيت والدار. لا يحتاج إلى أحد، ويعرف أن بيت الإمارة والجيران وغيرهم لن يتخلوا عن روحهم الأديغة، ويعرف أن حاتاي لن يعود فارغ اليدين.

قلقت يعرف أن من قلبه صافٍ نحوك لن ينسأك، سيهتم بك، ويقدم لك عن طيب خاطر ما يستطيع، وأن من يُغضبك لن يكفّ عن التآمر عليك

وإيذائك، ولا يخطر له حتى في الأحلام أن يدخل في الزواج مثل هذه الاحتمالات. وهو لا يجهل أن له أعداء ومبغضين. أعمق وبسمة وحائلي لا يُفشون سراً. ويعرف أنهم لم ييؤحوا لأحد بموعد زواجه. ولكنه يعرف أن مامي، وإن كان في القرم، عينه على نكر، ويشتهي أن يخطفها كالصقر بمخالبه إلى القرم. وونتغ الذي تأكد من هذه النية الشريرة لم يأت على ذكرها حين عاد إلى صفٍ قلق. ربما ما كان يعرف أن قلقك سيتزوج منها. أو نسي أن يخبره بها. ولكن الشرير يتجسس بمئة أذن ومئة عين، ويغير عليك بمئة رجل.

...

انفجر مامي كالصاعقة حين أُخبر أن موعد زفاف نكر اقترب. وصرخ والشر يتطاير من عينيه: "لن أسمح لقلقك الجسيم الصدر بهذا ولو لم يبق في العالم رجل غيري. وسأفعل بآنية زغاشت الجنية ما تستحق. يتزوجان بهذه البساطة، ويرقصون ويحتفلون!.. إن كان هذا ما تنوونه فسترون قبوركم بدلاً من العرس. وسأرقص على شواهدا!.."

- ماذا ترى فيّ حتى تحدّق كالبومة؟ - صرخ مامي على المرأة البريئة. - هيا جهزي لي المائدة!

- أتألم لأجلك من قلبي وروحي يا مامي خوفاً من أن يكون وصلك خبر سيء.

- لا أريد أن أرى شخصك ولا قلبك، متى جاءني خبر مفرح من عند الأديغة؟! - ولكن توجّسه من المرأة دفعه إلى تغيير موقفه: - أنا يتكل عليّ الحان من جهة، ومن الجهة الأخرى يعود إليّ من أوفدّهم كأن ألسنتهم قُطعت.

خرجت مريم من الغرفة فذرع مامي أرضها بضع مرات متوتراً. ثم استلقى على السرير ورأسه بين مرفقيه ينظر نظرات قاسية إلى السقف. ويبدأ يبحث عن طريق لتحقيق الشر الذي في قلبه وإن كان الدم تراجع عن رأسه. ثم لبس وخرج ملهوفاً مقتنعاً أن مراده لن يتحقق دون مشاركته...

قطع مامي الخليج في منتصف الليل الآمن، وإلى يساره سرباي ذو الرأس المتناول، يُطمئن نفسه برفقته، ويلتفت إليه مسروراً بأنه يطوّعه دون مشقة،

وبانتهاء الصعوبات التي لاقاها، سواء في مقابلة دولت - جري، أم في عدم وصول خبر الاتفاق السري الروسي - التركي إلى الأديعة كما يجب، والتي كانت حوّلت نهاره وليله إلى سنة، ومسروراً أيضاً بأنه سيقابل الأمير تاخ.

كان الأخير في الأعوام الماضية يقضي الربيع المبكر بصعوبة، ولا يناسبه حرّ الصيف. لا يرتاح إلا أيام الاعتدال الخريفي بين الحر والبرد.

لا يوحى منظر الأمير الذي أيقظوه وقد مضى من الليل كثيره بأنه يعاني من صحته. ولا دأهه السعال كما في بعض زيارات مامي. يجلس بظهر محنيّ ووجه نحيف. ولا تظهر عليه علامات النعاس. يراقبهم حذراً بعينه الضيقتين. وبعدما تبادلوا كلمات فارغة، وخرج سرباي لتفقد الخيل، مدّ مامي مستعجلاً زنار الفضة للأمير، وأرفقه بكيس الذهب. وأتبعهما بصوت أصم:

- لا أريد أن يراه سرباي، هذان عربون لما سأطلب منك.

- لا أعرف ماذا سأقدم لك يا مامي. أنت كريم معي دائماً. - قفز تاخ، ودسّ ما أعطي وراء الوسادة. ثم نظر إلى مامي مستعداً لتنفيذ كل ما يُطلب منه.

- إن سألك أحد من جماعتنا فقل له إني أتيت قلقاً من الاتفاق السري بين تركيا وروسيا. لا يجوز أن يشك الخان بي البتة. ما أتى بي ضائقاً به صدي شيء آخر: بلغني أن اللعين قلقت الذي لم تعد أرض الجان تتسع له اتفاق مع ابنة زغاشت على موعد للزواج، وأنت لا بد أنك تعرف.

- والله لم أسمع.

يقولون: من تتأمل عونه خصيمك. كان مامي يود تجاوّز النقاش إلى السخرية: "تستهلك الخبز، وتحرق في السماء كغراب فاغر فاه، فلماذا تعيش وأنت لا تعرف مثل هذا الخبز؟" ولكنه ارتعب من قطع الرجاء في مسعاه، وأفهمه أن الموضوع الذي يتابعه لا يتعلق بشخصه:

- تعرف يا أمير مقدار الاحترام الذي يلقيه العجوز لأماف في الجانيه ؛ فإن صار قلقت قريبه أضيف إلى قوته المجنونة ما استمده من قرابة لأماف. وستضيق عليك الحال لأنه مقرّب من الأمير شبق. لا يجوز أن نسمح لهذين بالزواج ولو قامت الساعة.

- وماذا بيدنا؟

- اعمل ما تريد! - ارتفع صوت مامي مرغماً، - كَلِّفِ الناس المخلصين لك، لا تبخل عليهم بالمال. سأعوّضك ما تنفق عليهم. أربعوهم، وأقنعوهم باستحالة ما ينويان. وأكّـد على جماعتك أن يتخلصوا من الاثنين إن لم يرعويا. - إن عرف الجان أغلقوا الطريق في وجهنا. - قال تاخ جزءاً.

- لا تيأس! لا تنس أن وراءك وورائي خان القرم الكبير.

بعد الفطور توجه الأمير تاخ إلى الأمير فواخ لتكليفه بما لا يجده لائقاً بشخصه. استقبله فواخ كأن لم يحدث بينهما شيء. صارحه تاخ بما يريد دون إطناب في الكلام. استند الأمير فواخ إلى السرير معتبراً المسألة سهلة، وعقد أصابعه القصيرة السمينة فوق بطنه، وتكلم دون غضب وتوعّد على غير عادته: - قلقت، هذا الشاب المتباهي الذي تخاف منه، لا يساوي شيئاً في نظري حتى لو حلّ محل الأمير شبق أو صار سلطاناً. إن جئتني تريد مني مقارعته فأنت مخطئ. بعدما أهنتني أمام المؤتمر فلن أعادي اعتماداً عليك، لا الدبّ، بل القطّ الجاثم.

- أهذا مبلغ رجولتك؟ - قفز الأمير تاخ وقد صعد الدم القليل الباقي فيه إلى وجهه. - تغيرت، لا تثق بنفسك، ومن يعتمد عليك أشد جنوناً منك.

- أرقص على عزفك!.. - حسم الأمير فواخ الأمر. واكتفى بنظرة ساخرة على الجسد النحيل المحني دون أن يتحرك من مجلسه.

كان الأمير تاخ يعدو بحصانه والحرس يكاد يلحق به فيعلو صوته أحياناً بشتائمه للأمير فواخ دون اعتبار لاحتمال أن يسمعه. ولم يترك مثلبة يعرفها عليه أو لا يعرفها إلا ألصقها به. وما إن تشقّى به حتى خطرت له هدايا مامي القيّمة، فأنبرى يلوم ويلعن: "أدعو إلى الله أن تصبح متسولاً جوالاً أيها المجنون القبيح. من زرته ليس إنساناً، كنت أنوي أن أقدم له بعض الذهب، وإن طلب المزيد أعطيته، حتى أقاسمه الكيس. أعتمدُ على من لا عقل له فأدعُه يهيني. أنا وحدي كفيّل بإزهاق روح قلقت اللعين، وأدُلُّ زغاشت ولو أنه من الأسر المتنفذة، وأتسبّب له ولا ينته بعاهة لن تشفى أبداً. وكيف أتخلّى عن هذا الزنار الأنيق؟ لا، لن أعيده إليه وقد صار في يدي. والشاب الفلاح والفتاة لا

يساويان ثلث ما في الكيس من ذهب. أليس عندي من أعتمد عليه دون رجاء فواح الجاحظ العينين! يكفي أن أطلب من الحراس ورائي ؛ يمزقونه ولو كان من عمالقة الأساطير..."

عاد الأمير تاخ إلى بيته مرتاحاً جسداً وقلباً. وما إن ترجل ووصل إلى باب المضافة حتى داهمه السعال، وفيما يكظمه بصعوبة سال الدم من فمه. استند إلى طرف الأريكة بعدما جلس مدة لا يستطيع التنفس. ثم استدعى حراسه واحداً واحداً واختبر مهاراتهم في المصارعة. ثم وجههم جميعاً لنشر الفتنة في قرية ترام.

...

كانت سراس من بين أوائل من سمعوا الأقاويل التي تحطّ من شأن قلقت ونكر وتدينهما. عادت إلى الدار منتصبة الرأس. ألقى ظاظمي المنكب على تقطيع حطب الفرن نظرة من تحت حاجبيه عليها، وتمتم: "لا يجوز أن تسمح لها بالخروج من الدار، لن تعود إلا بخبر حسناً كان أم سيئاً. اللهم اجعله خيراً..." - وفي الحال خطر له ابنه: أليكون ابننا ارتكب عملاً شائناً ما؟ أكيد هذا هو، ولو كانت سمعت بمأساة ما كانت دخلت تولول.

مهما كان ظاظمي لا يطيق ابنه، حتى لو بلغ به الغضب منه أن يقتله بيده، فقد راود ذهنه القلق البارد، وسرى في جسده النحيف. ثم عاد إلى طبيعته، ونظر إلى عجوزه مرتعباً:

- ما الذي سمعته حتى تصدعي العالم بشتائمك؟
- أنا أعرف ما أقول! - زرت سراس خصرها بيديها، ثم انخالت على زوجها مشيرة بيدها اليمنى، - إذا كان زغاشت بلا عقل فهل أصبح صديقك أعمى؟
لو لم أبلغهم رغبتني في نكر من أجل مامي لهان الأمر. كم قلت لهم!
- أغلقتي فمك! إياك أن يسمعك الجيران. - نصحتها الزوج بصوت مكتوم.
- ألسن أتكلم ليسمعوا؟! - لا تنوي العجوز التراجع. - وهل ابني هو الوحيد الذي يتعامل مع النغوي؟ ما أشدّ احترامهم له وإعجابهم به. أمراؤنا لم يحلموا بمثل ما عنده من مال. يتجاوزونه بها، ليقدموها إلى قلقت الفلاح، لا

لشيء، سوى جبرته لشبق. يُخرجونها من الجنة، ويلقون بها في جهنم مع من لا ينفع في شيء. ولدي أنا...

- يا له من ولد! - احتدّ ظاهلي عاجزاً عن الصبر. - لا تُسمعيني اسمه!.. وجدت غنيمة ملوثة بدم الأديغة، أهذا من تعتدّين به؟!

- تُصدّق ما يقول سِفلة الناس فتُعادي ولدك الوحيد بدلاً من أن تحميه. - إن كنت لا تريدين أن أضرب رأسك بهذه الفأس فاغربي من وجهي! ثم صاح وراء العجوز الهاربة: - ابنك هذا الذي تمدّحينه لي لا يساوي ظُفّر قلقت...

...

للكلام أرجل طويلة، وأجنحة قوية. يولد بروح واحدة فيغتني بألف. ومتى وجد طريقاً انفلت من القرية إلى القرى المجاورة. لن تلحق به راجلاً أو فارساً. كان الطرفان المعنيان بزواج قلقت ونكر يُطحنان بالكلام. وكان في القرى من يصدّق ومن لا يصدق.

ولكن آخر من يسمع الكلام هو المقصود به. لم يهتم قلقت في البداية. طمأن نفسه قائلاً: الكذب أساسه ضحل، والصدق ينتصب من جديد وإن صرعته. ثم أعاد التفكير فقرر أن يزور قرية ترام بصحبة بسمت. دخل الإسطبل، وقبل أن يخرج بالحصان سمع صوت حصان في أرض الدار: وصل حاتاي دون أثر للإجهاد. وعلى وجهه خدوش. ثم فك الحزمة المربوطة وراء السرج مرحاً. كان قلقت مشغولاً بأثر الأظافر على وجه حاتاي أكثر من انشغاله بما يفكّه. فسأله:

- هل رماك الحصان؟ أم اصطدمت بغصن شجرة؟
- هذه آثار يد بشرية، - لمس حاتاي وجهه، ونظر إلى ما يمسه باليد اليسرى: - تعال ندخل البيت.

توهجت وجنتا داريه حين لمحت وجه حاتاي حتى قبل أن تفتح الباب وتُهرع إليه. ورقت عيناه من الشوق. وسرت على الشفتين ضحكة راجفة صادرة من القلب.

"إيه... ما أراه عجيب! - صرخ قلقت من قلبه. - ماذا جرى لك يا أختي الصغيرة؟ ألا تعرفين أن حاتاي عاشق لجارتنا مينسور؟ كنت أشكو من أنهم يشعلون النار من ورائي فإذا بنار تشتعل أمامي تماماً. ليس هذا معقولاً البتة. ستقوم عداوة أبدية بين الفتاتين الجارتين..."

جلس حاتاي دون كلمة واحدة، وفك الحزمة التي كانت في مؤخرة السرج: لباسٌ كامل للرجل. نفّض الكساء الضخم ووضعه فوق الفراش. وفوقه البنطال والقميص. ووضع الحزمة السوداء على أرض الغرفة. وأخرج أخيراً قبعة الفرو التي فردها بقبضتيه ووضعها فوق الملابس.

- تات أرسل لك هذه الملابس يا قلقت. هو يراها هدية متواضعة، ويقول: ما قدّمته لأسرتنا يعادل مال الدنيا. وأعطاني من الذهب والفضة. من الصعب سوقُ المواشي من هذا البعد، ولذا سنشتري بضعة خراف. وكذلك ثوباً جديداً تقدمه داريه لمن ستدخل البيت للمرة الأولى.

- أريد أن أسألك: هل تحاولان أنت والوالد تأسيس بيت جديد لي؟! - ضحك قلقت من أعماقه مسروراً بما قدّم له.

قال حاتاي وهو ينظر عبر النافذة حين خرجت داريه:

- حين دخلتُ عمق الغابة خارجاً من قرية ترام لحقّت بثلاثة فرسان: أوسطهم ضخم نسبياً، والآخران لا بد أنهما أخوان لأحدهما متشابهان، رشيقان. وما إن بدأنا بالحديث حتى بدؤوا في ذمّك. وانتقلوا من الغيبة إلى إهانتك. قال الرجل الضخم دون حماسة:

- الحب لا يُحصّل بالقوة.

- ماذا تقصد بهذا؟ - سألتها غاضباً، - وجوابه... كفى، لا أريد أن أنطق هذه السفالات.

- لا يا حاتاي، قل ما سمعت خيراً كان أم شراً. - قال قلقت بقسوة.

أطرق حاتاي برأسه خجلاً مما سينطق به، ثم قال بصعوبة:

- قالوا إنك دفعتَ نكراً إلى الفاحشة فأهلها يتوسلون إليك أن تتزوجها.

- ليتهم قطعوا رأسي قبل أن يشيعوا هذا عن نكّر. - تنهد قلقت من أعماقه،

- لست من كان يجب أن يصادف هؤلاء.

- وأنا لم أسكت. - ما إن نطق الرجل الغليظ بالكلام القبيح حتى ضربت جبينه بمقبض الخنجر فرمته عن الحصان. وأسقطت من كان إلى يساره على طريقتك بلكمة على أنفه. والثالث هرب يتلفت إلى الوراء ككلب مرتعب... هم من رجال الأمير تاخ... - قطع حاتاي كلامه، وقال عابساً بصوت خائف: - لن نستطيع الذهاب لنزفها كما قررت، سيلحق بنا العار: استعد الأمير تاخ لشنّ حرب علينا. لن نستطيع مواجهة عشرات الفرسان بخمسة أو ستة...

...

إن أنصت إلى من يقول لك المفيد فرحت لاحقاً. نكر جالسة على غارب حصان قلقت وعلى وجهها نقاب خفيف. وإلى يساره أفمق، وإلى جانبه حاتاي. وبسمت وداور السائران إلى يمينه ينظران إليه مبتهجين. ويتبعهم رجال القرية المعتبرون. لم يرفع الفرسان عيون الحذر عن جانبي الطريق حتى دخلوا عمق الغابة. ولم يتحرك الفرسان المتخفون الذين وزعهم الأمير تاخ في الغابة. كانوا يتابعون موكب الزفاف بعيون مرتعبة.

غنى الرجال حين وصلوا إلى قرية قنشقوه أهزوجة الزفة:

- واريدادا، نرف الفتاة الجميلة، وا، وا، وا، ألا ترددون معنا!

في اليوم الخريفى المبكر المعتدل نقضت أهزوجة الزفة صمت القرية. واحتل المهنتون دار قلقت والفسحة أمام الباب. واتخذ العريس من صديقه بسمت إشبينا.

V

الأديغة كالشجرة الأزلية. مزروعون في الأرض بجذور متشابكة غير مرئية. وبفروع متباعدة يرصدون أصقاع الأرض الأربعة. هذا عينه على الشرق، والآخر على الغرب، والثالث إلى الشمال، والرابع إلى الجنوب. والقمة الصاعدة؟ هذا يمتد إلى وسط السماء، وينحني. عالمه منير حيناً، مظلم حيناً. يجابه الرعد والمطر الذي يجلب الخصب، والريح والجفاف.

ليس الأديغي في هذه الحالة اليوم أو أمس فحسب. بدأت قبل أن ينتشر اسم الأديغة منذ أقدم الأزمان على أفواه الناس في الأخبار الشفهية والحكايات. ثم في المخطوطات. والأديغة ينقسمون إلى أعراق: الأبراخ، والزريخ، والأدومي، والبجدوغ، والجان، والقبرتاي، والقسوغ، والجمكوي، والمامكغ، والموط، والمخوش، والناخوي، والوييخ، والحكوف، والحاتيقيوي، والشابسغ. الأباطة والأبخاز من أقرب الناس إليهم لغةً وعاداتٍ. وإذا كانت بعض القرى تتعطش إلى شكل من أشكال الدولة، فما لا يريدونه البتة دولة مستقلة تحمل اسم الأديغة. متى استقروا في المضافات ناقشوا أمور العالم، ورتبوا أمور الدول. إن نظروا نحو الشرق تكلموا على الفرس، وانتقموا من زعيم القوموق. وإلى الغرب يسحقون خان القرم، وإلى الشمال يعقدون الآمال على روسيا، وهي مبعث خوفهم أيضاً. ما من أسرة بلا مشكلة، وهذه حال الأعراق التي لا نهاية لمشاكلاتها. وهذه، بأغنيائها وفقرائها، تتدخل في شؤون البلاد الأخرى دون أن يستطيعوا حلها. ومن يتأملون مساندتهم فيتصلون بهم قد يكون بينهم الصالح والطالح على مبدأ: معروفي انقلب نحساً عليّ، وجاري صار عدوي. وفي التاريخ الماضي كثيرون من الأديغة الذين يرحلون برجولتهم وعقولهم إلى دول أخرى بدلاً من أن يصبحوا رجالاً في بلادهم ويساهموا بعقولهم فيها.

لم يقابل القبرتاي وفد الأمير تيمرقوه العائد من موسكو كما فعل الجان حين رجع أميرهم شبق من موسكو. منذ العام الماضي لا يزال تيمرقوه كبير الأمراء في منصبه بالدور، ولكن لا يقولون له: ما فعلته غير صحيح، وأعد لنا رواية ما أنجزت. العامة، من يؤيدونه ومن لا يؤيدونه، يعبرون عن آرائهم كلاماً، ويتنظرون من سيبدأ أولاً كأن لم يحدث شيء في القبرتاي. وأولاد قايتقوه الأربعة ينفذون كلام والدهم: "لا يبدأ الموضوع من عندكم!". وكبيرهم أبشق يكظم نفسه بصعوبة، ويفوته قطار الزمن بانتظار ما سيحدث. في صباح أحد الأيام استدعى الأمير قايتقوه ابنه أبشق.

- ما أخبار عالم الأديغة يا أمير؟

- كأن السلام في كل مكان يا أمير، - أجاب أبشق، وسأله دون أن يكشف له ما يخفون عنه كما هي العادة: - كيف حالك يا والدنا؟ هل نمت مرتاحاً الليلة؟

ابتسم الأمير فايقيقوه:

- حالي تتبع وضع العالم. إن قلت: كأن عالم الأديغة في سلام فهو صحيح. وأنا يُحِيلُ إليّ هذا. ولكننا نخدع أنفسنا ونحن في وعينا. حسناً يفعلون إذ يجنون الفواكه الخريفية، ويدرسون الحبوب. وحسنٌ كونُ نهار الخريف دافئاً. لا أقبل رضا الفلاحين عن خبر الروس وسكوت الأمراء. سننتكب على يد الأمير الوالي¹ الفارغ الرأس تيمرقوه ونحن نقول: العالم بخير، ونُطمئن أنفسنا. يفعل ما يريد ولا يستشيرنا، والآن قعد منتظراً جواب رجائه. هل تعرف يا أمير معنى اسمه واسمك؟ ألقى العجوز نظرة تأمل في وجه ولده.

- ليس صعباً معرفة معاني أسمائنا يا والدنا. - ابتسم أبشق، - هو ابن تيمر²، وأنا ابن أعلى الأمراء.

- إن كنت تعرف هذا فلا تسمح لابن الشمال الروسي أن يخدعك.

- فهمتُ يا أمير.

- ماذا فهمت؟

- إما أن أسافر إلى الغرب أو أتجه إلى الشرق.

- غير صحيح.

- أقصد: إما خان القرم أو زعيم القوموق.

- دولت - جري بعيد. والزعيم القوموق بوداي قريب. وكلاهما صديق.

وكلاهما صهر. إن استدعينا خان القرم فسيغير كثيراً من أراضى أعدائه الأديغة.

وزعيم القوموق سيكون في يوم وليلة على ضفة نهر ترج. والخان بيكبولات وكنته

النعوي الجاحظة العينين ألتجاج غادرا أستراخان. وزوج الأخرى ملخرب ذات

الرأس الضيق، الخائن الذي ضمه الروس إلى حلفهم صار في منتهى الضعف.

¹ الوالي بالعربية في الأصل.

² تيمر: الشمال.

وهذا لصالحنا. لن يغفروا في القبرتاي للأمير الكبير الوالي سلوكه ولذا أسمح لك أن تتصرف بأي طريقة سرية تريدها، ولكن لا ينبغي تجاوزُ أشهر الخريف. هاجم تبكيت النفس رأس أبشق: "ما أخفيته من معلومات عن تيمرقوه الضخم الرأس، الفارغ من العقل، نتحمل كلانا مسؤوليته. لم تقبل مني حين عرضت الاضطلاع بعمله. وانظر ماذا حدث لنا الآن! من كان يدري أن الأمير الكبير الوالي سيموت وتصل إمرة أمراء القبرتاي بالدور إلى تيمرقوه؟ ولو تصرفت هكذا لصرثُ أقرب إلى منصب الأمير الوالي. والآن أدار ظهره لنا وتطلع إلى الشمال. لم يكتف بالنظر إلى الشمال بل أرسل الوفود، وطلب المساندة. وجاؤوا معهم بمستطلعين ومُحَرِّرين. ألا يفهم أمراؤنا أن ما فعله كبيرهم ليس صحيحاً؟ من طلب مساندته عدوٌ كافر للقرم وللقوموق ولتركيا. والآن فهمت لماذا رفض الروس طلب أمير القوموق بوداي حين سافر قبل تيمرقوه إلى روسيا وطلب منها مساندته ضد الفرس. لأن بوداي يساند خان القرم دولت - جري. ونحن معه أيضاً. ولكن بما أننا أعداء الأمير تيمرقوه فهو يحقق ما يريد. يؤمِّله القيصر كما فعل مع أمير الجان شبق. ويُقي عند ابنه الأصغر سلطان. إذا كان أمير القبرتاي الأكبر سيتصرف هكذا فلن نقع وحدنا في ورطة، بل الأديغة كلهم بين البحرين. يجب أن نفكر في طريقة للخلاص قبل أن تستفحل المشكلة..."

- ما الذي لا تستطيع تفسيره يا أمير؟ - سأل الأمير قايتقوه ابنه الشارد.
 - صحيح ما يقال من أن القلب والروح يعرف أحدهما الآخر. - خرج أبشق من أفكاره، - وأنا كان كلامك في ذهني، ولكني أفكر في شيء آخر، لا أعرف رأيك يا أمير.
 - أسمعك.

- ونحن إن اتجهنا إلى السلطان سليمان وشكونا إليه؟

ضحك الأمير قايتقوه ثانية، وشحب وجهه:

- إنس الشكوى والتوسل. لسنا، أقصد أسرتنا، في مثل هذا الموقف بفضل الله. إذا كانت أسنان عجلة العربة تتناوب الوصول إلى الأرض فإمارة القبرتاي الكبرى ستصل إلينا على هذا النحو، دون أن يعني هذا إهمال تركيا وخانية

القرم والقوموق. وإن اقتضى الأمر توجّهنا إلى روسيا أيضاً، ولا ننسى فارس. سنلعب مع هؤلاء لعبة الغبيضة، ولكن ليس الآن، لاحقاً. الآن في هذه اللحظة نحن بحاجة إلى زعيم القوموق من أجل إشعال فتنة في القبرتاي، وإفهام الناس خطأ سياسة الأمير الوالي. وهذه الفتنة ستكشف كثيراً من الأمور داخل القبرتاي. وربما يفقد تيمرقوه منصبه معها. يسرني يا ولدي أن تفكر في مثل هذه المخارج، وأن يصل عقلك ونظرك إليها. في الحياة تصادفك مواقف كثيرة عليك أن تحني رأسك فيها، ومواقف ترفعه. ولكن عليك أن تفعل ما أنت قادر عليه قبل أن تتصاغر أمام أحد. يقولون: من يُهن يجد فرصة للانتقام.

- هذا صحيح يا أمير، ولكن أعِدك ألا نوصل الموضوع إلى هذا الحد.
- حياك الله، - ضحك قايتقوه ثانية بصوتٍ هرمٍ خفيف. - لا تُسبني سنوات شبابي. هل تعرف ماذا كان يقول لي جدك متى تسرّعت في الفرح؟ لا تشمر عن ساقيك قبل أن تصل إلى المخاضة!

- فهمتُ يا والدنا، - قال أبشق بصوتٍ متأنٍ، وضحك.
- ما يدفعني إلى هذا هو أنه حتى ماء الكشبان يُخنق الإنسان. انصخ زعيم القوموق حين تزوره أن يهاجم الأمير تيمرقوه هجمة قاضية، لا مجرد غارات كما في السابق، وأفهمته أنه سيجد غنائم بين الأديعة العنيدين على نحر ترح، وأنا سنقدم له نحن أيضاً. لا أحد في عالم اليوم يخطو خطوة من أجلك إن لم يكن فيها فائدة له. ثم إنه لن يأتينا في زيارة قرابة، بل محارباً...
...

النهار حارٌّ على ضفة نهر ترح. الشمس تصعد إلى قبة السماء متمهلة ناثرة الضياء. وما من غيمة تائهة في السماء. والأشجار تضحك من على سطح الأرض بأوراق ملونة. والأوراق التي تفلت من أيديها أحياناً تصل إلى الأرض مترجحة. والفواكه المتأخرة تنظر من خلال الأوراق متوردة كأنها تسأل عن موعد قطافها. والأغصان عاجزة عن حمل عناقيد العنب. والأهراء مليئة بالحبوب. وتندلى من أمام المساطب ضفائر الفلفل وعرائيس الذرة وأكوام البصل. والتبن والحشيش اليابس وأعواد الذرة من خلف الأسبيجة.

أعمال الحراثة الخريفية تمضي إلى النهاية، وبعض القمح لا يزال على البىادر. ويجففون الفاصولياء تحت الشمس.

لا يتذكر أديغة ترج مثل هذا الخصب فى المحاصيل والفواكه منذ زمن بعيد. وليسوا وحدهم، ففي باخسان ومنطقة الجبال الخمسة¹ والبسلني والأباطة. وكما يحدث عادة لسكان الجبال فأحوال البالقـر ليست جيدة.

- إن كان موسمنا جيداً فلن يموت البالقـر جوعاً. عندهم مواشٍ كثيرة يقايضونها بها على الحبوب. - ثم شرح تيمرقوه لضيوفه الروس ما قاله عن البالقـر: - إن خالطونا لم تُمسك عنهم شيئاً مما ليس عندهم. نحن الأديغة عندنا أقوال مأثورة كثيرة تتعلق بالجار. يقولون: الجار كالبنطال. ولذا فمن يستهين بالجار إنما يستهين بنفسه كما أورثنا أجدادنا.

قال الموفد الروسي بليشيف غريغوري فى نفسه، وما يرى فى القبرتاي يمر أمام خياله: " مضيفونا غيرُ ما توقعناهم. يعيشون فى دولة جميلة خصبة. أقول " دولة" ولكن الأرض المقسومة إلى إمارات ليست دولة. أرضهم خصبة، وفى الوقت نفسه ليست صغيرة. يقال إن الوصول إلى بلاد الجانيه التى يحكمها الأمير شبق يحتاج إلى مسير شهر. والقبرتاي التى نحن فيها مقسومة إلى قرى وأسرٍ متقابلة. وأحوال رعية الأمير الكبير أحسنُ من الآخرين عادة. إن لم يجر توحيد الأعراق هنا كما فعل قيصرنا فلن تصبح دولة أبداً، ولسنا أحراراً فى موافقة من يدعون إلى دولة. هذا ليس من شأننا. لا نريد منهم أكثر من أن يفتحوا لنا طريق فارس وكارتل. ولكن ما قولك فى شاطئ البحر الأسود الأديغي؟ هذه من جملة أعظم المهام التى أمامنا دون حلٍ كما يقول قيصرنا..."- سأل الموفد بليشيف مموهاً على شروده فى أفكاره المتراخمة:

- لا أظنكم يا أمير حسب المعلومات القليلة التى اكتسبتها عنكم تنتجون ما تستهلكون فحسب. أتعجب كيف لم تؤسسوا دولة واحدة إلى الآن.

¹ بيتاغورسك.

- ليس الأديغة دون دولة أيها الضيف. - قال تيمرقوه ما يشغل باله دائماً، معتبراً إياه عاراً، وأنهى بما يريد: - الأرض الواقعة بين البحرين هي بلاد لنا منذ الأزل. ولكننا نأسف لعدم وجود حاكم واحد كما عندهم.

- وقصرنا قلق لهذا الوضع. - قال بليشيف هكذا اعتباطاً ولو أن الأمر ليس كذلك. وأجيبَ بجواب مبطن لم ينتظره:

- العجيب يا ضيف أن السلطان التركي يقول لنا الكلام ذاته.

- إذن يقلق لأجلكما حاكما الدولتين دون أن يعرف أحدهما رأي الآخر. - قال بليشيف، ونصحهم وضحكة خفية تسري في الوجه الطافح: - لا تُخطئوا في الاتجاه الذي تنوون.

- توجهنا نحو روسيا إن كنا على خطأ أم لم نكن. - أجاب تيمرقوه باختصار. صرخ بليشيف في سرّه مما سمع: "سمُّوا هؤلاء إذن بالمتمردين!.. ما كنت أصدِّق كلام شيبوتيف وفيشنيفيسكي ولكني اخترت بنفسي. رافقتهم في طريق، والآن أعيش بينهم. تكلمتُ مع الجميع، أمراء ونبلاء وفلاحين وخداماً، فعرفت أنهم لبيون صريحون. يصل تفكيرهم إلى موضوعات كثيرة. وطبيعة علاقاتهم؟ وعلاقات الاحترام بين كبارهم وصغارهم؟ رأيت بعيني ما حدَّثني به سيلفيستر وأداسيف قبل أن أسافر كأنهما عاشا معهم طوال عمرهما. لا يضيّع رجالهم ونساؤهم جمال عرقهم..."

دخلت عُشُوناي الرشيقَةُ الغرفة فأنارتها. واستلمت من الخادم الشاب من ورائها صحن الفاكهة، ووضعت على المائدة بكل حرصٍ على جسدها. ابتسم بليشيف لتيمرقوه مبرزاً جمال ابنته. وسرت على وجوه الجالسِين ابتسامة فرح. ونادى تيمرقوه المنتشي نوعاً ما من الباخسمة ابنته عند الباب:

- هل تعرفين ما يقول ضيوفنا يا بنتي؟ سيصطحبك إلى أخيك الأكبر سلطان في موسكو.

- لن أسافر معه وحدي، ولكن إن أرفقتني بأحد إخوتي الكبار فأنا جاهزة اليوم وغداً، - أجابت غشوناي، ولكنها استفسرت عن كلام الضيف ويدها مازال على الباب: - ما الذي لم يُعجب ضيفنا العزيز؟

- يقول: كل شيء تمام، متى سافرت إلى موسكو فسيزوجك من ابن أحد الأغنياء لتستقري هناك بشكل دائم. نقل المترجم المرافق للضيوف.

- أبلغ الضيف إذن التالي: إن كان سيصطحبني لهذه الغاية فلن أسافر ولو وضعوا عندي من الذهب ما يساوي جبل أوشحه مافه. - قالت عُشوناي دون حقد، واختفت.

تبادل الجالسون في المضافة نظرات المودة. "عشت يا بنتي، أجبتي بما لن يخطر على بال رجل. أرضيتني!" - بدا على وجه تيمرقوه ما لا يستطيع قوله.

الوقت يمضي دون أن تشعر إن كنت جالساً إلى مائدة مع أصحابك. حدث هذا مع من سيسافرون فجر الغد إلى الجانيه، ولكن القائد العسكري بليشيف لم يستطع إلا أن يسأل تيمرقوه مرة أخرى عما يشغل باله:

- من في الجانيه يجدر بي أن أقابل بالإضافة إلى الأمير الكبير شبق؟

- في الجانيه أشخاص جديرون بلقائهم يا ضيف. يمكنك أن تقابل رجلاً اسمه قلقت.

- ومن هو؟ أمير أم نبيل؟

- فلاح من العامة.

- وفي روسيا، - ابتسم الضيف، - ليس الفلاحون قلائل.

- وصاحبنا، - ابتسم تيمرقوه أيضاً بشيء من الخبث، - سيقابلك إن شئت أم أبيت، وستسمع كلامه.

لم تكن تلك الزيارة الأولى للأمير أبشق إلى القوموق وإن كان الطريق صعباً.

لم يكن الأمير أبشق يعبأ بالطرقات الجبلية في منطقة الشيشان - الأنغوش، ولا بمعابر الأنهار، ولا بالغابة الصماء مَزْدَغ، إذ يمكن أن تستريح فيها وأن تحتس، وأن تختبئ. ومتى نفذ الماء فالأنهار والسواقي كثيرة. ومتى هطل المطر فالمخابي منتشرة. وإن نفذ الزاد وجدت الغزلان. وإن كنت خبيراً بالطريق أمكنك خداع المجرمين. الجزء الأصعب من الطريق هو صحراء النغوي. ولا يستغرق اجتيازها نصف نهار ولكن إن صادف عبورك وقت عاصفتها فقد يستغرق حتى الأسبوع.

فهم أبشق منذ زمن بعيد أنه ما من شيء إلا له نقطة ضعف. كان والده أول من سمعه يقول: "يرونك حتى في الظلام، ويسمعونك في البرية". ووالده هو من علّمه هذه الحكمة: "لا تبحث عن الشر، وإن أصابك فلا تحف منه"، ومن علّمه الاهتداء بالنجوم. ومن علّمه استعمال المِحْجَم.

وصل أبشق مع فرسانه مساء إلى حيث تهب العاصفة في الصحراء. نظر بعض الوقت إلى السماء، فطمأن رفاقه أن لا داعي لليأس، وأن الريح ستهدأ بعد صلاة العشاء. وابتسم للسائل، ولم يكشف له الحقيقة.

وفي الوقت الذي تنبأ به توقفت الريح، وبدأت النجوم تتناثر في السماء. تقدّم فرسانه، وقبل الفجر وضع قدمه في أرض القوموق المختلفة جداً. وبعد مسير نصف نهار بدت قرية زعيم القوموق بوداي.

رغم أن الوقت كان صباحاً متأخراً فقد تقدم بوداي بحرص شديد إلى الغرفة التي ينام فيها أبشق. فتح الباب بحذر بعدما اصطنع سعلة رغم معرفته باستيقاظ الضيف، وتجاوزه طلق الوجه. وسأل من تحت شاريه الرقيقين مخفياً تعجبه من جلسة الضيف:

- أياكون شراب البارحة لم يواتك يا أمير؟

- هذا الأرجح، - رفع الأمير رأسه الضخم بصعوبة، وجهه محمّر، والعينان محمّرتان، وأضاف باسمًا: - كلما جئت إليكم أقسمتُ ألا أذوق من شراب البارحة. غير أنني متى ذقته نسيْتُ قسَمي... فعل بي شرابكم مثل ما تفعل بك الباخسمه عندنا، ولذا فنحن متعادلان. حسناً، ليست هذه مشكلة. المشكلة الكبرى هي المصيبة التي نزلت علينا وعليكم فجئتُ مستعجلاً إليكم يا صهرنا وصديقنا. ونحن من دين واحد، ونقف أمام الله حتى لو لم تكن بيننا مثل تلك القرابة.

لم يكن بوداي الأمرد يعرف المصيبة التي طُرحت عليه، ولكنه ابتسم بوجه ممتلئ في وجه أبشق وهو يَحْمِنُها. ولطف الضيف وكان الحرارة التي تنبع من عينيه تحرق يديه القصيرتين.

- أيها الأمير، لا حاجة للمناورة حول الموضوع، - ما يقلقك يقلقني. - قل لي المخرج.

- عاد موفدو الأمير تيمرقوه من موسكو.

- أعرف.

- لم يأتوا بخبر يسرنا أو يسركم.

- ما لم يقدمه لي، أنا زعيم القوموق، قدمه للأمير القبرتاي الكبير.

- وهذا ما لا نقبله باسم كثير من أمراء القبرتاي. - أخفى أن والده الأمير قايتقوه رواه له، - هذا سبب إسراعي إليك. لا يجوز إهمال هذه المصيبة. وتبعاً لما وصلني من معلومات فخان القرم وسلطان تركيا قلقان. ولا يقبل به ملك بولونيا. ويحْتَلَّ إليّ وإن لم أكن متأكداً أن الفرس قلقون من توغل روسيا في القفقاس وأستراخان.

ضحك بوداي في سرّه: "على قولك، فإن قضيتكم الأديعية التي لا تعرفون حلّها يقلق العالم... تأتون بالكفار إليكم مع شارات الاحترام، ثم تستنجدون. ماذا ستستفيدون مني إن شكوتكم إليّ عدم اتفاقكم، وهذه حالنا نحن أيضاً. وهذا أحد أسباب إسراعي إلى موسكو. تبيّن أن الروس يهتمون لأمر الفرس أكثر من اهتمامهم بنا..."

- اعتبرنا نحن أيضاً ممن لا يقبلون هذا يا أمير، - قال بوداي متناسياً أفكاره، وعيناه الصغيرتان تلمعان كالدهن، - ما لم يقدمه لي لا يقدمه للأمير تيمرقوه. - انفجر ثانية من الإهانة التي لا ينساها.

- صحيح، صحيح. لو لم نتأمل فيك العون لما جئنا إليك.

- الحقيقة أنني لم أكن أنا أيضاً واثقاً جداً من موسكو. خطر لي حين سمعت أن أديعة الغرب سافروا إليها أن أخالطهم وأستطلع آراءهم... ولم أخف عن الترك والقرم نيتي... ولم يعارضوني وإن لم يُرضهم. ولكن تبيّن أن ما قاله لي السلطان سليم والخان دولت - جري كان صحيحاً. أسمعك يا أمير، ساجّني إذ قاطعتك.

- إن كان هذا رأيك فسأختصر لك سبب وفادتي: نتأمل منك أن تغير مرة أخرى على الأمير تيمرقوه الكافر.

لامه الزعيم بوداي في قلبه: "اسمع ماذا يريد مني هؤلاء، يريدون مني أن أقذف بحطبي اليابس في نارهم الأديعية!"

- ليس ما تريدونه مني جديداً عليّ... وحدث أن وقفتم في وجهي كل القبرتاي...

- لم نفعل هذا إن كنت تتذكر حين أغرت في العام الماضي على ضفة نهر ترج.
- أجاب أبشقه، وقال لنفسه: "يبدو من طريقة كلامه أن ما على لسانه غير ما في قلبه. يكذب علينا. يجب أن نوسّط ابنتنا في هذه المهمة..."

VI

"الأمل الكاذب خداعٌ للنفس" هذا الكلام صحيح.
مرت سنة في إثر سنة والأميران تاخ وفواخ يكذب كل منهما على الآخر. ومضى الصيف وهما ينتظران اختيار مشاريع أمير الجانيه الكبير. والخريف في أواخر شهره الثالث. والشتاء الذي يقول: لم أعد بعيداً، ينذر من خلال الليالي والصباحات الباردة. وحين يأتي يتصرف على قدر طاقته ثم ينصرف مع قدوم الربيع الذي يلاحقه. وإذا كانت الفصول تعود كل سنة مع تغيراتها فمن الواضح أن ما يمضي من عمر الإنسان، وإن كانت أيامه أحزاناً، لا يعود. ومن يُحْييه الأمل يُفنيه الحزن.

الخبر الذي سمعه الأمير فواخ الذي قضى أشهر الخريف الثلاثة في همٍّ دائم أصعد الدم إلى رأسه، والخبر الذي تلاه كاد يُفسد عقله. لم يفارق البيت منذ ثلاثة أيام يفني نفسه ولا ينام. ولا يُطبق حركات الخادم الذي يُدخل إليه الإبريق والطست فيصب عليه الماء البارد. ويشتم من يضع المائدة أمامه. ويتشقى من الخادم الذي يستدعيه دون حاجة إليه. ويتكلم بالسوء على الأمراء المؤيدين، وشبه المؤيدين للأمير الكبير شبق. كلهم جبناء، خانعون. ولو آمنوا أن يراهم أحدٌ لأكلوا من روث حصانه. والوحيد الذي كان يتأمل مساندته، وهو الأمير تاخ خذله.

الأمير فواخ الذي لم تنبت له لحية وشاربان حتى سن البلوغ نخض ممتلئ الوجه بالشعر الأسود. يذرع أرض الغرفة بقبضة مضمومة وهو لا يكاد يرتفع عن الأرض. أنا من يريدون منه أن يحاجج وأن يصارع. وهم يقفون جانباً وينصتون. وهذا بالضبط ما فعله بي الأمير تاخ المريض المزمن مغالياً السعال مع

كل كلمة. أنا فهمت طبيعته جيداً. يريد أن يجنّدنا مصطنعاً العقل والذكاء. وما يحزنني أن لا يظهر في الجانيه كلها أمير أكبر منه أو أصغر. لا يمكن أن تخلو من أحد ولكن لا يثقون بنا. نعتّف في الوقت المناسب وغير المناسب شبق الحب لشخصه، ولكن أنكوّ عودناهم على ألا يؤثر فيهم كلامنا. هذا غير بعيد. وبين الناس من يظننا نحسده على منصبه، ومن يظننا نرميه بالبيض. ماذا قال لي أحد أنصاره؟ " متى نظرنا إلى المكانة العالية التي ارتقاها شبق سقطت قبعتنا عن رؤوسنا. فكيف لم يُسقط عنك قبعتك البالية؟.."أيها المساكين، كيف لا تفهمون أنه يقف على كومة من الغبار؟.. أنا على الأرض برجولتي وعلمي. نبتُ فيها بجذوري القوية؛ فكيف أحسد من رفعوه إلى تلة من الغبار! سترون كيف سينهار متى ضربنا ساقه الهشة. وستسعون لتكسبوا صداقتنا. ولكن لن تحصلوا منا على خير!.."

فرد فواخ أصابعه المتعركة، ولم يُفده تهويتها في أثناء تمشيه. وابتلت أذناه ورقبته وإبطاه. وتابع أفكاره التعيسة عارفاً أن هواء الغرفة الثقيل لا يواتيه: "لا يجوز أن نتعادي أنا والأمير تاخ ولو أنه تخلى عني مراراً في الساحة. ومتى انتهت مهمتنا فلن أسمح له حتى بالاقتراب مني... والآن عليّ الاعتذار منه مع أنه تمارض حين احتجته. وعليّ مقابلة الأمير مارتقوه. كأني كنت شككته في شبق وإن أخفى شعوره... علينا أن نبعد عنه أصحابه شيئاً فشيئاً وإلا فلن نقدر على مواجهته..." - انتزع السوط من الجدار وخرج من الغرفة إلى المسطبة. قطع قطّ أسود طريقه فصاح في إثره:

- من أين هذا القط الأسود؟! - ولما لم يظهر أحد صاح بصوت أعلى: - ألم يبق أحدٌ في دار الإمارة؟

نظر الخدم والرعاة من وراء السور فزعين. ووقف خادمه أمامه:

- أسمعك يا أمير!

- من أين أتى القط الأسود الذي اختبأ وراء مخزن الحبوب؟

- اعتاد علينا منذ عدة أيام يا أمير.

- هذا فأل نحس! أمسكوا به ومزقوه أمامي وعلى مسمع مني! ثم استدار وعاد إلى غرفته. اقترب من النافذة يلعب بالسوط، وراقب من حاصروا المخزن، ورأى

كيف جرّ الرجل القط وضرب به الأرض بكل قوته فقتله. عاد إلى المسطبة سريعاً وخاطب الرجال: - أخرجوه وادفنوه، لا أريد أن أراه!..

VII

أُخِّرَت أسباب متعددة سفر الأمير شبق بضعة أيام. في اليوم الأول لم ير من اللائق عدم المشاركة في مأتم أحد فلاحي القرية. وفي اليوم التالي جاءته مشكلة: النهر الفائض نتيجة أمطار الخريف الغزيرة أنساها المأتم. استنفر أهل القرية وعلى رأسهم الأمير وسدّوا فتحة المنخفض. وفي اليوم الثالث تشاجر جاران على قطعة أرض صغيرة. وتجاهبه الفلاحون يتنازعون المرعى، فوجب على شبق التدخل برفقة المسنين. وفي كل يوم يرى وهو عائد مينسور طلقة الوجه باشّة تشيعها داريه.

لم يهتم شبق في البداية. وتصور أن مينسور تؤانس داريه التي يغيب أخوها. ولكن المنظر صدمه في اليوم التالي: "أتكون هذه الصبية المنحوسة وسيطة بين مينسور وحاتاي؟ ليس بعيداً. ولكن إن كان يظن أنه قادر على أن يخطفها سراً فهو مخطئ. غير أن اليوم يتلوّه اليوم ؛ ألا يجب أن أحمي أسرتي؟ حتى والدنا لم يستطع إثناء مشكلات القرية وأنا لن أستطيع إنجاز شؤون البلاد. يفوتني مرادي باسم الإنسانية. لن أتأخر عن صباح الغد مهما كانت الظروف. سأنطلق غداً، وليحدث ما يحدث!"

ما إن عاد إلى الغرفة حتى استدار إلى بجمت الماشي وراءه، وخاطبه بصوت متعب:

- سأسافر غداً قبل أول ضوء، جهزوا لي الحصان، وأخبر بضعة حراس.
- بعدما انتهى من العشاء هو وأخوه، بادره أخوه المشفق عليه من كثرة مشاغله.
- ما العمل إذن يا أخي. مهما رُبط إلى العربة من الخيل فمن يتلقى السوط هو آخر حصان. - شكاً بصوت يكاد يسمع، وقال وهو يفكر في ما ينتظره.
- ليس التعب مشكلة إذا كان ذا فائدة. تنساه في ليلة نوم.
- كنت أظن أنك تتفق مع غيرك إذا كنت مستقيماً. ولكن بينهم من لا يفهمك ولو ضحيت بحياتك من أجله. - بان حزن أعمق رغماً عنه. ألا يدرك

أعداؤك أننا لم نتجه إلى روسيا عن طيب خاطر أو بطراً؟ لا يمر يوم دون أن أتذكر ابن أخي الصغير الذي تركناه في موسكو.

- كلما تقدم بك العمر اكتسبت عقلاً من التعامل معهم يا أعمق. لا تصدع رأسك بما لا فائدة فيه. - نظر شبق نحو النافذة مُفهِماً أخاه الأصغر أنه غير متحمس للحديث. وأضاف أعمق حين نهض دون أن يكمل حديثه: - أنا أفكر في زيارة الناختواي غداً. لم أزر تلك الناحية منذ وقت طويل. لا تقلقوا إن تأخرت لسبب قاهر.

- حسناً خطر لك يا أمير، - التفت شبق طلق الوجه. - وإلا نافسك قلقت على دفعة المحراث.

- إن كان لم يمسك بما. ضحك شبق يغلبه المزاح.
- أنت تمزح، القيصر استدعاك أنت، غير أن رُسله سألوا عنه، وقابلوه. وتبين أنه يعرف أخبار الأمير تيمرفوه. وهذا يخفي سرّاً تحته.
- إن كان فيه سرُّ اليوم انكشف غداً. على كلٍّ أن يعرف موقعه.

لم يكن شبق يريد إطالة الحديث لأنه يريد النوم باكراً، وظل يراقبه إلى ما وراء الباب مرتاحاً إلى أن أخاه انتبه إلى هذا. ثم راقب السماء. كانت ليلة هادئة، هواء خفيف، ونجوم تلمع. والقمر نقص منه القليل. والقرية هادئة كما الطبيعة. وبعض الكلاب الحذرة تنبح من هنا هناك. وفجأة انفعل شبق، وتنهد وحنجرته تعتصر.

من الناس من ينام ما إن يضع رأسه على المخذة. وبينهم من يثقل عليه الليل. ولكن حتى أهدأ الناس يهرب النوم منه حين تغلبه الأفكار. وتغزوه الخواطر التي لا يريدونها. أمُّ العقل هو التفكير. فكيف تغلبه سواءً أردت أم لم تُرد؟

تراجع شبق عما نواه بحق حاتاي. وظن أن المسألة لم تعد تهمه. ولكن حين قرر أن يلاحقه تَمَثَّلَ له هواجس مخيفة كثيرة. وابتسم متذكراً حماسة زوجته لِمَا خطط بشأن الشاب البريء وكان شخصاً آخر هو من فعل: "المرأة مثلك الكلبة التي تهاجمك إذا تعرضت لجرائها، لا تسمح لمن لا تريد بأن يقترب من أولادها. ستقفز على عنقك. ظننت أنها ستوافق ما دام الشابان متحابين وهو ابن أمير، ولكنها كانت أقسى مني. حسبت حساب ما سيقال في القرية. ولم

تنس المحافظة على مركزها. وحجَّتْها أنه ربي في دارنا ونشأ كأنه ولدنا كان مجرد كلام. ماذا يعيب حاتاي لولا هذا الموقف منها. ووالده من رجالات البسلني. وحين كنا نغلق فوهة النهر كان قلقت وحاتاي من أنشط العاملين فيه. عملاً طوال النهار بسواعد مشمّرة. وفي جميع الأحوال لن أسمح بأن أصبح موضع سخرية الأمراء والنبلاء... أفهم، الأديغة لم يقولوا ما هو غير صحيح: "زوّج ابنتك لمن هو أعلى منك، وتزوّج من هي أدنى منك". لا أحد غير الله يعرف ما سيكون نصيب أولادي. وإن قلت: سأبحث لابنتي عن الأعلى فلا أزعم أي سأجد أعلى من حاتاي مرتبة، ولا أفضل منه. ولكن كان على الأمير جامبج، ولا يؤاخذني، أن يضم إليه ولده حين وجدته، والآخر لا يليق به أن يطمع في البنت التي رُئيَ معها في ظروف العبودية... - أرعب الأمير البرق الذي أثار الغرفة، والرعد الذي قصف قبل أن يجد الوقت ليخلع ملابسه لينام. - ما الذي جرى؟ - رأى شبق أنه مقصود شخصياً بما عاناه في الأيام الثلاثة الماضية، وبالبرق في غير وقته: - أياكون الله رفض النية الشريرة التي عقدتها في نفسي؟ كل يوم تظهر أمامي عقبة. ما الخطأ في ما سأفعل؟ إن لم أحرم ابنتي فمن يحميها؟ والله قال: إحرص على نفسك أحرص عليك! لست المسؤول، بل من كان عبيدي أمس واليوم يريد أن يهينني... أظن أن المحرم الذي اخترته من الناخواي غير مناسب، الأفضل أن أبتعد في الاختيار. ما أصعب أن تقترف إثماً! لا أعرف كيف يعيش المجرمون رغم أن ما يجرمني من طمأنينة البال ليس ما نويته شخصياً، بل ما أنوي تكليف غيري به. مهلاً، مهلاً، لماذا أبحث عن قاتل وأمامي ونتغ الأعرج؟ الأمراء يحتاجونه دائماً؟ وأنا بالقياس إلى هؤلاء أميرهم الكبير. يكفي أن أعطيه بعض الذهب...". بدأ قلب شبق القلق يهدأ فعاد إلى الفراش.

ترك الفرسان وراءهم بضع قرى قبل أن تشرق الشمس. شبق على الحصان معتداً، وإلى يمينه ماتج، الحارس الطويل الأقنى الأنف، القوي الساعدين، الذي يُبعد عن قلب الأمير كل خوف. وبجمت إلى يساره يكاد رأسه يظهر من بين كتفيه العريضتين يخفضهما كأنه يتورع عن أن يعلو على أميره. ولكنه حريص عليه، لا يرفع نظره عنه. وأذناه مصغيتان لأنه من سيرسله الأمير في أي مهمة.

تعتّر حصان شبق فجأة. رفع بجمت رأسه مرتعباً، وألقى ماتج نظرة من اليمين، ولم ينتبه أيّ من الفرسان الموزعين ثلاثة ثلاثة وراءه.
- تبا، أنا المسؤول، أرخيت العنان.

- لأنك شردت يا أمير، - وجد بجمت ذريعة لأميزه.

- صباح جميل يا أمير إن لم تكن أمامك مهمة مُلحّة، فأرح رأسك! - نصحه ماتج أيضاً.

- ليس أمامنا ما نقلق لأجله بفضل الله. - أجاب الأمير بلطف شاعراً أن الحارس يود معرفة مقصودهم. - سنرى إن كان الأمير دودارقه الذي تركناه في موسكو أرسل خبراً ما. لا يُريحني مماطلة الروس في المطلوب منهم.

الريح الخريفية المشربة برائحة الشتاء تداعب الخدود. وتلسع ظواهر الأكف بلطف. ولكن الشمس المظلة من بين الجبال تدفئ الهواء شيئاً فشيئاً. فنفرح له الوجوه والأجساد. وفي الضحى خلع الفرسان أكسيبتهم وعلّقوها بمؤخرات السروج.

القرى الأديغية متراصة كقرى النمل. وربما كان هذا السبب في أن القوم كلهم لم يعتادوا أن يحملوا معهم زاداً للطريق. قاد شبق بعد الفطور رفاقه إلى دار الإمارة التي سينزل فيها. ثم استأنفوا طريقهم يريدون كسب الوقت. وقصّروا الطريق بتفويت الغداء، وبالإسراع. وفي الليل لم يكن هناك ما يبيتون فيه، ولا ما يعلفون به خيلهم.

وصلوا في بداية النهار إلى القرية التي يقيم فيها ونتغ الأعرج، غير أنهم لم يدخلوها. والغابة المنحدرة من الجبل تصلح مُستراحاً ولو أن الأشجار خلعت ملابسها. أطلقوا الخيل في المرعى الصغير الذي ينبثق العشب الوليد من أسافل حشيشه اليابس. وأرسلوا بجمت يستدعي ونتغ.

كان شبق يظن قبل الانطلاق أن الآلهة والناس يعترضونه؛ غير أن الأيام التالية هدأت باله. وها هو ينتظر ونتغ كأن الأخير سيحمل إليه فرحة ما. " ما العمل إن لم يوافق هذا الكلب الأعرج على طلبي؟ - ساور الشك قلب شبق. - المجرم لا أمان له ولا حياء. ولا يعرف معنى الاحترام. إن لم يوافق أزهقتُ روحه كي

لا ينشر الخبر. وإن وافق فمن حسن حظّه هو، وأنا أكون حققت هديني. ومن لا يشتري الذهب؟!"

عاد بجمت مع ونتغ فيما شبق غارق في هذه الوساسوس. فغر الجميع أفواههم دهشة من الحصان الذي ترجّل منه المجرم. وهتف أكثر من واحد كأنهم تشاوروا فيما بينهم: "من أين استرجع هذا الحصان الرائع؟ كان قلقت قد أعطاه لأحد الفلاحين".

باح شبق بمزاده دون مقدمات: وضع يده على كتف ونتغ، وأبعده عن الرجال، إلى ما وراء شجرة البطم الضخمة المطلة على الوهدة، وصارحه بما يريد منه. وجم ونتغ من المهمة المفاجئة، وامتنع لونه. ووجد نفسه في ورطة بالإضافة إلى المطلوب منه، ولكن لم يملك إلا أن يقول:

- ما تطلبه مني يا أمير مهمة خطيرة. وأنت تعرف حذر قلقت مني، وقد أعدتُ إليه أخته إذ اقتنعت أنه لن يتركني حياً، ولو كانت أخت غيره لما وقعت عيناه عليها. بل دفعت للتاجر ضعفي ما بعثها به.

- أنا لا أبخل بالمال يا ونتغ، - همس شبق في أذن الرجل الأعرج منحنيّاً عليه: - هذا غربون، ومتى أنجزت المهمة أعطيتك مثله.

- المبلغ جيد، وأنا موافق عليه. ولكن احرص على أن يبقى الأمر سراً. التقيت بجائاتي مع قلقت في نواحيننا؛ هل فهمت ما أعني بكلامي؟

- فهمت جيداً، - استعجل شبق بالجواب، - ماذا تنتظر إذن؟ ألا تأخذ كيس الذهب؛ خبّئه ولا تدع رفاقي يرونه! - لا يا أمير، - عاد ونتغ إلى حاله، ولم يمد يده إلى كيس الذهب. - متى أنجزت المهمة أخذت الكيسين معاً.

- أخذت من الأمير تاخ وإن لم تنفذ طلبه... - بدأ شبق محتدّاً، غير أن ونتغ قاطعه:

- لا أقارنك بالأمير تاخ الذي لا يؤمن جانبه. كرمي لحصان واحد يشرب مئة. اطمئن، لا أساوي بك أحداً من أمراء الأديغة أو نبلائها.

عاد شبق إلى رفاقه باسمّاً لونتغ، وقال بصوت عالٍ في إثر المنصرف، يريد ألا يشكّ أحد في مشروعه:

- أبلغتني خبراً مفرحاً. أوصل سلامي إلى مشوّست وصحبه!
اختفى وتنغ الأعرج عن الأنظار فركب موكب شبق. وأعادوا توجيه خيولهم إلى
الشرق إلى قرية دودارقوايه.

...

مع وقت إشعال الأضواء دخل إلى دار الإمارة ثلاثة شبّان يتوسطهم حاتاي.
وقلقت إلى اليمين وبسمت إلى اليسار. تجاوزوا باب المضافة، وتوجهوا إلى غرفة
البنات. فار دم السيدة زهرة فنسيت إخبار أحد الحراس، ووقفت هي على
المسطبة، وقابلتهم بوجه محمّر.

- المضيف غائب يا قلقت. وأخوه الأصغر خرج في عمل.
- نحن نريد شيئاً آخر يا زهرة. - أجاب الجار بوجه طلق.
- لا أعرف غيرها يمكن أن يكون لكم مهمة معه. - قالت زهرة متظاهرة
بالمزاح وإن كانت عضلات وجهها تحتلج.

- متى سقط على السطح هلال انتبه إليه الجيران قبل أهل الدار. - قال
قلقت، وتوجه إلى غرفة البنات.

- أين الولد؟ - نادوا قامبولات! - قالت للخادم وراءها، وعادت إلى غرفتها
حريصة على ألا يعلو صوته.

- أسمعك يا أمي، - خرج الولد البافع الذي ورث قوة والده، ونظر في وجهها
ببراءة.

- أنت تصغي، ولكن في بيتنا من لا يصغي - نظرت السيدة نحو النافذة لا
تدري إلّام تمد يديها، نظرت عبرها، وفتحت الستارة وأغلقتها، ثم عادت إلى
ولدها وقالت: - ستتزوج أختك في أسرة لا تعرف العادات. ظلت تذهب كل
يوم بحجة داريه حتى صار شباب الجيران يغالونها. وهل يغالون بنت الجيران أم
يعتبرونها أختاً؟ - أكدت على ابنها ويدها على كتفه، وعيناها في عينيه: -
ضع المائدة وسط الغرفة، وضع كأس ماء بارد عليها للخطاب الكرام! وقف
بجانب أختك، ولا تفارقهم مهما احتالوا عليك.

أشعل قلقت المصباح مؤدياً دور المضيف. وما إن جلس الثلاثة حتى دخل
الأمير الشاب كالرجال ورحب بهم. ووضع كأس الماء الضخمة على المائدة.

دخلت مينسور بهدوء وعلى رأسها غطاء أبيض ذو أهداب دقيقة. وعلى الثوب الأحمر خطوط من الفضة من الصدر إلى القدمين. والوجه الأبيض الطلق يشع ضياءً. ولم يملك قلقت وبسمت إلا أن يفغر فمه دهشة. وكاد قلب حاتاي يقفز من صدره. وسرت حرارة في الجسد:

- اجلسي يا مينسور، الجالس والواقف لا يتفكان، - أشار قلقت إلى الكرسي.

- لا بأس، لا غريب في الغرفة. - جلست مينسور دون تكلف. وفي الحال وقف أخوها إلى جانبها.

أخذ قلقت القدرح الضخم من الطاولة كأنه سيشرب. ومدته إلى بسمت الأقرب إليه:

- ضعه على النافذة، يقال إنه متى كان بينك وبين غيرك ماء بارد بردت القلوب. أليس كذلك يا حاتاي؟

- نعم سمعتُ، ويقال: الماء كالروح. وجه الشاب كلامه نحو الخير وإن عرف ما وراء وضع الماء البارد على الطاولة، ومن وضعه.

- هذا إن كنت عطشان، - لمعت عينا قلقت مرتاحاً لفهم حاتاي معنى رمز الماء البارد. ولن نرسل جارنا قامبولات وراء الماء. ولا ننوي أن نخفي عنه حديثنا. وهو سيكون رجلاً خلال بضع سنوات، فليسمع!

- يا قلقت، أعرفك منذ وعينا، وأستغرب كيف أنك مثل عراف الأساطير. ولا أعرف شيئاً تجهله. - امتدحت مينسور الجار مع ضحكة خفيفة.

- وأنا لم أخلق أعرف كل شيء يا مينسور، أكذب عليك إن ادّعيْتُ ذلك. - بدأ قلقت الحديث جاداً، - رباني جدُّك، ووالدك شبق صديق فكر. وأفمق قدوة لي. ومن ينظر ير، ومن يُنصت يسمع. الشمس والقمر يرى أحدهما الآخر دائماً دون أن نرى نحن. أحدهما يدفع الآخر، وينيره، يدوران معاً ولا يمل أحدهما من الآخر.

- أنا يحدث لي كثيراً أن أرى الشمس والقمر معاً صباحاً ومساءً. - ساهم بسمت فجأة في الحديث.

- أنت رأيت ما رأيت وانتهى، - أشار قلقلت للصديق أن يسكت، وأضاف إلى كلامه الرمزي: - القلب والروح يجدان طريقاً يلتقيان فيه لأن من تراه العين يصبح كالروح. فيصبحان كما القمر يحتاج إلى نور الشمس.

- ولكنْ تعترض السحب فتمنع الشمس والقمر من رؤية أحدهما الآخر. - قالت مينسور وحزن خفي يسرى في عينيها.

- الريح القوية تطرد السحب. - وجد قلقلت ما يضيفه.

- يمكنك أن تصبح عنيماً إن كان حياؤك قادراً على معارضة من خلق الريح.

- إن قابل من تحبه نفسك الحلو بنفسه الدافئ استطاعا تدفئة أبرد الرياح يا مينسور.

- الريح الباردة تهب من الطرفين، ولن تجد قوة في العالم تدفئها.

- وهل الطرفان قويان إلى هذا الحد؟

- ويتجاوزان القوي... - انفعلت مينسور فارتعش طرفا شفثيها. ثم تماسكت وألقت نظرة دافئة على حاتاي. - ما العمل، القمر والشمس يدوران معاً وكلّ يشتاقي إلى الآخر ويدفع الآخر ولكنهما لا يتلامسان. أنا أخاف أن أخوض في الريح الآتية من إحدى الجهتين، والأخرى، وإن كنت أستحي منها، أصارحها وأناقصها وتناقشني، غير أنها تخلو من أي دفء.

- ألا نستطيع تدفئته إن تدخلنا نحن؟

- هذا شأنكم. - أنهت مينسور كلامها باختصار.

خرج الحطّاب من الغرفة فأسرع قامبولات إلى أمه قائلاً:

- لم يقولوا شيئاً مهماً يا أمي، كلّفني عبثاً.

- أما قالوا شيئاً؟! - استغربت السيدة الكبرى.

- لم يشارك في الحديث طوال السهرة إلا قلقلت ومينسور. وهما تكلمتا في الشمس والقمر والسحب والريح فحسب - أسرع الولد إلى لعبه.

"يا حسرتي يا ولدي ؛ ما يُدريك أنت مغزى كلام قلقلت؟ لم يتكلم عبثاً على الشمس والقمر... استولى قلق وخوف على زهرة.

رافق قلقلت صديقيه صامتاً، ثم توقف ونظر إلى حاتاي الذي تملكه الحزن والشعور بالعار، وقال له:

- أما عرفتَ ما يقف في طريقكما؟
- فهمتُ ، تنهد حاتاي عميقاً. ثم ابتسم راضياً: - أليست مينسور ذكية؟ وجدت جواباً لكل هذا الحديث الملغز من جانبك.
- ألا تنظر إلى أصلها يا مبارك النسل؟ - ضحك قلقته لأول مرة بصوت خشن. - لا يزال يمشي معهم من تحت الأرض ما يساوي ضخامتهم فوقها. حسناً، كفى، لا داعي لليأس. رغبة الفتاة فيك فوق كل شيء. متى عاد شبق كلمته بمجدية أكبر.
- هطل المطر مع الريح فساء الجو، ثم صفا. وبعد مرور أيام على موعد عودة شبق ناداه شاب يحمل حزمة حطب من الغابة:
- ينتظرك رجل أعرج في الغابة في المرعى الصغير المعروف من كليكما. وألح عليّ ألا أخبر ذا روح غيرك.
- حياك الله، فهمتُ، ولكن نقذ ما طلب منك الرجل. - قال قلقته في إثر الشاب، ونظر إلى السماء: الشمس تعبر السحب الرقيقة الشاحبة، ولا يزال الوقت مبكراً على الظهر. وسأل نفسه وهو يسرح حصانه: " ماذا يريد مني وتنغ؟ لولا خطرٌ داهمٌ لما جاء إليّ من هذا البعد. ولما توقف في الغابة وأرسل رسولاً... "
- لفت وقع حوافر الحصان بسمت الواقف يسقي حصانه. وتعرّف على قلقته الخارج من القرية بكل جسامة. فاستغرب: لم يكن ينوي السفر، أيّ طارئ يدفعه إلى المضي؟
- عاد قلقته مع الظهر. ونادى بسمت دون أن يترجل:
- اطلب من حاتاي أن يلاقيني.
- سأنادي حاتاي، ولكن ماذا حدث؟ لا تترجل كأننا عدوّان، وتوقفت عند الباب.
- أنا مستعجل يا بسمت، لا عشتُ إن عاديتُك! - ابتسم قلقته مرعماً، وخرج حاتاي على صوت قلقته الأَجَشَّ:
- هل تريدني؟

- لا أريدك، ولكن احفظ جيداً ما سأقول لك. - قال بصوت أصم كالغاضب، - إياك أن تطأ دار الأمير شبق بعد اليوم، ولا تخرج وحدك من القرية، أو تسافر وحدك.

- ما الذي جرى؟

- لا شيء إلى الآن، ولكن يمكن أن يجري. لا أريد أن أهين نفسي أمام والدك. جزم بخشونة وغادر.

قضى قلقاً ما تبقي من النهار بصعوبة. لا يستطيع أن يفعل شيئاً، ولا يتحمس لشيء. ولاحظت زوجته وأخته أن الحزن والمرارة تملكانه، ولكنهما لم تجدا من المناسب استجوابه. تذكرت نكر ما كانت أمها تقول أحياناً: "الرجل الغاضب والخنزير الغاضب سيّان، والأفضل في هذه الحالة تجنّب الرجل دون سؤاله" فصمتت. وظل قلقاً مهموماً طوال الليل. بل لم يطرق النوم جفونه. وأكل قليلاً في الصباح بلا رغبة. وقضى وقتاً طويلاً في الإسطبل. وفيما هو متجه إلى بسمت رأى الأمير عائداً مع حراسه. فوقف أمام باب دار الإمارة، وانتظر وصولهم.

- لتستقبلني بالخير يا جاري! سرّني أنك توقفت حين رأيتنا من بعيد. - قفز شبق من الحصان كأن الريح رمته دون أي أثر للتعب.

- الحقيقة أني صادقتك وأنا منطلق إلى جاري بسمت، خيراً أم شراً. أريدك في كلمة إن لم تكن متعباً.

- لا، لست متعباً، تعال، تفضّل، - سأل شبق والسرور يختفي من وجهه: - هل هناك مصيبة ما؟

- إلى الآن نحن مرتاحون، لا أعرف لاحقاً. - قال للأمير دون أن ينظر في وجهه. ولما صارا في المضافة جابهه دون مواربة: - لماذا ترفض حاتاي؟

- سبق وتكلمنا في الموضوع يا قلق.

- قل لي إذن مأخذك عليه!

- متعلّق بابنتي.

- مينسور وحاتاي امتزجت روحاهما، لا تُذنب بحقهما!

- لا يعنيني هذا - تطاير الشرر من عيني شبق.

- رفضك الشاب الأميري شيء، ومحاولة قتله شيء آخر. - ارتفع صوت قلقت.

- ماذا قلت؟! امْتَقِع وجه شبق.

- ما سمعت. ستكون فتنة لم تتوقعها.

- من أوصل إليك مثل هذا الخبر قبل أن أصل؟

- ليس من تتوقعه، - هناك مئة عين تراقب، ومئة أذن تنصت. لن أقول شيئاً لحاتاي. مهما قلتَ نبق جيراناً، أحمي شرفك، ولكن لا يخطر لك بعد الآن مثلاً هذا الخاطر الإجرامي نحو الشاب. ستكون نهايتك عليه، - صارع الأمير الكبير بما يعرف مشدداً على الكلمات، وخرج من المضافة دون أن يلتفت إلى الورااء...

VIII

نظرت سراس عبر النافذة وصرخت:

- انظروا إلى هذا الماشي كيف يتصنع!.. يمسك بالعصا المنقوشة بالفضة ولا يتكئ عليها. لا ظهره محني، ولا عنقه. حسنٌ أن تزوجه من أرملة مترفة؟
- من هذا؟ سأل ظاظمي الذي كان يصنع ملعقة خشبية دون أن يرفع رأسه بلا مبالاة.

- ومن سيكون؟ أليس اللعين لأماف... ليس عنده نية الموت.

- أيتها العجوز الثرثرة، - لم يرفع رأسه ولا صوته، - كم قلت لك ألا تنادي الجار العجوز بمثل هذا اللقب القبيح، ولا تدّعي عليه!

- قلت لي، لن أناديه. - نظرت بدفع إلى زوجها، - نعم، نعم يا عجوز، لن تسمعه مرة أخرى مني. وأنت لا تصفني بعد الآن بالثرثرة. لا أريد أن يشيع عني هذا اللقب وأنا التي ينادونني طوال عمري: سراس الجميلة.

- هكذا! - استغرب ظاظمي، - أنا أتعهد، ولكن لا أعرف ماذا ستفعلين أنت!

- ثِقْ بي يا عجوز، ألا يكفي أن الولد المنحوس غاب عنا وبقينا وحدنا وجهاً لوجه! أفكر: إن بقيت وحدي فمن سيسأل عني؟ من سيناديني برقة: يا عجوز؟

- لا تقولي هذا يا عجوز! - لا يتوقف ظاظمي عن عمله، - أراقبك أحياناً فأراك على جمالك وعلى طبيعتك الحلوة. ولكن يخطر لي أحياناً أن ألقى بك في الفراش ... لولا أنك تناكدينني، وتدفعينني لليأس...

- ها، نعم! - نظرت سراس مسرورة متوهجة الخدين. ثم أجابت وهي تفتل المغزل: - اغرب عن وجهي! أنتم لابسو القبعات لن تصبحوا عقلاء أبداً. - انتبهي إلى المغزل!

- يا عجوز، ألا يكفي... - تبعد سراس المغزل من أمامها. - وأنا إنسانة، امرأة... شكراً لك على عدم اعتباري عجوزاً فانية... أليس ما نتكلم فيه مدعاة للحياء!

- أنت من بدأت... - توقفي إن أردت...

- يا مصيتي، أنا من بدأت يا عجوز؟ لا تخرجني!

- من التي اقترحت تزويج جارنا العجوز لأماف؟

- أهذا ما أثارك يا مسكين!

- وكيف لا، ولأماف أكبر مني بعام كامل!

- وهل هذا الفرق كبير في الموضوع الذي نتكلم فيه؟ - عادت الآن سراس إلى وعيها.

- هذا يتعلق بحالك يا حلوتي... - رأت سراس زوجها ترك العمل في الملعقة، وشرع يجمع أدواته بخفة فنهضت قائلة: " ليته لم يفكر في جهالة ما!"

- سأبدأ في تحضير الغداء إذن، وأنت اعمل في الدار. فيها ما تفعله. وإلا فخالط أصحابك.

- وجدت حجة جيدة. أنا كنت أفكر في أن نستعيد بعض ما نسيناه...

- وفي عز الظهيرة!

- متى تحركت هذه الرغبة يا عجوز فلا تعرف نهاراً أو ليلاً.

- إن كنت واثقاً من نفسك فأمامنا مساء وليل... - خرجت سراس متظاهرة بالحياء، معتدة بنفسها.

"يا لضعف جنس النساء!.. - تابع ظاظمي عجوزه بعين ودود، وضحك. - قل لها أنت جميلة ولذيذة... تحضنك. هذه العجوز كانت كاملة حين تزوجتها لا ينقصها شيء. لم تكن تدع كلمتي تصل إلى الأرض. ولا يغيب عن بالها شيء تحتاجه الأسرة الجديدة. خفيفة اليدين، رشيقة. وإلى الآن لا ينقصها شيء رغم سِنَّها. ولكن حين وقف ابنها على أرض الغرفة تغيرت كلياً. ظلت تناكدي، وتنتقم من ولدنا في ما لا أحققه لها فبقينا الآن وجهاً لوجه نرثي لخالنا... سأخالط أصحابي وأسمع منهم ولكن لن أسمع منهم ما يسرني من جهة ابنا. وإن صارحني من يلمّحون لي فهو أحسن ولكن أخلاقهم تأبى. هذه طبيعة البشر...".

وصل ظاظمي إلى الباب ولكنه رأى بين المسنين الجالسين على الأرومة العتيقة للأماف من لا يعجبه فعاد أدراجه. انصرف إلى الأشجار وأوراقها المتساقطة. وظل مهموماً بما يجري عند سور الجيران، يصغي، فتصله الأصوات ولكن لا يستطيع فهمها.

"حسناً فعلتْ إذ لم أخالطهم. - قال ظاظمي، - بقينا نكرر الكلام حتى مللنا... ليت الأمير شبق أنجز مهمته مع روسيا. والآن جاءنا بعدد من الفرسان لا أعرف ما سيفعل بهم. حسنٌ أن جاؤوا. لا شك أن النغوي والترك سيحسبون حساب هذه التطورات. ومع ذلك فما يجري لنا عجيب. ما يقوله الفلاحون الملتقون حول قلقت الصهر الجديد للأماف صحيح. استنجدنا بالأتراك لمحاربة النغوي، والآن تحولوا هم أيضاً إلى أعداء. وحين عجزنا عن مقارعتهم ركضنا إلى روسيا بدلاً من التوحد. وليس الجان والبسلني والأبازة وحدهم في هذا بل القبرتاي أيضاً. أحنزتْ عجوزي يا قلقتْ حين تزوجتْ الفتاة التي كانت عينها عليها لأجل ابنها ومع ذلك فأنا لا أعتب عليك. لو عرفت أن ابني المتمرّد يقف معك في مهمتك الأديغية لما فضّلتْ عليه شيئاً. ما الذي أرقق نفسي فيه؟ أهو من شأن الرجال؟" - يرمي من يده المكينة ويخرج من الدار. - حيا العجائز، وقال لهم:

- كنتم مجموعة كبيرة، فأين صاروا الآن؟
- وهذه الشجرة كانت كثيفة الأوراق، - دمدّم أحدهم وهو يتنحى، - ولكن سقطت بضع أوراق منها ريثما وصلت... اجلسوا أنتم إذن، - انصرف هو وغيره.
- وأنا يجب أن أسقي حصاني... - نهض عجوز آخر، فلم يتحمل ظاظمي:
- يلدو أنني السبب في انصرافكم.
- قال لأماف وهو يتابع بعينه العجوز الذي وصل إلى المنعطف:
- لا تعتبّ على هؤلاء يا ظاظمي. لا يمكن أن تنتزع من أحد ما في قلبه.
- والله لا أريد أن أغير ما في قلب أحد، - أنّ ظاظمي، - أنا من يلومه الجميع... لا أعتب إلا على نفسي. ولا يقولون عليّ ما لا أستحق. ولكن لا أقبل سلوك من لا يودوني. لست من أرسل ولدي إلى خان القرم. ولم أعرف حين دخل في خدمته فلا يهينوني من أجله! لم أقتل والد أحد، وما يُدري هؤلاء ما يصطرع في نفسي. لو لم يكن إلا ليلة من ليالي أرقى... - قال ظاظمي بصوت مختنق، ونهض. - أعيش شيخوختي مغمض العينين. جرحت نفسي بنفسي باختلاطي بكم.
- مهلاً يا ظاظمي توقّف! - نهض لأماف أيضاً من سلوك ظاظمي. - والله هذا لا يجوز.
- لا يا لأماف، لا، - لا أعتب عليك، - لا أعتب على أحد.
- عاد ظاظمي إلى البيت وقد ازداد رهافة على رهافة. توقف وألقى نظرة على الغرفة التي أشعلت فيها العجوز النار. ودخل إلى الإسطبل. التفت عيناه بعيني الحصان. وضع رأسه يائساً على عنق الحصان وبكى وكفاه ترتجفان. حك الحصان جانب رأسه بظاظمي وقد أحسن بحاله.
- سمعت سراس نخير الحصان وهي خارجة لتجلب الحطب، فأسرعت إلى الإسطبل:
- يا لمصيتي، ماذا جرى لك؟!.
- اسكتي لحظة!.. ماذا سيجري لي... - وأجابها دون أن يسمح لها أن ترى وجهه: - دار بي رأسي قليلاً فاستندت إلى باب الإسطبل.

- نعم يا عجوز، ظننتني أحرص عليك فشردت. تعال واعتمد عليّ.
- لا، انتهى الدوار. جهزي المائدة إن انتهيت. وأنا سأعلف الحصان وأعود.
- ما أطيب الغداء الذي عندي. وإن شئت ادعُ لأماف وسائر العجائز. وإن كنت وحدك فهو أفضل. تستمتع بما تأكل.

- هذه عيشتنا يا حصاني، - مسح على جبين الحصان، - هذا يُمكننا، والآخر يُعزّنا. وآخر لا تفاهم معه... وأنا وأنت مهما فعلنا، وأينما ذهبنا اختفى عنا من نبحت عنه. ما إن يدخل أرض الأديعة حتى تبتلع الأرض. ولا تتفق أقوال من رأوه ومن لم يروه، فيدلّوننا على طريق كاذب. ومن يسخرون منا ليسوا قلةً. ومن لا يُطيقوننا أكثر وأكثر... من كان سيدري أنهم سيعيرونني في شيخوختي بابني؟! والآن لابدّ من سفرة أخرى. الذئب يجدونه في وكره، لا في البرية.

"هل يكفي أن أحمّ العجوز بالمسؤولية عن تربية الولد؟ - ارتعب ظاظمي من الأفكار التي راودته لأول مرة منذ هجر ابنه الدار قبل سنين. تقاسم المسؤولية مع العجوز. - كلانا مذنب. كنا كلما تشاجرنا صبيننا غضبنا عليه فبرّدنا عواطفه نحونا. وحين فارقنا لم نسأل عنه أهو حيّ أم ميت... كان الأفضل أن نتذكره قبل أن تقع مُضغة في أفواه الناس. كنا في أسوأ الأحوال نُبقي شجاراتنا بيننا..."

- يا عجوز، هل تسمعي؟ - نادى سراس من على المسطبة. - الطعام يبرد.
- ها أنا قادم، لا تستعجلي! - عاد ظاظمي إلى الغرفة وراءها، وعادت إليه نفسه لما رأى ما على المائدة: - ما أوفر هذه المائدة؛ لن أقدر عليها وحدي.
- أجلس معك إن لم يكن عندك مانع. لا أتذكر آخر مرة جلسنا معاً إلى الطعام...

- لا بأس أن ننقض تقاليدنا الأديعية هذا اليوم فحسب؛ تعالي!

- سأغلق الباب، عيب إن رآنا أحد.

- يُغلق الباب متى أطفئ المصباح فحسب.

- ما أوقحك يا عجوز، - قاطعته سراس، - ألم يُنسِك دُوارك حديث الصباح الماجن؟.. لا يقال مثلُ هذا على المائدة. الأفضل أن تأكل من طبخي، وتمتدحني ولو مرةً.

- ألا أنثي عليك كل يوم يا عجوز! وقبل أن أذوق طعامك أعرف لذته من رائحته. ولبنُّك الرائب له مظهر القشدة. واللحم المقلي يذوب في الفم. وأعرف أن الباخسمه التي تحضّرنيها ستقصّف بساقي فأحذرُ منها... - مازح ظاظمي المرأة بضحكة خفيفة، ثم اختتم: - ومع ذلك كنت تريدان استضافة عدد من العجائز على مائدتك!

- ألم أعدك ألا يُجرّك طعامي أمامهم! - استغربت ما سمعت.
- صحيح، ولكن كيف كنتُ أحدثك هذا الحديث اللطيف في حضرّتهم؟! -
شرع ظاظمي في الطعام يغلبه المزاح.
لم يطل جلوس العجوزين إلى المائدة وإن لم يكن ما يدعوها إلى السرعة. ثم عاد العجوز إلى أعمال الدار، وهي إلى أعمال المنزل، وقالت راضية بما ترى:
- أنا سأعرج على الجيران، لم أرزهم منذ البارحة.

"وأنا كنت خالطت مجموعة المسنين غير أي خرجت من بينهم مجروح الكرامة.
- قال ظاظمي في إثر عجوزه. - ليتني عدت اليوم كما في أيام شبابي. أليس حسناً أن تتجنب من يدعون الحرص على العادات ولا ينفذونها فتفضّحهم وتُطْلِعهم على حقيقتهم؟.. والآن ماذا بإمكاننا؟ يجرّحنا كلامهم وتعريضاتهم. هل كنتُ صُغُرْتُ أمام الناس لو لم يقتلني الولد المنحوس وأنا ما أزال حياً؟ أخطأت مع لأماف إذ انصرفْتُ وهو يدعوني إلى العودة. ما ذنبُ؟ الآخرون هم من كان يجب أن تذّر الرماد في عيونهم... لا يريدون أن يلمحوني. وبالقياس إلى العام الماضي ففي هذا العام صار موقفهم مني في غاية السوء. كنت أتقبل موقفهم لو لم يكونوا يعرفون معارضي لابي..."
سُمع صوت الباب، وعادت سراس مع المنخل.

- عدت بسرعة، - نظر ظاظمي في من تورّد خذاها.
- كان الأفضل أن أبقى في بيتي... لم أسمع إلا كلّ سوء. فارقتهن بحجة المنخل.

- هل جرى ما يسوء في أسرة لأماف؟
- لن يحدث فيهم شرّ أبداً. هم مسرورون إذ فارقهم حاتاي الذي كان يعيش في بيت صهرهم المنحوس، فبقي العروسان وحدهما.
- وهل يسوؤك شيء من هذا؟
- نعم يسوؤني - أَلقت سراس المنخل فوق الرف فسقط. فنظرت إلى زوجها ساخطة كأنه المسؤول عن كل شيء. - أراك أحياناً إنساناً لطيفاً ذكياً، ولكن لا أعرف متى فكرت في ولدنا إن كنت تتظاهر بالهبل ؛ ما هذا السؤال؟
- يا عجوز! كلبٌ من عضّك حتى تهاجميني؟
- كلبٌ صديقك لأماف... ذهبَ إليه، وجالسته، وثرثرت معه وعدتَ تشفي وجع رأسك بالثناء على مائدتني... وكيف يتنازل هؤلاء فيروا ابنا جديراً بابنتهم؟! - انكسر صوت سراس فلان عن ذي قبل: - أبعَدونا وروّجوها لأول ثرثار عنيد ظهر لها. وهل عجيب إن صار قلقت القبيح زعيم الفلاحين في الجانية؟.. ابني يقود جيش القرم. يلعب بالذهب والفضة. لو بقي ابن الإمارة حاتاي يعيش مع قلقت ونكر العشواء لثارت مشكلة في البيت. كنت أتمنى هذا وأن يستعيدوا ابنتهم منه بعد فضيحة... يا عجوز كفاك، اترك هذه المعلقة من يدك فسمع كلامي، وأتفصى من همي... ألم ألد ابنا، وأرضعه؟ ألا يزورنا ولو مرة واحدة!..
- لم يزرك وهو حرٌّ بنفسه ؛ فكيف يأتيك الآن وهو يدخل الجانية متخفياً؟ - قال ظاظمي حذراً، ونظر إلى عجوزه مشفقاً.
- أعرف يا حسرتي... أرضى أن يأتي ولو متخفياً... وإن لم يستطع فأنا مستعدة للذهاب إلى حيث ولدي الوحيد. إن كان عندك مال فالشمس في كل مكان. هل تتذكر ما رواه لنا ونتغ عن حياته؟ لماذا نسمح لخادمتها العاهر إذا حدث له شيء أن تستولي على كل ما جمعه بالدم؟ أراك لا تقول شيئاً؟ لا تؤاخذني يا عجوز، تفصيْتُ عن همي بك.
- اعملي ما تريدين معي، لن أهجّر بيتي ولو أسكنوني بيتاً من ذهب. - خرج ظاظمي متكلفاً الصبر.

- انظروا كيف يتصرف هذا! من يقول هذا لم يستطع الوصول إلى القمر منذ سنتين!.. - تندب سراس حظها فتمسح عينيها وأنفها بطرف غطاء رأسها ولو أنها لا تبكي. وتضطنع السعال أحياناً. وتلقي كل اللوم على عيشتها البائسة. قرر ظاظمي بعدما مضت عدة أيام على الجفاء بين الزوجين أن يسافر إلى القمر مهما كانت النتائج ليجد ابنه أينما كان. ولم يهتم بزد الطريق. مضافات الأدبغة مفتوحة كالعادة فلن يجوع. وسيجد فيها المنامة والاستراحة. وسكان القمر بشرٌ، لابد أن يجد عندهم شيئاً. وعند الضرورة يخبرهم بمنصب ابنه عند الخان. وفي عتبه بعض الذهب والفضة.

لم يتكاسل ظاظمي عن التحضير للرحلة. ومَرَّ على لأماف قبل الرحيل بصفته موضع ثقته الوحيد.

- أراك جاهزاً للسفر، رافقتك السلامة أينما توجهت.

- حياك الله يا لأماف، كيف أقف أمامك راكباً، - ترجل ظاظمي بكل خفة. جئتُك أسْرُكُ برحلي إلى القمر.

- لم أسمعك تأتي على خبره. - تعجب لأماف.

- يكفي ما بقينا في أفواه الناس. لا أريد أن يعرف أحد. لم أخبر غيرك.

- وسراس؟

- لا تأتِ على سيرة هذه القبيحة، لم يسمح ظاظمي لصديقه بإكمال حديثه.

- لا تعرف، ولا أريدها أن تعرف. وأجاب على سائر أسئلته. - هذه حالي اليوم. من يعرف أحوال الدنيا ؛ إن لم أعد...

- لا تسمح لهذه الخاطرة أن تتسلل إلى رأسك. لو أخبرتني قبل الآن. زغاشت في البجدوغ. كنتُ أرفقت بك أحداً. مهلاً، لا تستعجلن سأركب معك إلى ظاهر القرية...

- لا يا لأماف، شكراً. لا حاجة لأن يعرف الناس ما لا حاجة لهم إليه.

تابع لأماف ظاظمي وقلبه يتألم حتى اختفى عن نظره. وفعل ظاظمي مثله.

وصل ظاظمي إلى معبر بحر آزوف، يستريح ليلاً في المضافات، ويسير نهاراً. ولم يعترضه طوال رحلته ما يزعجه. ولم ينقصه طعام أو نوم. وحدث أن انضم إليه رفاق، وأن انضم هو إليهم. وإن سألوه عن مقصده أجابهم بأنه في زيارة

أصدقاء من قرية قريبة. وإن تكلموا في أخبار الأديغة أصغى إليهم دون مشاركة. وما كان ينتظره دائماً أخبار ابنه. ولكن لم يأت أحد على ذكره خيراً أو شراً.

مرة واحدة فحسبُ ذكر اسمه. وكان في شأن نجاته من سيف قلقت قبل أعوام، لا خبراً جديداً. ولم يكن يرغب في أن يذكره بشر أو بظلم وإن كان عاتباً عليه. كان فارق رفاقه أمس قائلاً: "يا حسرتي كنت أفضّل أن تأكلني الكلاب على أن أسمع أخبار ابني الوحيد!" ولما بقي وحيداً لم يستطع إلا أن يناجي نفسه متنهداً: "حتى الغراب ينادي صغاره بالبيض الصغار، والوحوش تحمل صغارها بأسنانها... لا أذكر أنني أهنته في صغره وشبابه بكلام أو أذيته بعقوبة جسدية... أتهم الثرثرة التي في البيت ولكني المسؤول الوحيد. ربما أصبح إنساناً لو كان يتلقى مني الصفعات. لماذا يقولون: من لم يستطع الأب تربيته لا تحاسب الأم عليه؟..".

لم يكن ظاظمي يعرف هذه المرة توقفاً أو عودة. ولا يرى من حصانه تعباً. لا بل كأنه يحث راكبه على الاستمرار. كانت ربح البحر تنبئ بأن البحر لم يعد بعيداً. "حسنٌ إذ وصلْتُ إلى هنا والنهار أمامي". فرح ظاظمي لمتابعة سيره من منتصف الليل رغم اعتراض مضيفه. كان طريقي آمناً. ومجرمو النغوي خفّ نشاطهم عن ذي قبل. حيا الله الأمير شبق، استطاع أن ينشر الأمان رغم معارضة الناس له. ما أحسن أن تتعايش الأقوام المتجاورة هكذا بأمان!..".

بدا المعبر. الناس متجمعون بين راكب وراجل. والبحر هادئ. جاء إلى هنا مرة واحدة قبل أعوام حين سمع أن لوازم النساء من أقمشة وخيطان وغيرها رخيصة في هذا السوق. الوضع مختلف تماماً عنه في تلك السنوات. بيوت متنوعة تقوم في المكان، ومقاه، ومحادد، ودكاكين. أما السوق فيتوه فيه الإنسان من اتساعه. وفوق كل هذا تطلّ مقذنة الجامع المبني حديثاً. وتسمع لغات الأديغة والنغوي وغيرهم. ورجال بملابس، كلُّ نوع منها أعجب من الآخر، يجولون في المكان.

لا ينتبه ظاظمي إلى الكثير لأن أموراً كثيرة تقلقه. دخل إلى المطعم لتناول الفطور إذ من المتوقع ألا يصله الدور في العبارة الخشبية قبل الظهر، وتحدث مع رجلين

من النغوي بلغته المحدودة. وأخبرهم باعتداد أنه يزور ابنه صاحب المنصب في قصر الخان، فلاحظ الانتباه المفاجئ للرجلين. وفيما هو جالس لا يعرف تفسيراً لنهوضهما، وقف على رأسه رجل مسلح وقال له:

- اتبعني!

لم يكن ظاظمي في وضع يسمح له بمعارضة الرجل العبوس فتبعه فزعاً. داروا به إلى خلف المطعم وأدخلوه إلى الغرفة. كان ما يراه أعجب الأعاجيب: على المائدة الفاخرة يجلس ابنه مامي ورجل آخر.

- هذا أنت حقاً يا ولدي! رأى ابنه فانفعل قلبه إذ وجده ناسياً كل مثالبه كأنه هو المسؤول عن كل ما جرى. ولكن الابتسامة المرة التي قابله بها برّد قلبه العجوز:

- أنا هو، اللهم إن كنت ابنك! أهو من تبحث عنه أم أمر آخر؟

- ألم يبق فيك شيء من الإنسانية! ألسنتُ والدك أيها الثرثار؟!

- أجب عن سؤالي أولاً ثم نتكلم على هذا.

- يا سليل الكلبين، لم أكن أصدِّق حين كان الناس يتكلمون عليك بالسوء. ولكن ليتني لم أرك ولم أسمعك... أنت أدنى من الحيوان مرتبة...! لم يجد ظاظمي الوقت ليستل خنجره إذ أسقطه الرجلان وراءه على ركبتيه.

- أوقفوه على قدميه، وأعيدوا إليه خنجره، - أمر مامي دون أي انفعال، ونظر بشماتة إلى والده فراحاً بما فعلوا به وسأله: - هل فهمت الآن قيمة بسقاق خان القرم؟

- الآن فحسبُ فهمتُ أن رأسك لا يساوي شيئاً، ولكني أدركت منذ زمن بعيد أنك قطعت رأسي. لن أدعك حياً ولو لم يبق غيري في العالم.

- وإن لم يسمحوا لك أن تعيش إلى وقتها؟! - ضحك مامي مما قاله، - أبعدوه عن وجهي! ووجهوا رأس حصانه إلى حيث جاء منه. " قد يصل وقد لا يصل. لن أدتس يدي بك وأجعل الناس يصفونني بقاتل أبيه... "

ترجل ظاظمي في داره بعد بضعة أيام منهكاً. وأوّل من رآته واستقبلته هي عجوزه.

- يا مصيبي! فقدت لحمك ولونك، أين كنت إلى الآن؟

رفع ظاظم السرج عن الحصان غير عابئ بكلام سراس، وجفف العرق عن ظهره بكُم الكساء. ومسح على رقبته وجبينه شاكرًا. ثم قاده إلى الإسطبل. وطوال هذا الوقت ظلت سراس تلاحق ظاظم:

- يا عجوز، ألا تقول شيئاً!.. خرجت دون أن تخبرني، ثم دخلت فتصاممت. إذا كنت أسأت إليك قبل أيام فمثل هذا يحدث كثيراً بين الأزواج... والآن أظنك كنت تبحث عن ابنك.

- حقاً عندنا ابن ممتاز!.. لا تذكرني اسمه أمامي. هيا أعدّي لي الفراش. أريد أن أنام!

- حالاً، حالاً.. لا تزال سراس تصرخ: عديم الإيمان تهرب من لقاءك مرة أخرى! يتركك تبحث عنه بدلاً من أن يهرع إلى والده.

- هذه المرة لم يهرب مني، التقينا.

- التقيتما؟! - صرخت سراس مما سمعت.

- في وقت آخر، لاحقاً... - ما إن استلقى حتى نام ولم يعد يسمع الكلام.

...

لم تملك سراس إلا أن تعبر في أحد الأيام عما يقلقها بعدما مضى أكثر من شهر على لقاء الأب والابن في معبر أزوف:

- يا عجوز قد أخرج قلبك، يحزنني وأنا أمه ألا يرسل لي ولو أباسة فضية.¹

- اسمع ماذا تقول!.. أعدك إن لاحقته مرة أخرى أن آتيك برأسه.

- تباً لي، وهل يقول أحد مثل هذا الكلام!؟

تظاهر ظاظم بأنه لم يسمع صراخ سراس.

IX

مدّت الشجرة العملاقة يدها واختطففت شبق من الأرض فاختمت فجأة. ثم سقط عليها فتعلق بالأغصان خائفاً أن تمزقه. وامتدّ شيء من بين أوراق الأشجار الصفراء فلدغه. انتفض شبق فخرج من كابوسه. وها هو الآن

¹ عشرون كوبيكاً.

جالس في الفراش، وظهره إلى الحائط. ولما اختلج مع الكابوس ضرب بيده الحائط فتألم موضع الضربة.

نهر الأمير الكبير نفسه: "ما الذي جرى لي حتى غلبني النوم ظهراً على غير عادي؟ أأتكون الشيوخوخة تحفر من حولي؟ عُمرنا بما يكفي فليس هذا مستغرباً. ولكن هل أعجز فجأة؟ لا، منذ بضعة أيام لا أستطيع النوم. أشعل الجمر الذي رماه قلقت تحتي النار فلم أعد أعرف الراحة... وما ذنب الجار؛ أنا من رمى اللهب. متى حاولت أن تفعل شيئاً ليس من عادتك فهذه هي النتيجة. كنت ظننت أنني إن ابتعدتُ فسيضيع سري في الأرض البعيدة ولكنه عاد قبلي. فضحني ونغ اللعين؛ ادّعى قلقت أنه ليس هو ولكني متأكد منه. ليس بين من يحيط بي أعداء أو حاقدون. أخطأت هذه المرة، لم أعرف أن المجرم الذي صالحَ جاري عاد إلى السراط المستقيم. داخلثني الريبة حين رفض استلام كيس الذهب، ولكنه صرف تفكيري أيضاً. أما كان عليّ أن أفهم لو لم أكن مجنوناً أن ونتغ يعرف أنه إن رفض فلن أصرفه حياً؟! هو الآخر ليس ساذجاً فيشرب الماء من أنفه. مرّ بتجارب قاسية كثيرة لم أرها أنا حتى في المنام. ولكنه رمى نفسه الآن بدهية لا نجاة له منها. لو كان فيه شيء من الرجولة لما وشى بي وإن لم ينفذ رجائي. كان عليه الخلود إلى مسكنته إذا كان حقاً ترك الإجمام. ما الذي جعلهم يقولون: الدجاجة تنبش قبرها بساقها؟ ما الذي أجبرني أن أذهب إلى آخر العالم؟ في الناتخواي كنت تعاملتُ مع شِوال بضع مرات. ولو لم أتجاوزه هذه المرة لما وقعت في مشكلة. إن كنت انكشفتُ تماماً فسأترك حاتاي لبعض الوقت. وسأري الناس أنني لا أكنّ له شراً. ولكن لن أعترف لأحد بسري ولو شهد عليّ قلقت أو غيره. الحقّ أسألك يا بن الأمير هل يجب أن تناكدي؟ وعلى قول زهرة فابتننا أيضاً تريده. لا، لن أستطيع الانقلاب على ما في قلبي. ليس الأمر هو الخوف مما سيقول الناس، ولكن كيف أزوّج ابنتي ممن كان عبيدي سنوات. والبنات التي ستتزوج في المخوش البعيدة كأنك فقدتها على رأي زوجتي. وها هو كتناق يغيب عن ذاكرتنا وإن لم ننسه، وشيئاً فشيئاً يغدو كأن لم يكن عندنا ولد. لو ظهر للفتاة المنحوسة شاب أميرٍ صالحٍ لزوجتها واسترحت ولو صعدت إلى السماء..."

رجع شبق من أفكاره وعاد إلى الحلم القصير. تنهد مستغرباً ما حمله من أعلى الشجرة العملاقة، وقال: لو فكرت سنة كاملة ما استطعت تخيّل هذه الحالة. ولم يفهم أي دلالة للحلم. وفيما هو في هذه الحالة تذكر أن المرأة جاءت في أقصى حالات الغضب بعدما انحال عليه فقلت تعنيفاً. وتردّد في أذنه صوتهما:

- هذا الذي خرج لا ينوي لنا خيراً. أنت تعامله كجار وهو نسي أصله. - كانت السيدة الكبرى مستعدة للانقباض بحقدّها. ولكن شبق لم يقبل منها:

- لا تقولي هذا ؛ من الصعب العثور على مثل هذا الجار.

- هكذا! - اشتعلت زهرة غضباً وتوهّجت وجنتاها. - يا له من جار ممتاز! جاءنا بعدنا خاطباً لابتنا وهو يعرف أنك غائب عن البيت. الجار لا يتأمرون عليه، بل يحمونّه.

- من عنده ابنة يأتيه الخطاب. - لم يكن شبق يريد التكلم بسوء على جاره رغم أن ما سمعه هيّجه. - كان حاتاي في بيت فقلت، جعله يعثر على والده فهو متلهف عليه يتألم لأجله. لا عيب في أن رافقه إلى الفتاة. وأنا وأنت مهمتنا أن نحمي البنت كما يحمون البذار. ليأت من يريد، ونحن ننفذ ما قررنا.

- ثم إنه يتكلم بالألغاز كالعجائز، لو كان يتكلم صراحة لهانت.

- وماذا قال؟

- أرفقت مينسور بقامبولات فعاد يقول: لم يأتوا إلا على ذكر الشمس والقمر. ثم أضاف إليهما السحب والرياح.

أضاف شبق مبتسماً:

- أنت سحابة، وأنا ربح عاصفة. كفى، لا تهتمي بهذا!

- وأنت ماذا حققت؟ أنستني مشكلاتي ما هو الأهم فلم أتذكر أن أسألك.

- كل شيء بخير... لا تتكلمي في الموضوع: الجدران لها آذان.

تمطى شبق قلقاً لغياب فقلت منذ بضعة أيام. نظر عبر النافذة ونهض غير مطمئن. دخل إلى الدار واتجه إلى بابها غير عابئ بسهم البرد الذي يخز الوجه، مصلحاً وضَع القبعة على رأسه. ومع خروجه لفت انتباهه أصوات الرجال من دار فقلت فنظر إليها. ولما لمح بسمت ونكر وداريه والمضيف الخارج من الإسطبل توقف جافلاً. ثم صحا وخاطب نفسه: "سأمر عليهم كي لا يظن

أن كلامه لي أقنعني بتهمتي. وعدني ألا يفضح سرّي باعتباره جاراً ولكن من يدري ما سيكون رأيه غداً ؛ لابد من البحث عن حجة..."
العربة ذات العجلتين ملأى باليقطين الأبيض. والرجال والنساء يخرجون به من الإسطبل:

- هنيئاً لكم، محصولكم وفير. - دعا شبق لجيرانه بوجه طلق.
- تأكله معنا بالخير! ألا تتفضل يا شبق، - خرج قلقت من الدار ونظر في وجه جاره وهو يصفحه بوجه بريء من الخبث. - يقال: ما يزرعه الكسول يُخصب. وبقيت مثل هذه الكمية في الأرض. تفضّل، لا يجوز أن نتكلم على الطريق.

- حياك الله يا قلقت، - سمعت أصواتكم فعرجت عليكم. - نظر شبق إلى الفناء، وسأل مُفهِماً محدثه أن نكّر على باله: - ما أخبار صديقي لأماف ؛ أليس بخير؟ مضى وقت طويل على آخر زيارة لي إليه.
- لا يزال على رجله، ولا بأس بصحته بالقياس إلى عمره. - أخبره بآخر ما يعرف عنه. أما صديقه ظاظمي فتدهورت صحته، فقضى بضعة أيام يجهّز له الأدوية.

- وماذا أصابه؟
- أليس مرضُ ظاظمي واضحاً؟ الولد عاقّ يجلب المذمة لوالده. لم يكف ما يذمه به أهل القرية فتصرف معه أيضاً بفظاظة. يقال: لا أسعد من ولد وحيد لأم وحيدة، ولكنّ خيرٌ للإنسان أن يعيش أعمى من أن يكون عنده ولدٌ مثل مامي يا شبق.

- هذه هي حال الدنيا، لا تعرف من أين تأتيك المصيبة. وما لا تحسب حسابه يمكن أن يأتيك بالعار... - تنهد شبق عميقاً قاطعاً كلامه كأن عنده شعوراً بالإهانة. - أنت تعرف صبري مع كل الناس، ولا أنطق بالكلام البذيء إلا كآخر حلّ. وفي الموضوع الآخر لا أعرف ما الذي دفعني إلى هذا التصرف. ومع ذلك فمن يمد يده إلى جارك كمن يمد يده إليك.
- من تقصد بكلامك يا شبق؟

- الحقيقة هو الخبر المزعج الذي انتقدتني من أجله. لم يُفْشِ أحدُ الخبر غيرُ
ونتغ الأعرج اللعين.

- لا يا شبق، وكيف يأتيني من هو على هذه المسافة البعيدة؟..

- لا، ليس غيره من فضحني. خرجت من مضافتي دون أن تسمع ما سأقول
لك. كنت في طريقي إلى البسلي لأسمع إن كان الأمير دودارقه أرسل خبراً ما
فالتقيت بونتغ الأعرج. حاول مرافقتنا فقلْتُ له: "لا تظن أني نسيْتُ ما
أرهقتُ جاري" وطرَدته. فأجابني: "إن كان هذا رأيك فسأرمي بينك وبينه
العداوة" وانصرف وعيناه الكليبتان تجحطان. وإلا فكيف أنوي الشرَّ للولد
الذي ربيته يا قلقت. ليجرفِ الطاعون من قال هذا! والحق أن ابنتنا وحاتاي
من عمر واحد. واعتبرتُهما أخوين فلم أجد من اللائق ما يفكران به. لا
تستطيع مهما فعلت الوقوف في وجه ما قدَّره الله.

- يسرني أن يكون قلبك رَقَّ لحاتاي هكذا يا شبق، - أثار وجه قلقت الأسمر
الطافح. - إن أطفأت نار الحب بين القلبين فقد لا يعود الدفء إلى أيٍّ
منهما. ليس هذا فحسب، بل أريد أن أناقشك في موضوع فلاحينا. مشكلاتنا
المحتاجة للحل كثيرة.

- يسرني هذا الكلام. متى اشتركنا في الحلِّ خفَّت مشكلاتنا. لا تشرق
الشمس ما لم تنجلِ السحب. إن تكاشفنا في ما ينتظرنا من مشكلات هانت
علينا وعليكم قضايا قومنا. وتقدَّمنا في مساعينا. - انصرف شبق راضياً
بالخطوة التي خطاها نحو جاره. ولكن موضوع أسرته طفا ثانية على السطح: -
متى نضجت ابنتنا فهي من ستختار، فلا داعي للعجلة. لا بأس أن يصبر
حاتاي.

تابع قلقت جاره فاغر الفم: "لم أفهم شيئاً. بدأ الرجل الحكيم ينسى ما قاله
بسبب لهفته على ابنته. ولكن ما يريد إقناعي به بخصوص ونتغ لم يتجاوز
شفتيه..."

لاحظ شبق أن بجمت الذي كان يتابع الأمير قد انصرف هو الآخر
مستعجلاً. ولكنه تظاهر بأنه لم يره. ولما وصل إلى باب المضافة أشار بالدخول

إلى من كان يتأمله ككلب ذكي، معتقداً أنه من المناسب. وما إن جلس حتى ألقى نظرة رضا على الخادم الذي وقف بين قائمتي الباب:

- اجلس يا بجمت!

- لا تدعني أخطئ يا أمير، لن أفعل ما لم أفعله إلى الآن.

- ونحن نجد أنفسنا في مواقف كثيرة نفعل فيها ما لم يسبق أن فعلناه. لا بأس أن تجلس قريباً مني وتنهض إن رأيت أحداً قادماً. عندي معك موضوع يا بجمت. - ونحن يجلس الخادم كأن على المسامير بين الخوف والحذر يتابع الأمير كلامه: - أعرف أنه ليس بين خدمي وساستي وحراسي، بل من أفراد أسرتي من هو أخلص لي منك.

- كيف أصبح مثل أسرتك يا أمير!

- مهلاً، لا تستعجل، دعني أكمل! أول عدو في الأسرة هي الزوجة. والبنات متى تزوجت فكأنها لم تكن. وابني الأكبر، ولم أخبر أحداً غيرك، لم يرأف بأمه ولا بي، بقي بكل سرور بين الروس. والأخير الكبير الرأس، الله وحده يعلم ماذا سيكون. لا أتذكر أن الريبة داخلتي من جهتك البتة.

- أقدم روحي لك وقت الحاجة يا أمير، - لمعت عينا بجمت وحاول الانصراف.

- اجلس، - مدّ الأمير يده برفق على فخذ بجمت. - أصدِّقك، رضي الله عنك يا بجمت. والآن ما أتأمله منك: كنت طلبت منك، ونحن في طريقنا إلى دودارقوايه قبل أيام، استدعاء ونتغ الأعرج. كان مديناً لي ببعض المال فاسترددته. ولماذا أبقى مالي عند من لا أعرفه! وهو يحاول من وقتها الإساءة إليّ. يُشيع عني أخباراً سخيفة. ومن حسن حظي أن موضع ثقته تبين عن إنسان كتوم جداً. ولم يخبر أحداً غيري. يجب أن يعرف أن الوشاية عملٌ قذر. وليس عندي غيرك أثق به في هذه المهمة.

- إن وجب أغلقت فمه إلى الأبد يا أمير!

- ليس إلى هذا الحد يا بجمت، - إن قابلت مثيله في القرية بنكس، ألا تعرفه، المجرم الطويل الوجه، ذو القواطع الضخمة مثل بذور اليقطين، خذ هذا الكيس، إن رآه لم يسأل حتى عن أمه.

- يمكن أن أسافر الليلة إن وجب. - أخذ بجمت كيس الذهب وانصرف ليستعد للسفر.

- ليس الأمر ملحاً. - سرت ضحكة خفيفة على شفقي الأمير مسروراً بما يسمع. - اعتن اليوم وغداً بالحصان. ولا يعرف أحد غيرنا اتجاهك. وإن سألك أفعقوه بعد عودتك فأنا أرسلتك إلى دودارقوايه.

كانت قطرات الماء تتجمد كل ليلة من الشهر الأخير من الخريف على رؤوس الأعشاب كالفضة. وكان هذا الجميد في ليلة سفر بجمت أغزر من سوابقها، حتى كأن ثلجاً خفيفاً سقط على سطوح المنازل وعلى الأشجار وعلى العشب اليابس فتجمد عليها شاهداً على ملاحقة الشتاء للخريف المنصرم.

العادة أن تتلو أياماً صحوٍ مثل تلك الظاهرة. - خاطب شبق نفسه ناظراً من النافذة. وسيسهل على بجمت طريقه؛ فليسهل الله له مهمته!.. لا تترك عصبه العوام الملتفة حول قلقته خيراً في إقليم الأديغة لا يعرفونه. الأفضل أن أظهر في القرية حين يجري شيء لونتغ الأعرج. سأخالط مربيّ الماشية، ومتى عدت زرت شمال القرية أوجنوبها إذ في كلّ منهما عرس. أيّ الجهتين أفضل؟ إحدى الأسرتين فقيرة، والأخرى غنية. إن ذهبت إلى الأسرة الفقيرة مع بضعة خراف سُرّت بي... - رأى من النافذة أفمق يمر في الشارع فنقر على الزجاج مستغرباً تبيكيره. - سأصطحب أخي والصبي الذي نما جسمه على نحو ملحوظ ويجيد الركوب، وعليه الاعتياد على مثل هذه المناسبات، والتواصل مع الفلاحين والعبيد..."

- اطلب يا أفمق تجهيز خيلنا!.. سنتفقد براريننا ورعاتنا. هؤلاء إن أهملت رقابتهم ظنوا أن كل شيء صار لهم. وجهّزوا للولد حصانه؛ ما يتعلمه هو ما يراه بعينه.

- أصطحب قامبولات أحياناً دون علمك إلى ما بأيدينا من أراضٍ، وإلى المراعي ومستراحاتها، - أضاف أفعقوه معتدّاً بأنه استبق رغبات أخيه. ثم توقف عند الباب: أين بجمت؟

- أرسلته إلى الأباطة. صدر عنهم ما يفيد أنهم يريدون السؤال عن الأمير دودارقوه. وأرسلت معه شيئاً من الذهب والفضة لكتاق. إن كان في جيبه بعض المال الإضافي ازداد ثقة بنفسه.
- هذا صحيح، وافقه أفمق.
- صحيح، ولكن لا داعي لنشر الخبر. يزداد عدد من لا يريدون التقارب مع الروس. وهم صامتون لا ينفعوننا ولا يضرّوننا.
- وصل الفرسان الثلاثة إلى مستراح المواشي المحاط بالقصب الكثيف فاستقبلهم الرجل القصير المتين البنية بقلنسوته الجلدية.
- جهزتم مكان الجواميس جيداً، - امتدح شبق الراعي، ثم قال له بنبرة عدم رضا: - لماذا لم تجمعوا كومتي الحشيش معاً؟
- الكومتان مختلفتا النوعية. نُطعم منهما للمواشي بالتناوب.
- لا بأس إذن. - تراجع الأمير عن ملاحظته. - هيا أخبر رعاة الغنم ليرسلوا إلى عرس الأرملة الفقيرة ثلاثة خراف أو أربعة.
- ثلاثة أم أربعة يا أمير؟
- أضف خروفاً خامساً لأنك سألت. - ضحك الأمير متفاخراً بكرمه. - ومكان الأبقار ألم تجهزوا تدفئتها؟
- غيرنا القصب الداخلي والخارجي بقصب الخريف.
- حقاً، تذكر الأمير، - قل لهم ألا يتعرضوا للخراف الجاهزة للولادة.
- تفقدوا أيضاً البقاع المخصصة للنحل، وتلك المجهزة للربيع. ثم رجعوا ظهراً إلى القرية.
- بعدما رُفعت المائدة من أمام الأخوين، قال أفمق دون أن يعرف أحد من أين أتى بالموضوع:
- عند الخادم بجمت حصان مشاء.
- ليس حصاناً ذاك الذي لا يتقن المشي الطويل. وليس ثوراً ذاك المحروم من القوة. - أجاب شبق مستاءً أخاه المتمسك بما لا فائدة منه. وهل حصانك ذكي؟
- لا، لا أعتب عليه، ولكن حصان بجمت أفضل إعداداً.

- كلُّ يفضِّل نفسه يا أقمق. حصان بجمت هذا يخدمه ليلاً ونهاراً... هيا نذهب إلى عرس ابن الأرملة. كونوا جاهزين مساء. سيكون ثواباً أو فرحة لها.

...

فيما ثلج منتصف الليل يسقط بنعومة نزل بجمت في دار بَنَكْس. البيت المنخفض المؤلّف من غرفتين مسقوف بالقصب. والنوافذ صغيرة. وليس إلا باب واحد. والإسطلب المقابل للبيت قبيح المنظر، غير أنه يتسع طولاً لحصانين أو ثلاثة.

التصق المضيف المعتاد على الحذر بالنافذة وأصغى بكل جوارحه. غير أنه لم يميز في الثلج الكثيف إلا خيلاً. قال لنفسه: لن يأتيني في منتصف الليل من ينوي لي الخير فارتدى ملابسه. وخبأ الخنجر تحت كسائه ونظر من خلل الباب.

- أنا يا بنكس، أنا بجمت. - قدّم زائر الليل نفسه للمضيف.

وقف بنكس على المسطبة، وسأل خلافاً لتقاليد الأدبغة:

- أأستضيفك أم أخفيك؟

- أظن الثاني هو الأصح. - أجاب بجمت.

- لنأخذ الحصان إلى الإسطلب إذن. وأنت إلى البيت، أنا سأعلف الحصان.

- هل أنتظر؟

- لا، لم يقبل المضيف، - الليل أيضاً له عيون وآذان.

عاد بنكس إلى الغرفة ففرك راحتيه وأعاد إشعال النار.

- أنت مسافر، لا بد أنك جائع. - سأقلي لك لحم غنم طازجاً. من حسن

حظنا أن مربّي المواشي كثيرون. - لم يكتف المضيف بمورد رزقه، - يكفيهم ويكفيها.

عض بجمت اللحم المقلي فبشّ له بنكس:

- أليس لذيقاً، أتحدى النساء. صرت ماهراً في الطبخ.

- لا أعرف شيئاً لست ماهراً فيه. - نظر الضيف إليه من تحت جبينه، -

حين اختار أميري بين أصحابه وأقاربه وأهله اختارك أنت.

- يسرني أنك بدأت سريعاً مرادك دون انتظار مهلة الأيام الثلاثة للضيف. وإلا ما نمت الليلة. - شدّ بنكس قامته، وثبّت عينيه على بجمت. - إن كنت قادراً فلن أخذل أميرك.
- هذا ما يجب فعله: - مسح الضيف فمه وعصر قبضته على المائدة. - يجب أن يعاقب ونتغ على جرائمه.
- وما الذي يجمع هذا القبيح بالرجل الممتاز.
- الإنسان سهلٌ تقبُّله، صعبٌ التحلي عنه. كنا قبل مدة قريبة في طريقنا إلى دودارقوايه، فعرّج بنا أميرنا على نواحيكم، واستردّ دينه على ونتغ، فأرسل إلينا أخباراً قدرة إذ ساء استرداد ماله. يحاول تشويه سمعته.
- فهمت يا بجمت. متى أخذت من الرجل الذي كفّ عن السرقة واقتصر على القليل من مدخراته فلا شكّ سيتأثر.
- لا تقترض إن لم تكن قادراً على السداد.
- ما تسرقه لك، وما تقترضه يبقى كالحجر المربوط إلى عنقك حتى تسدده. ما أكثر ما نصحْتُ هذا الأهل! لو سمعني فسرقتا بضعة صبيان من الشاطئ لسدد ديونه، وبقي شيء في يده.
- هذا أمرٌ مضى يا بنكس.
- حقاً، لا تفوّتْ رأس الحصان وتلحق بذيله. وأنا غاضب على هذا الوقح. ماذا تقترح أن أفعل به؟
- تضربه ضرباً مبرحاً حتى لا يعود يقف على قدميه...
- لا، وهل تريدني أن أتشاجر مع هذا القبيح، - قطّب بنكس جبينه، وأشار بيده، - سأزهق روحه وأتخلص منه. ما ثمن رأسه؟
- كيس من الذهب!
- هذا ثمن جيد. - أنا سأنتلق قبل الفجر مع توقف الثلج إلى الغابة. ونتغ يعيش على الصيد صيفاً وشتاءً.
- وكيف تعرف إلى أين سيتجه؟
- الدب يبحثون عنه حيث يتساقط البلوط. أنا أعرف المواضع التي يرتادها.

لم يكن بقي على انقضاء الليل الكثير ولكن الرجلين لجأ إلى الفراش ليناما قليلاً. وسرعان ما سُمع شخير المضيف. أما بجمت فلم يراوده النوم قلقاً من المهمة التي بانتظارهما، فلم يملك إلا أن يستغرب هدوء بنكس. "يقال إن الذئبين لا يتدابران، ولكن ونتغ وهذا سرعان ما أدار كلُّ رأسه للآخر. لا أفهم كيف اختار بنكس أن يقتل ببساطة رجلاً عاش معه عمره. — لا بد أن المجرم يقتل أقرب الناس إليه مقابل المال. سيّان بين أن يذبخوا دجاجة ويقتلوا رجلاً..."

ما إن استغرق بجمت في النوم حتى أفزعته وقُغ خطوات. وقف المضيف إلى النافذة وقال إلى مَنْ وراءه:

— اطمئن! خفّ الثلج ولكن لم ينقطع تماماً.

عاد بجمت إلى النوم، وصحا فُبيل الظهر مرتاحاً تماماً:

— والله تنام عميقاً يا ضيفي. أغبطك، — ابتسم المضيف الجالس إلى المائدة لبجمت. وأضاف بسرعة: — إلى أين؟ لا تخرج من الغرفة. اجلس إن أردت على الدلو الموضوع وراء الباب واقض حاجتك!.. أنا مللت من انتظارك فأفطرت. وبدأت بالغداء. وخدمت الحصانين.

— حقاً أنك كالحديد. أنا أمرض إن نقص من نومي. — امتدح الضيف المضيف.

وفي اليوم التالي أيضاً لم يكن بجمت فتح عينيه حين ربت المضيف على كتفه وأيقظه.

— انهض!، حان وقت انطلاقتنا. والحصانان جاهزان.

كانت الطبيعة هادئة حين خرج الرجلان من البيت، والثلج على الأرض إلى الكعبين، وُثِدْ من الثلج على الأغصان. بيت بنكس على طرف القرية، ومتى خرجت من الدار نزلت إلى منخفض عميق عبر طريق متلوّ داخل الغابة.

— ستقف هنا وتنتظر ونتغ. وتخبئ إن ظهر غيره. — تبين أن بنكس ربّ الأامر. — متى دخل إلى الغابة فسأتيه أنا من الأمام، وأنت تخرج من الوهدة فتسعل. هذا المجرم حذرٌ جداً.

- وإن وصل الصيادون معاً فلن ينجح مخططنا. - طفا على السطح قلقُ
بجمت.

- لا يسبق أحدٌ ونتغ إن لم يؤخره عائق ما. أعرف هذا جيداً. - طمأن بنكس
ضيفه، - أنا لستُ حيواناً تماماً كما يُحَيَّل للناس، - ابتسم المحرم. - لولا
خجلي من الأمير الذي أرسلك لحصلت على كيس الذهب دون كل هذه
الصعوبة.

- ألا يعرف أحدنا الآخر منذ زمن طويل وإن لم يدخل بيننا الأمير يا بنكس؟
- ردّ بجمت بصوت منكسر وشعور بالوهن.
لم تشرق الشمس بعد ولكن أشعتها غمرت الأرض. وبدأ في البرية الواقعة بين
القرية والغابة سوادٌ ما.

- ها هو قد خرج من القرية. - أنا سأقف خلف شجرة البطم الكبيرة،
وسنفعل كما اتفقنا.

انحدر ونتغ من المرتفع ودخل إلى الغابة. ولما وصل إلى الدرب القريب من
بجمت انعطف إلى اليمين. وفي الحال خرج بنكس من وراء الشجرة، واستقبل
ونتغ:

- سبقتك هذه المرة يا صديقي العزيز.
التفت ونتغ لما سمع السعلة من ورائه. ومع التفاتته جاءته طعنة الخنجر على
صدره. وقبل أن يجد الوقت لينتزع خنجره أتته طعنة بجمت في صدره.
- ما ذنبي يا حيوان¹ ... - أُنَّ بنكس وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما،
وسقط من السرج. وسقط ونتغ بعده على الثلج.

- كلاكما لا تساويان سومة حديدية، الأفضل أن أعيد كيس الذهب إلى
الأمير، - وضع بجمت خنجر ونتغ في قبضة بنكس، وخرج من الغابة عبْر
طريق آخر.

¹ بالعربية في الأصل.

X

الموعد غيرُ المحدد بعيد، والمحدد قريب.

عالم الجنوب عصفور سريع يبدّل جناحيه: يبدأ الثلج بالسقوط قبل أن يتوقف مطر الخريف. وقبل أن تجد النار للوقت للاشتعال يأتي الربيع حصاناً أبيض يسابق الريح. وشبق استعد في الجانيه من جميع النواحي قبل أن يحين موعد رحلته إلى روسيا. من جهة وطّد الضيوف الروس الذين زاروه سلطته في الجانيه، وسكت أعداؤه، وقلت الإشاعات. واستطاع التحكم بأمور أسرته دون ضجيج. ومن أجل تحقيق هذا صرخ وتوسل ومارس الحيلة. نصح ابنته إن كانت ستفهمه، وإن لم يكن من واجبه، ولا مهيا، ولا طفها كي لا تتصرف بما لا يليق قبل عودته من موسكو. وأفهمها أنها إن لم تطعه فستكون نهايتها سهلة على يديه وإن كانت قطعة منه. وأكّد على الأم، أليست أمّا، خوفاً من أن تتعاطف معها.

قال لنفسه: "لا أندم على ما كلّفت بجمت به. قضى ونتغ الشرير بسبب لسانه. أما بنكس فلا أريد أن أجني عليه، هذا ذنبٌ بجمت. وحين قلت له إنك بالغتَ قال: "من تأتي على ذكره لا يساوي أباسة فضية." يبدو أنه قتله من أجل مالي. إذن... لا، لا، أنا واثق من بجمت. ولن أبوح لأخي الذي يشاركني في الحدادة بسرّ الحادثة. وأكدت على أخي والسيدة الكبرى وبجمت الانتباه إلى حاتاي فمن يدري ما يخطر على بال الشابين. ومتى عدتُ فسأجعل هذين الثرثارين يرتعب أحدهما أن ينظر في وجه الآخر..." رفع شبق الحدوة نصف الجاهزة من السندان بالملزمة، وغمرها في ماء الحوض، ثم أخرجها ورمها في الركن.

- ماذا؟ أليست صحيحة؟ - نظر أفمق في وجه أخيه.

- أحد الطرفين غير مستقيم.

- ولماذا لا تقوّمه؟

- كفى، عندنا غيرها... ليت جارنا صديقك لم يثقل علينا بقدمه!

- هل تصالحتما؟

- وهل كنا تعادينا؟

- وكيف أعرف؟.. سمعتك تقول إن جفوة جرت بينكما.
- الجار لا يُعادي. - قال شبق، وأضاف بعد سكتة قصيرة: - ولم يكن بيننا شيء مهم.
- يسرني هذا.
- وهل قال لك هو شيئاً؟ - ارتعب شبق خوفاً من انفصاح السر الذي يكتمه مع قلقت. ثم برأ نفسه: - لا أعرف ما سبب تعلّق جارنا بحاتاي؟ ماذا رأى فيه؟ وما المشكلة إن كنت طلبت منه له أن يُفهم صديقه أننا لا نريده؟ بالله عليك لا داعي لأن تفتّح له أنت أيضاً الموضوع. تصالحنا وانتهى الأمر. لا تتهاون في ما قلت لك بشأن ابتنا. والحدوة التي التقطتها اتركها!
- لا علّة فيها، سأعيد إليها الروح، - أعاد الحدوة إلى الجمر، وقال وهو ينفخ في الكير: - قلقت غائب.
- أين؟
- في البجدوغ.
- ولماذا؟
- يعقد مؤتمرًا للفلاحين الذين من جانبنا.
- وبجدوغ الشرق؟
- لم يخالطهم بعد.
- هذه طبيعتنا نحن الأديغة. ينقض أحداً كلام الآخر. من يركب حصاناً أغبر أعرج ير نفسه ذكياً وكبيراً... كفى، اترك هذه الحدوة!
- لا يا أمير، لا يُرمى بالحدوة نصف الجاهزة. - يطرق أفمق الحديد مع كلامه. - هل تتذكر كلام والدنا؟ لا تتخلّ إن أمكنك عن الحدوة التي سقطت من حافر حصانك.
- لم تنس هذا يا أخي. كان والدنا يقول: حدوة حصانك ونعل حذائك سيّان. - ها قد أعدتَ إليها شكلها. أعدتَ إليها الروح. وهذا ما وراء قولهم: حتى الحديد له روح! على كلامك حاتاي أيضاً مع قلقت... وكيف لا يكون معه! نحن في صراع الأمراء، وهم يتجمعون من نظرة، ويتفاهمون من نداء واحد.

مسح شبق الفحم من يديه وجلس على الكرسي. وتنهّد. - لا أفهم ما يجري لنا!..

- ليس وضّعنا بهذا السوء يا أمير. لا تُرهق نفسك. - جلس أفمق وهو يمسح يده بالخرقة المبللة إزاء أخيه، - أنت تعمل واجبك، وهم يفعلون ما عليهم.

- ما هذا الكلام؟! لا أفهمك. هل تقصد أننا نتشارك العمل نفسه؟

- ليس إلى هذا الحد. ولكن مشاغلنا ومشاعلهم تتجاوز وإن لم تتطابق تماماً.

غضب شبق مما سمع: "ما زلنا نمرح مع قلقك، وننهره، ونصالحه، حتى يكاد أتباعه من الفلاحين يقنعون أخي. كان سألني قبل مدة إن كنت مقتنعاً بالروس أصدقائنا. لا أريد الافتراء عليه إذ لم ألاحظ عليه نوايا لا أريدها، ولكن طريقة سؤاله لم تعجبني. ورأيه الآن ليس بعيداً عن رأيه السابق. أهذا سببه القلق أم القناعة؟ أنا أرى أننا سنفني مع أعدائنا القادمين فأمّد يدي إلى من أتأمل فيهم الخير، وأمثال قلقك يرون أننا نستطيع مجابهة الجميع إن توحدنا. متى سيتحقق هذا؟ حين تستولي تركيا علينا أو القرم؟ والروس الذين أعتمد عليهم؟ وهل كنت وحدي؟ أليس الأمراء والفلاحون من طلبوا مني السفر حين صارحتهم بمرادي؟ أديغة نهر ترج سلكوا طريق روسيا بعدي... وهم يتعرضون للانتقادات نفسها. ومنهم من يغيّر قناعاته. قلقك لا يحيد عن طريقه سواء كان مصيباً أم مخطئاً. وليس سبب تقيمي له واحترامي جبرته فحسب. ولكنه لا يريد الاعتراف بذنبه في قضية حاتاي الذي أوقعنا في أزمة. هذا الذي لا يساوي شيئاً يقول لي وكأنه يظني وليد اليوم: "مينسور وحاتاي قلباهما معاً، لا تُذنب بحقهما... ومن سيفهم ما يصيبني أنا؟" تخلص شبق من أفكاره المشتتة وسأل:

- هل تعتقد يا أمير أن أفكار الأمراء وأفكار العامة الفلاحين يمكن أن تتعايش؟ - نفص الأمير الكبير يديه من الرماد. - ألسنتُ تركتُ ولدي في البلاد الغربية عبثاً؟ - نهض من مجلسه حزيناً، وقال لأخيه: - لا تسمح لمثل هذه الأفكار الفلاحية أن تغزو رأسك! كيف أترك لك الجانيه وأسلك طريق روسيا ورأسك مشغول بهذه الأفكار؟

- يا شبق - قفز أفمق من مجلسه، ونادى في إثر أخيه الكبير، فأوقفه على الباب. - ساخني، لم أستطع التعبير عما في قلبي على نحو صحيح. ما حاجتي

إلى قضايا الفلاحين؟ مهموم بقضايا إمرتنا فحسب. كيف نفترق ونحن، الأخوين، حدّان لخنجر واحد؟ لا أحسد من ينوي هذا ؛ سأنتزع روحه!

- هذا كلام أمراء حقاً! - ألقى نظرة ودّ في وجه أخيه، واختتم بعتاب رقيق: - لا يجوز إهمال الفلاحين بهذه الحجة، لا تؤاخذني يا أمير، أريد أن أستريح قليلاً.

قال أفمق في إثر أخيه بكل إخلاص: "أليس هذا رأيي أيضاً في الفلاحين فلماذا تجرحني؟ - هؤلاء يرفعون رؤوسهم خلافاً لما نعتقد. ويدوون ينظرون إلى البعيد. وجارنا قلقت ليس كما نعتقد. تغيّر كلياً منذ أن تزوج. لم يغيّر أفكاره الفلاحية. حذّر على كلامه وسلوكه. لا يميّز نفسه من الفلاحين، ولا يتصاغر في حضرة الأمراء، ولا يتصرف مع أحد بما لا يناسب. لا تقف علاقتهما هو وحاتاي عند حدود الصداقة. يعامله كأنه ابن أمه، ولا يسمح لأحد بإساءة معاملته. ويمكن أن يلومه وينصحه ويغضب عليه عند الحاجة. لا أعرف ما قد يحدث مستقبلاً، ولكن لم أكن أريد التدخل بينهما بسوء. الحب نار كلما نفخت فيها ازدادت التهاباً، ولا نجعل، أنت وأنا، هذا. أفهم ما يعتلج في قلب مينسور. ولكن لا أستطيع أن أسبب الحزن لأخي الذي وقع بين نارين، نار ابنه هناك، ونار ابنته هنا، ومسؤولية الإمرة الكبرى؟.. - وبدلاً من أن يخفي أفمق الجمرة تحت الرماد، ويغلق المحددة مع حلول الظلام، أمسك بالمطربة الصغيرة، وشرع يعبث بها على السندان. ثم عثر على الحدوة التي أصلحها وتفقدتها من جديد. تبّه وقع حوافر خيل سريع، ترجّل على إثره ثلاثة فرسان على مربط الخيل. اثنان منهم من النغوي تعرفهما من ملابسهما، ويبدو أن الثالث خادمهما. ولا بد أن بجمت دعاهم كالعادة إلى الدخول، غير أنهم لم يفارقوا خيلهم:

شرع أفمق يغتسل، وفي الحال جاء الولد اليافع قامبولات إلى الباب:

- أسرع يا أفمق، جاء فارسان من النغوي إلى الدنا.

- وماذا يريدان؟ - سأل أفمق عما يُقْلِقُه، - لم يأتنا ضيوف من النغوي منذ زمن بعيد.

- أحدهما، وهو الأنحف يتكلم بالأديغية، والآخر الضخم يستمع.

لم يعرف أفمق تفسيراً لما رأى في المضافة: مامي وسرباي، فسأل نفسه قلقاً: "منذ متى بدأ هؤلاء يتسكعون في الجانيه وقت الظهيرة؟" وألقى النظرة القلقة نفسها في وجه أخيه.

قال شبق لأفمق بعدما رحّب بالضيوف:

- جاءنا يا أمير ضيوف لا نتوقّعهم. سنخالف تقاليدنا ونسأل عن سبب مجيئهم.

- مهمتنا معك أنت يا أمير، بدأ مامي من النهاية، - أمرونا بحزم أن نتحدث إليك على انفراد.

- لا أخفي سراً عن أخي. والآخر بجمت أقرب الفلاحين إليّ.

- حسنٌ أنك تثق به، ولكن موضوعنا لا يتعلق بالفلاحين. - حسم مامي النقاش، وأضاف كأن حضور أفمق غير مهم: - لا بأس لأن تكونا اثنين كما نحن! - نظر نحو الباب الذي يخرج منه بجمت. - مرة أخرى أوكد: يجب أن يبقى سرّنا بيننا.

- لا أعرف ماذا يحدث بين أربعة أشخاص، غير أنني لا أذكر سراً بين شخصين انكشف. - ابتسم شبق، - وما قلته في شأن الفلاحين أخطأت فيه، هؤلاء أيضاً يركلونك كحصان غير مطوّع. أنتما لا تنويان الإطالة في الجلوس؛ أسمعكما.

- نريدك أن تقابل موفد الله خان القرم دولت - جري.

- أنتما من يريدان أم خان القرم؟

- افهم كما تريد!

- إن كان هذا أسلوبكما في الكلام فقد انتهى لقاءنا. - حسم شبق الموضوع دون غضب أو مناكدة.

قلق سرباي الذي لم يساهم إلى الآن في الحديث. وقال بلغة أديعية مكسّرة:

- لا تؤاخذُ البسقاق مامي... - ثم كرر كلام زميله بأسلوب آخر: - نريد، نحن الطرفين، أن تلتقوا.

- إذن أفهم أن الخان هو من يريد.

- يسرني يا أمير أنك تفهّمت أننا مبعوثان من موفد الله، خان القرم دولت جري، - كرر مامي بملء فمه دون ملل ألقاب مخدومه.

- أنا فهمتُ هذا، ولكني لم أتقبّل أسلوبك في الكلام. أنت لا تنفذ مهمتك كما يجب.

- وأنا أريد أن تفهم أنني لست مجرد مراسل لدى خان القرم. - كان مامي يتراجع شيئاً فشيئاً ولكن دون استسلام. ولكن أفاق أعاده إلى حاله:

- لا تُساوِ نفسك بكبير أمراء الجانيه. ولا تماطل في طرح مهمتك!

ابتسم مامي مخفياً غيظه، " ليتنا التقينا، أنا وأنت في غابة ما، كنت أعدتُ إلى فمك ما عيّرتني به! " والآن كشف عن سبب إرساله:

- يريد خان القرم الاجتماع بأمر الجانيه الكبير دون ضجيج. وقد قرر قبل الاجتماع بك أن يتكلم إليك ابنه عادل - جري. - دعونا نفكر في مكان الاجتماع وزمانه.

- إذا كان خان القرم الكبير يريد الاجتماع شخصياً بي فسأجتمع معه. ولكن لا أوافق على الاجتماع الآخر الذي يقترحه. فإن كان يريد أرسلت أخي إلى ابنه لأن ابني ليس تحت تصرفي. وإن قرر أن نلتقي نحن، فموعدنا بعد شهر. والآن، ولم يعد الأمر سراً، وربما الخان نفسه يعرف، يدعوني قيصر روسيا حليفتنا. وإذا كان الخان يريد أن يتم لقاءنا سراً فليكن على معبر بحر آزوف. فإن لم يقبل ففي توم - تقاش الذي ليس مكاناً سيئاً. وإذا كان اجتماعنا سراً ويجب أن يبقى آمناً فلن نظهر بين الناس، وهذا ليس جديداً على الخان،. يقول لي ما يريد وأجيبه. ها أنتما نَقذتما مهمتكما. وأنا أطلعكم على رأيي. - اعتمد الأمير براحتيه الناعمتين على فخذه ونهض إشعاراً بانتهاء الاجتماع. وقال لأفمق: - مُر بإيصال الموفدين إلى ظاهر القرية.

- لا حاجة، - لم يقبل مامي، - نفارقكم كما وصلنا إليكم.

- كما تريدان، - تراجع شبق عن أديغيته التي غلبته ولكنه لم يكتم عنهما ما خطر له: - ولكن مهما كانت علاقتنا فأنتما خارجان من مضافتي، إن صادفتكم جماعة قلقت فلن يرحموكما.

- لو كنت أخاف من هذا الذي تأتي على ذكره يا أمير، - ابتسم مامي حتى بدت أسنانه الصغيرة، - لما جئت إليك.

حين بقي الأخوان وحدهما سأل شبق:

- ألم يتحقق يا أفمق ما قلْتُ مرة بشأن خان القرم؟

- سيظهر هذا حين يرضخ لشروطك.

- وماذا بيده إن لم يرضخ؟ - وقع دولت - جري بين تركيا وروسيا خلافاً لما توقّع. ولسنا بعيدين عن المسألة. ليس خان القرم مشكلة إذ لن يبقى له من القوة ما يزعجنا بها غداً. كنت أتوقع حين توجهت إلى روسيا أن تحتاج تركيا والقرم لم أتصور قط أن الدولتين اللتين نعتمد عليهما كلانا سيتصرفان بهذا الخبث.

- أياكون بين روسيا وتركيا اتفاق سري حقاً بشأننا؟

- صحيح يا أمير، وكل سرٍّ سرٌّ بين من يتسارّان، ولكنه يصبح علناً يوماً ما. في عالمنا المعاصر قليلون من يمكن أن تثق بهم. الأهل يتبادلون نظرات الارتياح، وأبناء الأم الواحدة يتخادعون ويتشاحنون، ولا يكشف أحدهم سرّه للآخر... - تذكّر شبق أنه أخفى عن أخيه ما فعل بينكس وونتغ فتلعثم، غير أنه سرعان ما عاد إلى وعيه، - نحن لسنا من هؤلاء. نحن نتشارك القول والفعل. وبيننا مودة ورحمة، أما في الموضوع الآخر، روسيا وتركيا، فما من أحد لا يحتفظ بسرٍّ ما. وخان القرم لو لم يكن يحتفظ بسرٍّ ما، ما كان أرسل إلينا. البطرُ يصدح بصوته، والمريض يئن. سنرى ما يحدث، سنرى. ولكن لا أندم على ما فعلتُ ولو خدعتنا روسيا، عرّفنا خان القرم أنا لا نشرب الماء من أنوفنا، جعلناه يترجانا.

- صحيح يا أمير. ربما ما فهمتُ سلوكك لو لم أر كل هذا بعيني، ولم أر سلوك الأميرين تاخ وفواخ، ولكن صبرك حماك، وزين صورتك. والآن أقول لك ما يشغل بالي: ماذا سيكون ردُّ فعل روسيا إن عرفت أنك اجتمعت سرّاً بالخان؟ ولا أظن تركيا أيضاً ترحّب به.

تفكّر شبق مدة، ثم قال ضاحكاً:

- لا أضحك من سؤالك يا أخي، بل ممن ذكرت اسميهما. لو أطلعتنا روسيا وتركيا على اجتماعهما السري لما كان موضوع حديثنا الآن سراً. ولذا دعهم يجربون ما عانينا نحن في تلك الأيام...

قبل موعد الاجتماع مع خان القرم جاء من جهته فارس متخفّياً. وأخبر بقبول الخان معبر آزوف مكاناً للقاء، والزمان الذي حدده شبق له، فركب الأمير الذي كان مستعداً للقاء. وتبعاً لاتفاق الطرفين، لم يثر شبق ضجة. ادعى أنه سيقوم بجولة في الجانية يطلع فيها على أحوال البلاد، واصطحب الحراس السبعة المدججين بالسلاح الذين يسافرون معه عادة. ولم يكن معه أعمق بل حلّ محله. ولكن الأخير لم يجلس مكتوف اليدين: كان أرسل أمراً بأن تنتبه كل قرية إلى الطريق الذي سيسلكه الأمير الكبير وصولاً إلى سوق معبر آزوف. وفي السوق نفسه توزّع بعض الحراس متنكرين بصفة تجار. وبالطريقة نفسها تصرّف خان القرم.

حالما أدى الأمير الكبير وخان القرم صلاة الظهر دخلا إلى الغرفة الملحقة بالجامع. تبادلوا التحية بجزء رأس، وجلسا متقابلين. ووقف مترجم الخان مامي وراءه.

سأل شبق نفسه: "متى التقينا أنا وهذا الرجل؟ كان هذا قبل مدة حين افتدينا منه الخمسة عشر صبيّاً وفتاة. لم يتغير فيه شيء لولا بداية الشيب في لحيته. ولا تزال عيناه الصفراوان تلمعان..."

وقال الخان: "الأمير الكبير من عمري ولكن لا شعرة شائبة في لحيته. ولا تجاعيد حول عينيه. ومن نظراته كأني أراه لأول مرة. ماذا في قلبه الآن يا ترى؟" بدأ الأمير شبق الحديث بسؤال:

- ماذا ينوي الواقف وراءك أيها الخان العزيز؟ - أفهمه بكلمات أخرى عدم رغبته في مامي: يكفيني ما أعرف من لغة النغوي، وما تعرف من لغة الأديغة.

- أوافقك. - أخرج الخان مامي من الغرفة بإشارة من كتفيه الضيقتين.

— أنت من طلبني أيها الخان فافتح الموضوع!

- لست وحدي يا أمير الجانية، أظننا حسب تطور الأوضاع يحتاج كلُّ منا إلى الآخر. - ابتسم دولت - جري، ولكن بان صدقه من عينيه. - أعرف أنك

مسافر إلى روسيا في مطلع الشهر القادم فأقول لك بشخصي دون أن ينتشر الخبر، إن من تسافر إليهم يخدعونك.

- حياك الله يا خان، وأنا، كما تعرف أن تركيا تكذب عليك، يسرني حرصك عليّ.

- هذا ما يدعوني إلى القول إن كلاً منا يحتاج إلى الآخر. لو سمعت نصيحتي كنت وقفت دون ما فعلت.

- لو سمحتم لنا، تركيا وخان القرم، أن نعيش بأمان دون التدخل في شؤوننا ربما لم أفعل ما فعلت.

- أفهم ما تريد أن تقول. نحن وأنتم عرقان صغيران. هناك احتمال أن نضيع بين الدولتين الكبيرتين اللتين تتساران. فكّر دون استعجال. وحتى الآن لم نفترق، أنتم ونحن، بعيداً. كلنا مسلمون، وحدودنا متلاصقة. وما بيننا معبر بحر واحد ضيق فحسب. لا يزال أماننا وقت كافٍ قبل أن توثّق علاقتك بروسيا. والتائب يحبه الله. فكّر مرة أخرى قبل أن تسلك طريق روسيا. ووازن، ولا تخطئ.

سأل شبق نفسه حذراً: "بلسان من يتكلم هذا الرجل؟ وصوت من صوته؟ أيعتب على تركيا التي أهانتها، أم يجعلني أتصور هذا؟.. احتفظ بالاحتمالين معاً...". ورثما نصح الأمير الكبير نفسه أجاب الخان:

- لا تسمح لروسيا التي ستسافر إليها يا أمير الجانيه الكبير أن تخدعك كما خدعتني تركيا. اسألهم عن اتفاقهم السري مع تركيا. واسمع ما يجيبون به. جاء بي إليك ما يخفيه عني السلطان سليمان. - رفع الخان يديه إلى السماء: لا أنطقني الله العزيز الذي يبتهلون إليه ولا يبتهل إلى أحد بغير الصدق!

- شكراً يا خان على هذا الكلام. سأفكر، وسأتصرف تبعاً لمصالح الجان الذين قدّموني عليهم. وسأسأل قيصر روسيا. ومتى رجعتُ اجتمعنا ثانية. الأفضل من أن نتحارب أن نعيش في سلام. إن كنا انتهينا هكذا يا خان فلا ركب. - وفي الحال نهض الرجلان معاً.

في أواخر الشهر الثاني من ربيع عام 1560 سافر إلى مواعده في موسكو مع القيصر، وإن تأخر قليلاً، مع مئة حارس مسلحين.

XI

الأمل بلا حدود: يعطي هذا دون أن يتوقع، ويأخذ من الآخر ما عنده، ويقابل الثالث بالرعب.

هدأ نبض قلب مينسور عندما تجاوزت عتبة باب الجيران مع أنها تعرف أن أمها ليست في البيت، وتخاف أن تنادي في إثرها فزعة كما في الماضي. استقبلتها نكر بوجهها الأسمر الجميل وحضنها الدافئ. ثم توجهت إلى داريه التي لم تنهض لأجلها فأدارت الأخرى وجهها الشاحب الصغير. اضطربت نكر وأجلست مينسور ممسكة إياها من كتفها.

- "أتكونان تشاحتما في غياب قلقت" .. - أخفت مينسور اكتئابها مع أنها ندمت على مجيئها.

- ولماذا أغضب من كنتي التي لا يخرج من فمها إلا كل كلمة حلوة! - أجابت داريه بجفاء مديرة ظهرها، مُسندةً رأسها على راحتها الصغيرتين.

- هل أنا إذن من غضبت عليها؟ فغرت مينسور فاهاً، وسرى الحزن إلى عينيها الصافيتين.

- من غيرك يستطيع أن يقطع عليّ الطريق؟ اغرورقت عينا داريه وتوهجت وجنتاها. وارتفع صوتها. مسحت عينيها بظاهر يدها. ونظرت حاقدة في وجه مينسور. - أنتم سلائل الشمس والقمر، يتحقق لكم ما تريدون. ونحن تراب نتحمل إن عجنونا أو ألصقونا بالحائط أو وطئونا.

- اسكتي يا داريه! - صرخت نكر حتى لتكاد تقتلع قلبها، وارتمت نحو ابنة حميها، وحضنتها من ظهرها. وضمت رأسها إلى صدرها ونصحتها وهي تمسح على وجهها الحار: اضبطي أعصابك، ولا تقولي ما ستندمين عليه.

- وهل أعني ما أقول؟! - تنهدت داريه وبكت.

- كفى، اسكتي، لم يبدأ الحب المشاع من عندك ولن ينتهي بك. - نصحت

الكنة ابنة حميها.

أشعلت كلمات داريه النار في مينسور، ووصل قلبها إلى حنجرتها، وأغلق رثيها. نظرت واجمة في بنت الجيران، وفقدت صوتها كأن شيئاً علق في

حنجرتها. ودبّ الغضب في رأسها، ولكنها صبرت. وفكرت في ما تعاني. ثم قالت:

- لم نقترف، لا أنا ولا أنت، ذنباً إن أحببنا شخصاً واحداً. أرجوك يا داريه أن ننصت إلى نكر. لا تدعينا نبادل كلمات جارحة. هل حدث أن سببت لك الحزن أو أهنتك منذ صغرنا؟

- ولكنك هدمت أول حبّ في حياتي. - شكت داريه متتهدة، - حاتاي في قلبي منذ وعيت، لم أتصور حتى في المنام أن يلتفت إليك الفتى العبد. بل ما كنت لأصدق. لم أفرح حين تبين أنه من سلالة أمراء بل ارتعبت. فهمت أيّ أحمل أملاً كاذباً. ولكني لا أستطيع السيطرة على مشاعري.

- أنا نشأت يا داريه وحاتاي أمام عيني كل يوم. - لم تكتم مينسور أيضاً كيف استفاقت مشاعرها. - لم أكن في وضع يسمح لي أن أحب ولو أني أكبر منك عمراً بقليل. وأنت تعرفين أيّ لم أر غيره فأفتح له قلبي.

- فهمت ما جرى لكما كليكما. - تدخلت نكر حذرة، - يقال: من لا يفارق العين يسكن الروح. تعلّقتما بحاتاي لأنكما ما كنتما تريان غيره. خلقه الله شاباً جذاباً لا يمكن لفتاة إلا أن تحبه. ولكن لا داعي لن تختلفا من أجله. كلاكما تتحدثان عن مشاعركما ولا تسألان عمن يميل قلب حاتاي إليها. كان جاء إليك مع أصدقائه يا مينسور، وأنت يا داريه؟

- أنا أخبرني أنه أحبني. - أسرع الدموع إلى عيني داريه فغطّت وجهها بيديها.

نظرت الكنة الصغيرة إلى مينسور فزّعة وضمت إلى صدرها رأس داريه ونصحتها متوسلة بإشفاق:

- لا تقتلي نفسك هما، سيمر كل هذا. ولا ذنب لمينسور. ولا تحسدي من كان من حظها.

- أنا من تعدينها محظوظة يا نكر؟ - قالت مينسور بنبرة غضب، ثم نهضت الفتاة الأميرية ساخطة، ووقفت أمام ابنة الجيران وانتزعتها من كنفها. - أنا لا أحسد أحداً يا داريه، وأنت لا تحسدين. بل اغبطي نفسك. اعرفي قيمة حياتك حرة في نفسك وقلبك. وأنا لست سليلة الشمس أو القمر. والدي

وعمي يعملان معاً في الحِداة لتزجية الوقت. ومع حدود الخيل يصنعان لي القيود. وأمي تفصّل وتخيّط. وتنسج الصوف. وتنسج لي شباكاً خفية. أنا سجينة البيت. سيُشركوني حين يقام عرسٌ أميري كبير. ولكن متى هذا؟.. حاتاي كأنه لم يكن بالنسبة لي. انتصبت بينا جبال عالية.

قفزت داريه، وارتقت على مينسور. وبدأت الحديث محتضنة إياها، باكية:

- ساحيني يا مينسور! حجب الشعور الذي بلا جواب الرؤية عن عيني. أهنتك بلا ذنب. أنت لي كأخت ولدتها أُمي. أنت عاقلة، وجدت في نفسك القوة. قولي لي ماذا يمكنني أن أفعل!

- النار تنطفئ ما لم تُغذَّ بالخطب. - لاطفت مينسور جارتها وهي تمسح على ظهرها. - أنت من بيدها كل شيء. - ضعي قلبك الصغير في راحتك تنطفئ النار التي تشتعل في صدرك شيئاً فشيئاً.

- ما أجمل كلماتك يا مينسور! شكراً لك. أسرع المضيقة وقد هدأ قلبها نحو الفرن.

- لا تشغلي بالك يا نكر، أنا أكلت منذ وقت قريب. - استعجلت مينسور وهي تضمّ داريه إليها.

- لا، لا يمكن أن تصرفني دون أن تذوقي شيئاً. - لم تقبل نكر، - لم يدخل أحد منا إلى بيتكم ويخرج دون أن يذوق من طعامكم. وليس هذا فحسبُ فما أكثر ما أهديتُم أختي من الحلوى. متى بقينا وحدنا سردت لي كل هذه الأخبار. تحبكم جداً ولكن لا أعرف ما جرى لها اليوم، مستعدة في كل وقت لتضحكي بنفسها من أجلكم... - وضعت نكر في غمرة الحديث الطعام على المائدة. وصبت شاي القلمق في الأقداح. - بالله عليك أن تمدّي يدك، نجد ما نأكل وما نلبس، ولكن ليس عندنا حالياً منتجات الألبان. متى ولدت عجلثنا في الشتاء فلن نحتاج إلى الحليب والسمن.

جلست نكر أيضاً مع الفتاتين. كانت مينسور تبدو كأنها هدأت ولكنها حريصة على ألا تُظهر انفعالها فحسبُ. تذوقت قليلاً من الطعام. وداريه تجلس حزينة وقد غاص رأسها بين كتفيها تأكل بلا حماسة.

قالت نكر في سرّها: " أعددت لهما مائدة أملاً في أن أهدئ قلوبهما ولكنهما تأكلان بصعوبة " فتألم قلبها لهما. " إذا كان الحب يُذيق الإنسان كل هذا العذاب فلماذا كتبه الله على القلوب؟ لا يميز غنياً من فقير. حتى من لا يحتاج إلى شيء ويبيع ماله يحتاج إلى الحب. وإذا رأوك محبباً اعتبروك أسعد الناس حظاً. ولكن إذا بُذِ حُبك مثل ما جرى لداريه بقي قلبك فارغاً ودينك مظلمة وحياتك خالية من العجب. وإن وقعت محل مینسور ومنعوا قلبك من اختيار من تحب فالبيت الكبير يضيق عليك. ولن يروق لك القصر والذهب والأثاث. الأمراء والنبلاء والفلاحون لا يعترفون غالباً لأبنائهم بما في قلوبهم. ويرون أن أزواجهم من الجنسين يجب أن يكونوا من أوساطهم، متناسين أن الحب لا يميز غنياً من فقير. وأنا كنت محظوظة إذ لم يعارضني والدي ولا جدي في قلقت. من يساعد هاتين؟ داريه جافاها حظها. لماذا يعترض الأمير والسيدة الكبرى طريق ابنتهما الوحيدة؟ ماذا يريان من عيب في حاتاي ولاسيما بعد أن تبين أنه ابن أمير؟ وإذا كنت أتعاطف مع مینسور وأشفق عليها فأنا أعتقد أن الأمير يرى أبعد مني..."

- لا تستعجلي يا مینسور، لست في بيت غريب فتُحاسني على طول بقائك عندي. - بثت نكر في وجه ابنة الجيران. - لا تقيمي سجيناً في البيت، اخرجي، ادفعي عنك الملل.

- لا تؤاخذيني يا مینسور، تسرعت - حاولت داريه أن ترسم ابتسامة على وجهها. - جرحت شعورك رغماً عني.

- إنسي هذا يا داريه، وأنا نسيت. - نهضت مینسور فشيعتها داريه ونكر راضيتين إلى باب الدار.

ولما عادتا إلى البيت قالت نكر وهي تتناول لباس العمل، وكأن بلا أهمية:

- ألا نذهب يا داريه إلى الحديقة الصغيرة ونحفر لحوض من البصل.

- هذا أفضل من أن نجلس متقابلتين نتبادل النظرات، وافقت كتنها متحمسة.

كانت نكر متشوقة للعمل وإن نشأت في أسرة غنية. تعرف أن العمل العضلي يُبعد الهموم والوساوس. ولا تنوي تذكّر ما قيل في ملاسنة الجارتين، بل تريد أن

تُسيّ ابنة حميها الموضوع كله. انتقلت بفكرها للبعيد وكأنها لم تشهد ما حدث، فسألت داريه:

- هل تعتقدين أن أخاك الأكبر ستحقق له مشروعاته؟
- إن وقف إلى صفّه الفلاحون نجح، فالوحدة قوة. - أجابت داريه وهي تغرز الفأس في الأرض بإتقان.

- الأمراء عندهم ما يتنازعون عليه ولكن ما الذي يقف في طريق تعاؤد الفلاحين؟ - لم تفهم الكنة هواجس ابنة حميها. - يمكن أن تقول إن الجميع شروط حياتهم واحدة من حيث الموطن.

- هذه هي الحال، ولكن سيفَ صاحب السطوة ولسانه طويلا.

- هل تقصدين الأمراء؟

- ليس الأمراء وحدهم، لا يريد النبلاء والمتنفذون والفلاحون التضامن. - تركت داريه الحفر ونظرت إلى كنيّتها ووجهها يفيض جمالاً: - أفراد الأسرة التي خرجت منها أناس مستقيمون فتظنين الآخرين مثلكم. ومن لا يصل إلى الفلاحين بالسلح يُفسدهم بالكلام.

- من أين تعرفين كل هذا؟

- لستُ أدكي منك ؛ سمعت قلقت يتكلم في الموضوع غاضباً مع بسمت.

- ذكرّني بأقوال جدي الأكبر.

- وأي كلام؟

- إن تعاون فقيران عاشا كالغني. ولكن كلاً يقف تحت النير إلى جانب ثوره بدلاً من أن يطلب العون من جاره. أليس هذا هو الواقع؟!

- هل تعرفين السبب؟ الناس الذين يفكرون في التعاون يتدخل الأغنياء بينهم فيحملون الفقراء على التنافر، فيرجعون بثّورهم القائد للعربة. ويبقى القرار بيد صاحب الحلّ والعقد.

- لم أشكّ إلى الآن في عملهم هذا. أليس حسناً أن يعيش الناس جميعاً متساوين؟ ماذا يخسرون؟ ما عند الأمراء يكفيهم ويزيد.

- يكفّيهم ويكفي سلالاتهم ولكنّ من يجدّ لا يعرف حدوداً للثروة. يصارعون من أجل أن تعيش سلالتهم إلى الأبد في مجبوحة. إن لم يبق فقراء فمن يجمع للأغنياء المال؟

- الغني والفقير خلقهما الله، - لم تملك نكر إلا أن تنحاز إلى أسرتهما. - أعطى لهذا العقل، وعلمه العمل. والكسول تسقط من فمه اللقمة التي تضعها فيها. كلهم بشر، ويجب أن يعيشوا.

- ولا يدعو قلقت إلى إفنائهم، ولا يصارع الأغنياء. ترجّى الكثير من الأمراء أن يجمعوا أعراق الأديغة ويتقدّموهم. وها هو جارنا أمير الجانيه الكبير يجمع الأمراء من وقت لآخر، فيرتبون مصالحهم الخاصة ويتفرون. ليعيش الأمراء، ولكن ليعيش الفلاحون أيضاً.

- كلّ بيته سلة غسل، كما يقال. وأنت تريد أن يكون عرقك أحسن أعراق الأديغة. - ضحكت نكر بدون حُبث، - وأنا قلتُ هذا وتزوجت من أخيك. - لا تندمي على زواجك منه. ابتسمت داريه لكتبتها، - الفلاح مهموم بالرجولة. ويتنافس على الإنسانية. ويضحى من أجل العدالة. ولا يسمح لنفسه أن ينطق بالفحشاء.

قطع وقّع حوافر الحصان نقاش المراتين. استقبلت نكر الفارس الذي توقّف على الباب، وتبعته داريه.

ترجل الفارس حالما رأى رؤوساً مغطاة. وفهم أن من يقصده غائب، فقال:

- يجب أن أقابل قلقت ؛ أين أجده؟

- هو في البجدوغ، - أجابت نكر باختصار.

- أرض البجدوغ كبيرة، لا قرية أو اثنتان أو عشرٌ ؛ ليتك تحدد لي!

- أخبرني أنه سيزور قرى كثيرة. كيف أشرح لك، - أسرع نكر، ثم برّأت نفسها: - لا تؤاخذني، نكلمك على الطريق، ولا ندعوك إلى البيت لغياب الرجال عنه.

- أفهم، - قال الشاب الأسمر الضخم الطافح الوجه. - يكفي أن أبلغك.

تقدمت داريه بوجه مستدير محمّر، ووقفت إلى جانب كتبتها. وسألته بوجه عابس:

- ومن أنت حتى تتبع أثر قلقت؟! كيف ندلك على مكانه ونحن لا نعرفك؟!
 - تسألين بفضاظة يا أختي، - ضحك الفتى الأسمر من تحت شاربيه، - أنا
 تَمْتَج. آتي من بلاد المخوش. أرسلني شَرَحَ صديق قلقت. وأنت؟
 - هذه داريه ابنة حمي، أختٌ من جئت تطلبه. - استلمت نكر زمام
 الحديث.
 - الآن فهمتُ كل شيء. - ضحك الفتى بعينيه وفمه - أخوك كعمالقة
 الأساطير، وأنت ما أصغرك يا أختي!
 - اتَّخَذْتَنِي أختاً مبكراً جداً، لا تكاد تصل. - ناكدت داريه الشاب مرة أخرى.
 - أنا خلقتي الله هكذا. هل المرأة الضخمة كحصانٍ وراكبه أجمل؟
 - لا، لا أقول هذا. - خجل الشاب، أنتِ بفضل الله لا ينقصك شيء ولا
 يزيد. ولا أظنك أقلَّ شأنًا ممن يطأن قدميك.
 - لا تظنَّ إذن! لا أسمح لأحد أن يطأ قدمي. ولا أن يصدمني عَقيي. - غضبت
 داريه وهي تزداد عبوساً.
 - الآن أفهمتني أنك أختٌ حقيقية لقلقت. - لم يعتبر الشاب الضيف كلامها
 إهانة، ولم يغضب، - لسانك حادٌ وصريح.
 - إن لم تأت يا تمتج للمغازلة، - خافت نكر أن يسوء الوضع بينهما، -
 فأخبرنا بما تريد. ونجيبك بما نعرف.
 عاد تمتج إلى مهمته، وقال بصوت حازم:
 - مضى على إرسالي إلى هنا قرابة شهر؛ الناس يحبون معرفة ما جرى. وشرح
 وغيره لا يهدأ لهم بال.
 - ماذا جرى؛ هل لقلقت علاقة بالموضوع؟ - سألت نكر فزعاً.
 - لا علاقة له بالأمر. جئتُ أستعلمه، - طمأن الشابُ سيدة البيت. - هل
 تتذكرن إن كان الأمير شبق أو أحد أقاربه خرج في ذلك اليوم؟
 - أنا لا أعرف من يدخل ومن يخرج. قالت نكر الواقع.
 - ننسى اليوم ما أكلناه أمس، - ابتسمت داريه، - من سيتذكر ما حدث
 قبل شهر؟!

- كان الثلج يسقط عندنا لأول مرة في السنة، - استعجل الشاب يريد أن تمسك النسوة بطرف خيط.

- قلت أول ثلج؟ - تفكرت داريه، - نعم، كنا سمعنا، ونحن سقط عندنا شيء من الثلج الرطب ثم توقف. ذكرّني! لم يخرج أميرنا وأخوه وحرسه في ذلك اليوم. تجوّلا في الأراضي والمراعي. وكان يُسمع صوت طرقيهما على السندان. وشارك هو وأخوه في عرس ابن الأرملة بعدما قدم لها بضعة خراف. - وحاشيته؟

- وهم أيضاً ظلوا في الدار يمارسون أعمالهم. لا يخرج أحدٌ من هؤلاء إلا إذا ركب الأمير.

- إذن كلام الأكثرية صحيح. قتل كل من المجرمين صاحبه. - اختتم الشاب الكلام بنهاية محزنة.

- من تقاتلا يا إلهي؟ صاحت نكر وقد شحب لونها.

- مجرمانا القاسيان: ونتغ وبنكس.

- يا لفرحتي إذن!. لا أعرف بنكس، ولكن تشفيت من ونتغ الأعرج اللعين، - بدا على داريه كُرهها له، - لا تفعل الشر وتنتظر الخير! وصلت إليه عدالة الله.

- لا تقولي هذا يا داريه، القتل حرام كائناً من كان. - رفضت نكر ونصحتها: - عاد إلى عقله بعدما أساء بحقك وأعادك.

- هكذا؟! - انتفضت داريه، - لو كنت مكاني لقلت غير هذا. من لم تجرّب أن تُحمّل على الحصان مقيدة اليدين والرجلين، مكمومة الفم، لا تعرف إن كانوا سيقتلونها أم سيُبقون على حياتها، فلن تعرف... ما أكثر ما عانيت بين النغوي لا أملك حريتي، ولا أعرف لغتهم. وقلبي في بيتي...

- لا تفني نفسك في الماضي يا داريه، - مسحت الكنة على رأس داريه التي أجهشت بالبكاء. - يقولون: الله يقبل توبة التائب، وإلا فلا أشفق على ونتغ كثيراً.

- سامحني، لا أريد أن أجرح مشاعرك يا داريه - تعاطف الشاب معها أيضاً، - بدّدتن شكوكي، شكراً لكن. كان ونتغ وبنكس يترافقان في اللصوصية في

وقت من الأوقات، ثم تعاديا لا يعرف أحد السبب. قُتِل بنكس ولكن وتنغ الذي لا تُطيقينه بقي حياً. حقاً لم يعد إلى وعيه إلى الآن، ولا أمل كبيراً في شفائه. لا يقول لأحد شيئاً. والصيادون أفادوا أنهم رأوا آثار شخص غريب على الثلج. كفانا، سلامي إلى قلقت.

مضى على انصراف شاب المخوش وقت غير قصير. وكان النهار الذي تاهت فيه أشعة الشمس الدافئة يمضي إلى نهايته، ولكن مع دُئو الشمس من المغيب حملت الريح شيئاً من البرد. قالت نكر وهي تنظر من النافذة:

- أميرنا غائب ولكن الآخرين في نشاط محموم، الله أعلم بما يخططون.
- الله نفسه لا يعرف ما تفعل أسرة الإمارة؛ فكيف بنا؟! - ردت داريه بنيرة العجائز، - من عنده مالٌ يدفن تحت لِيْتِه ما يناسب ولا يناسب؛ من تقصدين؟

- الأمير أفمق.

- إذن لا بد أن شبق في مكان بعيد. هو على طريق موسكو.
- هذا من شأن الأمير، يبتعد إن شاء أو يترجل قريباً، مهام الأمير كثيرة. -
سوَّغت نكر سلوك الأمير غير متحمسة للكلام الذي بدأته. - ما عندنا من طعام قليل، دعينا نضيف شيئاً إليه، قد يعود أخوك جائعاً.
- تقولين هذا فنطبخ كل يوم زيادة لهذا السبب، - بدأت داريه تنظف الذرة مغممة.

كانت الباستا تكاد تنضج حين دخل أفمق مبتسماً. ولم يكن على وجه داريه الأسمر المستدير التي تطعم النار حطباً أيّ أثر للحرارة في حين كانت وجنتا نكر توهجتا. استقبلتا الجار بالترحيب، وهضت داريه بسرعة، وخطبته:

- اجلس يا أفمق، حسناً فعلتَ بمجيئك. مللنا كلتانا من الجلوس في البيت.
- وكيف تملان وأنتما تطبخان بكل جدٍ! جلس أفمق وهو يخلع قبعته بإبهامه.
- قيل يا أفمق: مائدة الرجل الصالح تأتي في وقتها. ها هي ستجهز حالاً. -
بدأت نكر تهرس الباستا.

- لستُ جائعاً يا نكر، - سمعتُ أن فارساً نزل عند باب داركم، فجئتُ أطمئن.

- أبعد الله المكروه عنا - أناسنا وقرانا بسلام، - التفتت نكر باسمه، - كان شابٌ قد أتى من المخوش.
- من أي أسرة؟
- لم نسأله عن نسبهِ، ولكن أخبرنا أن اسمه تمتج. ليس من عادة الأديغة السؤال عن هذه الأمور.
- وماذا يريد؟
- كان يريد مقابلة فقلت، - ساهمت داريه، - أرسلوا الشاب إلى هنا غير مصدِّقين أن ونتغ وبنكس قتل أحدهما الآخر، عندهم شكوك في الأمر.
- ومن عنده شك؟
- لا أعرف، - رفعت داريه رأسي كتفيها علامة حيادٍ، - سأل عن مكان شبق وأشخاص الإمارة وقت الجريمة.
- وماذا قلتما له؟ - نظر الأمير في وجه داريه ممتنع اللون، جاحظ العينين.
- وماذا نقول؟ أتذكر تلك الأيام جيداً. - قالت داريه مطمئنة. - شبق وأنت وعمالكم كنتم جميعكم في حدود القرية، في عرس ابن الأرملة المسكينة.
- هذا ما جرى، - ارتاح قلب أفمق، ثم تظاهر بالغضب: - وهل من الجائز الشكّ في كبير أمراء الجانيه؟! وما شأنه بمتابعة المجرمين، يكفيه ما عنده من مشاغل.
- من في مشكلة يتهم أولي القدرة، - عكست داريه لأفمق بعد قليل ما قالتها لكتنتها: - يظن صاحب المشكلة أن يد القادر الطويلة تصل إلى كل شيء... ها هو بنكس أزهقت روحه. وعدوي ونتغ بقي حياً. مهما كانت حالته سيئة فهو يتنفس. ولا يتهم أحداً.
- أترك أمر ونتغ وبنكس لله. ما شأننا بهما؟ - قال أفمق ساخطاً، تعرفان أنتما أيضاً مبلغ إنسانية أخي وشفقته. ولا أقول هذا لأنه أخي. يتجنب الإساءة إلى أحد. ولا يقبل من أحد أن يرتكب الشر. - كان أفمق يحاول حقاً ترين صورة أخيه، ولكنه يحتفظ بذكرى غياب بجمت في تلك الأيام باردة. وكان مرتاحاً لعدم شكّ الجيران في شيء.

حين خرج أفمق مختاراً إزاء الخبر المزعج الذي سمعه، تنهدت نكر وهي تضع
مهرة الباستا على المائدة:

- كان شاب المخوش بدأ يغازلك لو لم أقطع حديثه، - تسرّعت، لم يكن عليّ
أن أعترض طريقكما.

- كفى، لا أريده، زمت داريه شفتيها.

- ما الأمر؟ شاب وسيم، يُنسيك حاتاي، لا شك أنك أعجبتيه.

- لا تأتي بعد الآن على ذكر حاتاي. لا أريده ولا أريد غيره! جزمت داريه!

شركيسيا بلاد رائعة، تغلب عليها الأشجار المثمرة، وتجري فيها أنهار كثيرة. والغابات تغطي الجبال فتأسرك بجمالها. هواؤها نقيّ يذوب في الصدر. وأظن أن الجمال الفائق للشراكسة سببه هذا الهواء، بالإضافة إلى التربة المتميزة في الطبيعة التي يعيشون فيها، فهذا هو جذر جمالهم.

فيران

الشراكسة طوال القامة، طباعهم حسنة، دماؤهم حمراء. يتحلون بالإنسانية. عيونهم سوداء صافية، وفي اعتقادي أن نساءهم أجمل نساء العالم، وأحسنهن طباعاً.

إ. دورتيللي. د. أسكولي

توم تقاش¹... حاضرة الشراكسة جميلة محاطة بالأراضي الزراعية والمراعي والأشجار المثمرة والكروم. أمراؤهم شجعان، ماهرون في حل الأمور. ويفتتحون في المدينة أسواقاً زاخرة. ويعمل في عمليات البيع والشراء فيها الكثير من الناس.

الإدريسي

¹ على بحر آزوف، محاطة بسور حجري ينتهي طرفاه في البحر. نذر أمير الروس أن يبني فيها كنيسة إن انتصر على الأمير ردد، وتحقق له ذلك فوئى بنذره. وبقي الاسم في التراث الشعبي الشركسي رمزاً للبعد والمهلكة: ليأخذك الله إلى توم تقاش!

I

يُحَيَّل إلى الأمير شبق أن قولهم: "المستعجل يتأخر، وغير المستعجل يصل باكراً" يصدر من تحت حوافر حصانه، والفرسان المثة المرافقون له تتنوع أصوات حوافر خيلهم أضعاف حوافر حصانه.

عتاب الأمير: "أأنا المذنب؟" يتردد في قلبه ويتصارع في ذهنه. وتنهمر أفكار أخرى: "ما ذنبي؟ أهو مماطلتي في الانطلاق مؤجلاً من اليوم إلى الغد؟ هذا ليس ذنباً. من تنقلب عربته يحملها بنفسه. هل كنت أسمح للفتنة أن تنتشر في أسرتي تحت أنظاري؟ من أجل هذا قالوا: "من أين جئت يا مصيبة!" كنت أظن أن حاتاي نشيط وذكي ومخلص لي إلى أن سافر فأصبح يأتي إلى بيتي مغارلاً ابنتي... وفلقت ينظر إليّ بعين أخرى. وأعدائي شامتون، ويجعل من يُكْتَوْن لي الود يرتابون فيّ، سواء كانا صالحين أم طالحين، حتى لو كانا مجرمين؛ أليسا بشراً، تسبب في مقتل ونتغ وبنكس البرئين. أهو إجرام أم حماية للنفس؟ إن اكتشف الفلاحون أمري بطريقة ما فماذا ستكون نظرهم إليّ؟ ليفعلوا ما يريدون!.. هل يهتم هؤلاء بما ألقى من تعب خلال نصف نهار فحسب على هذا الطريق المرهق؟ هل يتألمون لي؟ لا يهتمون مقدار كوبيك واحد. ومتى فارتهم نسوا إن كنتُ حياً أم ميتاً. فماذا أتابع، وأي مهمة أنقذ؟.."

خرج شبق من أفكاره كأن أحداً ناداه. التفت نحو يجمت على يساره، ونحو الفرسان الذين وراءه. لا يُسمع إلا نخيرُ الأحصنة التي تسير ثلاث ووقع حوافرها. والفرسان الأديغة الذين يغلب على جمعهم السواد تلعب الشمس الحادة فوق خناجرهم وظروف أرديتهم. وتغلب على الفرسان الذين مشوا الشهر الأول من الصيف بوجوههم المكشوفة وقلوبهم المتلهفة السرعة والنشاط كأهم في بداية الرحلة.

سأل شبق نفسه حزناً: "ما الذي يحث هؤلاء، ما أملهم؟". وفكر في ما ألم صدره: "كم من هؤلاء سأترك حيث نحن متجهون؟ واحداً أم اثنين أم عشرة؟ - ثم نهر نفسه على ما خطر لرأسه ولم ينتبه إليه: "هذا ما يحدث إن لم تنظر

إلى الأمام!.. كان عليّ اصطحاب حاتاي فأكسب المديح بدلاً من أن أنشغل بالقتل والجريمة. كنت أعلمتُ من أزورهم أنه ابن أمير فاستبقوه وبقي هو برضاه. أو طلبت استبداله، وهو الذي سيكون جندياً صالحاً، بكتاق الذي كفى ما خدمه في جيشهم وسيكون مفيداً في الجيش الذي نؤسسه. ما الفائدة الآن وقد فاتنا رأس الحصان؟ لا بأس الآن أيضاً، فكرة جيدة سأتابعها فور عودتي إن لم يسبقني ابنتي وخدم الدار فلحقتهُ بنيتي. وهل تركتُ أفمق مكاني عبثاً؟ لن يسمح لهم أن يخطوا خطوة زائدة. لن أغفر لمن يفعل هذا أو يحرض عليه، بمن فيهم قلقته. في الشر يكمن خيرٌ ما، حسناً خطر لي تبديل الرجال ففرضته عليهم. من يا ترى سيحل محل ولدي؟ كلهم جديرون باستثناء بجمت. الأديغي حرّضه على أمرٍ، دعه يقاتل من أجله، أو يفعل الخير لأجله، واحرمه من الطعام إن أردت. وبجمت الذي قضى عمره معي ليس أحسن منهم. قلتُ إنه لا يُقيم عاجلاً قاعداً من أرضه، وله مظهر الأنبياء، فإذا به يتسبب في مقتل رجلين ويعود. يبدو أنه لا يجوز الوثوق ببجمت القصير الرقبة..."

نشأ شبق منذ طفولته متميزاً بالذكاء والنشاط بين أقرانه. وكان يتقدمهم في كل الألعاب. وفي لعبة الغميضة يظنون يبعثون عنه حتى يتعبوا ويتركوه إلى أن يظهر وحده. كان خبيثاً كالثعلب، وكلباً لبيباً يجري في الطريق الذي يختاره، وعيناه عينا قطّ... والآن لم يجد طوال شهر كامل عن طريقهم. ولم يدعهم يشكّون في صحة اتجاهه. وبجمت يتظاهر بالصمم والبكم ولكنه كمن يحمل مئة عين ومئة قلب. يجلس على سرجه قصير الرقبة كمن اطمأن على طريقه الأزلي. لم يسأل خلال الشهر كله إن كانوا ضلّوا الطريق، ولا سأل عما بقي أمامهم. والحديث الذي لا يملّ منه هو لطف المناخ حيث يتجهون بالقياس إلى بلادهم.

- يبدو من كلامك يا بجمت أن هذه الناحية تعجبك أكثر من غيرها.
 - نعم يا أمير، في صدري مزيد من الهواء كأن أجنحة نبتت لي. ابتسم بجمت في وجه الأمير. - وأنت ما حالك يا أمير؟ هل أنت مثلي؟
 ضحك الأمير قائلاً: "متى دنت نهاية النمل نبتت له أجنحة. ثم ارتعب في نفسه مما شبّه به نفسه: "أيُّ اتهام كبير يخطر لي نحو هذا الرجل؟ لماذا أصرُّ

على ما لم أجد فيه إلى الآن؟ لماذا أقرصه به؟ هل اصطحبته لأحقد عليه؟.."
كان يشك في مصدر ضيقه وقلقه، ولكنه غير الموضوع خائفاً من محادثته
بصراحة:

- الريح أسرع هنا يا بجمت. ولكن كما يقال: متى ضاق القلب جرى
الحصان، هناك قلق غامض يجتاحني رغم أنني مرتاح لما ينقص من طريقي. لا
أكتم أنني أفكر في ما صار إليه ولدي، ولا يهمني ما أمامي ولكن يُحِيلُ إليّ أن
أحدًا يلاحقني. وليست ابنتي... اعتبرها تقيم في السياج الحديدي لأففق
والسيدة الأولى! - خدع شبق نفسه، ولم ينطق صدقاً.

- والله وأنا يتملّكني هذا الشعور يا أمير.

- هذا ما يحدث لنا، - تنهد عميقاً، ثم أنهى بنيرة مرحلة. - سأخبرك إذن بأمر
نجهله أنت وأنا: هل سمعتمهم يقولون: الفأرة إن نبت لها وبر كثيف زاد شعورها
بالبرد؟ أنا، لا أنت، من أظنه يحدث له هذا.

- سمعتُ مثل هذا يا أمير، - توجه بجمت إليه برأسه المستدير وألقى نظرة
تعني: "ما الذي فكّر في الصيف الحار بالفأرة التي تشعر بالبرد؟" ثم ضحك
ببراءة، - أظنني أجدر بهذا القول. مهما أدخلتُ رأسي في القبة عجزتُ عن
تدفئة الرأس الأصلع.

- أنا تحدثت عن الشعر الكثيف، ولم يخطر لي الرأس الأصلع يا بجمت. لستُ
ممن يُغبط على الشعر الكثيف. متى شعرت بالحاجة إلى الكلام خطرت لك
مثل هذه الأفكار. لا أعرف لماذا خطرت لي الفأرة المنحوسة دون سبب. -
تراجع عن القلق الذي يعصف به، ودان نفسه بقول مأثور آخر: - قذف
الحروف لِيَتَّه إلى الأعلى فسخرت منه العنزة؛ هذه حالي الآن... حسناً
لنتحدّث في خبر سارٍّ فننصب به سلماً على الطريق.¹

كانت أخبار "السلم" التي تقصّر الطريق ترنّ في أذني شبق، ولكنه كان
على "سلم أفكار". وأحياناً يُحِيلُ إليه أن هذا السلم يرتفع إلى السماء مباشرة

¹ يُقصد بنصب السلم ترجية الوقت بحكايات أو ألغاز لترجية الوقت والتغلب على

صعوبات الطريق.

دون أن يستند إلى جدار أو شجرة. يمسك السلم العمودي بيديه هو. والساقان المرتعشتان ترجّان السلم ولكن سلماً آخر يرفع ساقيه. لا يعرف إن كان سيتحمّله ولا إن كان مقابلّه. قائمتا السلم تكادان تعتمدان على الأرض في حين أن الأطراف في الهواء...

يعيد الأمير التفكير في حاله بقلب متلهف: "حسنٌ أن تكون أميراً كبيراً، وأن يذكرك الناس بالخير. لا شيء يعدل أن تبرز بين من تعيش بينهم، وأن يُمسكوا بزمّام حصانك فتركب، وأن يُفسحوا لك صدر المجلس. ولن تصل إلى منصب كبير الأمراء وأنت لست أميراً. ولكن لماذا أوطّ نفسي دون أن يجبرني أحد؟ ما العجيب في أن يقدمني الجان عليهم؟ عاش قبلي كثيرون من أمثالي، وكان يظهر لهم أعداء، وينهبوهم، إلا أنهم عاشوا، وربّوا، واشتغلوا. وأنا غير مرتاح منذ سنوات. يسكنون على أفضالي، وينشرون أخطائي. لأجل من أفني نفسي؟ من أجل الأمراء؟ من أجل الفلاحين؟ حين كان الأميران تاخ وفواخ يحارباني جاء الناس الساكنون عليهما كأن في أفواههم الماء بقلقت الذي لا يعرف أحد أصله، وبوّؤوه الساحة، وسمحوا للفلاحين أن يرفعوا رؤوسهم. وأنا أفني نفسي من أجل الفلاحين الذين ينوون اقتلاع جذر إمرتي، بمن فيهم هذا الذي إلى جانبي، راكضاً إلى خان القرم وإلى روسيا. ثم إنّ أعجب شيء هو أنني قبلت بمهنة الرقص على الحبال. عليك أن تمرّن جسدك ورجليك لتتمكن من السير على الحبل المشدود. وأنا حين قطعْتُ الأمل قبل أن أتمكن من السير على الحبل هُرعت إلى هذه الناحية بحجة أن الأعداء ينهبوننا. لا أعرف إذن ما الذي لا يدع خان القرم يهدأ؟... ألم تكن تعرف أن السيل سيغمرك أنت أيضاً؟ لماذا لم تكن تدعنا نعيش في أمان أيها الخان العنيد؟.."

ارتسم الجامع القائم على معبر بحر آزوف أمام عيني شبق. لم يكن لقاءه بدولت - جري جديداً ولكنه لم يستطع أن ينسى عينيه كما في اللقاءات الأخرى: كانت تتوسلان إليه، وتنصحانه، وتلومانه. ومهما تظاهر لم تستطع عيناه الثعلبيتان الصفراوان إخفاء خبثه وظلمه. صاح شبق في نفسه ساخطاً: " ما يشغل بالك يشغلنا أيضاً. ولكن لن أسمح لك أن تحدعني معتبراً إياك تعبّر عما في نفسي. ما يحثني على الإسراع نحو قيصر روسيا - لا أتوقع منه أن يقدّم لي

شيئاً- هو ولدي. هل استقر بينهم أم لا يزال غير قادر؟ منذ أن عرفت أن الابن الأصغر للأمير تيمرقوه معه اطمأن قلبي نوعاً ما. أقول: "معه"، ولكن لا أعرف الحقيقة تماماً. بأيّ عين أنظر في وجوه الأديغة إن تبين أن الاتفاق السري بين روسيا وتركيا صحيح. وكيف أعيش بينهم؟.. "مرة أخرى خطر له القول المأثور الذي نسيه: "المستعجل يتأخر، وغير المستعجل يصل باكراً". ولما التفت بقلبه إلى قريته فَنَشَقَّوه وصله موج البحر الحزين. وطرق سَمْعَه صوت المطرقة والسندان في محددته. وعادت إلى مخيلته صورة أفمق وقلقت يسقيان السيف معاً، فنهر نفسه على الارتياب الذي غزا رأسه: "التوجس من قلقت مشروع، ولكن هل فقدت الثقة في أخي؟!"

ليل الصيف قصير ولكن الأحصنة نشيطة في الصباح، تنثر وقع الخوافر وراءها. بدأت الشمس تلسع مع ارتفاعها. عبروا أراضي محروثة وقرى كثيرة. والناس المتابعون لهم بنظراتهم، والآخرين الهاربون، ليسوا قلائل. وتعرف من ظهور المدن أن موسكو ليست بعيدة. أخبر الأمير رفاقه أنهم متى ارتقوا المرتفعات التي تظهر من بعيد اقتربوا من موسكو، ولذلك يتسلقون المرتفع مرحين.

أجفلَ الفرسانَ الدخانُ الأسود الذي غطى السماء حين دخلوا عمق الغابة إذ أحسوا بمصيبة وراءه. ومن أعلى المرتفع بدت من مسافة غير قريبة ولا بعيدة موسكو التي تحترق. ألسنة اللهب تتطايرُ والدخان يلتفّ ويتوسع ويصعد إلى السماء. ورنين الأجراس الحزين يخيم على المدينة.

- موسكو تحترق!.. - صاح شبق الذي وقف على قدميه في الركاب. - عجيب والله!.. ها هم الناس أيضاً يخرجون فزعين...

- المدينة الرائعة تحترق، هل هذا ممكن! - قال بجمت أيضاً بعينين مرتعبتين، ثم نادى رفاقه: - دعونا ندعو إلى الله أن يحمي الأمير كُتْناق.

رفع الفرسان المئة أيديهم ودعوا باللغة العربية التي لا يعرفونها، وبلغتهم، أن يحميهم ويحمي من يزورهم. ثم قال الأميرُ مُسمِعاً الجميع:

- الأمير كُتْناق لا يعيش في الجهة التي نشب فيها الحريق. هل ترون ذلك المرتفع الذي عليه الأبنية الرسمية؟ هذا هو مقر قيصر روسيا، والولد يقيم هناك. تعالوا؛

قالوا: حمل العصفور الصغير الماء حين شَبَّت نار هائلة، ونحن نساعدهم بقدر طاقتنا.

لم يسأل أحدُ رجال الأديغة الذين وقفوا في وجه النار ظهراً ومساءً وفي الصباح التالي. كان الجميع مشغولين بنقل الماء في الدلاء. وفي الصباح حين هدأت النار، واطمأن الناس سأل رجل أشقر ضخماً بجمت:

- مَنْ هؤلاء ومن أين؟

زَمْ بجمت كتفيه يعني أنه لا يفهم كلامه، فابتسم الآخر كمن يرحّب به، وردّ عليه بجمت بلغته:

- هل تريد شيئاً؟ ألا تخاطبني بما أفهم يا مبارك النسل... - وأجابه وهو يتناول منه كأس الماء: - نعم، سأشرب، شكراً، هذا "بَسِه، بَسِه"، هل فهمت؟ يشير إلى الماء ويكرر.

- "فودا، فودا" - فهم الروسي الكلمة الأديغية.

- ماذا يقول لك هذا الرجل الضخم يا بجمت؟ سألَه الأمير.

- تفاهمنا، الروسي وأنا، يا أمير. وشرب معي كأس ماء.

- كان حسناً لو تعلّم غيري أيضاً شيئاً من الروسية؛ كانت مهمتي تسهل، - مازح الأمير بجمت، وقَدّم نفسه للروسي دون مصافحة: - أنا قنشقوه شبق، آتي من القفقاس.

- هل أنت والد قنشقوه كتناق؟! - فرح الرجل بما سمع، وأضاف بسرعة: - كتناق يخدم في جيش فيشنيفيسكي. أنا إيفان بوغوشاروف، أخدم في الحرس القيصري، المعاون الأصغر للقائد.

قطع أحد الرجال القادمين على عجل كلام شبق وبوغوشاروف:

- حدث معنا يا أمير شيء معيب!

- ما الأمر؟

- ضاع منا ثلاثة أحصنة.

- أين؟

- سُرقت منا في الليل ونحن مشغولون بالحريق.

- هل هناك ما يُقلقكم؟ - سأل بوغوشاروف الأشقر. وأجاب باختصار على ما سمع: - لا تقلقوا، لن يخرج اللصوص من المدينة. ستجدونها إلى المساء. وسترون اللصوص على الأعواد.

فرح رفاق شبق حين ترجم لهم كلام بوغوشاروف. وحده بجمت غمغم:
- كنت أعرف أنه ليس بين الأديغة من لا يسرق ولكن إذا كان بين الروس من يفعل هذا فرحلتنا بلا جدوى... - ثم قال لأميده محاولاً التمويه على مثلبة الأديغة: - لا تترجم هذا لصاحبك. متى عثرنا على خيلنا تكلمنا في الموضوع. في المساء المبكر جيء للأديغة بخبرين: الأول محزن، والآخر سارّ. سأل بوغوشاروف بأيّهما يبدأ، ابتسم شبق:
- ابدأ بالأسوأ، ونجعل الآخر تحلية.

- كتناق ودودارقوه غائبان. هما في حرب ليفون مع القائد فيشينيفيسكي. أخفى الأمير الكبير تأثره بغياب ابنه. وسأل دون توقف عن من لم يذكر اسمه:
- وشيوتيف، وبليشيف قائد الجيش؟

- غائبان أيضاً يا أمير، شيوتيف في نواحيكم، لا أعرف ربما في تركيا. وبليشيف في أسترخان.

مازح شبق من جاءه بالخبر رغم ما يصطرع في قلبه بعدما قطع كل هذه المسافة، قائلاً في نفسه: "المستعجل يتأخر":

- يبدو أنه لم يبق في موسكو من معارفنا غيرك والقيصر... إلى من إذن سيكل القيصر الذي أرسل في طلبنا مهمتنا، من سيصلنا به.
- لا فكرة عندي يا أمير.

- حياك الله، وهذه من أحسن الفضائل التي يتحلّى بها الإنسان. والآن ننتظر الخبر الثاني. أوحيت إليّ أنكم عثرتُم على الأحصنة، فقل لرفيقي الأسنّ مني، سيفرح به.

- جحظت عيناً بجمت مما سمع:

- ما أسرع ما وجدوها!.. والله لو ضاعت عندنا لما وقعت عينك عليها إلى الأبد... من جئت بنا إليهم يا أمير أقوالهم وأفعالهم متطابقة.

- ويقول إنه لم تسقط منها شعرة من أعرافها...

دخل إلى الغرفة شاب أديعي جسيم يلبس زياً أديعياً، وحياهم بانحناءة:

- مرحباً بكبارنا!

- نخض شبق وبجمت للشاب. وسأله الأمير عما توقّعه:

- إن لم أخطئ فأنت ابن الأمير الكبير تيمرقوه. صحيح؟

وفي ظهيرة اليوم التالي زار الشاب القبرتاي الأمير شبق. وأخبره بدعوة القيصر للأمير الجانيه الكبير.

- لم أتوقع أن يتيسر اجتماعنا بهذه السرعة. - بدأ شبق يستعد للقاء، وأمر بتجهيز حصانه.

- لا حاجة للحصان يا أمير. - أنا جئت بالعربة، - استعجل الأمير الشاب سلطان.

- ومن أصطحب معي؟ - سأل شبق، وأفهمه اعتداده بنفسه: - هل أمثل أمام القيصر وحيداً؟

- لن تكون وحدك، أنت وأنا معاً.

- إن كنت سترافقني فلن أمثل أمام القيصر، بل أمام الله. - ظن شبق أنه يعبر عما في نفس الأمير الشاب، غير أن ما سمعه شيء آخر:

- ليس الله إلهي أنا يا أمير. - رسم سلطان الصليب، بل من يحمل عنا آلامنا كلها: المسيح!

- وأنت نصّوك وعمّدوك يا ولدي؟ سأل شبق حذراً.

- لا إكراه في هذا يا أمير، - مرة أخرى رسم سلطان الصليب، وقال جازماً:

- اعتنقتها مقتنعاً بعقلي وقلبي. وسمّوني ميخائيل. غير أنني لم أتحلّ عن أديعيتي.

- ماذا بيدنا، - تنهد شبق، - ليس سهلاً أن توطّن نفسك على الواقع.

وسمعت أن ابني أيضاً فعل هذا فلا أعتب عليكما إن لم تفعلوا مضطرين ولم تتخليا عن أديعيتكما. لا بأس في هذا يا بجمت، اليس كذلك؟ - قال لنفسه

وكأنه يخاطب رفيقه، - ونحن أيضاً كنا يوماً مسيحيين... لماذا قعدنا إذن؟ أنا

جاهز إن كنت أنت جاهزاً. هل يكون هذا الكساء وتوابعه على قياس القيصر

يا ترى؟ طلبت خياطته على التخمين. - ولما نخضا لم يستطع إلا أن ييوح بما

كان يشغل باله: - يا ربي، كيف سيتعامل معنا القيصر الروسي؟ في المرة الماضية انتهى لقاؤنا بسرعة وهو جالس ونحن واقفون.

اكتفى الأمير الشاب بالابتسام ولم يعلّق على كلام الأمير. العربة التي أرسلوها إلى الأمير ناعمة، مكشوفة، مزينة بخطوط الذهب والفضة. والحصان الكستناوي المربوط إليها يلمع. وإلى كل جانب رُبط حصان أزرق وأجراس. وأمام العربة التي تصدر ضجيجاً وتلفت انتباه الناس فارسان، ووراءها ثلاثة. ورغم حرارة النهار فالهواء الذي يخترق العربة من جانب إلى آخر يبرّد الوجوه، وينعش القلوب. قال الأمير لنفسه: " لا بد أن أقتني مثلها متى رجعت. إذا كان لقيصر روسيا وخان القرم وسُلطان تركيا مثلها فلماذا لا أمتلكها؟ وزعيم القوموق لا يستهين بنفسه فهل يكون عنده مثل هذه؟ الأديغة هم الوحيدون الذين خلّقوا لا يعرفون كيف يرقّون عن أنفسهم. همّهم أن يقدّموا لغيرهم، لا لأنفسهم. ولا يلتفتون إلى أرضهم وناسهم... وهذا الجالس إلى جانبي، وولدي الذي يحارب في ليفون، والأمير دودارقوه من هؤلاء. وأنا، ووالده تيمرقوه؟ هل نحن أحسن منهم! نركض كما يقول قلقت إلى قيصر روسيا الذي يحمل على ظهره كل هذه البلاد المتنافرة وهُنا: هل سيسمح لنا بالجلوس أم لا... "

حين اقتربوا من شارع أرباب الذي أحرقتة النار الهائلة، والتي أسهم الأديغة في إطفائها، أخرج شبق من أفكاره ما رآه:

- النار نار أينما كانت. إن لم تحذر منها فهي مصيبة كبيرة. سببت خسائر فادحة للمدينة.

- نعم يا أمير، - أجب الأمير الشاب سلطان. - في كل صيف تسبب خسائر لموسكو. وهذا العام، كما العام الماضي، كان حريقاً هائلاً. لا يعرف الناس الحذر من النار.

- النار والحرب سيّان. - لم يستطع شبق إلا أن يشير إلى الحرب التي تشغل باله، - لا يجوز الاستهانة بأيّ منهما. ولا أظن أن القيصر الروسي لا يفهم هذا... ما ذنب هؤلاء الناس الجالسين على مؤخراتهم فوق تلك العيدين؟ - سأل شبق لا يعرف تفسيراً، وقد فهم من تدلّي رؤوسهم أنهم فارقوا الحياة.

- هؤلاء؟ - التفت الأمير الشاب كأن الأمر غير مهم، - وأطلععه على حكايتهم بصوت يخلو من أي رحمة: - الثلاثة الأوائل مارسوا الجبن والخيانة في حرب ليفون، والاثنتان إلى جانبهم هما من أشعلا الحريق، وقد أرفقوا بهم من سرقوا أحصتكم فأقعدوهم هذا الصباح على الخازوق. ليس بينهم من يستحق الشفقة.

- برّيك هل هذا معقول؟.. لأول مرة أسمع أن إنساناً يُعدم على الخازوق عقاباً على سرقة حصان.

- هذا هو القانون عندنا بحق المجرمين. لا يجري شيء في البلاد دون علم قيصرنا ورايه.

أصطحب شبق إلى الكرملين بطريقة تختلف عن المرة الأولى. ودخلوا به إلى قاعة العرش من طريق آخر. نهض لقيصر إيفان الرابع للضيوف الأديغة، يرتدي معطفاً ذهبياً لماعاً، وقبعة عليها صليب ذهبي، وبيده اليمنى الصولجان. وبعدما تبادل الطرفان التحية بانحناءة من الرأس أشار القيصر لشبق بالجلوس على المقعد الوثير مقابله. ولكن الأمير قال قبل أن يفعل هذا:

- يا قيصر روسيا وقازان وأستراخان والنغوي وجوارها، نعلمكم باسم الأديغة الذين جئنا من عندهم حزنهم على الضحايا البريئة التي سقطت في حريق عاصمة العواصم موسكو. - دعت التعزية التي قُدِّمت القيصر إلى النهوض. - ندعو لكم ولأهالي الضحايا أن تكون خاتمة الأحزان. وربما ما كنتُ قلت ما قلت أيها القيصر الطيب لولا أن الحياة مرّبة من الأفراح والأحزان. ولم نأتكم بأيدي فارغة. وقد رأينا من المناسب إهداءكم هذا الزيّ الأديغي، فتأمل منكم قبولها.

- شكراً يا كبير أمراء الجانيه شبق. ندعو إلى الله أن يستدعي إليه أرواح من قَصّوا في النار. وقد أزهقنا أرواح المجرمين. النار نار لا تسأل عن أصل أحد. وقد سرتني أنكم شاركنم في إطفاء النار. وإذا قارئنا الموضوع الثاني من جهة أخرى، ولأن اقتران الفرح بالحزن صحيح، فأشكركم على هديتكم. وإن كان زِيُّكم على قياسي فسترونه في اجتماع آخر قادم عليّ.

سأل القيصر عمّن يمثله الوفد، وعن طريقة وصولهم، وطريقة استقبالهم، وعن كل ما يظنهم يحتاجونه. ولم ينس شبق ما يجب أن يرد به في هذه المناسبة.

- لم تسأل عن ولدك، - قال القيصر، - ونحن نتكلم كل هذا الوقت يا أمير الجانيه الكبير الصبور.

- تبعاً لعاداتنا أيها القيصر العظيم، - قال شبق لنفسه: "كنت أنتظر أن تأتي على ذكر ولدي"، - نظر بعين الودّ إلى القيصر. - لا يليق بي أن أسأل عن ولدي أو أتكلّم عليه. يولي الأديغة أهمية كبيرة لتربية الولد. سألتني أيها القيصر فأجيبك: ما يُقلّقني هو: هل من وقع بينكم انسجم معكم، هل يسمع كلامكم، هل تبدو منه تصرفات صبيانية، هل يتمتع بالصدق والثبات، هل يشوه سمعة الأديغة؟ واسمح لي أن أتصرف معه تبعاً لتقييمك.

ابتسم القيصر مرتاحاً ورفع رأسه وقال دون أن تحتلج فيه عضلة:

- سأجيبك يا أمير الجانيه الكبير على كل ما يُقلّقك بكلمة واحدة: أنا راضٍ عنه، - سكت لحظة، وأخى بوجه أكثر انشراحاً: إن كنت تريد أن تعرف حلاوة كلمتي الوحيدة فإنّ ألكسندر كناق بن شبق يتمتع بالصدق والالتزام والإنسانية. كان من أوائل من طلبوا الالتحاق بالحرب حين أجبرونا على استئناف حرب ليفون. يبدي رجولة، ويدافع عن وطنه، أشكرك على ولدك الشجاع.

- تخرجني أيها القيصر العظيم، إنه أصغر من أن يمتدحه رجل عظيم من مقامك. شكراً، لم تنتقص منه إن لم تبالغ في مدحه. لن نتكلم أكثر على ابني. وعدتني أن أذهب بفرساني إلى الجهة التي هو فيها فسنرى مبلغ رجولته.

- يسرّني يا أمير الجانيه الكبير أنك التزمت بوعدك في شأن الفرسان المئة الأديغة. لن أخفي عنك سبب رغبتني في إشراك الأديغة في حرب ليفون: ليس لأننا نحتاج إلى رجال وقوة بل ليعرف الألمان والشليات والأسطونيون أن الأديغة إلى جانبنا. لا حاجة لأن تكونوا في قلب المعركة، يكفي أن يروكم.

- الكلمة الأخيرة يا قيصر روسيا العظيم، - بدا من صوت شبق ومن نظرتة عدم رضاه عنها، - اعتبر نفسك لم تقلها، وأنا لم أسمعها. لم نأت إلى هنا

لنجتريح البطولات. متى ما امتشقنا سيفنا ضد عدوك فلن نغمده إلا بشرف.
متى سنركب الطريق أيها القيصر العظيم؟
- امنحوا استراحة لرجالكم وخيلكم. هل تكفيكم مهلة أسبوع؟
- تكفي.

- سيسلمكم بوغوشاروف إلى قائد الجيش فيشنيليسكي عند مارينبورغ.
وسيكون إيداروف ميخائيل - سلطانوف الشرکسي مترجمكم. هل عندك سؤال بعد؟

- نعم عندي أيها القيصر، - أجاب شبق وقد تحقق له ما كان يـُـجـل أن يقوله. - يسرني أننا تحدثنا صراحة ولكي لن أکتـم ما يقلقني ويقلق الأديغة.
بلغنا أن روسيا وتركيا عقدتا من ورائنا اتفاقاً سرياً.

ضحك إيفان قيصر روسيا بصوت عالٍ يمّوه على الخبر الصريح الذي سمعه،
قائلاً في نفسه: "ينتزعون منا أسرارنا"، وأعاد إلى ضيفه السهم نفسه:
- وأنا يمكنني يا أمير الجانيه أن أسألك السؤال نفسه. - هل صحيح أن خان القرم وأمير الجانيه الكبير اجتماعاً عند معبر بحر آزوف؟

- صحيح أيها القيصر، - أجاب شبق إجابة لم ينتظرها القيصر. - كان ما يُـقـلـقنا يقلق خان القرم أيضاً فاجتمع بي. نحن لا نتفق مع أعدائنا.

- إذا كانت القرم مع تركيا، وكانت روسيا عدوها الأزلي، - فليقلق، ولينتفح
لحيته وشاربيه. - قال القيصر وهو يضحك في سرّه، "الأديغة لا يزالون كما خلقهم الله، أجاب جواباً مختاراً على سؤالي دون أن يحيد عنه، وبما أن كل صادقٍ يسهّل خداعه فيمكن التعاون مع هؤلاء" - لا تصدّقوا الإشاعات التي يطلقها القرم وتركيا. لا تسمعوا لمن يقفون وراءكم يضلّلونكم في الوقت الذي تمد فيه دولة عظمى كروسيا يدها إليكم. عيشوا رافعي الرأس، لن نسمح لأحد أن يهينكم. متى انتهينا من حرب ليفون وانتزعنا بحر فارياجسك الذي كان قديماً للسلاف فسنهزم القرم وتركيا اللتين لا تتيحان للأديغة العيش بسلام وسعادة في ظل الحرية. - أجاب بكلام من خارج القلب، نهض القيصر هنا ملقياً على الأمير نظرة ودوداً تعني انتهاء اللقاء.

نفض أمير الجانيه قائلاً لنفسه: "من الذي أوصل السر الذي كتمناه أنا وخان القرم قبل أن أصل إلى هنا؟"، متخطياً بصعوبة السر الذي يحتفظ به هو لنفسه، ولا هم إلا سفره إلى حيث ابنه، لا يعرف إن كان لا يزال حياً.

II

الجوّ صاح تماماً في ناحية البسلني شمال القفقاس. كان البرق بدأ يلمع من خلال السحب البيضاء - الحمراء وراء الجبال المترابطة جهة البحر الأسود، حين ارتقت مجموعة فرسان الأمير أبشق مرتفع حَشْتِغِيه: - انظروا لحظة جهة البحر الأسود! - شدّ الأمير أبشق زمام الحصان فسمره. - الصاعقة تلعب من وراء السحب، وها هي تمزق قبة السماء. وتنغرز في قلب البحر كالمح. يسعدني هذا الرمح المنفلت. ويخيل إليّ أنه ينغرز في قلب أحد أعدائي.

لا يعرف الحارس دداي - قان سلوك الأمير: " لا أتذكر أن الأمير كان يحب البرق - الصاعقة. أعرف أنه يفضل ضربة السيف على دوي الرعد. أيكون لأنه لا يسمع صوت الرعد؟ الأمير خبير بأسرار الرعد ولكن قرية حَشْتِغِيه ليست قريبة كما يتصور. والسحب تندافع نحو الجبال... " ثم سأل الحارس يريد إفهام الأمير ما يرغب فيه:

- يا تاوتاش، أنت حادّ السمع ألا تسمع دوي الرعد؟
- أيّ دويّ رعد يا دداي - قان؟ السحب تنحرف نحو تركيا. - عارض تاوتاش، ثم أنهى راغباً في التودد إلى الأمير الذي كان نهره لأنه أطعم الحصان من الشوفان بعد الحشيش الرطب فصار يطلق الريح من ورائه فيلوث الهواء: - كان الأفضل أن تتجه السحب إلى الشمال من أن تتجه إلى الجنوب.
- الجهة التي تريد من السحب أن تتجه إليها يعيش فيها الأديغة الجانيه. - قال حارس آخر. وتعلّق تاوتاش بهذا الكلام كما يريد:

- هل الجان أديغة؟

- وهل نتكلم لغة واحدة إن لم يكونوا أديغة؟

- لا تُسمِني لغتهم العوجاء!

- فكروا في ما تقولون في حضرة الأمير الكبير يا تاوتاش. - نصح دداي -
قان من اختلفوا في شأن الأديغة.

- دعهم يتكلمون، دعهم! - لا يقول من قروخما متشابكة ما لا يجوز إلى
الآن. - أيد أبشق الرجلين المتناحرين، وصاح: ما أجمل الطبيعة! الشمس مشرقة
وقمم الجبال بيضاء، والغابات تلتف حول الجبال صاعدة نازلة، ليُكمل أحدكم
أشعاري!

- زبد أنهارها جيش بالملات، تترمي بأصوات الفضة، وأرض القوموق صحراء،
وبراري الكفار مطيرة، أجمل الأراضي أرضنا... - أسكت الأمير دداي - قان
الذي كان يلقي بملء فمه وبصوته الهدار:

- كفى! ستصيب أرض البسلني التيهي حدود أرض الأديغة. حتى دون هذا
تسعى جماعة مشقوه إلى التلوث بمخالطة الكفار. وفي عين أمير الجانيه أبشق
شيء كالذي في عين الأمير تيمقوه. لا يفارق طريق موسكو. يقال إنه ساق
إليهم جيشاً من الفرسان. ولكن من سيأتي بعده يمكن أن يكون أضعافه
بالمئات... ليعرف مشقوه أي وطن أرض البسلني ولكن لن أنزل في مضافته
فأجعله يتباهى. ما اسم هذه القرية التي دخلنا حدودها؟

- حشّغيه يا أمير. - أسرع تاوتاش بالجواب.

- أي اسم هذا؟! الفم يخجل أن ينطق به! - ضحك الأمير أبشق، وكيف
تنطق نساؤهم الاسم؟ اسمها الحقيقي حفتغواي¹ - ثم وجه إلى الحراس سؤالاً
يوقف ضحك الحراس الذين استمتعوا بالاسم: أليس في القرية أمير؟
لم يدع دداي - قان العارف بكل ما في أرض الأديغة من أماكن، الأمير
ينتظر:

- هذه قرية الأمير جامبج، جئنا مرة من باقسان لسرقة الخيل.

- ماذا جرى معكم إذن؟ لمعت عينا الأمير أبشق.

- سرقنا ثلاثين حصاناً.

- هي قرية صغيرة إذن.

¹ عضو الكلب.

- الأمير جامبج يراها كبيرة، ويرى نفسه كذلك.
- لم أكن أنوي التوقف في القرية التي تحمل اسماً تافهاً، ولكن هذه السحب التي لا تستطيع قمم الجبال أن تمزقها لا تنوي خيراً. سيتوجب علينا النزول في مضافته. هيا يا تاوتاش، اسبقونا وأخبروا الأمير جامبج أن يستقبلنا. لا داعي للعجلة الآن. سنتبعكم على مهل.

نزل الفرسان بقيادة الأمير أبشق الذين ينتظرون استقبال الأمير جامبج لهم، ودخلوا المضيق. وفجأة، وهم في تخوم القرية، غطت السماء السحب التي كانت تعبر قمة الجبل. وأظلم عالم البسلني. ثار الخريف العنيف، ومع البرق والصاعقة أطلق الرعد المطر. وأفزعت حبة البرد الضخمة التي سقطت على الأمير وانزلت، الحصان فأسرع لا يلوي على شيء.

- يا دداي - قان اسبقنا إلى دار الإمارة!

الصاعقة تلمع، والرعد يقصف. والبرد المصحوب بمطر خفيف يتناثر بصوت مسموع. والخيول تحني ظهورها. وتراجع بأعناقها. وتنخر. وتنزل إلى الأطراف. ألقى أحد الحراس كسائه على ظهر الأمير. حبات البرد المستديرة بحجم بيض الحمام وأكبر لا تتوقف. يلقي الأمير الذي سال الدم من وجهه زمام الحصان إلى دداي - قان، ويسرع إلى المسطبة. ويسرع به رجالان إلى داخل الغرفة.

- أنا لا مشكلة عندي... هذه مصيبة كبيرة، دعونا ندعو إلى الله... - يسمح أبشق وجهه، ويرفع راحتيه الضخمتين الملوّثتين بالدم، ويبتهلون إلى الله واقفين إلى جانب النافذة.

جرى هذا أمس.

والآن يجلس أبشق في المضافة مع الجار العجوز بات، ومع المضيف الأمير جامبج، وقد شُفيت الخدوش على وجهه.

- لا تؤاخذني يا أمير، - قال جامبج مرة أخرى شاهداً على امتعاضه، - على قلة من يزورونك، الناس يعالجون عواقب البرد.

- أنا لا مشكلة معي يا أمير، - مد أبشق جسده نحو المرتفع العريض الذي سقط عليه البرد، - نحن خبّرنا كثيراً من هذه المواقف ونجونا. وبفضل أعشابكم الطبية يشفى جرحي، سنتابع غداً إن شاء الله طريق القرم. يحزني أي جلبت

معي البرد في أول زيارة لي إلى قريتك الرائعة. سيعتبرني من يعرفني ومن لا يعرفني منحوساً.

- لا يخطر لك مثل هذا أيها الضيف. - ردّ عليه العجوز بات وهو يعيث بالعصا المزخرفة بالفضة، - البرد مسألة إلهية، لم يبدأ بك ولن ينتهي. اشكروا إذ نجوتم سالمين. لنبتهل إلى الله، ثم إني سأخبرك بأمر لا تعرفه يا أمير. نخوم قريتنا مسقط للبرد منذ الأزل.

- نعم هذا هو، - وافق الأمير جامبج جاره العجوز. وضحك ضحكة خفيفة، - قد لا يكون فخراً لنا ولكننا صرنا نشناق للبرد إن تأخر.

ما يسمعه أبشق مع فراغ المضافة يعكّر مزاجه: " ما هذه القرية التي دخلتها؟ اسمها وحقيقتها متطابقان" - لا الأمير البدين الجالس أمامي، ولا العجوز الذي يلعب بعصاه يعرفان كيف يفتحان حديثاً. وهل عجيب إن سقط عليهم البرد؟.. هذا جرى أمس!.. هذا النهار مضى دافئاً مشمساً. أعقب النهار الماطر نهائاً صاح... وموائدهم المتعاقبة دون باخسمة... هل سقط البرد على خزائهم الخشبي؟ - لام أبشق المضيف وما على لسانه غير ما في قلبه:

- يا أمير جامبج، لا تؤاخذني، لي عتبٌ عليك. لماذا تدع قريتك تقيم في مسقط البرد الأزلي؟ لماذا لا تجد مكاناً آمناً؟

- هذا سهلٌ كلاماً يا أمير، ولكنه صعب التنفيذ. قال بدلاً من المضيف الضيف العجوز الذي أوقف العبث بعصاه: - المكان الذي نأسي لأجله اختاره لنا أجدادنا. ربما كان البرد يزعجهم كما نحن. ومن المؤكد أنه كانت تأتي سنوات تغرق فيها بالمطر، وأخرى تعاني من الجفاف، ومن المحل. إذا لم يستطيعوا استبدالها فلن نستطيع نحن ولا أولادنا. فيها قبور أبناء جيلنا والذين ماتوا شباباً. الشمس التي تشرق علينا كل يوم تمثل حصتنا من السماء، وقمم جبالنا، وغاباتنا، ونهرنا. ما قيمة البرد؟ إن سقط نبت ما آذاه من جديد. ماذا يقول أجدادنا؟ ما تهجره يلعنك. اغفر لي يا ضيف، أسهبت في الكلام لأن ماء بغري عميق.

- لا يا كبير، مأوك صافٍ، وبارد، وعذب، متّعني به، - قال أبشق في سرّه: "هذا العجوز خالط الناس الحكماء خلافاً لما توقعت. يعرف كيف يُصغي

وماذا يقول " ولم يستطع إلا أن يسأل عن العصا التي ما كان يطيقها: - عصاك الفضية هذه كأنها جاءت من القرم ؛ هل كنت هناك؟

- لا، بل من القوموق، -تفقد العجوز عصاه. - لم أزر القرم ولا القوموق. ولا أعرف أين هما، ولا أريد أن أعرف. ما ليس لك تفاحٌ مرٌّ؛¹ ما العمل؟ لا أتذكر منذ متى لم أخط خطوة خارج قريتي الأصلية حشتيه؟

- ألم تدخل قرية مجاورة أيضاً؟ - استغرب أبشق.

- أخالط القرى المجاورة في مناسبات الفرح والحزن، هذا غير ممكن.

- كبير أمرائكم مشقوه كان في موسكو عند الروس. - وجه أبشق الكلام إلى العجوز اعتباطاً يريد معرفة اطلاعه على الخبر.

- كان هناك لأنه ثرثار.

- يا بات... - فهم الأمير جامبج ما يريد أن يقول العجوز فاعترضه.

- لا أراجع عن كلامي يا جامبج، - ثبت العجوز طرف العصا بقوة على الأرض. - لست من أمر مشقوه بل أنتم. والأمير شبق لم يتبين عن رجل صالح إلا أن أشكره على أنه ربّي ابنك حاتاي دون أن يرميه لغيره. تبع أميرنا الهوائي المزاج، وهرع إلى الروس. وأعطاهم ابنه شاهداً على إخلاصه لهم. ويقال إن أميركم تيمرقوه ينافسهما.

- يا بات، أؤيدك في من ذكرت أسماءهم من الأمراء الخائنين، ولكن ما لا أفهمه شيء آخر، - تحفز أبشق متعجباً مما يسمع: - من يُذكر اسمه بالخير حاتاي ولم أره ؛ يا للعجب أهو ابن جامبج؟! صحيح يا أمير؟

- صحيح، هو الولد الذي كانوا سرقوه مني. - ثم جيّر المديح الموجه إلى ابنه إلى غيره على عادة الآباء الأديغة: - إن وجدت صديقاً مثل قلقت ذكروا اسمك بالخير.

- كان الأفضل ألا تذكر اسمه يا أمير، - مطّ أبشق شفثيه ناسياً كونه أميراً. - اعترض على قلقت متناسياً أنه صديق ابن الأمير. - ألا تعرفون نواياه؟ يريد أن

¹ في القول جناس. والغالب على الحكيم والأقوال المأثورة الجنس أو السجع بين شطري

الجملة، لا الانسجام في المعنى.

يزجنا نحن الأمراء ويؤلف دولة من العامة الفلاحين. لا أعرف ما سيكون رأيك يا زعيم الخير، ولكن لا يجوز أن نسمح لهؤلاء ولو كان ابنك معهم أن يفتحوا أعينهم.

- إن كنت أوضحت رأيك يا أمير، - ابتسم العجوز بات، - فلن أكتمك رأيي، وجاري الأمير جامبج يعرف هذا: أنا معهم! ولا أوافقك على قولك: سيزجئوننا. هؤلاء لا ينوون إزاحتكم، ولا إبعادكم عنهم، أنتم أمراء كثيرون فتفاهموا! وتقدموهم دون مناورات. من يحتاج إليه هؤلاء هو أمير حكيم يجمع الأدبغة.

- صحيح، طرق سمعي بعض هذه الأمور يا زعيم الخير، إذا كان ما لا تعرفه يزيد من علمك فليس السؤال عيباً. ولكن من أين نأتي بأمير حكيم يوحد البلاد؟

- تشاوروا، وتبادلوا الأفكار بينكم. ليس عرفنا عاجزاً عن إبراز رجل حكيم واحد. ليس كل ما رُبط إلى العربة حصاناً. اطلبوا من أحدهم أن يمسك الدقة¹. ما القول المأثور الذي كان أجدادنا يروونه بشأن العامل يا جامبج؟

- ليس كل من يتصبب عرقاً شتياً.

- والأحصنة كذلك، وافقه أبشق في ما يجيده.

- ويمكن أن تُرفق الأمراء بالخيل.

- يا عجمي يا زعيم الخير! لم توقر الليلة شيئاً بحققنا نحن الأمراء! - كان صدر الأمير أبشق مُهبة لأفكار متضاربة ولكنه صاح غير حاقِد. وذكر اسم ما لم يره على المائدة منذ البارحة: - يا أمير، لا تؤاخذني، منذ زمن طويل لم أتحدث إلى رجل حكيم كجارك؛ ألا نرفع كأساً من الباخسمه معه، ولو كان البرد سبب الحزن للقرية! ما رأيك يا زعيم الخير؟

- لا بأس إن كانت كأساً واحدة. - نظر العجوز من طرف عينه إلى أمير القبرتاي بشيء من الخبث، - وأنا أيضاً أريد يا ضيف أن أهدي قلبك ريشما

¹ في الأصل: الثور أو الحصان الذي يتلقى الأوامر من الحزّاث أو السائس، وموضعه الأخير في الصف.

تجهز الباخسمة. نعم يا أمير، لا داعي لليأس في شأن أمرائنا الحاليين، بمن فيهم أنت وجاري. إذا ذكرناهم أحياناً بذكاء الأمير المنير إينال، والأمير إيدار أفضلهم، وأمثالهما، وبرجولتهم، فستهن أمورنا. ونحن عامة الفلاحين لسنا محرومين من رجال أشداء. سيعيش عرقنا ما دمنا نتذكر كل من أسدى خيراً للأديغة من ساوسروقه، وشباتنقوه، ولبش، وججان. من أجل هؤلاء، ومن أجلنا أرفع هذه الكأس.

لم يمر يوم طوال رحلة الأمير أبشق على طريق التتر لم يذكر فيه العجوز بات. يمدحه وينهره وينساه ثم يطفو على السطح ثانية: "هل من حسن حظنا أم من نحسه أن في قرانا أمثال العجوز بات؟ هؤلاء لا يأتون إلى العالم ولا يفارقونه دون أن يتركوا أثراً. يربّون طوال حياتهم، ويعملون".

"العجوز بات... - حين التفت أبشق إلى أرض الأديغة بعدما اجتاز معبر بحر آزوف، ودخل بلاداً غريبة، تذكر أيضاً ذلك الفلاح الأديغي الذي كان جلسه، كأنه ناداه من ورائه. - يمدحنا، ويدّمنا، ولا ينسى كونه فلاحاً. ربما أمثال هؤلاء من يثبّتون أقدامنا، ويقتلعونها... يا إلهي ارحمنا واحمنا، وانصرنا على من لا يُكِنّ لنا الخير!"

III

الرجلان لا تلحقان بطريق القلب، ومن عنده قلق لا تفارقه الלהفة. قطع الفرسان الأديغة الطريق بين موسكو ونوفغورود في أسبوع. وحين دخلوا أرض ليفون تاركين بسكوف على يمينهم رأوا بأمر العين حرباً قريبة: القتلى والجرحى والعربات وجحافل الفرسان والمشاة والمدافع التي تجرها الخيل والثيران. وزادت وتيرة النساء والأطفال الهاربين من المصيبة. وأحسّوا برائحة الدم والبارود. والخيول المدركة أن لا شيء يسرها في الأمام صارت تُرهف السمع أحياناً، وتحمحم.

إيفان بوغوشاروف وسلطان الأمير الشاب يتقدمان الفرسان. ويتبعهما الحارس إيدار والفلاح بجمت يتوسطهما الأمير شبق. والفرسان السائرون ثلاث يعرضون أنفسهم في الطريق. الناس يستغربون الزي الذي لا يعرفه الروس. وهم

مرتاحون لأنهم، أياً كانوا، حلفاء للروس. ومن هم محطُّ الأنظار معتدّون بأنفسهم. يقابلون الناس بوجوه طليقة تعني: نحن رفاقكم وحلفاؤكم.

- هل تتذكر يا أيدار كيف تصرف معنا الرجل الضخم السكران ذو المعطف المفتوح؟ بجمت لم يكن معنا في زيارتنا الأولى. يسأل شبق راضياً بما يرى.

- وكيف لا أذكر يا أمير؟ أليس من صرعوه بصدر الحصان؟

- نعم، هو. وهل كان يجوز أن يفعل به هذا لأنه هددنا بقبضته؟.. وعليكم أنتم جزء من المسؤولية؛ حاولتم التصدي له فدفعتم شيبوتيف إلى الإيعاز الجنوده، فصرعوه بصدر الحصان.

- لم نكن مذبذبين في ذلك اليوم. - لا يتراجع الحارس أيدار. - لقي جزاءه فحسب. هل يجوز أن تقول ما يأتي على رأس لسانك لأنك شربت! ألا ترى هؤلاء الذين ينظرون إلينا لا يوجهون إلينا كلمات نائية!

- لأنهم يعرفون أننا ماضون لنحارب من أجلهم. - ساهم بجمت الذي كلما اقتربوا من الحرب التي بانتظارهم انتصبت في مخيلته من جديد غابة المخوش والتلج المشرب بالدم. كان من الصعب الإجابة وحده على أسئلته التي بلا جواب: مقتل الرجلين على يده. أليسا من البشر ولو كانا مجرمين؟ ومع ذلك لم يكتم عتبه الخفي: - اسحب سلاحك على هؤلاء إذن لترى!..

- وهل هم أعداؤك فنشهر عليهم السلاح؟ - قال الأمير فجأة: " ماذا يقول بجمت صاحب الرأس الكبير من كلام لا معنى له؟ كيف تتكلم على ما لم تره ولا تعرفه؟ كانت حالته على طريق موسكو مختلفة تماماً: يحاول اختصار وقت الطريق، ويستحلي كل ما يراه، ويستعذب هواه... أقول هذا ولكن من يجب الحرب؟ ربما تدفعه الوساس التي في ذهنه إلى أن يقول ما لا يجوز... "

- موضوع العدو مختلف يا أمير، ولكن حدث أن شهرنا السلاح على من يخدعوننا... - هيّج جواب بجمت الذي يتصبب عرقاً الأمير غير أنه أخفى انفعاله وأجاب ضاحكاً:

- كأن الجو السيء يؤثر على مزاجك يا بجمت. اليوم فحسبُ عرفت أننا نعيش في عالم خادع؟! لو كنا نرد على افتراءات الأميرين تاخ وفواخ بالسلاح لضاعت آثار عظامنا منذ زمن بعيد، وكنا أشعلنا حرباً بين الجان أنفسهم

يبيدون فيها. يستوي أن تخلط الخبث بالاستقامة، وأن تقابل الأعزل بالسلاح. أهذا ما كنت تريد أن تقوله يا بجمت؟

- قد يكون هو، وقد لا يكون يا أمير... - كان بجمت كمن تراجع عما يريد قوله عاجزاً عنه، ولكنه لم يستطع أن يتخلص مما في قلبه من صراع يتجدد. وما كان لا ينساه ويملاً قلبه هما ساعة يجد نفسه في موقف الحرب الصعب، هو نظرة بنكس المتسائلة في التفاتته.

يدين شبق نفسه: "لماذا أعدتُ إلى ذاكرتي الرجل السكران فجلبت لنفسي الهم؟" ولكن أسرارهِ العلنية تتصارع في صدرهِ. يتجاوزها فتعود. - ماذا يريد بجمت أن يقول؟ الحقيقة أنه ليس في الجانيهِ من أثق فيه أكثر من بجمت، لم يحدث أن جعلني أندم على تصرف ما في حياتي؟ أم يُحْيِلُ إلي دون سبب؟ لا يحدث شيء في العالم اعتباراً. إما أن يدفعوك إلى فعله أو تفعله من تلقاء نفسك. القتيلان اللذان يلمح لي بهما... دنيانا الملامى بالكذب والخداع. حسناً فعلتُ إذ اصطحبته. ليس من المستبعد أن يُخبر أفمق بما لا يستطيع البوح به. ما يخبر به أخِي ليس مشكلة، في حال الضرورة ولدننا أم واحدة، نكتم سرنا بيننا. وإن قال لشخص آخر، إن صار هو وقلقت يتساران؟ إن حدث هذا... لا يجوز أن تثق بأحد إلا بشخصك... "كانت هواجس شبق المتنافرة تعصف برأسه، ولكنه لم يترك كلام بجمت دون جواب حتى لا يؤوّل كما يريد:

- هذه هي الحال يا بجمت، رافقتني في الطريق البعيد وأنا أقول: أنت لست صغيراً، ولا تخرج من نطاق الأسرة. وسيحتاج إليك أفمق. شكراً لك. أنا راض عنك. أثبتت مرة أخرى إخلاصك لي وللأسرة. ولكن لم تخطر لي قطّ الحرب التي أصطحبكم إليها. كل شيء ممكن، لا أعمل من أجل شخصي فإن حدث شيء فليغفروا لي!

- لا أتذكر أنك عملت من أجل شخصك يا أمير، وافقه أيدار.

- نعم يا أمير، هذه هي الحقيقة، - لم يتأخر بجمت عن الحارس أيدار. - لو كان الأمر يتعلق بشخصك لما ركبنا هذا الطريق، ما جاء بك وبنا إلى هنا هو

قضية قومك. ولكن لا تقلق ما دامت أرجلنا في ركابنا. ما كتبه الله علينا حملنا، لن نتراجع.

- حياكما الله، نفستما عن ضيقي كما عادتكما دائماً، ومنحتما بي القوة. - قال شبق دون مراعاة، ثم عاد إلى منبع الكلام: - الناس الذين يتابعونا بعيونهم راضون عنا ويتأملون منا لأنهم عرفوا طبيعتنا ونوايانا. وذاك الرجل السكران يأيدار لم يكن يعرف شيئاً عنا: أصلنا، نوايانا، ربما التبس عليه الأمر بيننا وبين النغوي الذين يحقد عليهم.

- لا يخلطُ بيننا! - رفض أيدار. - إن لم تتطابق السحنتان، وليس الزي، فليس كل من تراه العين عدواً لمجرد أنه أسمر بلحية سوداء. اعرف ما في قلبه نحوك أولاً. ثم أمسك به. وعامله بالقانون الذي يستحقه. لا شيء يعدل في الإهانة ألا يوثق بك لأنك من عرق آخر.

- اسمع ماذا يقول! - ضحك بجمت. - لماذا تعتدّ باسمك متى خالطت النغوي؟

- والله أنت إنسان عجيب يا بجمت! أنا لا أقول لهؤلاء أنا منكم. بل قلت إنهم يحكمون علي بأني من النغوي من خلال اسمي. ولم يخطر لي قط أن أغير الاسم الذي سماني به أمي وأبي، أو أكنم أني أدغي. ولا أريد أن أفعل في مثل هذا الموقف... - وفي اللحظة نفسها خطر لأيدار تغيير اسم كُتاق ودينه فتراجع: - ربما لو وقعتُ في موقف كُتاق ودودارقوه حدث لي ما حدث لهم. ساجني يا أمير. أعتقد أن مضيفينا لن يسمحوا لك بالعيش معهم إن لم تصبح جزءاً منهم.

- على كلامك يا أيدار، - ابتسم شبق ورد بمزحة صادقة، - عليك أن تغير لهم اسمك ودينك. من جهتي لا أقبل الدين الذي فرض علينا بالأمس. وإن وافقني الجانيه فلا مانع لدي أن أعود اليوم إلى الدين الذي كنت عليه. ولكن لن أسمح لأحد أن يغير الاسم الذي سماني به جدي وناداني به طوال حياتي كما فعل ابني. والآن ماذا بيدنا أن نغيّر فيه بعد أن حدث ما حدث؟ لا بأس بما جرى لولدنا ؛ أبقوا على نسبهِ وإن غيروا اسمه، أما ذاك الأمير القبرتاي الشاب الممتاز فقد غيروا اسمه، وأعطوه نسبة: الشرکسي".

- إذن أصبح الأمير سلطان روسيا حقيقياً؟ - سأل بجمت قلقاً.
- لا، لا، ترون بأنفسكم أنه لم يتخلّ عن لغته وأديغيته، - قال شبق، وأهوى
بمزحة: - هل تصبح نغوي إن كنت تحمل اسماً منهم يا أيدار؟
تضحك إيفان بوغوشاروف، والأمير الشاب سلطان المتقدمان بصوت سمعه
الجمع وراءهما. غير أن الفلاح بجمت غمغم وقد تدكّر أسرته: "نضحك ولكن
ما نذهب إليه ليس نزهة ولا ملعباً، بل كما يقول لأماف الزعيم المبارك: ليس
كل من يذهب إلى حفلة العرس يسمحون له بالرقص، وليس كل من يخوض
الحرب يُقتل..."

رأى الأديغة حشداً من الفرسان مشتبكين في البرية قبل الوصول إلى مارينبورغ¹
بنصف نهار. ولم يكن الفرسان وحدهم بل يختلط بهم المشاة. يتقاتلون
بالسيوف تحت الشمس الساطعة، وتتطاير الخوذ الفولاذية من رؤوسهم.
ويتساقطون من ظهور الخيل. والمشاة يتداعون، وتتصاعد إلى السماء أصوات
البشر والخيول. ويتساقط الشرر من بين السيوف. وتتجاوب أنحاء الأرض من
اصطدام التروس.

- الفرسان روس، والمشاة أستون، - قال إيفان بوغوشاروف.
- ومجموعة الفرسان الأخرى؟ - أشار شبق إلى مجموعة خرجت من الغابة، ثم
نادى رفاهه دون انتظار جواب سؤاله: - البسوا الدروع الجلدية!
- هؤلاء فرسان من الأستون! - ارتدى بوغوشاروف الدرع والخوذة كما يفعل
الأديغة عادة. وصاح وهو يمتشق سيفه: - سنقطع رأس مجموعة الفرسان
الأستون.

اعترض الأديغة بقيادة الأمير شبق والقائد بوغوشاروف طريق الفرسان الأستون
المندفعين. وتجاهه الطرفان ولم يبق بينهما الكثير. وعندما تبادلوا النظر نادى شبق
الفرسان الذين لم يستطع الأستون تفريقهم:

- ماذا تنتظرون؟ أشهروا السيوف، يا أيدار وبجمت اتركاً لي قائد المجموعة.
وأترك لكما من إلى جانبيه.

¹ وسط غرب ألمانيا الآن.

انتشر صوت الضرب والقتل في الأرض. وتضاربت اللغة الأدبغية ولغة الأستون – الليتوان، والمتكلم الوحيد بالروسية بينهم هو بوغوشاروف. اختطف شبق قائد المجموعة من ظهر الحصان، وسقط ممسكاً باليدين بطنه. يحاول النهوض ويتعثر. والعدو الذي أزحق الحارس أيدار روحه يسحبه الحصان معلّقاً بإحدى رجليه بالركاب. وبجمت؟.. يتبارز بجمت وخصمه في حركة دائبة. ولا أحد منهما يستطيع إسقاط خصمه عن ظهر الحصان. يتقارعان بالترس، وبجمت دون خوذة.

يسرع شبق إلى وراء خصم بجمت، ويُسقطه بضربة سريعة. وينادي الفلاح:

– التقطْ خوذتك والحقي!

لا يتذكر شبق كم استغرق الاشتباك. يرفع رأسه بعد ما أعاد إليه الوعي انقطاع صليل السيوف وأنين الجرحى وصراخ المتقاتلين. لا يستغرب وجود فيشنيفيسكي قائد الجيش أمامه، ولا من أين جاء. ولا يهتم بنهاية الاشتباك. ليس في ذهنه إلا سؤال وحيد:

– أين كناق؟ أهو حي؟

– حيّ يا أمير، مجروح جرحاً طفيفاً في مشفى مارينبورغ. ستراه الليلة.

– يا إلهي، وصلتني رحمتك وغمربي عطفك! – يرفع شبق يديه، ويفعل الأدعية مثله إلا سلطان – ميخائيل شرक्स. يبتهلون إلى الله، ويتلون الأدعية. ثم يتذكر تقصيره فيسأل ملهوفاً: – هل عددنا كامل؟

– يتبادلون النظر، ثم يقول أحدهم:

– ليس بيننا بجمت!..

– أين هو؟ – ينظر شبق فزعاً إلى رفاقه. ويتفقد ساحة الاشتباك. ويترك رفاقه الذين يتبعونه.

سمع شبق أنيناً من وراء الحصان الجريح. ولما هرع إليه وجده أسبل يديه إلى جانبيه عارفاً أنه ميت لا محالة.

– بجمت!.. انكب عليه شبق بصدرة، ماذا جرى لك يا مسكين؟

رفع بجمت جفنيه الثقيلين وقد صحّاه صوت الأمير وصوت رفاقه. وألقى عليهم نظرة جامدة. وقال من طرف شفّيته:

- ها هو يا أمير... لا تعرف متى تحين ساعتك... - ولما كفّ شبق عن فهم ما يقول وضع أذنه على شفّتيه: ها هو يا أمير... - صدر بمشقة من بين الشفتين المرتعشتين، - لم تكن واثقاً مني تماماً في سِرِّك ولكني أرحل ولا أحد يعرف السرَّ غيرك... أدع الله من أجلي... ألا يفتقر أولادي... - لم يستطع بجمت إكمال الجملة الأخيرة.

رفع شبق رأسه من صدر بجمت بسرعة، ونظر إلى وجوه المحاربين مغرور العينين. ثم خصّ رفاقه المتجمهرين حوله بدعائه الأخير، كاتماً معه سرّه، مغلقاً جفنيه:

- أطفالك يا بجمت لن أدعهم يحتاجون شيئاً. من أعرفه بين الرجال بصدق واستقامتك قليلون. لندعُ إلى الله أن يغفر له خطاياہ إن كانت له، وأن يحشره في عداد المسلمين، ويفتح له باب جنته. -رفع يديه وقد ارتاح قلبه وانزاح حملٌ ثقيل عن ظهره.

دفنوا جثمان بجمت على الطريقة الإسلامية. ثم غادر الأديغة القبر فبقي إلى جانبه دميتري فيشنيفسكي وإيفان بوغوشاروف وشركس سلطان بعض الوقت يدعوه له كل منهم بما في قلبه من دين. ولما انصرفوا عاد ميخائيل سلطان بسرعة دون اهتمام بما قد يقال له، ودعا له بالأديغة أن يرتاح في الأرض الروسية.

كانت الشمس آلت للغروب حين صار شبق على باب المشفى الذي يقيم فيه كتناق. رأى ابنه حالماً نظر في فناء المشفى. ناداه بالطريقة الأديغية كاظماً نفسه بصعوبة:

- يا ولد، أأست هو؟ - سأل كتناق المستند إلى الباب بيده المعصوبة مغموراً بالفرح: - هل تعرفت صوتي يا ولد؟ مهلاً، مهلاً لا تفضحني أمام رفاقك. جلبتُ معي حزناً أكبر من فرحتنا نحن...

- ماذا؟ - أسرع كتناق المتسّرّ أمام والده. - نان، أقمق؟

- لا يا ولدي، لا. لا مصيبة في بيتنا. سقط المسكين بجمت في معركة اليوم... استند إليّ لنرثي معاً فلاحنا البريء... - بعدما وقف الأب والابن بعض الوقت ورأس كلٍّ منهما على كتف الآخر يختلجان، نصح شبق ابنه: - كفى يا

ولدي، اسكت! لا يمكن أن نغيّر شيئاً في الأمر. أنا راضٍ عن بجمت، لم يخذلني. وأنت ما حالك؟ هل يؤمك؟

- كما تراني يا والدنا، - ابتسم كتاق، - وجُرحي، بفضل الله، - شرع يرسم الصليب ولكنه تراجع خجلاً من والده، - شُفي. طرف الرمح انغرز في اللحم، لا في العظم.

- لا بأس إذن... - تنهد شبق منقّساً عن ضيقه، وكظم نفسه تجاه ما لاحظ على ولده.

- قيل لي إنهم سيصرفونني غداً أو بعد غد. ولذا سنكون في جيش واحد.
- هذا حسنٌ يا ولدي، حسنٌ جداً. أخبرني قائد الجيش فيشنيفيسكي. إن كنا معاً رعى أحدنا الآخر. وهناك خبر جيد لا أعرف إن كنت مطلعاً عليه: أخبرني القيصر أن جيش فيشنيفيسكي سيعود معنا إلى نواحيننا بعد انتهاء حرب ليفون. وشهد عليه قائد جيشك. لا بد أن يرى خان القرم الجيش الروسي معنا. يتوود إلينا مرة، ويهددنا أخرى. ولن أرتاح إن لم أسرد هذه الأخبار على أمرائنا الخارجين عن طورهم. وسأمنع الأمير أبشق المتماذي علينا، نحن الجان، من أن يعبر أرضنا. ليذهب إلى النغوي عن طريق نهر الدون عبر بحر آزوف. ألسْتُ على حق يا ولدي؟

- أنت أدري بالصحيح يا أمير. تُعامل كلاً كما يعاملك.
- هذا كلام في محله، غير أنني أود أن أُطلعك على ما أعرفه وأخفيه عنك. منذ وقت طويل وصل إلى نواحيننا خبر اعتناقك المسيحية. إن فعلت عن قناعة فلا بأس. وإن كنت تود رسم الصليب فلا تكتم عني، ولا تُكسبني ذنباً. إذا كان القيصر الذي وقفت إلى جانبه يثمن دين بلاده فثمنه معه أيضاً. - اختتم شبق بضحكة سطحية: - إن كانت هذه الأفكار الدينية ستبقى في رأسي فليس من المستبعد أن أتبعك أنا أيضاً، ما رأيك يا ولدي؟

- لو حدث هذا لكان خيراً يا والدنا، - أجاب كتاق راضياً: - في الجيش الذي سيُقدم إلى نواحيننا رجال دين ممتازون.

- ولكن ماذا سيكون رأي والدتك؟ وكيف سيكون ردُّ فعل أفعق؟ - جُد شبق ومزحه لا يتميزان، - وكيف سيفهم مسلمو الجانية الوضع؟

- ما ليس بالإكراه لا يحتاج إلى القوة يا والدنا، دون أن يعني هذا ألا نجابه الترك والقرم في شؤون دينهم. - اختتم ألكسندر - كتناق كلامه جازماً.
تألم قلب شبق قائلاً لنفسه: "هذا الرجل لا يمكن أن يتساهل معك إن نجا من الحرب... " ثم نهر نفسه: " أيّ كلام منحوس خطر على الببال!.. "

...

كان خليط الفرسان الأديغة - الروس العائدين من حرب ليفون يكاد يطفأ أرض موسكو حين ارتفع رنين الأجراس الحزين.
وكان الوقت ظهر اليوم السابع من شهر آب عام 1560.
- رنين الأجراس المتجاوب ليس فأل خير، - أوقف فيشنيفسكي حصانه، - في المدينة مآثم.
- ماذا يا ترى؟ - قلق شبق.

- أياكون نغوي القرم هاجمونا؟ - استعجل بوغوشاروف.
- يا إيفان بوغوشاروف وألكسندر سيبوك، اسبقانا واعرفا الخبر. - أمر قائد الجيش فيشنيفسكي. وفي الحال وصلهم صوت المنادي:
- ليُنصِت من يسمع، وبلِّغوا من لا يسمع: روسيا كلها في حداد، أنستاسيا ابنة رومان زوجة القيصر إيفان فاسيليفيتش رحلت اليوم إلى العالم الآخر.
تنفّس إيفان بوغوشاروف الصُّعْداء قائلاً: "لا مشكلة إن لم يكن القيصر".
والتفت شبق إلى ابنه متخذاً الموقف نفسه. وتبادل كتناق ودودارقوه وسلطان نظرات حزينة. وسأل القائد فيشنيفسكي نفسه على نحو لا تعرف إن كان حزينا أم لا، ويوحى بشكٍّ خفي:

- لم تكن أنستاسيا بنت رومان مريضة... كيف ماتت يا ترى؟
نادى شبق الفرسان دون تمييز بين أديغة وروس:
- ترجّلوا، ولنبتهل إلى الله!

توجه الأديغة إلى القبلة، ودعوا إلى الله من أجل السيدة الملكية وإن لم تكن من دينهم، إذ أن مية العدو ومية الصديق سيّان. وانحنى المسيحيون وفق تعاليم دينهم وصلّوا من أجلها.

عمّ الحِداد موسكو. لا يُسمع فيها صوت ضحك أو غناء، بل صوت غضب. وأغلقت الحانات والملاعب ومضامير سباقات الخيل. ويزداد عدد من يرتادون الشوارع باللباس الأسود. ولا ترى مظاهر الجون، ولا العربات الفاخرة. وإن صادفتَ بعضها فلا تسمع أصوات أجراسها المعتادة. وكفّ المتسولون عن التسول. يتجه أكثر سكان المدينة نحو الكرملين ولكن صفوف الحرس الفرسان تمنعهم. والباكون أكثر من المتكلمين.

زار القائد فيشنيفيسكي الأمير شبق في وقت متأخر من النهار. وفهم الأخير من مظهره أنه لا يحمل خبراً ساراً. وسأله قبل أن يُخبر:

- ماذا سمعت حيث كنت؟

- لم تمت السيدة الملكية ميتة طبيعية... بل مسمومة.

- هكذا! - نظر شبق في وجهه من جاء بخبر مخيف بالإضافة إلى الخبر المزن. ثم

أعلن احتجاجه الرفض: - من في البلاد يمكن أن يقترب مثل هذه الجريمة؟!

- متى كنت قيصر دولة عظمى، - تفقد فيشنيفيسكي الغرفة بنظرة خفية،

وهمس في أذن شبق بصوت جازم يوحى بالحدز: - فستمارس الإجرام،

وبمارسونه ضدك... لا حاجة بك إلى هذا يا أمير... ولم تسمعه...

تبادل الأمير والقائد نظرات أخبرت كلاهما في قلب الآخر. "هذا الرجل المبارك

يتقرب مني منذ تعارفنا. يحاول أن يقول لي متى اختلينا ما لا يمكنه قوله علناً

ثم يسكت. وكان هذا دأبه خلال أيام الحرب بدءاً من مارينبورغ ووصولاً إلى

ديربت. أقول إنه عاتب على القيصر ولكنه كرّس له حياته. وما كنتُ أضدّق

مهما قيل لي لو لم أراه بعيني في ساحة المعركة. أكون يريدني أن أسأله أنا في

شأن القيصر؟.. لا، لا. لم آت إلى هنا للتورط في هذه المغامرات غير المدروسة.

لا أريد إلا أن تتحقق لي أهدافي نكايةً بأعدائي. مهلاً، مهلاً؛ أيّ نكاية

أتحدث عنها؟ أنا أعمل من أجل قضية أديغية، لا من أجل إغاظة أحد. لم

نقصّر في تنفيذ المهمة التي أوكلها إلينا القيصر المحزون. خسرنا أحد عشر فارساً

خلال شهر ونصف. وجرح كثيرون وفي مقدمتهم كتاق. أنا حماني الله، وكان

رفاقي حريصين عليّ... " قال شبق الذي أعاد فيشنيفيسكي إلى وعيه سريعاً

باحثاً عن ذريعة:

- هذه هي الحال، أيها القائد فيشنيفيسكي، نحن أيضاً في عالم ثقيل... الجميع يحاول أن ينتزع ما في أفواهنا. ومن يُطعمنا قليلون... - ثم سأله عما يشغل باله: - كيف ستصرف مع حداد القيصر؟

- تتصرف كما تمني عليكم تقاليدكم الأدبغية. - أجاب القائد على السؤال الذي كان ينتظره.

- سنقدم واجب العزاء إذن، ونتصرف معه حسب تقاليدكم أيضاً. ونحن جاهزون من هذه اللحظة.

- لا يزال الوقت مبكراً، يشعر القيصر بالإهانة لما جرى له. لا يزال إلى جانب الجثمان دموع العينين. سأصطحبكم غداً إلى التعزية. وسيستريح الجنود والخيـل خلال الأيام الثلاثة القادمة بانتظار الدفن. ثم نسافر إليكم، إلى الجانيه.

- كيف سيفهم القيصر ركوبنا المستعجل؟

- أنا لا أريد يا أمير عن الأمر الصادر إليّ. أتصرف كما يطلب.

- حسناً إذن. وأنا لا أعرف ما يجري في نواحيننا، بالي مشغول.

- نعم يا أمير، نعم... غيابنا عن موسكو بعد إجراءات الدفن أفضل لنا... - قال فيشنيفيسكي، ونظر إلى شبق منتظراً سؤاله. ثم أضاف بصوت أكثر سرية: - لن يغفر القيصر تسميم زوجته... المصيبة ستجرف المذنب والبريء... - بالي مشغول على غياب كتاك... - تجاوز الأمير مرة أخرى كلام القائد وكأنه لم يسمعه...

...

بعد يوم من دفن زوجة القيصر ذي الثلاثين عاماً، ركب القائد فيشنيفيسكي والأمير شبق أمير الجانيه، والمرافقون طريق الجانيه البعيد.

IV

التقى الأميران تاخ وفواخ فجأة في عمق الغابة. ضحك الأمير فواخ في سرّه: "من أين يأتي هذا الذي لا يحيد إلا الكلام؟" ورفع الأمير تاخ يده النحيلة له، ساخراً، قائلاً: "إلى أين يمضي الآن هذا الذي يعمل ما ليس عمله في حين لا يلتفت إلى طرف سرجه الممزق؟"

- رافقتك السلامة يا أمير!
- حياك الله، وأعادك بالسلامة!
- أنا لم أكن في مكان بعيد. عرج عليّ الأمير أبشق في طريقه من القرم فشيئته.
- لماذا لم تخبرني إذا كان الأمير أبشق في ضيافتك؟ - لأمه الأمير تاخ كاظمًا غيظه أمام حراسه بصعوبة، قائلاً في نفسه: "أعرف الطريقة الوحيدة لتقويم ظهره المخني".
- هل تعرف السبب يا أمير؟ أنا صادق معك وبريء، والله يحاسبني إن لم أقل الحقيقة. السبب هو أن الأمير أبشق نزل عليّ فجأة ورحل بسرعة فلم أجد الوقت لأرسل وراءك. سأل عنك وأرسل سلامه إليك. كنت أنوي المرور إليك إذا لم نلتق، - وقال له في سره ساخراً من طريقة كلامه: "ما كان أحوجنا لرؤيتك وأنت تتفاحص!" واختتم الأمير تاخ جوابه الطويل بالرياء:
- ليحيي والناس يتناقلون سلامه بخير! - قابل الأمير فواخ السلام المراثي بسلامه: - حيا الله الأمير أبشق الرجل الطيب على سلامه. - ردّ الأمير فواخ معتدلاً بنفسه على السلام الكاذب. - شكراً للرجل الطيب أبشق على أنه لا ينساني. وماذا يروي من أخبار القرم؟ وماذا يجري في العالم؟ ألا يفهم خان القرم إلى الآن أن الأمير شبق الثعلب خدعه؟ وماذا ينتظر ليقعد مكتوف اليدين؟ هل ما ينتظره هو الخبر الذي سيحمله إليه من روسيا؟
- والله طرحت عليّ يا أمير كثيراً من الأسئلة. - ابتسم الأمير تاخ بعينيه الصغيرتين المزمومتين. - علام سأجيب من بينها؟
- أجب على ما يهمنا أكثر.
- هذا يحتاج إلى مائدة جاهزة. - سنتكلم متى عدت من حيث تسافر الآن. إن لم يكن سرّاً فاتجاهك إلى نواحيننا.
- لا سرّ عندي يا أمير، أعيش كالغاية المفتوحة التي نحن فيها. أتابع الموضوع الذي تكلمنا فيه هذا الربيع. يقال إن المسكين ونتغ صحا من الغيوبة، فأتأمل معرفة حقيقة ما جرى له.

- والله نظن أنفسنا نعرفك يا أمير ولكنك رجل خشن، قولك وفعلك متلازمان يا مبارك النسل. - صرخ الأمير فواخ مرغماً، يسقي الأمير تاخ من المديح:

- إن كنت عرفت بالموضوع الآن فحسب يا أمير، - مازح فواخ الأمير تاخ، مسروراً لِمَا سمع، - فصدقتنا كانت عبثاً إلى الآن. ومنذ هذا اليوم أترجع. - لا، لا. لن أقبل منك ما تنوي وإن خدعتك أحياناً. وماذا سيكون رأي من يسمع فيك؟

- حسناً إن كنت تقول هذا. ولن أتابع كلامي. ويسرني ألا تكتم عيوبك المحدودة، - ابتسم الأمير تاخ وهو يقول: "لماذا يترجاني من حُضنه دافئ وقلبه وسخّ؟" ثم صاح بصوت عالٍ:

- أيها الحراس، نحن نمزح، لا تظنوا غيره!.. لماذا نخفي نوايانا عن الحراس إذا كنا لا نعود خالي الوفاض من حيث كنا. اعتبرْ أننا انتهينا من موضوع المخادع الكبير شبق!

"كرهتُ نفاق صاحب رأس التيس والقرنين الكبيرين هذا، على رأي المثل: "من ليس كالناس ينبت له رأس حمار؛ أيُّ صداقة بيننا يتحدث عنها! أيّ مصائب لا نهاية لها تجمع بيننا؟.. - صاح الأمير تاخ معاتباً نفسه. - ليت مشروع الأمير شبق انتهى مهما حدث فتخلصت من رفقة هذا القبيح!.. لا يهدأ؛ لا أعرف ماذا يتأمل؟ إن كانت الإمارة الكبرى فالريح تعبث في رؤوس هذه الأشجار ولكن الأخيرة لا تستطيع الإمساك بها. يهيئ السرج للحصان الذي لم يولد... " - تشقّى الأمير تاخ فتخلص من حقه الدفين، ثم لاطفه عيناً وكلاماً:

- أنطق الله فمك بالخير دائماً يا أمير، وليتحقق للجان كلهم أملهم! ولكن يتوقع ألا يعود سالماً من الحرب التي جرّوه إليها. - أي حرب؟.. - لم يفهم الأمير فواخ ما سمع. - يخوض حرب ليفون مع الجيش الروسي. - الخبر جاء به الأمير أبشق من القمر.

- حقاً؟ انظر إلى أين وصل! - أجاب الأمير فواخ لا تعرف إن كان يعدها رجولة منه أم لا. ثم عاد إلى وعيه: - يا شماتتي! نال ما يستحقه. هل ذهب بإرادته أم أرغم؟ هذا الرجل أمامه مصير أسود على كل حال.

- يا أمير تتكلم على الرجل وكأنه مات.

- بالنسبة إليّ شبق مات منذ وقت طويل. ولكني لن أتوقف حتى أتحقق من صحة الموضوع الذي أتابعه. سافر معي يا أمير إن أردت. سننجز العمل على نحو أسرع.

- ماذا قلت يا أمير؟ - سأل الأمير تاخ معتبراً كلمة "سافر معي!" إهانة، ولكنه سرعان ما انسحب كما يريد: - ما كان أشد سعادتي بالسفر معاً لو عرفت قبل وقت. ولكني غير جاهز اليوم.

ما إن تدابرت مجموعتنا الفرسان حتى قال الأمير فواخ: "ما كان أشد حاجتي إليك وأنت كالقبة القديمة التي لا نفع فيها! كنت أريد اختبارك مرة أخرى فحسب" وابتسم. من يحتاجك ومن ينظر في وجهك يرتعب أيها الوز النافق؟! تعاملت معك مكرهاً ولكني أشعر بالغثيان متى وقعت عيني عليك. ومع ذلك تطمع في الإمرة الكبيرة وأنت لا تنفع لشيء. لست مهتماً بأن تطمع في وجود أمراء محترمين مباركين مثلي بل أتعجب من مجرد التفكير في الأمر. تتظاهر بأنك تجهل معرفتنا أنك تردد ما يقول الأذكاء فتوحي إلى من لا يعرفونك أنك شخص مهم. لا فائدة من أن تتكلم بتسعة أفواه. من بقي فينا لا يتكلم بعدة أفواه؟ صرنا نخاف أن نقول أمامك كلمة صائبة فتختطفها منا وتعرضها على الناس داعياً إياهم إلى الإعجاب بك فتقتنص ما سهرنا لأجله!.. " - صحا الأمير فواخ من هواجسه مرهقاً، وأخبر من ورائه ما تذكره بلؤم:

- اسمعوا يا حراس: أترجع عن قولي ونحن في الغابة "نمزح". صحيح ما يقال من أن من يحب التنصت على الناس حسود. ما ذنبي أنا لأحمي بالمزاح الأمير تاخ الذي يتصيد كلامي ويأكلني بعينه الحاسدة ويشهد على خبثه؟

استمع الأمير إلى ما يقال من ورائه وإن لم يعد مهتماً بموافقة الحراس له أو عدمها. رأى بعينه من ضحك ومن صاح ومن ابتسم ومن سكت. حث

الحصان مسروراً لما تحقق له، مستقلاً ما قطع من الطريق. وبعد مسافة قال للحراس وراءه:

- ليقف أحدكم إلى جانبي! لا بأس أن تقف أنت يا شبلان.

أسرع شبلان كمن كان ينتظر سماع اسمه فاتخذ مكانه على اليسار متأخراً مسافة نصف طول حصان. وقال الأمير معيداً الحصان إلى مشيته المعتادة، راضياً عن تصرف الحارس:

- قف على مستوى مقدمة سرجي. هذا ما جرى يا شبلان... أعيد التفكير فأجد اسمك ممتازاً. واسمي أنا ليس سيئاً بالقياس إلى اسم الأمير تاخ.
- نعم يا أمير، كالسهم المطلق.

- نعم، ما أحسن تعبيرك! في قطيعي عدة أفراس حُبلى، وأول ما يولد منها لك. أنعشت قلبي. ومع ذلك لا تنسوا أني لست ممن يجزعون كالأمير تاخ. قال الأمير فواخ مُسمِعاً الحارسين وراءه، وهمس لشبلان: - إذا كنتم ستصبحون حراساً للأمير الجانيه الكبير فهذا يتعلق بطريقة عودتكم من حيث نذهب... نعم، نعم، عرفت، ومن غيري سيكون الأمير الكبير؟.. والله تحسّن الجو جداً. انظروا ما أشد بياض قمم الجبال!..

لام الحارس شبلان نفسه عاتباً عليها: "هل أمتدح الأمير فواخ وأتوسل إليه لأني لا أفهم طبيعته منذ عرفته؟ أم يهيمن علينا الخوف لأن قلبه يتغير في اليوم سبع مرات؟ متى قررنا مجابته وتعريفه بحقيقته مَرَقْنَا واحداً واحداً بأن يتودد إلينا كما فعل اليوم معي. يعد هذا بالمهرة التي لم تولد، ويعطي ذاك أباسة، ويُقطع غيرهما قطعة أرض صغيرة. ويزور من له مصلحة عنده مع عربة محملة. لا يجوز تصديق كلِّ ما يقول بحق الأمير تاخ. يغضب عليه في حضورنا، ويتملقه في غيابنا. والانتهازى الكبير الآخر يحتاج إلى أمثال هذا فبصير عليه باسمًا. يتنازعان الأمير الكبير شبق. ليس شخصه، بل منصبه. لا أعرف إن كانا سيزدادان ذكاءً باحتلال منصب كبير الأمراء. لا يعجبهما مهما خدم الجان..."

- لماذا تنامون على السروج؟ - يهزم الأمير الحصان الذي لا ذنب له فيقفز.

لم يكن الأمير فواخ يريد التوقف عند مضافة أي شخص. طلب من رفاقه قضاء الليل في الغابة القريبة من قرية فُراش التي يقصدها. ورَّتب الأمير الذي فراشه ولحافه كساؤه كل ما سيقوله لونتغ. وفي الصباح ظل وهو يغتسل، ثم يأكل اللحم المجفف المرطَّب بالماء المغلي، يرَّتب لهذا اللقاء. والخطر المفاجئ جعله يلقي نظرات باردة على الجوار: "لا أعرف إن كان هذا هو المكان، قيل إنه لم يكن بعيداً عن القرية، حيث قُتل بنكس، وكاد يُقتل ونتغ... ونحن إذا أرسلوا أحداً وراءنا؟ لا يجوز أن تثق بالأمير تاخ. ما من شر لا يخطر بباله إن عرف أنك تجاوزته... ولماذا كلمته بلطف حين التقينا؟ الله حريص، فسنحرص على أنفسنا..."

- جهّزوا لي حصاني! - صفق الأمير فواخ معتقداً أنه سينجز ما لم يستطع أحدٌ إنجازه، ونهض. - أنت يا شبلا نتركب معي إلى القرية، وأنتما تبقيان هنا، موعدنا ساعة رجوعنا، ولكن لن يتجاوز بداية المساء.

حين وصلوا إلى طرف القرية أكَّد الأمير فواخ على حارسه:

- أنت تعرف دون حاجة إلى أن أذكرك أن ونتغ ليس شخصاً تثق به. لا يريد شاهداً إضافياً، ولذلك متى بقينا وحدنا فاحرص عليّ، سواءً كنا داخل البيت أم في الفناء.

- اطمئنْ يا أمير، سأقتله قبل أن يجد الوقت ليمد يده.

- لا، لا، لم نأت للقتل. أقول هكذا اعتباطاً، ولكن لن يصل إلى هذا... أأكون في البيت يا ترى؟ وأي يذهب الخارج من مرضٍ؟ - طمأن الأمير فواخ قلبه، وفي هذه اللحظة رأى ونتغ معتمداً على الباب بصدرة: - هذا أنت يا ونتغ، يا مبارك النسل، من لا أتعرف عليه؟

- أنا يا أمير، إن أثبت بما يُغنيننا فتنفضّل! - حاول ونتغ فتح الباب المغلق.

- مهلاً، ألن يؤذيك!.. - الحارس سيفتحه.

- لا تجزع عليّ إلى هذا الحدّ، أنا نجوت من الأمراض ومن الأشرار. حسناً فعلتَ بمجيئك، وعلى كل حال كنت أنوي المحييء إلى دياركم. - قال ونتغ للحارس وهو يزيح الباب: - خذ الخيل إلى ما وراء السور.

- لن نبقى طويلاً، - نظر الأمير إلى المضيف بودّ قائلاً: "أحسنَ استقبالنا خلافاً لما توقعت"

- لا يليق بالخيل أن تبقى في الطريق وإن لم تنووا البقاء طويلاً. تفضلوا إلى البيت!

- لا، يمكن أن نبقى تحت ظل الشجرة.

- أسمعكم إن لم تنووا البقاء، - قال المضيف حالما بقي الاثنان وحدهما.

- أنت وأنا يا ونتغ لا يعرف أحدنا الآخر اليوم فحسب. ليس قليلاً ما تقاسمنا من فرح ومن تعب. - بدأ الأمير من البداية، واختتم بالنهاية: - أحزني ما فعلوا بك. ونحن وصلنا بعض ما فعل بك أعداؤك... تتكلم في هذا لاحقاً... ولذا جئتك أعودك في مرضك. وإن تبادلنا الثقة فلي مهمة معك. - أسمعك.

- إذن سأقول لك الحقيقة تماماً. أنا موفدٌ عددٍ من أمراء الجانيه.

- كان حسناً لو سميتهم.

- نعم، أنا، والأمير تاخ، والأمير مارتقوه...

- لا بأس بعددكم، - قال ونتغ وقد مضى بعض الوقت على إمساكه بالمهمة المفترضة.

- طبعاً، - لم يفهم الأمير فواخ ما لُمّح به إليه. - ويمكن أن تقول: أغلبية أمراء الجانيه، قلقون من الخبر الذي وصلنا. لا يجدون من اللاتق أن يفعل بك المشتبه به ما فعل.

- بمن تشكّون؟

- أنت تعرفه كما نعرفه، - قال الأمير تاخ، ونظر جهة الحارس كأنه لا يثق به، وهمس للمضيف: قَنشقوه الذي تحوّل إلى وجه روسي. إن نطقَت اسمه دون التخرُّج من أحد فكيس الذهب هذا لك. يكفيك طوال عمرك. - أخرج الكيس من عبّه ووضع أمامه. - أمراء الجانيه لا أمل لهم غيرك. كن رجلاً!

ضحك ونتغ بعدما جلس مدة ينقل عينيه بين كيس الذهب ووجه الضيف:

- كيف أدخل في ما لا تستطيعون حلّه يا أمراء الجانيه؟

- لا نشكّ فحسب في الأمير الذي لا أتنازل أن أنطق اسمه يا ونتغ، هو فنشقه. هو من مدّ يد القتل إليك من مكانه.

ابتسم ونتغ وهو ينظر من فوق الأمير ذي الوجه الممتلئ الجالس أمامه: " مسكين هذا الرجل! يريد أن يتآمر على أمير الجانية من خلالي. يضع الكيس أمامي وكأني لا أعرف أنه يجرم بحقّ كل من يعطيه من الذهب. يقربه إليّ بأصابعه السمينة المتعركة.

- لنعملْ إذن يا أمير هكذا، - غلبت على ونتغ شفقتة على غير عادته، فارتاحت نفسه. - أنا سأنطق اسم من حاول قتلي، وأنت تعيد الذهب إلى من أرسلوه. وأبلغهم أن كل من يتعاملون معي سيئو الحظ، وأن لا علاقة لي بتنازع الأمراء على السلطة.

- إن كان هذا رأيك فسأنفذ لك كل ما طلبت، - أعاد الأمير الذهب إلى صدر كسائه بأصابع مرتجفة. - أرجوك الآن أن تنطق اسم المجرم.

- ليس اسمه سرّاً: بَنَكْس! - حسم ونتغ الموضوع. جحظت عينا الأمير تاخ من الجواب غير المنتظر. وزالت منهما نظرة التوسل، وغطاهما الدم. وقال كاظماً غضبه:

- نحن نعرف أن بنكس ضربك بالخنجر.

- ماذا تريدون إذن؟

- من كان وراء بنكس؟ على يد من قُتل؟ - فهم الأمير أن مهمته أخفقت فبدأ يعبث بقبضتيه على فخذه، ووجهه يشحب.

- أسألك أيها الأمير، - قال ونتغ وهو يراقب قبضتيه: - هل جئت إليّ محاججاً ومقاتلاً أم نسيت أن موعد انصرافك فات؟ - أنت تهينني يا ونتغ.

- وأنا عندي كرامة وأدب. لا أشهد زوراً على أحد. ولا أتدخل في ما لا يعني. إن كنتم حاملين على الأمير شبق فهذا شأنكم. أما أنا فلم تكن لي علاقة به قطّ، ولا له بي. - قال ونتغ بصوت جازم، - اخرج حالاً من داري طلق الوجه كما دخلت. وأنا سأتظاهر أن شيئاً لم يحدث. وأنت لا تُسمع حارسك ما لا حاجة إليه. ولن أشيعك كما يُشيع الضيوف.

- عِدْنِي أَلَا يَنْتَشِرُ الْمَوْضُوعُ الَّذِي جِئْتُ مِنْ أَجْلِهِ. - تَوَسَّلِ الْأَمِيرَ إِلَى وَتَنْعِ.
- أَعِدْكَ إِنْ كَانَ دَوَاءُكَ.

فَتَحَ وَتَنْعَ الْبَابَ وَأَخْرَجَ الضُّيُوفَ كَمَا دَخَلُوا. وَأَرْفَقَهُمْ بِتَمْنِي السَّلَامَةِ لَهُمْ.
قَالَ شِبْلَانُ حِينَ وَصَلَ الْفَارْسَانِ إِلَى عَمْقِ الْغَابَةِ:

- أَرَى وَتَنْعَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فَأَجِدُهُ يَسْتَحِقُّ مَا يُقَالُ فِيهِ: وَجْهَهُ وَجْهَ يَوْمٍ!

- هَذَا الْمَسْكِينُ مِثْلُ الذَّنْبِ يَتَّبِعُهُ بِمَا افْتَرَسَ وَمَا لَمْ يَفْتَرَسْ. إِنْ سَمِعْتَ بِسِيرَةِ
رَجُلٍ طَيِّبٍ فَهَذَا هُوَ... - حَثَّ الْأَمِيرُ الْحِصَانَ كَاطِماً غَيْظَهُ، مُتَسَائِلاً عَمَّا
سَيَلِّغُهُ إِلَى مَجْمُوعَةِ الْأَمْرَاءِ، مَفْكَراً فِي مَخْرَجٍ مَا. ضَحَكَ الْحَارِسُ شِبْلَانُ سَراً،
وَلَحَقَ بِالْأَمِيرِ.

V

عَقَدَ قَلَقْتُ مُؤْتَمِراً فَلَاحِياً فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي تَتَلَقَى فِيهِ حُدُودُ النَّاخَوَايِ وَالْجَانِيَةِ
وَالْبَجْدُوعِ وَالْأَبْرَازِ. أَرْسَلَ الْأَبْرَازُ وَالْبَجْرُقَوَايَ وَالْمَخُوشَ وَالْحَاتِيْقَوَايَ وَالْبَسْلَنِيَّ
مَنْدُوبِيهِمْ. لَمْ يَصِلْ بَعْدُ مَنْدُوبُو بَاقْسَانَ وَتَرَجَّ الَّذِينَ كَانَ يَنْتَظِرُهُمْ قَلَقْتُ بِكُلِّ
جَوَارِحِهِ دُونَ أَنْ يُخْبِرَ أَحَدًا. قَرَّرَ الْحُكُوفُ عَدَمَ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْمَوْتَمَرِ بَعْدَمَا
تَشَاوَرُوا قَائِلِينَ: "نَحْنُ جِبَالُنَا قَلَاعُنَا" وَانْسَحَبَ مَنْدُوبُو الْأَبَاطَةِ، بَعْدَ مَجَادَلَاتٍ
عَنِيفَةٍ قَائِلِينَ: "لَا عِلَاقَةَ عَمِيقَةً لَنَا بِالْأَدِيعَةِ، أَلَا يَكْفِي أَنْنَا نَذُوبُ فِيهِمْ بِوُطْنِنَا
وَلِغَتِنَا، وَلَكِنْ لَنْ نَقْطَعَ لِهَذَا السَّبَبِ عِلَاقَاتَ الْحَيَرَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ".

كَانَ قَلَقْتُ عَلَى عِلْمِ بَقَرَاتِ الْحُكُوفِ وَالْأَبَاطَةِ. لَمْ يَكُنْ عَاتِباً عَلَى الْأَبَاطَةِ؛
يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: "فِي قَوْلِهِمْ وَجْهَةٌ نَظَرٌ. مَلَاخُنَا مُتَشَابِهَةٌ وَلَكِنْ كَيْفَ نَكُونُ عِرْقاً
وَاحِداً بِلِغَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ؟ الْأَبَاطَةُ وَالْأَبْجَازُ أَصْلٌ وَاحِدٌ فَلْيَعِيشُوا مَعاً، صَحِيحٌ أَنْ
كِبَارُنَا يَرَوُونَ أَنَّنَا كُنَّا يَوْمًا مِمَّنْ أَصْلٌ وَاحِدٌ. وَالْوَبِيخُ وَنَحْنُ، نَخْتَلِفُ فِي اللُّغَةِ
قَلِيلاً فَلْيَلْحَوْهُمْ بَيْنَنَا مِنْذُ الْبَارِحَةِ يُؤَيِّدُونَنَا فِي أَقْوَالِنَا وَأَفْعَالِنَا. وَالْحُكُوفُ؟ هَؤُلَاءِ
يَحْتَمُونَ بِجِبَالِهِمْ. وَنَحْنُ أَلَيْسَ عِنْدَنَا جِبَالٌ؟ وَهَلْ جِبَالُ الْبَسْلَنِيِّ وَالْوَبِيخِ أَصْغَرُ؟
لِمَاذَا لَمْ يَأْتِ فَلَاحُو بَاقْسَانَ وَتَرَجَّ؟ أَخَذَعُونَا؟.."

- مَاذَا نَنْتَظِرُ؟ لِمَاذَا لَا يَفْتَتِحُ الْمَوْتَمَرُ أَعْمَالَهُ؟ سَأَلَ وَتَنْعَ رَفِيقَهُ شَرْخَ قَلَقاً عَلَى
حِصَانِهِ. - الشَّمْسُ تَرْتَفِعُ. وَالْجَوُّ سَيَتَعَكَّرُ.

- لست ممن تؤذيهم الشمس، ولا ممن سيتكلمون، أنت مندوب مراقب فحسب للمخوش. فلماذا القلق؟ اعترض شروخ.

- لو أقنعتهم المخوش فسمح لنا بالمشاركة في مؤتمر الفلاحين لكان عندنا نحن أيضاً ما نساهم به يا شروخ... - تذكر ونتغ اختطافه من ساحة المؤتمر قبل سنوات فنظر جهة قلقت دون عتبٍ عليه. يُحِيلُ إليّ أن شيئاً استعصى على قلقت. أنا لا مشكلة لدي يا شروخ بل الخيول المظلومة، ستغلي دماؤها في هذا الحرّ. ما يضرنا نحن إن آذتنا الشمس؟ هذه ستؤذيها الشمس لأنّها مغطاة بالسروج. - غضب ونتغ في سرّه.

- صحيح يا ونتغ ولكن لا فرق كبيراً بين دمائنا ودماء الخيل.

- لن تقول أصدق من هذا يا شروخ، - نظر ونتغ إلى ابن قرينه راضياً، - لا أتذكر أن إنساناً فهمني كما فهمني حصاني المحجّل. ليتني أريتك كيف استقبلني بالمحممة والنخير حين عدتُ من تركيا وعثرت عليه! وكيف ألصقت جبيني بجبينه وتشاكينا. وكيف كان ينصحيني طالباً أن أكفّ عن البكاء. لا أستطيع أن أروي المزيد، لا أتحمّل... حين تعرضت لاعتداء في الشتاء الماضي وقف بجاني كالإنسان. أعاد إلي الوعي بمحممته، وأعادني إلى البيت. ثم يأتيني من يسألني أن أبيعه! والله لن أتخلّى عنه مقابل مال الدنيا!..

- ربما لهذا السبب جاء إليك قبل أيام الأمير فواخ؟

- طبعاً! - جانب ونتغ الحقيقة. - وضع أمامي كيس الذهب قائلاً: إن لم يكف هذا أعطيتك المزيد. وإلى جانبه حصان جاهز.

- وماذا تريد إذن أيها البائس؟ - صرخ شروخ.

- بأيّ عين تنظر إليّ؟ - امتعض ونتغ من ملاحظة صاحبه. - هل تظنني بلا حياة ولا شفقة؟ لا أحد يسلبني إياه إلا الموت. أليس كذلك يا روحي الوحيدة؟ - مسح ونتغ على رأس الحصان. وألبسه قبعته اللبادية البيضاء. وبعد قليل خلعه عنها ولاحظها وهو يشمّها فرحاً برائحة الحصان: - لا تقلق، سأعيدها إليك مع اشتداد الحرّ.

كلما ابتعدت الشمس عن الصباح غسلت الدنيا بأشعتها الحارة. ونشطت الهوامّ فتهز الخيول رؤوسها، وتنفض عنها الذباب، ويرتفع نخيرها. وزاد امتعاض الفلاحين الذين لا يعرفون تفسيراً لتأخر افتتاح المؤتمر.

- كفى يا قلقت انتظائنا للقبرتاي البعيدين. - قال داور.

- وأنا أرى هذا، - وافق حاتاي صديقه الأكبر سناً. - ألا يكفيننا وجود البسلني بيننا؟ يبدو أن الفلاحين الذين ننتظرهم محصورون بين الأمرين تيمرقوه وأبشق لا يستطيعون المرور. ثم إن من يتخرجون من هذين الأمرين كذابون مثل جيوب الأمرين تاخ وفواخ.

- أصدّق يا أخي الصغير إن كان هذا رأيك أن جيوب تاخ وفواخ الكاذبة عميقة. ولكن لا تنسوا أن لهما ولغيرهما بعض الجواسيس الفلاحين. وليسا وحدهما فقد أرسل أمراء البجدوغ والحاتيقواي واليجرقواي جواسيسهم. - الوقت يمر وقلقت ينتظر القبرتاي - ما مضى كثيره سيمضي قليله ؛ سنتظرهم بعد قليلًا، ونفتتح المؤتمر. هل هذا الواقف هو وتنغ؟ - كان قلقت يرى الرجل منذ زمن بعيد فجعل من حوله يتصورون أنه يراه لأول مرة. - سألته بالسلامة وأعود. يستحق مهما قيل فيه، غير أنه تبين عن رجل صادق القول والفعل، وربما هذا ما لا يُعتَقَر له.

- الحمد لله على السلامة يا وتنغ، - مدّ يده للرجل الربعة الذي يعرج، - مرضت أطول مما في العادة. كيف حالك؟

- حياك الله يا قلقت، كأني ولدْتُ من جديد. سرّني أنك أرسلت إليّ من يعودني في مرضي وإن لم تستطع أنت شخصياً. نفعي دواؤك وطعامك. عوّضك الله بخيرٍ منهما.

- لست صاحب المعروف وحدي. لزعماء الفلاحين هؤلاء حصّة فيه. - أشار قلقت إلى جمع من الرجال. وحيّا الرجل المرافق لوتنغ: - أهلاً بك يا شروخ، كيف حالك؟

- لا بأس بحالي. أرسلنا المخوشُ مراقبين مستطعين ولكننا معك قلباً وروحاً. لا تتراجع عن المشروع الذي هممت به. أنصارك في نواحيننا يتزايدون. وحيراننا الأبراخ دبّ فيهم الوعي. أما اليجرقواي فيُشْهرون السيوف على أمرائهم.

- مهلاً، مهلاً يا شروخ. كلامك على الأمراء... - قطعت الضجة كلام فقلت.

- ها هما مجموعتان من الفرسان تتدافعان إلينا!

- لم أخطئ إن كانوا فلاحى القبرتاي. - توجه فقلت إلى حاتاي وقد انتعش قلبه: - استقبلهم مع مجموعة كبيرة من الفرسان!

تبين أن كلا من المجموعتين اللتين تعدُّ الواحدة منهما خمسين، هما من فلاحى القبرتاي. وكل مجموعة يتقدمها أمير. وإلى جانبهما حراس. تنافست المجموعتان على السبق إلى التحية، إحداها برئاسة تيبشنقوه الأخ الأصغر لأبشق، والأخرى برئاسة بلغايرقوه بن تيمرقوه.

- هل في المؤتمر الذي دُعينا إليه أمراء؟ - سأل تيبشنقوه دون أن يعير أهمية كبيرة لقلقت.

- ما دُعيت إليه أيها الضيف هو مؤتمر لفلاحى الأديغة. ولكن بيننا أمراء ومتنفذين. هذا هو الابن الأكبر للأمير جامبج، ومن إلى جانبي هو زغاشت بن لأماف الزعيم المبارك. وجاء من البجدوغ والناخواي والجانيه أمراء.

- وأنا اعتبرتني في عداد من سردت أسماءهم يا قلقت، - ترجل أفمق القادم مع مجموعة من الحراس، وحيًا الحضور. وعانق بلغايرقوه، وصافح تيبشنقوه الذي كان يسمع سيرته. وسأله عن أخبار القبرتاي.

- الأديغة في كل مكان يا أمير نعيش في تنافس. ولكن الأمير قايتقوه، والد الأمير الذي تبعنا، أشار إلى بلغايرقوه برأسه دون أن يلتفت إليه، يبقى والدنا قايتقوه كبير أمراء القبرتاي الكبرى في باقسان، كما كان دائماً، بالقياس إلى تيمرقوه كبير أمراء القبرتاي حالياً. الإمرة بالتناوب كأسنان دولاب العربى ؛ متى وصل الدور إلى أخينا الأكبر أبشق فسترون بأعينكم كيف سيسود الاتفاق في القبرتاي. وحينها سندعوكم إلى نواحيننا.

لم ير بلغايرقوه من اللائق الاعتراض على ما قيل في حق والده تيمرقوه مردداً في نفسه "ألن تقولوا غير هذا إن لم تتحقق نواياكم، سيجري في نهر باقسان الكثير من الماء قبل أن تعود إليكم الإمرة الكبرى للقبرتاي...".

- شكراً يا ضيف. - قال قلقت متصبِّراً. - لا تؤاخذني، هذا مؤتمر فلاحين، وليس محكمة تناقش نزاعات الأمراء. ولا تخلو منطقتنا، وكل أنحاء الأديغة من صراعات الأمراء - الفلاحين. سنجتمع اليوم لمناقشة موضوع دولة الأديغة غير الموجودة، فابق معنا، وساهم في أعمالنا، وسنعاملك بكل احترام.

- لا، لا، إن كان هذا رأيك يا فلاح، - تراجع تيبشقه دون أن ينطق الاسم، - سأستمع إليكم إن لم تهينونا، نحن الأمراء، وإن لزم أساهم بالكلام. ولكن يسوؤني ألا أرى بينكم الأميرين تاخ وفواخ.

- الأميران تاخ وفواخ يا ضيف، - أجابه بسمت لا يُطبق سلوك الضيف، - لا يشاركان بمؤتمرات الفلاحين. وإن شئت أن تراهما جمعناك بهما.

- لن أعود، وقد قطعْتُ هذه المسافة، دون أن أقابلهما. - سكت برهة، واختتم بكلام مبطن: - لو لم يستبق الروس أمير الجانيه الكبير شبق لزرته أيضاً. - اسمح لي يا ضيف، - ترك قلقت الضيف وتوجه إلى المؤتمرين، - سأقتتح المؤتمر وأعرض جدول أعماله.

ارتقى قلقت ما يشبه منبراً فزاد جسامته على جسامته. ثم رفع يده الضخمة مشيراً إليهم بالسكوت، فهذا المبلَّغون الموزَّعون بين المؤتمرين الناس، وبدؤوا يكررون كلام الزعيم الفلاحي:

- نتوجه إليكم بالكلام باسم فلاحي إقليم الأديغة المشاركين، والمراقبين، ومن حضروا يمثلون أشخاصهم، وكل من يهتمون لقضية الأديغة. نحن نؤلف مجموعة كبيرة من الفلاحين جمعنا قضية الأديغة وتبنيها منذ عدة سنوات. وحدث أن نفترق دون أن نتفق، وحدث أن تشاحنّا. وأكذب عليكم إن قلت إننا موحدون الآن. ولكن تفكيرنا في عرفنا المشتت، وعدم اتفاقنا، وافتقارنا إلى دولة، يجمعنا، وينبئنا إلى ما يمكن أن يصل إليه تفكيرنا وما لا يمكن، ويجعلنا أحياناً نتساءل: لماذا يغلبنا خان القرم؟ ولماذا زعيم القوموق؟ لماذا لا يدعُ النغويّ البسلتي يعيشون في أمان؟ هذه قضايا خارجية للأديغة. وقبل كل هذا دعونا نلقي نظرة على إقليم الأديغة. أقول: إقليم، ولا أقول: دولة، من أجل أن تفكروا. ما الذي يجري في غياب الدولة؟ نعيش أعرافاً متفرقة، قرية قرية، وكلّ يفعل ما يريد. من يريد وعنده القدرة يقطع الطريق ويتشبث بالأرض التي لا

يستطيع استغلالها، فيخرّبها العشب، ويترك الآخر ليس له ما يعمل فيه. نقيم على أسوارنا مرابط خيل كثيرة، وتبادل الزيارات، وتعامل بأديعية وإنسانية، ومتى افترقنا أدار كلٌّ ظهره للآخر.

- ماذا يقول هذا؟ - أشاح أحد المتنفذين الناخوي بوجهه.

- يريد أن يقول لنا شيئاً لولا أنه يماطل... دعونا نسمعه! - بدأت الفوضى تدبّ.

- الحبل الذي تفتله أطول مما تستطيع! - قال الفلاح، مندوب الأمير تاح، لقلقت.

- اهدؤوا لحظة! - نهر بسمت الفلاحين الثرارين.

- هؤلاء يا بسمت لو أطمعتمهم عسلاً، - أجاب قلقت دون اكتراث بما سمع، - لقالوا: دهنت به شفاها فحسب، ولن تستطيع إرضاءهم. أسياذ هؤلاء معروفون. إذا تجاوزنا واقع العلاقات بين الأسر - القرى إلى العلاقات بين أعرافنا فهي أسوأ المصائب. - تصلّب صوت قلقت الآن، وارتفع. - نحن الأديغة اثنا عشر عرقاً لا أحد منها يُطبق الآخر. نتنافس على كثرة العدد، وجمال اللهجة، فينقض أحدها كلام الآخر. وتتنازع على الأرض، وتقتاتل. المخوش واليجرقوي في خصام دائم. والأبزاخ والبجدوغ يتفانون. والبسلي والقبرتاي يتبادلون الارتياب. والجانيه يتنازعون، المؤهلون منهم وغير المؤهلين، على الإمرة. وقبرتاي باقسان وقبرتاي ترخ في حرب دائمة.

نصّ تيبشقوقه برأسه النحيل: " وصل إلينا أيضاً. كأن هذا الفلاح نسي من يسمى أميراً ومن يسمى فلاحاً، ونسي الأديغة. لا يراعي الأمراء الحاضرين ولا النبلاء ولا الأسر القوية. عجيب أن أحداً لا يعترض عليه. أشفقت عليه حين بدأ بموضوع الطرق والأراضي ومرباط الخيل، ولكن ملاحظته تصل إلى أمور كثيرة. حقاً لا وفاق بين الأمراء في القبرتاي، والفلاحون يقلدوننا في هذا فتشّتنا، والكل يعيش حياة الحرية الفردية غير المسؤولة، وقليل من لم يرفع سيفه أو مذارته داعياً إلى نهينا... لو استشرتني أيها الثرثار لنصحتك ألا تتطرق إلى موضوع النزاع على الإمرة الكبرى فهذه مسألة تخص الأمراء، لا علاقة للفلاحين بها... ما وقّع هذا الكلام على ذاك الذي أرسلوه في إثري ظناً منه

أنهم يجرمونهم من حصته؟ - التفت إلى حيث يقف بلغايرقوه. - وهل يهتم هذا بما نختتم به؟! "

- والناخوي؟ والحكوف؟ يرتفع صوت قلقت شيئاً فشيئاً. - وهؤلاء يميزون أنفسهم. يعتقدون أنهم سيعيشون سعادة وحدهم. ونحن الجانيه موزعون على ثلاثة اتجاهات أو أربعة: من عيونهم نحو القمر، وآخرون نحو روسيا، وغيرهم إلى تركيا. ثم أمثالنا الداعون إلى وحدة الأديغة كلهم. والأديغة في الأماكن الأخرى لا يختلفون عنا. همّا، إن كنا قادرين أم لا، هو تمزيق إقليم الأديغة. وحين نقع في موقف صعب لا نترك أحداً لا نُهرع إليه ونتوسل ونتذلل، من خان القمر، إلى زعيم القوموق، إلى سلطان تركيا، وقصر روسيا.

- صحيح يا قلقت، صحيح، - صاح أحدهم من بين جمهور الفلاحين.
- من يعجزون عن ترتيب شؤون أسرهم يرتبون شؤون أمرائنا. - أضحك المؤتمرين صوتاً حاداً لفلاح ردد المنادون فأضحكوا الحضور.
رفع قلقت يده وقال للفلاح حين هدأ الناس:

- لو كان الأمر بيدي لما سمحت لك بمثل هذا الكلام المرّ يا أخي. لم نجتمع اليوم لتتكلم على أمرائنا. ولكن الفلاحين يتصرفون مثل أمرائنا أو أسوأ: يسرقون، ويحاربون، ويدعون الباخسمة وشراب العسل يلعبان بعقولهم. انظروا ما يجري في أسواق الشاطئ: يُباع الناس فيها كالحوانات، وبيادل بهم. من يفعل هذه الموبقات، ومن يأمرهم بفعلها؟

ارتعب وتنغ في سرّه: " ليتّه لم ينطق اسمي... - لن يفعل قلقت بي هذا بعد الحادثة التي جرت لي. دنا مني وصافحني. لو أطلعت على ما في قلبي، على مرادي... وإن أهانني وجدت فرصة للانتقام. لن أدعهم يشبهونني بالحية فيقولوا: الحية مهما بدّلت جلدها تظل تلدغ. وإن سألوا إن كان أحد يريد الكلام أطلع المؤتمر على ما يشغل بالي، وسيفهمني قلقت... لم يذكر اسمي، شكراً له، كل كلامه صحيح".

- ولهذا، يا مؤتمر الفلاحين، يا من حقق الله له كل أمانيه الخير، فإنّ توجّه كلّ منا إلى حيث يتجه رأس حصانه، وتشبيهه نفسه بالطائر البري، وتنافر أبناء قومنا، ونظرة العالم كله على أننا شعب يعيش في حالة دوار، وجريتنا إلى هنا

وهناك، كل هذا نتيجة فقدان وحدتنا. ليس كونك فارساً وحيداً أمراً حميداً. الوحدة قوة، ويصعب معها الاقتلاع من الجذور. وستجبر الطامعين فيك والغزاة على إعادة التفكير. نحن لا نطمع في أرض أحد أو في بلاده. حاجتنا إلى بلاد نحافظ فيها على إرث الأجداد من العادات والتقاليد، ونعيش عليها بأمان. نحن بحاجة إلى دولة الأديغة! أنتهي هنا من الأفكار التي تجتمع عليها عقولنا. إن كان عند أحدكم سؤال فليسال، ومن يريد الكلام فليخرج من الحشد.

- ما نحن فيه يا أمير مؤتمر خالص للفلاحين، - همس بلغايقوه لأفمق، - مهما قلت لهم فلن تتفاهم معهم. - نحن فهمنا أنه مؤتمر أمراء ونبلاء.

- الأفضل ألا تشاركهم بالكلام يا أمير، - همس أفمق للأمير الضيف. ثم ابتسم: - لم يبين صديقي قلقت إن كان سيؤسس دولة فلاحين أم غيرها؟

- أنا عندي سؤال، - قال الرجل الضئيل الأحذب بصوت ضئيل مخنوق. - أنا من فلاحي البجدوغ. لم أفهم ماذا سنفعل بأمرائنا إن أسسنا دولة فلاحين.

- وهذا له جواب يا كبير. - لم يدعه قلقت ينتظر. - أولاً ليس للبجدوغ دولة كما ليس لسائر الأديغة. ليس صحيحاً تسمية كل قرية فيها أمير بدولة. سبب غياب الدولة هو تقسيمنا إلى إمارات وقرى. وثانياً: ليس ما ندعو إليه دولة فلاحين، بل دولة أديغة يحد فيها كل مكاناً له.

- وكيف تريد للأمراء والفلاحين أن يتخاطبوا؟ - سأل الأبراهيم ذو الوجه المشعر.

- سيكون بين الطرفين اتفاق كما كانوا سابقاً.

- ومن سيعقد الاتفاق؟ - سأل فلاح من مكان أبعد.

- عاهل البلاد. - وجد قلقت الجواب.

- وهل سيكون هذا فلاحاً أم أميراً؟ - بدأ الناس يتصايحون.

- سيكون على رأس دولة الأديغة أمير كسائر دول العالم. - حسم قلقت باختصار.

- إذن يا قلقت كلامك مجرد ثرثرة إلا أن تتراجع عن كلامك.

- أنا أعمل لأسرة الأديغة، لا لشخصي.

- إذا كنت ستسليم دولة الأديغة إلى الأمراء فلماذا مؤتمر الفلاحين؟
- إذا كنتم توافقوننا فمهمتنا إفهام الأمراء أن الفلاحين يريدون دولة فيها نظام.
- نعم، نريد. - أجاب الفلاحون بصوت جماعي متآلف.
- حياكم الله، - إذا انتهت الأسئلة فمن يريد الكلام...
- ولماذا تنتهي الأسئلة؟ - صاح البجدوغ الأحدب ثانية من بين الحشد، - إذا قرر مؤتمر الأمراء أن لا حاجة إلى دولة، وسنعيش كما في السابق؟
- وهل يمكن أن يقول هذا؟.. - تساءل قلقاً بنبرة يأس، ثم باح بما يتخوف منه: - إن اتخذ الأمراء هذا الموقف فلنا تصرف آخر. ولكني أخاف أن تكون نحائنا، الأغنياء والفقراء منا، على يد مثل هذا السلوك.
- سؤال آخر أيضاً، - الفلاح البجدوغ لا يتوقف عن الأسئلة، وينهر أحد من قاطعوه: - أنا لست ممن ملقوا أفواههم ماء. يُسئونك ماذا جهزت لتقوله... - نعم، لنفرض أنكم أسستم دولة أديغة فكيف ستعيش كل هذه الأعراق في دولة واحدة؟
- سيرتبط الجميع بحاكم البلاد وكلّ محتفظ باسمه. وسيأترون بأوامره.
- هل سيُحرّمون من الحرية البتة؟
- ستكون لهم بعض الحريات. - صعب على قلق السؤل غير المنتظر. ولم يكتف ما لا يعرفه، - ولكننا لم نفكر بعد في هذا الموضوع. متى أسسنا دولة فستتضح هذه الأمور.
- أيها الحشد المجتمعون على الخير، عندي بعض الكلام إذا كنا انتهينا من الأسئلة. - حين توجه زغاشت بكل متانة إلى المنبر، نزل قلق من المنبر قائلاً في نفسه لحميه الجديد: "لم يكن من المناسب أن تبدأ أنت الكلام" ووقف وراء الفلاحين. - كلامي مختصر. بينكم من يعرفني، ومن لا يعرفني أكثر، ولذا سأعرفكم بنفسي. ليس بين أمرائنا ونبلائنا ومتنفذين من لم يعمل يوماً بالأرض. أنا من الأسر المتنفذة. ووالدنا يقول إن الجميع أديغة، لا يسميهم اسماً آخر. ومن نزل من هذا المنبر قبلي صهري. ولو لم أسمع ذكره لما كلمته قط. ولم أقف أمامكم لأؤيد كلامه أو أقنعكم بأرائه. ولم يكن صاهرنا حين تبى قضية الأديغة. ليس هذا هو المهم. ما صعد بي إلى هذا المنبر هو أديغيتي، وقلقي

الأديغي، ولهفتي عليهم. ألا يكفي ما نخبنا القرم، وتدخلت فينا تركيا من وراء البحر. ومن جهة القبرتاي يعبث بنا الفرس. ونتخذ من أعدائنا الأزيلين أستراخان وخانات النغوي أقباء متوسلين إليهم. ومن الجهة الأخرى نركض، نحن البسلني والجانيه، إلى حكام روسيا. كفانا، حان الوقت لنعود إلى وعينا. هل وصل بنا الضعف إلى أن نعجز عن تأسيس دولة كما فعل أعداؤنا المحتلون. سيغيّر العالم نظرتة إلينا متى أسسنا دولة. لا تؤاخذني؛ كنت تعهدت ألا أطيل الحديث ولكنه طال رغماً عني.

تكلم عدة أشخاص بعد زغاشت. ارتقوا المنبر، ونزلوا. ومهما تغيرت أصوات المتكلمين فالموضوع واحد: تأسيس دولة للأديغة، وعقد مؤتمر للأمرء كما فعل الفلاحون لتأييد القضية. ولكن قلقت لم يترك أحداً لم يقوّم كلامه أو ينصحه أو يلمه كي لا يعطي ذريعة للأمرء دون مسوِّع. سأل ونتغ رفاقه في آخر المؤتمر:

- يا شرخ وتمتج، هل يريد أحدكما أن يُسهم في المؤتمر باسم المخوش؟ أريد أن أقول بضع كلمات إن لم تمنعنا. - يا قلقت دعني أنا أيضاً أساهم في المؤتمر. - صعد ونتغ إلى المنبر يعرج ويميل إلى أحد جنبيه، وسمع صوته حالاً: - أيها المجتمعون، يا من جعل الله يومكم مئة. أنا ارتكبت من الشر أكثر مما فعلت من الخير. ولكن لا تقولوا من أين عاد ونتغ الأعرج لأن الله يقبل توبة التائب. أعاد لي الهمم القومي عقلي. وعرفت أنني خلقت من جديد. أؤيد ما قال زعيم الفلاحين قلباً وعقلاً. إنه إنسان يتمتع باللهفة والرحمة. إذا ضمنا قلقت إلى قائمة حكام الدولة الجديدة فلن يخذلنا. - لا تقاطعني يا قلقت! أنا لا أتكلم من قلبك. ولم أصعد إلى هنا لأفعل ذلك. أنا أقول رأيي، والفلاحون يفعلون ما يقررون. والآن أريد أن أقول كلمة واحدة بخصوص الشاطئ الذي تكلم عليه قلقت. أنا من لا يعرف المآسي التي تحدث على شواطئنا؟ علينا أن نحمي الشاطئ بدءاً من بحر آزوف وانتهاء بالبحر الأسود. سنهتّم بمن يُحْمَلون من أرضنا أكثر ممن يجلبون إليها. علينا التخلص من النخاسة. إن ألفنا مجموعات من الفرسان تحمي حدودنا فنستقطع الطريق على الإجرام. والآن إن ضممتوني إلى قوة الفرسان هذه، وإن رأيتم أن ترّسوني عليهم فلا بأس، فلن أخذلكم.

- حياك الله يا وونغ، - ودّع قلقت الرجل النازل من المنبر. - هذا الاقتراح بعد تأليف الدولة. من أيضاً يريد الكلام؟ إن رأيتم أن لاجحة إلى المزيد أنهيها اجتماع المؤتمر هنا. وسنتظر ما سيفعل أمراء الأديغة الذين دعوناهم، ونترب ما يقررون.

- مهلاً يا قلقت، لحظة! - استعجل أحد الفلاحين الشباب. - إن تذكرني فقد أنقذتاني، أنت وداور، من المجرمين. أنا ميجان. لست وحدي، بل معي أخواي الأصغر. أنفذ وصية أمنا أن أتكلم في المؤتمر. أسرنا تؤيد كل ما قاله الفلاحون الأكبر سنًا.

- عشت يا ميجان. وحقق الله لك ولأخويك أمانيكهم! نود أن نعرف مرة أخرى رغبتكم في تأسيس دولة أديغة واحدة، ودعوتكم الأمراء إلى عقد مؤتمر مماثل لهم.

شهر الجميع معاً، الموافقون وغير الموافقين، سيوفهم في الهواء.

- حياكم الله، نظر قلقت إلى العاملين في المؤتمر وقد أضاء الرضا بنتائج وجهه، فضحك في سره من تكاسل صديقه أقمق والأميرين الواقفين إلى جانبه. وأعاد سيفه هو إلى غمده.

VI

- أيّ ريح هذه التي تهب علينا؟! - زحف الأمير فواخ محتجاً من فوق السرج، ودخل الغرفة، غير عابئ بشبلان المسك بزمام حصانه، ساخراً مما يرى في دار الأمير تاخ. وبعد تبادل التحية ساهم فيهم: - أيّ مجموعات قليلة - كثيرة أرى؟ هل تبكون على المؤتمر الذي حبكه قلقت الخبيث؟

- هل كان مثل ذلك الاجتماع الذي تتكلم عليه؟ - تظاهر الأمير تاخ بتبادل المزاح مع ضيفه، واستدرك بسرعة مخاطباً نفسه: "ظهرت لنا مهامٌ تُنسبنا ذلك اليوم".

- وما نوع هذه المهام؟ تلهّف الأمير فواخ كأنه حُرْم من شيء ما.

- أن تنتج أفراسك الخمس، وأن تولد لك خمسة عجول، أمرٌ سار يا أمير. - ابتسم الأمير مرتوق، وأجاب بدلاً من تاخ: - هنيئ الأمير تاخ، ونحن هنّاها.

- أهنتك يا أمير، وأدعو أن يبارك الله فيك كما في أمهارك. - خطب له، حاسداً إياه، قائلاً: "هذا الجثة محظوظ"، ولم يملك إلا أن يسأل: - هل ولدت الأفراس الخمس في يوم واحد؟

- وليس هذا مستحيلاً، - بدأ الأمير تاخ يدور حول الموضوع قائلاً: "انظر إليه كيف امتنع لونه، لو استطاع لألثاك في الهاوية، ولن يسمح أن ينبت من الحشيش أكثر مما يكفي لثورين. ليت لم يُصبك بالعين"، وأضاف: لا تصدِّق ما قيل لك؛ مرتوق مزح معك. صحيح أنه ولد لي خمسة عجول، ولكن خلال أسبوع.

- ألم تبق إذن أسبوعاً كاملاً في عمل دائب؟ - استبق الأمير فواخ بما يشغل باله دون الاهتمام بجوابه: - حسنٌ أن تولد لك عجول، وأنا ولدت لي مهرة في الأسبوع الماضي، وكنت وعدت حارسي من أجل الموضوع الذي نعرفه معاً فأعطيته إياها حتى لا أخلف بوعده الأمير. هذه حالنا: بدلاً من أن نعتني بأنفسنا ونرفقَ عنها نحرم أنفسنا من أجل أن نقدم للناس؛ فهل يفهموننا؟.. والله نحن هبت علينا ريح عاصفة، لا أدري الوضع عندكم. جئنا رغماً عنها. هل نقعد إذن مكتوفي الأيدي، ممنوعين من الكلام هكذا؟ هل نعيش كما يأمرنا فلاحونا "الكرام" الذين يجتمعون فيقررون؟

- أستمع إليك يا أمير، - هز الأمير تاخ رأسه للأمير فواخ، - فأراك على ما كنت عليه.

- هل أخبرتك أنني سأغير الطريق؟ - ارتجف الأمير فواخ. - مهلاً يا أمير، لم يخطر لي ما توجست منه، - استدرك الأمير تاخ بسرعة. - كنت أود إسماع الأمراء أن قولك وفعلك متلازمان.

- حسنٌ إن كنتما تقولان هذا، - تظاهر الأمير فواخ بسحب كلامه ولكنه امتدح نفسه، - إن لم يكن قولي وفعلي متلازمين فليس للجبل قاعدة ولا قمة. لا أظنكما تكلمتما في ما يشغل باليكما قبل أن آتي إليكما. ولكن إذا كان الأمر يتعلق بي فإن عرضتماه عليّ ثانية فلن أدعكما تحططان.

"ما أشد سذاجة هذا الإنسان!" نظر الأمير تاخ من طرف عينه إلى ضيوفه الآخرين، وصاح في أعماقه لا يعرف إن كان سيكظم غيظه أم يحتج: "يهجم

على أعتة خيلنا قبل أن نركبها. ويحاول أن يستولي عليها. إن تحقق لنا ما نسعى إليه فكيف سيتصرف هذا معنا؟.."

لام الأمير مرتوق نفسه على ما كان يشغل باله منذ شتاء هذا العام "هذان، الأمير تاخ والأمير فواخ، أي مهمة ملحة جاءت بي حتى أعصر نفسي بينهما!.. - هل عجيب إن قال لي الأمير شبق، وقلت له، شيئاً لا يروق لي؟ عيب أن توصل عتبك إلى إراقة الدم. لأجله أم لأجلنا لا يفارق صهوة حصانه؟ لو كان يبحث عن مصلحته لاتفق مع القرم وتركيا ولم يقطع كل تلك المسافة. نحن الأمراء نتحمل جزءاً من المسؤولية. من عندنا نُحله محله في زماننا الثقيل؟ الأمير تاخ أم الأمير فواخ؟ هذان تنتكب على يديهما ولن تنتفع. أنا لا مشكلة عندي، يمكنني بكل بساطة أن أتركهما ولا أسمح لهما بالاقتراب مني. ولكن هل تقف جانباً وتتركهما يعيثان فساداً في أرض الجانية؟ لا يجوز السماح لعشاق المناصب بتبؤ منصب الأمير الكبير. وأظن أن الأمير جان يشاركني هذا الموقف، فعليّ النجاة بنفسني قبل مزيد من التورط."

ابتسم الأمير جان الذي اختلس مرتوق النظر إليه ويفكر بمفارقتهم: " ماذا يحاول الأمير فواخ ليعيد ترتيب ما اتفقنا عليه؟ إن ظن نفسه تجاوزنا فهو مخطئ. الأمير مرتوق وقور، لم أسمع سيرته على لسان أحد بالسوء إن لم يكن بالخير. من لا يعرف حُبث مضيفنا المحتضر؟ حُبث هذا الرجل وتوسلاته يأخذانك إلى كثير من الزوايا المعتمدة، ولكن متى عرف أن المحاولة لن تنجح فلا تتأمل منه أن يجنبك إياها ويحميك. من يهتم الآن بالذكاء؟ الغني هو الذكي. وإلا لم ينتبهوا إليك. هذا الذي ينوي مجادلتنا بالقياس إليّ يحمل اسم الأمير فحسب. لا يملك الكثير، وربما هذا هو السبب في ركضه وراء منصب كبير الأمراء. ربما يتأمل أن يغتنى منه. لا يجوز إعطاء الفقير منصباً إذ سيعيش من أجل شخصه فقط. الغني وحده هو من لن يطمع في شيء... يا حسرتي، هو مثل من يقال فيه: لا تدعني أقول..."

- أراك يا أمير لا تقول شيئاً كأني أفزعتكم!

- لن تفرعنا بهذه البساطة يا أمير. إن لم تؤذك الريح العيفة التي خرجت منها. وجهك طلق، جئنا نحن الجانية البؤساء بنية طيبة. - نهض الأمير جان،

وتظاهر بإصلاح وضع حزامه الفضي، وتناول عصاه. - لماذا نظل نكرر الكلام؟ أنا سأكون جاهزاً متى طلبتم. سأغادر لأن أمامي طريقاً طويلاً والريح تشتد.

- إذن أيها الأمراء، استعجل الأمير مرتوق الذي كان يبحث عن حجة، - لن أجد رفيقاً أفضل من الأمير جان. مع

السلامة، أنا أيضاً منصرف. موعدنا متى أخبرتمونا.

بقي الأميران تاخ وفواخ وحدهما فبادر الثاني إلى القول:

- ما سبب انصرافهما بهذه الطريقة؟

- ومن أين لي أن أعرف يا أمير! رأيْتُ ما رأيْتَ أنت وسمعت. أجاب تاخ جواباً سؤالاً معاً. تكلمنا على موضوعنا حين رأيْنَاك متأخراً، لم يكن بوسعنا القعود عاطلين.

- تكلمتم... - تتم الأمير فواخ غير مصدق كلام المضيف. - أأنكونون تكلمتم عليّ في غيابي؟

- يا أمير، تدفعني أحياناً إلى اليأس منك، - احتدّ تاخ، ثم أكمل حازماً: - كأنك لا تعرف أنني لا أسمح لأحد أن يتكلم عليك بسوء أمامي.

- حيّاك الله. أنا واثق منك في هذا. ومع ذلك أقول من يعرف...

- لا تحظرُ لك مثل هذه الوسوس يا أمير. - غضب الأمير تاخ في سرّه قائلاً: "عليك أن تمتدح هذا الأعشى دائماً وترتب على ظهره" - أنت وأنا نجرّ

عربة واحدة. أخبرني حالما تشعر أنني لا أجرّ معك. إن لم يؤلمني ظهري كما حدث مرة فلن أتركك وحدك. ولست وحدي، بل ذاك الذي انصرف أيضاً. لم

أجد من اللائق زيارتك لونتغ. ولكن الأمراء سُروا جداً حين رويْتُ لهم الخبر الذي جئت به. وامتدحوك؛ ومع ذلك لا تثق بهم... هل تعتقد أن ذلك

الأعرج القبيح يمكن أن يفني بوعدته؟

- لماذا هذا السؤال؟ هل سمعت شيئاً؟ - ارتعب فواخ سرّاً مما كان يتوجس منه.

- أتساءل على طريقتك: من يدري! صعب أن تثق باللصوص والمجرمين. إن أعطاه أحد أكثر مما أعطيته نقض كلامه وتجاوزك.

قلق فواخ: "ماذا يقول هذا كأنه سمع حديثي مع ونتغ؟" وفي الحال ارتسمت صورة شبلاں الذي كان يقف غير بعيد مع الخيل. وتردد على سمعه ما كان قاله في عمق الغابة بحق ونتغ. وتذكر أنه أفهم شبلاں حين صارا في عمق الغابة أن ونتغ أخيره أن السبب في قتله بنكس، وردّ الأخير عليه، هو الأمير شبق. ثم التحق الحارس برفاقه. - "ولذا من سيتابع كل ما جرى لونتغ الأعرج؟ ومن سيسمع كلامه؟ ومن سيصدّقه؟ أنا واثق، ولم أسدّ فمه بالمهرة عبثاً. ثم إنه كان بعيداً عنا أثناء حديثي مع ونتغ، فلم يسمع الحديث، ولم تقع عينه على كيس الذهب. ما المشكلة إذا كانت جماعة تاخ تشاركوا في جمع بعض الذهب، وأنا الآتي من هذه المسافة، والمغامر بالحديث مع المجرم؟..." ثم أعاد الأمير فواخ التفكير، وغضب:

- إن تصرف معنا ونتغ هكذا فسأنتزع منه الذهب وأمر بإزهاق روحه! هل خلا من كل رجولة وإنسانية فيخذلنا؟!

- تعرف هذا في الساعة التي تتجلى فيها رجولته. - قال تاخ وأكد لفواخ هواجسه: - ألم يكن معك الحارس الشاهد كما كنت رويت؟
- وكيف لا يكون معي! وأفهمتهم أن ما سمعوه ليس سرّاً، وتصرفوا مع الفلاحين جيداً في هذا.

- ما فائدة الكلام في الموضوع إذن؟! - صرخ تاخ بصوت متقطع. - دعنا نرفع كأسين على شرف رجولتك ريثما يغيرون الطاولة.

- لا، لا. لا أعرف ما سيحدث لي إن أضفتُ الباخسمة إلى الريح المزعجة...
- مدّ فواخ يده إلى الكأس حريصاً على عقله، قائلاً لنفسه: "ينوي أن يُسكرني كما فعل قبل أيام فأكشف له عن أسراري. لستُ أغني منك، وأعرف ما تتصيد: ستلتقط مني خطبة ممتازة فتنتحلها لنفسك وتشيعها بين الناس".
سأرفع معك، وأشرب شقّة، ولكن لا تُخرجني لأكملها.

- حسناً يا أمير. - وافق الأمير تاخ بسرعة، - غير أنني أودّ أن أبرئ نفسي بهذه الكأس من خطأ قديم. هل تتذكر يا أمير جدالنا على خطبة ما؟

- حدث كثيراً أن تجادلنا في خطب الأنخاب، والعبارات المؤثرة. أتذكر إن دكرتني. ولكنك سلبتني خطبة ممتازة لن أغفرها لك.

- أَعِدْهَا مرة أخرى يا أمير لنرى! - ابتسم تآخ بوجه مُرآءٍ لضيغه.
- تلك الخطبة التي شاعت بين الفلاحين والأمرآء والخانات وسلطان تركيا. إن كنت تعترف بأنها لي فارفع الكأس! ليقق أعداؤنا تحت أقدامنا، وأخيارنا في حضرة الله.

شرب الاثنان كأسيهما حتى الثمالة:

- يا للراحة! - لم يكن مفعول البآخسمة بدأ بعدُ حين صاح الأمير تآخ. - أيّ مصيبة أوقعْتُ نفسي فيها حين نسبوا إليّ ما ليس لي!.. سآخني يا أمير، لا أستطيع إلى الآن أن أتذكر السبب في نسبتها إليّ.
- لا حاجة لكل هذا الاعتذار، - تابع الأمير فواخ كلامه وقد توهجت وجنتاه من البآخسمة المزوجة بشراب العسل. - شكراً لك على تحليّك بالرجولة وإعادة خطبتي الرائعة إليّ. ولكن كيف أصحح للناس بعدما انتشرت بينهم؟

- وهذا له طريقة يا صديقي... مهلاً، لا تقاطعني! وأنا أعرف كيف تصرفت مع حارسك. لو كنت محلك لقطعْتُ عنه النَفْس إلى الأبد. الموت أسهلُ مما اعترفت به الآن. سأعلن إن كنت في وحدتي أو مع رفع الكأس في المناسبات أن تلك الخطبة لك.

- هذه رجولة منك يا أمير. والله رجولتك وإنسانيتك متلازمتان. الله منحك عقلاً حاداً. أرفع على شرفك هذه الكأس مهما كان ضررها عليّ. حياك الله، وأدام عليك السعادة، أخطب داعياً أن تبقى بيننا طويلاً تنير لنا الطريق بحكمتك. - "ليتك لم تمت بيننا قبل أن تنتهي من مشكلة النخب" أفرغ تآخ الكأس في إثر خطبة الأمير فواخ.

سرت رائحة طيبة حين جيء بأحشاء الخروف الطيبة إلى المضافة. وقال الأمير تآخ، يهز رأسه سعيداً:

- تفضّل يا أمير، أنا آكل كل يوم من هذا!

- كلّ يوم! - تذبح كل يوم خروفاً! ستخسر كل خرافك هكذا. ألقى فواخ الذي بدأ مفعول البآخسمة يسري في جسده نظرة تعجب على مضيغه. ولكنه أفهمه معتنيّاً بنفسه: - وأنا أحب الخراف، أخطأ الأميران المنصرفان على عجل

كأن النار اشتعلت في أذيال خيلهما. لو عرفا لعادا... - كان يحاول إضافة شيء في حق الأميرين ولكن الأمير تآخ لم يقبل:
- لا أريد أن نلطح هذا الطعام النظيف بذكريهما. أليس الأفضل أن نستمتع به؟!
- لا، يا أمير، لا تصب لي!

__ أليست المائدة بثلاث قوائم؟

- نعم، ثلاث.

- إذن يا أمير دعنا نضيف كأساً إلى الاثنتين، ودون هذا لن يرضى الله عنا. هذه الكأس لك، على شرف رجولتك وأخلاقك وكرمك. بارك الله في أسرتك ومالك. عشت وأعداؤك يقتلعون أعينهم، ونار موقدك لا تنطفئ، والريح المعاكسة لك تصبح أغنية، تتقدمنا دائماً عجزاً خيراً!

- ما هذا كله! يكفي أن تتحقق لي واحدة من أمنياتك. - فرغ الأمير فواخ كأسه غير مصدق. قال لنفسه: " من حسن الحظ أن تسمع كل هذا الكلام الجميل ولو ممن لا يجبك " ولم ينس امتداح مضيفه: - أنا فسك أحياناً ولكنك خطيب ماهر.

- بديهي! - كان مرتاحاً للإطراء ولكنه قال لنفسه: " لن أدع عاشق المديح هذا يفقد اتزانه " فاستدرك سريعاً: - ونحن مع الشرب ينطلق لساننا، ولكن لا ننافس كلماتك الصائبة... يا أمير أريد أن أخبرك بما سمعت قبل أيام وأنسى، وربما كنت تعرف.

- لا يحدث في الجانيه ما لا أعرف.

- شوهده ونتغ الأخرج يوم الأحد الماضي على الشاطئ.

- أسمع لأول مرة. - قال فواخ وقد صحّاه الخبر من أثر الشراب، وسأل عنه:

- ماذا يفعل على ساحلنا؟ سمعت أنه انتكس جرحه بعد كلمته أمام مؤتمر الفلاحين، فأوصلوه بصعوبة إلى بيته.

- ليس مريضاً، يتنزه على الشاطئ متصدقاً بالمال الذي رشوناه به.

- وهل يتصدق بالذهب؟ - نص الأمير فواخ رأسه قائلاً في سرّه: "لا مشكلة إن لم يكشف أنني تناولت الكيس من أمامه" فطمأن نفسه. ولكن الشك عاد إليه.

- هذا ما يفعل على رواياتهم: يفتدي الناس الذين يبيعونهم، وينتزعهم ممن هم أضعف منه.

- والله ما تقوله عجيب. يبدو أن اللص المجرم بدأ بعد ما عاد من الموت يفعل الخير بما سلبه منا. - ابتسم فواخ مندهشاً، وجحظ بعينه كأنه سيقول شيئاً هاماً. - هل تعرف لماذا يفعل وتنع هذا؟ يريد أن يفهم الناس أن لا أحد يستبشع رجله، ولا أحد يدين نفسه. ما رأيك يا أمير؟ - بدا قلقه من سؤاله وإن كتمه.

- وماذا سيكون رأيي؟ ليس مستحيلاً. ولكن يقال أيضاً: المذنب لا يتسع حبل براءته لخصره.

- والله صحيح. ولكن ما حاجتنا نحن إلى وتنع الأعرج القبيح؟ بعدما أخذ منا ما أخذ. - هذا سرّ، وما نريده منه جعلناه يعترف به. أظن أن مجيئي إليك بسبب الريح الشديدة أصحّ من التصرف الذي اتفقنا عليه قبل أيام. ولكن لا أعرف رأيك.

- إنما الأعمال بنتائجها.

- لماذا يجب أن نكون بين الفلاحين، ونحن الأمراء الذين سيصارحون شبق ذا العقل الفارغ بأنك: "كنت تنوي أن تدفع من يقتل وتنع الأعرج ولكن إجرامك لم يتحقق؟"

- صحيح يا أمير. وأنا كنت أفكر في هذا.

- كان يليق بنا أم لا؟

- لا، هذا هو يا أمير ما كان يقلق الأميرين اللذين انصرفا، ولكن لم يستطيعا مصارحتك. ليهاجمه الفلاحون، وليصارحوه، وليقلعوا عينه؛ أليس هذا ما تريد قوله؟

- هو بالضبط يا أمير. شكراً لك. فهمتني. نحن أحرار في ما نقول وما نفعل بعد ضجيج الفلاحين. أفواهنا وأيدينا حرة.

- نعم يا أمير. سنجد طريقة لجمع الأمراء. ولكن الأفضل ألا نؤذي أحداً في جسده.

- وهل نحن أحرار في هذا؟ ارتفع صوت الأمير فواخ، - سيتعلق كل شيء بتطورات مهماتنا. لا يُستبعد أن يُلجئك هؤلاء إلى رفع السلاح دون إرادتك... أيُّ وقت سيكون الأفضل لنعرف إن كان حاضراً أم غائباً؟
- سندفع الفلاحين للهجوم في غيابه، ومتى عاد سنأتي به إلى اجتماع الأمراء بالجرم المشهود.

- هذا أفضل شيء، - خبط الأمير فواخ على فخذه براحتيه الرطبتين. ثم سأل معتداً بما قرأ: - ألم أفكر بذلك يا أمير؟
- فكرنا معاً على نحو جيد، - أجاب الأمير تاخ.

VII

لم يكن بلغايرقوه العائد إلى القبرتاي يستطيع نسيان مؤتمر عموم فلاحى الأديغة الذي مضى عليه أكثر من شهر. وعلى موائد الضيافة في الجانيه، وعلى الحصان، وفي الأعراس والمآتم كانت ذكرى المؤتمر تطفو فجأة على سطح الذاكرة فترسم وجوه الفلاحين ونظراتهم. ويظهر له ما أعجبه منه وما لم يعجبه. ومن لا ينساه البتة هو الزعيم قلقنت، وونتغ الأعرج، وزغاشت وميجان الذي تحدث باسم والدته وأخويه الصغيرين.

"وكيف كانوا يُشهرن معاً خناجر القرارات؟.. - سأل بلغايرقوه ثانية وهو يتنهد. - ونحن؟ توجب علينا نحن أيضاً أن نشهر خناجرنا تأييداً. لا يعني هذا أننا نؤيد ما قيل وما أنجز في مؤتمر الفلاحين. حسناً فعلنا إذ لم نتدخل في شؤونهم. وفي هذا تصرّف أعمق بحكمة. وتبيشبقوه كان يغمغم ولكنه تصرف برجولة، وصبر. وكان علينا أن نتصرف هكذا. مجادلة هؤلاء ومعارضتهم بمثابة مقاومة الهواء. ولكن الحق أن الفلاحين لم يقولوا بحقنا ما لا يجوز. ومؤتمر الأمراء الذي اقترحوه هو رجاء لا إجبار. والآن ماذا سيكون ردُّ الأمراء الذين توجه الفلاحون إليهم؟.."

يتذكر بلغايرقوه استدعاء المجموعة التي اجتمعت في مضافة أفمق بعد المؤتمر ببضعة أيام لقلقت ولرفيقه الأمير الشاب، وما قالاه.

- الأديغة يا أمير، - كان أفمق قد فصل مع ضحكة سطحية ما يشغل بال الأمير. - مهما سميتهم: جانيه وقبرتاي وأبزاخ وبسلني، أينما عاشوا، يبقون أديغة. ثم إن هذا لا يحدث في إقليم الأديغة فقط، بل لا يمتزج في من يعيش معهم في غير أرضنا.

- إن اتخذت إقليم الأديغة مثلاً يا أفمق، - قال قلقت جاداً، - فما قلته ينطبق على الأديغي، ولكن متى وجد نفسه في أرض أخرى فما يبقى من أديغيته قليل.

- والأفضل أن تقول: لا يبقى من أديغيته شيء. - أيد الفلاح بسمت قلقت. - أليس عادل - جري ابن أديغة؟ وبضعة السلاطين الأتراك الذين تعرفونهم أليسوا أولاد أديغيات؟

تبادل المجالسون في المضافة من فلاحين ومتنفذين نظرات الدهشة. ثم نقض قلقت الصمت الذي ران على الغرفة:

- صحيح يا بسمت، - صحح كلام صديقه فيما يتظاهر بتأييده: - ولكن من تأني على ذكرهم أنصاف أديغة. سأقول رأيي في هذا: المقصود بمن يتخلى عن أديغيته هو من والداه أديغيان ويخالط أقواماً أخرى. لا أهتم بتغيير الدين كثيراً. أشد المصائب هو أن تسمح بتغيير اسمك، وتنسى لغتك. ولماذا الابتعاد في المثال؟ من لا يعرف مامي بن ظاظمي؟

- لا يمكن أن نقول عن هذا إنه نسي لغة الأديغة. - بدا من عدم ذكر اسمه في كلام حاتاي عدم مودته نحو مامي.

- هو ماهر في لغة النغوي وفي الإجمام. - لم يملك أفمق أيضاً إلا أن يعبر عن كرهه لمامي.

- يقلقني اندماج ابن أخيك كتاق في الروس يا أفمق، وأخوك الأصغر سلطان يا بلغايرقوه أكثر مما يقلقني مامي. أقول ليتهما لم يقرّبا سلطاخهم إلينا.

- لن يأتينا من هذه المسافة! - ساهم آخر برأيه.

- من يخرج منا يخدمون البلدان الغربية ونحن نبعد الخطر عنا، ويأتوننا بوفودهم ناصحين. نعيش دون دولة ودون سلطان متوزعين على إماراتنا. - وسنفقد يوماً القليل الذي عندنا. - تابع قلقت الآن ما يشغل باله صراحة.

- لا شيء يتورع المضطر عن فعله يا قلقت. - قال أفمق حريصاً على شعور جاره الزعيم الفلاح، ثم شهد على ما ساهم فيه بشخصه دون شعور بالذنب: - وأنا كنت في عداد الوفد الذي أرسله مؤتمر الأمراء إلى قيصر روسيا. وأنت يا صديقي كنت، إن لم أخطئ، ممن وافقوا برفع الخناجر.

- لا تخطئ يا صديقي، - قاطع قلقت باسماء، - إن قلت: كنت ممن رفضوا لم تخطئ. الصحيح أننا نحن الفلاحين وقفنا إلى جانبكم حين عدم تاركين كتاب بأمر من كتاب القيصر فهيئت جماعة الأميرين تاخ وفواخ الناس ضدكم.

- نعم، هذا هو، ساحني. - صحح أفمق معلومته، - حسن أنك تدكرني بما نسيت. - ولكنه بعد فاصل قصير، سأل حذراً، معتقداً أن ما فعلوه صحيح: - ألا ترون رأي العين أن خان القرم هدا بعدما عدنا من روسيا؟

- هذا إن كنتم ستثقون به، - صبر حاتاي قليلاً... ثم أعرب عن رفضه.

- ألم نسترح نحن الجانيه قليلاً؟ - أصر أفمق على رأيه.

- إن كان الموضوع أننا فارقنا مسطبة بيت إلى بيت آخر فصحيح ما تقول. - ساهم بسمت باسماء بوجهه الأشقر الغليظ، - ولكن فكروا في الطريقة التي سيلاحقنا بها من طرفنا بابه. لا تشبهوا هذا بمضافة الأدبغة الأزلية. ها هي ضمت إليها خانيات النغوي في أستراخان. أليس صحيحاً يا ضيف؟

- صحيح. - أجب باختصار بلغايرقوه الذي لا يريد المساهمة في النقاش.

- وليسوا وحدهم، - وافقهم قلقت، - ضم إليه وفق ما سمعت خانية قازان. ويقال إنهما تحارب غرباً في أرض ربما اسمها ليون. وتواجه الشليات حرباً. وتتطلع إلى سيبيريا المليئة بالثلج والغابات... فكيف نقف في طريقها إن لم نؤسس دولة واحدة؟ ستلتهمنا إمارة وراء الأخرى. ولكن سأقول لكم ما أفكر فيه حقيقة: القرار الذي اتخذته الفلاحون لن يعجب زعيم الداغستان المتحالف مع الروس، والقرم والنغوي والترك والفرس. وها هي إمارات أرض الأدبغة الثلاث: الجانيه والبسلني والقبرتاي الصغرى التي أتى منها ضيفنا بدأت تتحالف مع

قيصر روسيا. ومن القبرتاي الكبرى جماعة الأمير أبشق، ومن جهتنا الأميران
تاخ وفواخ، ومن الأبراخ أسرة أولّ القوية، وآل بولتقوه من الجمكوي، وآل
أبات من البسلني، وقفوا إلى جانب تركيا والقرم. وبين قبرتاي الشرق من عيونهم
نحو فارس. ما الذي يجري الآن؟ تجاذبنا بأنفسنا غطاءنا الأدغي، وحين نعجز
عن أن يغلب أحدهنا الآخر نرمي بأطراف الغطاء للدول الغربية... متى سنفهم
يا ترى أننا سنخنق أنفسنا بتلك الأطراف نفسها؟..

مضى على بلغايقوه أكثر من أسبوعين وهو على الطريق لا يستطيع الإفلات
من كلمات قلقت. ما إن يظن نفسه نسبها حتى تطفو من جديد على سطح
الذاكرة. حين يجد الفرصة ليختلي إلى نفسه تعاوده تلك الكلمات. ولكن ما
يستنتجه في كل مرة يختلف عن الأخرى. كان صدقُ كلمات الزعيم الفلاحي
يلجمه. وإن حاول أن يجرّ تلك الأفكار إلى ما يناسبه هو وأسرته الأميرية لم
يستطع تجاوزها.

كانت تلك الأفكار سلّم طريقه تخفف عنه ثقل الوقت حين كانوا يُفطرون
على الضفة اليمنى لنهر وارب، وحين ركبوا فعبروا نهر بشره ظهراً. وكلما تجاوز
درجتين أو ثلاثاً من السلم ازداد قلقه. وحين يضاف إليه كلام لأماف يحث
حصانه فيسرع.

"قلقت ليس أميراً، ولا من أسرة ذات نفوذ، من أين جاء إذن؟..". ليس لتردّد
هذا السؤال على ذهن بلغايقوه نهاية. "ألتقي به للمرة الثانية فما يقوله أخي
الأكبر دومانقوه صحيح. متى كان قلقت في نواحيننا؟ العام قبل الماضي. تتعمق
أفكاره الأديغية وترداد. كنا طردناه من إقليمنا ساخرين من كلامه، ولكنه
استمر في أفكاره. الآن يدعو إلى دولة أديغية بدلاً من دولة فلاحية، وحاكم
منا... يخاطب الأمراء قائلاً: "تفكّروا!" ومن الإيجابي رأيُه في أن الحاكم يجب
أن يكون من الأمراء في حال الضرورة. وكلامه على تنازعنا على الغطاء
الأديغي صحيح. ولا نعرف من سيجذب إليه القسم الأكبر من الغطاء.
الأمراء كبارهم وصغارهم يتسابقون إلى الرياء والشرّ. متى صرعوك فرحوا قائلين:
كفاه زعامة. وسلبوك ما عندك وهم ينظرون إليك ويسخرون، ويستمتعون بما

سلبوا منك. ثم يركبون ظهره... والفلاحون؟ أليسوا أديغة أيضاً؟ أليسوا من خرجنا من أصلابهم أمراء ومتنفذين؟.."

يتذكر بلغايرقوه: كان نهار مؤتمر الفلاحين جميلاً كأن الله تعاطف معهم. الشمس لطيفة والهواء رقيق، والسحب كسلى، ولكن الفلاحين لا يحسون بجمال النهار، ينصتون إلى المتكلم، ومن ينظر إليهم يرتعب من السواد الطاغي عليهم. ومهما قال المتكلم تجاوبوا معه بخناجرهم في النهاية إذا دعا إلى وحدة الأديغة.

"جرب ألا تُشهر خنجرك إن استطعت... - يتذكر بلغايرقوه أن الأمرين تيشنقوه وأفمق، والمتنفذين فعلوا هذا. - "لو لم نفعل هكذا فمن يدري ماذا كانوا سيفعلون بنا؟.. وهل عجيب إن أيدتهم؟ تصرفت بما يتناسب مع الموقف الذي وجدت نفسي فيه. ماذا كان سيفعل قلقت لو كان مكاني في مؤتمر للأمراء؟ والفتى الذي تكلم في النهاية؟ هل يحب الفلاحون أرضهم أكثر مما نحها؟ من أين تنبع وحدتهم؟ ومع ذلك لا يدعون إلى حاكم من الفلاحين! لا أظن الأمراء يملكون مثل هذه الوحدة بينهم، إذ كيف سيتوحدون مع النزاع؟ نختار كبير الأمراء بالاقتراع، ولكن المنصب يغريه فيعمل على الاحتفاظ بالمنصب أطول ما يمكن، ويستقطب الأمراء، وإن عارضوه نشر العداء بينهم وصادم بعضهم ببعض... ها هو والدنا وصلت إليه الإمرة الكبرى للقبرتاي بصعوبة، ويسعى قايتقوه الذي لن يموت وابنه أبشق إلى عزله. والدنا انتخب عما قريب، في حين يقولون إن أمير الجانيه شبق الذي كلمته يسعى لإعادة انتخابه للمرة الثالثة، فينتجه حيناً نحو القرم، وأخرى نحو روسيا، ويترك عندها ابنه. ثم يلحق به. ومن يسوِّغون له ليسوا قليلين، وكذلك أعداؤه. ويدوون مع والدنا الكلام عليه كما على شبق. يشنون علينا حرب أمراء من جهة، ومن جهة أخرى يحرضون علينا زعيم القوموق. فما العمل إن انضم إليهم خان القرم؟ لابد أن تنجّه إلى الجهة التي تجد فيها سنداً وتحمي حياتك. يتهمون أمير الجانيه ولكن هذا هو ما جرى له. هل تدفع إلى الهاوية بقومك الذين قدّموك عليهم من أجل حماية منصبك وحياتك؟ أظن أفكار قلقت القومية أفضل من

أفكارنا وإن كنا نسخر منه... حقاً ماذا أقول؟.. " نص بلغايرقوه رأسه جافلاً
فرأى من بعيد جبل أوشحه مافه، الأرض الحرة؛ فصاح في أعماقه:

- انظر ما أشد بياض قمة أوشحه مافه!.. دعونا نبتهل إلى الله أن ينشر
السلام حيث نحن، وفي القبرتاي، وفي كل أرض الأديغة!

كانوا رفعوا أيديهم كُرمى للإسلام الذي شاع بينهم ولكنهم دعوا إلى أنفسهم
بخليط من وثنيتهن ومسيحيتهن السابقتين. وبعدما دعا بلغايرقوه إلى الله أن
يحقق له أفكاره الطيبة التي نبتت وهو في الطريق، ويغفر له ذنوبه، بدأ الحمل
الثقيل ينزاح عن ظهره، وأعضاؤه ترتاح، وقلبه ينتعش. والحصان يعضغ الحكمة
في فمه كأنه تفهّم حالة راكمه.

عبر الفرسان نهر بشزه ومشوا مسافة، فظهرت من بعيد القمة التي تتخذ شكل
الخنجر غير أن أحداً لم يفرح بها. ولم يكن أحدٌ يعرف سبب إعراض الأديغة
عن القمة رغم أن سلاحهم الأزلي هو الخنجر، بل يفسّر كل واحد منهم كما
يريد. وقليلاً جداً ما تدخّل في حكاياتهم وأخبارهم. ومتى ذكروها غلب عليها
الشّرّ وقالّ الخير. كانوا يرفضون مجرد وقوعها أمام أنظارهم يومين أو ثلاثة من
الطريق قائلين: ما فائدتها والثلج لا يستقر عليها، ولا تنبت الغابة ولا تصد
الريح، ويتوطن فيها الرعد؟ ولا يتوقف فيها المتعبون والعطاش رغم أن الجبل
محاط بالغابات، وتنبع منها الأنهار والسواقي.

"سواء اتفقنا مع قلقت أم لا فالإمارات الأديغة مشتتة على طول المسافة بين
البحرين" هاجت من جديد أفكار بلغايرقوه التي لا نهاية لها. "رأيت بعيني ما
كنتُ أستغربه حين كان يرويه والدنا... فكيف لا نؤيد الآن قلقت الفلاح؟
مامسرقوه يعارض دومانقوه بشأن قلقت ولكن ليتني عرّفته عليه! يا أخي
الكبير، بين العبيد أيضاً، لا الفلاحين وحدهم، يظهر أناس حكماء. ليست
أسر ججان وشبتنقوه وساوسرقوه أسر أمراء في الأصل. كان زأدهم العقل—
الرجولة، وفعل الخير موروثهم الأزلي. وهذا هو سرُّ بقائهم بيننا إلى الآن. هل
أتودد إلى قلقت تشبيهاً له بهم، أم الخطر الذي يداهم الأمراء؟ - أفكر في
مشروع الدولة الذي طرحه على مؤتمر الفلاحين زعيمهم فأراه أقنعهم بها، فهم
جاهزون للتحرك ما إن تستنفرهم. لا أرى خطأ في أيّ من كلمات المؤتمر،

ولكن لم يوفروا علينا شيئاً في مضافة الأمير أقمق. ومن لم يشبعوا من ذمهما، وإن دون ذكر الاسم، هما والدنا وشبق... ألا يركض أبشق إلى القرم؟ ألم يغازل القوموق؟ والأمرء المغرمون بالترك هل يقعدون مكتوفي الأيدي؟ حسنٌ أُنِي لم آت على ذكر استقبال والدنا لمجموعة الفرسان المسلحين بقيادة بليشير في أستراخان. كنا ننتظر وصولهم في يوم توجهنا إلى المؤتمر. سئرى الآن ردّ فعل جماعة أبشق. وهل سيغير علينا زعيم القوموق بعد الآن!.. يجب تخويف هؤلاء فمن الخير أن يكون لنا سندٌ كما لهم!"

استدار الفرسان إلى اليمين تاركين إلى يسارهم القمة الخنجرية، والتفوا والجبال الخمسة التي يُطلُّها أوشحه مافه أمام عيونهم، إلى ضفة المستنقع القصبي، واتخذوا الطريق القصير جهة ترج. كانت الخيول تسرع بعد استراحة الغداء شاعرة بانتهاء الرحلة. والفلاحون يتبعون الأمير، يتحادثون حريصين على الهدوء. وما لا يفارق خيال بلغايقوه، وإن كان في دار والده يفكر في الفرسان الروس الذين استدعوه، هي أخته الصغرى. ويخيل إليه أن قائدهم بليشيف يسترق النظر من وراءهم. تذكر بلغايقوه كيف كان سلوك القائد بليشيف نحو أخته الوحيدة الباقية بين الأديغة حين أرسله القيصر في العام الماضي.

"كيف كان يتصرف هذا؟.. غضب بلغايقوه من جديد لمزاح بليشيف مع أخته الذي استمر أكثر من سنة. — والآن؟.. أليس للقيصر من يرسله إلينا غير بليشيف؟! الله يحب المزاح، ولكن ما الداعي إليه مع فتاة صبية وأنت ربُّ أسرة والشيب وخط شعرك؟.. حقاً لم يكن يغازل من أجله بل كان يلمّح أن يجد لها عريساً غنياً قد يكون ابنه، ولكن كائناً من يكن، حتى لو قيصر روسيا، هل كُتِب علينا كما تقول أمنا ألا يكون عندنا أصهار إلا من الغرباء؟! لا يمزح معها، ولا يتودّد إليها! وكما يقول العجوز صالح جدُّ عليم الذي إلى جانبي: "لا تبالح في المزاح، ولا تتكلم على ما لا تعرف" فليكن عندنا صهراً من أمرائنا الأقوياء!.. وعلى رأي دومانقوه لا حاجة بنا إلى إمارة أديغة بعيدة، الأفضل أن نمّد جذورنا في القبرتاي الكبرى... — وفي الحال تذكر بلغايقوه ما قاله له لأماف: "الأمرء حين يتنافسون لا يساؤون حثالة الفلاحين" مع أن لأماف ينسب نفسه إلى الأسر المتنفذة فهو ينسف أساس الأسرة الأميرية التي

هو منها. أيكون السبب صهره قلقت زعيم الفلاحين؟ ولما سألت عن السبب قيل لي إنه حين أعلن هذا التأييد للفلاحين لم يكن يعرف إن كان صهره سيولد. وابنٌ مَنْ صرت محادثه ليس غريباً، هو زغاشت. أظنني أفهم الآن مصدر الهواء الذي يتنفسه قلقت ومصدر صوته، وسبب اتخاذه زغاشت حميه الأسنّ منه صديقاً وإن كان غير محمود تماماً في تقاليد الأديغة... "

- انظر يا أمير، - أسرع الحارس عليمخان، - نار هائلة، ناحية باقسان تحترق!

- ليس حريقاً واحداً بل ثلاث قرى معاً. - صرخ حارس آخر.

- القرى التي تحترق هي قرى الأمير أبشق... - قال بلغايقوه براءة واثقاً، واقفاً في الركاب. - لا يجوز أن تتأخر، ولا نعرف إن كان الأعداء ينهبون قرى الأديغة. أسرع الأمير فتبعه رفاقه.

المسافة إلى آخر قرية شئت فيها النار إذا كنت تريد الوصول باختصار بضعة غلوات حصان. والقريتان الأخريان إلى الجانبين: كان بلغايقوه يجري بالحصان مكباً على السرج، متسائلاً: "من هاجم القرى وأشعل النار؟ القرية التي نتوجه إليها هي قرية الابن الأكبر لكبير أمراء القبرتاي السابق قايتقوه. من في القبرتاي الكبرى يتجرأ على مهاجمة هؤلاء؟.. أقول النغوي ؛ ولكنهم أصحابه. أقول البلقار الجبليون ؛ بينه وبينهم علاقات اجتماعية. أيكون أتى من القبرتاي الصغرى؟ ليس من أجل هؤلاء جاء والدنا بالفرسان الروس، بل لتأديب القوموق الذين لا يكفون عن مهاجمتنا... منذ خريف العام الماضي وإلى هذا الربيع زار أبشق زعيم القوموق بوداي أكثر من مرة. كنا ننتظر غارته في أحد أشهر الصيف الثلاثة..." - رأى الصبي الخارج من القرية فارساً فارتفع بلغايقوه على الركاب، ونادى حارسه:

- عليمخان، هاتوا لي هذا الغلام! سأل بلغايقوه الصبي الذي يبكي: - ماذا جرى في القرية؟

- تيمرقوه المتحالف مع الجيش الروسي يحرق القرى!

- قابلنا ما لم نتوقعه، اتبعوني بسرعة!

ساحة القرية المستديرة مليئة بالفرسان المسلحين. والإسطل الطويل لأبشق يحترق. وكومتا الحشيش اليابس سرت فيهما النار. والنار عصية على الإطفاء وإن حاولت. وحراس الدار الذين يحمونها بالسيوف والخناجر والأظافر والمذاري على الباب. وبين الناس من جُرحت رؤوسهم وأيديهم. والمآثم في عدة بيوت. والأمير تيمرقوه والقائد بليشيف يتقدمان قرابة مئتي فارس. وفي الساحة المحاطة ببضعة فرسان الأمراء الإخوة الأربعة: أبشق وأسلانج وتبيشنقوه وقايتقوه الابن. وكُم أبشقوه ممزق، ودون سلاح. وساعدُ أسلانج معصوب، وتبيشنقوه حاسر الرأس، مخدوش الوجه. وقايتقوه ربما مد يده إلى النار فاحترقت أطراف أكمامه وكسائه، واحترقت قبعته.

وقف بلغايقوه على يمين دومانقوه مشعراً إياه بأنه وصل في الوقت المناسب فرأى على بنطال مامسرقوه دمًا متخثرًا. وتبادل الإخوة الثلاثة نظرات سريعة دون كلام. والطرفان المتجهان يتبادلان نظرات الريبة الموحية بأنهم ينتظرون شيئاً. لما أخبر أن العجوز قايتقوه قادم مع ولده الأصغر جانسخ ابتعد الفلاحون حرس الباب فأفسحوا الطريق له.

دخل قايتقوه الذي أزهقته السنون بلباس أنيق إلى الساحة التي يُحتجز فيها أولاده. يليق به كساؤه وقبعته وأسلحته الفضية والذهبية وجزمته. وما لم يكن يليق به هو العصا الذهبية والساعدان المرتجفان. ولكن وقفته الهادئة ونظرته الذكية تنسيانك إياهما.

"يبقى الأمير قايتقوه على حاله في أسعد المواقف وأتعسها... نظر الأمير تيمرقوه واحتقاره واحترامه متلازمان في وجه الأمير قايتقوه الواقف أمامه. ونظر من فوق رأسه. - لولا أن خبثه ظل يُقلقني خلال السنة والنصف التي استلمت منه فيها الإمرة الكبرى للقبرتاي، ولولا أنه حرّض عليّ أولاده وأمراء آخرين، لما رأيته ولا كان صديقي ولا عدوي، دغك من أن أشفع له. ولكني قضيت الوقت إلى الآن لا أعرف أنه يعرقلني، ولا المواضع التي يعرقلني فيها. وسنرى كيف يتصرف معي الآن!

- أريد أن أدعوك إلى التفضل يا أمير ولكنك لست ضيفاً. - قال الأمير العجوز قايتقوه بصوت هادئ. - أريد أن أقول لك: ترَجَّلْ دون أن تنتقص من

أديغيتك أمام تقدمي في العمر، ولكننا كلينا نعرف أن السلاح لا يُعار في الحرب. إذا كنت انتصرت على زعيم القوموق بخليط من الأديغة والروس فما قيمتنا نحن؟ أنت فارس، ونحن راجلون. انتصرت علينا يا أمير، ولكن لي معك كلمة.

- لك معي كلمة أم تترجاني؟ - أفهم الأمير تيمرقوه الأمير قايتقوه عدم رضا عن نبرته.

- أرجوك أن تطلق سراح أولادي الأمراء.

- أطلقوا سراح الأمراء! - أمر تيمرقوه حراسه.

وقف الأمراء المحررون إلى جانب والدهم فلم يقبل الأمير العجوز قايتقوه:

- لا حاجة إلى أن تقفوا إلى جانبي! عودوا إلى دار الإمارة واعتنوا بلباسكم وهندامكم. حيالك الله يا أمير القبرتاي الكبير، لم تخذلني في ما رجوتك. أعبر لك عن عدم رضاي عن طريقة بدئك بإمارتك الكبرى ولو أني في موقف حرج. أنا أسئ منك جداً، ولن ألحق بالأمر، ولكن إذا كنت ستتحالف مع الغرباء فستكون نهايتك مثل سلوكك.

- أفهم وضعك يا أمير... ماذا أجيبك على ما سميتَه نهايتي؛ ما كتبه الله علينا. ولكن إذا كنتم آل قايتقوه تحاربوننا من وراء التتر والقرم فلماذا لا نتطلع نحن إلى الشمال فنحتمي به؟ ما العمل إن لم نتعاضد؟ سننتهي على يد تركيا أو روسيا... - عاد الأمير الكبير تيمرقوه بحصانه سريعاً، فتبعه القائد بليشيف وخليط الفرسان الأديغة - الروس.

خرج العجوز قايتقوه يغلي غضباً ويرتعش متوعداً في سره: "لن ألحق بهذا أيها اللعبة الملعونة، ولكن أولادي لن يغفروا لك ما فعلت بنا..."
كانت النساء يرثين الضحايا مع لعنات متزامنة من الطرفين. وساهمت القرى الأخرى في مآتم ضحايا الفرقة الأديغية...

VIII

نظر الأمير تاح بطرف عينه إلى الأمير فواخ قائلاً في سرّه: "ليتنا لم يحدث لنا اليوم ما قيل: لما دنت نهاية قطيع الغنم ترأستها المعزة الصلعاء"، والتفتنا إلى جيش الفرسان المواجه لهما.

- لا داعي للقلق يا أمير، - لم يكن الأمير فواخ مطلعاً على القول المأثور الذي قيل له ولكنه قال مطمئناً من ألقى إليه نظرة خفية، عارفاً أنه يعاني وإياه القلق ذاته: - رأس النبع حيث يفور، ولذا سيتقبل الجانيه مهما قلنا ومهما فعلنا. وهل تظن أنهم لا يكرهون من نلاحقه؟ ليس بين الناس، ولا في المضافات حديثٌ غيره. حتى الفلاحون الذين أيدوه بسيوف مشهرة قائلين: يا مبارك النسل، ألن يقدم لنا شيئاً وهو الغني والكريم والشفيق؟ ألن ينولنا شيئاً لم يكن لنا؟ حتى هؤلاء لم يعودوا يريدونه... ألا تخالط الحفلات والمآتم والمآدب؛ لا هم لهم غيره. يلوكونه ثم يقذفون به. وأنت لا تجهل أن أمراء القرى فقدوا وحدتهم، ولكنه لا يلتقي بهم، ولا يستقصي ما يحتاجونه. ومتى انتهى من رحلاته التي لا نهاية لها يدور بسرعة على بعض أرجاء الجانيه. فيتصدق على بعضهم، ويؤمل بعضهم، ثم يختفي.

- يا أمير والله لم توقّر شيئاً بحق أميرنا الكبير الفارغ الرأس. أنا راضٍ عنك. - قال الأمير تاح ما على رأس لسانه، لا ما في قلبه. وأضاف بعد لحظة كأنه يدرج نفسه في القائمة: - ولكن ألم يكن الأفضل أن نطرح هذه الأفكار في مؤتمر للفلاحين أو الأمراء؟

- نعم، كان أفضل، غير أننا لا نجد مناسبة نتكلم فيها. - قال فواخ، وأخفى بشكوى: - هل تتذكر يا أمير أنك لم تحضر المؤتمر الذي تكلمت فيه رغماً عنهم؟

- أنا كان ظهري يؤلمني يا أمير ولكن، - سأل الأمير تاح مازحاً مبرئاً نفسه: - هل نام الأميران مرتوق وجان اللذان ننتظرهما في الفراش تماماً؟

- لم يفعلوا هذا، - ضحكك بشفتين مطبقتين، بدا من لونه سروره لأنهما لم يُخبرا تاح، وإن كان ما أخبراه به غير سارٍ. - يبدو أنك يا أمير غير مطلع على الموضوع. أبلغني أمس الأميران مرتوق وجان: لم يجدا من اللائق أن يسافرا معنا

إذ أنهما يمارسان إمرة القرى مع الأمير الكبير. ولكنهما قررا مرافقتنا في فرسان
الفلاحين، وها هما قادمان.

"غلبنّا الأميران مرتوق وجان في اختلاق الحجة. - لم يُبدِ الأمير تاخ عدم
ارتياحه لما سمع وإن كان يضحك في سرّه. - توقعْتُ هذا ولكن ماذا يمكن أن
تقول لهما؟ وكيف تدينهما؟ ينويان خداعنا بفرسانهم الفلاحين. سيتحجبون
إن لم يفلح مسعانا لسبب من الأسباب بأننا هاجمناهم دون علمهم، وينسلّون
من القضية. رفيقي هذا ذو الجبين الضيق يتذاكى ولكن عقله لا يذهب بعيداً.
يفرح إذ يرسلون إليه عدداً من الفلاحين الفرسان... إن وصل الأمر بكم إلى
هنا فلن ندعكم تخدعوننا. سأطّلع على ما فكرت به قبل أيام وإن كنت لا
أعرف رأيه. يجب أن أحذر لأنه إن لم يكن صاحب المبادرة وجد في كل شيء
عيباً. لا مخرج لنا كلينا غيره مهما علّق. من عادته التراجع متى وصل الموضوع
إلى النهاية ؛ سأسمع رأيه إذن رغم أن ما فعله بنا الأميران أزعجه، وإن تكتم
عليه. سأمهّد له حالاً..."

- ليس من أجل أن أعلمك ما لا تعلم يا أمير، - بدأ الأمير تاخ يدور من
بعيد، فألقّمه دواءه: المديح. - أنت خبّرت الكثير، وفي الجانيه كثير من الأمراء
ليس لهم ثلث خبرتك، ولا تبلغ عقولهم ما يبلغه عقلك. بل لا أجد في الجانيه
من أساويه بك. لو لم تشهد علاقتنا، أنت وأنا، على هذا لما التقينا من أجل
موضوع اليوم ولا من أجل غيره. ولكنني أكره الرياء كما تكرهه أنت.

- ماذا يا أمير؟ هل يُخيّل إليك أن الأميرين مرتوق وجان يخدعاننا؟ - نص
الأمير فواخ برأسه المكسو بقبعة سوداء واستدرك بصوت هامس: - وأنا أيضاً
جعلاني أمس أشك فيهما... - " ماذا ينوي أن يُخبرني بعد هذه المناورة؟ إذا
كان يعدّ نفسه أذكى مني فهو مخطئ. أليس عقلي أنا من جمع كل هؤلاء
الفرسان؟ كلمتُ حراسه واحداً واحداً، لا حراسي الفلاحين وحدهم. ورشوتهم،
ولو فكر طوال عمره لما خطرت له فكرة اليوم. وونتغ الأعرج ألسْتُ من جعله
يتعهد بكتمان أمر ذهابي إليه؟ سأسأله دون مصارحة تامة عما يدور
حوله..." - هل ندمت يا أمير؟

- علام سأندم؟

- وكيف أعرف؟
 - لا أعرف إلى الآن أي قمت بما أندم عليه. ولكن الأفضل ألا ندع هذين الأميرين الأجربين يخدعاننا.
 - قل لي إن كان عندك حلٌّ أفضل!
 - نعم! - كذب الأمير تاخ بسرعة، - حين أبلغتني بحجة غياب الأميرين مرتوق وجان خطر لي الحلّ. هل تعرف ماذا سنفعل بهما؟
 - ماذا سنفعل وقد ركبنا؟
 - لن ندعهم يخدعوننا.
 - هذا كلامٌ فحسب.
 - لا، لا تراجع! - قال تاخ بحزم، - من غيرنا وغير حراسنا يعرف بمكان الغابة الكثيفة الذي اجتمعنا فيه؟
 - الله، والأمراء الأربعة، والفرسان الذين ينتظروننا... - لم يعرف الأمير وهو يهزّ راحتيه الرطبتين أنه يبرّدهما.
 - اسمع إذن: سيهاجم فرساننا وحراسنا بيت أمير الجانيه الكبير من دوننا. ودون ضجيج وصدام كبيرين سيرفعون شكاواهم أمام باب داره بدءاً من علاقته بينكس وونتغ والمجرمين الآخرين، وعدم اهتمامه بالجان، وانصرافه عن جيرانه الترك والتتر إلى الروس البعيدين، وكل ما يخطر لهم. مرة أخرى: ضجيج دون قتال. ثم ليفصل كلّ الكذب من الصدق!
 - مهلاً يا أمير، مهلاً. - مرة أخرى هاج الأمير فواخ لا يستطيع صبراً، - وماذا ستكون مهمتنا نحن؟ لماذا نعتب إذن على الأميرين مرتوق وجان؟
 - لماذا العتب؟ سننتصر على من يخدعوننا فحسب. الناس يتراخضون إلى حيث الضجة، ولذا سيُهرع إليهم أصدقاء وأعداء كثيرون لهم من الفلاحين. وسيأتي أناس من القرى المجاورة. وكلما زاد من يتجمعون كان هذا في صالحنا. نحن هذه طريقتنا في المساهمة معهم: سنختلط بفلاحينا في ذروة الضجيج كأننا لا نعرف شيئاً، ونعفّفهم قائلين إن ما يفعلونه عيب، فتظاهر بأننا نقف ضدهم، ولكنهم لا يسمعون نصيحتنا. وبعدها هل نحن المنتصرون أم من أرسل إلينا الفلاحين؟
 - والآن أعطني رأيك يا أمير!..

"كنت أعرف أنه سيفشل المشروع الذي طرحته متجاوزاً إياه." خاطب الأمير فواخ نفسه متصبراً، - ولكن لم أصدّق أن عقله سيصل إلى ما خطط له. هذا هو سبب الحذر من هذا المنفوخ الرقبة. من أجل هذا أقول: لن تستطيع أن تصرع من احترق هذه الرياضة. ومهما حطّر نفسه ففي كلامه نصيبٌ من الصحة. وأنا كنتُ أتوجس منه وإن أخفيتُ مشاعري. ولكن لن أصارحه، سأستجوبه من خلال المديح."

- لا تؤاخذني يا أمير، والله إنك ماهر في المؤامرات. إن كانت هذه الأفكار وليدة الساعة فأنت فوق كل تفكير. ثم إن من يمدحك هو أنا، لا تنس!

- نعم، نعم، أنت صادقٌ جداً في أحكامك. فهمتُ أنك توافقني.

- لا شك في هذا. إن جرى الأمر كما خططنا له. سننتصر، أنت وأنا، على كل أمراء الجانيه، أصدقائنا وأعدائنا. وعلى الفلاحين أيضاً. سنبدأ اقتلاع شبق الفارغ الرأس من هنا بحجة حمايته. ألم يكن حسناً لو كان حاضراً وسمعنا؟ - غيابه أفضل. حمايتهم لك في غيابك تساوي كل ما عداها. إن كنا سنعمل وفق ما اتفقنا فأفهم هذا الفلاح الذي ينادينا ما عليهم قوله وفعله.

- وهل هذا ممكن يا أمير؟ - تظاهر فواخ باستغراب ما سمع. - كيف أنتحل أفكارك؟

- أليست من تبيّ هذا الأمر؟

- أنا أصل ولكنك أنت فرع أيضاً.

- الجذر هو ما يمسك الفرع.

- جوهر الموضوع يا أمير... حسناً، إن كان هذا رأيك فلن أكون نصف نبيل، سأكمل ما تعبتُ عليه كل هذا التعب، وأخيرهم. وإذا اقتضت الضرورة ساهمت أنت أيضاً. تعالوا يا حراسنا الفلاحين تجمّعوا هنا. ما تسمعوناه الآن احفظوه في قلوبكم، ولا تدعوه يخرج من أفواهكم. واعتبروا أحداً لم يخبركم به، ولم تسمعه في أي مكان. وأنتم أصحاب الفكرة. كما اتفقنا، لم تعودوا تتحملون سلوك أمير الجانيه الكبير ولا أفعاله، فأجبركم على الركوب... - كرر الأمير فواخ كلام صاحبه وكأنه هو المؤلف، يهزّ سوطه المطوي حسب السياق والموقف. وسأل حارسه: - هل فهمت يا شبلاّن؟ إن فهمتم فاعملوا

بتعليماتي. - يعتبر الجميع فهموا، ولا ينسى الأمير تاخ غير البعيد - هل تريد أن توصيهم بشيء يا أمير؟
- لم تترك لي ما أقول يا أمير... - لم يُعج الأمير تاخ بما في قلبه للفلاحين متظاهراً بتأييد زميله.

بقي حارسان لكل أمير، وانطلق الآخرون معاً كسرب غربان إلى الغابة. وتوجهوا إلى قرية فَنَشِقُوهُ. يحملهم الشقاق الأديغي الأزلي على الإسراع وكأنهم سيُحرَمون من غيمة إن لم يصلوا حالاً. وتابع الأميران وحراسهما الأربعة بعيونهم الفرسان المنتشرين في المضيق.

"يا ربي، ليت هؤلاء لم يرتكبوا حماقة ما... - الفلاحون لا يتورعون عن شيء. يصرعونك بصدور الخيل ويتجاوزونك... الواقف يسهل صرعه، أنكون نبالغ في خوفنا بعد مؤتمر الفلاحين؟.. وإذا انتشر خبرُ نهبِ أملاك الأغنياء في الجانيه فعاد إلينا الفلاحون ونهبونا أيضاً؟.."

- انظر كيف يجرون يا أمير! - أفلت من الأمير فواخ سروره في أعماقه. - لن تلحق بهم ولو حاولت، - ما رأيك أن نتبعهم نحن أيضاً؟

- الأفضل ألا نتأخر، من يعرف ما سيخطر ببال هؤلاء؟ نعم يا أمير، أوصيتهم جيداً، غير أن الأفضل ألا نتأخر عنهم. لن نكون معاً، ليظنوا أن كلاً جاء من قريته. من منا يلحق بهم أولاً؟ تأخّر أنت عني قليلاً لأن قريتك أبعد.

- هل عجيب إن كانت قريتي أبعد بغلوة حصان ؛ ألا يجوز أن يكون الخبر وصلني قبلك؟ - ناقش الأمير فواخ بجفاء قائلاً: " يريد أن يحصل على القشدة قبلي".

- وهذا ممكن، - ضحك الأمير تاخ من خارج قلبه. "تحب أن تسبق غيرك فاركض! لن يصل تفكيرك إلى ما سأفعله" - الخبر كالطائر السريع ؛ ما أسهل أن يصلك.

- إذن، إن كنت خصصتني بالكلمة الأولى يا أمير فلا تتأخر عني كثيراً، - أجاب راضياً بما حقق لنفسه.

- اطمئن يا أمير، أنا وراءك بمسافة قصيرة. - قال للأمير تاخ ملاطفاً، وأتبعه قائلاً في نفسه: "ليتهم جدعوا أنفك!"

الأديغي، من أي عرق كان، شجاع، غيور، عاشق للحرية. يحسدك وإن كان يعيش كريماً طيب القلب. ويغتائبك متى أدرت ظهره. ولكنه لا يترجع إن وقع في ورطة، يتحلى بالرجولة والصلابة وإن كان حثُّفه فيهما. لن يقابلك بجفاء إن ترجلت في داره ولو كنت قاتل أبيه. ويقدم لك ما عنده دون التفكير في الاحتفاظ باحتياط له. ولا يسأل عن أصلك. ولن يعترف بالهزيمة ولو كسروا له أنفه. يكره أن يقف وراء أحد، يريد أن يتفوق على الجميع مهما كان فقيراً معدماً. وربما هذه الطبيعة هي السبب في عدم اتفاق الأمراء من شبق وتاخ وأنشق وتيمرقوه، والفلاحين من أمثال قلقنت، وربما هو السبب في عدم تأسيسهم دولة، وتنازع أصقاع العالم الأربعة على أرض الأديغة. وهي السبب في إغراضهم عن كلام قلقنت وجريهم إلى هنا وهناك. يعتبرون من يضحك لهم صديقاً فيكرمونه في بيوتهم.

الغيرة والتنافس الأديغيان، والصراع على المرتبة الأولى، هي ما يجري على باب دار أمير الجانيه الكبير. الفرسان والمشاة من الجانبين متجابهون. حراس أرض الأمير شبق من رجال ونساء يحملون المذارى والعيدان والعصي. والفرسان يحنون الخيل بمهاميزهم. ويستنفرون صراخ الفرسان وضجيجهم أهل القرية. وداريه أخت قلقنت تتقدم النساء اللواتي يحملن المقشاة، ويتصددين برؤوس العصي المدببة للفرسان.

- يا شبلا، لو كنتم رجالاً ما أتيتم في غياب الأميرين أفمق وشبق. - يعيرهم قائد الحرس ماتج. - أطلعونا على مطالبكم!

- أمير الجانيه الكبير صار قلبه قلب روسي، ووجهه وجه مجرم. - صاح حارس آخر مكان شبلا.

- كان ينوي قتل المسكين ونتغ! - يشارك حارس الأمير تاخ. - متى صرتم وكلاء لونتغ الأعرج القبيح؟ - تصرخ داريه من بين النساء وهي تلوح بالعصا.

- من هذه التتورة الثرثرة؟ - يسأل حارس من على حصانه.

- إياك! - هذه أخت قلقنت. - حذر أحد زملائه.

- هذه هي؟! - يعود بالحصان.

- يصل الأميران تاخ وفواخ مسرعين. يهجم فواخ بصدر الحصان ويصرخ على حارسه الفلاح:

- ماذا تفعلون أمام باب دار الأمير الكبير يا شبلاان ؛ تجلبون لي العار!

- لسنا راضين عن الأمير الكبير يا أمير، - ينوب أحد الحراس عن شبلاان، - يأمر بقتل الفلاحين دون ذنب، من بنكس وونتغ.

- من أخبرك، أصابك الله بالطاعون؟ - يقف إلى جانبه الأميران تاخ وفواخ متظاهرين باستغراب ما يسمعان. - نحن لا نتصرف تبعاً للإشاعات. هيا تفرقوا!

نادى وونتغ القادم برفقة تمتج وغيره من الفرسان مُبعداً الحراس بصدر الحصان:

- من هذا الذي يأتي على دِكري؟ أنت يا أمير فواخ؟ أم شبلاان؟

- وما الذي جاء بك إلى هنا؟ - عارضه الأمير فواخ جاحظ العينين على عادته متى سمع ما لا يعجبه. - ألا ترى ما نحن فيه؟ أما عندنا مشكلة غيرك؟!

- إن كانت هذه رقصتك يا أمير تاخ، - يضحك وونتغ، - فسأغيّر اللحن إلى ما يناسبها. ألسنت من كان يريد شراء ضميري بكيس من الذهب فأشهد زوراً على الأمير الكبير شبق؟ وإن كان شبلاان صادقاً فلا يُنكر أنه كان معك!

فغر الأمير تاخ فمه دهشة، وألقى نظرة على الحارس وعلى الأمير الوارد دِكره. أدار شبلاان وجهة حصانه وانصرف سريعاً. وتبعه الفلاحان الفارسان اللذان كانا ينتظران في غابة المخوش.

رأت داريه تمتج واقفاً إلى جانب وونتغ فأصلحت غطاء رأسها بسرعة وأمسكت بذراع كنتها نكر.

وفي الحال خرجت السيدة الكبرى زهرة من الدار ووقفت حيث اجتمعت النساء. وقال بصوت حازم هادئ للفرسان المغيرين:

- أحاول أن أبقى صامتة، ولكن ما سبب هجومكم علينا، لا تردعكم أديغيتكم ولا إنسانيتكم. إن كنتم لا تثمنون قبعاتكم فأنا أعطيكم غطاء رأسي.

- ثم توجهت إلى الأميرين تاخ وفواخ: - وأنتما أيضاً أيها الأميران، إن كنتما عاجزين عن ضبط فلاحيكما فلا تُهرعا إليّ وسيطين ناصحين. شهد وونتغ مرة أخرى على ما في قلوبكما من الشر نحونا فلا يمكنني أن أدعوكما إلى الدخول.

حين غادر الأميران ساحة الفصل بين المتجابهين دون أن يتبادلا النظرات تبعهما حراسهما. وتبعت زهرة المنصرفين على مسمع منهم:

- تفضّل يا ونتغ، أنت لست كهؤلاء، رجل كامل الرجولة. عاملتنا بإنسانية كبيرة. تجلسون وتتحدثون، وإلى وقتها يعود أفمق وقلقت.

- شكراً أيتها السيدة الكبرى. لن أبقى على صهوة الحصان في حضرة النساء الأخريات، سأترجل. نحن، ابن قريتي وصديقي تمتج وأنا، جئنا إلى قرية قنشقوه في مهمة فسررنا إذ حضرنا الضجة التي أثّرت أمام داركم. ويسرني أنك فهمتني. أنت بين لابسات الغطاء أول من انتبهت إلى إنسانيتي. -نظر من طرف عينه إلى داريه كمن يسألها: هل تسمعينني؟ ونظر أيضاً إلى تمتج. - ولكن لن أخفي عمّن يستمعون إلينا: أنا أيضاً بدأت من الآن فحسب أشعر بإنسانيتي.

تمتج الشاب الأشقر الضخم وداريه الفتاة الرشيقة في مشكلة: متى التقت نظراتهما المتعارفة - غير المتعارفة أغمضا جفونهما. تسأل داريه نفسها: "لماذا لا يرفع عني عينيه العسليتين الواسعتين؟!" وتحتج. وتلمح للكنة برغبتها في الانصراف بحركة من ذراعها. وتمتج يقول: "مهما أعرضت برأسك وأشخت بنظراتك، فنحن قادمان الليلة إليك" فلا يتسع صدرها الصغير لقلبيها.

...

في اليوم نفسه، ساعة انحدار الشمس من السماء، حمل الخبر السار الذي جاء به الصبي كلّ من في الدار إلى الخروج.

كتناق الذي انفلت من بين خليط الفرسان الأديغة - الروس بقيادة الأمير شبيق والقائد بليشيف، والذي تجمهر حولة الصبيان، قفز عن الحصان أمام أمّه، فقالت السيدة الكبرى صابرة لا تحتلج عضلة في وجهها:

- هيا يا ولدي سلّم على عمك أولاً، ثم على أخيك الأصغر ثم أختك...

IX

الجانيه تنتظر ما سيحدث، تتلقت الأخبار، وتضحك ضحكة خفيفة.

- هل سنقعد يا أمير بسيف مغمدة؟ - سأل أعمق أخاه الأكبر.

- ماذا تريدنا أن نفعل؟

- كانت الإمرة يوم غيابنا في الموقف الذي يقال فيه: مدّ يدك إلى روح من يمد يده إلى عينك.

- دار الإمارة أم الإمرة؟ - توجه شبق إلى أخيه الأصغر، ونظر من طرف عينه إلى كتاف الواقف إلى جانب الباب وكأنه يقول له: وأنت ما رأيك. ولكن أعمق لم يتأخر في الجواب:

- لا فرق عندي يا أمير بين دار الإمارة والإمرة.

ليس اليوم فحسب يسمع الأمير الكبير شبق مثل هذا الكلام. مضى شهر على عودته من روسيا، من حرب ليفون، وطوال مشاركته في مآتم من قضا في بلاد الغرب حدث أن لمحووا بالفكرة إليه، وأن صارحوه، وأن خاشنوه. وأشدّ ما عانى في مآتم بجمت الصادق معه دائماً، المشارك معه في الخير والشر، وهي المناسبة التي أرهقته فيها ذكرياته التي لا نهاية لها. ولا تزال إلى الآن أسرار الشريرة تصعد إلى الذاكرة. ولكن هل يتحمل مسؤولية الذنب التي لا تنتهي؟ إنها بداية لا نهاية لها خلافاً لكل بداية.

"طوبى لبجمت" - تألم قلب شبق. - تخلّص من سره البريء أمامي وفارق الحياة. وبقي ذنبه في رقبتي حملاً أبدياً، من سيفهم نيتي؟ أهى الابنة التي جزعث لأجلها؟ أم من تبين أنه أمير وأنا أظنه فلاحاً؟ وهل أنا المجرم في دم بنكس الذي أوصيته بقتل وتنغ، أم بجمت الذي لم أوصه بقتله؟ من يستطيع أن يحلّ لي هذه التعقيدات؟ ربما أستطيع أن أحيب نفسي وغيري على ما جرى داخل أسرتي... والأديغة الريفون الذين تسببت في قتلهم مقابل توسلي؟ لو لم نكن، نحن الجانيه، مضطرين لما خطر لي هذا أبداً. ما العمل؟ المضطر لا يعود يلتفت إلى الوراء. صحيح ما يقال: أنت خادم لمن عليك دينه. هل ما كان عليّ من دين هو دين ابنتي أم كنتُ أحمي شرف أسرتنا الأميرية؟.. ما أصل

قسوة الإنسان ورحمته وخطئه إذن؟ ومن أين يبدأ؟.. " - نهض شبق وقد سهلت عليه أجوبة أسئلته وصعبت. ولما هم أفمق بالنهوض رفض:

- اجلس! أنا أريد أن أتمشى قليلاً. لا أوافقك يا أفمق على مساواتك دار الإمارة بالإمرة. ليست دار الإمرة بلاداً. ولا البلاد دار إمرة. يحدث في دار الإمرة، كما في الدور الأخرى، ما يجوز وما لا يجوز. لن نحاول الانتقام رداً على إرسالهم بعض الفرسان علينا. لو هاجمنا الغرباء مثل نغوي القرم لكانت لي وجهة نظر أخرى. - ذرع شبق أرض الغرفة بضع مرات عاقداً يديه وراء ظهره، ثم جلس. - لا أهتم كثيراً بحملة فلاحي الأميرين تاخ وفواخ علينا. هؤلاء يحاولون تنغيص حياتي منذ زمن بعيد. ولكن ما لا أفهمه هو دخول ونتغ في موضوعنا... شكراً له، لم يقبل أن يتخذوه شاهد زور. تبين عما لم أتوقعه منه.

- وما قاله شبلا ن حارس الأمير فواخ والفرسان اللذان انصرفا معه؟ - حمل الشك الذي هجم على الذهن أفمق على السؤال، ثم جعله يبتعد: - تمتج الذي يغازل داريه كانوا أرسلوه من المخوش بعد توجيهكم إلى موسكو بقليل...

- وماذا كان يريد؟ - جفل شبق على نحو غير منظور تماماً.

- كان يسأل عن قلق الغائب، فسأل عن مكان وجود فلاحينا وحراسنا، وعنّا أنت وأنا، يوم تقاتل ونتغ وبنكس.

- بم أجابته جاراتنا؟ - سأل الأمير الكبير بلامبالاة وإن كان القلق تمكّن منه، وألقى على ولده نظرة دافئة.

- روين له مشاركتنا في عرس ابن الأرملة، وإهداءنا له عددًا من المواشي الحية.

- من أجل هذا قالوا: جار الخير كالأخ. أنا راض عنهم، لم يضيع معروفنا معهم سدى. - ثم سأل حذراً: الحق يا أفمق، لماذا كان الرجل القادم من المخوش يلاحق موضوع فلاحينا؟ هل ذكر اسم أحدهم؟

- لا، - أجاب أفمق، غير أن غياب بجمت في تلك الأيام كان في باله.

- أسأل، إن كنت تتذكر، لأني أرسلت المرحوم بجمت إلى دودارقوايه في تلك الأيام.

- وكيف لا أتذكر؟ كنا تكلمنا على سرعة حصانه، وعاد سريعاً.

- يا حسرتي يا بجمت المسكين، أنا مذنب بحقك... دفن السر وتوجه إلى العلن: - نصحتك ألا تأتي فذهبت إلى حيث لا رجعة. والآن حين أنظر إلى أسرتك المتألفة أجد نفسي مديناً لها إلى الأبد... - وبعد سكتة قصيرة نظر إلى ابنه شاعراً بذنبه: لماذا لا تقول شيئاً يا ولدي؟

- سأقول رأيي إن سمحت لي وإن كان لا يحق لي الكلام، - وجه كنتاج نظراته الحانية إلى والده. - إن لم نضع حداً للمهاجرين مهما كانت نواياهم فسيكسرون باب دارنا غداً، ثم يقتحمون بيتنا. إن سمعت نصيحتي فلن أفتح لك باب الانتقام، ولكن لن أدعك تقعد مكتوف اليدين. الأمير تاخ، من يوم ما أتذكر، بحاربك على المكشوف. والأمير فواخ يدور في فلكه. - ووقف إلى جانبيهما الأميران مرتوق وجان. - أضاف أفمق.

- وسيظهر غير هؤلاء، - أضاف كنتاج معتداً بما أعطي من إذن للكلام. - هل تواطأتما عليّ كلاكما؟ - ابتسم شبق. - تنفخا في بوق واحد. أنت يا ولدي لن تدع أحداً يتكلم في مؤتمر الأمراء على ما يبدو. سيدينونك إن كمنت أفواه أمثال الأمير تاخ.

- هؤلاء لا يكتفون مهما قالوا، وفي أي مكان، يا والدنا. الجميع يعرفون أنهم جعلوا من أنفسهم مضحكة. ما لا أقبله هو تحريضهم أتباعهم ضدك. لم تنفق، أفمق وأنا، ولكن رأينا يتوافقان، فنعبر عما في قلوبنا.

- هذا كله مجرد كلام! - ارتفع صوت الأمير الذي صبر إلى الآن، ثم سأل حذراً: - ماذا تريداني أن أفعل؟ - تهاجمهم! - حسم كنتاج الموضوع.

- الكلام الحازم يقطع كالسيف أيضاً. - لان أفمق في الكلام. ونظر في وجه أخيه الأكبر لا يعرف تفسيراً لتكراره السؤال. ولما رأى فيه القلق الذي يغلب السؤال دان نفسه وقد رق قلبه: "لماذا ألح على أخي الكبير؟ وكنا أحداً مني أيضاً. شبق يُخفي عنا شيئاً. عاد من روسيا متغيراً عن عهده. لا يتقبل ما نفتح عليه. أقول: ليس راضياً عن قيصر روسيا ولكن الأخير حقق له ما يريد. وأعادته مع جيش. أحمّن أنه يثق بقائد الجيش فيشنيفيسكي أكثر مما يثق بنا. ربما قال له ما لا يستطيع قوله لي أو لابنه. ولكن ما يتجاوزنا به لا يعود

سراً... أياكون نادماً على استقدامه الجيش الروسي إلينا؟ لا يبدو الأمر كذلك. بل ينتظر وصول مجموعة أخرى منه، ويجهز لهم مواقف ومراكز على بحر آزوف. وأرسل نصف من أتى بهم مع فرسان من الأديغة إلى هناك. ولم يقصّر في الإحسان إلى أهالي الضحايا، وعقد اجتماعاً في كل قرية من قراهم، وروى لهم مصارعهم البطولية. وحين سأله أحدهم عن سبب اصطحاب الفرسان الأديغة إليهم أجابه: من أجل حريتكم، وردّاً على معروف القيصر، بل يمكن أن يخسر الروس بعض الضحايا هنا. قد يكون هذا هو السبب في أنه لا ينفكّ يذكر بحمت المسكين ليلاً ونهاراً؛ أم غيره؟.."

ولم يكن شبق الأمير الكبير خالي الذهن. دار في غمضة عين روسيا وتركيا والقرم والقبرتاي. ولما تراءت له أرض الأبراخ والبسلني عاد إلى المخوش يغلبه حزنه. تذكر العهد الذي قطعه مع ونتغ في الغابة، وإعادته كيس الذهب فهجمت على عنقه الجرعة التي كلّف بحمت بتنفيذها.

يفكر شبق في نفسه: " يبدو أن ونتغ الأعرج كان أشجع مني. ظننت نفسي قتلته فإذا بأخلاقه تحمينا. يتعجب من يسمع، والسيدة الكبرى تطلب أن نقدم إليه هدية كبيرة لم نقدم مثلها لغيره. ومن أين لها أن تعرف ما بيني وبينه؟ هي من زرعت فيّ فكرة الإجمام بطلبها أن نتخلص من حاتاي. والآن تريدني أن أكرّم منبع المشكلة. من أساس المشكلة؛ ونتغ أم حاتاي؟ لا شكّ أنه حاتاي. ولكن بنظرة أبعد أنا سبب المشكلة. من الذي كان اشترى الصبي بقماش بنطال؟ ومن رباه، وجعل منه إنساناً؟ حتى لو تزوجت ابنتي من حاتاي فليس من سيقتل جندوري من الجانية. بل ونتغ الذي كنت أسعى للتخلص منه. سيكون عليّ أن أترجاه شئ أم أبيث... أفكر يا ولدي في ما تفكر فيه، ولا أخلو من التفكير في طريقة حمايتكم، وإيصال الإمرة إليك، وفي الاتفاق السري بين روسيا التي وقفت إلى جانبنا وبين تركيا، وفي المشروع الذي يحمله قلقت، وفي مسؤوليتي، لا نحو الجانية وحدها، بل نحو الأديغة كلهم. لا يتحقق للإنسان كل أهدافه معاً. تتقدم، تصحح أخطاءك، وتهض من عثراك... "

كان كتاق يفكر في الأمر نفسه ولكن برؤية أخرى للموضوع. لا يعرف الالتفات إلى الورا، شأنه شأن جميع الشباب. قوهم: "ما تراه العين يساوي

الحياة" صحيح. الحياة في دولة كبرى غير الإقامة في إمارة صغيرة. ولكنه يساويهما في المسؤولية: يسأل والدنا: ما العمل؟ وهل ما أملك من مهام قليل؟ لا يجوز الإبقاء على أحد ممن هاجمونا بقلوب مشحونة بالشر. تفعل كما يفعل قيصر روسيا: تبيدهم. - غضب من أعماقه، - كل حاكم يتلزم ظلمه ورحمته. والأفضل أن تغلب القسوة الرحمة. سيخاف منك أصدقاؤك وأعداؤك. ولا يتجرأ عليك أحد. رأي قلقت صحيح. حين لا تكون عندك دولة لا يكتفون بمهاجمتك بل يحرقونك..." - فجأة ارتسمت في عيني كناق وجه الفتاة الجميلة دون أن يدري مصدرها، ثم اختفى. حقاً لم يكن يعرف سبب اقتحامها مشاغلهم ولكن القلب المتمرد الذي بدأ ينبض دافئاً دافئاً... قطع سؤال والده الطريق عليه:

- ماذا تريدان في النهاية أن أفعل؟

تبادل الثلاثة النظر، وأفمق يجلس نادماً على الحديث الذي فتحه لأخيه، جاهزاً لينهض بأي حجة. ولكن السؤال الذي لا ينفك الأمير يطرحه أعاده إلى وعيه.

- ماذا إذن يا أمراء؛ أليس عندكما ما تقولانه؟

- لم نصل إلى هذا الوضع، - أجاب كناق حين لم يردّ عمّه. - لا تؤاخذني يا والدنا؛ أنت تتصف باللين الزائد في إمرتك... - ثم أضاف: - أنا كنت التقيت بشبلان، وجعلته يروي لي رحلة الأمير فواخ إلى ونتغ، والحديث الذي جرى بينهما. وكذلك كنت تحدثت إلى ونتغ.

- هكذا؟ - رفع شبق رأسه فجأة. ثم صحا بسرعة ولام أفمق: - أنت تقول لي: هل تريدنا أن نقعد مكتوفي الأيدي، في حين يسير أخوك الأصغر أمورنا من ورائنا. لماذا تحاججني أيها البائسان؟.. وماذا بعد يا ولدي؟

- ونغ فيه رجولة. أكّد أنه لم يقبل الرشوة من الأمير فواخ، وأخبرني أنه عاتب عليك.

- وما شأني به حتى يعتب عليّ؟

- قال إنك لم تسأل عما سمعته حين عدت، وعن الأكاذيب التي أشاعوها عنك.

- هذا هو؟ - سأل شبق وقد اطمأن قائلاً: " لا مشكلة إن كان هذا " ، ووجد ما يبرئ به نفسه: - الناس يشيعون عنك الكثير حين تكون زعيمهم. متى قابلت وتنغ يا ولدي؟

- ليس قبل زمن طويل، دخلوا إلى بيت قلقت وأنا هناك.

- وماذا يتابعون؟ - كان شبق خمّن أن الآتين إلى بيت قلقت كانوا حُطاباً ولكنه تجاوز الخبر بجوابه: - ما العمل إذن؟ في بيت جيراننا صبية... أعرف أن لونتغ ديناً في رقبتي. اتصف بالرجولة حمى شرفنا في غيابنا. إن وافقتماني فسندعوه إلى البيت ونكرمهم، ونصالحه. وعلينا أن نكرم الحارس شبلاّن والفارسين اللذين كانا معه. والآن أريد أن أعرف ما علّة لئني؟

- أنت لطيف مع الأميرين تاخ وفواخ. - قال كتاك الآن بصوت أنعم. - سألت ما أفعل فأجيبك: أريد أن تفعل بالسابقين ما فعل الأمير تيمرقوه بالأمر أبشق. وهذه هي سياسة قيصر روسيا مع الأعداء.

- في كلامك صحة يا ولدي، ولكنك تبالغ في الحسم. - نهض شبق ثانية، ونهض أفمق منتظراً أن يدعوه أخوه إلى الجلوس، ولكنه خاشنه: - وأنت يا أمير أراك لا تقول شيئاً؟ إن كنتما تريداني أن أحارب امتشقت سيفي... - تمشى الأمير الكبير على أرض الغرفة أكثر من مرة. ثم جلس، وأضاف متمهلاً: - ليس مهماً أن تنقض راحة الغابة أو الجبل. الخنجر الذي جرح اليد خطأ لا يرمونه، والشجرة التي وخزت الوجوه لا يقطعونها... ماذا يا أفمق ؛ ألا تسمع إلحاح أخيك عليّ؟

- أتصبر كي لا نبذ متواطئين. - نفّس أفمق عما لم يكن يستطيع البوح به، وأفهم كتاك أنه ليس وحده.

- إن كان رأيكما أن أحارب فسأمتشق سيفي، - كرر شبق ما يقلقه متظاهراً بأنه لم يسمع كلام أخيه. - عندنا كثير من الجنود وكثير من الأعداء. - لا أستغرب عدم فهمكما أن فناء الأديغة سيحلّ علينا بدلاً من التفاهم، بل يحزني. لو استشارني الأمير تيمرقوه لما نصحته بما فعل. هل تريدان أن نضرب هنا وهناك لأن جيشاً روسياً تحت تصرّفنا؟ لا تستعجلا! دعونا نؤسس للمشروع الذي بدأناه، ونرى النتيجة. تضرب لي يا ولدي قيصر روسيا مثلاً،

ولكني رأيت أموراً كثيرة في بلاده لم تعجبني. غير أن هذا لم يمنعني من مخالفته والقتال لأجله. هل تبادلنا الثقة أم لا؟.. هذا ما سيبيّن العلاقة المقبلة بيننا. الجواب يوحدنا ويفرقنا. أما الأمراء الهائجون فلا تهتما بهم. إن لم يقضوا على أيدينا فعلى أيدي غيرنا. عليّ أن أهتم الآن بأمور أخرى. أنوي أن أسافر غداً إلى القائد فيشنيفيسكي على ساحل بحر آزوف. من منكما سيرافني؟ أنت يا أعمق. ليتركتك وأمه أحدهما من الآخر! - لحظة! نادى شبق الخارجين من المضافة: عليّ التحدث إلى فلقت فاطلباه لي!

- فلقت غائب يا والدنا، - قبل لي إنه في الجمكوي، - وداريه التي أخبرته خطرت له حلوة حلوة.

حين بقي شبق وحده كان أكثر ما أثار دهشته ليس أن أعمق بدأ الكلام وسيطاً ثم صمت، ولا الخبر الذي كان يدور حوله وحول وتنغ، ولا أن الخبر فقد أساسه الآن، ولا أن الشاهد لم يعد حياً، بل طريقة تفكير ابنه كتاك، وطريقة كلامه. " وأنا كنت شاباً مثله يوماً ما، ولم أكن خالياً من أي خبرة، ولكن لا أتذكر أن تكلمت يوماً بهذا الجزم. لا يغيّر رأيه وإن كان يستدرك موقفه أحياناً. أحسنّ هذا أم سيء؟ لم أقبل من أمه حين قالت إنها لم تعرف كتاك الجديد، ولكنه صعب المعرفة حقاً، تحول إلى شخص آخر تماماً. هل أمنعه من العودة إلى روسيا؟ وإن انكشف السرّ الذي أعرفه عن قائد الجيش فيشنيفيسكي؟.. إن حدث هذا سخر مني، لا الجانيه وحدهم، بل إقليم الأديغة كله. اتفقت مع خان القرم على الاجتماع متى عدت من موسكو، غير أننا كلينا صامت. كان قد هُرع إليّ وقت زيارتي لقيصر روسيا، ولكن أظن أن عليّ الآن أن أتوسل إليه. وإذا كنتُ أطلعتُ أعمق على هذا فلا يجوز أن أطلع كتاك عليه. ماذا نفعل إذا نَقَدُوا ما يُلمّحون به حولنا ففصل نُهرُ بشرة بين القبرتاي التي ستصبح لروسيا وبقيّة الإقليم لتركيا. إن فعلوا هذا فلن أغفر، وإن لم يبق غيري، لقيصر روسيا الذي يروح ويغدو بنا خادعاً إيانا! هل يعرف الأمير تيمرقوه يا ترى بما أتوجس منه؟ إن كان يعرف فنحن الأديغة نستحق كل ما يحدث لنا! عليّ أن أذهب يوماً إلى تلك الناحية، نتعارف، والأفضل أن نزوج كتاك من فتاة من عندنا، ولذا سألمح لتيمرقوه في شأن ابنته الجميلة، وأراها.

ونحن عندنا ابنة في سن الزواج... وقامبولات الصغير يكبر عندنا... - دنا شبق من النافذة فرأى كتناق في كامل أناته يدخل دار قلقت. - وما هذا الآن؟.. - تذكر أن هؤلاء أيضاً فتاة ناضجة.

X

وصل طرف الشمس الحمراء إلى حافة البحر فسمر شبق حصانه، وتوقف الحراس الفرسان.

- ماذا يا أمير؟ - سأل أقمق.

- اهدأ لحظة، الشمس تغرب.

- الشمس تغرب كل يوم، وستشرق صباح الغد.

- هل تثق بها؟ - ابتسم شبق. - والنائم يحدث ألا يفيق.

- يا أمير... - همس أقمق في أذن أخيه لا يريد أن يسمع الحراس لومه له: -

لا تسمح لهذه الخواطر أن تغزو رأسك!

ليس شبق مهتماً بكلام أخيه. ما في رأسه شيء آخر. الأصغر مهموم بالأكبر ولكنه الآخر ليس دون نوايا ومشاغل. والحراس أيضاً، هم أيضاً لهم أسرهم وأصدقائهم. كل، سواء كان أميراً أم فلاحاً أم عبداً، شاء أم أبى، يعيش دوره في الحياة. حتى الخيل، وهي الحيوانات، تعيش في نظام عمل معين، ثم تنفق. هذا للركوب وذاك للجر، والآخر حصان سرقة، والرابع للسباقات. والناس كذلك.

يتابع شبق الشمس التي أحزنه: "الناس يراقبون الشمس في شروقها وغروبها بفضل، وليس الناس وحدهم من يفعل هذا بل كل ما في العالم: الأشجار بأغصانها، والبيوت بنوافذها، والجبال بقممها، كلها تتابعها. تعطي الجميع دفئها، مهما لبسوا وبأي لغة تكلموا، لا تسألهم أهم أغنياء أم فقراء. ونحن نتنازع الأرض. كل يقتلع أساس الآخر. الغني يستقل ما عنده، والفقير يحسد الغني. الشمس وحدها من لا تطمع في شيء. لو كان الناس قادرين على الوصول إليها لتنازعوها أيضاً ولكن كيف الوصول إلى ما يُحرّك؟.. - ابتسم شبق ساخراً من الخاطر الذي سنح له، وأجاب على سؤال أخيه:

- أنت يا أفمق أراك تريد أن تُعَمَّرَ طويلاً. - هذا يسرني، في كل زمان يجب أن يعيش الأصغر أطول من الأكبر. أنت يا ماتج ماذا تقول حال لجوئك إلى الفراش؟ - سأل الحارس من ورائه.

- أسأل الله أن يطلع عليّ الفجر. - أجاب ماتج كأنه كان ينتظر السؤال.

- هل سمعت يا أمير؟ - أسرع شبق بسؤال أخيه.

- سمعت، واختتم بمزحة: ولكن لا أعرف إلى أي إله دعا.

- تبعاً لما يحدث الآن، - لم يترك الحارس أيدار فرصة الإجابة لماتج، - فللأديغة إلهان. ولكن لا أظن أحداً منهما ينفعنا.

- إذن لا حلّ إلا العودة إلى آلهتنا المتعددين... - تظاهر الأمير بممازحتهم، واستدرك حالاً: - هذا غير صحيح، لا يجوز أن نعود إلى الوراء. علينا أن نتقدم دون أن ننساهم. اليوم ظهر أن الأديغة لم يكن عندهم دين محدد. ها أنا أعرف أن عدة أسر أديغية توسلت إلى كيريل رجل الدين في جيش فيشنيفيسكي، من أجل استعادة صور مريم الجميلة. وأعرف أن بضعة أشخاص تقبلوا الصليب. فيم نحن أحرار؟ هذا عالمنا. كلُّ له الحرية... ولكن دُع هذه الشمس الغاربة تُفهمك أنك لست حداداً ماهراً يا أفمق. - اختتم شبق كلامه فجأة.

- ما العلاقة بين الشمس والحِداة؟ - سال أفمق غير فاهم، - أهو كون الشمس حمراء فحسب؟

- حالما تُشكِّل الحديد الحامي تغمره في الماء البارد فتبرده، في حين أن الشمس تتسلل إلى الماء بكل هدوء. وبهذا أود أن أذكرك بورشتنا. - قال شبق باسماء، واختتم: - والعالم مثل ورشتنا الصغيرة...

الأمير الكبير لا يغادر فكرته بل يطوّرها: "نعم، نعم. العالم مثل المحددة التي يحمّي فيها الحديد. وهذه الشمس الغاربة كالنار التي تُغمر بالتراب بعد العمل. تشتعل شيئاً فشيئاً. وحياة الإنسان هي النهار الذي بين شروق الشمس وغياها. يخيّل إليك أنه قطعة الحديد التي تشكّل بين المطرقة والسندان. إن مددت يدك إليها أحرقتك، وإن طرقتها فهمتك. وإن غمرتها بالماء احتجت، وبالنار احمر وجهها. وإن كنت تعرف صناعتها تحولت إلى سكة حراثة أو

حدوة حصان أو سيف. كان والدنا يوصينا ألا نشكّ في من نقق به، ولكن كثيرين من هؤلاء عادوا فخدعوني، غير أنهم، لحسن حظي، ليسوا كثيرين. ربما كان ما يُخينا هو أن ما تقطعه سكة المحراث أكثر مما يقطعه السيف. وأنا واثق من أن الشمس ستشرق غداً. يعيش الإنسان عمره القصير وهو يفكر: ماذا سيجري لليلنا؟ وماذا سيجلب غدنا؟ وماذا سيمنحني؟.. أتنما تريداني أن أحارب... — مرة أخرى ألم شبق تحريض كنتاج وأفمق له قبل أيام. أنا أسرعت إلى روسيا طالباً المساعدة ضد القرم فكيف أشقّ حرباً داخل إمارتي؟ لست أجهل قولهم: مدّ يدك إلى روح من يمد يده إلى عينك، ولكن لم يكن الوقت بعد. هذا مثل مرارة الخوخ غير الناضج... لا يزال أمامي كثير من المهام غير المنجزة. وقلقت، شكراً له، من حظي أنني لم أتبع ما أشار به إليّ. رأيت أن موقفه لأن حين تكلمنا الآن. ومن الحسن أنه يعتمد عليّ في تأسيس دولته الأديغة... من كان يقبل المشروع الذي حمله قلقت؟ ومن كان يتأمل نجاحه؟ نحن، أفمق وأنا، من كنا نؤيده دون أن نُطلعه على ما في قلوبنا. حقاً لأماف وزغاشت اللذان صار قريبهما يؤيدانه. والآن حين تتأمل في ما يحدث في إقليم الأديغة يتبيّن أن كلامه كان صحيحاً. لو عرفتُ هذا لما اصطحبتُ كنتاج إلى قيصر روسيا الذي قلب أفكاره... كل الذنب على مشقوه. حين سافر تبعته كأهمّ يجرموني من شيء ما. ولحقني تيمرقوه. ظننا أننا نحسن إلى أنفسنا فجرى لنا ما يتجاوز المضحك والمبكي. أنا جئتُ بالجيش الروسي إلى أديغة الغرب، وأمير القبرتاي سمح للجيش الروسي أن يسرح في أرضه. من حسن حظنا أن علاقاتنا، فيشنيفيسكي قائد الجيش وأنا، وكتناق معنا، حسنة. ما سبب عدم رضا فيشنيفيسكي عن قيصره يا ترى؟ بعدما قطعنا نصف الطريق فحسب لميح لي إلى هذه العلاقة. وبعدها أشار بضع مرات إليها. أظن أنه سيتوجب علينا أن نتكلم غداً في اجتماعنا على نحو أوضح. هذا غداً، والآن ليس ما أمامنا، أفمق وأنا، للحل قليلاً. ألا يكفي إبعادي أخي الوحيد عني؟ لا يُعرب عن موقفه مما يعجبه وما لا يعجبه. يحرص عليّ... ويبقى بلا أسرة... ماذا حدث لي بعد رحلة موسكو؟ الأسئلة أكثر من الإجابات!.. — نهر شبق نفسه، وخرج من أفكاره، ولاحظ حلول العتمة.

- قال القدماء: "متى ما مللت فأشعل النار، ومتى خفت فتكلم!" ابحثوا عن مكان هادئ. هذا صوت ساقية إن لم أخطئ.

توقف الفرسان عند الجدول النابع من أسفل المرتفع. وسرّح الحراس الخيل مقيدةً في المرعى الملاصق. وأثّوا بحطب يابس من الغابة وأشعلوا نارين: الأولى للأميرين، على طرف المنبع، والثانية للحراس أقرب إلى مكان الخيل. فتح أيدار بمهارة مائدة الأميرين القابلة للطّي. وريثما وضع عليها اللحم المقدد والجبن والحبز الرقيق، وغلى الماء، نصب ماتج شبه خيمة للأميرين من الأكسية، وجعل من السروج وسائد لهما.

- الآن لاحقوا أعمالكم. - أمر أفمق الحراس، - متى احتجناكم ناديناكم.

غاب النهار الحار في الجبل الغربي فأطلّ عالم الليل بنجومه وهوامه وطيوره.

- هل تسمع صوت البوم ينادي ولا يجد من يجيبه؟ - قال شبق وهو يُبعد الحبز من أمامه. وتنهّد قليلاً - الوحدة صعبة يا أفمق!..

- لا تقل هذا يا شبق، لسنا في وحدة. كل آل فنشقهو معنا. عدت من الحرب سالمًا، وكتاق عاد معك معافي، وقامبولات يكتسب قالب الرجال.

- نعم يا أخي نعم. آل فنشقهو متعاضدون قولاً وفعلاً. ولكن هل تعدّ كتاق عاد نهایاً؟

نظر أفمق في وجه أخيه لا يدري ما وراء السؤال المفاجئ. كان الليل مقمرًا ولكن لا يمكن قراءة حال شبق في عينيه. - لام أفمق أخاه في سرّه: "إن كنت أنت لا تعرف فمن أين لي؟ هل يعيد التفكير في عهدنا قبل أيام أم يقلقه غيره؟"

- قل لي يا شبق ما يشغل بالك دون أن تستجوبني. - قال بصوت خشن، وسرعان ما لطّف نبرته: - ساحني على صوتي العالي!

- لم تُخطئ في كلامك فلا تلّم نفسك، - قاطع الأمير الكبير أخاه. - لو لم أكن قلقاً لما سلكتُ الطرق المتشابكة. قد لا أعود فأقابل الروس، وقد أصالح خان القرم وسلطان تركيا. يُهمّني أن أمورنا لم تجرّ كما توقعت. لا أفهم سلوك قيصر روسيا معنا. أنا لا يهمني شخصياً، ما يحزنني هو خِداهم للأديغة.

- ألم يفهمك قيصر روسيا فيرسل لك جيشاً يا شبق؟

- ما فائدة كلامك؟ - ابتسم شبق، - لن تفهم إلا إذا فكرت في كل موضوع كبير على حدة. قدّم الخدمة نفسها للأمير تيمرقوه. أرسل له جيشاً أحرق قرى الأمير قايتقوه. قل لي لماذا؟ لم يقبل منهم وقوفه وأولاده إلى جانب خان القرم. وأنا خائف أن يفعل بنا الأمر نفسه عبر جيش فيشنيفيسكي... جئتُ بهم بنفسى وكتاق معاوُ قائدهم. كنت أريد أن أتكلّم قبل هذه الأحداث مرة أخرى إلى القيصر. ولكن صادف وصولي وفاة زوجته فلم يتحقق مرادي.

- ألا تثق بفيشنيفيسكي؟

- لا أثق بابني كما أثق به يا أفمق، وتنهّد.

- يا شبق... - ارتفع صوت أفمق دون إرادته.

- لا عجب في هذا يا أخي. ألم تسمع ما كان يقوله لي في ذلك اليوم؟ ينوي أن يدفعني إلى الحرب؟ وأنت أيدته، ولكنك صمتت في الوقت المناسب. لا أعرف إن كنت فهمت عدم صواب الرأي.

- صمتتُ إشفافاً عليك فحسب. وسوّغتُ إحراق قرى القبرتاي. ولكن حين أخبرت بأن الجيش الروسي يسرح في شرق إقليم الأديجة وغربه داخلني شكٌ مريب. أظن أنه يجري لنا قولهم: "فرحة القطّ لهفة الفأر".

- صحيح يا أفمق، صحيح. إن كان أعدائي يتصورون أنني سعيد نوعاً ما، وأن لي نفوذاً ولو محدوداً، فأنا المقصود بالقول المأثور الذي ذكرته. أرهقني القط الكبير بملاحقته لي فهو يلعب معي بين أن يمسك بي ولا يمسك... هل يفكر الأمير تيمرقوه في هذا يا ترى؟

- تكلمنا في كثير من الموضوعات حين أتى بلغايرقوه إلى مؤتمر الفلاحين ودعوته إلى بيتنا. وتطرّقنا إلى وجودك أنت وكتاق وأخيه الأصغر سلطان في روسيا. ولكن لم يلمّح إلى مثل هذا إلا أنه لم يكن يملّ من ترديد اسم الجيش الروسي. وتبعاً للخبر الذي وصل إلينا فقد تحقّق له مراده.

- لم يفعلوا أي شيء صحيح! - جزم شبق. ثم أضاف حزينا: - هذا ما لا أستطيع إفهامه لكتاق. يكرره كأن أحداً يهيجه يوماً بعد يوم. قال لي أمس قبل أن ننطلق: اسمح لي فحسب وأنا أرّتب الأمر دون أن أُبرّك. وأنت، ألا يقول لك شيئاً؟ لا تكتم عني، لا يمكن أن يكون بينك وبينني أسرار.

- يا شبق، ماذا جرى لك فلا تثق بأحد قبل سفرك إلى موسكو، وبعد عودتك منها؟ - شعر أفمق بالإهانة لما سمع. - اهْتَمَنِي أنا بما أستحق وما لا أستحق ؛ أتحمّل لأني أصغر منك. ولكن لا تبالغ في شكوكك نحو كتابك إن كنت ستسمع رأيي. نصحتّه أن يُخلص لمن خالطهم وألا يسيء إلى سمعتنا فنقد توصيتك. والأمر الآخر الذي قلت إنه يحدث لنا لا تتحمّله وحدك إذ نحن شريكان. ثق أن من يتآمرون عليك في الجانيه سيتوقفون بالقياس إلى العام الماضي وما قبله بعد أن صار الجيش الروسي في ديارنا. تصرفت جيداً بصبرك على سلوك الأُميرين تاخ وفواخ. ولذا لم يُفاتحني كتابك في هذا الشأن. ربما يعرف أي لن أقبل منه ما لا تقبله أنت. ما يقلقني أنا في الحقيقة أمران: الأول: العلاقات الروسية - التركية، والثاني... الثاني لاحقاً، فيما بعد....

- العلاقات الروسية - التركية ليس عندي معلومات أكيدة عنها، هي مجرد تخمينات، وإلا هل كنت أفيت نفسي في همومي الكثيرة؟ إن كان كثير التجوال أعرج، ومن يسخر منه ملوئي الفم، فسينكشف هذا يوماً ما. كنت أريد ألا أتأخر عن معرفة الحقيقة. السباحة في البحر سهلة ولكن الخروج منه صعب... ننتظر قدوم شخص مقرّب من فيشنيفيسكي من موسكو وأنا أنوي متابعة مهمتين دون انتظار ما سيأتي به خيراً كان أم شراً. سأقابل كلاً من الأمير تيمرقوه ودولت جري كلاً على حدة. وموضوع لقائي بهما لا أخفيه ؛ وليسمعه، لا الأدبغة وحدهم، بل تركيا ووسيا أيضاً. ولذا ارتخ ريثما ألتقي بفيشنيفيسكي غداً أو بعد غد. والآن أسمعني ما أجّلت الحديث فيه!

- هذا ليس موضوع دولة يا شبق... - نظر أفمق ساهماً في وجه أخيه، وخوفه وحياءه متلازمان، بل مدّ يده إلى الجمرة. - إن كان سيثقل عليك فأعفني منه! - أفمق، ليس بيننا أسرار، ولدتنا أم واحدة وأب واحد. - ساجني على أي كذبت عليك مرة. - بدأ شبق من ذاته ما لم يعد يتحمّله، - هذا ما دفعني إلى حديث غروب الشمس، وذكرى المحددة، وغيرهما... ما فعله المرحوم بجمت دون قصد منه سببه حاتاي وونتغ. لم يُغتفر دُم بنكس لجمت في أرض الغربة. لا يدع لي ما فعله من أجلي ومن أجل أسرتي مجالاً للراحة. لم أكن طلبت منه

ما فعل بالضبط. أليس من أجل هذا سألتني في الشتاء الماضي إن كان حصان
بجمت سريع الجري؟
- اعتبرني لم أسألك.
- شكراً يا أخي.

وصلت جماعة شبق صباح اليوم التالي إلى فيشنيفيسكي. ما رآه شبق على
طرف قرية جَتَشَاة فوق العجيب: خمسة مهاجع وإسطبل. وغرفتان قيد
الإنجاز، وكومة الحشيش في الفناء. والجميع من أديغة وروس منهمكون في
العمل. وحين يرى فيشنيفيسكي المنخرط في العمل مجموعة الفرسان القادمة
يترك الفأس ويستقبلها بساعدين عارين، ووجه متعرق.

يبادرهم شبق بالمديح:

- تنجزون عملاً عظيماً!

- لم نكن وحدنا، ساعدتنا القرى ليلاً ونهاراً.

- حياهم الله إذ تفهموكم. - قال شبق وتعجب مما يرى: - وأقمتم الكنيسة؟

- لم نُقِمها فحسب - ضحك فيشنيفيسكي، - بل نشط رجل الدين كيريل،
وعمد عدداً من الأديغة. ثلاثة منهم في جيشنا، واثنان من القرية. ويجهز عدداً
آخر للأسبوع القادم.

صرخ شبق في قلبه: "أي نوع من البشر نحن يا رجل؟! لا نزال طوال سنوات
عمري الستين نغيّر ديننا. لا أسهل علينا من اعتناق دين آخر. ما السبب؟
ألأننا بلا اعتقاد؟ لا نستحق هذا الاتهام إذا عرفت حبنا لأرضنا وجبالنا
وسمائننا. كانت الوثنية مقبولة عندنا أكثر من غيرها على رواية الكبار. وكان
الإسلام دخل بيننا قبل المسيحية. ولا يزال يُفرض علينا بالقوة..."
عاد شبق من أفكاره المتضاربة فمازح أخاه:

- سيصل إلينا الكاهن كيريل تبعاً لسرعته في التبشير!

- لا مشكلة يا أمير! قال أفمق بين الجد والمزاح. إذا كان أخي الأصغر كنتاج
يقبل دين أجدادنا في عصرٍ ما فلماذا لا أقبله أنا أيضاً؟

كان بين الواقفين من وافق أفمق ومن رفض. ولكن حين ابتعد عنهم شبق غير
مهتم بهم تبعه فيشنيفيسكي، وسأل شبق حالما دخلا الغرفة عما يقلقه:

- ما الأخبار في موسكو؟
- لم يأت عميلي بجديد في موضوع الاتفاق الروسي - التركي السري. لا يزال على حاله. ما من خبر يسرني. حلّ القيصر المجلس المختار، وليس قليلاً من اعتقلهم. وهناك من هرب. إذا كان القيصر لم يرحم أقرب رجلين إليه فلن نصعب عليه نحن. من حسن حظي أني عندكم.
- من هما اللذان تأتني على ذكرهما؟
- سيلفيستر وأداشيف؟ وهما من أصحاب كتاك.
- نعم؟ - ارتعب شبق. ولكنه عاد كمن لم يحدث له شيء. - وما ذنبهما؟
- اعتبرهما ممن سمعوا زوجته.
- الخبر الذي جاؤوك به يا فيشنيفيسكي أكبر من الخبر السيء... كم هي منحوسة هذه المرأة! لم يسمحوا لنا بمقابلة القيصر بحجة أنها ماتت بعدما قطعنا كل هذه المسافة، فعدنا خائبين. والآن تسببت في مقتل الرجال في البلاد...
- بعدما غمغم شبق بخليط من روسيته وأديغيته قال لفيشنيفيسكي وقد غضب من جديد: - أنتم تحاربون من أجله، وتحملونه وتنفذون أوامره.
- رجلا الدولة اللذان ذكرت اسميهما كانا عمودي القيصر. لم يكونا صديقين لي فحسب، كنتُ معهما في "المؤتمر" أويدهما في القول وفي الفعل. لا تقلق على كتاك. الجميع يعرفون إخلاصه للقيصر إلا أن يأخذوا عليه كونه معاوناً لي.
- هكذا؟ - سأل شبق وقد طمأن الكلام قلبه. - لا بأس إذن... - ثم نصح قائد الجيش على طريقة الأديغة خجلاً من الهلع الذي أبداه على ابنه: - يا فيشنيفيسكي، لا تحش شيئاً ما دمت في ضيافتي. لن أسمح للقيصر المرتاب أن يمسك بإصبع واحدة ولو لم يبق غيري. ألم يبق في الجانيه قانون غير هذا؟!

لا أجمل من أرض الشراكسة الموزعة بين الأشجار. البيت المستقل مؤلف من عدة غرف. الجدران مزينة بأسلحة متنوعة: الدروع والخوذ والخناجر والسيوف والقيسي. ومن مظاهر قدرة الأمير الغرف الكثيرة التي له. وكلّ ضيف تخصص له غرفة مستقلة.

تذكرنا حياة حكام الألمان والفرنسيين القدامى بحياة الشراكسة. وهو قياس للرجولة المحدودة لأناس القرون الوسطى، أو الروم.

ف. دوبا. دو مولير

غرفتي طولها ثلاثون قدماً، وعرضها خمسة عشر. وعلى الجدار الملاصق للسرير بساط جميل جداً. وعلى السرير وسائد مغطاة بالحرير. والفرش لا ينقصه شيء. مغطى بالمخمل. وعلى اللحاف غطاء من الحرير. وغطاء السرير أبيض ناصع.

أحضروا لي مجموعة أدوات مطبخية جميلة تعجبت منها راضياً من قلبي، كانت كافية لكل ضيوف مضيبي الكريم.

جيمس بيل

في طريقها من تامان وكافا كان على ظهر السفينة من الصوف قرابة عشرة ملايين فونت،¹ ومئة ألف لفافة من الأقمشة السمكية، وخمسة آلاف إلى ستة من البزات الكاملة، وستون ألف بنطال من قماش سميك، ومئتا ألف من الأكسية القصيرة، وخمسة آلاف جلد ثور إلى ستة آلاف، وخمسون ألفاً من جلود السناجب، وخمسمئة ألف إلى ستمئة فونت من العسل، وسبعة آلاف فونت إلى ثمانية من الشمع، ومئة ألف من جلود الثعالب، وثلاثة آلاف جلد دب، ونصف مليون جلد خروف، تصدر من شركيسيا إلى الدول الأخرى.

ك. بيسونيل

¹ مقياس روسي قديم يساوي تقريباً 409 غرام.

I

في قول الناس: وفاة زوجتك وسقوطك عن حصانك سيّان، نصيب من الصحة. مضى أسبوع على وفاة أنستاسيا وإيفان غروزي لا يخرج من الغرفة. ولا يرفع عينيه عن الصبيين إيفان وفيدور، ولا يسمح لهما بالابتعاد عن رقابته. ويُجلّسهما على فخذه كما لم يفعل سابقاً. يلاطفهما، ويلعب معهما. تتمثل لعينيه طفولته وهو يتيم فيتأمل الولدين وقلبه يتمزق.

توفي والد غروزي ولما يبلغ الرابعة. وفي مطلع سنته الثامنة توفيت والدته. فبقي هو وأخوه الأصغر يوري يتيمين بين الأعراب، فنشأ لا يهتم به أحد، أو يربت على رأسه، أو يوجه إليه كلمة حلوة. فبقي اليتيم حزناً أبدياً في نفسه. وهذا سبب تكراره الدائم لعبارة: "لم يهتم بنا أهالينا". عاش من فقد أبويه كما يقرر هو، وكما يستطيع إدارة شؤونه، عديم الثقة بالناس.

نادراً ماكان رجال الدولة يتذكرون الأطفال الملكيين: في الأيام التي يقومون فيها بشؤون الدولة، والأعياد الدينية، وحين يأتي موفدون من الدول الأخرى، أو حين يُذكّرون بأعياد ميلادهم. ثم ينسوّهم، فيتولون شؤون هؤلاء الشخصية وشؤون البلاد باسمهم. أو يتصارعون على تبوّؤ العرش. لا يزال إيفان يتصور كيف كان النبيل شويسك يربي الولدين، وكيف كان يتصرف أمامه. كان إيفان ويوري يلعبان في بيت والدهما كما يفعل الولدان الجالسان أمامه الآن. النبيل يجلس مرتاحاً على الكرسي يقصّ أظافره، ورجلاه بالحذاء المتسخ على أريكة والده، وما يتطاير منه يقع في الفراش... ولا ينسى أحداث منتصف الليل، يرتجف منها قلبه. كان من يدير شؤون الحكم في تلك الأيام هم جماعة بيلينسك. وقد هاجمتهم جماعة شويسك المعادية لهم بسبب دعم رئيس الأساقفة يوسف لهؤلاء. وكان الأخير اختبأ في بيت بيلينسك، فهاجموا البيت، وكسروا الباب والنوافذ، واندفعوا إلى حيث ينام الصبيان فأرعبوهما...

كل هذه الأحداث المرعبة، وغيرها مما يجلب العار والإهانة، وينمّ على انعدام الرحمة والإنسانية، تهاجم مخيلة القيصر وهو يتأمل طفليه. وربما كانت نقطة البداية لارتياب القيصر وظلمه وارتعابه ورجولته وتطرفه الديني. ونتيجة لهذه الظروف نشأ منذ طفولته وإلى الآن، وهو في الثلاثين، يتصور نفسه دائماً محاصراً من الأعداء، يبحثون عن أي طريقة للإيقاع به، إن لم يقتلوه اليوم فغداً، فكان همّه ليلاً ونهاراً حماية نفسه. وربما كان هذا السبب في طلبه من النبلاء المحيطين به أن يتزوج ولما يتجاوز السادسة عشرة. كانت حالته: أفكاره وحزنه ومرّحه... تتغير في اليوم سبع مرات. وكانت حياته تتكيف مع تطورات العالم. ولكنه كان ذكياً ذرب اللسان كريماً شقيقاً، ويحدث أن يتقبل الدين وأن يهجره. ويستوي عنده الخير والشر.

كان يتصور نفسه قد هدأ بعدما تزوج وأسس أسرة، وحاشيته تتصوره هكذا، ولكنه لا يستطيع التخلص من أسر قسوة طفولته. لا يتذكر القيصر الأرملة زمناً اطمأنت نفسه فيه كما مع أنستاسيا ابنة رومان. ولا ينسى إيفان غروزني التفاحتين اللتين قطفتهما أنستاسيا وجاءته بهما... وهاتان لا تزالان فوق النافذة. إحداها على حالها، والأخرى عليها آثار أسنان. استنفر أنثى السيدة الكبرى وصراخها القيصر، ووقعت ويدها على صدرها، تتخبط على أرض الغرفة، والزبد يسيل من شديقيها، وتتقيأ... القيصر ملهوف على من تلفظ أنفاسها الأخيرة، يمد يده إليها، يرفعها. يُهرع الطفل إيفان والخوذة على رأسه والسيف بيده قادمًا من معركة الأطفال وبعده فيدور. والطفلان اللذان لا يعرفان ما حدث يتفقدان المكان واهمين، وحين يسمعان توسلات الأب الجاثي على ركبتيه إلى جانب الأم بيدآن هما أيضاً بالبكاء فتأتي برباره بنت باتريك المريية، فتبعد الولدين...

"ما أشأم التفاحتين اللتين جلبتُهما إلى حماتي أنستاسيا! - صرخ إيفان في سره محملاً نفسه الذنب. - من عرف أن أحداً دسّ فيهما السم؟.. يبدو أنني أنا أيضاً كدثتُ أكون ضحية. ولو أكل الطفلان منهما... هذا من تدبير أعدائي. لا يتركوني وشأني. هذه الجرائم من صنع النبلاء لا غيرهم. لا يعجبهم استئناف حرب ليفون التي جعلوني أوقفها... كل المسؤولية على جماعة

أداسيف. كانوا إلى جانبي حين كنت أحارب في قازان وأستراخان. لماذا كانوا يشيرون عليّ أن أتجه إلى الشرق بدلاً من الغرب؟ ولماذا أرسلتُ الدَّ أعدائي أداسيف إلى حرب ليفون ليبرئ نفسه؟ ولماذا أبقى على رجل الدين سيلفيستر في بيته يفعل ما يشاء؟ وأين من يحالفونهم سرّاً؟ علّقتُ نشاط المجلس المختار، وفترت أعضائه ولكنهم يجتمعون الآن في بيوت سرية. ويهاجموني فيها. ويشيعون عني أخباراً سيئة... وأين من يجب أن يتابعوا هؤلاء ويكشفوا حقيقتهم من باسمانوف ألكسي وسكوراتوف ماليوتي وغريازنوي فاسيل؟ يجب اعتقال أداسيف فوراً. والآن هو قائد جيش في مدينة يورييف. يجب أن أرسل إلى أندريه كوريسك قائد الجيوش التي تحارب في ليفون لاعتقاله. وإن لم ينل سيلفيستر جزاءه فسيرفع رأسه من جديد، والقائد فيشنيفسكي موضع ثقة هؤلاء، ولكني فعلتُ خيراً بإرسالي إياه إلى نواحي الأديغة. ومتى تحقق اتفاقنا السري مع تركيا فسأُنيله جزاءه. ليعتبرُ إحدى رجله وقعت في المصيدة وإن لم يعرف الآن!.. " - ولما دنا موعد الابتهاال الذي كان يقوم به من أجل زوجته أربع مرات في اليوم قال لولديه:

- إيفان وفيدور، تعالا إلى صلاتنا! - أمسك بيد الصبيين، وذهبوا إلى بيت الأرشمنديت ليفكي القيم على دير جودوف. عاد القيصر وقد هدأ قلبه ولكنه حين خلا إلى نفسه عاد قلقه فهاجمه. لم يُطق الجلوس وحده فمضى إلى حيث يُقيل ولداه، فرآهما ينامان متعانقين، والمربية العجوز بربارا تغالب نعاسها. ذرع القيصر أرض الغرفة بضع مرات، عاقداً ذراعيه وراء ظهره. وفيما يفكر بالحزن - الإهانة التي لحقت به نتيجة قتل زوجته، وبمستقبل ولديه انتصبت أمامه فجأة حرب ليفون. ورّن في أذنيه اصطفاق أمواج البحر الذي كان لأجداده يوماً، والذي سيبحر عليه ولداه. وأعداؤه البولونيون والألمان يسبحون فيه. ويغدون ويروحون إلى موانئ دول كثيرة، يبيعون ويشترون. هذا صعب المنال ولكن بحر البلطيق قريب، وحوله دول كثيرة، وهو بحر مفتوح صيفاً وشتاء لا يتجمد كالحيط المتجمد.

"يجب أن تنحل أمورنا في جهة ليفون أسرع مما عليها الآن. نتحقق أهدافنا في الشرق والجنوب أفضل مما توقّعنا. رضخ لنا خانات أستراخان والنغوي بالقوة

وبالسياسة. والأديغة الذين لا دولة لهم يترجّوننا أن نساعدهم. وجاءتنا وفودهم مراراً. راقبتهم واختبرناهم. وأمددناهم ببعض المساعدة. المتسول لا يجوز أن تحقق له الكثير، كلما تركته على الباب ينتظر زاد توسّله. حين وقف المفد الأديغي الأول متعجباً أمامي أعدتُ إليه وعيه. ثم اختفى بعدها. ولا أظن أنه ومن أرسلوه كان لهم وزن كبير في ناحيتهم. أما الأديغة الذين أرسلوا الأمير شبق إلينا فتيّن أننا بحاجتهم جداً لأنهم يقيمون على شاطئ البحر الأسود وبحر آزوف، وجيران للقرم وتركيا. وسينفعنا القبرتاي الذين أوفدوا الأمير تيمرقوه؛ ليسوا بعيدين عن الفرس، والمسيحيون الغروزين والأرمن قريون منهم، ليس بينهم إلا الجبل، وأراضيهم تتاخم حدود تركيا... سأتوجه نحو الأديغة متى ما انتهيت من أمر البلطيق. وحين أعقد مع تركيا الاتفاق السري بشأن الأديغة سأمنع خان القرم من الإغارة على أراضينا الجنوبية. وسأنهي صداقته مع بولونيا. ومن أجل هذا نحتاج إلى جيش قوي مزود بالسلاح الجيد. وينقصنا كثير من المدافع وقذائفها وقاذفات اللهب والبارود، والأيدي العاملة الماهرة... وأظن وفودنا ستحل هذه المشكلة. ويبدل عمال المصنع الذي أقمته جهدهم. يجب أن أتفقدهم، ولن يغفر الله لي قعودي هكذا، كما هو عار عليّ، خدمة لأعدائي..."

رفع القيصر رأسه على صوت طرّق الباب. دخل رئيس الأساقفة العجوز مكارى في جلبابه الأسود. وقف القيصر أمامه ليباركه العجوز، فرسم الآخر الصليب بيد مرتجفة، ودعا إلى الله من أجله.

العجوز مكارى قريب جداً إلى القيصر بالقياس إلى رجال الدين الآخرين. يتشاركان القول والفعل. كان مكارى شجّع القيصر على حرب ليفون، ويؤيده في غيرها من القضايا الدولية. ولا يجهل القيصر أن العجوز الجالس أمامه يتعاطف سراً مع مكسيم غريك المعتقل. ويعرف أنه كان قد كتب إليه: "أقبل قيودك ولكن لا أستطيع مساعدتك"، غير أنه يخفي علمه.

بعدما تبادل الرجلان بعض الأحاديث العادية، لم يملك القيصر إلا أن يصرّح بما يقلقه:

- عندي، وللبلاد أيضاً، أعداء كثيرون.

- هذا صحيح أيها القيصر العظيم. - وتابع بعد قليل، - أعداؤنا كثيرون حقاً ولكن صدّقي لن يحققوا شيئاً. يجهدون أنفسهم عبثاً.

- أليسوا من قتلوا أنستاسيا؟

- لا أعرف أيها القيصر العظيم، - أجاب مكاري الآن حذراً.

نُحِضَ إيفان غروزني مما سمع. واستدار بسرعة إلى النافذة بخطوات واسعة. وتمثلت لعينيه أشجار التفاح التي تتساقط منها أوراق الخريف. شعر الأسقف الناهض بالرجفة التي اعترت الرجل الضخم أمامه. أشار إليه القيصر، وهو يعرف أن الوقت حان للانصراف، أن زيارته انتهت.

غضب القيصر حين بقي وحده على النافذة: "جميعهم يحبون إغراق القيصر بالمديح في حضرته، ومتى أدت ظهري انفراد كلٍّ منهم بعدائه الخاص... لا يعرف الأسقف شيئاً عن موت أنستاسيا المفاجئ!!.. لا يريد أن يأتي على ذكر من يهاجموني ويهاجمون الدولة، ومن يتم أولادي. أعرف ما يريد رجال الدين هؤلاء: يريدون أن أكون لطيفاً معهم ومع حاشيتي وأبناء دولتي، بل أن أجعل من نفسي ممسحة أقدام. لن تشهدوا مثل هذا أبداً! وقد دفعوا القيصر قسطنطين في سارغراد بمثل هذا التملق إلى الخطأ. والآن تحالفوا مع نغوي القرم ضدنا فيناكدوننا، وينهبون جيرانهم الأديغة. لن نفعل مثل هذا إكراماً لجدي إيفان الثالث الذي عمل على توحيد روسيا، ووالدي فاسيلي الثالث، وإكراماً لك يا أنستاسيا. كل أعداء الوطن أياً كانوا، ومن أيّ جهة أتوا، سيقضون تحت سيفي"، - استدار القيصر متصلياً ونظر إلى باسمانوف الذي دخل، وأمره:

- الآن حالاً، جهزوا لي العربية، وليركب الحراس. سنذهب إلى قرية بوشكار حيث معمل الأسلحة، نزر صانعي مدافعنا.

قضى إيفان نهاره كاملاً في بوشكار. أنجز العمال أسلحة ممتازة بالقياس إلى الربيع الماضي. تطوروا في صنع المدافع والذخيرة وقاذفات اللهب. وجيء بالفنيين المهرة من أنحاء البلاد. تحدّث إلى بعضهم شخصياً. ورفع معهم الأنخاب. وأثنى عليهم. وتفقد مطعمهم واستراحاتهم. وتفضّل ببعض المال على أسرهم. وقدم باسمه وباسم المرحومة أنستاسيا الهدايا إلى المبرزين منهم. ثم عاد

إلى موسكو يغلبه الفرح، قائلاً في سرّه: "الآن أنا جاهز لمحاربتكم ومخادعتكم". ثم عاد إلى أعماله، واختفت مظاهر الحِداد من الكرملين شيئاً فشيئاً. وبعد أقلّ من شهر، في أواخر أكتوبر، جاءه الخبر الذي كان ينتظره من مدينة شيريه الصغيرة في ألمانيا. وهو ما أتى به الموفدون الألمان في 11 أكتوبر / تشرين الأول عام 1560. وقد تنازع على رواية الخبر الموفدون الألمان. والمضمون هو مصير الألمان المقيمين في ليفونيا، وكلّ ينقض رواية الآخر للخبر. كانوا يختلفون ويتخاصمون ويتصالحون، وأي شخص تكلم يدين روسيا وقيصرها وجيشها فحسب. ولكن مع اقتراب الاجتماع من النهاية قال لهم الكونت موفد إمبراطور النمسا: سأطلعكم إذن على ما كتبه إمبراطورنا، وخلاصة الكتاب هي أن النمسا تعقد اتفاقية صداقة مع روسيا بسبب الخطر التركي الزاحف على أوروبا دون إعاره اهتمام كبير بمواقف الدول الراضة مثل بولونيا. ويعتقد أنه متى انتهت العداء مع الدولة الشرقية العظمى روسيا فسيسود بيننا السلام. ويجب ألا يقلق زعماء ليفونيا الألمان من تقاربنا مع روسيا فهو لصالحهم. وأخيركم أن إمبراطورنا لا يسعى رغم ذلك إلى صداقة قيصر روسيا. وليس مثل هذا السلوك مع موسكو ضرورياً. ولكن أُنفق على إرسال وفد إلى موسكو يرجو إنهاء حرب ليفون، ومساعدة ألمان البلطيق. غير أنه كان واضحاً أن كل هذا لن يؤثر في شيء على قيصر روسيا.

وجيء من سمولينسك بخبر أدعى للسرور أكثر من خبر النمسا: سيغموند ملك بولونيا الذي شنّ الحرب على روسيا يطلب السلام، وأرسل موفديه إلى موسكو. كان القيصر مسروراً بالطبع للخبر الذي أرسله قائد الجيش موروزوف ولكنه فكر طويلاً في سبب هذا التحول. وصلى في كنيسة الكرملين: "لا أريد إلا استعادة أرض أجدادي. ولا يعني اقتحامي أرض ليفون أي أطمع في أرض أحد. ولم أشن الحرب على بولونيا. وسيغموند هو من حاول طردي من ليفون... والآن يعرض علي الصلح. ماذا يعني هذا؟ إن كان يظن نفسه يخدعني فهو مخطئ... أياكون قرار مجلس موفدي ألمانيا دعاه إلى التفكّر؟ أم يرتعب من قوة بلادنا المتزايدة؟ مهما كان السبب فستصرف معه تبعاً لطلبه..."

استقبل فرساناً من جيش ناغوي غريغوري وفدَ ملك بولونيا على مدخل موسكو. واصطحبوا الموفدين إلى القاعة التي استقبل القيصر فيها سابقاً الأمير شبق، وتحادث الطرفان عدة أيام في أجواء من المآدب والشرب لا تنتهي. ولكنهم تفرقوا دون أن يتفقوا على شيء.

— روغوديف هي المدينة الروسية الأزلية التي يمتنعون عن إعادتها إلينا. — سخط القيصر. — لا نأخذ ما ليس لنا. يعدنا ألا يحاربنا متى انسحبنا من ليفونيا... الأفضل من هذا ألا تتدخل في شأن البلطيق الذي لا علاقة لك به. وكذلك إن نغذت ما أمرناك به كان أفضل لك ولبلادك. لماذا أرسلت كل هؤلاء الموفدين إن لم يكن عندك من الحكمة غير ما رأيث منك؟

رغم أن القيصر كفّ عن الاقتراب من النافذة التي ينظر منها إلى الأفق من فوق أشجار التفاح طوال الأشهر الثلاثة التي مرت على وفاة زوجته أنستاسيا فقد نظر من خلالها فجأة. عصر الألم قلبه، والتفت وقد أعاده صاحب الاسم الذي عرضه عليه إلى وعيه. لم يجلس هو، ولم يدع سيلفيستر الذي أتوه به إلى الجلوس. ألقى عليه نظرة باردة تعني: ما سبب مجيئك؟ سألته، ففهم الأخير وترجاه:

— ارحمني أيها القيصر الطيب، وأرسلني إلى الدير أعش فيه إلى آخر عمري أدعو فيه لك إلى الله.

ازرق وجه إيفان غروزي مما سمع. وشعر سيلفيستر بهذا فارتعب. استدار القيصر بجسده الضخم سريعاً، ونظر عبر النافذة. مرة أخرى تراءت لعينيه أشجار التفاح العارية. ثم سأل مَنْ خلفه كاظماً غيظه بصعوبة:

— هل عرفت ما حدث لصديقك أداشيف؟

— مات في سجن ديريت.

— ليس في ديريت! — ترك النافذة وصرخ عليه بأعلى صوته، — إنس الاسم غير الروسي. مات في سجن يوريف. هل فهمت؟

— فهمت أيها القيصر الكبير. — أجاب سيلفيستر بصوت منكسر.

- أغرّب عن وجهي إذن! لا أرحمك. أدعُ لنفسك أن يغفر لك ذنوبك خيرٌ من أن تدعو من أجلي! - حين اختفى من الغرفة كالحيال رجل الدين الذي كان اختص بالقيصر، وقف القيصر إلى صورة الإله، وشرع يرسم الصليب...

II

كل إنسان يصطدم بالوصايا وبالإرشادات والتنبهات التي قدمها لغيره خلال حياته. وليس نادراً أن يرتعب منها ثانية، أو يفرح بها، أو يسخر منها. وجد قلقنت نفسه في موقف يجب عليه فيه أن يوجه لنفسه الأحجية التي وجهوها للعجوز لأماف حين ذهب لمغازلة فئاته برفقة أفمق. ودون أن ينتبه سقط نصف القمر على سطحه. ولا عجب في هذا، تظل ترى إخوتك الأصغر سناً منك أو أولادك صغاراً على الزواج لأنهم على مرأى من عينيك دائماً.

جلس قلقنت مع صديقه إلى وقت متأخر من المساء. نظر بؤدّ إلى الصبي ابن بسمت الذي أتى بالمائدة، وخاطب نفسه متمنياً بقلبه: "سيصبح سنداً لوالده خلال بضع سنوات. في حين لا أعرف إلى الآن إن كنت سأرّزق بأولاد. لم تحمل نكر بعد، ولا علامة حملٍ البتة. ضاعت مني سنوات لا أستطيع إقناع الأمراء والنبلاء بضرورة تأسيس الدولة. وصرت أخاف أن أجدول ليلاً ونهاراً عبثاً. كلُّهم، وفي مقدمتهم شبق، يكتفون بهزّ رؤوسهم دون خطوة فعلية إلى الأمام. يُخيّل إليهم أنهم سيعيشون إلى الأبد هكذا إذ لا يحتاجون إلى شيء تقريباً. الأمير تاخ استدار نحو خان القرم لا همّ له إلا حماية إمرته. صار منصب كبير الأمراء حلمه لكن زيادة ثروته هي سبب نضاله، ولا يحس بنا، وإن استطاع قضى علينا، يريدنا أن نعيش والنير في أعناقنا. ورغم تنبيهي شبق وتيمرقوه إلى خطورة ما يفعلان فقد استقدما قوات روسية إلى أرضنا. أحدهما أمر بإحراق قرى أدغية، والآخر يعمل على إخراس الأمراء المعارضين له بواسطة القوات الروسية. ولكن إن جلبت الأقوى منك إلى أرضك على مبدأ: "أتى الكلب الغريب فطرد كلب الدار " لا يعرف عاداتك، ولا طبيعة العلاقات في مجتمعك، فلن يتحمل كلامك ولا فعلك. ويبدأ يركب ظهره. وإن لم تتغير

كما يريد حاربك وطمع في أرضك وغاباتك وجبالك وشواطئك. ومن يرك عاجزاً عن مجابهته، روسياً كان أو تركياً، يتجرأ عليك. ثم نعض أصابعنا ندماً، الأمراء منا والنبلاء والمتنفذون..."

- ما أشد ما استغرقك التفكير يا قلق! هل عندك ما يحزنك؟ أعاد السؤال القلق لبسمة قلقت إلى وعيه.

- أليست حياتنا كلها أحزاناً يا صديقي؟ رفع قلقت رأسه الضخم عن الطاولة، وألقى نظرة حزينة على وجه صديقه. أفكر في افتقارنا إلى دولة. أظن كل جهودي إلى الآن ضاعت سدى.

- وهل هذا كلام؟! - ارتفع صوت بسمة، أنت لو لم يكن لك إلا جهدك الكبير مع الفلاحين، وتطويعك عقولهم، والمؤتمر الخاص بهم، لا يجوز لك اعتبار جهودك عبثاً. أصبحت مشهوراً، لا في الجانيه فحسب بل بين الأديغة كلهم. نحن نعتد بك، لم يبق بين الأمراء والنبلاء والفلاحين من لا يعرفك.

- يعرفونني ولكن لا يريدونني. لا يفتحون لي قلوبهم لأني فلاح. قال قلقت وقد انكسر صوته الأجش، ولكن هؤلاء لن يجعلوا منك سلطاناً ولو كنت أميراً. لا أظننا نحن الأديغة سنتطور يا بسمة إلى دولة، ولا إلى أمة، ما دامت فينا الغيرة والتنافس.

- ألا تثق بأميرنا؟

- لا يمكنني القول إن شبق لا يسعى لمصلحة الجانيه غير أنني لا أظنه هو الآخر من أنصار الدولة. يحيل إلي أن لو كان أعمق مكانه لطوعته أفضل منه. إنه بريء القلب، رحمته وإنسانيته أكبر. شبق خدعني بالكلام كثيراً، ما يقوله غير ما في قلبه. فهمت بعدما فعل بونتغ وبنكس أنه لا يتورع عن شيء إذا تعلق الأمر بشخصه.

- ألم يتفقوا أخيراً على أنهما لا علاقة لهما؟

- حاول إقناعي بهذا مراراً. وأنا تظاهرت بالاعتناع فتصاممت. غير أن ونتغ روى لي أنه أرسل بجمت ليأمر بنكس بقتله.

- غير معقول! وهل يفعل بجمت مثل هذا؟!

- بجمت يتجاوز أخاه إذا كان الأمير حرضه. كان عنده كالكلب المدرب.
كفانا كلينا كلاماً عليه! - نهض قلقت.

قال بسمت ضاحكاً بعدما صاراً وراء الباب:

- لا أعرف إن كان غير لائق؛ أريد أن أخبرك بشيء عن أحتك.

- قل! - استعجل قلقت رافعاً رأسه الضخم.

- جارنا الشاب عينه على داريه. أسرة جيدة، والشاب شِعِيل، هادئ، لا مشكلة فيه إذا كنت...

- هل نسيت يا بسمت أني أديعي؟ - قاطع قلقت صديقه، وابتسم. - لا أستطيع التوجه إلى أختي بكلمة ولو كان في جبين جارك نجمة! هي حرة في أن تختار.

- وأنا نسيّني بسبب حاتاي، أما قلت لها شيئاً في موضوعه؟ - سأل بسمت بنبرة الشك.

- لا تقل هذا يا صديقي. لم يظهر إلى الآن ما يُسنيي إياك. ولا احتفظتُ بسرّ أكنتمه عنك! كان حاتاي أحبّ غيرها حين خفق قلب أختي له. أقول لك حقيقة ما في قلبي: لم أكن أريد حاتاي صهراً. وكذلك كناق الذي يأتي إليها الآن.

- كلاهما شاب ممتاز. ما عبيهما؟

- لو وافق حاتاي على الزواج من أختي لشعوره بالإهانة من رفض شبق زواجه من ابنته لما وافقت. لم يكونا ليسعدا معاً وما في قلبيهما واحد، وما وراءهما مختلف. كناق وقع نظره عليها من وقت دخوله إلى القرية فحركت مشاعره. بنت الجيران يعتبرونها أختاً، لا عروساً. ثم ليجد أولاد الأمراء فتيات من طبقتهم! الأفضل لداريه أن تكون من نصيب أحد أبناء طبقتها.

- إذا كنت أنت تفرق بين الطبقات فماذا سيكون موقف الأمراء؟

- لا تقلق لهؤلاء! ينظرون إلى البعيد لأجل أولادهم وبناتهم. أعرف شبق كأني دخلتُ قلبه. لا يريد حتى أولاد الأمراء الثانويين. ينتقي من بين أولاد الأمراء الكبار ولا يجد من يستحق ابنته الوحيدة.

- ولكن إن اختار من لا تريده مينسور؟

- هل تعرف أحداً من أسرتهم تزوج عن حب؟ همُّهم زيادة ملكهم وتوطيد جذورهم فحسب.
- هذا صحيح، لم يكن شبق ولا السيدة الكبرى يريد حاتاي رغم أنه تبَيَّن عن ابن أمير. فَرَّقا بين العاشقين.
- أنا أعرف جارتنا السيدة الكبرى بأفضل مما تعرفها أنت. من تقع كَنَّة لها تتخذها مسحة لقدميها، وتدفعها إلى النجاة بجلدها.
- أراقبك طوال عمري فلا أعرف لماذا لم تُخلِّق ابن أمير؟! — عبَّرَ بِسَمْت عما في قلبه واثقاً من صديقه، — لا أعرف أمراً لا تصل إليه فُطْنَتِكَ.
- لا تبالِغ في تقويمك لي! ولكن لا تتصور أن الأمراء جميعهم مشحونون عقلاً. بينهم العاقل والمجنون والغيور... وأنت تعرف أنه ظهر من بيننا فلاحون لا يُعْلَى عليهم. أعرف أن المجنون، صاحب العقل المحدود، لا يصبح غنياً. ولقب الأمير لا يُحصَل بسهولة، وليس قليلاً أن يظهر بين أولادهم على مرّ السنين من يفتقرون إلى العقل والإنسانية. انظر إلى الأمير تاح؛ قتله الحسد. وترى في عيني الأمير فواخ تخلُّفه العقلي. والأميران مرتوق وجان حُرماً من الرجولة ساعة وزَّعوها. ولكن لن أدَّعي أن أميرنا الكبير وأمرأ البسلني والجمكوي والبجدوغ ينقصهم العقل. بينهم من يصلح أن يكون حاكم دولة إن وجد حاشية مناسبة. حسناً، لن ننتهي من قضايا الأديغة لو تكلمنا طوال الليل. — غاب قلقت بكل ضخامته يشقّ ظلام الليل.
- المرأة الصالحة دائماً أن تنتظر زوجها المسافر. مهما تعبت نكر نهاراً وأتعبته بالليل نسيت تعبها متى نظرت في وجه زوجها. قالت بصوت ناعم:
- اجلس يا قلقت، سأجهز المائدة حالاً. طبخت لك الفاصولياء المسلوقة في اللبن، التي تحبها. وإلا فعندنا شبس وباستا.
- لستُ جائعاً. — قال قلقت ونظر إلى الغرفة الأخرى التي تصدر منها أصوات ضحكٍ.
- وهل طبخت عبثاً، دُقُّ ولو لقمة. — لامته نكر بخذر.
- وهل تظنين أن بيت صديقي بسمت يخلو من الضيافة؟ قدموا لي عشاء ممتازاً. نظر في وجهها بحنان، وفي الحال سأل عابساً: من في الغرفة الأخرى؟

- الشاب الذي يأتي من المخوش إلى داريه. جاء برفقة شاب من عندنا منذ وقت غير قصير. وقبلهما كان كنتاج عندها. ولكن حين جاء الآخران خرج قانطاً.

- حسناً فعل. لم ينس عاداتنا ولو أنه يعيش مع الروس. العادة أن ينصرف الخاطب الأول متى جاء الثاني.

- ولكن ابن الأمير...

- وما المشكلة في هذا؟ الجميع يخضعون لشرعة الأديغة. اتجه إلى الباب الداخلي، وأضاف بصوت عال: - إن كان تمتج وصاحبه أتيا لبيتنا عندنا فسنجهز لهما الفراش.

- لا نُخرجنا ؛ ما أعلى صوتك! نظرت نكر في وجه زوجها جزعاً، - سلوكك خطأ، ابتعد عن الباب.

- بقاؤك إلى الآن في غرفة الفتاة معيب أكثر مما أقول.

- بالله عليك أن تسكت! - توسلت نكر، - أنا مسرورة إذ عادت الصبية إلى حالها بعد حاتاي. ألا تسمع ترحيبها بتمتج؟ تضحك وتمرح... أختك قوية الإرادة مثلك تماماً.

- ما الذي يجعلك تحكمن بهذا؟ ابتعد قلقت عن الباب وسأل.

- ظننتها ستنهار بعد حبها الفاشل لحاتاي، ولكنها اكتسبت من إخفاقها قوة عظيمة. والآن لو عاد إليها حاتاي متوسلاً لرفضته. - هل تعرفين السبب يا عسلية العينين؟ - أنار وجه قلقت السميكة فرحاً بما سمع، وأجاب بنفسه: - إن لم يجد من يشتعل قلبه بنار الحب لأول مرة حبيبه تخيل العالم المنير ظلاماً. واختار الموت على الحياة. هذه مثل نار العيدان الرفيعة: تشتعل بسرعة ولا تترك جمرًا، بل شيئاً ضئيلاً من الرماد. يدفع القلب ويغمر أعضاء الجسد، ويمنحه القوة، ويُنبت له جناحين، ويرفعه عن الأرض...

- هذه مشاعر مألوفة يا قلقت، - لم تدعه نكر يكمل خطابه، - لا بد أن أول من تلتقي به، إن كنت شاباً أم فتاة، يعجبك في ناحية ما. ثم إن توافقت آراء الطرفين في الحياة تقارب القلبان. وزاد حبهما ونما.

- كانت هذه أفكارى أيضاً لو لم تقاطعيني. - ابتسمت قلقاً فرحاً لتوافق رأييهما، - أقول كل هذا لأني أريد أن أتخذك وسيطاً. إلى من أبوح بما في قلبي إن لم يكن إليك؟ بسمت صديق مخلص ولكنه حاول إقناعي بجاره كتناق. إن كان لرأيي قيمة فأنا أختار الشاب المخوش.

ضحكت نكر سعيدة.

- لماذا الضحك. - لم يفهم قلقى السبب.

- لأن أكثر من واحد يتأمل مني الوساطة.

- من غيري؟

- جاءت مينسور أمس، ورجتني أن أتكلم مع داريه من أجل كتناق.

- ولماذا لم تخبريني؟

- هل أدسُ إليك يا قلقى كل أحاديثنا، نحن النساء؟

- ليس ما يخص أختي كسائر الأحاديث... ماذا أجبت مينسور إذن؟

- باختصار: عارضتها!

- عيب إن أحرزتها. أراك عاقلة جداً، إن لم تجدي جواباً لطيفاً لابنة الجيران...

- لست من جرح قلبها بل هي من جرح قلبها بنفسها. إليك ما جرى:

باح كتناق لأخته بشعوره. فلما جاءت مينسور إليّ تريد توسيطي ناديت دون

أن أحيبها داريه، وطلبت منها الجلوس أمامها. بدأت مينسور تتحدث باسم

أخيها فاحمّر وجه داريه على نحو ملحوظ. ثم استدارت إليها وأجابتها في

غضب: "نحن جيران طوال عمرنا، أخ وأخت. ولو رأيث كتناق يخاطبني بهذا في

الحلم لاستغربت" قالت: "وكيف تكونان أختاً وأختاً؟ أنت فتاة من عامة الناس،

وكتاق ابن أمير" لا أعرف إن قالت بوعيهها أم أفلت منها، لا أريد أن أظلمها.

أظنها قالتها لا تدرك أبعادها.

- وماذا كان جواب داريه؟

- أجابت إجابة قاسية: "أخبر من وكلّك إذن ما يلي: لا يجلسن إليّ إذن

متودداً يضيع وقتي! ليجث عن ابنة أمراء! لا أمل مني!" وغادرت إلى غرفتها.

- حسن أن جرى الأمر هكذا. - أجاب قلقى راضياً. - كأن أختي سمعت

ما قلت الليلة لبسمت: "البيلسان يُزهر، وكلّ يعود إلى أصله". حتى مينسور

تبرز أصلها الأميري. ليست هذه زلة لسان. بل في رأسها وفي دمها. - ثم هز رأسه وتوجه إلى المرأة: - تفقدي غرفة الفتاة، انقطع كل صوت. - أستحي بعد الملاحظة الجارحة التي وجهتها إليهم. - زمت نكر كتفها متمسكة.

- إن لم نقلق لأجل داريه فمن عندها غيرنا؟
عادت نكر بعد قليل على رؤوس أصابعها. وهمست تغالب ضحكاتها:
- الخطاب انصرفوا منذ وقت طويل. وداريه تنام عميقاً. أهنّت الشابين فهربا.
- لا أندم على ما قلت. من يعرف كيف يأتي، عليه أن يعرف كيف ينصرف.
- غمغم بصوت هادئ، وتوجّه تفكيره إلى رغبته في العودة إلى موضوع الوسيطة مينسور: - هل انصرفت مينسور دون اعتذار عما قالت؟
- قل أنت إن كانت ندمت. قالت لي زامة شفيتها: - "داريه طبيعتها سيئة. تحسم الأمر بنفسها..." ثم بدأت تروي لي أنها كانت ستعيش مع أخيها في موسكو معززة مكرمة، فقاطعتها وأجبتها: "داريه عاقلة حتى لو بطبيعة سيئة. وتعرف مع من ستسعد. لا تؤاخذيني لا أريد أن يحدث بيننا، ثلاثنا، أي جفوة. لا تبادل الآن كلاماً نندم عليه غداً"

- دعل منها! لم تتكلمي من قلبي كما اليوم. - عانق قلقت زوجته، وقرب لحيته الخشنة إلى وجنتها الناعمة. ثم أويا إلى الفراش، وضعت رأسها على صدره ونامت كالأطفال، في حين كان تفكيره في مستقبل أخته.
الشباب المخوش يُعجب قلقت بلا تردد. شبّهه بشخصه منذ أول يوم عرفه فيه. لا يختلفان كثيراً في التركيب الجسدي، والسلوك والطبيعة إلا أن المخوش أشقر. "ربما هذا هو السبب في إعجاب أختي به. أليس لهذا يقول الناس: الفتاة تختار من يشبه أخاها، والشباب يفضّل من تشبه أخته. لم يخطر لي هذا قبل الآن. بين نكر وداريه كثير من الشبه، إلا أن داريه أكثر نزقاً. أرض المخوش بعيدة قليلاً ولكن أظن أن داريه ستسعد معه بسبب طبيعة تمتج. يحترمه رغم صغر سنه من هم في عمر والده. وها هو ونتغ يتلهف عليه كأنه ابنه بعدما سافر معه بضع مرات. تبين في النهاية أن ونتغ يتمتع بالعقل والرجولة والإنسانية. كنت ظننت أنه اقتنع بعدما أعاد داريه أني لن أبقي على حياته، ولكن ليس هذا

السبب وحده. الأسر الذي ألقى به فيه جعله يفكر في كثير من الأمور، واكتسب منه الحكمة. والآن اقتنعت بأنه عاد إلى السراط القويم. ألم تر كيف تصرف مع شبق؟ حين أطلق الأميران تاخ وفواخ الأمير حراسهما وفلاحيهما على شبق اختار الأقلّ سوءاً بين الشرّين، فحمى شرف شبق الزائف. ولا يعني هذا أنه غفر للأمير الكبير نيته في قتله، وأعرف أن شبق يعرف هذا كأيّ أتكلم من قلبه. ولكن من الصعب معرفة من سينتصر؟ قدرات الأمير الكبير أكثر ولكن من الصعب بلوغ من عاش سنوات مجرماً متحفزاً. وسيلجم شبق معرفتنا بنيته الإجرامية. ونحن لا ننسى اقتراب ونتغ منا. نحن الفلاحين العامة تضامناً الآن بقوة. والأمراء والمتنفذون سيخافون منا وإن لم ينجحوا... سأزور ونتغ غداً، وأجعله ييوح بنواياه على نحو أوضح. كان مضيفه عاد إلى المضافة فلم نستطع التحدث بصراحة..."

توجه قلقت صباحاً إلى البيت الذي ينزل فيه ونتغ ضيفاً. استقبله المضيف مع أول خطوة له في الدار. ألقى ونتغ الذي كان مستغرقاً في إصلاح السرج عُذته، ونحس كمن يقف في حضرة سلطان. وحياء بالخناءة، وأشار إليه أن يجلس في صدر الغرفة.

- لا يا ونتغ، لا. لا تدفعني إلى الخطأ! أنت ضيف وأنا من القرية. يمكنني الجلوس أينما كان. بل يمكنني الوقوف.

- اجلس، صحيح أنك أصغر مني ولكنك زعيمنا الفلاحي. قرب ونتغ المقعد إليه فاتخذ مكان الصدارة، وجلس المضيف إلى جواره.

"هذا القبيح غيّ، لم ينصرف فيتركنا وحدنا، لا يستوعب عقله أني لم آت حياً به"

- إلى أين وصلت بقضايا الفلاحين يا قلقت؟ - سأل المضيف بشيء من السخرية، - طوّعت العامة من الفلاحين إلى حدّ لا بأس به، ولكن لا أعرف إن كان الأمراء سيوافقونك.

- ألا يعجبك أنت تضامن العامة؟ - ردّ قلقت على المضيف بالمثل، - الأمراء فرادى ونحن جماعة. إن لم يمثلوا لقرارنا فلنا تصرف آخر معهم.

- إن سمحوا لكم... - ابتسم المضيف. - جلب الأمير شبق إلينا جيشاً روسياً بذريعة حمايتنا من خان القرم. إن توجه إليكم هذا الجيش فلن يرأف بكم.

- إن تضامناً فلاحين وخداماً وعبداً انتصرنا عليهم وعلى الأمراء والمتنفذين. ولكن من أين نأتي بمثل هذا الوعي؟ ها أنت تسخر منا، وتنظر من تحت قدم الأمير، رغم أنك من العامة.

- لا يا رجل، لا. كيف أسخر منكم؟! ولكن ألا تعرفني لا أهتم إلا بأسرتي. أنا من لا يفرح إن أسستم دولة؟ ولكن لا أعرف ما ستجلب لنا من منافع. بدأ المضيف يبرئ نفسه في الوقت الذي صدر فيه من الدار صياح وضجيج.

قفز قلقته من المضافة وتبعه المضيف، ولحق بهما وبتغ يعرج: تمتج مستند إلى كومة الحشيش في جناح المواشي ممسكاً بقرني الفحل.

هُرع قلقته وأمسك بقرني الثور. ولوى رقبته وألقى به على الأرض.

- أرجوك يا قلقته لا تسمح له بالقيام! - جزع المضيف، واستل خنجره، - سأقطع رأسه حالاً. كاد يقتلني أنا أيضاً قبل أيام. وكيف تحتفظ بحيوان شرس في الدار؟! -

- لماذا احتفظت به إلى الآن وأنت تعرفه؟ - استغرب وبتغ.

- احتفظت به لعرس الولد ولكن لن نعدم المواشي إن تزوج.

قال المضيف بعد قتل الثور:

- والله يا قلقته كنت أسمع عن قوتك ولكن لم أعرف أن لك قوة عمالقة

الأساطير. - قال تمتج لقلقته والدم يعود إلى وجهه حين بقيا وحدهما. -

أنقذتني، لن أنسى طوال عمري.

- الأفضل مما تقول ألا تنسى إسعاد أختي في حياتها معك. - ابتسم قلقته في

وجه الشاب مازحاً. لا تقل إني لم أثبئك! إن لم تفعل فسأتصرف معك كما

مع ذاك الفحل... لست وحدك يا تمتج، أنا أيضاً لي دينٌ على ذاك الفحل

اللعين. استرحت من تخريبه لسور بستانني.

- إن صارت داريه من نصيبي فسأحتفظ بها في كفي يا قلقته، ثق بي في هذا.

- أجاب تمتج بكل سعادة.

- لا حاجة أن تبقى في راحة يدك فلا تدعها تركبك بهذه الحجة. المرأة كالطفل، إن ابتسمت لها رأت الجبن بين أسنانك. - ربت قلقت على ظهر الشاب، وألقى نظرة متفحصة في عينيه.

III

الخبر الذي وصل إلى الأمير شبق أفرحه من جهة، وأحزنه من الجهة الأخرى. ولكنه امتدح على مسمع الواقفين ما فعلت الجارة الصبية، ولم يُن انفعالاً لِمَا لحق بابنه من إهانة.

- هكذا كبرت الصبية التي نشأت بيننا وأسست أسرة. - قال شبق ما يقال في مثل هذه المناسبة، - لبيارك الله في الأسرة التي خطتها إلى أسرتها وإلى المخوش، ولتترك عقب خير في الأسرة التي فارقتها في الجانيه. ولتكن خيراً على الأديغة كلهم. ومتى رجعنا هنا قلقت الذي يقال إنه مرتاح جداً لهذا الزواج. - التفت إلى أفمق، - نحن يجب أن نبقي في هذه الأنحاء بعض الوقت أيضاً، ولذا أرسل دون تأخير خبراً ليقوموا بواجبهم باسم أسرة قنشقوه. والسيدة الكبرى تعرف ما تفعل في مثل هذه المناسبات.

- لا تؤاخذني يا أمير على تدخلي، - وجد الحارس ماتج فرصة فلم يملك إلا أن يقول، - أثبت مرة أخرى بخطبتك وبما قررت أن تقدم، محبتك الكبيرة لأسرة الصبية. عقلك الحاد وإنسانيتك متلازمان دائماً. الفلاح قلقت يستحق كل ما تقدمه له، ولكن لو كنت مكانه لما أرسلت أختي الوحيدة إلى المخوش البعيدة. كان عندنا كثير من الشبان يستحقونها. ويقال إنه كان عندها كثير من الخطاب تتزوج أياً منهم بكل سرور.

" ماذا يريد الحارس ماتج أن يقول؟.. - تبتهت الكلمات الأخيرة شبق، - إن كنت تعدّ كتاب بين من كانت مستعدة لتتزوجهم بكل سرور فأنت مخطئ. إن كنت تلمح إلى أن قلقت غير سائر الفلاحين فأنت على خطأ أيضاً. قل لي صراحة، لن أعتب عليك. طلبت مخاطبة ولدي لأني كنت أعرف أن هذا ما سيحدث. ولما لم يستجب لِمَا أرسلت إليه تجاوزت عاداتنا ونصحته وجهاً لوجه. وانظر ما جرى الآن: سارت الأمور كما أريد. وهم غيَّبوها عن وجهنا...

ومينسور كادت تورطنا في مشكلة مع حاتاي ولكن يبدو أنها تجاوزته الآن. لم يظهر حاتاي في الأشهر القليلة الماضية. ربما نتيجة حديثي إلى والده الأمير جامبج... أم أن ما يقال عن جفوة بين قلقت وحاتاي صحيح؟ لو حدث هذا لكان خيراً... لا تكفي متاعب أعمالي التي بلا نهاية فزاد عليها ابني وابنتي. ربما كان قولهم: أولادك يأكلونك، صحيحاً. أيُّ مأساة نعيشها، وأيُّ عالم نحيا فيه!.. "

- شكراً يا ماتج، - خرج الأمير من أفكاره ولم يتأخر في كلماته المرائية، - لا أفعل ما أفعل من أجل قلقت. أديغيتنا فوق الجميع فأتصرف بما تمليه عليّ. ماذا تقول هذه؟ تجعلنا نقاسم أفراحنا وأحزاننا. لولا الشرعة التي تركها لنا كبارنا تربطنا بعضنا إلى بعض لفارقنا الحياة منذ زمن طويل. نعم، نعم، أفهم ما تريد أن تقول. نحن بلا دولة ولا سلطان. نحن أيضاً، لا قلقت وحده، مهمومون بهذا. وأنتم ترونني لا تفارق رجلاي الركاب. ولكن ليس هذا قصدي. أنا وقلقت نعيش في جميع الأحوال في قرية واحدة، وجيران، وفي إمارة واحدة، ومن عرق واحد. لماذا قال الأديغة: اعمل المعروف وارمه في البحر؟ من أجل ألا تندم على معروفك، كما سيعود إليك ما تلقيه في البحر ولو على شكل قطرة. حسناً تفعل إذ تترجم أقوالنا لفيشنيفيسكي. - امتدح شبق المترجم، وابتسم في وجه القائد الروسي، - كل عرق إنما يعيش بفضل معروفه. أليس صحيحاً يا فيشنيفيسكي؟

- صحيح، الأفضل أن يكون فعلُ الخير أكثر من الظلم. - يؤيده القائد، ثم ينقض كلامه حالاً، - ولكن هذا لا ينطبق على بلادنا.

- لا داعي لأن يعرف هؤلاء ما يحدث في روسيا. - يستعجل شبق فيعبر بروسيته المحدودة، ويشدد على المترجم ألا يترجمها.

انتشر في المساء رنين أجراس الكنيسة التي بناها الجيش الروسي لنفسه. وتجاوز قرية جتسأه إلى البحر، فإلى بلاد الروم التي خرجت منها المسيحية قبل عشرة قرون. ولكن كان أمامها قبل بلاد الروم تركيا المسلمة. واجتذب الرنين الجنود الروس وبضعة رجال الأديغة المسيحيين إلى الكنيسة. وبين الناس من يرضى

بالصوت الصادر من الكنيسة. ومن لا ينسون الآلهة المتعددة يحتقرون الأذان والأجراس. ومن لا يحترمون أيّاً من الثلاث يتسمون من تحت لحاهم.

انصرف الناس شيئاً فشيئاً فبقي شبق وأفمق وحيدين. الأخوان عندهما الكثير من الكلام، غير أن كلاهما ينتظر المبادرة من الآخر. شبق الذي عليه المبادرة سيسافر غداً إلى القرم. نظر إلى أفمق مرة أخرى، وتفحصه دون أن يشككه، متسائلاً عما إذا كان على قدر المهمة التي كلفه بها "أرهقه إذ لا أنفك أمره، وأكلفه. ويحدث كثيراً ألا أطلععه على نواياي. وفي حال الضرورة فهو من يفهمني. صار عليّ أن أضعه في مواجهة ما كنت أتوجّس منه. تغيّر طريق القرم عن ذي قبل. إن كنت أدبغياً غافلك الخطر في أي مكان. ولا تنفك معرفة لغة النغوي. انعدمت الثقة بيننا منذ توجهت إلى روسيا. وهل وُجدت يوماً؟ من المسؤول؟ أهو مقابلة سلاحهم بسلاحنا؟ لا أحد يستطيع إدانتنا في هذا. على رأي فيشنيفيسكي سنغلق سريعاً بين النارين. ماذا كان قال لي خان القرم قبل آخر زيارة لي إلى روسيا؟ افترقنا وهو يقول: "جاء بي إليك ما يخفيه عني سليمان سلطان تركيا. وأنت أخشى أن يفعل بك هذا قيصر روسيا. أظننا يجب أن نلتقي ثانية من أجل هذا الموضوع". أظن أننا يجب أن نتكاشف في هذا اللقاء خلافاً للحذر الذي كان سائداً يوم التقينا على شاطئ بحر آزوف. وما الفائدة من أن نجلس إلى بعضنا نتشاكى؟ لا وزن لنا أمام الدولتين العظميين. ورغم ذلك يجب أن نلتقي..."

الأمير شبق الذي كان جالساً صامتاً ضحك فجأة بصوت عالٍ. فهم أفمق أن ضحكة أخيه الأكبر لا تنمّ عن خير. وانفجر شبق من أفكاره الحزينة المهينة:

- من البؤس أن يتخذ منك من هو أدنى منك مادة للسخرية.
- ما الأمر؟ هل أهانك أحدٌ يا أمير؟ - أجفل صوت الأمير أخاه أفمق.
- أليسوا جميعاً مستعدين لأن يهينوك إن سمحت لهم؟ - جلس شبق لأياً يهز رأسه، وأضاف: - أربأ بقلقت وكتاك أن يفعلا بي ما فعلا. حتى أخت الفلاح العوجاء رفضت ابني. تظاهر شبق بالضحك ولكن حزنه غلب تصنّعه.
- كأنك يا شبق تملكك الشعور بالإهانة بدلاً من الفرح. - تظاهر أفمق بالمزاح.

- لا، حسنٌ أن انتهى الأمر هكذا. لم يحدث لكتاك أخيك الأصغر ما لا يستحق. ولكن يحزنني أن الناس يقولون من ورائنا في موضوع ابننا: نجا مَنْ في الثلج، ومات مَنْ في الطحين. وهل تظن أن ما قاله ماتج الحارس في شأن قلقت كان جزافاً؟ مهما تطعم الذئب يبق هواه في الغابة! كنت أريد أن يدير كتاك ظهره لباب الفلاح قبل أن يغلقوه في وجهه. ولكن حدث ما حدث، فلا يجوز إظهار أي جفاء نحو قلقت لهذا السبب. أفكر في المشروع الذي ينهض به ووقوف الفلاحين إلى جانبه فأرى أنه لا يجوز البتة تجاهله. زواج الأخت خير فلتقدّم أختك ما عليها. ومتى عدت من القرم فسنقوم بكل ما علينا. منذ وقت طويل أفكر في مشروع قلقت تأسيس دولة، بل منذ قال إن الدولة ستحتاج إلى أمير حاكم. لا يُستبعد أن تتحقق للفلاحين العامة أهدافهم إن تضامنوا لكثرة عددهم. أودُّ أن أقدم لهم بعض الذهب دون ضجيج. لن يضُر إن لم ينفع. وستكلم بتفصيل بعد أن نسمع خان القرم. لن أرفق بك إلا الحارس أيدار.

- يكفي، - وافق أقمق، - لا نحتاج إلى كثير من العيون - الآذان.
 - لا أحد يعرف بمهمتكم. ولا فيشنيفيسكي يعرف. وأفهم أيدار رغم أنه كنوم: الخواتم التي ترجتها نساؤنا، والأقراط، والمناطق، لم تجدها في سوق بحر آزوف فدخلتم منطقة القرم، ووصلتم إلى العاصمة بخجساري. وهناك متى أرسلت إلى الخان باسمي فسيدعوك. لا حاجة إلى الخوض في كثير من الموضوعات. واطلب منه موعد اجتماعنا إن كنا سنجتمع. ومتى بدأ يتودد إليك فأفهمه أنك مجرد شخص من الأسرة. وعُد في اليوم نفسه دون الدخول في مراسم الضيافة. ألا تكفيكم مهلة أسبوع؟

- إن شاء الله يا شبق. ولكن إن صدف أن التقيت بمامي في دار الخان؟
 - لا تتجنّب إن قابلته. - ابتسم شبق، - كلّمه رافع الرأس! ولكن الأفضل ألا تلتقي بذاك المنحوس من بين كل الناس. سأبقى غداً مع هؤلاء، وأعود بعد غد. أنوي زيارة الأمير تيمرقوه قبل حلول الشتاء. وسأصطحب كتاك، وأفترج عنه بعض التفريج. ولكن هذا يتعلق بالخبر الذي ستأتي به من القرم.

في صبيحة اليوم التالي جاء فارسان وراء شبق. وتوقف الأمير أبشق العائد من القرم عند الأمير جان. وأرسل إليه يعرب عن رغبته في لقائه. جلس شبق بعض الوقت لا يستعجل على الإجابة، ثم أجاب الرسولين باسمًا:

- يسرني أن يريد الأمير أبشق مقابلي، ولكن عندي أنا أيضاً قرية. وأسكن في بيت، وباب مضافتي مفتوح له. إن كان على عجلة من أمره فالقرية التي توقفت عندها من إماري. فإن ترجل على باب داري استقبلته على سرعة الأديعة.

- ولكن يا أمير - قال الحارس تاوتاش تغلبه لهجته القبرتاي، - لا يريد الأمير أبشق أن تقع عينه على الروس.

- هكذا؟ - لوى الأمير شبق عنقه متظاهراً باستغراب ما يسمع، - ما العمل إذا كان يعادي الروس؟ ونحن لا نريد أصدقاء القرم - النغوي ولكننا نتعاش معهم... هذا عالمنا.

- ولكن يا أمير... - أسكت شبق الحارس قبل أن يكمل:

- هل جئت تناقشني؟

- لا، لا يا أمير... - ارتعب الحارس. لا تؤاخذني، لم يكلفني أحد بمثل هذه المهمة. ولن يقبل مني أميري.

- إذن احملوا جوابي إلى الأمير أبشق.

استدعى شبق الحارس ماتج بعد انصراف الرسل. وسأله عما لم يخطر له قط:

- هل صحيح أن مامي كان صديقك في وقت ما؟

- نعم يا أمير. - ارتعب ماتج متسائلاً عما وراء السؤال، ثم فصل له علاقتهما: لم أره بعدما توجه إلى أعدائنا، أرسل إلي أكثر من مرة يريد مقابلي، ولكنه توقّف حين اقتنع برفضه. أنا مخلص لك عقلاً وقلباً يا أمير.

- حياك الله يا ماتج، الصدق نوع من الرجولة. - نهض شبق وشرع يتمشى على أرض الغرفة. - لن أبدلك بحمل عربية من الذهب، ولكن حين يقيق من تعتمد عليه في همّ خفيّ، تجد نفسك في موقفٍ عليك أن تفكر فيه في النجاة بنفسك كما يقال: سعيد الحظ يفور ثروة، وسيئته يتوسل. رفع الأمير رأسه ووقف أمام الحارس الذي امْتَقِعَ لونه. - ما أقوله ليس موجهاً إلى شخصك.

أنا واثق منك من يوم ما وقفت إلى جانبي. أنا حقاً أمير الجانيه ولكن تفكيري متجه إلى الجميع. أعرف علاقتكما السابقة والحالية أنت ومامي. وأعرف مفاسده، وأنه جلب إلينا النغوي سلايين نهابين، وأعرف ما فعل بوالده ظاظمي حين التقاه على شاطئ بحر آزوف. ومع ذلك عليّ أن أقابله. أخبره أن يقابلني سراً الليلة في أي وقت يصل فيه.

عاد ماتج من مهمته مع العشاء. وأطلع الأمير على نتيجة الزيارة:

- مامي يا أمير ليس بين الحضور في مضافة الأمير جان. ولكن عرفت أن الأمير تاخ يُخفيه. إن طلبت أوصلته إليك قبل الفجر. ثم أنهي بصوت عالٍ: - وإن بدأ يهينك وضعت رأسه أمامك!

- لا، لا، - جزع الأمير قائلاً في نفسه: "فات الوقت الذي كان علينا أن نفعل فيه هذا"، - لن أرسلك من أجله الليلة. ولا تدعني أتففس رائحة تاخ نصف الميت فأثقياً...

...

لم يعرف شبق العائد إلى قريته قبل ثلاثة أيام تفسيراً لفتح الباب، وإطالة الأمير:

- هل يمكنني الدخول؟ سأل الأمير تاخ بصوت خائر واقفاً كالعمود عند الباب.

- تفضل، متى كان الأديغي يستأذن في الدخول؟ - نهض الأمير لضيغه الليلي متعجباً مما يرى ويسمع.

- لا أعرف ما سيكون جوابك.

- أنا قلت لك ما عندي، اقترب واجلس!

- لا أنوي البقاء طويلاً.

- المجيء شأئك والانصراف شأني. - فتح شبق الباب ونادى ماتج الذي فهم أنه لا بد من مائدة. - ما الأخبار عندكم يا أمير؟ أليست إمارتك في سلام؟ وماذا يقول الناس وماذا يفعلون؟

- وأين تذهب إمارتي من إمارتك الجانيه يا أمير؟ - أجاب وهو يتأكد من وجود الباخسمه على المائدة الداخلة. - كنت قبل وقت قصير عندنا، وأظنك

تعرف أحوالنا. سألت عن إمارتي فأجيبك: رعييتي في سلام، ولكنهم مهمومون بما قد يحدث في الغد. حسنٌ أن خان القرم لم يزعجنا في السنوات الأخيرة. ولك فضل كبير في هذا. ولكن وجود الروس في الإمارة يُقلق الناس. ليس تحليل هذه الموضوعات أمام أمير الجانية الكبير من شأني وأنا الذي أتحمل كثيراً من اللوم على أمور لا علاقة لي بها. دعنا نرفع هذه الكأس ليخفّ همّي!.. - شرب تاخ الكأس ناسياً الخطبة. ثم شرع يمتدح الشراب.

قال شبق بعدما انتهت ثرثرة ضيفه:

- أسمعني يا أمير سبب قدومك إليّ.

- نعم، صحيح، - أزاح القدح بقفا يده، - ما يشغلني إلى الآن هو الضجة المعيبة التي أثارها الفلاحون على باب دارك... - وكان بينهم بعض فلاحيّ وحراسي. أهانونا كالنار. وقد سرّحت في اليوم نفسه، إن كنت سمعت، الحرس المشتركين من عندي في تلك الجلبة. وأصل الفتنة هو الأمير فواخ وفلاحوه. ما أكثر ما نبّهته إلى ضرورة تفادي هذه المشكلات...

- دعنا من الأمير فواخ ومن الأحداث الماضية. ما الفائدة من الكلام على من قيّمهم ونتغ؟ هل لك موضوع آخر معي؟

- وماذا سيكون لي موضوع غيره معك يا أمير؟ ولكن في كلامك على وتنع نصيباً من الصحة. تطلب مني ألا نتكلم على الأمير فواخ ولكن لا أنسى تعرّضه للعار في الساحة في ذلك اليوم. ما لا أعرفه هو مقاطعته لي نتيجة تصرفه الطائش... أنا جئتُ إليك أشكرك. رجولتك ورحمتك وإنسانيتك متلازمات. راضي عليك إذ تمنع جيش الروس أن يفعل عندنا ما فعل في القبرتاي عند الأمير تيمرقوه. عشتُ إلى الآن أتوقع أن تحاجني في أي يوم. حدث أن أخطأت في القول وفي الفعل ولكن لم أستطع أن أهدّ إنسانيتك يا أمير. أنا هرمت، ومريض مزمن فليتك تغفر لي... - نحض تاخ عن المائدة وصوته يتمزق. - والآن عندي رجاء آخر يا أمير: أرجو أن يبقى خبرُ زيارتي لك سرّاً بيننا.

- أكيد لن يخرج من بيننا، ولكن العالم يرى بمئة عين، ويسمع بمئة أذن.

- لا يهمني مهما قيل عني يا أمير إن لم يصدر عن أمير الجانيه الكبير... -
قال تاخ يغالب سعاله، ومدّ يده ولكن شبق تظاهر بأنه لم يرها، والتفت إلى
النافذة. وقال له مُشيحاً بوجهه العابس عنه:

- أنت تخاف من أن تعرف جماعة الأمير فواخ مجيئك إليّ في حين تعطي
صدارة مائدتك لمامي الذي كرهه الأديغة؛ فكيف تفهم هذا يا تاخ؟

- قتلتنى والله يا شبق! - صعد الدم إلى رأس تاخ فاحمرّ وجهه الشاحب. وبرأ
نفسه جزعاً: - وأنا متى وقعت عيني على ذلك الخائن ارتعشت كمن لدغته
أفعى. ولكن ألسنا أديغة يا أمير، كيف أقلع عيني؟ كيف أطرّد من يقرع باب
مضافتي؟

ضحك شبق في سره قائلاً بصمتٍ للأمير الخارج من بيته: " ربما كان من جعل
الناس يقولون: إذا أنت لدغتك حية فأنا لدغني عنكبوت، واحداً مثلك.
تتظاهر أمامي كأنك قطّ حاجّ لأن الجيش الروسي أربك. وتتصيدني من
الخلف لتقتلع جذوري. وتحفظ في صدرك بما تعتقد أنه سيعثر بي ". ونادى
ماتج متفقداً يده والقدرح الذي على المائدة:

- دعني أغسل يدي. وغيّر هواء الغرفة. والقدرح الذي لمسه ضيفي إرمه خارجاً
قبل أن يلمسه أحد!

- كأن الأمير الذي يقتل جبل منيّته جاء يلقي عليك تحية الوداع. - قال
الحارس، وشرح: - ركب والسعال يخنقه.

- الأمير تاخ هذه حاله منذ عرفته. ولكن هذا لا يمنعه من أن يقتل جبل
خبثه... - قال شبق دون حقد، ولامه متمماً: - متمسك بالحياة وإن كان
السعال يخنقه، يوصيني أن أكتّم زيارته إليّ.

...

- ما الخبر؟ - ألقى شبق نظرة قلق في وجه أخيه.
- خان القرم سرّه إرسالك إياي إليه. ولكن لم يحدد موعداً. - أعاد أفمق
النظرة إلى أخيه بما يعني أن كل شيء بخير. - تعهد هو أن يُخبرنا.
- وكيف تصرف معك؟

- استضافني فور إرسالي خبراً إليه. واستقبلني بحفاوة. وأرسل معي تحياته إليك. لم ألاحظ عليه رياء أو خبثاً.
- هل تعني أنه ليس مهموماً باستقدام الروس إلى الجانيه؟
- أنا أيضاً استغربت، لا عدمَ التطرق إليه، بل عدمَ الإشارة.
- هذا أعجب من العجيب... - ابتسم شبق، - معنى هذا واضح يا أمير: الخان دولت - جري لا يُكَنّ لنا ودّاً، ولا يعاديننا. يحذر منا، وينتظر أمراً. وأنا سأتصرف معه بهذه الطريقة. سأزور إذن الأمير تيمرقوه كما اتفقنا، وعند الضرورة أزور أمراء آخرين.

IV

النهار يهرب من العين كجناح عصفور سريع. ولا يرتاح الرأس على الوسادة في الليل الذي لا نهاية له. ويخيل إليك أن الفراش الناعم غداً قاسياً بارداً. وهواء الغرفة الصامتة أشد بروداً. ومتى أعقب النهار المحروم من الأمل أحلام الليل غير المفهومة والأفكار التي لا نهاية لها، جاءك بضيق لا تعرف معه أين تذهب برأسك، وأعمى البصر والبصيرة. أنساك الخير، وأعثرك بالشر.

ظهرت طبيعة إيفان غروزي في الأشهر التي أعقبت وفاة امرأته: اصطحابه إلى الجنازة مدعوماً من أخويه، وصراخه حين أنزلوا التابوت في القبر قائلاً: "إلى أين تذهبين، وإلى من تتركيني؟"، ودعاؤه أربع مرات في النهار للمتوفاة، حابساً نفسه في الغرفة لا يرفع عينيه عن ولديه، وإهماله قضايا الدولة، ومنعه موظفيه من المثل أمامه لأي نوع من المهمات، وإعراضه عن أي صوت نسائي إلا صوت بربارا مربية طفليه، وتفضيله الموت على أي شيء آخر.

على أن الحياة ليست مرعبة من الأحزان فحسب. الأمل الكبير والصحة الغالية يعيدان الإنسان إلى وعيه حتى في أحلك الظروف. وربما كان هذا هو السبب، كما يقول إيفان نفسه، في أن البلاد التي كلّفه الله بأمورها، وميتة أنستاسيا الفاجعة، وتسميم أعدائه لها، لا تفارق مخيلته. هذه الأمور بالإضافة إلى تفكيره في طريقة الانتقام من الأعداء، وتثبيت حكمه، وإبحار سفنه في البلطيق، حملته على استئناف التفكير ليلاً ونهاراً. كان تشقى في العام الماضي

من ألد أعدائه وطنياً، وشخصياً، أداشيف وسيلفيستر. وأُرفق بهما عدداً من أعدائه النبلاء وقادة الجيش. ويعرف من سيُتبعهم بهم. ولكن ارتيابه يغلبه فيتريث في أمرهم. وقد كَلّف بمراقبتهم سكوراتوف وغريازنوف اللذين تعرف عليهما قبل وقت قصير.

" موضع ثقّي الوحيدة أنستاسيا انتزعها مني الأعداء. - تألم قلبه هذا الصباح، - أي نوع من البشر هؤلاء المحيطون بي، يضحكون في وجهي، ومتى صاروا خلفي قتلوني بنظراتهم؟ لا يتقبلون اللين، ولا يغفرون لي القسوة. ورئيس الأساقفة مكاري الذي يتنقل معتمداً على مساعدين، يقف إلى جانبي والعسل على لسانه، والمُر في قلبه. كيف لا يخاف الله وهو على حافة قبره؟ أظنه يتقبل أن أفعّل الشر أكثر من تقبُّله الخير. لا يمكن إيكال أمور البلاد إلى من سيفارق الحياة قريباً جداً. يقول لي: " عليك أن تعيشَ فخارك تشكر الله وتفعل الخير، وتنتظر الأيام التالية بالأمان الطيبة من أجل تنمية إنسانيتك ورحمتك " لأجل من أتميهما؟ لأعداء البلاد أم للخونة؟ أين قادة الجيش كاراشاروف وسروغوزين وبوغدانوف؟ خافوا على أنفسهم فأتجهوا إلى عدونا الأزلي سيغمونند. والقائدان ريبيكين وكوليياتيف سلماً مدينة رينغن إلى الألمان، وتسببا في مقتل حراس المدينة تحت أنظارهما. أغفر لهؤلاء خياناتهم ولكن، حتى لو كنت أعرف أن الطيبة تجلب الشر، فإن الوطن الذي أودع الله ووالدي أمانته في يدي فوق الجميع... متى يكبر ولداي ويسانداني!.. غير أن عمري لم يتجاوز الثلاثين..."

نُحِض إيفان بكل ضخامته، وضع مكان الشمعة الآيلة للانطفاء غيرها، ورسم الصليب، وبعد مدة حُيِّل إليه أنه سمع صوتاً من جهة الباب فالتفت. ثم دنا منه على رؤوس أصابعه، وأنصت. ثم ابتعد راسماً لنفسه الصليب بعدما تأكد من الأمان. توقف على أرض الغرفة، وأنصت أيضاً بعض الوقت. وقف إلى إحدى النوافذ المتجهة صوب نهر موسكو. وتأمل العالم مصالباً بين يديه.

ليس نهراً جميلاً ينعش القلب. السحب الزرقاء - السوداء تغطي كامل السماء. يُحَيَّل إليك أنها تفتersh الأرض بأجنحتها الرقيقة. مطر ولا مطر. ولا يفيد ارتفاع القصر في مزيد من الرؤية الواضحة. ورغم أنه لا يرى منبع النهر من أسفل المرتفع وراء الكرملين، ولا الأشجار المقابلة له المنطوية على نفسها،

ولا الغربان على ذراها، فإنها مما لا تفارق خواطره. تنتصب أمام عينيه قرية بوشكار التي قضى فيها أياماً سعيدة، وصانعو المدافع من تولا وياروسلاف، والورشات التي تُسقى فيها السيوف، ويشكّل حديد المدافع، فيتصور أنها أدفأت له نهاره البارد. ثم يلتفت صوب ليفون التي تصدر منها أصوات انفجارات القذائف فتقع في بحر البلطيق. وسيغموند عدوه. ومن تؤيد القيصر في كل قضايه ملكة إنجلترا. وفي الحال نادى من مكانه إلى خارج الغرفة فأتى فيشنيكوف مدبر أمور قصره، فقال له:

- استدع لي فيسكوفات!

- حاضر، أسمعك أيها القيصر العظيم!

- ما أخبار الرسالة التي أرسلتها إلى الملكة إليزابيت؟

- ننتظر الجواب في أواخر هذا الشهر. - أجاب بصوت واثق، - هناك أمل يا قيصرنا العظيم.

- وهل كنت كتبت إليها لولا الأمل؟! - يستدير القيصر بما يعني: "وما شأنك أنت بالموضوع؟"، ويشير إليه، ويناديه: - هات لي حالاً بيسكوف!

لا يزال النهار ثقیلاً رغم بوارد الانفراج. الرطوبة تسري فوق الماء، وريح خفيفة تهب. يجلس على مقعده الوثير: "حين أعدمت أداشيف وسيلفيستر صديقي بيسكوف الذي خرج من هنا لم يجعلني أشك يوماً بأنه استاء من سلوكي. ولم أسمع أنه نطق بما لا يجوز. هل هذا ممكن؟ لا أصدق ألا يراودك أي شعور بالرعب وأنت ترى القيصر أعدم صديقك. حقاً هذا أهدأ من صديقيه، ونظره بعيد في قضايا الدولة التي أكلفه بها، وماهر في الكتابة، وذكي في القضايا الخارجية، ولكن من يعرف ماذا يمكن أن يخطر له؛ فأراقبه. - لا يلاحظون عليه ما يدعو إلى الريبة. أأكون مبالغاً في الارتياب؟ من الذي جعلني هكذا؟ النبلاء، والأمراء، الأعداء الذين لا يرون إلا مصالحهم الشخصية. ولست الأول في هذا، بدؤوه مع والدي ووالدي، وجدي... من الذي ستم والدي؟ ألم يفعلوا بزواجتي الأمر نفسه؟ أعرف من هؤلاء: هم من يريدون أن يعيشوا في إقطاعاتهم دون دولة أو حاكم. ولكن الدول ستسد عليك منافذ الحياة إن لم تؤسس دولة. العالم يتطور، والناس الذين كانوا يجهل أحدهم الآخر يتعارفون الآن،

ويتعاونون. من كان يعرف أن التاجر أفاناس سيسافر إلى الهندوس في زمن جدي، ويأتي إلى الأديغة الذين لا نعرف من هم، ومتوسلين؟ وأن نريق الدم في ليفونيا لنطل على بحر البلطيق. جاءنا الأديغة من جهة الجنوب الشرقي التي كنت أطلع إليها. وأنتم تريدون اقتلاع أساس الدولة التي ألفها والدي وأجدادي..."

دخل إيفان ابن القيصر إلى الغرفة وعانق والده. فسأله وهو يمسخ على رأسه:

- أين فيدور أخوك؟

- فيدور، - قال إيفان كأنه مهتم وغير مهتم، وأشار بيده، - نائم. ألا تعرف أنه ينام جالساً وواقفاً!

- لا تقل مثل هذا عن أخيك الأصغر! هذا مريض دائم لاحول له، - نصح القيصر ابنه بكل لطف. - ليحرص كل على الآخر! هكذا كانت علاقتنا في صغرنا أنا وعمك.

كان خطر له أن يوصي الصبي الآخر الذي رجع إلى الغرفة أن يشعل شمعة لأُمَّه، ولكن الأول عاد، وألقى سؤالاً ألم قلب الوالد:

- ولماذا لم تطلب مني أنا؟

بدأ إيفان يشعل الشمعة من أجله ومن أجل أخيه فيدور فراقبه القيصر. ولما خرج الولد راکضاً من الغرفة قال لنفسه: "يجب أن أجد امرأة تصبح أماً صالحة لهما وزوجة لي. وهل وقت هذه الفكرة الآن؟ لا أعرف... لا أعرف. هل أقضي عمري وحيداً أفني نفسي كلما نظرتُ إليهما؟ لن أفقر إلى امرأة إن أردت. وليس من اللائق أن تحكم دولة وأنت أرمل. نعم، أمور البلاد فوق كل شيء. لا بد أن أسترجع البلطيق وأراضي أجدادي. سيكون الحكم صعباً إن لم تتوسع تجارتنا. وفي هذا تؤيدني ملكة إنجلترا، ولذا اغتاز الملك سيغموند وملك السويد وغيرهما. وألمانيا تتظاهر بتأييدي، وتحالف ليفونيا سراً. يجب إرسال قائد جيش حازم إلى ليفونيا. ودعّم الجيش المواجه لبولونيا..."

توقف القيصر الذي كان يذرع أرض الغرفة كأن أحداً ناداه. نظر جهة صورة الإله حيث تشتعل الشموع. الشمعتان اللتان أشعلهما الصبي إيفان تشتعلان.

والآن أشعل شمعاً ليس باسم أنستاسيا وابتعد راسماً الصليب. ولما أحس بخطأ ما فعله بخصوص الزوجة المتوفاة عاد فدعا أن تغفر له.

مرت أيام وليالٍ وإيفان غارق في أفكار الترمُّل، ويرتب أمور الدولة. ومضى شهر وأسبوع على عودة النشاط إليه وحلِّ أمور الدولة بنفسه. أغراه نور الصباح اللطيف إلى خارج الغرفة. ودار أرض القصر برفقة فيسكوفات وسكوراتوف. وتفقّد أنحاء موسكو من على المرتفع. ولما بدت قرية بوشكار من بعيد رسم لها الصليب سعيداً. ولم ينس أنه أرسل القائد العسكري سلطان - ميخائيل الشركسي إليها. وتذكر المهمات التي أناطها به: "هو قائد موثوق. صدقه ورجولته متلازمتان. كان رفيقي فيسكوفات اعترض على تعيين رجل غريب قائداً عسكرياً ولكن أمثاله هم من سيقفون معك في ساعة الشدة. لم يخذلني كاييولا الأمير التتري. ولم يخالفني الأمير شبق وابنه كُتناق. حاربنا في ليفونيا. ولم يكف هذا فاصطحبنا جيشنا ووضعناه في مواجهة عدونا خان القرم. وهو يوطّد سلطتنا على ضفة نهر ترج. ومن جهة سيبيريا يجب اقتلاع جذر الخان كوجوم. ومن لا نجد إليهم سبيلاً بالحرب أو السلم هم أهل ليفونيا. والسويد والشليات..."

وقعت عينا إيفان على الكنيسة التي ترتفع عن جدار الكرملين والمسماة باسم فاسيل بلاجين، والتي أقيمت قبل تسع سنوات احتفالاً بالاستيلاء على خانية قازان. وتذكر مشاركته شخصياً في المعركة، وإخفاق الهجوم الأول، والبطولة التي اجتريها كوريسك قائد الجيش. وفي طريق عودته منها منحته أنستاسيا في 28 تشرين الأول / أكتوبر عام 1552 أول طفل سمّوه ديمتري، لم يُكمل سنة... وكان عمر إيفان يومها اثنتين وعشرين عاماً.

- القائد كوريسك أندريه موعّد وصوله اليوم. - قال القيصر وعاد سريعاً نحو الغرفة. وتبادل فيسكوفات وسكوراتوف النظر، ولحقا بالقيصر المسرع. كان الوقتُ تجاوز الظهيرة حين أصرطُحب القائد كوريسك إلى غرفة القيصر. النهار مضيء ولكن الظلام يغلب على غرفة القيصر. وتثقل على الأنوف رائحة الشمع المحترق. القيصر في كامل أناقته، والغرفة في أبهى حُلّة. وقف

القائد الذي بدأ الشيب يتسلل إلى شعره أمام القيصر، ويده على رأس النطاق الذي بدون سلاح.

"يبدو كوريسك أصغر مني سنًا وإن كان يكبرني بسنتين. ولا يمكن الادعاء أنه لم يشق في حياته ولم يهتّم إلا بشخصه. ومهما كلفته بأشق المهمات نال رضى، والرجولة التي أبداها في معركة قازان لم تنقص إن لم تزد. ولو لم يفعل إلا إخماد حركات النبلاء في نوفجورود وسمولنسك وغيرها لاستحق أيّ مكافأة. ولكنه صديق لأداسيف وسيلفيستر وجماعتهما. طبعه هادئ، وفيه رجولة وصدق وصبر، غير أنني سمعت أنه قال غير راضٍ عما فعلتُ بصحبه: "إن كان قيصرنا سيضرب هنا وهناك دون تمييز فسيصلني الدور". وهذا هو أنا، لا أشفق على أي عدوّ للبلاد حتى لو كان أخي أو ولدي. ومهما أسدوا من خدمات فلن يردعني. والخازوق بانتظار كل خائن. ودونه لا يمكن حكم البلاد.

وكوريسك، القائد وصديق القيصر الذي يقف في حضرته الآن، لم يستطع إلا أن يفكر في القيصر: "أرى القيصر لأول مرة منذ جنازة أنستاسيا فآلمح آثار المأساة عليه وإن تظاهر بالجلّد، ولا يستطيع مداراة نظرتة القاسية. وإذا استمر الوضع هكذا فستجري أحداث كثيرة في البلاد غير سارة. كانت أنستاسيا تلجم ظلمه وتطوّعهُ بنظرتها الدافئة، وبكلامها الحلو، أما الآن فما من أحد يقوم بدورها. الوحيد القادر هو رئيس الأساقفة مكاري ولكنه هُرم جداً. لماذا استدعاني القيصر على عجل؟ ماذا ينوي بحقي؟.."

- ما الأخبار ناحية بيسكوف أيها القائد؟

- السلام يسود يا قيصرنا العظيم.

- إن كان هذا رأيك فالوضع في ليفونيا صعب. والبلاد في فوضى. - اختلجت وجنتا القيصر، ثم هدأ. واستأنف بسرعة: - رغم احتفاظنا بسمولنسك بقوة فإن ملك الشليات سيغمووند لا يكتفي بأن يؤلّب علينا الليفون، فيحشد جيشه على حدود سمولنسك. ويكتب إلى ملكة إنجلترا يستعديها علينا. ويرسل موفديه إلى الدول الأخرى. ينوي مهاجمة موسكو وإحراقها. وأنت يا صديقي العزيز تقول إن الوضع ناحية بيسكوف في سلام.

- ما تكلفني به حملي. وحيث توجّهني طريقي. - شدّ القائد قامته مدركاً ما ينتظره.

- حياك الله؛ اجلس! يسرني أنك لا تخذلني. ولا أشكّ في أن تتعامل معي بوجه آخر. لا أخفي عنك أني سمعتك حزنت لما حدث لأداشيف وسلفستر فلم أعرف السبب؛ أهذا صحيح؟

- صحيح أيها القيصر، - قال كوريسك، وشرح: - أنت أدري مني بذنبهما، فأقف إلى جانبك في كل تصرف عادل لك.

- ومن يعرف إن كنت ظالماً؟ - احتدّ صوت القيصر عفويّاً.

- الله هو من يعرف. ثم أنت.

- أنا لا أفعل إلا ما يأمرني به الله. - قال القيصر وهو يرسم الصليب.

- لا شكّ عندي في هذا يا قيصري، - رسم كوريسك أيضاً الصليب.

روى القيصر للقائد سبب استدعائه له، وأخبارَ معمل الأسلحة في بوشكار، وحاجته إلى أرض الأجداد وإلى بحر البلطيق، ومعارضة النبلاء له ومؤامراتهم، والحرائق التي يشعلها الأعداء في موسكو صيفاً. وأخباراً أخرى.

- أنا واثق منك أيها القائد، - تابع القيصر كلامه، - متى انتهيت من حرب ليفونيا التي أجبرني أعداء الداخل على وقفها فسنوجه نحو الشليات. لن نرتاح ما لم تنته من قضيتها. وسأفصل عنها تركيا والقرم. وفي شأن إقليم الأديغة عقدنا اتفاقاً سرياً مع تركيا. سيكون نهر بشزه بين الدولتين: الضفة اليمنى لنا، واليسرى لهم. ويخزني أننا سنكون بعيدين عن البحر الأسود. ولكننا متى صرنا دولة قوية فسنستدبر أمره. متى عبرنا أرض القبرتاي ودخلنا غروزي فأتباع ديننا ينتظروننا بفارغ الصبر بسبب اضطهاد الفرس لهم وتهديد تركيا لهم. أعدك أنها ستصبح جزءاً من بلادنا مستقبلاً، أما اليوم فعلينا الانتهاء من ليفونيا والملك سيغmond حليفها. لذا قررت وضع كل الجيوش بإمرتك، واستعادة بطولاتك فيها. - رسم القيصر جالساً شارة الصليب على القائد.

- حياك الله يا قيصري، - نهض كوريسك وحيّا القائد باخناءة. حقق الله لك أهدافك القومية، لن أراجع.

أكّد القيصر وهو يودّع القائد:

- لا يجوز أن يعرف مخلوق سِرِّنا. عملاء سيغموند في البلاد. وأحتمن أن يكون بعضهم بين أفراد حاشيتي.

دخل فيسكوفات إليه بعد ما بقي وحده خائفاً مما سينقل إليه، فسأله:

- ما الذي لا تستطيع البوح به؟

- مجموعة من النبلاء تود مقابلتك أيها القيصر.

- هل كنتُ دعوتهم؟

- لا، لهم حديث معك.

- ليدخلوا، ولكن أفهمهم أن وقتي محدود. - عاد القيصر إلى عرشه مغمماً.

وقال للنبلاء الذين تجاوزوا الباب: - أسمعكم، - ولما شرعوا يتبادلون نظرات

التساؤل قال: - إن لم يكن عندكم ما تقولون فما مجيئكم؟! ألا تعرفون أن وقتي

محدود؟

تقدم أول من تشجع منهم، واسمه ريئين، وقال حانياً ظهره:

- مأساتك في زوجتك أنستاسيا مأساة البلاد كلها. لا ننساها إلى الآن؛

ليرحمها الله! ولكن روسيا كلها لا ترى من المناسب أن تبقى أرملاً. يرسل إلينا

الكثيرون راغبين في أن تتزوج من جديد.

وافق النبلاء زميلهم بهز رؤوسهم. ونظروا من تحت حواجبهم إلى القيصر المطرق

لا يعرفون ما سيقول. ولكن القيصر أجاب بما لا ينتظرونه:

- أنا موافق إن كان هذا رأيكم؛ من ترشّحون؟

- سنجمع من في البلاد من فتيات جميلات، وتختار منهن.

- لا، - لم يقبل القيصر، - الآن سأتزوج من بلاد أخرى. الناس يتعارفون

الآن ويتقاربون. وأنتم تعرفون أنّ فيّ دماً أجنبياً من جهة جدتي. انحثوا في إنجلترا

وبولونيا وألمانيا وهولندا. وتوجهوا نحو الأديغة. بنات هؤلاء زوجات صالحات

لسلاطين الترك وخانات القرم والنجوي وأستراخان. سمعتُ أن للأمير شبق،

وللأمير تيمرقوه بنات في سن الزواج. فخالطوهم، ولا تنسوا حاجتنا إلى البحر

الأسود كما حاجتي إلى زوجة...

من لا رحمة عنده لا يعرف معنى الفرحة. إن انهم أحداً بما ليس ذنبه أعثره، وطمره معتقداً أنه يجترح بطولة، فرحاً من أعماقه. لا يقتنع أنه خلق على ظهر الأرض ليعمل المعروف، ويعيش من أجل الناس. ومثل هذا الإنسان متى وقع في ورطة، أو أصابه مرض عضال، التجأ إلى الله. وجعل يركض وراء فعل الخير محاولاً استدراك ما فات. ثم ينقلب إلى الحقد على ما فاتته، فيعيش عمره مغناظاً.

هذا الخاطر استحضر عدداً من الأشخاص إلى خيال قلقت. ليس فراغه هو ما يستدعي هذه الأفكار، ففضية الأديعة هي التي تتحكم فيه وتقوده أينما كان، ومهما كان يفعل، حتى صار يعتبرها قدراً مكتوباً على جبينه، وشعوراً بالواجب بعد الله بما يجب أن يفعل من أجل قومه. لا يقول للأمراء والمتنفذين والفلاحين الذين يعرفهم: ألسنت مثلكم، بل يقف إلى جانبهم ويقارن نفسه بهم، ويحكمها إن كانت القضية قضيته، وإن كان سلوكه صحيحاً أم خاطئاً. ويغيطه أن لا يتفهم الأمراء الأفكار التي يعرضها عليهم. وها هو الآن مستلقٍ على الفراش في مساء خريفي. خياله يصل إلى البعيد، ثم يعود إلى القرية. عاد إلى البيت فشرعت المرأة في إعداد المائدة، غير أنه رفض الطعام بحجة أنه شعبان. والآن ينتظر نكر ريشما تنتهي من حلب البقرة. ومشروع سفره غداً يثير ما لا نهاية له من الأفكار.

"كأن بسمت خلقه الله لأجلي، - فرح قلقت لإخلاص صديقه، - قرر أن يصحبني حين عرف أن أمامي طريقاً طويلاً. لم أزره طامعاً في سفرته فامراته في أواخر حملها. هنئاً لبسمت: صفت زوجته المباركة إلى جانبه ستة أولاد ذكور. ونحن ليس عندنا إلى الآن من نمسح على رأسه. أقول هذا ولكن حياتي ليست عبثاً. بعثت الوعي في صفوف العامة إلى ضرورة الدولة. ومنحوني تقديرهم وثقتهم دون أن يدعوني هذا إلى أن أضع قدمي حيث لا رأس لي. ما فائدة أن تتبجح كالأمير فواخ دون عقل وإن منحك أغلب الأمراء تقديرًا واحتراماً. لا أقول إن الأمير تاح، المريض الدائم ليس ذكياً، ولكن لونه كالأموات من مؤامراته السرية، كما يقال: الديك الشرس لا يسمن. ومتى نُعي فسيقول أكثر

الناس: " من حظنا أنه مات، ما كانت فائدته في الدنيا؟ " طوال عمره يرتكب الشر ثم يطمره. ولكن الخير ينمو والشر يتعفن. لماذا كان عند شبق قبل ليالٍ؟ ربما كان يريد التمويه على الضجة التي أثارها على باب الأمير الكبير، بالإضافة إلى ارتعابه من الفرسان الروس الذين اصطحبهم شبق. يريد أن يتبوأ منصب كبير الأمراء ولكنه جبان، ويفتقر إلى الإنسانية. حين لم يتحقق له مشروع تصفيتي على يد وتنغ حشد الحراس لي في الغابة. ولكنني حين أتيت من الاتجاه الذي جاء منه واختطفته من سرج الحصان ظننت أنه سيموت أمامي. وبعدها لم يرِدني منه أيُّ ذِكْرٍ لي خيراً أو شراً، دعك من التعرض الجسدي لي. شبق بالقياس إلى تاخ وفواخ مريضٍ من الله. ذكي وخبيث. هنأني بحرارة على زواج أختي. ولكنه تأثر جداً لرفضها ابنه، وبدا الانفعال من عينيه. يوازن بين أقواله وأفعاله، ويفعل كثيراً من الخير، ثم يُضَيِّع بخطوة خاطئة كل ما فعل من الخير. جلب إلينا الروس، ومتى جئت إلى بلادك بالقيصر الذي يسعى لامتلاك ما كان له وما لم يكن، وأركبته على كتفك، فهل يسأل عنك لاحقاً؟ وإن بقينا على حالنا ولم نتكبد فنحن راضون... وأمير القبرتاي الذين أودّ مخالطتهم فعل الأمر عينه. دفع الجيش الروسي إلى إحراق قرى خصومه. وهل يتأمل ألا يفعل القيصر به ما فعله هو إن لم يعجبه سلوكه غداً؟ أظن أن لا أمل منه في مشروع الدولة. ولكن عليّ أن أستمزج آراء أعراق الأديغة كلها حتى لا يحتاج أحد لاحقاً بأنه لم يطلع عليه..."

صدر صوت دلوٍ ملآن، فجلس قلقاً مغمماً متسائلاً إن كانت نكر حلبت أبقار الجيران أيضاً. دخلت نكر الغرفة ويدها قدح عميق ومدّته لزوجها:

- اشرب من الحليب الطازج إن لم تكن تريد الطعام، يلطّف قلبك.
- أليس قلبي لطيفاً دائماً نحوك يا حلوتي! - جرع قلقاً الحليب، ولاحظ انتفاخ بطن نكر عن ذي قبل. فدفعه الفرخ حالاً إلى القيام، وضمها إليه.
- حاذِر! - تخلّصت نكر بسرعة من الحُضن الدافئ. - لم أعد وحدي!
- ولم تُخبريني؟! - لن يرسل الله إليّ أسعد من هذا الخير. كنت جئتُك بحلول لو أخبرتني قبل.

- انتظرتُ أن تلاحظ بنفسك. - ضحكت نكر يغلبها الحياء، - ولكن عينيك كفتا عن رؤية أي شيء إلا قضية الأديعة. - بقرتنا لاحظت حملي قبلك!

- كيف؟

- لم تكن تسمح لي سابقاً أن أحلبها إلا أن أقيد قائمتيها. كانت ترفس الدلو فتسكب ما حلبته. والآن توقفت عن ربط قائمتيها. تنظر إليّ بعين الرضا حالما أجلس لأحلبها. ولم تعد تمنع عني لبنها. وتملاً لي الدلو.

- لا شك إذن أنه ولد! - ضمها إليه ثانية وقد ازداد فرحاً على فرح. البهيمة تميّز ما استقرّ في رحم المرأة. وتقدر الجنين الذكر.

- وما أدراك بهذا؟ - سألت نكر مرتابة.

- سمعتُ كبارنا، - وغيرَ قلقت في الحال الموضوع: - يا نكر، هل تعرفين ما سأقول لك؟ الآن تجنّبي أي إزعاج إذ لست وحدك من الآن. لا تدعي أحداً يعرف أنك تتوسطين بين مينسور وحاتاي. ليتصوّر شبق وزهرة أحمأ افترقا بعد طول البعد.

- لك هذا، ولكن هل تعرف ماذا قالت لي مينسور قبل مدة؟ - سألت نكر يغلبها الضحك: - "الن يغفر الله لحاتاي طوال عمره إن تركني وتزوج من غيري. وإن اضطرتُ تجاوزت أبي وأمي وتزوجته. لا أريد حياة أخرى دونه..." أليس هذا كلاماً خطيراً؟ تأملتُ لحال الصبية. الوقوف في وجه فتاة أحببت كل هذا الحب يتجاوز الظلم.

- كنت تتصورين أن جارنا شبق فوق كل الناس ولكنك بدأت تعرفينه على حقيقته. يفرش لك فراشاً ناعماً ومتى نمت عليه وخزتك الإبر. أنا لا أحب هذا النوع من الناس. على الرجل أن تتوافق أقواله وأفعاله.

كانت نخافة نكر من أسباب قلقه. والآن لم يكن راغباً في أن يترك هذا الإحساس الجميل بالفخر والاطمئنان إلى طريق السفر. ولكن ما صار طبيعة ثابتة فيه لا يسمح له أن يُججم عن السفر في الحر أو البرد، في الصحو أو المطر، إلا أن تقوم القيامة. كان على الطريق قبل الفجر، ومتعة الليلة الماضية،

ودفئها، ووجنتها الناعمتان، وصوتها الناعم، كلها في قلبه. مرتاحاً لوجود
بسمت على يساره، ملقياً عليه نظرة من وقت لآخر.
لم يكن قلقته الزعيم العامي راغباً في توجيه حصانه نحو الشابسغ والحكوف
الذين لا يعدّون أنفسهم من عالم الأدبغة. يعرف أنه لن يجد جواباً عندهم، وهم
الذين لم يحضروا مؤتمر الفلاحين محتمين بجهلهم، إن حاول إقناعهم بأن قلب
الإنسان أمتئ من الجبال. من طبيعة الحكوف أن يتغلب مهما قلت له فلا
يحتفظ إلا بما في ذهنه. وقد اختبر هذا مراراً. والبجدوغ الذين يسافر إليهم
قلقت لأجل القضية ليس واثقاً منهم جداً. وهم منقسمون إلى فريقين بينهما
بشئبسه يتبادلان نظرات الريبة والسخرية. وليس عندهم كبير أمراء يجمع
أمراءهم المحليين. ولكنهم صريحون إلى حد الوقاحة لا يهمهم ما يعجبك وما لا
يعجبك.

نزل الفارسان قبيل المغرب في مضافة الأمير بُشحالآقوه. استقبلهم المضيف دون
حماسة على سبيل الواجب ولو أنه كان يعرف قلقته. ولما مدوا أيديهم إلى
الطعام صرّح المضيف بمراد الضيف:

- نحن على علم بمؤتمر الفلاحين الكبير الذي عقدتموه، ووصلتنا قراراته. - بدأ
المضيف الحديث هادئاً بعدما ثبتت قبعته على رأسه بإهمامه، - لا أرفض
هدفكم، يا ضيف ولكن لا أظنه قابلاً للتحقيق.

- ما الذي يدفعك إلى هذا الكلام يا أمير؟ ارتفع قلقته بجسده عن المائدة.
- لا مشكلة لي شخصياً، وإن شئت أرسلتُ حراسي وراء بضعة أمراء، فإن
وافقت أحدهم تنازلتُ لك عن قبعتي. الأمراء وجبش وجبش وقرنقوه وغيرهم
ليسوا أدنى مني مرتبة. وأنا لست أدنى منهم. قابلتُ أمراء البجدوغ بعد مؤتمر
العاعة، ولم أترك أحداً إلا عرفتُ ما في قلبه فلم أجد من هو مستعد لحضور
مؤتمر الأمراء الذي دعوتهم إليه. وعلى سبيل المثال إذا لم تتفق نحن فيما بيننا
فكيف تُقنعهم بإطاعة الأمير الكبير شبق أو الكبير الآخر تيمرقوه؟ كل أعراق
الأديغة تتنافس بل تتحارب على من الأقوى بينها. ألم تسمع ما فعل تيمرقوه
بقرى شبق؟

- نعم، وتألّمت، - قال قلقته وقد انكسر صوته الأجش.

- هذه حالنا يا ضيف، إن كنا محظوظين ظهر بيننا رجل شجاع طيب القلب. ولكنني أظن أن من هو جدير بتحمل تلك المسؤولية لم يُخلق بعد. - أنهى المضيف الكئيب كلامه، وجلس قلقاً لأياً معقود اللسان، لا لأنه لا يعرف الردّ على الأمير، كان يحتفظ في ذهنه بكل ما جمع من معلومات حول فوائد تأسيس الدولة على الأمة، ولوازم هذا التأسيس، من أكبرها إلى أصغرها، استقاها شيئاً فشيئاً من كُتات الشاب الأمير الذي تعلّمها في موسكو. ولكن رغم أن الأمير الجالس مقابله ذكي ويوجه الحديث في الوجهة التي يريدّها، فهو لا يريد بالمقابل أن يكون أدنى من أمير آخر. هذا الأمير وغيره يصعب إضافة شيء إلى ما في أذهانهم. بالإضافة إلى أن الأديغي يقول شيئاً ويفعل آخر. وإن استمعت إلى أعقل الناس معتقداً أنه يملك أفكاراً هامة حول الدولة تراجع متى وصل الأمر إلى شخصه. واصطدمت أفكاره بمحدود قريته.

وافق بسمت رفيقه قلقاً في موضوع صرف النظر عن اجتماع الأمراء البجدوغ. وفي الليل ربّما المقاربات إلى الموضوع ريثما راودهما النوم. وفي اليوم التالي، عادا من وقت لآخر إلى الموضوع منذ أن اجتازا أول مضيق في الأبراخ بُشِشَه حتى مضيق نهر شُخغواشه. وفيما هما ينحدران من المرتفع رأيا قرية صديقيهما داور فسأل بسمت:

- الأمراء البجدوغ قطعوا أملنا قبل أن نجتمع بهم فما أملك من الأبراخ؟ لم يكن عندهم قطّ أمراء ولا نبلاء. يقودهم الفلاحون المتحولون إلى أسرٍ متنفذة. - الأبراخ الكثيفو الشعر شجاعان، طيبو القلوب، يعيشون أحراراً قلباً وعقلاً. وهم أيضاً ليس من السهل جمعهم وإقناعهم. - ألقى قلقاً من على السرج نظرة فوق القرية مضيقاً ضخامة إلى ضخامته، وأضاف واثقاً من نفسه: - هؤلاء أحوجُّ إلى الدولة، سيوافقونا إن اجتمعنا بالرجال الطيبين المؤثرين منهم، وأفهمناهم قيمة الدولة. ومتى اقتنع الأبراخ فلا تراجع عندهم!

- إن شاء الله! - ضحك بسمت، - ولكن لا تنس أنهم أديغة أيضاً. لم ألتق بأديغي يرى قبعته أصغر من قبعات الآخرين!

- أليس هذا ما يقف في طريقنا، ابتسم قلقاً، - أفقر الناس وأضعفهم يرى نفسه كبيراً وذكياً. هل تعرف يا صديقي أنهم يُرهقوني رغم أنني في أقصى قوتي.

لا أعرف من أين أتى الأديغة بكل هذه الخيلاء ؛ الخيلاء لها حدود ومقاييس . عليك أن تعرف على من تتكبر ، ومن تنحني احتراماً له . ما الفائدة من كبرياء لا سند لها ؟

الشاب المراهق الذي خرج فجأة من الغابة أفرع الحصانين فانزلقا جانباً . ووقف الشاب ينظر من تحت جمل الحطب مرتعباً .

- أرعبتماي إذ ظننتُ أنكما لصان. - ألقى الشاب نظرة مودة عليهما واضعاً حمله عنه .

- لا تعرف إن جئنا لنخطفك يا أخي الصغير . تتكلم بجرأة . - مزح قلقت مع الفتى الأحمر الوجه .

- يبدو على وجهيكما أنكما رجلا ن طيبان . إن لم أخطئ فأنت قلقت .

- ومن أين تعرف ؟

- اصطحبني والدي إلى مؤتمر الفلاحين .

- يسرني أنك ذكي ، هات حملك أوصله إلى القرية .

- لا، هذا عيب ، أنتما ضيفان على القرية . - سحب الفتى الحمل إلى الوراء ، - المسافة قريبة ، وأنا خلفكما .

قال قلقت مرتاحاً لكلام الفتى :

- هذا ما يُخيِّبنا ، نحن الأديغة ، على الأرض . هذا الفتى يعرف في هذه السن المبكرة العيب ، ويناقش في موضوع الأخلاق والعادات . ولكننا نقف على مرتفع ما دون القدرة على بلوغه .

لم يُدْخل قلبيهما شك في حسن استقبال داور لهما ، وهذا ما جرى . ولكن داور لم يوافق الضيف ، لا على المائدة ، ولا بعدها :

- فهمتُ كل ما قلته . وزدت في معلوماي التي عليّ نقلها للناس . أنا سأعمل مع الرجال الصالحين الشجعان . مهما قلت لهم فالأبزاخ يتقبلون كلامنا . دعونا نتوجه إلى المخوش والقبرتاي ، هؤلاء يحتاجون إلى جهد أكبر .

- حقاً الأصغر منك سنّاً يعلمك ، الأمراء هم الأعسر علينا .

استقبل الخادم الفرسان الثلاثة قبل نزولهم في مضافة الأمير جامبج بعدما قطعوا مسافة شاسعة وطريقاً متنوعاً . وقال لهم في المضافة :

- لا تؤاخذوني، الأمير في دودارقوايه لتقديم واجب العزاء.
- عظم الله أجرهم وشكر سعيه، - نهض قلقت وانحنى انخاء خفيفة للكهل الواقف أمامه. وتبعه بسمت وداور.
- أكمل الكهل الخادم:
- وحاتاي في داره الجديدة. أهنؤا البيت، والآن يعملون في الإسطبلات. أرسلت وراءه. سيصل حالاً.
- استرعت فرحة حاتاي انتباه الجميع بمن فيهم الخادم الكهل. وأمضوا النهار وجزءاً من الليل في الأخبار. قال حاتاي:
- إن كنت تود رؤية أختك استدعيتها أو تمتج زوجها.
- لا داعي، لم يمض الكثير على خروجها من بيتها. لم يحن الوقت بعد.
- نام قلقت وحاتاي في غرفة واحدة. ولكن حاتاي لم يُطفئ المصباح. نظر في وجه ضيفه متشوقاً لسماع ما سيقول، وفهم قلقت فابتسم وقرر ألا يماطل:
- هل تعرف ما قالت مينسور لمن في بيتي؟ ستذنب إلى الأبد إن تزوجت فتاة غيرها. ولا أحد في العالم يلجمها.
- وأنا لن أتجاوزها إلى غيرها حتى لو كانت بنت السلطان. لا أحد يساوي مينسور في نظري. صارت قطعة من قلبي وروحي...

...

البيت الكبير القائم في دار الأمير أبشق لا يزال على حاله. ولكن لا يخفى إعادة تأهيل الإسطبلات. كان الأمير أبشق، الرجل الضخم الثخين، هادئاً كأن لم يجر عليه شيء. واستقبل قلقت ورفاقه الثلاثة بوجه طلق. وبعدما رُفعت المائدة سأل أبشق الضيف:

- أظنكم جئتم في مهمة، تفضلوا إلى عند الوالد. سيفرح بكم.
- الأمير قايتقوه بقي جلدأً على عظم، رقيق غائر العينين، والإهانة التي ألحقت به قبل وقت غير طويل حنّته على نحو ملحوظ، ولكن عقله لا يزال نشيطاً.
- استمع الأمير العجوز إلى كلام قلقت. لم تتغير ملامحه كأيقونة ثابتة. ثم تحرك وقال بصوت خائر:

- أنت تحمل مشروعاً جيداً أيها الشاب، ولكن لن يتحقق لك شيء. الأمير شبق تحالف مع روسيا، ونحن مسلمون نقف مع القرم. رغم أننا جميعاً من أصل واحد فالأمير تيمرقوه لحق بأميركم بكل بساطة، وجاءنا بالجيش الروسي. وأحرق بيوتنا. توسلت إليه لأتخذ أولادي. أعرف أن ولدي الأكبر لن يُرغم، ولن يتحالف أولادي مع تيمرقوه لأي سبب. لا أستطيع الجلوس طويلاً ولكن أقول باختصار: لن نتفق وكلٌّ يدير رأسه في اتجاه.

أشفق فقلت على الأمير العجوز المتهاوي. فلم يُطل الكلام. فهم أنه لن يقف إلى جانبه في موضوع تأسيس الدولة. ولامه الأمير العجوز في سره ناظراً إليه من تحت جبينه: " لا يؤكل شيء في غير موسمه. ما أدراك أنت إن كان علينا تأسيس دولة؟ مشروعك ليس من مهام الفلاحين. حتى نحن لم نستطع كل هذه السنين تفهّم الأمر. الأفضل لك أن تلتزم ففرك وتقوم بأعباء أسرتك. غير أنني أرى أن مصيبة بانتظارك..."

حين توجه الفرسان نحو ترج لم يجد قلقتي من اللائق أن يقيّم على مسمع من أصدقائه كلام الأمير العجوز، فقال في نفسه: "لن أقول إن الأمير العجوز خرف. ولكنه هو الآخر لا يريد تقاسم غطاءه الأديغي مع أحد. الشعور بالإهانة يغلبه. توسلتُ إليه، وخيّرته بين الأمراء دون أن أنطق اسم تيمرقوه أو شبق، ولكنه يتمنى قبل موته أن يرى ابنه الأكبر كبير أمراء ولو ليس سلطاناً، ولا يريد أن يتفهم موضوع الدولة..."

أمطرت سماء الخريف عليهم لا حاراً ولا بارداً وقلقت في غمرة التفكير. توجهوا إلى الإسطبل الظاهر من بين الأغصان، ترجلوا ووقفوا داخل الإسطبل المفتوح. وفي الحال مطّ داور عنقه وصاح:

- انظروا لحظة، ها هم ثلاثة فرسان يدخلون الغابة. وعلى حارك حصان المتقدم بينهم رجل ضخم.

قال قلقتي يراقب من بين قطرات المطر:

- سننطلق، هيا اتبعوني!

أطلق الأربعة خيلهم عدواً على طريق العربات. لا يحتاجون إلا إلى غلوة واحدة. الرجل الضخم مقيد إلى شجرة، والدم من رأسه الحليق اختلط بماء

المطر. والرجال الثلاثة محيطون به يسوطونه. لم تدع جماعة قلقت الفرصة لهم ليلتفتوا إليهم، ركل قلقت أحدهم، وصرع حاتاي الثاني بصدر الحصان، وقفز داور من السرج على الثالث فألقاه أرضاً. واقترب بسمت من الرجل المقيّد فحلّ وثاقه.

- اقطع الجبل إلى ثلاثة أقسام،- نادى قلقت صديقه.

قيّدوا الرجال الثلاثة، فسأل بسمت نافداً صبره:

- ماذا كنتم تنوون بحق هذا الرجل؟

- كنا ننوي قتله ضرباً.

- ولماذا؟

- كان يتقدم الروس الذين أحرقوا قرانا.

- هل هذا صحيح؟ - سأل بسمت الرجل.

- صحيح، - أجاب بصعوبة مطرقاً، يمسح الدم المختلط بالمطر. - أنا كبير حراس الأمير تيمرقوه. أنفذ أوامره.

- الانتقام مستشار سيء، لم تتصرفوا على نحو صحيح. - وقف قلقت يكمل مهمة صديقه، - ما اسمك أنت يا أخي؟ قلت لي: نانخ؟ أنتم الثلاثة داور وبسمت ونانخ احمّلوا الرجال المقيدين على خيلكم، ونحن سنسوق خيلهم من أعنتهم. سنقدم هدية للأمير تيمرقوه.

ظهرت مجموعة الفرسان الكبيرة المتدافعة على مشارف القرية، ولكنهم رأوا الفرسان الأربعة المقبلين باتجاههم يسرون بهدوء وبأيديهم أعنة الخيول فخففوا سرعتهم، ووقفوا للترحيب بهم.

- ما الذي جرى يا نانخ؟ سأل متقدّم الفرسان الرجل المتين البنية.

- كان هؤلاء القذرون ينوون قتلي. - اشتعل غضب نانخ، فضرب الرجل الذي على حارك حصانه.

- لا يضرب رجلاً مقيّداً! - اعترض قلقت. - الأمير تيمرقوه حرّ في ما يفعل بهم متى وضعناهم أمامه.

دار الأمير مزدحمة. ولكنهم هدؤوا حين رأوا مجموعة الفرسان عائدة مع الضيوف، ونانخ سليماً، والفرسان الأشرار مقيدين. الأمير تيمرقوه راضٍ عن

الضيوف. وطلب من ابنته عُشُوناي إعداد المائدة. أُعجِبَ قلقت بالفتاة الطويلة السمراء الصبوح. وقال في نفسه: "وهذه جميلة، حلوة الطباع ولكن نشاطها أكثر مما ينبغي. كأنها تستشف ما في داخلك. ميسور أنعم منها. وأقرب إلى القلب، ولا تنباهي..." ثم نظر جهة حاتاي، ولفت نظره جهة الفتاة. فهزّ الشاب رأسه يعني أنه لا يريد لها.

وقف أولاد تيمرقوه خلفه، وكلّ أضخم من الآخر. وألقوا هم أيضاً نظرة رضا على قلقت. تساءل مامسرقوه في سرّه: "هل يمكن أن يغلبني إن تصارعنا، ليس أصغر مني إن لم يكن أكبر" يوافقه أكبر الإخوة دومانقوه بهزّ رأسه على موضوع الدولة. وبلغايرقوه لا يرى الزعيم الفلاحي لأول مرة ولكنه يصبر بانتظار ما سيقول والده. وتصعّح قلقت وجوه أولاد تيمرقوه غابطاً الأب عليهم. وتمثّلت له نكر وهو يعود بقلبه إليهم: "هل يمكن أن أرى نفسي يوماً محاطاً بأمثال هؤلاء الأبناء الرائعين؟"

- أعرِفَ الفائدة من أن تصبح دولة، وانتهيت من التفكير في المصاعب. وأعرِفَ أفضل منك الدم الذي أراقه القيصر إيوان¹ لتأسيس روسيا. كنت عنده، ورأيْتُ بعيني الكثير. استولى على السلطة عن طريق جيش كبير. ولم يرحم النبلاء والمتنفذين وقادة الجيش الأعداء. من أين آتي أنا بمثل هذا الجيش؟ ومن أين آتي بقدرات إيوان؟ أحاول تأديب أولاد الأمير قايتقوه بجيش روسي فأعرض لانتقادات الأديغة في كل مكان. وهل تعتقد أنهم سيقفون إلى جانبي؟ لا يريدون الأمير شبق. وبقية الأسماء المعروفة مثلنا. أنا من رأي القائلين إننا لم ننضج بعد لنؤلف دولة. إن سألتني هل أستطيع حكم دولة فلن أرفض. أمور إمارتي هي أمور دولتي. لا أزوج بناي لحان أستراخان، ولقيصر روسيا، وخان النغوي من كرهني له. حميت الأديغة من مأس كثيرة بفضلهن. وتعلمت الأنظمة المختلفة في أكثر من دولة. ولكن من سيفهمون هذا ويقدرونه بين الأمراء وغيرهم قليلون. هل تقتل الجميع؟ إن تركنا القرى والأعراق دون أمراء نكون دفناً كل شرعتنا.

¹ النطق الأديغي لاسم إيفان.

- وإن احتلّتنا روسيا التي تتأملون مساندتها أنت والأمير شبق؟ هل تظن القيصر أفضل من سلطان تركيا وخان القرم؟ الناس يتحدثون عن اتفاق سرّي بين روسيا وتركيا تقاسمتا بمقتضاه بلادنا.

- تركيا لا يردعها شيء، ولكن لا أظن قيصر روسيا إبان الذي تعرفت عليه سيفعل بنا هذا. هؤلاء الأطف، وأبسط وأرحم.

عاد فقلت إلى طريق السفر متهدل الشارين، متأكداً من ريبته في الأمراء بعدما كانت مجرد ريبة في أنهم غير متحمسين لموضوع الدولة. وتذكر مرتاحاً سلوك الأمير تيمرقوه مع المجرمين، معتبراً إياه سلوكاً حكيماً؛ أطلقهم قائلاً لهم: "بلغوا الأمير أبشق أنني لن أراف بكم بعد الآن إن آلمتم ظفر أحد أفراد رعيتي. ثم تجدد غضبه: "إن وصلتم إلى هنا فأنا أكرر كلامي الأول: سنؤسس نحن الفلاحين وحدنا دولة. أو إن قطعتم أمني فسأعود إلى زوجتي اللطيفة الكلام، وليحدث لي ما يحدث لغيرنا" ثم سخر من نفسه: "وجدت ذريعة جيدة! إذن كل ما فعلت إلى الآن أتخلى عنه لأن الأمراء أطلقوا كلابهم الجرباء علي؟ ألسن تُسمع العالم وقع حوافر خيلك عبثاً؟.. يبدو أي أسد في البيت، جبان في الخارج" نسيت كلام والدنا: "تعرف رجولة الرجل متى انتزعت قبعته".

VI

ربما تكون مينسور هي من قيل لأجلها: "إن لم يبك القلب لم تبك العين". التهيّئ حباً لحاتاي الذي كان أمام عينيها دائماً منذ صارت صبية، فلما وجد حبّها تجاوباً طارت فرحاً وقد خيل إليها أن لا أسعد منها في العالم. ثم كسر والداها جناحيها وأطلقوها على الأرض فظنت أنها ستفجر حزناً. ذرفت الدمع بلا حدود سراً وعلناً. تحدثت إلى أمها وتوسلت، بل وهاجمتها ولكنها تبقى خائفة من الأب. إذا كان الخوف يمنع الإنسان من أن يفعل ما بمقدوره فإنه متى تشجّع في لحظة ضيق أكسبه الخوف صلابة وجرأة. مينسور التي غرقت في نحر الحب لم يكن من توافق بين جسدها وعقلها. كانت رجلاها تنفذان أوامر قلبها. ثم عادت وفكرت في نفسها فلم تُطفئ الحب الذي نما في

صدرها وإن لم تتجاوز والديها. صبرت، وبدأت تبحث عن اليوم الذي سيتحد فيه القلبان العاشقان.

سألت مينسور نفسها: "إذا كان الصفصاف الغارق في الماء لا يتعفن فلماذا أفسد الحب الذي في القلب بالدمع؟" ولكنها لم تنصح نفسها هذه المرة بل وجهت ألمها وحبها لأخيها كتناق الذي رفضته بنت الجيران. لو حدث لغيره مثلها لاعتبرته أمراً عادياً وتجاوزته. والآن كيف لا تسخط لما فعلته داريه بأخيها؟ حقاً نشأت مينسور وداريه جيراناً، وربيتا معاً، ولكن وقف بينهما الآن لابس قبعة، وصدم إحداها بالأخرى، ثم صالحهما!.. وما إن صفا الجو بينهما حتى دخل كتناق في الموضوع فجأة. وإذا كان حبه غير المنتظر أطفئ بماء الجليد فأراح أفراد أسرة الأمير فما ثقل عليهم، وعدّوه إهانة، هو أن الرفض لم يأت من الشاب. وإذا لم يتكلم أفراد الجارين معاً فكل أفراد أسرة الأمير يحملون الشعور بالإهانة. قلقنت ونكر فرحان إذ صحت داريه وأزاحت الحب اليأس، وأحبت واحداً من طينتها.

ومينسور هي أول من عانت من الإهانة وحملت نفسها مسؤولية ما حدث. وليس السبب محاولة داريه الدخول بينها وبين حاتاي بل لأن الاثنين وقعتا في غربال واحد فوجب أن تبقى هي وتنفذ الأخرى من ثقب الغربال. وهذا موقف لا تستطيع أن تغيّر فيه شيئاً، وهو الموقف الذي يُجَيِّل إليك الحبّ حلوّاً ومُرّاً. وهو السبب في تسميته من الكثيرين الذين عانوا منه بالحِصّة التي لم تقسّم. لا يمكن القول إن مينسور لم تجرب حلاوة الحب ومرارته. وربما هذا هو السبب في أنها ظلت طوال الشهر الماضي تود أن تكلم أخاها الأكبر، وتشفق عليه لأنها لا تجد الوسيلة. تعرف بم تنصحه وعلام تلومه، ولكن كيف تكلم الأكبر منك في موضوع الحب؟ ليس بين مينسور وكتناق إلا سستان، ولكنه عمر محترم في قانون التراتب العمري. ثم إن كلا تعرف إن كان لكلامك قيمة، أم سيسخرون منك وأنت لابسة غطاء، ومحدودة التجربة.

"أخشى أن أكون السبب في رفض داريه لأخي. - قالت مينسور عاتبة على نفسها. قارنث عن غير قصد بين الأمراء والفلاحين. من أجل هذا قيل: "فكّر ثم تكلم، وافحص مكان جلوسك قبل أن تجلس". قلث ما جاء على رأس

لساني وكأني لا أعرف أن داريه شرسة كقنفذة صغيرة، فدفعتها إلى هذا الموقف العنيف. هي وأخوها من العامة المعندين. لا يقبلان استصغارهما، وأنا لم أكن أنوي مثل هذا. بالغتُ في ردِّ فعلي بسبب حيي لأخي وإشفاقي عليه. ولو كنت أكبر منه عمراً لنصحته. — تنهدت مينسور إذ تذكرت أملها المنتظر في حاتاي. كان غيابه عنها يجعل شهرها سنة، وفي هذه المرة كانت أحرص على الترويح عن أخيها. — الحق أنه لم يتوجه إليها بكلمة حب، ولم تقل داريه شيئاً ذا بال، وإن لم يتبادلا نظرات مودة فإنهما لم يتبادلا عبارات حب حتى مرة واحدة. هذا ما قالته لي نكر. ولكن الحب والبغض يبدآن من النظرة كما تقول أمي. كان أحدهما جرفه الحب والأخرى تنظر إليه نظرة عداء ساخرة فانخدع...

نفضت مينسور وبدأت بالتطريز، واستأنفت أفكارها: "فرحتُ حين تزوجت داريه ولكنها أحرزت أخي. قالت أمي: لو تزوجتُ من حاتاي لكان أفضل. ولما عاد والدي لم يلاحظ غيري ارتياحهما واستياءهما معاً. لو حدث ما تمتَّت أمي لاعتبرا الأمر بسيطاً كما لو دُبح أرنبان، ما كانا ليهتما بانتهاء حياتي بعدها، ولا بالإهانة التي لحقت بكتاق. أنا نادمة على ما قلت لداريه ولكن انظر إلى ما ترتب على كلام هذه المخلوقة التافهة: أهانت كتاق، وأثارت احتجاج والدي، وأشعرت الأسرة كلها بالإهانة. أنا لا أعرف كيف أؤمن شخصي، غفرت لها حين نازعتني على حاتاي مثل كلب الدار الضخم. ونصحتها، ولاطفتها. كان توسُّط نكر بيننا في مكانه. أأكون عدم تنازلي لها عن حاتاي السبب في إيقاعها بكتاق؟ لا يؤاخذني أحدٌ على هذا. ما كنت لأقضي على حظي بنفسي..."

غلب حب مينسور على أفكارها نحو أخيها. حين طفا حاتاي على سطح الذاكرة بكل جماله ورشاقته، وضعت تطريزها جانباً، ودعت إلى ربِّها أن يبعد عنهما أولاد الحرام. وابتسمت لما تذكرت الأمير الشاب القادم من الناختووي ورفيقه. ليس بسبب ما قالوا لها وقالت لهم. كان الثلاثة محمَّرين كأن النار اشتعلت فيهم. وكان المضحك هو تعليق أخيها الأصغر قامبولات حين انصرف الضيوف: "من حظنا أنك لم تحمري مع هؤلاء الثلاثة القبيحين" ولكن

والدي يعجبهما الشُّقْرُ يا أخي... " لا تغتَرّ بما يقولان، كتناق كان له الرأي نفسه قبل أيام... "

نُحِضت مِينسور بسبب المرح المفاجئ الذي دبّ في قلبها. ووقفت إلى النافذة مع تطريزها. كتناق تحت الشجرة مشغولاً بالسروج. " صار أخي مثل والدي وأفمق. ما يتقنه لا يسمح لأحد أن يفعله عنه. الحدادة وحدها هي التي لا تألفها يده. لا ينقصه شيء من طيبة وجمال، بل لو كان مثله سَيَتَزَوَّجك لوجب أن تُهرعي إليه. وكيف تُفهم الفتاة الفلاحة هذه الفكرة؟ هم اعتادوا على العمل فلا يعرفون إن كانت هناك عيشة أخرى... "

لا بد أن كتناق شعر بتحديث مِينسور إليه بمودة. فقابلها بضحكة لطيفة. ثم تابع عمله. كان كتناق بعيداً عن الحب الذي تعيشه أخته. أثارت رحلته إلى المخوش برفقة والده وعدد من الحراس، ولقاؤه بونتغ، والحديث الدائر بينهما، بعض الشكوك فظل يعود من وقت إلى آخر إلى الموضوع، قال كتناق لنفسه معتداً بوالده: " لا ينسى والدنا نصائح جدّنا الذي كان يردد: " عليك أن تفني بوعدك لمن أطعمته، كبيراً كان أم صغيراً... " لا ينسى أنه وعد بتكريم وبتغ الأعرج. فحمل إليه حصاناً بسرجه. لم ألاحظ أن وبتغ فرح كثيراً بالهدية فلا يبدّل حصانه بغيره. ولما أبلغه برضاه عنه يوم أثار الفلاحون ضجة على باب داره أجاب وبتغ بأن هذا ليس مهماً جداً، وقد استضفتني مكافأة. ولما قال والدي له: " وفي الشأن الخاص بيننا لا تحمل عليّ حقداً ولا تعتب عليّ، والسماء شاهدي على أيّ لم أضمر شراً لك وللشخص الآخر، وأظنك عرفت من المسؤول، ونحن لا نعرف بعضنا اليوم فحسب وأعرف إنسانيتك وصدقك... " أجابه عابساً: " يا أمير، لا تدعنا نتكلم في هذه الأمور بحضور الأمير الشاب " وجزم: - وأنا أعرف ما تريد، وأقدّر. وأعرف أن أمثال الأميرين تاخ وفواخ لن ينبحا عليك كالكلاب، الأفضل أن نتكلم في مجريات نشاط قلقت. سمعتُ أن الأمراء لم يرحبوا بالفكرة " أجاب والدي: " هذا صحيح يا وبتغ، أنا والأمير أفمق والأمير جامبج وبضعة أمراء آخرين هم من يؤيدونه. والآخرين يخشون من فقدان إمرتهم وماشيتهم " أسفّت لأن والدنا قال ما ليس في قلبه. لا أفهم من يقصد بقوله: " أنت والآخر ". وأنا لم أجد من

اللائق أن أسأله. لا أعرف ماذا فعل أو علام حرّض على فعله. ولكن بدت عليه محاولته تبرئة نفسه...

وضعت مينسور التطريز جانباً وخرجت من الغرفة، ودنت من كتاف صامته فأجفلته قليلاً، وقطعت أفكاره.

- ماذا يا أختي؟ هل أخرجك النهار الحارّ من الغرفة؟

- النهار دافئ والجو جميل، - أجابت بتهذيب.

- اجلسي إذن، لا تقفي!

جلست مينسور على المقعد الذي جلبه الخادم. لم تر في وجه أخيها الحزن الذي يستولي عليها هي، فسألته معجبة بمهارته في معالجة الجلد، حريصة عليه:

- ألا يمكن أن يقوم سائس حصانك بهذا، لا أنت؟

- ليس سائس حصاني عاجزاً عن هذا. ولكن ما تفعله بيدك يُريحك. ويُبعد عنك التفكير.

- هل يقلقك سفركم غداً؟

- لو كنا سنتوتر كلما سافرنا، - نظر كتاف إلى أخته بحنان، وابتسم لها، - لتقطعت قلوبنا يا أختي الحساسة!

- من غيري يقلق لأجلك إذن؟

أجاب كتاف بسرعة على السؤال الخالي من التصنع:

- ما كانت مشكلة لو كنت وحدك؟ - كل أهل الدار يتابعونني منذ تزوجت داريه. ويحرصون عليّ، ويتعرفون على حالي.

- وما شأنك أنت بزواج داريه؟ ربما يتصورون أنك كنت تغازل بنت الجيران، وأنما أهانتك برفضها.

- ما أحسن ما أفهمتي يا أختي ما لم أستطع فهمه إلى الآن... - غرز كتاف المخرز في الشجرة ضاحكاً. وضحك من أعماقه. - لم أزر داريه وأحادثها مرة أو مرتين فحسب، ولكن لم يخطر لي ما شكّوا فيه من ناحيتي، كانت أسئلة داريه عن شيء آخر.

- وماذا تعرف حتى تسأل عنه؟ - ارتفع صوت مينسور دليلاً على عدم رضاها عما سمعت.

- لم تقل ما يعيب، كانت تسأل عن روسيا حيث أعيش. عن حياتهم، عن طعامهم، عن لباسهم، مستغربة ما تسمع. وهذا هو السبب في زيارتي لها مرة بلباسي العسكري الروسي.

- هذا هو؟! - نظرت مينسور إلى أخيها نظرة شك خبيثة.

- نعم، نعم. ليس الأمر كما تظنون أنتم. داريه ذكية تنتبه إلى أمور كثيرة، وفيها رحمة. لا تعني عليها يا مينسور. لم تكتم عني منافستها لك على حاتاي وزواجها برضاها من تمتج.

- لا أعتب على داريه، نشيطة ونبیهة، لیسعدها الله مع أسرته الجديدة، ولكن لن أنسى ما حييت ما جرعتني من عذاب... ولولا نكر لتبادلنا إهانات شديدة.

- لو فعلت أختي بنت أمير الجانيه الكبير مثل هذا من أجل لابس قبعة لما رضيت لها. - قال كتاق لا تعرف جدّه من هزله، ثم تراجع حين لاحظ شحوب وجه أخته: - لا، لا يا أختي، امزح معك فحسب ولم أقصد شيئاً. إذن سأطلب منك أمراً إن كنت ستطيعيني: لا تردّي على أحد مهما قال لك، أطيعي قلبك وكفى!

- هذا خارج قدرتي... - قالت مينسور تتصبر بصعوبة.

- ولماذا؟

- أتجاوز كونك أكبر مني. - فهم كتاق أن زواج أخته وهو عازب لا يتفق مع تقاليد الأديغة فحسم الأمر: - أنت فتاة وهو أوان زواجك. لو تصرف معي أخي الأصغر قامبولات هكذا لما قبلت بالتأكد. ثقي بي في هذا. لن أكون وحدي، تكلمنا أنا وأفمق في هذا.

- شكراً يا كتاق. - نهضت مينسور لا تطيق صبراً على ما يغتلي في صدرها، - لا داعي للعجلة إذا كنتم ساندتماني، عمنا وأنت، على هذا. وأمي تتظاهر بالاحتجاج ولكنها تبقى أُمي. والدنا هو العقدة. لا يعدّ حاتاي سليل أسرة أمراء أخرى، بل وُلد معنا...

- حسنٌ إن كان والدنا يعدّه هكذا، - ابتسم كتاق، - نأخذ صهرًا، وقریبًا وأخًا.

حين فارقت مينسور أخاها مع انتعاش قلبها وانقباضه توجهت بقلبها نحو نكر ولكنها توجهت إلى غرفتها لا تجد حجة لزيارة جارقتها، وفي هذه الأثناء نادتها أمها:

- يا مينسور، يا بنتي، تعالي لحظة، لا أجد كُشتباني الفضي، كأنه سُرق.
بحثت مينسور في الصندوق الذي تُحفظ فيه عادة خيوط الذهب والفضة وما شابهها، وبحثت تحت قطعة القماش في حوضن أمها. وفي الوسادة الصغيرة حيث تُغرز الإبر، وأخيراً صرخت مما رأت:

- ما الذي في إصبعك يا أمي؟!

- حقاً؟ هذا هو. - خجلت زهرة، - ما تحرص عليه يظل قلبك مشغولاً عليه دائماً. - هل تعرفين حكاية هذا الكشتبان يا بنتي؟
تظاهرت مينسور بعدم المعرفة مراعاة لشعور أمها وإن كانت سمعت القصة مئة مرة. وقالت ما تريد هي وإن كانت تعرف مصدره:
- ربما جاء من القرم.

- لا يا بنتي، هذا من عمرك. جاءني به والدك من إستانبول سنة ولادتك. زاد عمره الآن على اثنتين وعشرين سنة. وهذا سبب حرصي عليه. متى تزوجت فهذه هي الذكرى الوحيدة التي ستبقى لي. ومتى أعادوه إليك يوماً ما تروين أنت الحكاية قائلة: كان لأمي يوماً ما...

- يا أمي، تهاوى قلب مينسور لا تعرف ما يحدث لها.

- نعم يا بنتي، أحبك وإن لم تسمعي كلامي... أنت الوحيدة صاحبة اليد الناعمة الأخيرة علي، والوحيدة التي ستبكينني. ولداي مخلصان لي أيضاً ولكن هل يُقَارَن الرجل بالمرأة؟! - سألت زهرة بعدما جلستا مدة تتعانقان: - ما أجمل جلستكما أنت وأخوك الأكبر تحت الشجرة! فيم تحدثتما طوال هذه المدة؟ ربما يشعر كتناق بالإهانة مما جرى له؟!

- إن كانت داريه من تقصدين يا أمي، - ابتعدت الفتاة بلطف عن أمها وتأملت عينيها، - لم يكن بينهما ما كان في أذهانكم.

- هل سألته أم أخبرك من نفسه؟ - بدا على صوت الأم ارتياحها لما سمعت.

- تضافرتم كلكم أسرة الأمير، وشكّكتم في حبه لداريه فصارحني من نفسه.

- نعم يا بنتي هذا ما حدث، نحن نبالغ في سلوكنا... لماذا لا يفكر في الزواج؟ ليتته لا يفكر في واحدة من الروسيات حيث يعيش! ألم تتطرقوا إلى مثل هذا الموضوع؟ هل تعرف ما أريد تبليغه لأخيك باسمي، لا باسم والدك؟ أفهميه أي لن أسمح له بالعودة إلى روسيا إلا بعد أن يتزوج من فتاة أديغة!
- سأخبره، - قالت مينسور دون مبالاة، ثم أضافت: - ولكن لا أعرف لماذا ليس باسم والدنا أيضاً.
- لا تظني أي لا أثق بوالدك يا بنتي. ولكن ألا تعرفين طبيعة جنس الرجال ؛ أخشى أن يتحالفوا أخيراً. والحقيقة أننا، النساء، لسنا أحسن منهم... ليت فتاة من القبرتاي سكنت قلبه! يقال إن الابنة الصغرى للأمير تيمرقوه جميلة وحلوة الطباع...
- أليست القبرتاي بعيدة فنأتي منها بعروس يا أمي؟ - ابتسمت مينسور وهي تتذكر ما كانوا يرفضونه منها.
- دغلِك من هذا! إن كانت لك مصلحة في الأمر فلا مشكلة في القريب أو البعيد. ما كنت أريد أن أصارحك ولكنك تتملقيني: ما الفرق بين القبرتاي والمخوش؟.. هيا زوري نكر وتسلي قليلاً. قلقت أيضاً كان في تلك الناحية. عاد قبل عدة أيام ولكنه لم يضع قدمه في دار الإمارة. ولم يرفع رأسه فيلقي نظرة علينا. قولي: يمّ أسأنا إليه؟ يتكبر علينا... كلهم يعتبروننا أغنياء، كباراً، شوكة في عيونهم...
- لو أطعني ما سمحت لك بهذا الكلام يا أمي، - قاطعت مينسور أمها بلغة التودد والعتاب، - لا قلقت ولا نكر يضمر لنا شراً. ولا يعرفان الغيرة والغيبة. ليسوا فقراء وإن لم يكونوا أغنياء. يجدون ما يأكلون ويلبسون، قانعون بحياتهم.
- لماذا لا يهدأ قلقت إذن؟ - رفعت الأم صوتها.
- ليس من أجل المال. يودّ جمع الأديغة في دولة واحدة.
- أهذه مهمة قلقت في حضور والدك؟
- أليس هو الآخر إنساناً؟ له رأس وعقل، تحركه قضية الأديغة.
- والدّيك عنده صوت، ولكنه لا يصبح ديكاً رومياً. ومن يقبل بالفلاح أميراً؟
- قلقت يبحث عن أمير ليكون سلطاناً للدولة.

- ومن المرشح؟

- والدنا قبل الجميع، وإلا تيمرقوه.

- ولماذا لا يكون والدك؟ ليس في إقليم الأديغة رجل أعقل من والدك. لان صوت زهرة، ونظرت إلى ابنتها بوذ، - لستُ مثلك يا بنتي أعلق بأول شاب يمر في حياتي، وأذرف الدمع عليه. خطبني أولاد الأمراء قبل أن يظهر لي والدك. فأنسائي الجميع من لقاء واحد. فهمتُ أنه قدري.

- هذا من حسن حظنا يا نان، - توددت مينسور إلى والدتها والفرح يشع من عينيها. - لو تزوجت من غيره لما شهدنا النور، كتناق وقامبولات وأنا. أما موضوع الدموع فأنت تريني لم أذرف دمعة. لا تبكي العين إن لم يبك القلب يا نان.

- كفى، ستقولين لي ما ينفع وما لا ينفع لأني فتحت لك قلبي. منعت زهرة ابنتها من التمادي في الصراحة.

VII

انطلق شبق وصحبه قبل طلوع الفجر. لا يمكن التنبؤ بحال النهار الذي بدأ صامتاً أصم. في السماء سحب داكنة متفرقة، ومن مدة لأخرى تميل ألوان أطرافها إلى الأحمر الفاتح. ولا يُسمع في ظاهر القرية إلا نخير الخيل ووقع حوافرها. والحشيش الذي لم يبق من عمره الكثير يصمت تحت قبة السماء خائفاً. والحشيش الجديد المتفرع عن القديم يراقب وينصت واقفاً على رؤوس أصابعه. والغربان تنتظر موعدها بألحان متعددة.

كان ما يفكر فيه الأمير شبق، وما ينتظره، وما يفكر فيه وهو على طريق القبرتاي مستقبلاً اليوم الخريفي، شيئاً آخر. وليس السبب أنه ليس مرتاحاً في إمارته الجانيه، ولا أن الإمارة غير مستقرة. وخلال السنتين أو الثلاث الماضية، أي منذ استقدم الجيش الروسي، هدأت الأمور عن ذي قبل من كل النواحي. ولكنه لا يحفل أنه أمان مؤقت، وأن الشرّ على الأبواب، والقلق يكمن في الإمارة. وهو يحتفظ بهذا الشعور لنفسه لا يُفصح عنه لأحد. نصح نفسه قائلاً: "أفضل لك أن تحلّ ما عقدته أنت، كاسراً أظافرك من أن تدع غيرك يفعل"

الاتفاق الروسي - التركي السري هو ما دفع شبق إلى طريق السفر. وإلى جانبه الأخبار المشؤومة عن حملة الاعتقالات والإعدامات داخل روسيا التي كانت تصل إليه وإلى فيشنيفسكي. ومع كل خبر يفكر في ولده كتناق المرافق له، وفي بجمت الذي دفنه في ليفونيا، والمحاربين الأديغة الآخرين معه. وينتصب أمام عينيه الأمير دودارقوه المقيم في موسكو، والابن الأصغر لتيمرقوه سلطان، وشيبوتيف، وبليشيف، وبوغوشاروف، وغيرهم ممن تعرف عليهم في روسيا.

حدث شبق نفسه: "القيصر الروسي البعيد، المفترض أنه وقف إلى جانبنا يُقلِّقنا أكثر بكثير من سلطان تركيا القريب منا براً وبحراً، ومن خان القرم. أظني اصطدمتُ بنفسي بالقول الدارج: جار طيب خير من أهل بعيدين. ولكن هل كان الترك والقرم جيراناً طيبين لنا؟ نسيت بسرعة ما كانوا يفعلون بنا لأنهم سكتوا قليلاً الآن. أيُّ مشقة متى مضى عليها الزمن عاد القلب إلى طبيعته. ولكن لو تظاهرت بجهل المؤامرة التي تحيكها الدولتان من ورائنا لجعلت من نفسي أصمّ أعمى. ومع أن الدولتين، قريبتنا تركيا، والبعيدة روسيا، كتمتا عني الاتفاق فلم يبق منه ما لم أعرفه. وفهمت أن صمت خان القرم ليس بلا سبب... - تألم قلب شبق عارفاً بما يجري له ولكنه ابتسم: - يبدو أن الدول الثلاث تركتني وحيداً في الساحة. جرى لي ما كنت أتوحيس منه تماماً، وأنا أستحقه. هذا ما سيجري لك حين تتردد بين موضع وموضع. ولكن هذا لا يعني أن أطرق برأسي وأتقاعد عن العمل. سأسمع ما يقول تيمرقوه، وأقابل الأمير قايتقوه، وغيرهما. وأستشير في طريق عودتي من القبرتاي أمراء البسلني والأباطة والمخوش ورجالات الأبراخ وأمراء البجدوغ وغيرهم. وأتصرف تبعاً لردود أفعالهم. وفي حال الضرورة ليست تركيا أصغر من روسيا التي خدعتنا، فأتحالف معها كما فعل خان القرم. نحن جيران ومن دين واحد..."

يبدأ الأفق الأحمر يبدد السحب من جهة الشرق. ويدرج الهواء على الأرض التي لم تكتفِ منه. ويرتفع شدوُ الطيور. وتتهامس أشجار الطريق بأوراقها المتعددة الألوان. والقمم البيضاء التي تظهر من بعيد تحتفل بالنهار الوليد. الوحيد الذي ليس في قلبه أيُّ فرح هو شبق. "إذا حدث أن لم تنجح مساعيها مع روسيا ولم تفهمنا تركيا فملجؤنا الوحيد هو قلقك. لم نكن نعترف أنه كان

يتصرف بمخطط وكلام منسجم، ولكن أظن أن أموره ستتحسن في إقليم الأديغة كله. المأساة هي أننا نتفق قولاً ونفتق قلوبنا. الصراحة أننا نحن، الأمراء، المسؤولون عن كل مصائب الأديغة. لا يتهمننا العامة بما لا نستحق. لماذا بلاد الأديغة مقسمة إلى إمارات؟ من المستفيد من هذه الحالة؟ " - وفي الحال لم يُطَق كَتاق إلا أن يعبر عما يُقلقه:

- صلاة الصبح تفوت يا والدنا!

- والله وأنا لم أنس، أبحث عن مكان مناسب. وأنت متى موعد صلاتك؟

- صلاتي لم تحن بعد. ولكن أستطيع الابتعاد عنكم قليلاً والدعاء لنفسي.

- حين انتهت الأديغة المسلمون وكتاق المسيحي من صلواتهم استأنفوا طريقهم.

تنهد الأمير شبق بعدما قطعوا مسافة، وقال لكتاق:

- أسرع بحصانك... - وأشار للحراس وراءه بالتأخر - حين ابتعد الفارسان وعادا إلى سيرهما المعتاد تابع شبق كلامه: - لو كانت الرياح تجري كما تريد السفن تماماً يا أمير...

كان كتاق ينتظر أن يكمل والده كلامه ولكن كان لسانه انعقد. النهار الجديد يثير أفكاراً متصارعة في الصدر. فإذا أضيف إليها كلام الأب غير المكتمل وقع في هم لا يعرف سببه. ويتذكر بحذر:

- ما الذي لا تستطيع قوله تات؟

- لو لم يكن إلا ما لا أستطيع قوله لهان الأمر يا ولدي، - أجاب شبق متمهلاً، - لماذا أصدع رأسك؟ ألا يكفي رأسي؟ - أفكر في نفسي فأجد أنني ارتكبت، سرّاً وعلناً، في السنوات القليلة الماضية، ذنباً لن يغفرها الله لي.

- لا ألح على ما لا تستطيع البوح به يا تات، ولكن أطلعني على ما ليس سرّاً، لا أعرف أنك فعلت ما لا يجوز. أياكون إخفاك في حل موضوع الأديغة؟

- إن لم تتحقق لي قضايا الأديغة... - لم يدع شبق ابنه ينهي كلامه، - من أين تعرف يا أمير؟! - وعاد إلى وعيه سريعاً: - لا تحزن يا ولدي، القلق يُنطقك بكل شيء. ولكنها ليست مسائل شخصية... كان علينا الكلام عليها قبل اليوم، بل يوم عودتنا من روسيا.

- أنا أنتظر هذا منذ زمن طويل يا والدنا، بدءاً من سلوكنا طريق الأديغة.

- لماذا تنتظري إذن حتى أنفجر؟ لا، لا أدِينك. له مكان بين الأحمال الأخرى في رقبتي. أظنك إذن تعرف أن القيصر خدعني. متى عرفت؟ هل من وقت قريب؟

- قبل أن أتوجه إلى حرب ليفونيا.

- حقاً، - صاح شبق بصوت أصم: - كيف حاربت لأجل القيصر وأنت تعرف خيانتة لنا؟

- وأنت يا والدنا؟ - كيف تبعني؟

- خدعني القيصر. قال لي وهو يحدّق في عيني: لا تماطل في الكلام، لا نهمل أنكمما، خان القرم وأنت، اجتمعتما سرّاً، ولكن لن ندع هذا يؤثر في صداقتنا والثقة بيننا. فاستطاع أن يحرفني عن الموضوع. ولكن كيف كنت أترك لو قال لي: انتهت علاقتنا هنا؟ جئتُ إلى حيث تحارب. كنت أنوي مصارحته لما عدنا من حرب ليفون لولا أن زوجته توفيت. ألا يقولون: راكب الجمل يعضه الكلب، كذلك إذا استحال أمرٌ تهيّأت الأسباب. كل العوامل سارت ضدنا.

- كأنك يا والدي لا تصدق خبر روسيا وتركيا المشؤوم.

- لو لم يحدث لكان أفضل... ولكن ما العمل؟ الخاطف له أمل، والمخطوف أيضاً. هذا عالمنا. إذا أردت الحقيقة فما يحزنني هو أنهم يسرقون مني أمني الأديغي، ولا أحد يفهمني.

- أنا يا تات فهمتُ منذ زمن طويل محتواه، منذ كنا على الطريق إلى موسكو، وحين قابلنا القيصر، وحين تركتني عندهم. لم تقصّر في ما تستطيع به خدمة الأديغة. ما فعلته، وخداعهم لك، واضح لأصدقائك ولأعدائك، فلا تحمِل نفسك المسؤولية. وما دفعنا إلى طريقنا هذا هو مشاعرك القومية ولهفتك. ألسنت من قال: " الكذب ينهار ولو نصبته أمامك، والصدق ينهض من جديد وإن صرعته؟ "

- حسنٌ أنك حفظت هذا القول الصائب، - ظهر ارتياح شبق بما سمع، - ولكنني لستُ مصدره. هذا قول مأثور للأديغة الذين نتابع موضوعهم. ويسرني أن فيك أصل هذا الصدق، واستفادتك منه. وإذا كان ما يُقَي على الشجرة واقفة، وعلى البيت منتصباً هو الجذور فما يقي على حياة الأعراق هو

علاقات الاحترام بين الكبار والصغار. الكبار فارقوا الحياة وهم يتمسكون بذكائهم، وحيويتهم، يفقدونهما أحياناً ثم يلتقطونهما. ولكن غربال التاريخ ينفى السيئات ويبقي على الحسنات.

ظل شبق يلوم نفسه حتى قضم شفثيه، ينظر جزافاً دون أن تلتقط عيناه شيئاً. جرّ أفكاره مرة أخرى وهو في قمة اليأس إلى قلقت: " حقاً ليس من طبيعتي التكبر بسبب سلالاتي الأميرية، ولكن من يحيطون بي يُبرزونني دائماً. ويحرصون عليّ، ويسايرونني. إن لم تعرف من نفسك وضّعت ظننتها سليله الشمس والقمر كما يفعل أغلب الأمراء والنبلاء. الحقيقة كلنا، أمراء ونبلاء وأحراراً وعبيداً، خلقنا من التراب. ولكن الله زرع فينا عقولاً وحظوظاً متفاوتة. الفلاح قلقت عنده من العقل ما تحترمه وإن كنت أميراً أو سلطاناً. وعنده قدرة على استشفاف الزمن. وتصل بصيرته إلى التنبؤ بما يمكن أن يحدث لنا. ومع ذلك عاملته بكثير من المداراة مراعيّاً جوارنا، ولم يخطر لي أن أساويه بنفسي. وغلبت عدم رفع شأن الشباب الفلاحين على توعية الأمراء. من يقدّم لأسرتك ما لا تقدمه لها؟ وكذلك تأسيس الدولة. لا نحتاج إلى زعيم غريب لتأسيس دولة، وإن بقينا موزعين على الأعراق فقد حققنا لهم ما يريدون. وها هما الدولتان المجاورتان اتفقتا وحولتانا إلى قطيع من الغنم تتحكمان به كما تريدان. لا تعترفان بنا عرقاً مستقلاً ونحن لسنا أدنى منهم مرتبة. تطلبان شفاهاً بالعسل وتطعنان ظهورنا بالسيف. والأسوأ من هذا أن تسلّم مقبض السيف لهما كما فعلتُ وفعل الأمير تيموقه فتستحقّ مهما فعلوا بك..."

أجفل الطائر الخارج فجأة من بين الأشجار خيول المجموعة. هدأ الحصان وعاد إلى خواتمه: " يا قلقت يا جاري الذكي، لم أسمع نصائحك ولكن تبين أن نظرك أبعد من نظري. العقل الذي قاد قلقت إلى الطريق الصحيح هو ما اكتسبه من الناس الضعفاء. وأنا لم أعرف قيمة هذا في وقته. وبقيت أعتقد أن لا أحد عنده مثلي آرائي ففعلت بنفسي ما فعلت الفأرة بنفسها حين عجزت عن الخروج من الثقب فعلمت يقطينة بذنبها. فجئت بنفسي بالجيش الروسي إلى أرضنا. والآن إن لم تنهَ اتفاقيات الروس والترك السرية والعلنية رأيت ما يفعلون بك. لن يعتبروك حتى كعصفور ضئيل. كان عليّ أن أسمعك يا قلقت.

كان علي ألا أدخر جهداً أو دماً أو مالاً. ولو ألفتُ جيشاً وإن غير كبير لطوّعتُ، لا أقول القبرتاي، بل الحكوف والبجدوغ وغيرهم. ولكن الأديغي يأتي عقله متأخراً..."

كلما التفت كتناق إلى والده لاحظ همومه من وجهه المتغضن، ولكنه تحاشى أن يفتح معه حديثاً تغلبه فيه حماسة الشباب. ولا شك أن له عتياً عليه رغم احترامه وحبه له: "أظن والدي لا يزال يراني صغيراً. جلس إليّ قلقاً مراراً لدى عودتي من روسيا يطرح عليّ أسئلة عن القيصر والدولة والنظام... وكل ما يحتاج إليه تأسيس الدولة. كأن والدي يظنني لم أتعلم شيئاً من إقامتي في روسيا فلم يسألني عن شيء أكثر من: "هل تستقر بينهم، هل تتعايش معهم؟" لا يمكن معرفة شيء من المجتمع ما لم تنفذ إلى أعماقه. ألا يجب أن يقتنع والدي بأنني لم أعد طفلاً! لا يُطلعنا، أعمق وأنا، على أكثر نواياه. ومن عنده يمكن أن يتألم له، وينصحه غيرنا؟ يشرع أحياناً يكشف لي عن بعضها ثم يُحجم. إن كان يخشى عليّ لأني في الجيش الروسي فهو مخطئ. أنا عند الضرورة، لن أغفر لأحد متى رأيتهم يهينون قومي، لأني نشأت بقلب أديغي. لن أتحالف مع الروس أو الترك أو النغوي متجاوزاً والدنا..."

- ماذا يا ولدي ؛ هل هيمن عليك أيضاً التفكير؟ - أجفل السؤال المفاجئ كتناق. - من لا يفكر لا يعرف حلاوة الروح، ولا يحترم ما قال وما فعل. هذا ما طفا على سطح الذاكرة اللحظة: الآن فحسبُ فهمت ما كان يريد دولت - جري خانُ القرم قبل زيارتي لقيصر الروس: كان يريد حصة أكبر من أرضنا التي توازعوها سراً. ما يغنيظني هو اعتقاد النغوي والروس والترك أن علينا أن نعيش كما يريدون. لا يفهمون أنهم متى بدؤوا باحتلال إماراتنا فسيحمل كبارنا وصغارنا، رجالنا ونسائنا، السلاح. من اعتاد العيش حرّاً فلن تستطيع احتجازه في القفص.

- كان عليك يا والدنا التفكير في هذه المواجهات قبل وقت طويل. - نظر جدياً في وجه والده قائلاً في نفسه: كأنه اطلع على ما في نفسي، - تصاممت، أنت والأمراء الآخرون، عن مشروع الدولة الذي يدور به قلقك. ولم تسأل عن

الصعوبات والحروب التي مرت بها روسيا، ولا تزال. اطلعت، ليس على ما شهدته بعيني فحسب، بل على ما مضى منها أيضاً.

- غرّتي براءة قلوب الروس الذين عاشرتهم.

- لم تخطئ يا والدنا، هذا وضع الشعب الروسي الآن. ولكن زعماءه ونبلأه وقادته العسكريين، بمن فيهم القيصر، يتشاحنون، ويتقاتلون، ويشي بعضهم ببعض. حين تركتني بينهم فرحت في بادئ الأمر، واعتنقت دينهم بسهولة، ولكن مع الأيام، وأنا أرى مؤامراتهم وتنازعهم على المناصب، وتحولهم إلى دولة رغماً عن الملاكين والمتنفذين، بدأت مشاعري تنقلب عليهم...

- إهدأ، أنت تبالغ في كلامك، - لام شبق ابنه بصوت أصمّ. ونظر من طرف عينه خائفاً أن يكون الحراس يسمعون. - الحال كما تصفه أنت، ولكن لا تتوجه بمثل هذا الحديث إلى غيري. ولماذا نذهب بعيداً؟ ها هو القائد فيشنيفسكي كلما حادثته تفوّه رغماً عنه بما يشي بامتعاضه من القيصر. وأنا أتجاوز كلامه من أجلك.

- إن لم يكن سرّاً يا والدنا، ماذا قررت إذا بدأت الدولتان في تنفيذ الاتفاق السري بينهما؟

- لا شك في هذا، سأفترق عن القيصر الذي خدعني، لن يقف في طريقي أحد، ودون مراعاة لك. وإذا اقتضى الأمر اتجهت إلى نعوي القرم. هم جيراننا، ومن ديننا، وبينهم كثير من الأديغة.

- ولماذا تراعيني يا والدنا؟ - ابتسم كتناق قليلاً، - طريقك سيكون طريقي. لم يُخلق أحدٌ أبداً لك به.

- حياك الله يا ولدي. من يقف إلى جانبي إن لم تقف أنت! أخوك لا يزال صبيّاً.

- ومع ذلك تخفي عنا، أقمق وأنا، دائماً بعض الأسرار. - قال كتناق متظاهراً بالمزاح، ثم تضاحك بصوت مسموع.

- ليس عن سوء نية يا ولدي؛ لا أريد أن أشغل بالكما بما ليس ضرورياً. - ثم قال لنفسه معتداً بابنه: " عقله عميق، وتصل فطنته إلى أمور كثيرة خلافاً لما

أظن. يُقنعك ويدخل إلى أعماقك. هذا من فضل الله، لن يخذلني متى أخذ مكاني. سيرفع ذكري بين الناس..."

حثّ شبق حصانه مع انتشاء قلبه، وقلّده ابنه وحراسه. كل ما في الطبيعة يدعو للسعادة من أوراقٍ أشجارٍ متنوعة الألوان، إلى نسيمٍ رقيقٍ يعبث بالوجوه، وسماءٍ صافيةٍ تُظِلُّ أرضَ الخريف.

لمح كتاك قبل الجميع حين خرج الفرسان من الغابة، واجتازوا النهر الصغير، حشداً من الفرسان قليلاً على أن يكون جيشاً، كثيراً على أن يكون جمعاً. فقال لوالده:

- لا يعجبني جزئي هذا الجمع من الفرسان.
- أليسوا أديغة؟ - لجم شبق حصانه غيرَ قَلِقٍ. - سنعرف متى وصلوا نواياهم نحونا.

- وراء الأديغة فرسان روس! - صاح كتاك رافعاً جسده عن صهوة الحصان.
- لا تُشهِروا السلاح! - أمر شبق الفرسان، فإن اندفعوا نحوكم فلا تُحِمْوا!
توقف فرسان الطرفين اللذين لا يعرف أحدهما الآخر بفاصل خمسين خطوة تقريباً بينهما، وصاح الروسي الواقف على يمين الأديغي الجهم، من تحت راحة كفه التي اتخذها واقية شمس:

- هذا أنت يا كتاك؟! ماذا جاء بك إلى هنا؟ - قفز الشاب الأشقر الضخم من الحصان وأسرع إليه.

- وأنت في نواحينا يا غافريل؟ - وثب كتاك أيضاً واستقبل صديقه بالأحضان. - أقدم إليك والدي.

- إلى أين وجهتكم؟ - سأل غافريل بعدما تبادلوا التحية.

- نزور الأمير فابيتقوه. - أجاب شبق باختصار.

- يا أمير شبق، أعرفك من حلفائنا، وابنك معنا في الجيش. لماذا تزور عدوّ روسيا وعدو الأمير تيمرقوه؟ أليس الأفضل أن تتجه إلى صديقنا؟ - نظر غافريل بحدة إلى شبق.

- وسأزوره أيضاً. ولكن أريد قبله اكتساب وِدٍّ من ليس صديقنا. أليس الأفضل التفاهم بالكلام بدلاً من السلاح؟ - كَلَّم شبق غافريل بوجه طلق، وربت على كتفه. - وأنت ما رأيك؟

- هذا أفضل إن كان هناك مجال للتفاهم، لا شك في ذلك. سمع شبق لحظة افتراق الفرسان الرجل الأديغي الجهم الوجه يقول لكبير حراسه: "بلغ تحياتي لقلقت متى عدتم. لن أستطيع إيفاءه حقه من الشكر على ما فعل لأجلي..." فلم يستطع كبير أمراء الجانيه إلا أن يغمغم في سرّه: "هذا ما نسمعه أينما توجهنا. لا يذكرون اسمي ولا اسم أي أمير غيري. من لا يعمل الناس من تردد اسمه هو قلقت..."

دخل أولاد الأمير قايتقوه إلى المضافة ترحيباً بالضيوف. وتصافحوا فأشار إليهم والدهم أن يخرجوا، ولحقهم كتاك. ولما ساد الصمت الغرفة لمعت عينا العجوز اللتان ظن شبق أنهما انطفأتا. وقال وقد اكتسى وجهه النحيل بشيء من الحمرة:

- حسناً فعلتَ بزيارتك يا أمير. خفتُ أن أرحل عن الدنيا دون أن ألتقي بك. كنت أود معرفة سبب زيارتك لولا أن الضيف لا يُسأل قبل ثلاثة أيام. أنت وتيمرقوه من دين آخر. ونحن نتوجه إلى غيره.

- الله شاهدي يا أمير على أي مسلم. - وكيف تبقون على إسلامكم وقد دفعتم أولادكم إلى اعتناق المسيحية، والانضمام إلى الجيش الروسي؟

- لا أعرف ماذا قال تيمرقوه لابنه ولكن أحلف لك إن شئت على القرآن على أنني لم أعرف باعتناق ابني المسيحية إلا لاحقاً. والحقُّ أنني تأثرت جداً، وغضبتُ، ثم هدأت. ماذا بيدي؟ لم يستشري. قلّد من اختلط بهم.

- كيف لا يصبح واحداً ممن رميته بينهم!.. حتى الطفل الذي يرضع من كلبة يعتاد على النباح.

- والله تشعل النار فيّ يا قايتقوه! - ابتسم شبق فارحاً بصعوبة شفتيه اللتين زمّهما العار. - كنت توجهت إلى قيصر روسيا طلباً للعون حين أعيانا النغوي. وكانوا استبقوا الولد عربونَ وفاء، وعدت أنا وعيناي إلى الورا.

- أنت لم تعد شاباً يا شبق، عليك أن تعرف ما يستحق الذهاب وما لا يستحق. ونحن لسنا سعداء، ولكننا لا نستعير من أحد جيشه. أنت على الأقل لم يسمح الروس بحرب في بلادك الجانيه، في حين أطلق علينا مجنوننا جيش الفرسان وأحرق قرانا؛ أهاننا.

- تيمرقوه مخطئ في هذا.

- وأنت؟ ماذا تنوي أنت؟ ماذا إن تبينت صحة تقاسم الترك والروس أرضنا؟
- وضعنا سيكون مقبولاً، سنكون من حصة تركيا أو القرم. وأنتم إن وقعتم بيد روسيا فاعتبر تيمرقوه حقق مراده.

- لا تقلق من أجلنا يا أمير. إذا غفر لك النغوي والترك تحالفك مع الروس فستحل أمورنا على نحو ما...

كان شبق، وهم على المائدة، يريد أن يصرح برغبته في الاستدارة نحو القرم، ولكنه صمت خوفاً من أن يصل كلامه إلى تيمرقوه قبل أن يصل هو. ولم يملك، لحظة انصرافه، إلا أن يصرح بسبب زيارته:

- إذا كانوا قرروا تقاسمنا يا أمير، فماذا يفعلون بنا إذا تخلصنا من الروس والترك والنغوي واجتمعنا كل الأديغة على موقف واحد؟

- فات الأوان يا أمير! - تنهد الأمير فايتقوه وقال بصوت مرهق: - كان علينا هذا من زمان، ولكن لم يظهر بيننا قائد قادر عليه.

لم يُقدّر شبق أن يستقبله العجوز الذي إحدى رجله في القبر بهذه الخشونة. ولم يكن هو جاهزاً للهجوم، فتبددت الكلمات التي كان جهّزها. ولم يعد إلى حاله إلا قبيل الوصول إلى قرية تيمرقوه.

أخفى تيمرقوه معرفته بوصول شبق على غير الطريق الأصلي. فاستقبله بوجه خيّر، وأمر خدم الدار بالعناية به، وكانا يعرفان أن الابن الأصغر لتيمرقوه سلطان يخدم مع كتاك. ويعرف أحدهما الآخر فاحتفيا به جداً، واستضافوه في غرفة عُشُوناي وعَرَفوه عليها. واستقبلته بوجه طلق كأنها تعرفه طوال عمرها:

- لا بد أنك تعرف كيف تلعب الشطرنج إذ أنك تقيم في موسكو. دعنا نلعبها. وضعت الرقعة الملونة على المائدة.

- علمني شابٌ روسي بعض الشيء فحسبُ. - جلس كئاق خجلاً ليلعب، ومن حسن حظه أن مهارة الفتاة كانت محدودة، فتعادلاً. وانصرف الإخوة عنهما تبعاً فجلسا وحدهما مدة غير قليلة. ورغم غياب المغازلة عن الجلسة فقد أُعجب كئاق جداً بالفتاة.

لم يكن في الحديث بين الأميرين الكبيرين أيُّ مجاملة. وكلُّ يثق بالآخر أن الحديث لن يذهب بعيداً.

- يبدو من كلامك يا تيمرقوه أنك لن تتخلى عن روسيا مهما فعلت بنا. - قال شبق متألماً لأن مراده لا يتحقق.

- نعم يا شبق، أعرف أيّ لن أجد حليفاً أفضل من الروس. تجنبت شرَّ جيراننا النغوي بشق النفس عن طريق بناقي. ودون الروس لن نستطيع مجاهدة الفرس. وأنتم تفاهمو مع الترك أو النغوي، من تجاهون منهما. لا فائدة من محاولة بعث الأديغة التي تتحدث عنها. يتجمعون اليوم ويفترقون غداً؛ إسمعي أنا!

- هل ترى أن الأفضل التفاهم مع خان القرم قبل أن تتوتر الأجواء؟ - نطق شبق بصعوبة شاعراً بأن آماله تتبدد.

- لا أرى مخرجاً ولا مهرباً غيره. - أجاب تيمرقوه جاداً.

وكما يتلهف الناس لا يجدون معبراً للنهر الفاض، أمضى شبق ثلاثة أيام في مضافة تيمرقوه لم يترك باباً إلا طرقة مع المضيف دون جدوى.

وكان كئاق هذه المرة بعيداً عن مشكلات والده. يُحَيِّل إليه أن عُشُوناي بقامتها الطويلة وعينيها الصافيتين يمكن أن تفتح له قلبها.

وكان المخوش والبجدوغ والأبزاخ الذين مرّ بهم شبق في طريق العودة يجيبون الجواب نفسه: "وهل هذا ممكن؟ والله لن نقبل أن تتقاسمنا الدولتان الغريبتان" ولكنه عاد إلى إمارته الجانية غير واثق مما ستؤدي إليه تلك الكلمات العنيفة.

VIII

- جرى للأمير شبق اللعين ما يستحق في القبرتاي! - قال الأمير تاخ جزافاً قبل أن يستقر ضيفه على الكرسي، وقد ظهرت شماتته من ضحكته المتكسرة. ولكن السعال الذي هاجمه أنساه ما يريد قوله. ولما أعجزته النوبة خرج من

المضافة. ثم عاد بلون التراب. واعتذر: - ذهبت قبل أيام لعيادة الأمير فواخ فتعرضت في الطريق لبعض البرد.

لم يعد مامي معنيّاً بأيّ من الخبرين بل خاف على المضيف أن يحدث له مكروه. لا يذكر مامي مضيفه إلا مريضاً، ولكن لم يحدث أن ثقل عليه المرض منذ زمن طويل كما أرى الآن في لون عينيه، ونحوه. متى كانت آخر مرة؟ حين اجتمع الأمير شبق بالخان دولت - جري سراً. وصدف أن التقى به والسعال يكاد يقطع نفسه. ولكنها كانت المرة الأولى التي يرى الدم من فمه. فلام نفسه: "لولا الضرورة ما كان علينا اتخاذ هذا المريض مضيفاً!.."

عاد مامي بقلبه إلى البيت ولكنه كتم عواطفه معتبراً مهمته أهم من شعوره بالقرف مما يرى. قرر أن يعتذر عن الطعام إن أحضر إليه، ويسمع آخر أخبار لقاء الأميرين شبق وتيمرقوه، وينصرف. غير أن القدح الثاني من الباخسمة أنساه المرض المُعدي، وحيّل إليه أن الهيكل العظمي الجالس أمامه رجل موفور الصحة، طافح الوجه، طلق اللسان.

- والله يا تاخ الباخسمة دواء ممتاز، - حررت الأقداح المتتالية لسان مامي.
- أكثر من دواء، - قاطع تاخ مامي كمن يقول شيئاً مهماً. - تُحِينا، تنعش الروح متى ذقناها، في قلوبنا دائماً.

- لا أظنها في قلوب الجميع...

- أكيد، كثيرون لا يستعذبونها. - ردّ تاخ، ولكن يكفي أن تكون في قلوبهم. ليس كل حلٍ محبباً. - ابتسم تاخ معتداً بكلماته الجوفاء. وأكمل خائفاً من المقاطعة: - أسأل كثيراً دون أن أجد من يجيبني: هل أول من حضّر الباخسمة رجل أم امرأة؟ أشهد، كائناً من كان، أنه لم يُخطئ. وأنت، ما رأيك أنت؟..

"ما أنحس لساني! - خاطب مامي نفسه، - ما الدواء الذي وجدته في ما أثار ثرثرتك؟! تقتل هذا، وتجعل الثاني يتنكر لأسرته، والآخر... مثل الأمير تاخ يعيش عليها... وهل من المهم معرفة مبتكر الباخسمة؟ المهم عندنا هو النتيجة التي عاد بها الأمير شبق من القبرتاي، والتي قطع السعال خبرها. وما مرضُ صديقك فواخ حتى زرتة؟ - ابتسم مامي حين امتثل له الأمير تاخ الذي يضع رأسه حيث لم يضع قدمه. - رؤية هذين الاثنين معاً مدعاة للضحك. أحدهما

مناوِرُ كتوم، والآخر عمود منصوب مهترئ... " - أعاد المضيف المحرّق فيه الوعي إليه، فأجاب:

- أوافقك في شأن الباخسمة. صحيح قولك إنه لا يهمّ صانعها الأول. فيها حماوة الرجل وبراءته، وعدوبة الأنثى وخبثها. هل توافقي يا أمير؟

- وصفٌ ممتاز، ولكني أظن أن الله أرسلها إلينا لاختبارنا.

- إن كان هذا رأيك، - أبعد مامي القدح من أمامه إذ أن هذا بالضبط ما يريده، - فنتوقف عن الشرب!

- لا، لا، - استعجل تاخ المتوهج من الشراب، - أمزح فحسب. أسمعنا شيئاً مما يُخْطَبُ به عليه في القرم لنرفع القدح.

- أنت يا أمير، أنت أفصح الأدبغة!

- والله لا أعرف ما الذي يدفعك لهذا... - اشتعلت عينا تاخ الصغيرتان. - لا أعرف إلا لغة والدي ووالدي. ولكن لا تُسمع الأمير فواخ مثل هذا الثناء عليّ، يحارئك. حسناً لنكتفِ هنا. نقضي حياتنا نحسب حساب الجميع. سأعيد عليك خطبتي التي شاعت في القرم وتركيا...

- والتقيتُ بمن انتحل خطبتك يا أمير.

- وأنا أعرف أن الأمير فواخ يفعل هذا. ولكن ما العمل؛ يقال: لا تعاندِ المجنون؛ تحلّ له عن قبّعتك وامش. غفرت له إلى الأبد.

- وهل وضّع الأمير فواخ سيء إلى هذا الحد؟ - سأل بنبرة لا تعرف إن كانت جداً أم تصنعاً.

- لو كان في الفراش لهان الأمر، الرجل في عزّ قوته، لا يعرف تصريفاً لها. أسوأ ما في الأمر أنه صار يهذي. لا ينتهي من الكلام على شبق الأهل. كأنه جُنّ بسببه. لا حديث له سواه. ويرافق الخنجر حديثه عنه، يسلّه ويغمده. يبدأ قائلاً: "حين ذهبنا أنا والأمير شبق إلى روسيا..." وينتهي بفوزه على السلطان التركي في سباق خيل.

- والله هذا مؤسف!.. - حزن مامي لما سمع، - لا أعرف كيف أعوده في مرضه، - يبدو أنه لا يجوز إغفال الرقابة عنه.

- حراسه يراقبونه ليلاً ونهاراً. لا يمكن القول إنه فقد عقله حقيقةً. - حاول تاخ التمويه، ولكن بدا عداؤه لمن يتكلم عليه. - والمسؤولية كلها على الأمير شبق، ما لم يتحقق له على باب داره. وضره أيضاً انصراف حارسه شبلاّن عنه، وإعادته حصانه الهدية. ولكن النهاية كانت حين عاد شبق صاحب نفوذ من روسيا... كنا نخشى من شبق أن يغير علينا كما فعلنا ولكن تبين أنه أخبث منا.

كان اقتراب المضيف مما يريد مامي ساراً للأخير ولكن لم يكن متلهفاً لما سيقول عن الأمير شبق. ومع أن مامي كان يعرف ما قاله في القبرتاي وما قبل له فالحديث سيجري تبعاً لما سيقول الأمير تاخ. ولكنه ظلّ متأملاً قلباً وروحاً لحال الأمير فواخ الذي استخدمه الأول محارباً عنه طوال عمره، فنصح المضيف رغم أنه ما يزال بحاجة:

- احرصوا على الأمير فواخ أن يتصرف مع الأمير شبق تصرفاً غير لائق. تراجع الأمير تاخ بوجهه البابس ورأسه الضيق، وتأمل مامي عميقاً وسأله بعينه وكلّ منهما تنظر في اتجاه. ولما لم يجد جواباً في نظرة الآخر، بل فاقمت سعاله، أسرع إلى قدح الباخسمه فشرب دون خطبة، وسأل متلهفاً:

- هل تجري تغيرات على مهماتنا يا مامي؟

- ما المهمات التي تتكلم عليها؟

- لا أعرف... أليست حياتنا كلها مهمات سرية لا نهاية لها؟ لا نعرف ما سيجري غداً.

- من هذه الناحية لا أنت ولا أنا نستطيع الإجابة. لا أحد غير الله تعالى يعرف الغيب. - اكتسب صوت مامي القوة والثبات. وكما فعل الخان الذي يتبع إليه فتح صدره، ومطّ جسده بكبر. - ما يدركه عقلنا هو ما ستكون نتيجة عملنا اليوم... إن رميت حجراً اليوم أمامك تعثرت به غداً. وإن صنعت من الجبن نفعلك زاد طريق.

- إذن ستكسر الأحجار التي رماها شبق أصابع رجله وتجدع أنفه. - وافق تاخ مسؤول قصر الخان مامي من أعماقه. - الجيش الروسي الذي استقدمه إلى أرضنا تحول الآن إلى حجر في عنقه. لم يترك أميراً في إقليم الأديغة لم يركض

إليه ويترجّه. حتى القبرتاي البعيدة زارها. ولكن الأمير العجوز قايتقوه، والأمير الكبير تيمرقوه طرداه.

- لا يتطابق الخبر الذي وصلنا مع ما ترويه تماماً يا أمير، - استلم مامي زمام الحديث مستغلاً فرصة انشغال الأمير بالشراب. - ليس الأمير شبق كعابري السبيل الحفاة فلا يحترمونه. صحيح أن العجوز قايتقوه خاشنه، ودكّره بكل ما فعل، حتى لم يعد شبق يعرف أين يذهب بنفسه. ولما توسّطت أنا مع الخان الغالي لم يتقبل شبق نصائح الخان الحكيمة. وعلى رأيك حمل نفسه كيس الأحجار الذي لا يقدر على حمله. وأوصل الأديغة إلى الحضيض. ورغم ذلك فالأمير تيمرقوه لاففه وإن لم يؤيده ؛ أليس كذلك يا أمير؟

- هل جئت يا مامي كي تجعلني أثرت؟ - احتد الأمير فجأة، - تعرف كل شيء أفضل مما أعرف.

- لا تغضب يا أمير، - قال مامي دون أن يرفع صوته، - إذا أدى عدوك عملاً حسناً وجب أن تعترف له. عاد شبق إلى رأي قلقت حين اكتشف خديعة الروس ولكن تيمرقوه نظر إلى أبعد منه: يعرف أن القبرتاي سيصبحون من حصّة روسيا إذا قسمت أرض الأديغة ثلاثة أجزاء: تركيا وروسيا ونحن القرم ؛ فهل سيتحالف هذا مع شبق ويتحرر؟!

- سيقسمونا أم قسمونا وانتهى؟ - سأل تاخ بغم نصف مفتوح.
- تبعاً لما ورد على لسان دولت - جري عن غير قصد فهذا أمرٌ منته. -
قال مامي باختصار، ثم سأل وعيناه المدورتان تجحطان: - هل يحزنك هذا يا أمير؟ أرى وجنتيك شحبتا!

- لا تؤاخذني يا مامي، ليس توازُع الأمم الأخرى لك، وأنت شعب آخر، أمراً يدعو للسعادة. - نظر تاخ في وجه ضيفه وحرارة المرض تُدكي نظرتة، - ولكن إذا كان خان القرم ميّزني من بين الجانيه تقديراً لزياراتي الكثيرة له...
- لو كان الخان العزيز يتصرف كما أريد لما تأخرت في خدمتك، كنت قدّمته، لا على الجانيه وحدهم، بل على الأديغة كلهم... - قال مامي مع ابتسامة خفيفة، ولامه في سره يغلبه الإشفاق الساخر: "ما فائدة المنصب والسيادة لك وأنت في هذه الحال؟! لا يكفيك هواء العالم كغراب يعاني من

الحرّ؟! ألا تعرف أنني لا أرافق الخان عبثاً؟ وأنا لن أصل إلى ما أصبو إليه في وجود الأمير شبق... " ثم أزاح الأفكار السوداء المتضاربة وأضاف: - من وجد منصباً يوماً ما فلن يُشرك ولا غيرك فيه يا مضيبي. الخان يقدّر مكانة الأمير شبق وشهرته في الجوار، عرف فوراً نية شبق في الاتجاه نحو الروس. والآن يحاول استمالة إليه قبل أن يتجه إلى غيره.

- ما لا أفهمه يا ضيفي أمرٌ واحد. كلما تأمّرنا على شبق تجاوزنا وارتفع إلى الأعلى، وأينما وقع وجد مخرجاً.

- لأنه ليس مجنوناً يا أمير. علينا الاعتراف بفضله وإن لم يكن صديقاً. يفكر ويتكلم، يتفحص المكان ويجلس. وهذا ما يفتح له دائماً مخرجاً. صب مامي لنفسه كأساً راضياً عن فكرته. ووقف إلى جانب النافذة دون حديث مع المضيف. وارتشف من الباخسمة والتفت بطرف عينه. كان الأمير جالساً في ذروة اليأس بعد امتداح ضيفه لشبق. تبين أن انخيازه إلى خان القرم سرّاً وعلناً طوال هذه السنين كان عبثاً. يزيح الخان صديقه ببساطة، ويتقرب ممن يعاديه. " يبدو أنك إن قارعتهم، وقابلتهم بالمثل، احترموك وقدّروك. ما المنكر الذي فعلته حتى لا يتذكرني الله ولو مرة؟! حقاً لم أستطع استغلال عقلي وذكائي. وإذا كان الله أنعم عليّ بهما فأنا لم أستطع التصرف. تصاغرت أمام من لن يفهموني، وحاولت استمالة الأمراء الأغبياء وتحملت عواقب غبائهم. وليست أخطاء شبق أقل من أخطائي. ومع ذلك يتكلم عليّ بالسوء هذا الذي لا يعرف أين يتجه، متهماً إياي بالوقوف في وجه مصالح قومي. هل يعرف أولئك الحفاة مصلحتهم؟ لو كنت قائدهم لمصلحتهم بخان القرم وعشنا في سلام. وهل عجيب إن كنا ندفع لهم الإتاوة؟ لا بأس أن تقدّم هذا للأقوى منك..."

- يا أمير، لا تحمّل كلامي ما لا يحتمل! - استدار مامي ووقف عند المائدة. وجفل تاخ ونظر إلى الأعلى مرتعباً، - أنا سأقربك من الخان إن استطعت. وسأبعد شبق عن ذهن الخان شيئاً فشيئاً. وأقنعه بأن ليس في الجانيه مثلك.

فتح الخادم الجهم الباب قبل أن يرد تاخ على مامي شاكراً، فقال تاخ خائفاً أن يُسلَب الكلمات الجميلة بحقه:

- لماذا لا تهدأ يا من لعنه الله؟

- لستُ من يُزعجك يا أمير، - جاء فارسان من قرية ترام وراء مامي.

- ومن أخبرهم أن مامي ضيفي؟

- لا أعرف يا أمير، يقولان إنهما تتبعاه حتى وصلا إلى هنا. جاء لأمرٍ مُلِح.

- أدعُهما!

لم يتجاوز الشابان قائمة الباب، حييا الأمير، وقال أحدهما:

- أرسلونا نخبُر مامي بوفاة والده ظاظمي.

انصرف الشابان دون كلمة أخرى. فحدّق الأمير في ضيفه مندهشاً. وسأله

متعجباً إذ لم يلحظ أي تعبير على وجهه:

- ألم تتألم ولو قليلاً يا مامي. المتوفى والدك على كل حال، لا والدي.

- وماذا تريدني أن أفعل؟ أجب الضيف بغلظة. - وهل كان والدي سيُعمّر

ما لا يُعمّره البشر؟ جاء أجله فمات. كدّر عيشتي أكثر مما هناها. لم يحصل في

حياته ثلث ما قدمته إليه مرة واحدة.

- هو والدك وإن لم يقدّم إليك شيئاً. واجبك أن تبكيه وتشارك في مأتمه.

- سأذهب، ولكن لن أستطيع البكاء عليه... - أطرق مامي وفكر لأياً، ثم

نظر في وجه المضيف آملاً منه: - ليتك رافقي!

- يمكن من أجلك يا مامي أن أرافقك إلى آخر الدنيا، - قال المضيف

متمسكناً بصوت ضعيف، - ولكنك ترى حالي. الوقت أواخر الخريف، والجوُّ

بدأ يبرد. سيؤذيني الهواء البارد. لم أتخلص بعد من عواقب زيارتي للأمير فواخ.

وكيف أخالط الناس مع هذا السعال؟

- لا داعي لكل هذا الاعتذار يا أمير، - قاطع مامي الأمير، - ما العمل؟

سأذهب وحدي.

- هذا لا يجوز يا ضيف ؛ أليست تخرج من بيت أسرة أديعية، ومن ستذهب

إليهم؟ ستهينني هكذا. - فتح تاخ الباب مع الكلام ونادى: - استدعوا لي

كبير الحراس!.. ثم استدار وقال محتجاً: - أبلغ العجوز لأماف عتي عليه متى

وجدت الجو مناسباً. يرى نفسه ذكياً جداً، يجد مشكلة في كل شيء كمن

يبحث عن شعرة في البيضة. لم يصل تفكيره إلى تبليغي أنا أيضاً معك.

- الولد ترسله في مهمة فيرسلك أنت ثانية. يا أمير لم يعرف لأماف أي عندك حين أرسل الناعين اللذين لم يخطر لهما إبلاغك. حاول مامي تبرئة جاره العجوز، ثم أضاف: - وليس لأماف ذكياً جداً كما يوهكم. مجرد سمعة. وعلى كل حال أنت من تبلّغت خبر وفاة والدي لأن الشابين لم يتوجها إليّ بكلمة، بل لم ينظرا إليّ.

- لأنهم يحبونه يا مامي... - حاول تاخ أن يضحك متصنعاً المزاح ولكن السعال خنقه، فانتفخت أوداجه، وجحظت عيناه.

...

نزل زغاشت الذي أرسله لأماف إلى الأمير شبق وقلقت في دار الأمير أولاً. ثم بلّغ صهره، وأدار رأس حصانه إلى ظاهر القرية. ولما ذهب قلقت يسأل جاره عن موعد السفر طمأنه الأخير:

- لا داعي للعجلة، سنذهب الآن إكراماً للأماف ولو أنه لن يدفن اليوم. سنشاركهم بقية اليوم والمساء. لم يكن المرحوم رجلاً سيئاً ولكن الله رزقه بولد منحوس. أرسلت وراء أفمق الذي يتفقد المواشي. سننطلق متى وصل.

لمح قلقت، وقد وصلوا إلى المضيق، مجموعة الفرسان التي قابلت جماعة الأمير شبق بعد اجتياز الغابة.

- دعونا ننتظرهم يا أمير ؛ لابد أنهم ذاهبون أيضاً إلى المأتم. - وفي الحال وقف في الركاب، - هؤلاء حرس الأمير تاخ، ولكن من يتوسّطهم... انظروا، هو الخائن مامي.

- احذر أن تفعل شيئاً، هو في طريقه إلى جنازة والده. - استعجل الأمير شبق.

- ماذا يا أمير أتظني أتخلى عن أديغيتي وإنسانيتي إن رأيت عدوي؟! - غضب الزعيم الفلاحي. - ستحين فرصتي للثأر وإن لم أقتله في جنازة والده.

- يقال: الرجل الغاضب والدبّ الغاضب سيّان يا قلقت، - استدرك شبق، - تعالوا ننحرف إلى جهة الساقية، وأنا أربأ بنفسي أن أدخل قرية ترام برفقة هذا الخائن.

- تابع شبق قيادة جماعته بعدما تركوا الفرسان السبعة يتجاوزونهم واختفوا عن أنظارهم. وقال بنبرة امتعاض دون أن يلتفت إلى أفمق وقلقت إلى جانبيه:
- الموت أفضل من أن تعيش وأبناء قومك يتجنبونك.
- أليس مرافقو الخائن من قومنا؟ - نظر أفمق في وجه أخيه وعلى فمه ضحكة ساخرة.
- وهل تظن الأمير تاخ الذي أرفقهم به أحسن من مامي؟ - أضاف قلقت السؤال الساخر.
- كلام في محله يا جاري، - ابتسم شبق راضياً. يوجه لي أخي أحياناً أسئلة صيبانية. ربما كان مشى مع الخائن إلى الجنازة لو لم نكن، أنت وأنا، معه.
- ستقول يا أمير إني لا أحترم نفسي! - شعر أفمق بالإهانة.
- لا تحزن يا أخي! - تراجع شبق عن كلامه. - تحترم من يستحق ومن لا يستحق بداعي المبالغة في الإنسانية.
- ما العمل إن كنتُ خلقتُ هكذا، ولكن لا احترام ولا إنسانية لي نحو الخائن.
- حرف قلقت الحديث إلى المواقف المضحكة للمرحوم، خوفاً من تطور الجدل بين الأخوين.
- ترجل الفرسان قبل الوصول إلى الباب المفتوح. توقف الرجال وسط الدار لا يفهمون ما حدث: من سيتلقون التعازي ليسوا واقفين في مكانهم كالعادة. ولا أحد يدخل أو يخرج من مضافة المرحوم المفتوحة. يُسمع بكاء نساء جماعي من الغرفة، والرجال في أرض الدار في حركة دائبة. عرف شبق أن لا خير ينتظرهم فأشار برأسه إلى رفاقه، ودخل بهم مباشرة إلى المضافة. صافح بضعة المسنين الملازمين للجثمان، ووقفوا حداداً على ظاظمي في حضرته. جاء لأماف من ورائهم واصطنع سعدة:
- جئتم يا أمير!
- وكيف لا تأتي يا لأماف؟ كان جارك ظاظمي من رجالات الجانية. ولم يملك شبق إلا أن يسأل العجوز في غمرة تعزيته: - ما الحركة القلقة التي في الدار؟ ولا نرى فيها من نقدم له العزاء!

- ما حدث مأساة كبيرة يا أمير، - نظر لأماف حزناً في وجه شبق، - قبل أن يبرد جثمان الأول أضيف جثمان آخر. ماتت عجوزة قبل أن يصل ابنها بقليل. لا بد أن قلب المسكينة انفجر.

- إذا كان العجوز الوحيد الذي تعيش من أجله قد مات فما عيشتها هي؟! ما العمل يا لأماف، هذا قضاء الله. عاشا وماتا معاً. - سوّخ شبق المصيبة. خرجت جماعة شبق إلى الدار بعدما جلسوا طويلاً في المضافة فضمّ شبق لأماف إلى بضعة الأشخاص الذين وقفوا صفّاً لتلقّي التعازي. كان مامي يتحدث مطرقاً إلى أحد أولاد خاله، وهو رجل أسود قصير مثله، فلم يتوقف شبق وأفمق وقلقت عنده. ولما رأى الرجل الصغير المعزّين ترك مامي وعاد إلى صفّ من يتلقون التعزية.

أهل القرية والقرى المجاورة يدخلون الدار فردى ومثنى وجماعات. ويعزون بدءاً من لأماف. ومتى وصلوا إلى مامي أشاحوا بوجوههم كأنهم لا يرونه، وصافحوه شعوراً بالواجب فحسب. لم يكونوا نسوا بعد سلوكه مع والده على الشاطئ قبل أعوام. كان مامي مغلوباً بالإهانة، لا بالحزن، يسخط على من يُطرقون برؤوسهم تجنباً لرؤيته: "انتظروني قليلاً، سأجعلكم قريباً تتملقوني كباراً وصغاراً..."

IX

"من عنده الكثير أعمى، ومن عنده الجلد حافٍ" هذا القول المأثور يطفو على سطح ذاكرة مامي كثيراً، ركباً أو راجلاً. يبدأ مع أفكاره، وينتهي مع نومه. لا يجد، مهما فعل، وسيلة لطرد الذباب الصيفي اللجوج الذي تعلّق به. حين دنا من بابي الجثمانين مع حراسه الغرباء كانت هذه أول فكرة خطرت له لا يدري من أين. وهو القول الذي منعه أن يرثي أمه وأبيه، أو يقف إلى أحد أقربائه يكيههما. وهو ما دفعه إلى الإسراع إلى ما وراء جدار إحدى الحظائر.

"لم يوجه إليّ أحد من أقربائي كلمة، خيراً أو شراً، طوال يوم وليلة..." - كان مامي يلوم مستمعاً إلى الصوت الأصمّ لحواضر حصانه. - لولا لأماف وزغاشت لما استطعت البقاء بينهم ربع نهار.

مهما قلتَ يبقى الأهل أهلاً؛ أين يذهبون بي؟ لا أعتب عليهم مهما عاملوني. ولكن من أي صنف من البشر، أصحاب القلوب الباردة هؤلاء، الذين مدوا أيديهم إليّ مشيحين بوجوههم عني؟ ما شأنهم بي؟ عليك قبل أن تحاكم أي إنسان أن تضع نفسك مكانه، وتتعرف ما في داخله، ما يرضيه وما لا يرضيه. وهل علاقتي بالذئب لم تسعهما الدنيا ثم ماتا معاً من شؤون أهل القرية؟ ولماذا يتجاهلون سؤالي عنهم أحياناً؟ كنت أظن أهلي صعباً إرضاءهم ولكن حين قلت لخالي إن كل شيء لك: البيت والأرض والحظائر... فرح جداً. هؤلاء من ولدوني، جشعون. أمير الجانيه الكبير؟ حين يقبل منك الخان دولت - جري ما تمده إليه فهل جُبل شبق من طينة أخرى فيتكبر!.. وهؤلاء لا أعرف مالا لهم إلا اغتصاباً وسرقة. وقلقت الذي لم يتنازل أن يصفاحني؟ هذا لا ألومه. هذا يعيش من أجل الفلاحين وقضيته لا تسمح له بالتنفس، لا يكاد يحلّ شريط حدائه..."

لجم مامي الحصان حين خرج من الدغل أرنب بري، واختفى في الدغل القريب موحياً بالفتاته أنه يترك من يشفق عليه. ولكن مامي وجّه حصانه إلى الدغل الذي قفز منه، فأخرج الأرنب الذي علق بين شجرتين من أذنيه. ولما نظر إلى الأرنب المتجمد ذعراً وهو يقول: سيكون عشاءً طيباً، داخلته رحمة لم يختبر مثلها في حياته، ومنعه صوت خفي من أن يمد يده إلى خنجره. فأعاد الأرنب إلى صاحبه. ولما رأى مامي الروحين المشتاقتين جلس على صخرة لا تحمله رجلاه.

انتهى اليوم الخريف بعد الظهيرة بقليل. كان جوّ هذا النهار معكراً بالقياس إلى البارحة وما قبلها. تعرف اضطراب السماء من غيومها المتعاقبة. والشمس التي تبرز من بينها توجهت إلى المساء ففقدت دفئها. وقلب مامي بارد كالعالم الذي يتبعده عنه. وأفكاره المتصارعة كالسحب المتلاحقة المتمزقة. إلى من سيحمل هذه الأفكار، ومن سيفهمها؟ إذا كان إلى من رآهم في المأتم فليس في وجوههم أي رقة أو شفقة أو إنسانية. صحيح - يقول لنفسه ورغبته واحتجاجه معاً - أنهم يتعاملون فيما بينهم بأريحية وتهذيب. " يبدو أنني كنت الوحيد الغريب في الدار التي ولدتُ فيها، لا أحد يتقبلني. وربما كانوا أهانوني لولا حرصُ لأماف

عليّ... لماذا أحرد من الناس الغرباء عني بحجة أنهم لم يشكروني كما فعل الأرنب الذي أطلقته؟ ولماذا احتقرني أهلي؟ إن قلت أخطأت ونزلت من السماء بلا أهل فما كان عليّ حضور جنازة. والأمر تاخ هو من دفعني إلى الخطأ. صدع رأسي بالأديغية التي صرنا، هو وأنا، في غنى عنها فأرسلني إلى جنازة من كان يسعى لقتلي. حانت لي فرص كثيرة لأتخلص من هذا الذي تقاطر إلى مآتمه كل هؤلاء، وجعل الجانيه كلها تسخر مني. ولكن من حظي أني لم أمد عليه يدي. تبعاً لتغيرات العلاقات الأديغية الروسية فما جرى أفضل. سينسوننا قائلين: لم يكن الأب والابن على وفاق، في حين أن قولهم: قتل والده، وصمة عار إلى الأبد... لم يبق شك في أن شبق سيؤدي نفسه بما لم تستطع جماعة تاخ وفواخ فعله. ماذا بيده إن أدار الروس له ظهره ووقع بين أيدي الترك والقرم؟ وإن انتهى الأمر هكذا فمن لخان القرم غيري في هذه الديار؟ أنا واثق من دولت - جري، ستكون خدمة مقابل كل خدماتي له. ارحمني يا إلهي، واصرف عني أعدائي ومبغضي. من أعرف أنه يمكنه مواجهتي في طموحاتي طوال هذه السنين من بين الجانيه هو شبق فأنا أطمع في أن تتصرف معه بما تراه مناسباً. لا أمل لي غيرك في الدنيا..."

أعادت حممة الحصان مامي إلى وعيه.

- نعم، نعم، الشمس تغيب، سنركب الطرق حالاً. لولا الأرنبان المنحوسان لوصلنا إلى غابتنا الآن. - ركب مامي وهو يمسح على جبين الحصان. دار حول الدغل الذي خرج منه الأرنب دون أن يسلك الطريق الذي هرب فيه فحث الحصان كأنه يترك وراءه ما لن يلتفت إليه.

عاد القول المأثور إلى ذهن مامي بعدما جرى بالحصان قليلاً. كلما أنصتُ إلى وقع حوافر الخيل تكرر القول نفسه "من عنده مال كثير أعمى، ومن عنده جلد كثير حافٍ" "لماذا يلاحقني هذا القول المأثور؟ - لام نفسه غاضباً، - التصقت بي كالعققة. متى وأين سمعته؟ مهلاً، أليس هذا ما لم يكن يفارق لسان أمي حين تتشاجر مع والدي؟ متى سمعها والدي تقول: "ليس عندنا ما عند الجيران. نشتهي ما نسيته القرية. من عنده كثير أعمى، ومن عنده جلدٌ حافٍ" كان يصفق الباب ويخرج. "وحين شرعت تشاحنني قائلة: "وأنت ما فائدتك

إن كنت تلبس قبة؟ تقعد في البيت تحمق في قدر الطعام، لا تفكر في أن تعمل شيئاً داخل البيت أو خارجه. ولا ترى ما يُجز أقرانك" دفعني الإهانة للركوب ولكنني اضطرت للتوجه نحو القرم إذ لم أنسجم مع اللصوص الذين وقعتُ بينهم. غير أنني لم أندم يوماً"... ظن مامي أنه عاد إلى طبيعته ولكن شيئاً وخز قلبه حين رفع جسده عن السرج. أوقف الحصان على عجل، ولما فارقه الوجع عاتب نفسه بملء صوته:

- وما هذا الآن؟ أسمح للأفكار السيئة أن تغزو رأسي فأجلب لنفسي المرض. هداً قلب مامي مع حلول الظلام على عادته ولكن عيني الأرنب الذي أطلقه راضياً لمعتا في خاطره. "ما أعجب أنه تحبَّطَ وتحبَّطَ، فلما اقتنع أنني أقوى منه هداً. نظر إلي يقول: أنت قوي، كبير، ارحمني! حسناً فعلتُ إذ أطلقتته يوم شيعتُ جثمانين..." انفعل مامي فأوقف الحصان. ترك السرج ووضع رأسه على عنق الحصان فانفجر باكياً. وقع في مواقف كثيرة منذ انتقل من الطفولة إلى الشباب، بسببه هو، أو بسبب غيره، وخسر أصدقاء كثيرين وأحصنة، ولكن لم يحدث أن بكى مثل الآن حتى بلَّ عُرف الحصان. من كان مامي يبكي ورأساً كتفيه تقفران في الظلام؟ والدّه أم أمّه أم شخصه؟ ربما ما أنزله من السرج شبيهه بقولهم: "أنيك وقت مرضك يُفاقم مرضك".

قلوب الناس مختلفة كما ألوانهم. هذا جريء والآخر جبان، والثالث بقلب ذئب. مَنْ الأفضل بينهم؟ من يعتقد أنه يعيش أكثر إن حرص على نفسه يسقط في أرضه ويموت. وبين الذين يهملون أنفسهم من يعيشون طويلاً. عاش مامي يمزقه قلبه الصغير المتناسق مع جسمه الرقيق دون أن يعرف الألم إلى الآن، لا يسعد لأعظم سعادة، ولا تعيده أعظم مصيبة إلى وعيه. لم تنزل دمة من عينه طوال المأتم، بل لم يسمعه أحد يتنهد. وأعجب العجب ما فعله عند الفجر: فارق أهله وأقرباءه وأصدقاءه دون شكر ودون توديع. من الذي ناداه؟ وأي طريق سيسلكه؟ في العالم تفترق طرق كثيرة. هذا عريض، والآخر ضيق. هناك طريق قريب بعيد، وطريق بعيد قريب. والطرق التي هجرتها أقدام البشر وقوائم الحيوانات والوحوش ليست قليلة. وبينها ما تظنه يقودك إلى ما تقصد

فإذا به يضللك. ومن أين تعرف الطريق الذي فيه الصدق وفيه الكذب؟ يقفان أمامك، وتصادف طرقاً تدعوك إلى التأمل...
أيّ طريق بينها سيسلك مامي غداً؟

التفت الحصان إلى صاحبه مامي الواقع في الحيرة فارتد برأسه، فلاطفه مامي وهو يمسح على عنقه:

- لا، لا، لا داعي لليأس. الآن حالاً، - لم يركب مامي بل قاد الحصان. -
سنتمشى قليلاً... لا أحد ينتظرنا في الغابة.

غطت السحب الأرض الصامته في ليل الخريف المظلم الهادئ. لا صوت إلا وقّع حوافر بطيء. أفكار مامي الثقيلة تتبعثر كالغبار الرطب الذي يحمله حذاؤه. ارتسم في عينيه مجيء والده إليه في العام الماضي على معبر بحر آزوف، ومحاوله الوالد امتشاق سيفه، فالضرب الذي تعرض له من الحراس حتى أركعوه، وطرده من الغرفة. وفي اللحظة رأى نفسه صاحب سلطة معتدلاً بقوته، ولكن الألم عصر قلبه فقال في نفسه: " ما كان عليّ أن أتصرف معه هكذا وهو الحستاس للإهانة. ربما لم يتحمل العار الذي ألحقته به... وسواء كنت أعرف أم لا ففساد عقله بدأ من أمنا. ثم انظر ما جرى لهما. تشاحنا وتعاديا. ثم ماتا لا يفصل بينهما إلا نصف نهار. ما أشد وطأة الموت التي بانتظار الإنسان!.. كل شيء في العالم إلى فناء؛ هذه سُنّة الكون. لماذا أفكر في الموت الآن؟.. " ركب مامي ينهر نفسه، وعدا بحصانه حتى غاب عن أذنيه صوت اليوم.

الوقت منتصف الليل المتأخر. شرب الحصان وأكل شيئاً من الشوفان فارتاح. ومامي الذي يتوسد السرج ويلتحف كساءه يحلم: الدار التي خرج منها متخفياً واسعة تعجّ بالناس. والصبيان على الأسوار والأشجار. ومجموعة فتيات كل واحدة منهن أجمل من الأخرى تقف جانباً. ومقابلهنّ شباب راقصون. وبعد الرقصة الأولى يتوجه عريف الحفلة إلى مامي ويدعوه إلى حلبة الرقص مقدّماً إياه إلى الجمهور: هذا مامي بن ظاظمي يرجوه الجمع أن يرقص بحماسة حتى نرى أخمص قدميه. ويرشح مينسور بنت الأمير شبق لترقص معه. ولكن حركاتهما لا تتوافق. يتحول مامي إلى رقص النغوي ولو أنه لم ينس رقص الأديغة فلا ينسجم مع الموسيقى، ولكن مينسور تحافظ على الرقصة الأديغية.

ومع نهاية القصة يرى ما هو أعجب: مينسور تتحول إلى مريم النغوي، غير أنها تلبس زي الأديغة، شابةً حبيبةً إلى القلب تتودد إلى مامي. فيعود هو إلى رقصة الأديغة. ينتقل فجأةً إلى ما بين المواشي المذبوحة يسلك جلودها بسكين مثلومة. يقف أمامه الفحل مريعاً. يصرخ عاجزاً عن اختراق السور الذي حصره إليه...

جلس مامي والعرق يتصبب منه. الوقت صباح خريفي متأخر. والمطر البارد الغزير ينفذ من بين الأغصان. وهو تحت سقف حظيرة. لا يعرف تأويلاً لحفلة الرقص وللفحل. ومينسور ومريم؟ والسكين المثلومة؟ يقول لنفسه: "لا أحلم في السنة أكثر من مرة. ولكن أحلاماً سيئة. ولا أعرف رقص الأديغة ولا النغوي. فمن علمني ومتى؟ لم أشهد أعراساً ورقصاً في غمرة انشغالي بالقتل. وفي جميع الأحوال ففي حلمي تدخّل إلهي. سمعت أحدهم يقول إن تقطيع اللحم في الحلم نذير شرّ. وما العرس في دارنا بعد المأتم؟ لا شك هي مسألة إلهية؛ فماذا يريد الله الذي يتوسلون إليه ولا يتوسل إلى أحد أن يقول لي؟ مهلاً، أيكون انقضاء وقت النذر الذي فرضته على نفسي نحو الكنيسة التي أنشأها الروس في قرية جتاشاه¹ الأديغية المسلمة؟.."

نحس مامي مذعوراً. توضّأ وصلى. ثم دعا على ركبتيه إلى الله أن يرحمه ويبيعه عن الخطأ. واعتذر عن تأخره عن الوفاء بنذره بانشغاله بالمأتم. وأقسم أن ينفذه بعد الظهر.

وصل مامي إلى قرية جتاشاه غير البعيدة. وتوقف في عمق الغابة المقابلة لمنشآت الجيش الروسي أقرب إلى الكنيسة الواقعة على طرف القرية. كان المكان هادئاً بسبب المطر. لم يهتم مامي بالأسطبلات والمهاجع المتراففة. كان تركيزه على الكنيسة المنفردة المقامة على أرض مرتفعة. كمّ الحصان كي لا يصدر صوتاً وتوجه إلى الكنيسة. ولما وصل إلى الباب بصفته مسيحياً دخل إليها بعد البسملة. رأى فيها شخصين يديران ظهريهما. أحدهما يرتدي جلباباً ضافياً، والآخر زياً أديغياً، يردد ما يملي عليه الروسي: "من من الاثنين أقتل"

¹ تعني: صانع السيوف.

أولاً؟ الأديغي الضخم أم الروسي النحيف؟.. " اقترب منهما، وربت على كتف الأديغي، فالتفت إليه ممتعضاً، فسأله:

- كيف ترسم الصليب وتدعو إلى رب الكفار!
غرز الخنجر في قلبه، ثم قتل لابس الجلباب بضربة واحدة. ومسح الخنجر بملابس الأديغي متشفياً به. أنصت فلم يسمع صوتاً. ألقى نظرة ساخطة على ما في الكنيسة، وخرج متمهلاً...

X

وصل إلى الأمير شبق ثلاثة أخبار متعاقبة خلال أسبوع. الأولان كلٌ منهما أسوأ من الآخر. والثالث مقبول عند الضرورة.

- والله هذا غير ممكن! - الخبر الأول جعل شبق يقفز من مكانه ويصرخ، وفي الحال ركب مع مجموعة من حراسه. وبعدها عدواً زمناً لم يملك إلا أن يخبر أخاه وابنه إلى جانبه بما يقلقه: - تجري في الجانيه أحداث سيئة كثيرة. ولكن لم يخطر لي البتة أن يُقتل في الكنيسة جنديان روسيان.

- وهذا في عزّ الظهيرة... - وافق أفمق أخاه.

- من فعل هذا، كائناً من كان، عدوّ لدود لنا! - جزم كتاق دون أي مناورة. حثّ شبق حصانه كأنه هذه الكلمة حفزته. وارتفع وقع حوافر من ورائه. ثم أجاب ابنه وهم يتسلقون مرتفعاً:

- الفاعل يتجاوز العدو. يريد خلق فتنة بين الروس والأديغة. وباح بالسر الذي لم يكشفه لأحد إلى الآن: - بدأ يحدث لنا ما كنتُ أتوجس منه.

وصل الفرسان إلى قمة المرتفع فهاجمتهم ريح الشمال الباردة التي تحرق ظهورَ أكفهم والمكشوف من وجوههم وأذانهم. وتعبث بأطراف أكسييتهم. سأل شبق نفسه: "الشمس مشرقة تُزهق الروح؛ فأَي ريح تهب الآن؟!" وتذكر رحلته الأولى إلى موسكو: الشتاء القاسية، والرجل المفتوح الكساء الذي يوجه إليهم شارات التهديد. واستقبال القيصر له. وما عاناه حين ترك ابنه في البلاد الغريبة. والإشاعات المسيئة التي أطلقها بنو قومه بدلاً من شكره على لطفه عليهم، والتي لم تنقطع إلى الآن: يبتسمون له في وجهه، ويغتابونه من ورائه،

والرحلة الثانية المفعمة بالتعب والقلق والبؤس والفرح. ولم يكن يفارق ذهنه ما لم يتحقق له من رحلته إلى القبرتاي، والأمراء الذين اجتمع بهم لدى عودته، وتصرفهم معه. وغير الكلمات التي قالها بحق يومه غاضباً: الشمس، ولو أشرقت باردة، لن تستطيع إزهاق أرواحنا. علينا أن نعثر في عالمنا المضطرب العصي على التفسير ما نعيش به. نعم، لو كانت الريح هنا عاصفة فالجو هادئ عندنا. أحقاً هكذا أم يُخَيَّل إليّ؟.. " - ترك شبق سؤاله بلا جواب وتوجه بصوت غير مرتاح إلى أخيه:

- من وراء هذه المأساة في رأيك يا أفمق؟

- وهل أعددنا قليلون يا شبق؟ كثيرون موضع شُبْهة. - أجاب حريصاً على نفسه وعلى أخيه.

- لم أسألك عن العدد! - رد شبق بعنف على أخيه، - أحاول ان أصبر عليك، ولكن إلى متى ستظل بهذا الطبع البارد؟ تريد أن ينضح لحمك دون أن يحمي القضيبي!

- يا أمير! - تدخّل كتناق ذو الزي العسكري الروسي خائفاً أن ينشب شرٌّ بين الكبيرين، ولكنه صحا فنظر في وجه أبيه الذي قاطعه: - ساحني يا والدنا، أقول: من أين لأفمق أن يعرف قبل غيره؟

- وهذا صحيح يا كتناق. - تراجع شبق كما يفعل في المواقف المخرجة مُغالياً نفسه. لا أعتب عليك ولا على عمك. ولكن الهواجس تدفعك إلى الكثير من الأخطاء. ماذا قال لأماف في مأتم ظاظم بشأن الشكوك يا أفمق؟ - ندم على غضبه المفاجئ، وساعده على التذكّر: - حين لم يكن يقبل كلام ذلك العجوز الضئيل.

- أتذكر جيداً يا شبق، - أجاب أفمق بلطف كأن لم يحدث شيء بين الأخوين، - قال لأماف للعجوز الضئيل الذي كان يعارض الجميع: "لا تبُخ بكل ما تعرف، وليس كل ما يقال صحيحاً".

- دكّرني جيداً يا أفمق، ونحن سنزيح ما يقولون، ونبحث عن الحقيقة.

- ومن هذا القبيل ما قاله لنا قلقنت، أنا وحاتاي، - شارك كتناق فرحاً بتجاوز والده وعمه للخلاف.

- وماذا قال؟ - سأل شبق قلقاً من سماع اسم حاتاي.

- "لا يتحقق كلُّ ما يقال، ولا يُروى كلُّ ما يحدث"

- وهذا قول مأثور صائب، غني بالمغزى، - ابتسم شبق، والتفت إلى أخيه، وامتدح الفلاح مصدر القول: - نعرف قلقك، هو كالعراف القديم. كلما مد يده إلى جعبته أخذ منها قولاً مأثوراً. - وفي الحال أفلت منه ما أقلقه: - لماذا لم يطلّ علينا حاتاي إن كان في نواحيننا؟ إن لم يكن يمتنّ لنا إلا بهذا القدر فما قدمناه له ذهب هباءً. ألم يسأل عن أفمق وعن أملك وعن أخيك الصغير؟ - كاد يذكر مينسور بينهم.

- وكيف لا يسأل عنكم؟ وأرسل إليكم تحياته. كنت أنت وأفمق في الناخوي.
- لا بأس إذن، - مرة أخرى التفت إلى أخيه يريد أن يسأله إن كان يفهم ما يجري، - شكراً له على أنه لم ينسنا، - لم يكن يود إظهار قلقه ولكنه حثّ الحصان. "يبدو أن السيدة الكبرى لان موقفها، وتحفي أخبار ابنتنا... وخدم الدار والمنزل؟ وهؤلاء أظنهم انحازوا إلى جانب النساء. أما أفمق فلا يجرح مشاعر أحد. أنا الهدف السهل للجميع. وفي المحصلة هل وُلد حاتاي مع مينسورا؟ ووالده جامبج، من رجالات البسلتي المعدودين بعد مشقوه. وأنا عن هذا الطريق أمد جذوري في تلك الأنحاء. وإن حالف الحظُّ كُنّا مع بنت تيمرقوه، فله الزعامة، وأسرة كبيرة، فأوَّطدّ صلاتي هناك أيضاً. وإن مد الله في عمري لأشهد عرس الولد الأصغر قامبولات توجهت به إلى الأباطرة فضممتهم إليّ. غير أن هذه كلها أمور مستقبلية. ما حدث أمس هو أهم مشكلاتنا اليوم. ماذا يمكن أن تكون عواقب هذه العملية؟ لن تغفر لك الدولة التي ينتمي إليها رجل الدين مقتله في ظروف السلام. ألا يمكن أن يكون هذا هو الهدف من العملية؟ لماذا قتل صاحب النية المغرصة الرجل الأديغي معه؟ أيكون قتله كي لا يكون شاهداً عليه؟.."

كان أفمق وكتاق في بحر هذه التساؤلات أيضاً. يقاربان الحادث من زاويتين مختلفتين. ويفارقانه بلا جواب. استعرض الثلاثة أعداء أسرة فَنَشَقُوهُ. في البداية برزت أسماء الأمراء تاخ وفواخ وجان، ومن يحالفونهم، ولكن المشتبه الأول هو مامي. غير أنهم لم يكونوا يعرفون بعدُ كيف ترك المأتم فيستبعدون هذا

الاحتمال. وكان واضحاً عدم ثقتهم بقلقت المعارض لاستقدام الجيش الروسي إلى أرض الجانيه.

"هو منذ أكثر من أسبوع في الفراش يعاني آلام الظهر. أياكون أطلع أحداً من ثقاته على الخبر؟ نهر شبق نفسه وهو يزيح من يشك فيه: - ما هذه الهواجس التي تجد طريقاً إلى رأسي؟ هل يجوز أن أتهم قلقت بما أريد لأنه لم يكن يوافقني؟ كثيرون لا يوافقوني في علاقتي بالروس... - غضب ووجد حلاً لنفسه: - لماذا سألت أفق في هذا الموضوع؟ وفي الحال كرر الأقوال المأثورة التي تواردت على باله. ولكن الضيق الذي كان يتشاغل عنه عاد إليه. - القيصر الذي استقبلني باشاً لا يتورع عن أي شيء. ولو لم أكن أعرف حُبث السلطان التركي والخان التتري لهان الأمر. ولكن أرجو يا إلهي ألا يمارس الطرفان هذا الحبث عليّ. فافهمني وارحمي يا رب. ليس في قلبي نحو الجانيه إلا الخير..."

لم يعرف شبق ورفاقه ما رأوه أمام البيت الواقع على طرف قرية جتشاء. أهل القرية صغاراً وكباراً محتشدون لا يتسع لهم المكان. موعد دفن الأديغي يقترب. والناس انقسموا في شأن مكان دفنه. بعضهم يرى في جثمان المرتد عن دينه تلويثاً لجثامين الأديغة المسلمين. والآخر يرون أن أجدادنا كان فيهم الوثنيون والمسيحيون، سيستقر بينهم. هذا يوافق، والآخر يعارض:

- تسوّغ لأنك تحبّ دين الروس.

- ليس تحبباً فحسب، منذ زمن طويل أضاءني نوره.

- أيتها الجماعة، دعوني أساهم في الموضوع، - دخل الأمير تاخ إلى الساحة، - قد لا تعرفوني، أنا الأمير تاخ، من قرية جعُنه. ضيف على أميركم جان. صدف أن أتيت وقت مأساتكم. إن كنتم محظوظين شملكم الله برحمته. لا أقول إلا الحق. كلكم ترون ما يحدث. الله عاقب من بدّل دينه المختار. لا حدّ لقدرته، قيوم على الجميع. ولا تجهلون من فعل بكم هذا بعد أن احتشد الجيش الروسي قرب قريبتكم دون علم أميركم. إنه من اصطحب ابنه إلى الروس وأدخله إلى دينهم. وأنتم ترون الجيش الروسي الذي جلبه بيده...

- أفسحوا لي الطريق! - تفرق الناس حين تعرفوا عليه. ولما رآه الأمير تاخ قادماً مع حراسه هاجمته نوبة السعال. وسمع شبق ما قاله الرجل القصير أمامه:

- اهدأ أيها الأمير تاخ لحظة، ستموت على يده يوماً ما وأنت تناكفه أيها البائس!

- توقف لحظة أيها الأمير! -تابع شبقُ الخارجَ من الحلبة يغالب السعال.

- لولا السعال لرأيت أنني لست ممن يختبئون. - أجاب تاخ الرجل القصير مغتاضاً. - اعلم أنني لن أغفر لك أبداً كلامك.

- سأنتظرك إن لم يرموا بك إلى حينها في جهنم. - صاح الفلاح في إثره باسماء، وأضحك السامعين.

- يا أمير، - نادى الرجل القصير ثانية، - ها هو الأمير جان الذي تحترمه، الأمير تاخ يخرج معه.

- أراه ولكن لن نتعامل معهم على قدر عقولهم. - قال شبق دون تعالٍ أو شعور بالإهانة، وتابع كلامه: - جاء بنا إليكم ما حدث في الجانية، في قريتكم، لا من أجل أن نعقد اجتماعاً على من فارق الحياة غدراً. أدعو لجندينا بالخير حيث رحل مهما كان دينه، ولأهله بطول البقاء. إن أردتم رأيي فاستشيروا أهله في ما يرغبون به. ما من أحد لا ينتظره الموت. أرى ألا نتكلم على المتوفى أكثر مما فعلنا.

- عندي سؤال لك يا أمير إن كان هذا رأيك، - صاح أحد الفلاحين، - كيف دفنتم أولادنا الذين أخذتهم إلى روسيا وقُتلوا في حربها؟

- اهدؤوا لحظة! - أعاد شبق الهدوء إلى الجمع بإشارة من يده وصوتٍ قوي، - هذا الفلاح لم يخطئ وإن لم يضمّر لي الخير في قلبه. وإن فهمتم فسؤاله ذو شقين: أولاً: من أجل حمايتكم من الحرب التي كانت تُشنّ علينا، - تعمّد شبق ألا يذكر اسم الخان - بحثت عن مساندة دولة قوية، وعقدت اتفاقاً معها. وهذا هو السبب في مشاركة مقاتلينا لمقاتليها، وقدم جيشه إلينا. فإن رفضتم، ونسيتم ما كان الأعداء يفعلون بكم سابقاً طلبت منهم الرحيل. ولكن أدرككم بأن المؤتمر أذن لي. والآن إلى الشق الثاني من السؤال: دفناً بجمت ومن سقط معه حسب تقاليد الأديغة، مع الأدعية، دون تفريق بين قريب وغريب. ولذا أعربت عن رأيي في موضوع اليوم. إن وافقتموني فالشكر لكم، وإلا وافقتمكم على ما اخترتم. ولا ننسَ رجل الدين الروسي كذلك إذ سقط على أرضنا

فليرتح فيها. وكما شاركنا الجنود الروس في دفن ضحايانا في حرب ليفونيا فلنشارك الجنود الروس مصيبتهم. والمكان واضح. - ومقبرة رجال الدين المسيحي الذين كانوا ينشرون دينهم على أرض الأديغة ليست بعيدة جداً، - انتهى كلام شبق الذي قوطع كثيراً.

امتدح الأفندي القليل على العادة الدارجة، ولكنه لم يستطع تجاوز مسألة تغييره دينه. وأنهى بحديث تربوي موجه إلى الجمهور أكثر منه إلى المتوفى:

- إن لم يتب كل إنسان حاد عن طريق الله الذي يتهل إليه الجميع فاعلموا أن ميتة من ندفنه اليوم بانتظاره. في كلامك بعض ما لا أقبله يا أمير ولكني أوافقك باعتبارك زعيمنا بعلم الله. سندفن الضال في مقبرة الأديغة متوازعين، أنت وأنا، الذنب.

...

جاء الخبر الثاني في اليوم نفسه من موسكو بعدما انتهوا من دفن القتيلين. وتوجب على أمير الجانبيه الكبير والقائد فيشنيفيسكي توارع الخبر المزعج. قال شبق حين بقي الرجلان وحدهما:

- هذا هو يا فيشنيفيسكي السبب في قول الأديغة: ما تتوجس منه مرعب، يبدو أن السلطان التركي والقيصر مارسا معي، وأنا البريء، قلة الشرف... - وقف شبق قرب النافذة كما يفعل في مثل مواقف الضيق هذه، كانت ليلة مظلمة حتى لا ترى من يمد يده إلى عينك.

- ألا تزال "تظن"، ولم تقتنع؟ - سأل فيشنيفيسكي مستغرباً.

- لو رأيت وثيقة اتفاقهما السري...

- لن يسمحوا لك برؤيتها حتى يعين واحدة! - فهم فيشنيفيسكي ما بدأ به شبق فقاطعه.

- وربما هذا صحيح أيضاً... - قال الأمير وابتعد بسرعة عن النافذة المظلمة. عاد إلى مجلسه، وسأل فيشنيفيسكي متأملاً في وجهه: - إذا كانوا أصدروا أمراً مكتوباً إلى بوغوشاروف بقيادة الجيش الذي كان تحت إمرتك إلى أستراخان فماذا ستفعل أنت؟ هل تعود إلى موسكو في منصب أعلى؟

نقضت ضحكة فيشنيفيسكي الساخرة هدوء منتصف الليل:

- إن كنتُ مشتاقاً إلى ركوب خازوق القيصر الذي ساندك فسأعود. -
وأضاف بعد قليل بصوت هادئ: - لا، لن أدعهم يفعلون هذا بي ما دام في
عروقي دم! إن قبلتني فسأبقى في جيش الأديغة الذي أسسته. وإلاّ عدتُ إلى
قومي البولونيين. لا حلّ لي سواهما.

- ما لا حلّ له يا فيشنيفيسكي هو الموت. لستُ ممن يتخلون عن إنسان
يتمتع بصدقك وخبرتك. إن كان القيصر اختار هذا بحثنا نحن أيضاً عن طريق
آخر، ووجدنا مخرجاً. أنا من لا يمكنه الاتفاق مع سلطان تركيا وخان القرم؟ في
حال الضرورة هم جيراننا، وليسوا في آخر الدنيا كمن خدعني. ما العمل؟ حتى
الكلام الحلو يُخرج الحية من وكرها. سنلتقي على كلمة ونعيش مع جيراننا. وما
حملنا الله حملنا. أقول لنفسي، وأؤكد لك يا فيشنيفيسكي، - نهض شبق بكل
صلابة - لا يجوز أن يعرف أحدُ الحديث الذي جرى بيننا. نعم يا قائد، لا
تستغرب، لا حاجة لإعلام أفمق وكتاق حالياً. ستعلمهما في الوقت المناسب.
وسأفكر في طريقة للتلاقي مع زعيم العامّة قلقّت. تصبح على خير!

...

الخبر الثالث كان قصيراً جداً ولكن معناه كبير: الخان دولت - جري يدعو
الأمير شبق إلى القرم.

وفي الحال استدعى شبق ابنه الأكبر:

- استعدّ يا أمير! سننطلق غداً إلى القرم. وربما من هناك إلى إستنبول.

يمكن وصف الأديغة بالعرق الجميل. وجوههم طليقة. تركيبهم الجسدي متناسق. رجالهم سمر البشرة، أقوياء البنية، عضلاتهم متينة، منفتحو الأكثاف والصدور. ضيق الأرداف. يُعزّون أنفسهم.. أماكن سكنهم وملابسهم، وأطعمتهم، وما يحضّرونه فيها، في منتهى النظافة.

غ. كلابروت

ما أثقل الدّين الذي ترتّب علينا للمرأة التي اخترعت أول لقاح للجدرى يتألم قلبها وجسدها كي تحافظ على جمالها وعلى جمال كل الفتيات! وكم من الأطفال أنقذت؟ ربما ليس بين من افتتحوا معابد للنساء من يفوقها فضلاً.
غ. غيليسكي

لا أحد في العالم يداني الأديغي الذي يدعو الضيوف إلى بيته كرماءً، ولا طلاوة لسان. يشربون الباخسمه في المناسبات، وهو شراب يبعث النشوة كالخمر. غير أن الشراكسة لا يكثرّون منه.

ج. لوقا

I

"الزوجة الأولى لك، والثانية ريبتيك" لم يكن القيصر إيفان يعرف أن هذا القول للأديغة، بل ما كان يخطر على باله. والحق أنه لم يكن يجهل أن أمراء الأديغة ومقاتليهم كانوا يخاطبون حاشيته في السنوات العشر الأخيرة، وكان يعرف شخصياً إخلاصهم له في قضايا دولته. ويعرف أن الأديغة الذين أوفدوهم، يشغلون الجزء الأعظم من شمال القفقاس في أعراق منفصلة دون أن يؤلفوا دولة مستقلة، محاطين من الجنوب بتركيا، ومن الغرب بالقرم، ومن الجنوب الشرقي بالفرس، وأن غروزي التي تدين بالمسيحية جارتم، وأنهم صاروا أقرب إلى روسيا من جهة الشمال، ويبحث عن الفائدة المتوقعة منهم. ولا يسمح لنفسه أن ينسى بولونيا وليفونيا اللتين لا يجد لهما حلاً، وأن خطراً لا نهاية له يأتي، وما يزال جاثماً، من جهة تركيا والقرم. ولم يعقد اتفاقاً سرياً مع تركيا حباً بتركيا التي كانت تؤلب عليه خانية القرم. وهل كانت القرم تجهل الاتفاق المشين بين الدولتين الكبيرتين؟.. والمشكلة التي لا تنتهي في روسيا الآن هي من ستكون زوجة القيصر إيفان. كان المقربون منه يتصيدون ما فيه فائدة لهم، والأبعدون يفكرون في قرابة السيدة الكبرى لبلادهم. ولم يكن غيرُ المبالين بموت زوجة القيصر وزواجه قليلين. والعامة الذين لا يعيرون أي اهتمام بالمسألة هم الأغلبية الساحقة.

على أن الأمر تبين غير ما توقعه الزعماء الذين اقترحوا عليه خائفين الزواج مجدداً. رفع إيفان رأسه بعدما جلس مدة مسبلاً جفونه الثقيلة. تأمل وجوه النبلاء، ثم حدّق في عيني كلٍّ منهم، من أوبولينسك وفوروتينسك وريبينير، وفيسكوفات الذي جاء بهم إليه. وكأنه يريد معرفة ما في نفوسهم.

— أنا موافق إن كان هذا رأيكم. — تجمد المراؤون عند هذا الجواب غير المنتظر، فأعادهم القيصر إلى الوعي: — ألا تقولون شيئاً! ممّن ستزوجوني؟

— نجمع لك أجمل فتيات البلاد كالعادة، وتختار بينهن يا قيصر روسيا كلها. — صاح أحد النبلاء.

-لا، دعونا ننسى التقليد القديم إن كنتم مخلصين للبلاد. ما حققناه شوكة في عيون الدول الأخرى. إن انتزعنا إحدى هذه الدول لصالحنا فهو انتصار لنا. إن توجهنا إلى أوروبا وإنجلترا فقليلون من يودّونا. وملك بولونيا سيغمووند عنده أختان إن لم أخطئ. ولا أظنكم تجهلون أن ملوك الإنجليز والألمان والهولنديين بنات في سن الزواج. وبنات الأديغة - الشرکس الذين يشغلون معظم شمال القفقاس مشهورات. ألا تعرفون لماذا يتزوج سلطان تركيا وخانات القرم وأستراخان والنغوي من بناتهم أم لا تريدون؟ ولماذا يرسل شاه الفرس مواكب زفاف؟ وعند الأمير شبق، والأمير تيمرقوه بنات في سن الزواج...

لم يهتم بالكلمات الأخيرة للقيصر من النبلاء إلا فيسكوفات، الوحيد الذي انتفض سراً ثم هدأ. ولا يدعو تصرف المسؤول الأول عن شؤون القيصر بهذه الطريقة إلى العجب. كان قد شرع يتعرف شؤون الأديغة، نطاً معيشتهم، وطباعهم، وتربية أطفالهم، وتنشئتهم نساءهم، انتهاءً بملاحمهم، منذ بدأت العلاقات بين القيصر والأديغة. ما جعل فيسكوفات ينتفض هو سؤال القيصر ذات مرة: "إذا كان الرجال الذين تعرفتهم حسان الملامح فكيف نساؤهم؟" وكان القيصر يعيش في ذلك الوقت مع أنستاسيا التي رزقته بولدين فلم يُعِر اهتماماً كبيراً بالموضوع. والآن؟ يم ردّ علينا حين طالبناه بالزواج؟ لا جدال في طلبه أن نتوجه إلى بنات أوروبا، بل كنا سنفعل هذا دون أن يطلب. وكلامه على الأديغة - الشراكسة؟ إذا كان له مثل هذا الرأي فيهم فلماذا تُخادع بعضنا نحن والترك الذين لن يسالمونا أبداً؟ لم يقصّر الأمير شبق في السنوات الأخيرة في التقرب إلينا. وهذا السلوك يتجاوز حدّ الرجولة في مواجهة جيرانه تركيا والقرم. لماذا يقول القيصر نفسه إذن: "كذبة واحدة تفسد مئة صدقة؟.." - كان فيسكوفات يسعى لتنفيذ المهمة الموكلة إليه دون أن يستحق الثناء عليه، ولا يجرؤ على سؤال القيصر ليجد جواباً على أسئلته، بل متمنياً ألا يشك في أن هذه الأسئلة راودتني. وانحال عتاباً خفياً على النبلاء المرائين الذين تسببوا في هذا المشروع بما يستحقون وما لا يستحقون.

لم ينجح الخطّاب الأوائل للقيصر في بولونيا. ولما أخبر فيسكوفات القيصر بالخبر غير السار، وقبله يكاد يخرج من بين أضلاعه خوفاً، جحظت عيناه لا يعرف تفسيراً لطريقة سؤاله:

- هل كنت ستعطي ابتك أو أختك لعدوك لو طلبت منك؟
- لن أقبل يا قيصر روسيا العظيم حتى لو فعلت إحدى عيني هذا! - ما إن أجاب بما يُعجب القيصر حتى خلع ردُّ الأخير قلب فيسكوفات:
- لو طلب مني لما بخلتُ بإحدى عيني كي أحمي بلادي ويعيش شعبي في أمان.

- اغفر لي إن أخطأت... - ارتعب فيسكوفات إلى حد الدوار.
- لم تتفوه بما تحاسب عليه... - أضاف القيصر بعد قليل: - ما يدفك إلى هذا القول هو عبء الحكم. ومع ذلك فلا بأس إذ اختبرت العداء الحقيقي للملك سيغموندد.

- ليس عدوك وحدك يا قيصر روسيا الموحدة، - ارتفع صوت فيسكوفات كأنهم يسلبونه أغلى ما عنده، - بل عدو روسيا كلها.
- هل يُحِيل إليك أن من تأتي على ذكره لم تبق فيه قطرة دم روسي واحدة؟ - نهض القيصر بسرعة ووقف إلى النافذة. الريح الخفيفة للشهر الأول البارد من الربيع تهزّ الأغصان الرقيقة المنكمشة على نفسها لشجرة التفاح، والتي تشبه أصابع الإنسان، وتبكي صامتة بقطرات المطر الخفيف. خيل إلى القيصر أنها دموع أنستاسيا فتألم قلبه، فأسرع بالابتعاد عن النافذة الضيقة. وتمشى على أرض الغرفة ريثما ارتاحت نفسه، ودنا من فيسكوفات الواقف إلى قائمة الباب. ونظر إليه بعينيهِ العسليتين اللتين اختبأت فيهما بصعوبة ذكرياته القلقة. ثم أجاب على السؤال بنفسه: - ربما لم تبق فيه تلك القطرة. لا يتورع الحقد عن أن يدفع من ركبته إلى أي سلوك...

"حسنٌ أن تعترف بهذا... - تذكر فيسكوفات تشتيت القيصر لأعضاء المجلس المختار" الذي كان رئيسه، وانه أعدم من كانا يشاركانه في الرأي أداشيف وسلفستر مع أسرتهما وأولادهما، وأجبر آخرين كثيرين على النجاة بأنفسهم، وآخرين على الاختباء منه إلى الآن. وانتصب أمام عينيهِ من

يتعاملون معه بأفواههم فحسب مثله، ومن يخافون أن يوحوا له بأفكار أخرى. — لم يكفِ جماعة سكوراتوف وغريازنوف الذين أطلقَتْهم على من نصحوك قائلين إن حرب ليفون انتهت، ولا داعي للمزيد من الضحايا البريئة، غير واثق من صدقهم، لم يكف هذا، بل ساهمت بشخصك في إبادتهم. ونحن يُنظر إلينا في ليلنا ونهارنا بعينيك المرعبتين، فتساءل متى سيأتي ملك الموت؟ اليوم أم غداً، فتجعلنا نعيش حياتنا في ألم الروح والجسد. لولا أسرتي وأقربائي لتوجهت إلى ملك بولونيا الذي لم يرك أهلاً لأخته. وكوريسك من الذين ينصحونني بالرضا عن حالي وعدم الاستعجال، وإن كنت لا أعرف ماذا بمقدورهم. وما أخبار المخطوط فيشنيفسكي الذي أرسلناه إلى الأديغة؟ لو استوعب بوغوشاروف ما أرسلته إليه بلغة الرموز قائلاً "قيصرنا عاقل وقوي ويخلصنا من أعدائنا" لكان حسناً. لا بأس! لتكن المرشحة للزواج الإنجليزية أو نمساوية — هنغارية، أو ألمانية أو أديغية؛ نحن راضون أن يتزوج من تنسيه زوجته المنحوسة التي انتكنا بسببها!.."

— ما الأمر الخطير الذي تسرح فيه يا فيسكوفات حتى غبتُ عن ناظريك؟
سأل القيصر الذي عاد إلى مجلسه منذ زمن طويل فانتفض فيسكوفات.
— أفكر في الأفضل لك ولأسرتك وللدولة، يا قيصر روسيا كلها! — أسرع فيسكوفات بالإجابة، وأضاف بالصوت العالي نفسه معتقداً أنه يفعل الأفضل:
— متى ارتاح قيصرنا العظيم ارتحنا نحن وارتاح الوطن.
— وإن لم يرتح؟ — شعر القيصر في ما سمع بشيء مريب فارتفع صوته.
— مصيرنا ومصير بلادنا هو مصير قيصرنا. — تكلم فيسكوفات الآن على نحوٍ أشدَّ اختصاراً.

نفض القيصر متمهلاً، ووقف برهة مقابل عرشه الذهبي، ثم دنا من صورة الإله الحزين التي تشتعل عندها الشمعة. ودعا وهو يرسم الصليب وينحني أن يحقق له مراده، وأن يسترجع بأسرع وقتٍ بحر البلطيق الذي كان لأجداده، وأن يحفظ له ولديه اللذين أملهُ فيهما. وأن تصبح الزوجة الجديدة، أيّاً كانت، أمّاً حنوناً لهما. وأن تعضده في شؤون أسرته وشؤون بلاده.

وكان فيسكوفات يبتهل إلى الإله أيضاً واقفاً خلف القيصر: "لِيَنْ لَنَا يَا رَبَّ قلب القيصر الواقف في حضرتك. وأبقى على صحته ولياقته، ودعنا نعيش معه في أمان على أنفسنا وأهلنا ووطننا. وأدخل في جنتك من استدعيتهم إليك جراء ذنوبه. لا أقول إنهم خالون من أي ذنب، بل أقصد من قضوا أبرياء"

استدار القيصر بظهره مخيَّ عالٍ، فسكت فيسكوفات عن دعائه وإشاراته. فقال في نفسه لما نظر بعينين جامدتين إلى القيصر الذي توجه إليه: "ما الفائدة أن ندعو إلى الإله من أجل المرأة التي لا نعرف أصلها ولا دينها؟..." ارتجفت ساقاه الغليظتان، ولكن ما سمعه أعاد إليه الروح وهو الذي كان يهَمُّ بالهروب من الغرفة.

- شكراً لك إن كنت ترى أن مصيركم ومصير بلادكم هو مصير قيصركم. أنا راض عنك. تابع أعمالك. أعلمني حالما يصلك أيُّ خبرٍ عما همَّنا به سواء كان خيراً أم شراً. لسنا من نتوسل، بل لتعتز أيُّ امرأةٍ نشير إليها بالقبول نفسها محظوظة، ولتفرح! - قال القيصر في إثر فيسكوفات الذي يعبر الباب وقد عاد إليه الاطمئنان.

كان الوقت ظهيرة النهار الكالح، ولكن غرفة القيصر المعتمة أصلاً بدأ ظلامها يزداد فجأة. وهبَّت الريح العنيفة التي تنثر المطر على النوافذ. وُسِّع صوت قطعة الصفيح التي اقتلعتها من السطح. ويزداد مع الوقت انهمار المطر الغزير المفاجئ. القيصر ينظر عبر النافذة التي غمرها المطر وينصت دون أن يتحرك من مكانه وسط الغرفة. وشيئاً فشيئاً ينتصب أمامه بحر البلطيق الواسع الذي يشتهي الاستيلاء عليه من أجل بلاده. ويتخيل السفينة التي حاصرتها العاصفة المطرية وسَطَ البحر تقف على أرض الغرفة. ولا يُفَلت دفة السفينة مهما تلاعبت بها. يواجه الأمواج، ولا يتراجع. لم يبق إلا القليل على الوصول إلى مينائها "نارف".

لم يلاحظ القيصر توقف العاصفة المطرية فجأة كما بدأت. ولم يفهم أن الطبيعة عادت إلى هدوئها إلا حين بدأت خطوطُ المطر المتعرجة على النافذة تنحسر، والضياء يعود إلى الغرفة. قال: "أيَّ عاصفة داهمتنا والشتاء في آخره؟" ليست علامة سعيدٍ، ليت خبراً سيئاً لم يتلَّها. من أين سيأتي الخبر؟ ليست أوضاعنا في حرب ليفون التي استأنفناها سيئة. حسناً فعلتُ إذ كلفْتُ القائد كوربسك بها.

لو كان عندي عدد من الرجال في رجولته وصدقه لاستعدت منذ زمن بعيد أراضينا المتاخمة للبلطيق. ولكن النبلاء الذين لا همّ لهم إلا بطونهم ينظرون إليّ شزراً. يتربصون ما سيجري لي. يبدوون يُعدّون عني بالرشوة من يساندني. يتسمون لي في حضوري، وينهشونني من ورائي. خرجوا عن طورهم. عليّ أن أفكر لهم في مصيبة تعيد الوعي إليهم. ليس بين أهلي من يساندني. أنا من يعتمد عليه الجميع. أخي الأصغر مريض مزمن لا يؤمل منه غير المحافظة على حياته. ورغم هذا الوضع الصحي فهو مدمن على الخمر والنساء. وستاريسك بالغ اللبونة، سهل الخداع. وحوله كثير من الأصدقاء، لا يميز بينهم. ويُحِبُّ لي أحياناً أنه طامعٌ في مناصبي... " عاد القيصر من أفكاره كأن أحداً ناداه. اقترب من النافذة، وأرعبه ما رأى: شجرة التفاح التي انشقت قطعتين ممددة على الأرض. وفي أصلها قطعة الصفيح التي سقطت من السطح. رسم القيصر الصليب مرتاعاً، وانحنى للأيقونة التي في الزاوية. وصاح بسرعة: فحضر مسؤول شؤونه فيشنياكوف، وحياه قائلاً:

- حماك الإله يا قيصرنا العظيم!
- هانا جميعاً! - أجابه بلطف، وكلّفه: - ماتت الشجرة التي زرعتها بيدي يوماً، والتي انتكبت عبّرها. اقتلعها من أساسها حالاً، وازرع مكانها الشجرة التي كان والدي وجدي يحبانها.
- لم يفارق القيصر النافذة طوال انشغال العمال باقتلاع شجرة التفاح وزراعة بديلتها. ولحظة ففكر باستدعاء أخيه الأصغر ليتعدى معه دخل فيسكوفات طلق الوجه حاملاً ورقتين، وقبل أن يبدأ الكلام سأله القيصر:
- يبدو من سُحتك أنك جئت بخبر سارٍّ يا إيفان ميخائيلوفيتش؟
- هذا يتعلق بموقفك منه يا قيصر روسيا كلها. وحسب فهمي لا هو سار ولا هو مخزن.
- ما مصدرهما؟
- كلتاهما من ملك إنجلترا الصادق معنا.
- اقرأهما بالتسلسل!

- كلتاهما تتعلق بحرب ليفون، - قال فيسكوفات، ولما رأى تجهُّم وجه القيصر استدرك: - أرسل إلينا كتاب عدونا سيغموند، وأتبعه برأيه.

- ألم أقل لكم إن سيغموند لن يدعنا أحياء إن استطاع. أرسل إلى البلاد مئات من ينشرون الفتنة، وإن أمسكت بهم لا يقبل إعدامهم على الخازوق. يحسدنا على تطوير صناعة السلاح وتسليح الجيش، يخاف أن نغزو بلاده ونغتصبها منه. يوصي ملك إنجلترا ألا يرسل تجاره إلى ميناء نارف، ولا يُخالطوا الروس. صحيح؟

- نعم، يا قيصرنا، أصبتَ كأنك قرأت الرسالة. يخاف منك لأن قوتك تزداد. يرجو ملك إنجلترا ويشكو إليه ألا يساعدك لأنه لن يستطيع الوقوف في وجهك مستقبلاً، وستستولي على أوربا.

- لا ضرورة إذن لقراءة كتاب سيغموند الثرثار. - أضاء وجه القيصر بفرحة مفاجئة. وعاد إلى العرش. - ما جرى له الآن عارٌ شديد في الوقت الذي نتوقع فيه أن يهاجمنا حرباً. اقرأ لي شيئاً من شكاوى سيغموند أستمع بها. - ها هي: دولة روسيا ليست عدونا وحدنا، بل عدو شعوب كثيرة تحارب من أجل الحرية. وقد أتمت إنجازات كثيرة في المجال العسكري، فإن لم تلجموها في الوقت المناسب فلن تقدرُوا عليها...

- كفى. يسرني أن عدوي الأزلي امتدحني مرة. والحق أنه يُثني على روسيا المسيحية التي زعمني الإله عليها. أشكره ولو أنه عدوي. ضع ورقة سيغموند أمامي أستمع بقراءتها.

أزاح القيصر بعدما بقي وحده كتاب سيغموند كأنه سيُعديه بمرض ما، وأمسك برسالة ملك إنجلترا. مرَّ عليها سريعاً، وأعاد قراءتها مراراً. ثم ركَّز على خاتمتها: "... سنحارب أعداءنا بمثل هذا التعاون، ونعدك وعدّ دولة أن تبقى علاقاتنا هكذا مدى الحياة".

أحس القيصر بالدم الحار يسري في أعضاء جسده. وتوهَّج خداه. وتصلَّبت أطرافه. نهض بنشاط ووقف أمام رقعة الشطرنج. تأمَّل الأحجار مدة ثم قدَّم أحد الجنود البيض خطوتين. ثم استدار جهة الأحجار السود، ورفع الحصان المجاور للملك. ثم وجهه نحو اليسار.

كان إيفان غروزني يعمل دون كلل من أجل تأسيس دولة تهابها دول العالم. أنجز كثيراً من المهام في الشهر الأول من الربيع. ووجه الشماسين لاستخلاص العبر مما يجري في داخل البلاد والبلدان الأخرى. وتفقد إصلاح المطابع التي احترقت. وتعرف على أحوال رجال الدين في المعابد. وخصّ ولديه بوقت يومي مهما كان مشغولاً، يصطحبهما إلى الكنيسة. وفوق الجميع متابعة مجريات حرب ليفون، ومعامل السلاح في بوشكار. ويجمع رجالات الدولة وقادة الجيش لحل مشكلات البلاد في وقتها. ثم لم يكن يفارق ذهنه مشروع الزواج الذي أثاره النبلاء.

لم ييأس خطّاب القيصر حين أخفقوا في بولونيا. فوصلوا إلى النمسا وهنغاريا وإنجلترا. والتقوا بمن أعجبهم ومن لم يعجبهم. وقيل لهم بوقاحة في مدينة داتسك:

- لسنا ممن يزوجون بناتهم عاصبي العيون. إذا كان قيصر روسيا يريد الزواج فليخطب بنفسه. ولكن لا يُتعب نفسه عبثاً. لن نزوّج ابنتنا ممن في سجلّه كل هذه المظالم فننكبها!

والإنجليز تجاهلوا الموضوع على عادتهم بعدما استقبلوهم بلطف، ووعدوهم أن يُبلغوهم بالنتائج. ووصلت بعدها كتب كثيرة من إنجلترا، ولكنها خلت من موضوع العروس والزواج.

- هذه هي الحال يا قيصرنا العظيم، هذه حواء، وتلك عوجاء، والأخرى قصيرة الرأس، لا جمال لهن. - لخص فيسكوفات للقيصر نتائج الجولة الأوربية مغلباً الكذب على الحقيقة. كان الرجل الغليظ الجهم يبدو من مظهره مرتاحاً ولكن عينيه تدوران في محجريهما مسكونتين بالرعب، وشفته السميكتان تختلجان. ولما بدأ القيصر يضم قبضتيه وتحتفظ عيناه الصافيتان استعجل فيسكوفات مرتعباً: - لم ير موفدونا في أي قصر ملكي امرأة من النوع الذي يعجبك بطول القامة وجمال الوجه وتناسق الجسم. لا تؤاخذني يا قيصر روسيا إذ أكشف لك السبب.

- أسمعك. أرخى القيصر قبضتيه، وفرد وجهه الغاضب.

- ظلت بنات الأسر الملكية وشبابها يتزاجون حتى صارت عادة، فلم يعد يظهر بينهم شاب يستهوي العين أو فتاة. وبالقياس إلى هؤلاء فبنات نبلائنا وأسرنا القوية كالقمر.

- أنا أعرف دون أن تُعلّمني أناسٌ بلادي. - أسكتَ القيصرُ فيسكوفات بإشارة من يده، - لم تفهم بعدُ سبب كل هذه العقبات في وجه زواجي. لا أطلب منكم البحث من أجلي، بل من أجل روسيا. إن صاهرثُ دولة لها نفوذ فستزداد قوتنا أيضاً. حسناً، ليست هذه مسألة ملحة.

وقف القيصر إلى النافذة وشرع يتفقد الشجرة الجديدة المزدهرة مع الربيع الدافئ مرتاحاً. وابتسم مصدّقاً بعض الأخبار التي جاؤوه بها من أوربا، وغير مصدق بعضها. ولكن عادة تفاني الأنساب في قصور الملوك أوحّت إليه بفكرة ما، فأمر البواب:

- استدعوا لي أخويّ يوري فاسيليج وفلاديمير أندريه.

لم يكن يستطيع، شاء أم أبى، إلا أن تعاوده طباع أخيه وابن خالته. وما استهواه أكثر هو حياة ستاريسك. ولكنه نهر نفسه في الحال: "وأنا مارسثُ المحون زمناً غير قصير. وليست مغامراتي النسائية قليلة. والآن، بعدما أصبحتُ قيصرأ، لا يليق بي البتة العودة إلى تلك الممارسات. ستاريسك يدمر سمعته بنفسه..."

روى القيصر لأخويه باختصار ما عاد به خطابُهُ الموفدون من أوربا. كان يوري يتأمله متألماً لحاله، والشعور بالإهانة يكسو وجهه. أما ستاريسك فلم يبذُ عليه أيّ انفعال. وضحك مع شيء من الانتشاء:

- إذا كان المطلوب قِردات فعندنا الكثير، وأنت لا تريدهن مطلقاً. ولا نحن محتاجون إليهن. أعرف ما يرضيك أنت: جميلة، طويلة، حلوة الطباع...

- لا مزاح في شريكة الحياة يا فلاديمير أندريه. - أوقف القيصر سوء أدب محدّثه. يجب بالإضافة إلى ما قلتُ أن تكون عاقلة تغنيك بآرائها، أفكر في أن أرسل الموفدين إلى الأديغة الذين حالفونا. ما رأيكما؟

- يقال إنهم أناس شرسون نوعاً ما. لا أعرف كيف ستنسجم معنا من ليست من عرقنا... - قال يوري مندهشاً.

- وهل سكان أوربا من عرقنا؟ - ضحك ستاريسك مرة أخرى. - المشكلة أنهم من دين آخر.

- لن يكون الدين عائقاً، - طمأن القيصر أخاه. - ليس إلا أن تزور الكنيسة فتعتقد ديننا. والشباب الذين قدموا من إقليم الشراكسة تحولوا بسهولة إلى المسيحية.

في اليوم التالي بعد موعد الإفطار كلف القيصر النبيل الذي استدعاه فيكشيرين فيدور بمهمة الخطبة:

- استعدوا للسفر إلى القفقاس الشمالي. يقال إن لأمير الجانية شبق ابنة جميلة؛ فإن أعجبتكم زوجة لي فأفهموه رغبتي فيها. وقد استدعيت فيشنيفيسكي قائد الجيش هناك. إن لم يكن قد ركب طريق العودة بعد فاصطحبه. وإن لم تنجح محاولتكم فاتجهوا إلى القبرتاي. يذكرون بالخير الابنة الصغرى للأمير تيمرقوه فلا بأس بها أيضاً. سأطلب واحدة منهما لأرى من تعجبني أكثر من الأخرى. أثق بك لأني أعرفك تحب النساء الجميلات.

في الموعد المحدد توجهت جماعة الاستطلاع والخطبة بقيادة فيكشيرين إلى القفقاس.

II

- يا شبق، كتناق كتيب منذ كنتم في القرم وتركيا. لا أعرف ما جرى له، - سألت زهرة الزوج حذرة، وأضافت ما يقلقها: أظن المشروع الذي تعزمون عليه يجرمه من الفرع.

انتفض شبق الذي كان يسرّ الخنجر ولكنه لم يرفع رأسه. وكنتم جسده أيّ انفعال. وغمغم: " أسألي ابنك، وأنت لماذا تخزين قلبي؟ هل يُطلعك هؤلاء على ما في سرائرهم بحجة أنك أنجبتهم وريبتهم؟ - ثم لام نفسه: - أنا أدين أولادي على أخطائهم متناسياً أخطائي أنا. إلى الآن لم أطلع أحداً إلا بوغوشاروف على ما حدث لي في زيارتي الثانية لموسكو. كان بوغوشاروف عمّدي في إحدى الكنائس الصغيرة، معتداً بتنصّر ابني الأكبر ووقوفه إلى جانب القيصر، مخفياً تنصّري أنا عن سلطان الذي أرفقوه بي. هذا الرجل كتوم للأسرار. ولما كنا

في حرب ليفون وحين جاء إلى هنا لم يلمح لأحد بالأمر. ولم ينادني باسمي المسيحي فاسيل إلا مرة واحدة. ولم أنتبه إلى الأمر إلا بعد خروجنا من الكنيسة. أقول إن أحداً غير الله وبوغوشاروف لا يعرف سري حين عمدوني مرغماً، ولكن لماذا لم يح لي سلطان تركيا باسماً بأي عابدٍ للآلهة الثلاثة؟ ما العمل؟ المضطر يمكن أن تحدث له مثل هذه الأمور. وأنت يا إلهي تغفر لمن يتوب فارحني، ليست هذه اللفتة من أجل شخصي، بل من أجل قومي أحمل معي كل هذه الأخطاء..."

- ألا تسمعي؟.. - أعادت السيدة الكبرى التي لا تطيق صوت سَرِّ الخنجر.

- أسمعك جيداً جداً. - أجاب شبق دون أن يترك حجر السن.

- تصمّ آذاننا بهذا الحجر اللعين. - نصبت زهرة رأسها المدبب، ثم برأت نفسها: - أقول هذا لأني أسأل: ألم يبق غيرك في الدار يسرّ الخنجر؟!

- ولماذا لا، عندنا الكثير بفضل الله، ثم هَذَا الأمير نفسه، - ولكن الأفضل أن تعني بسلاحك بنفسك كي لا يخذلك في المواقف الحرجة.

- دعك من هذا يا شبق، الله تعالى لن يضعك في مثل هذا الموقف. - صاحت زهرة فرعة، - ألا يكفي ما ترك الترك والنغوي الذين تنوون التوجه إليهم الآن من ندوب على جسدك؟

- يبدو من كلامك أنك لا تريد من دعونا إليهم، ابتسم شبق.

- يحيل إليّ أن لا شيء يسرّ عندهم أيضاً.

- والروس الذين أرونا قطعة الجبن وأطعمونا الحجر؟

- وماذا أقول لك بشأنهم أيضاً؟ - تحالفتما أنت وكتاق معهم فوافقت، وماذا أفهم في هذه القضايا؟ قلب المرأة يشتهي الأفضل دائماً.

- والآن؟

- شهادة الزور والكذب سيّان، من قلبي معه الآن طرفٌ آخر.

- من يا سيّدة آل فنشقه؟ - ألقى سؤالاً سريعاً إليها، - من إن لم يكن سرّاً؟

- وأنتم علاقاتكم كلها أسرار، - أشارت زهرة بالرفض، - ليبق عندنا نحن أيضاً سرّاً ما!

- هكذا!.. - انكسر صوت شبق كمن فقد أملاً كبيراً، ونظر واجماً إليها، وتنهد.

"يا إلهي، - تستغرب زهرة سلوك زوجها المتغير عن ذي قبل، - ما أضعف لابس القبعة، أمراء كانوا أو نبلاء أو من العامة أو من الخدم! يجمع الرجل في شخصه طيبة القلب والريّة، والحلال والحرام، والشفقة والظلم، في محله وفي غير محله. ما أغرب نظرتي إلي!.. أعيش معك منذ أكثر من ثلاثين عاماً فلم أخدعك، ولم أؤذك في شيء. ومتى اختلفنا تصالحنا يدفعنا الشوق. المشروع الصعب الذي بدأتموه، الأب وأخوه وابنه، وابني قبل الجميع، أعترض عليه بصفتي امرأة. لا بأس أن يكون كتاك حزيناً. ونحن يحدث كثيراً أن تنكسر قلوبنا. ليقم بزيارات للبنات، ويُشارك في سباقات الخيل، وفي الأعراس! وأنا أجلس من جانبي إلى الرجل البريء فأناكده وأؤلمه. لن أراجع عما قلت له وإن ندمتُ. سأصارحه وأعيد إليه وعيه، سرّه أم ساءه... - أَلقت زهرة نظرة محبة على وجه زوجها:

- أمزح معك فحسبُ ؛ كيف أخفي عنك شيئاً يا روعي الوحيدة؟! ولكن لا تؤاخذني، أنا في صفّ قلقت الفلاح.
- نعم؟!

- نعم يا شبق، نعم. إذا كان قيصر روسيا يطمع في أرضك وناسك فالأفضل أن تلجأ إلى دولتك لا إلى الغرباء. يكون مصيرك مصير عريق خيراً كان أم شراً.

- والله هذا صحيح... ولكن كان علينا السعي إليها قبل الآن، بل قبل أن ينهض بها قلقت بوقت طويل. ما الفائدة من أن أرفع الآن علّم قلقت الفلاح فأثير سخريّة الناس مني؟

- هل ستصالح خان القرم وتضع نفسك في طاعته إذن؟
- ولن أسمح له أيضاً أن يتخذني ممسحة لرجليه، ولكني أريد أن أشعر بهذا الحلف من أهاني. لا حاجة إلى الكلام على سلبات هذا التوجه. أنا مثلك القشة التي بقيت وحيدة في العراء. ليس عندي مخرج آخر اليوم... - تنهد

شبق بعد سكتة قصيرة. — هذا ما سيجري لك حين تعتنق ثلاثة أديان مختلفة معاً...

— يا إلهي اشملي بعطفك! — صرخت زهرة مرتعبة. — أدعو إلى الله تعالى من أجل كتناق، وأتوسل إلى صورة الإله، وأتوجه إلى أهلتنا السابقين.

— احتفظي في قلبك بالله الأحد، والآخرين لن يضرؤك إن توسلت إليهم. —
نصح شبق المرأة ولكن لم يكشف لها وهي التي عاش معها كل هذه السنين
اعتناقه المسيحية في موسكو. وغَيَّرَ الموضوع مذكِّراً إياها ببداية حديثهما: —
أنتِ أيضاً يبدو أنك لاحظت الاكتئاب على كتناق.

— لستُ وحدي، مينسور وقامبولت وآخرون قلقون. سألته، وطلبتُ من غيري
سؤاله، ولكنه متكتم على نفسه، يطلب منا ألا نتدخل في أمره.
— لا ترعجوا الولد. هو الآن في موقف صعب.

— وهل أنت في موقف سهل؟
— أنا أتحمل المشقة التي جلبتها لنفسي مهما كانت ثقيلة. وأظني سأضعها
عني. ولكني أخشى ألا يستطيع الولد الإفلات من الحبل الذي عقدته له
بيدي. وقد لا يهتم بالأمر ولا يطيعنا.

— وهل يخالف الحيط اتجاه الإبرة؟ — ارتفع صوت زهرة.
— لا، لا أستطيع اتهامه بمثل هذا. يقول لي: قولك قولي وفِعْلُك فعلي. ومع
ذلك من يعرف؟ صعبٌ أن تتكهن بما يخطر له؛ أليس شاباً؟
سألت زهرة وهي غارقة في التفكير:

— أياكون قلبه مع الروس؟

— هذا ممكن.

— ألم تقل إنه يوافقك قولاً وفِعْلاً؟

ابتسم شبق وهو يرتاح على المقعد الناعم:

— قلت، ولكن كل إنسان جزء صغير من هذا العالم. إذا كان العالم يتغير خلال
النهار عدة مرات فما بالألْك بالإنسان؟ إن تفهَمنا الله الذي نحن فداؤه فهذا من
حسن حظنا. وإلا...

- كفى يا شبق، لا تكمل! - استعجلت السيدة الكبرى. - لا تفتح الباب لهذه الخواطر المزعجة! ما هذا المعروف الكبير الذي قدموه لولدنا، وماذا فعل به من أداروا له ظهورهم فيظلّ يلتفت إلى من أهانوه؟ هل سحروه؟ الأفضل من هذا أن يتجه إلى القبرتاي التي اصطحبته إليها في الخريف الماضي. ما أشد ما يمتدحون ابنة آل إيدار! وولدنا معجب بها، والأخرى رحبت به... - مهلاً، مهلاً يا سيدة آل قنشقوه! - ابتسم شبق لها، واستلم الحديث منها، - تروين لي جيداً كأنك كنت معي. - وهل تظنني أعيش عمياء صماء؟ - الحراس لا يشبعون من رواية الخبر. واستجوبت ابنك. لم نُعلمك خائفين من رفضك. ولما كلّفنا من سأل عنها جاءنا بخبر طيب خلاصته أن عُشَوْناي تودّ ابنا. - إن كان هذا رأيكم فأنا أكلُ هذا الموضوع إليكم. إن كان الولد موافقاً فالربيع على الأبواب، وإن كان لا يليق بي أن أتدخل فيه، فسأرسل الخطاب في أي يوم تقررّون إلى القبرتاي. - الزواج لا يتعلق بالبرد وبالحر. - مطّت زهرة قامتها المتناسقة أمام زوجها تخفية عمرها الحقيقي. وأنت بصفتها أعلى الجميع مرتبة: - أنا من يحدد الموعد. الخمسون فارساً ليس قليلاً. ولكن الأفضل إرفاقهم بمثلهم. من يعرف هناك أشرار كثيرين في بلاد الأديغة من أمثال مامي! - قلت " بلاد الأديغة "؟ - تعلق شبق بكلام السيدة على نحو لا تميز جده من هزله. - ألسنت حللت قضية قلقت إذن؟ - ماذا أسميها إذن؟ لم تزالوا تضغطون على كل أمير يرفع رأسه بحجة قلقت كما يقول لأماف، فتوشكون تكتسبون العار من وراء تنافس الأمراء. - إن كنتِ تعديني من بين هؤلاء يا سيدة فأنا لا أعرف إذن... - تظاهر شبق بالاستياء. - لا يا شبق، لا. أقول هذا لأني غاضبة قليلاً فحسب. وإلا فأنا لا أتهم أمير الجانيه شبق بمثل هذا الاتهام. - شرحت السيدة باهتمام. - كم بين الأمراء الأديغة من أمثال تاخ وفواخ ممن يبعث رؤيتهم الرعب في القلب؟ - أكثرهم. - قال اعتباطاً وهو يبتسم ليعرف رد فعلها.

- لا تضحك، لم تخطئ، يكفي ما عذّبك هؤلاء. لا يزالون إلى الآن يتآمرون عليك.

- مهما عذّبوني، ومهما قالوا في شأني، فأنا المذنب. نعم، لا تتعجبي. لم يكن عليّ أن أترعّم الجانيه. الأديغة إن حميتهم أو أرحتهم، أو نشرت سيرتهم بالخير، حتى لو ضحيت بنفسك من أجلهم، فلن تنال رضاهم. يتصورون أنني استفدت من المنصب لشخصي، وصرث رجالاً من ورائهم... الغيرة تعميهم، وهذا هو السبب في إخفاق الأجيال السابقة من الأديغة. وهذا سبب نكبتنا نحن. وما سيُفني من بعدنا.

- هذه طبيعة سيئة فينا. - وافقت السيدة، - دعنا نُصاهر الأمير تيمرقوه، ونرى بعدها كيف سيتصرف معنا الأميران تاخ وفواخ.

- وكيف سيتصرفان من مرضا بسبي؟ - تابع شبق بصوت هادئ نادماً على ارتفاع صوته: - لا تتصورني أنني شامتٌ بضعفهما ولكننا في حديثهما. ظلاً يهاجماني حتى أصيب حلقٌ أحدهما، والآخر يهذي خرفاً.

- يستحقان! الله انتقم منهما. أدعو إلى الله أن أرى أحدهما مثقوب الرئتين والآخر محجوراً عليه في مخزن الحبوب.

- كفى يا زهرة، ما هذا الحديث، وما هذه الصور القبيحة؟! لا تدعينا نتكلم على الأمير تيمرقوه بصفة قريب وأهل معتقدين أن في الأجمة التي لم تنبت أنبأ. وما الفائدة من الأميرين اللذين غضب الله عليهما؟ طحنوني ومضغوني حين توجهت إلى روسيا ولم يكتفيا؛ فماذا سيعلقان الآن على اتفاقي مع تركيا والقرم؟ كيف سيدينوني على ما كانوا يتمنون؟

- مهما فعلت ركب لك مُبغضُك قروناً. - أجابت السيدة الكبرى، - سيتهمونك بأنك لم تستشرهم.

- وهذا ممكن، - تغيرت عينا شبق الصافيتان المرهقتان بضحكة باردة. - سيجد أصدقائي وأعدائي ما يقولون بشأني. ولكني أعرف بم أرد عليهم. سأقول لهم: لم ينجح مسعاي. ولم تكونوا تريدون نجاحه. والآن اعترضوا إن كنتم رجالاً روسيا وتركيا اللتين توازعتانا كقطيع غنم. ليست هذه مشكلة حالياً، أهم ما أماننا هو قلقت والفلاحون.

- ألا يحتمل أن ترجحنا تركيا إن صرنا من نصبيها؟

- لا تتألمي هذا! - حسم شبق باختصار، ثم اختتم بصوت منكسر: - هؤلاء لا يختبئون مثلنا وراء الأسوار. ينظرون إلى البعيد، ولكن أخشى أن نتكبد على يد روسيا وتركيا... متى سيحدث هذا؟ - سأل شبق نفسه يهزّ الرأس ويتألم، - أنا أتحمل جزءاً من المسؤولية، - يبدو أنني اقتلعت جذر الأديغة وأنا أظني أقوى... كفى يا زهرة، - غضب شبق فجأة وكأنه يتهم المرأة بسوء مزاجه. دعينا من هذه الموضوعات لتكلم في موضوع سارّ.

- قل إن كنت تعرف أفضل منه! - احتدت زهرة، ولكنها مؤهت على نحوها بحجة أخرى: - إذن سأنتزع من فم كتاب ما عنده من معلومات. كفاه ما عاش عازباً. ومينسور كيف تتزوج قبل أخيها الأكبر؟.. - توقفت زهرة على الباب وسألت: - يا شبق، أريد أن أسألك في أمر ما، ولكن لا تسخر مني. أنت رأيت ابنة تيمرقوه فلن أسأل غيرك؛ هل هي جميلة؟

- والله أثنى النساء عجيبات! هل تظنيني ذهبت، أنا العجوز، أستكشف جماها؟ اسألي من تعرّف عليها، - ضحك شبق وهو يهز رأسه.

- أقول هذا راجية أن تكون العروس التي ستأتي من القبرتاي البعيدة جميلة. - غادرت زهرة الباب بكلام مُراءٍ.

قال شبق لنفسه براءة: "هذا ما تتقنه النساء... ثم أتبعه بفكرته: " يبدو، إذا تقاسمنا الدولتان أن العروس سيأتوننا بها من روسيا، إلى تركيا - النغوي. ظننا أنا وتيمرقوه أننا نسدي خدمة إلى قومنا فرمينا أنفسنا في المصيبة. سيكون بين أصدقائنا وأعدائنا كثيرون لن يغفروا لنا. - نهض شبق مكتئباً، ونظر عبّر النافذة، أشعة شمس الصباح الربيعي تداعب عينيه من فوق الأشجار. - ولماذا نذهب بعيداً؟ قلقت من أوائل من لن يغفروا لنا. علينا أن نتحدث، هو وأنا، في الموضوع بصراحة. كان عليّ أن أفعل هذا قبل أن أذهب إلى روسيا بدلاً من لعبة الغمضة التي لعبناها. والآن لا يقبل أيضاً توجهي نحو الترك - النغوي. ووصلني أنه سماني "مامي". ما العمل إذن؟ لم ينجح مشروعي، ولا ينجح مشروعه. ومع ذلك لا بد أن نلتقي فور عودته من الأبخاخ. ربما من دعاهم إلى قوهم: الأديغي يأتي عقله متأخراً، واحد مثلي..."

ذاق شبق بعض الطعام كي لا يُقال إنه لا يأكل بسبب هواجسه، وخرج بحصانه يتنزهان. وراءه حارسان أحدهما أيدار. يحميان فكره وهدوءه.

خفف شبق سرعة الحصان كي لا يقال "العقل قليل حيث الضجة زائدة" هذا كلام صحيح. خدعنا الناس الأعقل منا ونحن في ضجيجنا. "هل نحن مجموعة كلاب تنتظر أن يلقوا إليها عظمة فتتنازعها؟ من أين جاءت شرعتنا الأزلية الجاهزة غير المكتوبة؟.."

- يا أمير، أخرج الحارس أيدار الأمير شبق من أفكاره، - ظهرت مجموعة فرسان على المرتفع الشمالي.

- من هم؟ ومن أين يأتون؟ - نظر الأمير جهة المرتفع الذي ينحدر منه الفرسان. - ليسوا من النغوي ولا من الأديغة. أحصيت قرابة خمسين فارساً، هيا نعد إلى القرية!

بعد قليل جاءهم الفارس الذي أسرع إليهم بخبر:

- يا أمير جاءك ضيوف من الروس.

- ألم أؤكد على فيشنيفيسكي ومن بقي معه ألا يهجروا قلعتهم؟

- هؤلاء ليسوا من جنود فيشنيفيسكي يا أمير. جاؤوك من موسكو، ومعهم الأمير دودارقوه.

- "وماذا يريدون" - حث شبق حصانه بدلاً من أن يعبر عن غضبه المفاجئ. وتبعه الحارسان.

قال شبق للحارس ماطج بعدما استقبل الضيوف الذين أفسحوا الطريق أمام باب الدار بالمصافحة وإشارات الاحترام:

- لماذا لا تدعون ضيوفنا إلى الدخول؟

توجّه شبق إلى اثنين من الضيوف الستة الذين بانتظاره في المضافة بتحية خاصة. عانق دودارقوه، وقبل أن يجلس رفاقه عرّفه دودارقوه عليهما: الرجل الربعة المتين ذو اللحية الشقراء الواقف في الصدارة هو فيكشيرين فيدور. والكهل الواقف إلى جانبه، النحيف الوجه، هو فيدسوف إيفان. عاد الضيوف والأكابر سنّاً إلى مجالسهم فوقف كتاك وقامبولت إلى جانب قائمة الباب.

شهدت الأصوات الصادرة من وسط الدار على ما اعتادت عليه الأسرة الأديغية، غنية أم فقيرة، بواجبات الضيافة: السكاكين تُسنّ، والقدرور الضخمة تُملأ ماءً... والنسوة يجّهزن مائدة "حواضر البيت": البيض والجبن المقلي واللحم المقطّع...

نقض شبق الصمت القلق الذي ران على المضافة بعدما انتهت عبارات الترحيب والمجاملة:

- لم أتوقع أن تغادر موسكو يا دودارقوه، أظنك جئت في مهمة؟
- لا داعي للقلق يا أمير، نحن مرسلون في مهمة خير. ولكن لا أعرف ما سيكون رأيك.

- هذا يتوقف على ما تعرضه عليّ، - أجاب شبق ببرود كأنه أحسن بما سيُعرض عليه.

التفت دودارقوه إلى رئيس الوفد موعزاً إليه بالكلام. ولما وقف فيكشيرين، نهض معه الرجلان الروسيان. ولم يتأخر الأمير الأباظي عنهم.

- ما سبب وقوفكم؟ - أشار شبق بيده راعباً في جلوسهم.
- لا يجوز الكلام جلوساً في المهمة التي أوكلها إلينا قيصر روسيا كلها يا أمير.
- قال دودارقوه.

- لن نبقي جالسين إذن، هذا لا يتناسب مع عاداتنا، - نهض شبق وأفمق معاً. - أسمعكم.

- قيصر روسيا كلها إيفان فاسيليف، يود تأسيس أسرة من جديد. سمع أن عندك ابنة جميلة، فأرسلنا إليك مستطلعين ووسطاء. يود أن يصبح قريبك إن أعجبته الفتاة.

- هه! - صرخ شبق مما تُرجم له، ثم جلس باسماً: - لو عرفت أن هذا هو هدف زيارتكم لما نهضتُ. اجلسوا! لا ترهقوا أنفسكم. ما يحدث عجيبٌ يا أفمق، هه؟ جاءنا موكب زفة العروس.

- تبادل الضيوف النظرات، وتوجه من لا يفهمون كلام المضيف إلى دودارقوه. وتسلسل كتاك الذي فهم مراد الضيوف من الغرفة. وتبعه قامبولت.

- ألا تقول شيئاً يا أفمق؟ - توجه شبق إلى أخيه.

- أنت عبّرت عن رأيي يا شبق، - حسم أقمق، - رأيك رأيي.
- أبلغ يا دودارقوه رفاقك ما يلي: عندي ابنة في سن الزواج سواء كانت جميلة أم قبيحة. ولكني لا أتحجّج منها على كل حال. هذا أولاً. وبعده: لن أعطي ابنتي للقيصر ذي الوجهين، لست نادماً على زيارتي له فحسب، بل أدين نفسي على نظري في وجهه. سيجد الأرملة إيفان في بلاده أرملة ما تعجبه دون أن يصل إلينا.

نحضر فيكشيرين والشحوب يتسلل إلى وجهه. ونحضر الآخرون باستثناء دودارقوه. وسأل شبق بروسيته المحددة فيكشيرين:

- لماذا أتم على عجلة؟ هل ستغادرون لأننا حببنا ابنتنا عنكم؟ هذا لا يليق بإنسانيتكم ولا بأديغيتنا. لن تغادروا قبل أن تذوقوا شيئاً. ألستم تقولون أيها الروس: العقل في الصباح أفضل منه في المساء؟ عادوا فجلسوا إذ رأوا في القول المأثور الروسي أملاً ما، ولكن ما تلاه من كلام سلبهم هذا الأمل: - لا يعني هذا أنني ممن يغيرون رأيهم.

بدأ الحراس يأتون بالموائد المترعة بالطعام.

هدأت غرفة النساء التي كان قد هيمن عليها القلق، ولكن زهرة نظرت في وجه ابنتها الجافلة ففهمت ما عليها أن تفعل:

- نعم يا صغيّرتي، نعم... قلب الرجل يتغير في اليوم مئة مرة. هؤلاء يقتربون الكثير من الأخطاء في حين يظنون أنفسهم يفعلون خيراً. يا كاتاق يا ولدي، اطلب من أيدار أن يرسل في أثر حاتاي متى انقضت موجة الحرّ هذه أن يأتي إلينا.

في الصباح، وقت ركوب الضيوف، همس فيكشيرين الذي لم يصحّ من نشوة الباخسمة في أذن شبق:

- ألا تسمح لنا بعدما قطعنا كل هذه المسافة بإلقاء نظرة على الفتاة التي رفضت تزويجها من القيصر!

- وهل تظن ابنتي دمية؟ - ردّ شبق بالمزاح، وغمزه: - ربما كنا اتفقنا لو كنت أنت الخاطب...

III

طلت الجارة العجوز قلب داريه بالسمن والعسل. ورشت عليه شيئاً من الفلفل الحار: "يا صغيرتي، يا حلوتي، ما أشدّ بركتك على حميك نقار المسكين! هزأت أخواته الطريق لخدمة والدتهن. أنت حللت محلهنّ، وأعدت السعادة إلى الحم والحماة. وبنات حميك لا تتسع لهن الدنيا. ثم إنك لا تفارقين البستان. ولا تكادين تفرغين من الغسيل والمسح، ولا تفارقين نار موقدك. ألا تزوريننا من وقت إلى آخر تروحي عن نفسك! أعتدّ لرؤية أخيك الأكبر قلقت. لم يبق في إقليم الأديغة من لا يعرفه. أتعجب كيف صرت كأنك من عصافير الجنة في غياب والديك، في حين جعلت منا عروس ابنا الأصغر ذات الرأس المدبب والعينين الزرقاوين لعبة. لا تسمح لأي منا أن يتفوه بكلمة..."

داريه الآن أمام الموقد وفي أذنيها أصداء كلمات الجارة العجوز. وجنتها تتوهجان. ترتاح لنسيم الربيع البارد عبر الباب المفتوح. لا تنسى ما يجب أن تضيف من بصل وثوم وملح إلى ما تطبخ. أرادت أن تُحضّر لأخيها قلقت طعاماً شهيماً فأعدّوا له خروفاً وجدياً. صرفت داريه بأسلوب لطيف الحماة التي دخلت إلى المطبخ أكثر من مرة لتساعددها، وأرسلت معها إلى حميها من كل الأنواع كي لا ينتظر الرجال الغائبين. والآن هرست باستا الذرة الصفراء.

وصلت قلقت قبيل غروب أمس برفقة بسمت وداور فانطلقوا بعد الإفطار إلى قرية أبات. ورافقهم حاتاي وتمتج، ليساهموا في اجتماع للفلاحين.

"هؤلاء مجموعة غير صغيرة، وسيزورهم الأهل والجيران. ألن يكفيهم ما أعددت من طعام؟" - ألقّت داريه نظرة تساؤل على القدور، وتراجعت وجلست على مقعد وطيء. وفي الحال تحرك الجنين في رحمها حركة عنيفة، فوضعت راحتها على بطنها لا يسعها الفرح، وصاحت: "أنتظر منك هذه الحركة... ما أنشط بداياتك يا نور عيني! لا تُشفق عليّ يا روحي، دكّرني بك من وقت لآخر. أشعر الآن بانبعاث الروح فيك..." ركلها الجنين بضع مرات كأنه سمع كلام والدة المستقبل.

نفضت داريه جزءة، وغطّت القدر مقدرة أن ما تصاعد منها من بخار يكفي. وعادت إليها كلماتها إلى جارتها العجوز: "نشأت يتيمة الأبوين ولكن ما

أسعدني بأخي الذي رباني!.. ثم ألم أنشأ في قرية؟ أو لم يكن عندي جيران أيضاً
نورهم ويزوروننا؟ زهرة السيدة الكبرى كانت قاسية قليلاً ولكنها ربّت مينسور
خير تربية. وأنا اكتسبت منها الكثير من الخبرة. وعلى مبدأ: اسمعي يا سلفتي
والكلام لك يا ضرتي، لم تتوجه إليّ بالكلام كثيراً ولكني كنت ألتقط كلامها
حين تعلّم بحدوء رفيقتي ابتتها، الخياطة والتطريز، وطريقة التصرف في الحياة.
وكان يحدث أن أحيط من قطع القماش الزائدة شيئاً ذا قيمة. وأقف على أرض
الغرفة أراقب ما تعلّم ابتتها مينسور...".

قفزت داريه حين سمعت بقبقة الحساء. كان جذع الحطب الضخم الذي يتطايّر
منه الشرر قد وقع إلى جانب القدر فزاد من غليان الحساء. فأعادته إلى مكانه
واستأنفت تداعياتها:

"في طفولتي كنت أهتم بطريقة تربية كنتاج، وأغبطه. كانوا يدرّبونه على ركوب
الخيول واستعمال السلاح والرماية والمصارعة... هذه حكايتي يا نان، لم يربّوني في
الغابة. أنت لا تعرفين، ولا أريدك أن تعرفي أن ذاك الأعرج البغيض ونتغ باعني
لحمزة النغوي. حقاً تعذبتُ في القرم ولكني تعلمت الكثير فيها. شهدت كثيراً
من المشاجرات بين السمين حمزة وزوجته وأبنائهما غير المحبوبين. ولكني
تحاشيت ما لا يُعجبني. تصفيني بعصفور الجنة ولكني نشأت بطبيعة خشنة
نوعاً ما. ومن حُسن حظي أن أخي تزوج من نكر في بداية مراهقتي، فجعلتني
طباعها الخالية من التصنع ولطفها أراجع نفسي. وسافرت معها بضع مرات إلى
بيت أهلها. ليتك رأيتِ علاقاتهم وتعاملهم! لا تخرج كلمة من فم لأماف إلا
التقطوها قبل أن تصل إلى الأرض. لا أحد يتكلم بصوت عالٍ. الإنسانية التي
يتعاملون بها فيما بينهم تليّن الطباع...".

جفلت داريه من صياح الحماة، خرجت ثم عادت إلى مقعدها. كانت العجوز
تعفّ سرب الديك الرومي على توسيخ المسطبة فضلاً عن أرض الدار. عادت
داريه إلى حديث العجوز: "أنت تحسدين قلقت، أما أنا فأشفق عليه. لم تجلب
له شهرته إلا المتاعب. هو يسعى لجمع الأديعة في دولة، ولكن الأمراء يجاملونه
بالكلام، وليس بينهم من لن يحاربه إن استطاع... أنا لا أعاتبك يا نان،
ولكنك جعلتِ كنتكِ تكرهني. وأنت ترهقين نفسك عبثاً..."

انتبهت داريه إلى نخير الخيل ووقع حوافرها، ووصلها صوت أخيها الأجدش المريح. سألت قلقته العجوز الذي استقبل الرجال الداخلين إلى الدار:

— ما الأمر يا نقار، أراك رجعت تنتقل في أرض الدار بكل نشاط. لا تيأس، ستعود قادراً على التحكم بيديك ورجليك شيئاً فشيئاً.

— نعم يا قلقته، التفت إلي الله. أعادت أختك الروح إليّ. ما أشد رضاي عنها، عَمَرها الله ألف عام! — احمرّ خدا داريه من الثناء الذي تسمعه.

ساعدت الحماة والجارات داريه على إعداد المائدة. كانت داريه تلتفت كل مرة تدخل إلى الغرفة إلى أخيها فرحة به فيتظاهر بأنه لا يعرفها. مرة واحدة ابتسم لها ثم عبس بعينه في وجهها. وثُغ هو من لم يكن يرفع عينيه عن وجهه قلقته ككلب الدار في وجه صاحبه.

تفرق الجمع قبل انتصاف الليل. وبقي حاتاي وحده فجلس مع الضيوف قليلاً.

لم تعرف داريه أن حاتاي مسافرٌ. وقفت إلى النافذة تستنشق شيئاً من الهواء الصافي. نسيم الربيع اللطيف يحمل معه ضوع الزهور. والأشجار والأعشاب اكتست بألوان متنوعة. السماء عالية، والنجوم تحيط بالقمر الباهت. القرية هادئة. الكلاب تنبح كسلى في مجموعات هنا وهناك، ثم تصمت. وقلقته وتمتج يشيعان حاتاي.

سَمِع صوت قلقته عند باب الدار:

— منذ العشية ورفاقي وأهل قريتك لا يرفعون عيونهم عني. ولا أرى من اللائق أن أحتلي بك، أنا حملتُ لك خبراً مزعجاً.

— ما الذي جرى؟ ارتفع صوت حاتاي فجأة.

— جاء حُطاب القيصر إلى مينسور.

— وهل هذا معقول! — تتالت أسئلة حاتاي الجُرعة، — ألا يجد القيصر في روسيا من يتزوجها؟ وما أدراه بمينسور؟

— وهل تظني موفد القيصر؟ أقول لك ما جرى فحسب، — ضحك قلقته بخفة. — هل نسيت أن كتاك يخدم في الجيش الروسي؟ وشبق قابل القيصر بضع مرات. من يعرف ؛ ربما أعجبناه!

- يا لها من مصيبة يا قلقت! تنهد حاتاي محبطاً، - جعلت الدم يهجم على رأسي.

توجهت داريه بقلبها إلى حاتاي، وقد وجدت، يغلبها شيء من الحقد، بعض المتعة في تنهدياته: "حسناً، انظر إن كان خيراً، لم تهتم بي حين كاشفتك بعاطفتي المفاجئة نحوك. لم يكن بقي إلا القليل لأحترق في نار حبكما أنت ومينسور. لو كنت أضعف مما أنا لفنيث بينكما..."

سمعت داريه صوت زوجها فعاد إليها وعيها. فتحت أذنيها خجلة من السؤال الذي بلا جواب.

- يا قلقت لو ساعدت من يتلوع كل هذه اللوعة لكسبت ثواباً. - سأل تمتج بصوت أقرب إلى التوسل.

- وكيف أساعده؟ - ضحك قلقت ثانية يغلبه المزاح الخبيث. لن نستطيع الصمود في وجه قيصر روسيا كلها ولو وقفنا، كل الأديغة، في وجهه. شخص واحد يمكنه أن يفعل هذا.

- من؟ مينسور؟ بادر تمتج إلى السؤال.

- فيم تملك الفتاة الحرية؟ - رفض قلقت، - إذا أمسك الأب بيد ابنته وسلمها للقيصر رغبة في التقرب منه انتهى الأمر. واليائس الواقف أمامنا يعرف أن مينسور لن تتخلى عن حاتاي بإرادتها... - وبعد قليل سمعت داريه صوت أخيها أيضاً: - لا داعي إلى اليأس يا صديقي، هذه المرة تصرف الأمير شبق كما أريد تماماً. تحلى بالرجولة والثبات والحرص على القوم. لم ينس الإهانة التي أهانوه إياها. لم يغفر للقيصر تقاسمه أرض الأديغة سراً. صرف الوفد الخاطب بالتي هي أحسن..."

- ولماذا لم تخبرني إلى الآن؟ هل كنت تريدني أن أنفجر؟ - امتزجت لهفة حاتاي وفرحته.

- لا تؤاخذني يا حاتاي، كنت أختبرك. - علت ضحكة قلقت على أصوات الثلاثة. - كيف أزوجك من ابنة جيراني، ويمكن أن تقول: أختي أيضاً، دون أن أعرف حقيقة مشاعرك نحوها؟!

- من الخطورة إذن تأجيل الموضوع مزيداً من الأيام. - استعجل تمتج - لا ضرورة لأن تحضر مؤتمر الفلاحين في دودارقوايه وفي بسج يا قلقنت. هؤلاء يجتمعون كل يوم تقريباً منذ أن وصلهم شفاهاً خبر بيعهم إيانا كالمواشي. يتناقشون ويتناحرون، وأنت تعرف أن قلبي الشاب والفتاة لن يلتئم جرحاهما إن حدث.

- لن تزيد هذه الخدمة على ما خدمني إلى الآن يا قلقنت - توسّل حاتاي بكل جوارحه، - قدّمني ولو يوماً واحداً على موضوعك القومي. لا أريد أن أعيش المزيد إن لم تصبح مينسور شريكة حياتي. تعيش في عقلي وقلبي، في كل جسدي!

- كفى يا رجل، وهل أنا من أقف في وجهك؟! - غضب قلقنت. - أنا لا أحتاج إلى مثل هذا الكلام، بل دُع مينسور تفرح به. ثم لطفه: - لا تقلق، سنحلّ كل الأمور بخير.

اجتمع الضيوف للسفر باكراً. كان قلقنت يعرف أن العجوز نقار سيشيعهم، فدخل إلى غرفة أخته، وضمها إلى صدره العريض. ونصحها أن تكون لطيفة تُحسن معاملة الجميع. وأفهمها دون مصارحة بأنها ستملك قريباً ما تعيش من أجله.

- نحن لن نعود إلى قريبتكم يا أختي. سنعود إلى الجانيه من الجنوب الغربي. تُشيعُ داريه أخاها من خلل الباب. وحموها يتحدث إليه، ووراءهما بسمت وداور وتمتج. أما حاتاي فلا يبدو للعين. وهذا ما جعلها تخمّن أن أخاها لن يستجيب لتوسلاته. تنظر إلى حميها، وتقول في سرها: " لا تيأس ما دمتُ إلى جانبك! صدّقني أنك تستفيد من أدويتي. وها أنت تخدم نفسك جيداً. من حظك أن ابنك كان معك يوم جرحت الدبّ الكبير. وإلا كان قتلك " - تنظر داريه إلى ظهر زوجها المتين معتدّة به.

اختفى الفرسان من أمام الباب وداريه في قلقها وإشفاقها. استقبلهم حاتاي في ظاهر القرية فتى أميرياً أنيقاً. من تحت الكساء المتموج اللون يبرز القميص الأبيض. وعلى الزنار خنجر فضيّ. والجزمة الحمراء، والقبعة العالية...

- لا يخفى أن حاتاي ماضٍ ليتزوج، حتى لو كانت الفتاة تراجعت فمنظره سيغيّر رأيها. - مزح قلقت مع رفاقه.

- لا بد أني من تسخرون منه. وقف حاتاي إلى جانبه باسمًا، ثم انبرى تمتج عائداً.

- تأنقتَ جيداً! - تفحص قلقت صديقه من قمة رأسه إلى قدميه.

- هذا ضروري يا صديقي، - تفقد حاتاي منظره خجلاً، - متى رأني حمي القادم في لباس رثة ظن أني عدتُ عبداً عنده فطردي. ألا تعرف طبيعة جارك يا قلقت؟

- لا يعرفه أخوه كما نعرفه أنت وأنا. كفى، لا تدعنا نتكلم خيراً أو شراً على من ستصاهره. اسمعوا ما خطر لي ونحن خارجون من القرية. حاتاي وداور ليسا معنيين بما سأقول، بل أنت المعني يا بسمت.

- أسمعك يا صديقي.

- حين خلق الله الإنسان، منحه من جهة، وغرّمه من جهة. أعطاه العقل والتفكير والتصور، ويود أن يتدخل بعقله في كل شيء. ها نحن نذهب ونحث الخطأ، ولا نصل إلى مقصودنا. نحاول وتلهف، ولا نبلغ مرادنا. نلتقي ونتحدث، ولا يقتنع أحدٌ بما نقول. أغبط الحيوانات أحياناً. لا همّ لها إلا الطعام والنوم.

- وهل الحياة معلوماً بانتظار الذبح أحسن؟ - لم يقبل داور كلمات قلقت الأخيرة، بل اتخذها مضحكة.

- أقصد أنها لا تتعب عبثاً، - طوّر قلقت فكرته واثقاً: - أنا أعمل ليلاً ونهاراً طوال سنوات، فما كانت فائدة تعي؟

- لا تقل هذا! الفلاحون وقفوا معك. وبين الأمراء من اقتنع بآرائك. - اعترض حاتاي.

- وهل تظن هذا؟ - ابتسم قلقت. - الآن فحسبُ بدأت أفهم أن في العالم كثيرين يخيّل إليك أن تفكيرهم عالٍ، ولكن نظرهم قصير، لا يثقون بغيرهم؛ بل لا يثقون بأنفسهم. متى أخبرتهم بمصيرهم ظنوا أن لك مصلحة شخصية في

كلامك. وارتابوا في مسعاك. من نفعهم اليوم يسمعون كلاماً من أميرهم أو يتلقون منه عطاءً ما فيغيرون آراءهم، ويعودون إلى طريقهم المألوف.

— الإنسان ليس ثوراً يا قلقت حتى يسير بالتلويح له، ويقف متى طلبت منه. —
ساهم بسمت في الحديث. — يحتاج تغيير قناعاته إلى وقت وجهد. وها نحن
كان فهُنّا محدوداً حين حملت مشروع الدولة.

— الفهم قليل، ثم علي الاقتناع بما فهمت يا بسمت. لستُ أعقل منكم. ولا
أدعي أنني أعرف ما لا تعرفون. ولكني أتابع أحوال روسيا وتركيا والنفوي وغيرها
من الدول المستقلة منذ زمن طويل، فأغبطها على استقلالها وعملها على
تقدمها وحماية أنفسها من الآخرين. أمراؤنا يقيمون قانعين على ما لديهم من
مال محدود. يجب ألا نعيش من أجل بضعة أشخاص بل من أجل الأديغة
كلهم. وما يعطينا هذه القدرة هي الدولة. إن لم نفهم، أمراء ومتنفذين
وفلاحين، هذه الحقيقة فلن يقدم لنا الله شيئاً مهما توسلنا إليه. ونعيش حياتنا
كالحيوات التي لم يعجبكم تشبيهي أنفسنا بها، تبعنا تركيا وتشرينا روسيا، ونحن
لا ننتمي إلى أحد...

— ما أعمق ما فكرت يا مبارك النسل! أرهقت عقلي حتى كاد يغلي. — عاد
بسمت إلى جوار قلقت. — أرجوك يا صديقي ألا تطرح هذه الأفكار اليائسة
أمام حاتاي. قلبُ الشاب الماضي إلى زفة العروس يفيض فرحاً وأملًا.
لمح قلقت قبيل وصولهم إلى حدود قريتهم مجموعة الفرسان الكبيرة المتوقفة على
طرف الغابة فسأل:

— من هؤلاء الفرسان الأنيقون، ومعهم عربة الخيل؟

— هؤلاء رفاقي من حشغواي، ومعهم ابن خالي. طلبت منهم أن يسبقونا. ثم
هل أحمل مينسور حتى البسلي على ظهر حصان! جهزتُ العربة. — دافع
حاتاي عن نفسه متوهج الخدين.

— لم تخطئ. فكرت جيداً. — أثني عليه قلقت.

سببت المجموعة التي ترجلت في الدار المجاورة الارتباك في أسرة شبق. رضخوا
للأمر الواقع غير أن المضيف توتر، وبدأ يتمشى على أرض الغرفة ويده إلى
الخلف. كان أفمق جالساً، مرتاباً حيناً وطلقاً حيناً، لا يغيب أخوه عن ناظره.

وكنّا دائحاً لا يعرف مصير أخته ينتقل بين غرفتها وغرفة والدته والغرف الأخرى. وخلالها تنتصب أمام عينيه تنظر من خلل الباب حيناً، وفي قلبه أخرى، فتاة القبرتاي السمراء الصبوح غشوناي التي جرحت قلبه. ومينسور تكبر في كسائها الأبيض الجميل، والغطاء الحريري الأبيض على الرأس. تنظر من طرف عينها خجلة إلى النساء اللواتي يرتبن ملابسها، مستعجلة على تحقق الحظ السعيد الذي ابتسم لها فجأة بعد طول إخفاق. وقلبها ينبض مع الارتجاف الخفيفة السارية في جسدها. والسيدة الكبرى تتدخل بقسوة في ما لا يعجبها. تنظر أحياناً إلى ابنتها نادمة على ما سببته من آلام لها بالتضافر مع زوجها. ثم تتماسك وتخطب نفسها: " كنا نريد مصلحتها وإلا فمن يكره ولده؟! " والوحيد الذي كان فرحاً بصدق هو الشاب قامبولت.

دخل قلقت وداور إلى دار الإمارة فعاد شبق إلى مجلسه. توجه الرجلان إلى المضافة في حين توجه الشباب الآخرون يتوسطهم حاتاي إلى غرفة الفتاة. استقبال الأخوان قلقت وداور بالمصافحة، ودعواهما إلى الجلوس.

- نحن جئنا في مهمة يا شبق، - بدأ قلقت، - الأديغة يقولون: لا رزقي الله فتاة أو شاباً لا يتزوج...

- يا قلقت، - استلم شبق دفعة الكلام من جاره، - لا حاجة إلى كثير من الكلام في هذا الموقف. أعرف مرادكم، وأعرف ما في قلبي الشاتين. إن أراد الله هذا فلن أقف في طريقهما. ولكن ليتكم بكرتم قليلاً فتخففوا من عذابي.

- لم يُخلق بعد من يتنبأ بالغيب يا شبق، - أعاد قلقت النظر في وجه الأمير القلق.

نحض الرجلان سريعاً، فدعوا لأهل الفتاة أن تترك عقب خير في بيت أهلها، وتخطو خطوة خير إلى أسرتها الجديدة، وعادا إلى موكب الحطّاب.

حين صار موكب زفاف الابنة الوحيدة وراء باب الدار انهمرت دموع شبق رغماً عنه.

IV

كان مضى يومان على اتخاذ وفد الخطاب الذي جلب الهمّ للأسرة طريق العودة إلى موسكو. غير أن السيدة مريم لا تتقبل كلام زوجها وأولادها، ولا تريد أن تسمع نصائح أهلها، ولا كلامهم العذب.

"الأب كالجوزة، والأم كالعين"¹ لم تكن غشوناي تسمع هذا القول للمرة الأولى ولكنها فهمت أمس واليوم أنها هي السبب في ما لم تتوقعه طوال عمرها، وهي من سببت الحزن لوالديها أحبّ الناس إليها. توجّب على الأمير الكبير أن يدخل في عز الظهيرة الغرفة التي كان يصدر منها بكاء السيدة وأنيها بعدما صبرت حتى رحل الضيوف. كل شيء كان قد صمت قلقاً.

كفّت مريم عن البكاء حالما رأت زوجها، ونحضت تمسح عينيها بالمنديل الذي ارتوى بدموعها.

- اجلسي، اجلسي! - لطف الأمير تيمرقوه زوجته وهو الذي كان ينوي مخاشنتها كي تعود إلى حالها. وجلس على المقعد غير القريب منها، ونصح من تأملته دامعة العينين قانطة: - وأنا لستُ بعيداً عما يحزنك يا مريم. ولكن لا تُسمعي جماعتنا بكاءك. ما الذي جرى لك وكأنك شيعت ميتاً؟ نحن اليوم في وضعٍ يختلف بفضل الله عن المصاعب التي اجتزناها. أعملنا ناجحة. وأولادنا بخير، وشهدنا فرحهم. وسيسعدنا من سيلدون. وابنتنا الأصغر انسجم بشهادة ضيوفنا مع من صار بينهم. وأحد من يُبرزهم القيصر. وابنتنا الصغيرة كما ترين يتوافد شباب القرية لخطبتها. والقيصر الكبير أرسل إلينا رُسله من موسكو البعيدة.

- ليست ابنتنا وحدها من كان يطمع فيها... - ردت مريم والعتاب يغلب حقدتها، - كانوا عند أمير الجانيه شبق.

- حقاً كانوا في الجانيه، لم يكتموا عنا إخفاقهم فيها.

- وأنت، هل أنت أقل شأناً من الأمير شبق؟ أليست فيك الصلابة التي تحلى بها؟

¹ يغلب على القول الجناس بين العين والجوزة. والمفهوم أن الأم رقيقة والأب قاسٍ.

كان تيمرقوه يرى في وجه مريم صحوها ولكن لا تعجبه كلماتُ أسألتها المِعْرِضَةُ. وهذه الأسئلة هي التي كان لا يزال يخشى منها بعدما غادر الضيوف: " أنا أعرف رداً على ما يحرمك الراحة. - نصح الأمير الكبير نفسه - ولكن لا أعرف كيف أخلّص مما سيليه... ما من نهر بلا مخاضة. هذه المرأة بدأ قلبها يلين بالقياس إلى البارحة. مصير البنت كما تقرره الأم. ماذا نَمَى إليّ من حوابها حين لمح بلغايرقوه لأخته بمجيء الخطّاب؟ نعم، تذكرت: " تتعجبون أنهم جاؤوني من الجانية، ألم أقل لكم إنهم سيأتونني من موسكو؟ القيصر أرسل إليّ خطّاباً مستطلعين. ولكن لا أعرف إن كان مظهره متناسقاً مثل كتاب... " انظر كيف تُبرز ابنَ الأمير شبق، هذا الخاطب الذي لم تره إلا مرة واحدة من بين جميع الخطّاب؟ سمعتها أكثر من مرة تأتي على ذكره في حضرتي.

- الصلابة يمكن أن تعني يا مريم كثيراً من الأمور. - لا أقول إن الأمير شبق محروم من الرجولة والصلابة، واحد من رجالات الأديغة. ولكن لسنا في معرض المقارنة بيننا.

- ماذا؟ هل تخلّيتما عن إمرة القبرتاي - الجانية؟

- وكيف تتخلّى؟ ولكن ليس هذا مقصودي. كنا نظن أننا نتفق في أمر من أكثر أمور الأديغة عمقاً، فتدخلت بيننا الدولتان سراً ففترقا بيننا. حين زارني شبق في العام الماضي، إن كنت تتذكرين، وأفضى إليّ بما يشغل باله، لم نتفق لجهلي أن أمورنا ستسير بهذا الاتجاه. فصلوا بيننا بدلاً من أن نتحد. شعر شبق بالإهانة إذ لم يصدق معه من كان يعتد به ويثق، فاتجه لا يغفر له نحو من كانوا أعداءه وأعداءنا - لم ينطق الأمير باسم القيصر الذي صار حليفه، غير راغبٍ في أن يلقي في قلب زوجته مزيداً من الوسوس. - هذا ما قاله لي ضيوفنا. لم أتوقع أن يتصرف الأمير شبق أبداً بهذه الطريقة.

- هل تدينه؟ - سألت مريم متصيرة بصعوبة.

- لا أدينه والله إلا أن أقول إنه استعجل. ما شأنني به؟ ألا ترين تقلبات العالم الآن أيضاً؟ كلٌّ وما يستطيع به إنقاذ نفسه. لو كان الإنسان مسؤولاً عن شخصه فحسب لهان الأمر، وجد مخرجاً في أسوأ الأحوال.

- ولهذا يا أمير أطلب منك أن تعود إلى وعيك. - لم تدع مريم زوجها يكمل كلامه ظناً منها أنها تقرأ ما في قلبه.

- وكيف أعود إلى وعيي؟ هل تظننني خرجت عن طوري؟ - غضب تيمرقوه الذي كان يجامل زوجته إلى الآن. ثم انتهى حذراً بما لم يجد الوقت لقوله: - أصعب الأمور أن من تقودهم وضعوا أملهم فيك!

- ألا يكفي بهذه الحجة ما فرطنا بيناتنا؟ - احتدّ صوت مريم حتى توهج خداه. وأفلت منها كل ما اعتمل في قلبها: - لم يسمح شبق للأغراب بأن تقع أعينهم على ابنته متجاهلاً طلب القيصر. هذا ما سمّيته بالصلاية فيه... ونحن من هنا... الفتاة الوحيدة المتبقية عندي والتي يتهافت عليها أولاد الأمراء ظلت تأتي بالمائدة وترفعها بأمرك، لا تسألني في ما ستفعل. ولا تسأل أولادك الذي نمت شواربهم ولحاهم... والابنتان الأخريان زوّجتهما للغرباء، تعيشان وحيدتين تكلمان نفسيهما كي لا تنسيا لغتهما الأم، ولا فرحة لديهما إلا ما تعلّمان أولادهما لغتهما.

- مهلاً، مهلاً، فكّر في ما تقولين. واحترمي نفسك. ولا تتناسي ما فعلناه معاً. ولا تجعلينا نندم على من صارتا ربّي أسرة بين النغوي. ولو لم نفعل هكذا لفنينا منذ زمن طويل على يد الأمير قايتقوه وأولاده. ولا يُحِيلُ إليك أن الأمير أبشق وإخوته يقعدون مكثوفي الأيدي. تركيا والقرم اللتان وضعتا اليد على نصف إقليم الأديغة لن تتوقفا عند هذا الحد. هؤلاء إن أجلستهم على طرف مائدتك استولوا على صدرها. ولذلك عليك أن تؤيدني عقلاً وقلباً. وليس قيصر روسيا الذي حالفته بعيداً عن تفهّم أحوالنا. وفي قولي إن الأمير شبق استعجل في موقفه وجهة نظر. لن تبقي روسيا شاطئ البحر الأسود طويلاً بيد تركيا. وفي هذا كان الفلاح قلقت أعقل الجميع.

- وماذا يستطيع قلقت الذي تصدعون رؤوسنا باسمه أكثر مما تستطيعون؟! - نطقت مريم مرة أخرى بما تعلّق به عادة على اسمه.

- كم قلت لك ألا تأتي على سيرة زعيم الفلاحين قلقت بهذه الطريقة المهينة! سأروي لك خبراً آخر. قيصر روسيا يؤيد قلقت في رفضه لتركيا والنغوي. وهذا هو السبب في أن نصف رفاق فيشكيرين ودودارقوه لما توجهوا إلى أستراخان

دخلوا إلى البسلي. وإن كنت لا أعرف إن كان سيُسمح لهم بالتجول في الأرض التي انتهت علاقتهم بها. الناس الذين يتوجهون نحو تركيا والقرم، أمراء كانوا أم فلاحين أم متنفذين، يزيدون يوماً عن يوم في الجانيه. ويقال إن أبشق أطلق عملاءه مثيري الفتن في البسلي والأبزاخ والبجدوغ. والأرجح أن شبك ضرب رأسه بالفأس متردداً أين يتجه. وإن كان محظوظاً صدق معه النغوي. الرافضون لتحالفه السابق مع روسيا جاهزون في أي لحظة مناسبة للهجوم عليه.

- ونحن ما مصيرنا إذن؟ - ارتعبت السيدة مريم.

- نحن تجازونا هذه المرحلة. ألا ترين وقوف قيصر روسيا إلى جانبنا؟ ألم تسمعي ثناء ضيوفنا على ولدنا سلطان؟ قالوا إنه من أقرب الموثوقين إلى القيصر.

- ولم يتأخر ابن الأمير شبك كثيراً عن ولدنا في خدمة القيصر. والآن بقي الأب والابن وحدهما في الساحة. رأيت في كتاب حين زارنا شاباً ممتازاً.

"وما شأنك به أيتها البائسة؟! - نهر تيمرقوه الزوجة في سِرّه - الأفضل ألا تتجاوزي الحظ الذي هبط عليك من السماء. لا أعرف لماذا تعلق قلبك به فكثير من أولاد الأمراء من ناحيتنا يطمعون في ابنتنا. وليس قليلاً من سيأتونها اليوم وغداً إلى أن تتزوج. ليأتوا إليها، وليأملوا فيها! ولكن أظن أن موضوعها محسوم. ويؤيدي دومانقوه وماسرقوه. أما بلغايرقوه الشفيق فهو أسير أمه وأخته. ولكن إلى أين يتجاوزنا؟ رأي سلطان أبلغنا إياه الضيوف. وربما عرف القيصر من خلاله أن له أختاً جميلة... وبليشيف؟ هو أول من قال لها: "سنزقك إلى موسكو". وحدث كثيراً أن غازلها قادة الجيش والضباط الذين زارونا لأجل أولادهم وإخوانهم. وكانت تحيب: "إذا كان إلى حيث يقيم أخي الأكبر فأنا جاهزة في أي وقت" فلا تتراجع. ولكن لا يستوي يا بنتي أن تسافري إلى حيث يقيم أخوك وأن تُرقي إلى القيصر. لم يعد يهمني إن كنت ستعجبه أم لا. ما يشغل بالي هو كيفية تعاملك مع القيصر وحاشيته حين تصبحين سيدة القصر الكبرى. سافروا ملحين على أنه يجب إيصالها إلى موسكو في الشهر الأول من الصيف حتماً ليراها القيصر. مهلاً: ماذا يعني هذا الكلام؟ هل سيتزوجها إن أعجبهت وإلا أعدناها؟! أعاد الخاطر المهين تيمرقوه إلى وعيه، غير أنه كتبه في سِرّه. نظر في وجه المرأة وأجاب على سؤالها:

- ماذا قلت؟ هل تقصدين كتناق الذي كان يخدم مع ولدنا في الجيش الروسي؟ لا أعرف بِمَ أجيبك في هذا. لا أظن الأب والابن بقيا وحيدين في الساحة كما تقولين. وكيف يترك الابن أباه في موقف صعب؟ ولكن يحدث أن تنتكس على يد أولادك...

"ما لم تفعله أنت بنفسك لن يفعله بك هؤلاء... - طفا على سطح ذاكرة مريم ما يُقلق الأمهات دائماً في سبيل حماية أولادهن - مهما فعل الأب فلن أقبل أن يتركه ولده وحيداً. نحن الأديعة ليس فينا هذا الطبع بفضل الله. أولادنا أطاعونا إلى الآن. لم يخذلونا، ولم يُخرجونا. ابنتاي الكبيرتان تساندان زوجيهما، تحميانهما من الخطأ. ولكن ماذا سأفعل بخصوص ما يناقشني به الآن؟ ثم لا تحاول أن تمنعه عن تنفيذ ما خطط له! ماذا جنيت حتى أرمي ببناتي في بلاد الغربة؟ ولو كان العريس كصهرَي الآخرين شاباً عازباً لكان الأمر. كيف أسوّغ زواج ابنتي من أرمل ذي ولدين وإن كان قيصراً؟.. "

- كم عمر هذا الأرمل؟ - غلب على مريم استياؤها.

لم يملك تيمرقوه إلا أن ينتفض برأسه وإن كان جاهزاً للسؤال. قال في نفسه وهو يرميها بنظرة لطيفة: "إن كانت تسأل عن العمر فلا بد أن موقفها يلين" ثم أجاب مناوراً حول السؤال:

- متى بقيت أرملًا وأنت حديث العمر، سواء كنت سلطاناً أم أميراً أم فلاحاً، ووجب عليك تربية ولدين، فلا بد أن تتزوج امرأة ثانية تحمل إليها أفراحك وأتراحك. ثم إن مهمة السلطان ليست سهلة كمهمات الآخرين. وهل يمر يوم علينا، أنت وأنا، دون أن نتشاور في ما سنقول أو سنفعل؟ ومن سألت عنه، وينوي لنا الخير، ليس كبيراً في العمر. من عمر بلغايقوه ولدنا. لا أظنه بلغ الثلاثين.

- لا تُنقص من عمره، هو في الحادية والثلاثين.
- نعم؟ من أين تعرفين؟ أهو بلغايقوه من أخبرك؟
- أعرف أياً كان من أخبرني. وأنت لا تُنقص منه.
- كفى، أليس عاماً واحداً؟ - ابتسم تيمرقوه.

- ما أرفضه هو كونه أرمل وغريباً عن قومنا. سأموت وأنا أتمنى صهراً أديغياً. تسلبوني البنت الوحيدة التي اشتيتها أن ترزقني بحفيد يجلس في حضني ويتكلم معي بلغة القبرتاي... - انفجرت مريم باكياً. - ما الذي جاء إليّ بالأرمل الوحيد من روسيا؟ حتى دون هذا لا يُطيقنا من نعيش معهم. سيشمت بنا مُبغضونا، ولن يقبل المسلمون. أنسيّت كم هاجمونا حين بقي ابننا في موسكو؟ - يا سيّدة، سأتناسى كثيراً من الإهانات إن عرفت أنّها لن تؤذي أسرتي وقومي. ماذا تريدان أنت؟ كنتِ تزوّجينها لو جاءنا سلطان تركيا أو خان القرم خاطباً؟

- لا أريدهما، ولا أريد الآخر. - أجابت واشتكت: - وهل عندي القدرة على أن أفعل هذا؟

- إن لم تكن عندك ففكري قبل أن تتكلمي. أنت تقولين ما عليك، وأنا أفعل ما أريد. - نهض تيمرقوه ضخماً، - أشباهكم من يُسمّين بالواقفات في طريق الحظوظ... - ردّ بقسوة على المرأة التي نسيت أن تقوم لقيام الرجل، وخرج من الغرفة. وقال دون أن يلتفت إلى أولاده الثلاثة الذين تبعوه إلى المضافة: - اذهبوا وهدّثوا والدتكم. أنت يا بلغايرقوه توقف لحظة. اجلس!

- لا يا أمير! رفض بلغايرقوه مفارقة قائمة الباب.

- من يسمح لك بالجلوس لا يعود فينتقدك!

- لن أستطيع يا والدنا أن أفعل ما لم أفعله إلى الآن.

- لا ينفع معكم الكلام الحلو ولا القاسي. - غمغم الأمير ثم تنهّد، - لا أعرف رأيك في المهمة التي جاءنا بها الضيوف. ووالدتك لا تزال على رأيها. أنا لست ممن ينقضون أقوالهم وأفعالهم. ولكني لا أريد رغم ذلك التسبب في حزن والدتكم. ولا ترفض الرضوخ ولكنها فريسة القلق والوساوس، فإن ساندتها أنت أيضاً...

- لا أعرف ما الذي يجعلك تستنّج هذا عني يا والدنا. إن ظننت أنّي لا أوافقكم أنت وإخوتي فأنت مخطئ. تشاورنا، نحن الإخوة، مع مراعاة رغبة أخينا سلطان في الموضوع، فقررنا الموافقة.

- حياك الله. بدا على صوت تيمرقوه الرضا.

- نفهم قلق والدتنا وألمها. كل الأمهات متشابهات يا والدنا. أصدّق ما تقول.
من يرسلُ برضاه ابنته إلى آخر الدنيا؟ ومع ذلك فنحن نُفهم والدتنا بالملاطفة
أن هذا ضروري. سترى إن لم تقبل.

- هل كلّمت والدتك؟

- نعم، وبخّنتي قليلاً، ولكني أظنها تتقبل شيئاً فشيئاً.

- وأختك؟

- هذه من الصعب معرفة وضعها يا والدنا. وأنا لن أستطيع أن أُمليَ عليها ما
ستقول أو تفعل. ولكن لا أظنها تخالفكم.

- لا تُرعبوها بإجبارها. شجّعوها فحسب. ننتظر وصول أختها للتنجّاج بين
يوم وآخر. هي التي تستطيع إخراج أخطر الحيات من وكرها. وهي من تستطيع
حلّ ما تعقّد. إمضِ إذن والتحقّ بإخوتك، هذا ما كنت أريده منك. لا تجرحوا
والدتك مهما قالت ومهما تصرفت. ولكن لا داعي لأن نعرقل الموضوع الذي
صار أكيداً. ربما كان الله قدّر هذا. سنتحمل حكمه مهما كلّفنا من عذاب.
اختلطوا بالناس، اسمعوا آراءهم، ومهما تصرفوا معكم أو قالوا لكم فلا تُطّلعوهم
على موقفنا. تكلمنا في الموضوع في اليوم الأول، الآن للتأكيد فحسب.

ظن الأمير أن المشكلة الآن خفّت ولكن صورة غشوناى انتصبت أمامه في
وحدته فتألّم لها. " ما العمل إذن؟ إما نحن وإما أعداؤنا. حينما أنفسنا طوال
سنوات عن طريق الأختين الكبيرين. ماذا كان يحدث لنا لو لم نفعل هذا؟ لا
يُستبعد أن حوافر النغوي كانت سحقتنا. حيثُ أسرتنا والأديغة معاً. وكان هذا
زمناً عصيباً اجتزنه. والأرجح أن زماننا الآن أصعب مما مضى. الناس كلما
تحسنت ظروف حياتهم، وكلما فكروا في منشئهم ومصيرهم، ازدادوا قسوة.
كانت دول تركيا والقرم وروسيا قائمة زمن أجدادنا ولكنهم لم يكونوا يعلمون
بوجودها وعدمه كما نعلم الآن. عشنا إلى الآن نتكلم لغة واحدة، منعزلين،
وقلما نختلط. نسمي قرانا بأسماء الأمراء. ونظن أننا دولة، ولا نريد أن نرى قيام
دول من شمالنا وجنوبنا وأجانبنا. كنا نزور بلاد الروم، ونصل إلى روما، وربما
ليس في بيزنطة بقعة لم تطأها أقدام الأديغة، وكذلك بلاد الفرس. ولكن لم
نستفد فكرة الدولة مهما زرنا. وهل أنا أحسنُ منهم؟ أنا مسرور لأن قيصر

روسيا يخطب ابنتي بدلاً من أن أوافق الفلاح قلقت على مشروع الدولة، وأوتخ المرأة، ثم أصالحها. أظن أن شبق وأبشق ومشقوه وغيرهم من الأمراء ينظرون إلى أبعد مني ولكنهم لا يتجاوزون حدود إماراتهم..."

لفتت الضحكة الصادرة من جهة الدار انتباه تيمرقوه، فنظر من النافذة. رأى بلغايرقوه وغشوناي يتحادثان، فقال لنفسه راضياً: " يهمني أنك مسرورة يا بنتي، وأني لا أذنب بحقك، ليس من أجل شخصي... " - ما إن شرع في تبرئة نفسه حتى أعاده ألم القلب إلى مكانه.

ألتنجاج وزوجها بيكبولات وابنهما سعيد - بولات في قرية إيداريه منذ أكثر من ثلاثة أسابيع. استطاعت ألتنجاج خلال ثلاثة أيام مصالحة الأسرة التي كانت في خلاف. وهذأت قلب والدتها. وشجعت أختها على الخطوة التي بانتظارها. وجهزتها لرحلة موسكو التي تستغرق شهراً كاملاً.

كان الصباح لطيفاً حين حان موعد رحلة غشوناي إلى موسكو فالمشيوعون والمرافقون في فرح شديد. وتيمرقوه بين أرض الغرفة والنافذة، ولا يخرج من المضافة. ولما ودعت غشوناي أمها بالعناق عادت إلى جمع النساء الذي خرجت منه مخفية انفعالها. وحين انطلقت العربّة المحاطة بالأفراس المزينة صاح الجميع من مودعين ومشيعين بصوت واحد: " مع السلامة!" وأمها هي الوحيدة التي قالت بصوت منخفض: " أعادك الله إليّ يا بنتي إذا لم تُعجبي من يزفونك إليه!"

V

الوقت صباحٌ ثقيل. تكاد الشمس تطلّ من فوق الأشجار غير أن الرؤوس تغلي من أشعتها الحمراء الفاتحة. القمة البيضاء التي تبدو غير قريبة ولا بعيدة هي من تتأمل العالم اليوم بوجه طلق. وسائر عناصر الطبيعة من بشر ومواشٍ وطيور وهوام تلجأ إلى الأفياء. والساقية الصغيرة التي تحمل ماءها الحار إلى البحر تبدأ من أسفل الجبل، فتصل إليه ملتفة حول الغابة الملأى بخلايا النحل.

الأمير تاخ جالس على شاطئ البحر. وجهه المنطفئ وصدره الغائر متوجهان إلى الشمس التي تتسلل إلى السماء الخالية من الغيوم. والرأس الحسير تتناثر عليه

قطرات العرق فيمسحها بالمنديل الذي يستعمله للسعال. ينظر من فوق البحر، تسلبه الأمواج المتدافعة قلقاً أفكاره. يسبل جفونه ويخاطب نفسه: " الشمس تشرق، وتبعث الحياة في ما تصل إليه أشعتها، وأنا من لم يعد يشعر بدفئها ولدّها. والساقية الصغيرة تحاول جهدها وتتعثّر، وتجري كأن أحداً أوصى في طلبها. إلى أين، وماذا ينتظرها؟ لا تعرف أنها تضيع في النهر الغزير وراء الجبل. ونحن ننتهي دون أن نعرف إلى أين ولماذا. ما الفائدة من أن تجري أو تتلهف أو تتنفس، ترتفع عن الأرض على رؤوس أصابع قدميك؟ لن تكبر أو تقوى مهما فعلت. أغلى ما في الوجود هو الصحة. ومن هذه الناحية لم يعطف الله عليّ، وتركث الغيرة تنهشني. عشثُ إلى الآن عبثاً أوزع عقلي على أصحاب الرؤوس الفارغة. مهما حاولت فلن تزرع العقل في من لا يملكه..."

– ألن تؤذيك الشمس يا أمير؟ لا تجلس تحتها طويلاً، – أربعه الحارس الذي أتاه من ورائه.

– كم نبّهتكم يا نجاق ألا تأتيني من الخلف! – مط عنقه الإجاصة والنفت إلى الخلف. داهمه سعاله. وأتبعه بعتابه: – منذ متى تؤذي الشمس؟

– ساحني يا أمير لم يكن عندي طريق آخر إلا الماء. فكرت في سعة ثم تراجعت.

– لست محتاجاً إلى أعدارك. – غضب الأمير تاح، – طلبت منك، يا من غضب الله عليه، أن تمسح لي رأسي براحتيك، لا بحرقتك الوسخة. لا بأس الآن، أنعشت روعي. ما الأخبار في القرية؟ أليسوا في صحة جيدة؟

– كل شيء تمام يا أمير. سألوا عنك، وعن موعد عودتك، واشتاقوا إليك. ثم غمغم في سِرّه: " يتمنون ليلاً ونهاراً أن ترحل عنهم وتُريحهم. أعطني المخزن الذي تعدني به ولو مرة واحدة حتى أكسر عنقك الإجاصة، فأنا لست كالأمير فواخ الذي جنتّه..."

– بديهي أن يشتاقوا إليّ... ما سألت عنه أمرٌ آخر. ماذا يدور من حديث في القرية بعد اجتماع أمراء الجانيه. من يؤيدون، ومن ينتقدون؟

– أهذا سؤالك يا أمير؟.. – سأل نجاق بنبهة اعتذار، وأجاب: – الأخبار مختلفة في هذا الموضوع. الجميع باستثناءك يا أمير يغربلونهم بغربال الفلاحين.

- هل عضني كلب مسعور فأكون وحدي؟ - فهم الأمير معنى الكلام ولكن رياءه غلبه.

- وكيف يعضك كلب مسعور يا أمير؟! الآخرون يتهاشون أسوأ من الكلاب.
- هذا غير معقول! - تظاهر تاخ باستغراب الخبر.

- نعم يا أمير، حسناً فعلت إذ تركتهم وجئت إلى حيث تربى خلايا النحل.
- وما رأيك في طريقة هروب الأمير شبق؟

" من منكما هرب؟ - ابتسم نجاق في سره، - أصلح الأمير شبق اتجاهه نحو روسيا بحجة حماية قومه، وتحالف مع تركيا والقرم. ولم يقتصر على هذا فتحلى بالصدق والصلابة نحو نفسه ونحونا. ولم يسمح لوفد القيصر أن تقع عينه على ابنته. ولم يكتفِ الوضع عن اجتماع أمراء الجانيه الذي عقده. وتحالف مع أعداء روسيا مقدِّماً مصلحة الأديغة، غير هياب عواقب سلوكه. وأنت لم تنجح مساعيك مجدداً فهُرعت تدفئ حلقك المتعفن في الشمس مع خلايا النحل. وكما يقال: الكلب الصغير ينيح والحصان الجفول ينزلق، فأنت تقيم لا عزاء لك من الإهانة التي ألحقت بك إلا العسل الذي تدهن به شفتيك. وهل تظننا لم يصلنا خبرُ صراخ الأمير شبق، وردّ عادل - جري العنيف عليك؟.. أأنت من سيحبسني في الخزان؟" - تفصّى نجاق من همومه، ثم لطف الأمير:

- ما سألت عنه يا أمير لا يساوي قُلامة ظفرك. هو مثل الدجاجة تنبش مصرعها بساقيها. - قال الحارس، ثم اختتم معتدلاً بنفسه: - سنشهد كما تنبأت وقد قضى من وراء رأسه الفارغ.

- لا شك في هذا ؛ عيناه تشيان به، - غمغم تاخ في فمه، ثم أضاف: - لا أعرف متى مواعده، ولكن كما يقال: تُعدّي مرة واثنتين، وفي الثالثة تقع... - فرح تاخ من كلماته بصوت رفيع. وسأل عما يشغل باله: - لا أحد يديننا إذن.

- صحيح كنهار الصيف الحار. ولكن لا أعرف كيف سيتصرف معنا.

- ومن الذي سيتصرف معنا؟ - لم يفهم تاخ فرفع رأسه.

- أتكلم على النهار يا أمير، لا على شبق اللعين. - استدرج نجاق فرعاً. - نهار الصيف طويل، يمكن أن يتبدل مراراً.

- حتى المجنون يعرف هذا... - الآن يهوي تاح لنفسه بقبعة اللباد. وينصح الرأس المتصبب عرفاً أمامه: - نخذ على الأمير شبق فنصفه بفارغ الرأس ولكنه غير هذا. يعرف مصلحته جيداً. نلاحقه منذ سنوات فلا نقدر على الإطاحة به. نحاول إغراقه في الماء فلا نراه إلا خارجاً منه ويغرقتنا نحن. ولو كان يقابلنا بالمثل لمان الأمر، ولكنه لا يتنازل أن يفعل هذا فيدفع الناس إلى السخرية منا... - ثم غير كلامه قائلاً لنفسه: " لماذا أكتشف أسراري لهذا الحائي؟ لا أتذكر أحداً فهم موقفني من قشقه. ولكن ليقُل كلُّ ما يريد. أنا أستمع بمجابهته. وكما يقول المسكين فواخ: أكتسب طولَ قامة فوق قامتي " : أراك يا نجاق قاعداً فاتحاً فمك كغراب صيفي، والعرق يسيل منك.

- أكاد أنفجر يا أمير من الشمس.

"تكاد تنفجر من الصحة ووجهك ينضح بها ولو تصببت عرفاً. - طفا حقد الأمير على حارسه انتقاماً لصحته هو. وهاجمه السعال ثانية فسد فمه براحته بدلاً من المندبل. ثم توقّف عن هذا. ارتاح حين لم يلاحظ أثر دم على المندبل ولكنه لم يستطع تجاوز الاحتقار الذي يُكنّه للرجل السليم أمامه، - لو كنت مثلي لرأينا أين كنت الآن... الله أعطاني العقل والفطنة والإنجاز، ولكن لا أعرف لماذا غضب عليّ فحرمني منها كلها بالمرض. يغلبني الشر حاسداً الأصحاء. أعرف هذا من نفسي، ولكن لا أفهم لماذا أعطى الفلاحين من أمثال الواقف أمامي الصحة وسلبني إياها. فيمَ يفضّلني هؤلاء؟ لا يشعرون بالتعب، يعجنون الزبل، وأيديهم في الأرض دائماً، ومع ذلك فهم أقوىاء كالثيران. دعك من الفلاحين! حتى الصحة التي يتمتع بها شبق الأناني لم يسعدني الحظ بمثلها. أنا يمزقني المرض، وهو يطوف في أرجاء البلاد. ويحاجج الملوك والخانات. ويقنعهم بآرائه. يقال إنه ما من داء إلا له دواء ولكن المرض الذي لا دواء لهم يفيني. لو عرفت أني سأتنفس ملء صدري هواء ولو يوماً واحداً لما فضّلت عليه شيئاً... أنت تقول لي إنك تكاد تنفجر ولكني أنا من في هذه الحالة..." عاد الأمير تاح إلى حاله وقال للحارس باسماء:

- أنت أصغرُ مني عمراً بكثير يا نجاق، ومع ذلك تتعرق. اجلسْ في ظل الشجرة إن شئت، أو ابرد في الماء. أنا لم أخض في الماء منذ زمن طويل. اسبح واستحمْ فتدكّرني بشبابي. أفرشِ الكساء تحت ظل تلك الشجرة، واسترخ. فرش نجاق تحت الشجرة، ودخل المضيق المائي. خلع ملابسه، وقفز في الماء الصافي بضعة مرات. غبط تاخ حارسه فاقترب من الماء.

- هل الماء بارد؟

- حارٌّ بالنسبة إليّ لولا أنه قادم من الجبل.

- ما معنى هذا؟

- ربما بارد عليك يا أمير.

- كفى، ماء الجبل بارد، أخرج!

- اهدأ يا أمير لحظة! - نَبّه صوتُ النحالِ القادمِ مسرعاً الأميرَ، - في الماء شبكة صيد.

- لا تتحرك يا نجاق! - نادى تاخ من الأعلى. - ولم يملك إلا أن يُتبعه بقوله: " ليتك سقطت فيه فأخرجوك تتخبط!"

- ليتكم ابتعدتم قليلاً يا أمير، أنا عارٍ.

- ألسنتُ عارياً طوال عمرك، - يقول تاخ من تحت أنفه ناقماً، ويقود النحال إلى ظل الشجرة، - لا أعرف رأيك أنت يا جمال في حياتنا. ما يقوله أحدهم ينقضه الآخر. والآخر يستحي أن يمثل أماننا عارياً. لا أدعي أننا محرومون من العقل والإنسانية والرحمة. نقدّم من نظن أنهم سيُحسنون إلينا، فيُغرقونا. ها هو الأمير شبق، انظروا ما فعل بنا. ظل ينتقل من هنا إلى هناك حتى أتاح لروسيا أن تبيعنا. وأبعد النغوي عنا. والآن عاد إليه عقله فيحاول التودد إلى خان القرم. وصحبه إلى الحرب لتثبيت إمرته.

- ألن يشفق علينا خان القرم إن حمل السلاح معه دون أن يرفعه في وجهه؟ ألا يمكن أن يكون هذا ما يفكر فيه الأمير شبق؟ - قال النحال العجوز مجاملاً الأمير.

- أنت مخطئ يا جمال. - رفع الأمير صوته المتمزق، - من تعاده يعادك. ما أكثر ما رجا الخان دولت - جري الأمير شبق ونصحه ألا يتحالف مع روسيا،

ولكنه رفض. ظن أنه يخدع الجميع فبقي وحيداً في الساحة. والآن ينوي أن يرفع السلاح مع النغوي كما فعل مع روسيا فيعود بالمديح. إن حدث هذا فأنا أعرف كيف أتعامل معه... - نظر إلى الحارس الذي سمعه فقطع كلامه، ونادى: - هل أثر الماء فيك يا نجاق؟

- والله ممتع يا أمير.

- ولماذا لا يكون ممتعاً!.. - "نحن نخشى من طست الماء الحار وأنت كالسمكة في الماء البارد..." "اسمع يا جمال، قدّم من عسلي بشمعه لنجاق. وأنا سأرى ما في الخليتين على الطرف.

- يا أمير، - قال نجاق، - النحل يتسلل إلى قبة قميصك.

- أعرف، أريده أن يلسعني.

- نعم؟ - استغرب نجاق ما سمع.

- كيف تخشى من لسع النحل وأنت تحب عسله؟ سُمّه دواء... الحمد لله لسعني. إن لم تلسعني عدة نحلات يثقل علي المرض. ولا يطمئن قلبي. وأنت لا تهجم على العسل المشمع؛ سيقنتك. - دخل الأمير ساخراً بين الخلايا.

بعد عدة أيام خرج فرسان من الغابة قريباً من الخلايا. تعرّف تاخ على اثنين منهما: الأمير جان ومامي.

"ماذا يلاحق هؤلاء؟.. - خاطب نفسه ساخطاً. - الأمير جان الأشقر لم أره بعد اجتماع الأمراء. ومامي لم تقع عيني عليه منذ جنازة والديه. وأظنه سيكون ضحية عناده. حين سمع أن شبق توجه نحو تركيا والقرم عارض فطرد من الجيش ومنع من الإقامة في الخانية فتوجه إلى قازان وأستراخان بتحريض من شبق، وهذا هو سبب معاداتي للأخير..... لا يتورع عن إيذائك. لي عتبٌ على مامي؛ لم يعرج علي طوال عام كامل. وفي المرة الوحيدة التي زار فيها الناحية تجاوزني واتخذ من الأمير جان مضيفاً. منذ متى فقدتُ ثقتك؟ لمر ما سيحدث لك الآن. لا تظني هنا بلا جذور مثلك ولا أعرف مع من أتحالف. ما خطر لي الآن كان عليّ فعله منذ زمن بعيد. بقيت أقاوم نفسي بحجة أي أمير فأفنيّت عقلي وقوتي في صراع أمراء لا جدوى منه..."

تغلب تاخ على مشاعره واستقبل ضيوفه بصعوبة. وقادهم إلى بناء عالي السقف. وريثما تبادلوا عبارات الترحيب وصلت غُدة الاغتسال، ووضعت على الطاولة المثبتة في الأرض حواضر البيت. وبعدما أكلوا قليلاً وصل الأمير جان يتفقد المرعى والجبل المطل عليه.

- والله يا أمير كنت أظن أن لا منحلة تداني منحلتي على الشاطئ، ولكن الموقع الذي اخترته أنت يسلب اللب. هو كالجنة. الهواء فيه نظيف ينعش الروح. وصوت الماء يمنحك الصفاء.

- أنطق الله فمك بالخير دائماً يا أمير. يسرني أنك امتدحت صنيعي ولو مرة واحدة. - صاح المضيف. هيا صُوبوا من شراب العسل، لنعتبر كلامك خطبة كأس!

- عسلك ولحم الجدي طيبان، - زاد الأمير جان من مديحه. وأضاف كي لا يسيء الفهم: - حقيقة أنا أغبطك، لا أحسدك.

- ألا يفيض النهر؟ - سأل مامي كئيباً عابساً.

- هل تأتي إلى هنا لأول مرة يا مامي؟ - ردّ تاخ على السؤال بسؤالٍ غير متحمل طريقة سؤاله.

- كيف لأول مرة يا أمير؟ وهل قليل ما أكلتُ هنا من العسل بشمعه؟ وهل قليل ما لسعني النحل؟

- هكذا! - تظاهر تاخ بالسؤال، - حسناً إذ لم تنس. تعادلنا إذن. ولكن إذا كان سؤالك جدياً فليُجبْ نحالي. ماذا يا جمال؟ هل تتذكر النهر فاض يوماً ما؟

- أميرنا المنير كلمته كلمة واحدة، وفعله فعلٌ واحد. - كان جواب النحال حاضراً. - لا ينطق إلا بعد تفكير، ولا يتفوه بغير الصدق. جعلنا نبحث طويلاً عن هذا المكان. واختار بنفسه الضفة العالية. ومنذ عدة سنوات لم يزعجنا النهر.

- حياك الله يا جمال. لم يأت ضيوفنا ليقِيموا كلامنا. قطعوا طريقاً طويلاً لئلا نزعجهم ويرونا ولذا أكرر لهم شكري. نجلس ونتحدث ونأكل ونشرب. نحن لا مشكلة معنا يا مامي، كيف حالك أنت؟ لم نلتق منذ زمن بعيد. نسأل عنك فنسمع

أخبارك. حرّ في نفسي ما حرّض قنشقوه شبق على أن يفعلوه بك إن كان صحيحاً. مهما جرى لك فأنا أول من كان عليك اللجوء إليه. فات الأوان الآن. ولكن لست وحدك من فوجئ بمعاملة الخان دولت - جري له بهذه الطريقة، نحن أيضاً لم نتوقع منه هذه المعاملة.

- ما العمل يا أمير؟ هذه طبيعة النغوي الذين سفكوا الدم الأديغي والدم الروسي. - إذا عرفوا أن لهم مصلحة، - نظر مامي إلى خنصره الذي فقده، وتنهّد، - فلن يسألوا عنك حتى لو أعطيتهم إحدى عينيك. تشقى بي شبق الدجاجة الدائخة. الحق أيها الأميران العزيزان أن قلقت بالقياس إليه يتمتع بالرجولة والصدق وينظر إلى البعيد. لسنا نحن ولا شبق من عنده قلبٌ أديغي أصيل بل قلقت. لا تظنوا أنني أبحث عن مصالحته والتعاون معه، ولكن أظننا وقعنا في موقع علينا أن نصّدق فيه ولو مرة واحدة.

- هل تسمع يا أمير جان ما يقول ضيفنا الطارئ؟ ارتعب الأمير تاخ من الكلام الذي لم ينتظره، - يدين نفسه ويدينا!

- لم يُخطئ، - أجاب الأمير جان باختصار.

- هل جئتما إليّ متواطئين؟ - كان كمن يمزح ولكن ما يتوجس منه طفا على سطح الذاكرة.

- لا تحكم علينا بهذا. ما قاله مامي أسمع له لأول مرة. - حسم الأمير جان الموقف.

- إن كان هذا جوابك فسأطلعكم على ما في نفسي. أوافق على أقوال مامي دون نقاش. كان عندنا عدوان في الجانيه. والآن بقي عدو واحد. ولا شك في أن قلقت الزعيم الفلاحي سيقف معنا في هذا. وأنا تكفّلت بالموضوع. نعم يا مامي نعم، لا تستغرب؛ سأخبرك بغيره أيضاً ولكن لا أعرف إن كنت ستتقبله. أنوي مصالحتكما، أنت وقلقت.

- كان حسناً لو تحقّق هذا. - وافق الأمير جان.

- وسأصطحبك أنت أيضاً يا أمير، - ابتسم تاخ في سرّه: " هذا يريد أن يحشر نفسه في كل شيء"، - سآتي على ذكرك في أول لقاء لي به، ولكن وحدي. ثم أتصرّف تبعاً لكلامه؛ أراك لا تقول شيئاً يا مامي؟

- وماذا أقول؟ حياك الله، إن استطعت... لا شيء يلجمني إذا كان من أجل قضية الأديغة. إن كان مثلُ قلقت الرجل الأديغي يحتاجني، عملتُ، لا سائساً عنده، بل قدمت له قلبي وروحي.

صَبَّ نجاق الذي كان مع الأميرين الشراب كصديق لهما. ثم لمامي دون حماسة. ولم يتحمل المجرم الذي أفسد النغوي أخلاقه سلوكُ نجاق، فاحتدّ:

- ألا تعرف كيف تمد يدك!

- أعرف كل شيء والحمد لله، ليس ذنب يدي بل قلبي.

" اسمع ماذا يقول هذا الخبيث لحارسي!.." - ابتسم تاخ في سره ثانية، - " نسيت سريعاً أنك ستشرب من دمك كما كنت تشرب كالنغوي من دم الخيل... لا أعرف ماذا ستستفيد أنت ولكني سأشهد دمك صالحني بقلقت... " - ثم سأله على سبيل فعل الخير دون اعتبار لما يُكُنُّه في نفسه:

- هل ستقيم في الجانيه بعض الوقت؟ أين أجذك حين ألتقي بقلقت؟

- والله لا أعرف يا أمير. لا بد أن أعود إلى القرم مرة، وفي القبرتاي ينتظرونني.

- وهل تركت في القرم ما تعود لأجله؟ - سأله اعتباطاً، ونطق اسم أول من ورد على ذهنه: - ربما من أجل صديقك سرباي!

- لا أريد أن أسمع اسمه. كان أقدر مَنْ تَعَامَلْ مَعِي في النهاية. ولكني تشفيت منه فقتلته قبل أن أترك القرم. ومن حمّتي، إن كنت تتذكر، هي مريم التي لم أكن واثقاً منها البتة...

- وكيف لا أتذكرها؟ ما كان أروع استقبالها لنا! وكنت نَبْهْتُكِ إلى أنها امرأة ممتازة.

- لولاها ما استطعت النجاة بجلدي من القرم. وأنا لا بد أن أعاملها بالمثل. بيت والدي خالٍ، تفقّده قبل ليالٍ.

- فكرت جيداً، وافقه الأمير جان.

- نعم، بدأت تفكر جيداً من جديد، ونحن سنساعدك. - وافقه تاخ أيضاً، - لا يجوز أن يضيع ميراث والدك إن أمكن. ثم نصحه ولونه يتغير: - إياك أن تتحالف مع تيمرقوه صديق الروس متى سافرت إليه بحجة معاداته لدولت - جري.

VI

صباح جميل في أواسط الشهر الأول من صيف عام 1561.

ضحيج الخيل أخرج الناس من بيوتهم في موسكو، فاحتشدوا على جوانب الشوارع المؤدية إلى الكرملين. يتعجبون مما لم يروه في حياتهم: العربة الذهبية - الفضية يتقدمها ثلاثة فرسان: أدبغي وقوزاقي وتري. ويتبعها أكثر من ألف من الفرسان التتر. وكل يلبس زيَّ قومه. والمرأة التي تركب العربة ذات الأفراس الثلاثة ترتدي ثوباً أبيض من الأطلس مزخرفاً يضم جسداً ممشوقاً، وقبعة غير عالية. وإلى يسارها فتى أنيق من النغوي. ومن في العربة الملكية هي غشوناي، ابنة الأمير الأدبغي تيمرقوه. ومن بجانبها سعيد - بولت، ابن أختها ألتنجاج وبكبولات - ومعها الفتاة التي سترافقها ريشما تعتاد على الحياة في بيتها الجديد. والفرسان المتقدمون على الجميع هم القائد بوتورليج، وموفدا القيصر إلى الخطبة فيكشيرين ومياكينين. وبين من يتبع الموكب دومانقوه أخو غشوناي والخان بيكبولات.

- من هؤلاء؟ وأي امرأة يتبعونها؟ - الناس يتساءلون.

- عروس يزفونها إلى القيصر.

- وهل يتزوج ولما يمضي عام على وفاة زوجته؟

- لن يستطيع الصبر أكثر من هذا.

- ألا تكفي النساء اللواتي يعبث بهن هو وأخوه يوري؟

- اسكت، أخشى أن يسمعن أحد من جماعة سكوراتوف.

العامة والنبلاء يقولون بحق القيصر ما يأتي على ألسنتهم، ولكنهم يحشون الآن في الموكب وراء الفرسان. يصحبون العربات إلى الكرملين. وكما تتفرق مجموعة الفرسان الأديعة تتناثر الأخبار:

- هل ترون كم يُعزّون ابنة ملك إنجلترا؟

- هذه ليست ابنة ملك إنجلترا! - يعارضه غيره.

- من أين هي إذن؟

- الابنة الصغرى لملك داتسكا.

- أي داتسكا؟ هل أنتم عميان؟ ألا ترون الفرسان التتر وراءها؟

- اتركوا التتر، كفانا ما نكبونا!

- هؤلاء شراكسة، يأتون من الهند.

- لا، ليس من الهند، ليس في الهند شراكسة. بل في القفقاس. - يصحح أحد من سمع بالأديغة. - هؤلاء يعرفهم قيصرنا. ويخدمون في جيشه. حاربوا في ليفونيا.

- نعم، نعم. - يوافقه رجل مُقَعَّد على عكازتين، - شراكسة، حارب معي منهم ألكسندر كتاق وميخائيل سلطان. وكان شقيق والد ألكسندر من معارفي، وحارب ببسالة.

لم تعد الكرملين تتسع لخليط الفرسان. ضاقت بهم ساحة السوبورن، فاندفعوا إلى أماكن أخرى، ولم يعد مهماً رؤية العروس التي جاءت من أرض الأديغة البعيدة. يسترحون النظر فيتكلمون على كل ما يترأى لهم من الجدران العالية وقباب الكنيسة المذهبة والأشجار المقلّمة. ولما ظهر ميخائيل - سلطان وإيفان - دودارقه بالزي الروسي العسكري الأنيق فغرّ الفرسان الأديغة والغوي والقوزاق أفواههم دهشة. ومع أن سلطان لم يسمع ما قاله أخوه الأكبر دومانقوه فقد دخل هو والفتاة الوصيصة إلى أخته في الغرفة. فرأيا طريقة استقبال العريس لهما، وفهما أنه راغب فيها.

إيفان غروزي الذي كان ينظر من طرف النافذة ابتعد مع صوت الباب. وقال لبيسكوفات الذي أطل عليه حاملاً الخبر المعروف: - انتظر قليلاً، سأناديك متى احتجتك.

"طويلة القامة، تناسبني، نخيلة القوام، وجميلة الوجه..." قال القيصر ينظر عبر النافذة إلى الفتاة الأديغة الخارجة من العربة. "ترتدي ثوباً عجيباً ليس كأثواب نساتنا العريضة. أليكون هذا مبعث جمالها؟ أتعزها أسرتها وعرقها إلى هذا الحد، أم أن هذه عادة الأديغة؟.."

شعر إيفان غروزي بالدفع يسري في جسده. وتوهّج خداه. وعبرته رعشة خفيفة. دنا من صورة الإله في الزاوية ورسم الصليب ثلاث مرات. ثم نحر نفسه مرتعباً: "هذه خدعة، اغفر لي يا إلهي، فعلت هذا لأنها أعجبتني. لن يدنو

أحدٌ من مقامك... - ثم ابتلع لعابه تنازعه الشهوة. - ما الوقت الأنسب لرؤيتها: هذا المساء أم مساء الغد؟.."

تأمل القيصر ثانية الفرسان. وملاه خاطره بالصلاية. ثم عاد إلى الأيقونة وهو يقول " لن تجد أفضل منهم لمحاربة الشليات والليفون... والترك وتتر القرم والفرس؟ يمكن مجابتههم أيضاً بمؤلاء.. " ثم دعا أن يحقق له الأمنية الطارئة. ولما رأى الشمعة التي كان أنارها باسم أنستاسيا قد ذابت إلى قاعدتها ارتجف من الرهبة التي ساورت قلبه. وبدلاً من إشعال شمعة جديدة نادى إلى الخارج، وسأل فيسكوفات الداخل:

- لماذا لا تدعون الضيوف القادمين من سفر بعيد إلى المضافات؟

- ننتظر أوامرك يا قيصر روسيا كلها.

- سمعتُ أمري يا إيفان ميخائيل. أخبروا المضيفين أن يكرمهم باسمي. لا أريد أن يتعرضوا هم وخيلهم لأذى. وحُصِّوا العروس بأحسن غرفة. ولا تسمحوا للابس قبعة أن تقع عينه عليها.

- انتهينا من تنفيذ رغبتك الأولى. - قال فيسكوفات، ثم أضاف: - والرغبة الثانية لا أعرفها.

- وما الذي لا تعرفه؟

- الشاب سعيد - بولات لا يرضى بمفارقة خالته. كأنه حارسها.

- نسيْتُ اسم الفتاة الشركسية ؛ ذكّرني!

- صعبٌ نُطق اسمها بلغتها. وبلغتنا: كُشيني.

- هل سألتهم ابن تيمرقوه سلطان عن المهمة الموكلة إلى سعيد - بولات؟

- سألناه، - عاد إلى فيسكوفات صوته.

- وماذا كان جوابه؟

- تبعاً لعاداتهم لا يجوز لسعيد - بولات أن تغيب الفتاة عن عينه إلى أن يعقدوا الزواج.

- ألن تكون معها امرأة أخرى؟ - ابتسم القيصر، - أرفقوها بإحدى قريباتي من البنات. ألا يعرف الخان الشاب الأديغية والروسية؟

- يقال إنه يعرف.

- ليعمل مترجماً إذن. أين بربرة المريية؟ وما رأيها؟
- بربرة... - ارتعب فيسكوفات حين نطق بالخطأ اسم بربرة قريبة أنستاسيا،
ولكن لم يجد بداً من إكمال كلامه: - هي مع ولدي القيصر؛ اختفت عن
أنظارنا.

- اتركوها! - ارتسمت أنستاسيا حمامة بيضاء في عيني القيصر فتنهد. - ليس
آل زاخرين سعداء بزواجي فلا تجرحوهم. حسناً، نقذ أوامري، أريد أن أختلي
بنفسي.

" إذا كان أقرباء أنستاسيا وولداي سيتصرفان هكذا منذ البداية فلا أعرف
وقتها... - تفكر القيصر، - كيف أدير روسيا الكبرى دون زوجة، سواء وافقنا
النبلاء أم لم نوافق؟ بصق حين تذكر واقعة له مع أحد المخثنين. ثم وقف إلى
صورة الإله ودعا أن يغفر له خطيئته. ونذر أن يُعدم على الخازوق من دفعه
إليها. - لن أدع أحداً يطمع في الأرض التي أولاني الإله ثقته فوضعها في يدي.
سأوطد الدولة وأوسعها. سأستفيد متى انتهيت من مشروع في الغرب من
الشراكسة في الجنوب والجنوب الشرقي. وفي هذا لم يفهمني الأمير شبق. ولم يترك
لي فرصة لأكلّمه فتحالف مع أعدائي. ولم يكتف بنفسه بل جرّ ابنه إلى موقفه.
وفي هذه الناحية كان القبرتاي أذكى. أعجبتني ابنتهم من بعيد، وسأتشفى من
حكام أوربا الذين لم يتنازلوا أن يزوجوني من بناتهم..."

بعد ثلاثة أيام من الاحتفال بابنة الأمير تيمرقوه في الكرملين استضاف القيصر
يوري فاسيل وفلاديمير أندريه والقائد كوريسك، وقال لهم:

- أنتم الثلاثة ليس في روسيا أقرب منكم إلي بالإضافة إلى رئيس الأساقفة
مكاري. لم أخف عنكم سراً ولا أخفي الآن. تعرفون سبب توجهي إلى منطقة
القفقاس حين لم ينجح مسعاي في الزواج من فتاة أوربية. وهناك من رفضوا ولا
يزالون. وهؤلاء قريبون مني وبعيدون. ولكن إن أفهمناهم كما يقول إلهنا
فسيفهمون. من الصعب إرضاء الجميع. ما الفرق بين بنات الداتسكا
والشراكسة إذا كان في قلوب الناس رحمة؟ إن وافقتني في أمور الأسرة والبلاد،
وأعجبتني فلنكن من تكون!

- ولكن يا قيصر روسيا، - لم يستطع أخوه يوري صبراً، - سامحني على مقاطعتك، الفتاة التي جاءك بها الشراكسة من دين آخر.

- على أي دين كان أجدادنا؟- احتد القيصر مما سمع. ثم ردّ على أخيه بقسوة: - لا تتهم الشراكسة بما ليس ذنبهم. لم يأتوني بها بل أنا من طلبها! انسوا هذه الكلمة منذ اليوم. أقنعنا كثيرين بديننا.

ابتسم كوريسك في سره: " لا أعرف لماذا استدعانا هذا الرجل. الشراكسة على بابهِ ليلاً ونهاراً. أيكون اشتراهم؟ ولكن مَنْ رأيتهم منهم لن يقبلوا إن لم تعجبهم ولو كنتَ إلهاً. لماذا سيصدع رؤوسنا من أجل هؤلاء العنيدين؟ ليتنا تخلصنا من مزاج القيصر الذي يتغير في اليوم سبع مرات!..."

- صحيح أنك طلبت من وفدك الاستطلاعي المجيء بهذه الفتاة أيها القيصر، - قال ستاريسك بلطف راعباً في مصالحة القيصر النزق، - لا ترغب في غيرها، هي مثلك طويلة القامة رشيقة حلوة.

- وأين رأيتها؟ - سأل القيصر مغتاضاً من أن ستاريسك رآها قبله.

- نحن من استقبل الشراكسة، ومن دعاهم إلى الغرفة... - قال ستاريسك. ولكني لن أكتف ما يُقلقني: كوشيني الفتاة الجميلة لا تعرف لغتنا، ولا طبيعة علاقاتنا. أخشى ألا تتألف معنا.

ضحك القيصر من أعماقه. ونظر بؤدٍ إلى كوريسك، وغمزه. وأصلح من لحيته ومن القبعة الذهبية الفضية التي يلبسها في الأيام العادية، ومازح جلساءه:

- تفحصتم بنت الشراكسة جيداً، لا أعرف ما تنوون بحقها. هل يمكنني أن أتزوجها لتعيش بينكم؟

- أنت أدرى بمن تصلح زوجة لك. - وسأل ستاريسك حذراً: - هل تعرّفت عليها؟

- وكيف؟ أنتم رأيتموها وجهاً لوجه، أما أنا فرأيتها من النافذة العالية. - أجاب جواباً غير منتظر، وأكمل بصوت أحزم: - وسأسألك يا فلاديمير عن مسألة اللغة التي تشغل بالك، والقائد كوريسك شاهدي: بأي لغة كنتم تتكلمون مع الفتاتين الترتيتين اللتين جئتم بهما من الحريم حين احتلنا قازان؟ لم

تكونا تعرفان الروسية، ولا أنتم التتية. الرجل والمرأة يتفاهمان ولو كانا أبكيمين. ثم يجدان لغة تفاهم.

" لا ينسى ما يعرف من أسرارنا. - لام كوريسك في قلبه مرة أخرى، - لو فضحت كل ما أعرف عنك أيها الجئي القبيح... تراجعنا نحن، وتركناك تفعل ما تريد، حتى لم يبق في البلاد رجل صالح. لا تثق بي ولا بصهري بروزوروفيسك. بمن تثق أنت؟ الشراكسة الذين يتناحرون على دولة ليست لهم؟ لا أتكلم على شبق، أهنته. نسيت خيانة كتناق الذي كنت تُعزّه قائلاً إنه مخلص لي أكثر من إخلاصه لوالده؟.. إذا كنت ستحكم البلاد برأيك الفردي فحسب فبانتظارك كثيرٌ من العواقب الوخيمة. كان الأفضل لنا أن ننجو بجلودنا قبل أن يجري لنا ما جرى لأداشيف وسلفستر... "

- لماذا لا تقول شيئاً يا صديقي العزيز؟ - سأل القيصر كوريسك، - هذان أخواي، ولكننا لم ننشأ أنت وأنا عبثاً في نار تأسيس الدولة. كلامك يُقنعني أكثر من كلامهما.

- حياك الله على هذا التقدير لي. - لم ينخدع كوريسك بالمديح، ابتسم قليلاً وأجاب بما ليس في قلبه: - أوافقك لأنك لا تتكلم في ما لم تفكر فيه وترتبه. كنتم القيصر شكّه: " هل كلام كوريسك من قلبه؟ وافق بسرعة، ولكنه يُخفي شيئاً، لا أثق فيه... أفضّل أن أعيدك إلى حرب ليفون التي استقدمتك منها، والتي لا تجري أمورنا فيها جيداً على أن تجلس أمامي تراقب من سيصبحون أقربائي وتتكلم عليهم. تنتظرون ما سأقول، ولا يعجبكم توسيع بلادي في كل الاتجاهات. انتظروا قليلاً! ستفهمون لاحقاً... وهل عجب إن تقاسمت أرض الشراكسة دون علمهم مع تركيا؟ الورقة تقبل أي شيء تكتبه عليها كما يقول السلطان سليمان... لا يفهم المعارضون أنني لجمتُ تركيا عن طموحاتها جهة البحر الأسود عدة سنوات حتى لا تتوغل في القفقاس. ومع علمهم بهذا جاءني القبرتاي الشرقيون بابتنهم زوجة لي... "

- إن وافقتم، أنتم الثلاثة، أقرب الناس إليّ، فسأتعرف على الفتاة اليوم. تصفونها بالجمال ولكني لا أعرف إن كانت صماء أو بكماء. - نهض القيصر مازحاً، - إن شاء الله تكون بلا عيوب...

دخل القيصر مع أخويه إلى غرفتها فأعجبته الفتاة الطويلة السمراء الصبوح من أول نظرة. ارتعش قلبُ عُشوناي، وبشَّ وجه القيصر، غير أنهما كليهما لم يرغباً في إظهار مشاعرهما. ومع ذلك فقد تبادلا نظرات المودة كأنهما يعرف أحدهما الآخر طوال عمره. نهر القيصر نفسه وقد لان قلبه: "ليست هذه فتاة شركسية متمردة كما كان بعضهم يحذّرني. توردت وجنتاها وخفق قلبها على نحو ملحوظ. الحياء أغلى طبع زرعه الله في المرأة. ومن لا يتحلّى به ليس إنساناً. من ملامحها تعرف أنها امرأة حلوة المعشر لم تمتد إليها يد رجل... ولن أقبل إن كانت غير ذلك... كل شيء في جسدها مما أريده تماماً..."

من يغازلني ليس كبيراً وإن كان قيصر روسيا كلها. ربما من عمر كتناق أو أكبر بعامين أو ثلاثة" خاطبت عُشوناي نفسها، وزجرتها على كلماتها الأخيرة: "لماذا سيرة كتناق في اليوم الذي تودد إلي فيه القيصر؟! الفتاة يدخل إلى قلبها شاب واحد وإن غازلها مئة. ولماذا لا يكون القيصر واحداً من الشبان الذين كانوا يغزلونني في نواحيننا؟ إن قبلي فلن أخذل والديّ وإخوتي. أتحمّل بقدر إمكاني من كنبه الله على جيبي. وهو لا يعيبه شيء، رجل حسن المظهر..."

سأل القيصر باسمًا الخان الشاب الواقف إلى جانبها وإن كان يعرف جواب السؤال:

- ما قرابتك إلى الفتاة التي تحرسها؟ وما اسمك؟
- هي خالتي، - أجاب سعيد - بولت بلغة روسية مقبولة. - اسمي سعيد - بولت، ووالدي بيكبولات، وهو من شرفته بخانية قاسم يا قيصر روسيا كلها.
- أعجب القيصر بالشباب من طريقة إجابته، وتبادل أصحابه نظرات الرضا. وضمت عُشوناي قريباها بمودة.
- هل تود أن تنضم إلى جيشي مثل خالك ميخائيل سلطان؟
- إن كنت تراني أهلاً للخدمة في جيشك يا قيصر روسيا كلها، - أسرع الشاب بالإجابة، - فأنا جاهز من اللحظة إن وافق والداي.
- إن وافقت أنت، - ابتسم القيصر، - فسأقع والديك. - وسأضمك منذ اليوم إلى رماة النبّال في وحدة خالك ميخائيل تيمرقوه. فإن وافقت خالتك

كوشيني، ورأيتني أنت أهلاً لأكون زوجها، فاعتبرنا قد اتفقنا. - نهض مُسمِعاً
مَن في الغرفة، مازحاً معهم: - ما رأيك؟ هل اتفقنا؟
في المساء نفسه طلب القيصر دومانقوه الأخ الأكبر لغشوناي إلى مضافته
الخاصة. وقال دون مواربة لمن سيصبح قريبه:
- إن رأيتني يا دومانقوه تيمرقوه أهلاً لأن أكون زوجاً لأختك كوشيني تيمرقوه
فأنا أقبلها زوجة إلى الأبد.

قبل أن تبرد حماسة القيصر حُصّ دومانقوه بأحسن الغرف في الكرملين. وانتشر
خبر زواج القيصر في موسكو في الليلة نفسها. وبعد بضعة أيام عُمدت
غشوناي، وسمّوها بالاسم المسيحي ماريا. واعتبروها خطيبة القيصر. وحددوا
موعد الزواج. والآن التفتوا إلى تعليم ماريا تيمريوكوفنا اللغة الروسية. واختاروا
رجال الدين الذين سيعلمونها الديانة المسيحية.
لم يكن لدومانقوه ما يفعله في موسكو تبعاً لشرعة الأديغة، فكلف أخاه
سلطان وصهره بيكبولات بمراسم الزواج. ثم عاد إلى القبرتاي برفقة الفرسان المئة
المنضمين إلى الجيش الروسي.

...

في الحادي والعشرين من الشهر الأخير من صيف عام 1561 ضُجّت موسكو
بأصوات الأجراس. وسجل أسقف روسيا مكاري عقد زواج إيفان غروزني
وماريا تيمريوكوفنا في كنيسة الكرملين. لم تتسع الكنيسة للمدعوين. وغصّت
الشوارع المجاورة بالناس. وحضر المراسم أخوا القيصر والنبلاء وبعض المشاهير،
ومن جانب غشوناي أخوها سلطان وصهرها بيكبولات وابن أختها سعيد -
دولت، وبعض الجنود الأديغة. وسلطان هو من لاحظ أن وجه أخته يخلو من
الفرح خلافاً للأيام السابقة، ولكن من يخبرك بسبب كآبة الأخت التي لا يمكن
الاتصال بها هذه اللحظة، والتي يجب أن يكون هذا اليوم أسعد أيامها؟.. ماذا
سيجلب هذا اليوم للأديغة؟ الفرح أم الحزن؟..

مرّ النهار هادئاً. وهبّ الهواء منعشاً بارداً في المساء عبر النافذة. دخل سعيد -
بولت إلى خالته لينعش قلبها ولو قليلاً وإن كانت مهمته انتهت:

- ما ألطف هذا النسيم! - قال من أعماقه بلغة أديغية. - قفي يا غشوناي إلى النافذة وابتدي. خذاك محمران.

- ماذا قلت أيها الخان الشاب؟ - سألته الفتاة الشقراء قريبة السلطان غير واثقة، متظاهرة بالمرح.

- أود أن تتنفس خالتي من هذا الهواء النقي، - ترجم لها إلى الروسية. - لا بأس إذن. - ضحكت فيفرونيا وعيناها تلمعان فرحاً. - ولكن إنس الاسم الذي ناديتها به، واحفظ في قلبك أن زوجة قيصرنا صار اسمها منذ تعميدها: ماري.

- سامحيني يا فيفرونيا، لن تسمعي مني اسمها الأصلي مرة أخرى. - اعتذر سعيد - بولت مع انحناء خفيفة، وتتم في سرّه: "هؤلاء، كبارهم وصغارهم، تجرح لغة النغوي ولغة الأديغة آذانهم. لا يريدون أن يسمعوا غير لغتهم الروسية..."

- لا أجد متعة في النسيم اللطيف؛ مزيج من الخوف والقلق يتملكني... - شكّت غشوناي من عند النافذة.

- لست وحدك يا ماريّا تيمريوكوفنا، كل امرأة تدخل إلى مخدع زوجها ينتابها هذا الإحساس. - نصحتها فيفرونيا محاولة تهدئتها.

خرج سعيد - بولت داعياً لها وللمرأة الروسية بليلة سعيدة. وساد الصمت داخل أسوار القصر وخارجه.

- تعالي، حان الوقت، - أمسكت فيفرونيا بساعد غشوناي وسارت بها. ونصحتها وهي تشعر بالرجفة التي تسري في جسدها: - اطمئني؛ كل نساء العالم أمامهن هذا المصير!

وقفت غشوناي إلى جدار الأريكة في غرفة القيصر، وقبل أن تجدا الوقت للحديث خرج إيفان غروزي من الباب بخطوات هادئة، رشيقاً، طويل القامة. وفي اللحظة غمرت فيفرونيا عروسها مرئية، واختفت. وتمسّكت غشوناي أكثر بمسند الأريكة.

جلس القيصر وسط السرير، وخلع حذاءه، والتفت إلى الزوجة الشابة، وقال لها بحنان:

- تعالي اجلسي هنا يا ماريّا. لا فائدة من الوقوف ولو طوال الليل. ليس في الساقين إخلاص.

صدرُ غشوناي يخفق كأن قلبها سيخرج منه. والشرر ينبعث من خديها. ومع ذلك تعاني من البرد.

- ألم أطلب منك الجلوس! - قال إيفان غروزي بصوت أخشن، ونهض. وقف أمام غشوناي وحلّ ساعديها المتشبثين بمسند الصوف. ثم عانقها حذراً، وهمس لها متودداً: - وأنت عانقيني، لا تخافي، لن أفعل بك ما لا يفعل الناس.

خلعت غشوناي حذاءها بعدما وضعها القيصر في الفراش. خلع عنها ملابسها. كان سأل الأمير دودارقه عن أصول التعامل مع العروس الشركسية في الليلة الأولى، ففصل أزرار صدرها بالخنجر دون فكها، ففتحه...

وفي الصباح أخبر المعينون وغيرهم بخبر البقعة الحمراء على غطاء سرير القيصر.

VII

"من لا يتحمل المشقة لا يستطيع السفر" يمكن أن ينطبق هذا القول على الأمير شبق. ولكن ما الذي دفعه على طريق الإهانة؟ الوضع هادئ هذا العام في إمارة الجانيه بفضل الله قياساً إلى السنة الماضية وما قبلها من سنوات. اعتبر الأمراء، أصحابه وأعداؤه، والفلاحون والخدم، تحليته عن حلف القيصر، ورفضه التجاوب مع وفد القيصر الخاطب لابنته، بطولة. وثنّوا إنسانيته الصادقة. قد يكون الآن في غمرة التكفير عن أخطائه وحماية نفسه ولكن لا ينطبق هذا عليه. ولا يسعى للحصول على سمعة أو مال بين الجانيه أو الأديغة؛ فماله يزداد. وليس شبق عاجزاً عن أن يفهم أنك إن لم تنجح في مهمة ما فليس في أن تنوح على مهمة أخرى عقل ولا رجولة. ومهما وقع في مآزق فماله وما يسهله هو قضية الأديغة التي عاش لها أكثر عمره. وربما لم يخل من كبر أو عناد في طريق تبرئة نفسه وغسل سيرته. ولكنه كان يحتفظ في سرّه، حين توجه نحو تركيا والقرم دون مخرج آخر، بالحكمة القائلة: من يُهن يجد فرصة للانتقام. أهى الجهة التي ركب لأجلها الطريق أم يضاف إليها روسيا التي خدعته؟ الطريقان سيّان عنده. ولكن أليست الحياة بوجهين نوعاً من سوء الأدب؟

"أي وجهين أفكر به في اليوم الذي دعانا فيه ملك بولونيا؟ - سأل شبق نفسه لا يدري أيرثها أم يدينها. ثم سخر من نفسه على ما خطر له: - ألا يعيش صاحبي دولت جري، ومضيفنا الملك سيغموند وسليطان تركيا وقيصر روسيا بوجهين؟ والأمير تيمرقوه الذي زوّج ابنته البكر إلى القيصر الأرمل غير مصدّق من الفرح، والأمير العجوز قايتقوه الذي اتخذ من مشروع قلقت مضحكة؟ وهل أمثال الأمير تاخ نصف الميت الباحثون عن المصلحة الشخصية قديسين؟ لو عرفتُ أني سأكلف الأديغة أن يحاربوا هكذا لفائدة الشليات والليفون لحاربتهم بالتحالف مع روسيا. هل كنت أنكبُ بحمت المسكين والشباب الآخرين في غير مواقعهم؟ هل مهمتنا هنا إذن؟ خسر حلفائي تسعة وثلاثين شخصاً خلال مهلة الأشهر الثلاثة التي منحتهم إياها. وليسوا مرتاحين لعودتنا بعدما انتهت المهلة. يكفي ما فينا بوعدنا وحاربنا معك إلى الآن. ونرى ما يحدث غداً. ماذا أقول متى عدنا إلى الجانيه، إلى أهالي الشباب الرائعين الذين قضوا؟ بأي كلمات أبرئ نفسي أمامهم؟ كان قلقت يقول: الموت دفاعاً عن أرضك، لا عن أرض غريبة، رجولة وثواب عند الله فلا نقبلُ منه، ولكني فهمتُ الآن أنه أحكمُ منا. - في أسوأ الأحوال لن نسمح لغيرنا أن يتقاسموا أرض دولة غير قائمة، ويمزقوها.

- أنا راضٍ عنك يا أمير في ثلاثة أمور، - قال الملك سيغموند وهو يتفحص شبق بعينين غائمتين حاميتين، وابتمسم له وهو يمسّد لحيته وشاربيه.
- وما هي؟ - التفت شبق الخارج من أفكاره السيئة نحو المترجم، ونظر في وجه دولت - جري.

- هذه الموضوعات الثلاثة لست وحدي من يتكلم فيها، - فصلّ الملك بصوت رفيع نشيط، - أليست أوربا، باستثناء إنجلترا المخدوعة، تتكلم فيها يا دولت - جري؟

- إن أطلعنّا على ما تتكلم فيه قلت لك رأيي. أجب دولت - جري غاضباً قائلاً في نفسه: "أيّ إنسان أنت حتى نحارب معك ونشهد لك؟! ألا تترك لنا فرصة للكلام وإن كنا ضيوفك؟"

- أليست القرم جزءاً من أوربا؟ - تظاهر سيغموند بممازحة الخان رافعاً إصبعه الرفيعة، وضحك. وتوجه نحو شبق سائلاً ومجيباً: - أليس الأديغة كلهم تركوا قيصر روسيا الذي خدعك؟ نعم تركوا! هل زوّجته من بيتك؟ لا! هل وقفت في صفنا وسفكت دمه؟ لم تكتف بسفك دمه بل جعلت كل من سمع من أصدقائه وأعدائه يسخرون منه، عرّفته قيمته! أليست هذه رجولة؟ نعم رجولة! هذا يا خان ما أسأل عنه، وما تتحدث فيه أوربا.

- ليس مجرد كلام، - استعجل دولت - جري خائفاً أن تفوته فرصة الإجابة، - ونحن شهود على هذا. ستبقى بطولة شبق في صفحات التاريخ. نحن لن نشهدها ولن نسمعها، ولكن القرون القادمة ستتكلم فيها. ثم أنهى بضحكة ثقيلة: - ونحن كنا معه شئنا أن أبينا، فكما يقول الأديغة: إن لم يسِلْ خيرُه علينا رشح.

- لا تأخذنا عني هذه الفكرة، حياكما الله، - لم يكتف شبق رأيه في نفسه وإن شكرهما، - لن أعتبر تشتت الرأي الطوعي رجولة. أدفع الثمن بنفسي لأني أنا المسؤول عما جرى لي. وسأقول رأيي في الموضوع الذي ظهر فجأة. لا أهتم نفسي وحدها بالتوجه إلى الشمال، على كل من دولت - جري والسلطان سليم جزء من المسؤولية؛ فليُقاسماني إياها! لا تؤاخذني يا خان! لو تعاملنا في ذلك الزمان بحسن الجوار لما توجهتُ إلى قيصر روسيا. لن تُسرِعَ لجلب الماء من عند من يشعل النار في بيتك!

- وهذا صحيح. - تظاهر دولت - جري بموافقته قائلاً في نفسه: "هذا الرجل لا يثق بنا مع أنهم قصّوا له طرف كسائه" - ولكن ما العمل حين يبدأ بيتك يحترق؟ إن استنجدتَ بمن أشعل النار في بيتك فقد تنجو. - أليس لأني لم أفعل هذا أقول يا خان: - رد شبق على من عارضه باسمًا، - أنتم أيضاً تتحملون جزءاً من المسؤولية.

- ما ينكب العالم هو انعدام التفاهم. - تظاهر سيغموند بموافقة ضيفيه غير راضٍ عن النقاش بينهما، ولكنه ساهم فيه قائلاً: "من الصعب أن تصلح بين الآسيويين متى تشاجروا. سأجلب العار لنفسني" وانقلب إلى المزاح الممتدح نفسه: لا تظن نفسك يا شبق الوحيد الذي رفض تزويجه ابنته. هذا القيصر

طلب يد أختي الصغرى أيضاً. ولم أقبل. لم يقبل به أحد من أوروبا التي بحث فيها كلها.

- لم تقبل به أوروبا - ابتسم الخان من تحت شاربيه ولحيته، - ولكن تيمرقوه أرسل له ابنته فرحاً وإن كنت لا أعرف أحتفظ بها طويلاً. وأظنه تجاوزك في هذا يا شبق - قال دون سوء نية، ولكنه أضاف: - إن ظهر في بلاد الأديغة من يقبل أن تنام ابنته في فراش كافر فزوجتي الأديغة عائشة سلتايس لا توافق. وأنا أوافقها، وابني عادل - جري يراه عاراً على أحواله الأديغة.

"ضحك شبق في سرّه: " من تذكركم أديغة حقيقيون!.. أين كانت المرأة الأديغة التي تنغي عليها الآن وابنها عادل - جري، والمجرم مامي حين كنتم تغزوننا وتقتلوننا وتنهبوننا؟ ما الفائدة الآن من معاتبة الأديغة الذين مزقتموهم؟ لن نُحيوا من قُضوا على أيديكم. ولن تسمحوا للأحياء بإدارة أرضهم التي يحبونها. لم أرفض تزويج ابنتي من القيصر انتقاماً فحسب، ولا تنسيا أنني لست ممن يفرط في بناته لأجل سلطان أو ملك... ولذا فما فعلته نابع من الروح الأديغة وليس كما يُخيّل إليكم، وليست مسألة رجولة. ما الذي يُضعفُ موقفني أكثر من غيره؟ الأرجح أنه كதாக... كان الخان ذكركي في طريقي إلى بولونيا فتظاهرت بعدم سماعه وغيّرت الموضوع. وليته لم يعيرني به مجدداً. ما كان عليّ اصطحاب الولد المنحوس إلى القبرتاي. من كان يدري أن الفتاة البائسة ستكون من نصيب قيصر روسيا؟! كان شبق تنقل بين الأسئلة الأجوبة التي رُفعت في وجهه بأفكار متعارضة، ولكنه لم ينس ما سيجيب به:

- مهما تصرف القبرتاي الأديغة يا خان فقد انتهت علاقتنا بهم. هؤلاء سيعيشون ووجهتهم روسيا كما سنعيش نحن ووجهتنا تركيا والقرم. سنرضخ شئنا أم أبينا للاتفاق الروسي - التركي.

- ليس الأمر كما تقول! - احتدّ الخان.

- وكيف هو إذن؟ سأل سيغموند مستغرباً.

- الأديغة الذين يتكلم عليهم الأمير شبق، وهم أنفسهم، من العالم الإسلامي.

- حسم دولت جري الموضوع.

- ونحن مسيحيون، ولكننا لا نرفع ديننا في وجوه من يعارضوننا. كلٌّ يؤمن بالله على طريقته. لا داعي للكلام على آلهتنا، ولا للمقابلة بين أدياننا.

- وهذا صحيح. - أسرع شبق، ثم لام نفسه: " كنت أرى مضيفنا متعالياً ولكنه يتحلى بالإنسانية والرحمة. أظنه يؤيدني. ما السبب يا ترى؟ نلتقي لأول مرة. يودّعنا إلى رحلتنا غداً راضياً عنا لمحاربتنا في صفه بإخلاص، مهموماً بمن سقط من صفوفنا، محملاً إيانا تعازيه لأهاليهم. سيكون السبب أننا سنأتيه خلال ثلاثة أشهر أو أربعة بثلاثمائة أو أربعمائة من الفرسان الأديغة - النغوي؟ ولكنني لستُ صاحب المبادرة بل دولت - جري. غير أنني لن أستطيع أن أدفع كل هذا العدد إلى حربٍ في بلاد غريبة. أتحمّل بقدر ما أستطيع وُزْر الضحايا وأهاليهم. تجهم وجهُ دولت - جري، واحمرت جفونه. كان خيراً لو افترقنا على سلام دون أن يغضب ويخرب لقاءنا..."

نفض سيغموند كأنه سمع ما يعتلج في نفس شبق وقال:

- مرة أخرى يا دولت - جري خان القرم، وشبق أمير الجانية، أشكركما باسمي وباسم الدولة التي أحكمها بولونيا - لاتفيا. لن ننسى أبداً وقوفكما إلى جانبنا يوم مدّت روسيا علينا سيفها. ومتى التقيتم بالسلطان سليمان فأبلغوه سلامي إذ يشد أزرنا ويرفع من عزيمتنا. أدعو لكما أن يسود السلام في نواحيكما، رافقتكما السلامة. وأتتظر جيش الفرسان الذي سترسلونه لأقف في وجه القيصر الذي لا يشبع من الحرب. - نادى سيغموند وراء شبق الواصل إلى الباب. - سأدعو إلى الإله أن يوحد أرضكم وشعبكم بغضٍ النظر عن كون ابنتكم زوجة القيصر. مهما كنت قوياً وكثير العدد فلن تستطيع التفريق بين الأرض والعرق.

ودولت جري الذي كان ينصت عند الباب حاني الظهر تظاهر رغم امتعاضه بأنه لم يسمع شيئاً.

لا يجد شبق العائد من ضيافة الملك سيغموند بضيق شديد راحة في البيت. يقف عند النافذة متجاهلاً ابنه قامبولت، ويتأمل النهار المتسلل إلى نهايته. يتطلع إلى نهر فيسلا الذي يحمل أمواجه كسولاً. تنتصب المهام التي لا يستطيع تفسيرها حين يعود غداً إلى بلاده كالجدران لا يستطيع النظر من خلالها ولا من

فوقها، ولا عبورها. وأضيف إليها سلوك الخان المتعنت أمام الملك. وما طالبه به قبل أيام بنبرة مزاح: "لا يكفي أنكم وقفتم إلى جانبنا، لا تنسوا الإتاوة؟" - يا حسرتي يستطيعون أن يفعلوا بنا ما يشاؤون... - تنهد شبق عميقاً، - يقسمنا أصدقاؤنا وأعداؤنا دون أن يتنازلوا حتى باستشارتنا! ويجروننا إلى حروب لا شأن لنا بها، يمدحوننا. يطلبون منا جيوشاً من الفرسان لأنهم يريدون زجنا في حروبهم... أليس هذا تماماً ما قاله لي القيصر الذي صاهرنا حين زرته مرغماً ونفذت له ما يريد تماماً مبتسماً في وجهي؟.. ما السبب؟ لو أن الأديغة كفت بعضهم عن نقض ما يقول الآخر لعشنا مع الأقوام الأخرى وقولنا فعلنا، ولما جرت لنا هذه الأحداث المؤلمة..." - والآن توجه شبق شاعراً بوحدته إلى ابنه الأصغر.

- ما الأمر يا ولدي؟ أليس كل شيء بخير؟ أنا شردت قليلاً فحسب. أين أخوك الأكبر؟

- كتاق وفيشنيفيسكي على ضفة النهر. سيعودان سريعاً.

- علام يتكلمان؟

- لا أعرف، يتحدثان بالروسية. لو علّمني كتاق شيئاً من الروسية...

- لا حاجة بك إليها! - قاطع الأب ابنه.

- هل كانت الروسية تؤذيني مع لغة النغوي!.. - قال قامبولت كمن يحدث نفسه، - الاثنان لا تفارق كلمة موسكو لسانيهما.

- ربما يتحدثان في ما يشغل باليهما... - قال شبق بصوت منكسر، ثم مزح معه: - هل تعرف يا ولدي أفضل شيء؟ أن تجلس في موقد بيتك لا تهتم بشيء!

- كما جئت بي إلى هذا المكان البعيد ودفعني إلى الحرب!

- جاء بك والدك إلى هذا المكان البعيد لأنه مجنون، كما اصطحب أخاك إلى موسكو! - ارتفع صوته رغماً عنه، ثم تكلم بلطف: - الحرب لن تفوتك يا قامبولت. يقال: ما تراه العين يساوي العمر؛ كن سعيداً بما رأيت وما سمعت، وبراءحة البارود التي شممت.

- أوافقك يا أمير على قولك: ما تراه العين... ولكن لا تؤاخذني، لا أريد أن أقارن نفسي بالقاعد أمام موقد بيته لا يفكر في شيء! - قال قامبولت كاظماً نفسه، ثم همّ بالخروج.
- نعم... - التفت شبق الواقف إلى النافذة بلا سبب مغالباً كتفه التي تؤلمه، وقال غاضباً: ماذا تقول؟ وأين تذهب؟
- سامحني يا والدنا إن أخطأت في الكلام.
- أين تذهب؟! - صرخ شبق على ولده، وإن كان يعرف أنه لم يعد طفلاً، لأن هذا هو كل يستطيع فعله.
- إلى كتاك، أريد إبعاده عن فيشنيفيسكي الخائن.
- نعم؟! - احتدّ الأمير شبق، ولام نفسه متصبراً: "تستحق مهما قيل لك!.. تعثر بما همّ من حوافر حصانك..." ثم قال بصوت أحزم لقامبولت: - اجلس لحظة يا ولدي. لو استشرتني لما سمحت لك أن تصف فيشنيفيسكي بالخائن. أنت مخطئ في حق هذا الرجل.
- ماذا أسمى من ترك الجيش الروسي وانضم إلى جيش النغوي يا والدنا؟ - عمّق قامبولت محاججته ولم يقبل اعتراض والده.
- لم ينضم فيشنيفيسكي إلى جيش النغوي يا ولدي، بل عاد إلى أصله البولوني.
- هذا أسوأ من الخيانة يا والدنا.
- كلُّ له ظرفه يا ولدي. مرة أخرى انكسر صوت شبق، - ولكن يصعب التفسير بهذا فحسب. إن كان هذا رأيك في الرجل فقد أكون أنا وأخوك مذنبين.
- أنتما أخطأتما من غير تكما على قومكما، ومع ذلك أعتقد أنه ما كان عليك التحالف مع تركيا والقرم.
- هل تحالفت معهم عن طيب خاطر أم مضطراً؟ - سأل شبق حذراً يريد معرفة رأي ابنه تماماً.
- قلقت أيضاً من الجانيه، وزعيم فلاحي، ولكن لم يتحالف مع أحد.
- من أنا إذن؟

- أنت أمير الجانيه الكبير.

- حياكم الله على أنكم لا تسلبوني هذا المنصب أيضاً... - تظاهر شبق بالضحك ثم سأل عما يحتفظ به في قلبه: - من غيرك يؤيدك إن لم يكن سراً؟

- لا سرّ في هذا، كتاق أيضاً. تحدثنا قبل أيام فوجدته من هذا الرأي.

- هكذا إذن!.. - لم يُخفِ شبق عن ابنه الأصغر تنهّده، ثم خاطب نفسه لا يدري أيفرح أم يحزن: "يمكنني التقاعد إذا كان ولدائي قد كبرا هكذا دون أن أدري... - ولكننا بدأنا نختلف أنا وهما في قضية الأديغة. أراها يميلان إلى خطة قلقت في مسألة تأليف الدولة. وربما كان هذا أفضل. أليس شابين رؤيتهما حادة، وتفكيرهما عالٍ. غير أنه لا جديد دون قديم. أنا لم أتكلم على قلقت منذ زمن بعيد غير أنني أؤيده في قلبي. وليت الأمراء الأديغة الآخرين كانوا مثل والدكما. لو كان الجميع، أمراء ونبلاء وفلاحين، يتصفون بالوحدة فيما بينهم لعشنا أنا وقلقت وقد حققنا الدولة وقابلنا الأعداء بمثل تهديدهم. أنا شخصياً لا أطمع في شيء. لو كنت أعرف أن ما نحدثوننا فيه ويهينوننا لأجله سيتحقق لتخليت منذ اليوم عن منصبي. ولكن حلفائي الظاهرين يبتعدون عني ولا يتمنعون بالصلابة في الموقف من قضيتنا. كلٌّ يعيش لمصلحته، ليومه، وكأنه لن يهرم. وأنا لا أنشط محتاجاً إلى شيء. وليس قليلاً ما أتعثر في الطريق أو يعثرونني فيؤدّمون أنفي..."

- يبدو أنكما تؤيدان قلقت... - رضح شبق. - إن كنتما من هذا الرأي فأنا معكما. إن لم تتحد تمزقنا. سأتكلم إلى قلقت متى عدنا إلى الجانيه. ولكن لا يجوز أن أبرز في هذه المسألة. قد أضركم أكثر مما أنفعكم حسب ظروف اليوم.

- حياك الله يا والدنا! - لمعت عينا قامبولت وكأن قامته ازدادت قامة. - أفرحتني! قف معنا فحسب، لن نُعلم أحداً أننا تحت جناحك. أنت أدر شؤون إمارتك الجانيه، وقابل خان القرم، وسلطان تركيا، ولا تنس الروس، يكفي أنك معنا بقلبك!

صاح شبق من أعماقه ناسياً أن ابنه جالس أمامه: "اسمعوا ما يقول لي هذا!.." انظر إلى من كنت أدلكه لأنه أصغر الأولاد، وأصطحبه لأنه أحبهم إليّ، ويدفع عني الملل. وأسمح له بمخالطة ضيوف الكثيرين، فإذا به يكبر دون أن أشعر بهذه

الأفكار! أفمق وكتاق ومينسور لهم حصة في تكوين هذا الولد. وقلقت؟ هو من أنصار هذا الرجل مثل كل الشبان. ما كان يشغل باله ولا يبوح به فجّر أعماقه. ما السبب يا ترى في أن كل من يسافر تنفكّ لسانه؟ كان كتاق أيضاً قد مرّ بهذه الحالة ونحن في طريقنا إلى موسكو. وكان بقي فيها ناسياً موطنه الأصلي. قامبولت هذا لم يعد يرى إلا الجانيه وبلاد الأديغة، لا يعجبه شيء في البلاد التي هو فيها الآن. الأرجح أنه سيصبح قلقاً مثلي، وفي هذه الحالة يكون ضرب رأسه بالفأس بنفسه. ولكن سيسرني أن يستطيع الحياة بهذه الأفكار..."

- وكنتُ أطلعُ أفمق.

- وماذا كان رأيه؟

- نهرني، وطلب مني عدم التدخل في ما لا يعني.

- إلى هذه الدرجة؟! - لم أتوقع قطُّ من عمك مثل هذا الموقف!

- أنا لا أعتب عليه.

- وكتاق؟

- استمع إليّ صامتاً ثم ابتسم، - أضاف قامبولت بشيء من الخبث إلى ما

قال: - لا يجوز أن تعتب على من ترك قلبه في موسكو التي اصطحبته منها.

- وما أدراك؟ - قال فجأة واستعاد الحديث معه قبل أيام، وتألّم قلبه من

جديد.

- أراه كثيراً في البيت بزيّ العسكري الروسي!

- هكذا!.. - سأل شبق اعتباطاً، وتظاهر باستدراك موقفه: - ربما رأيته في

هذا الزيّ سنة عاد من موسكو؟

- لا، - أكّد قامبولت، - رأيته يوم انطلقنا إلى هنا يرتديه ويخلعه.

صدرت أصوات من جهة الدار. فاستعجل شبق:

- أظن أن كتاق وفيشنيفيسكي وصلوا. يا ولدي لا تقل في حضرة

فيشنيفيسكي، الرجل الصالح، ما يؤذي مشاعره.

- اطمئن يا والدنا! - تتم قامبولت وهو ينهض كي لا يروه جالساً في حضرة والده: - إن لم يخرّب قضيتنا الأديعية فليتشاجر البولونيون والروس كما يشاؤون.

- لا يا ولدي، لا تُضمر في قلبك مثل هذه القسوة!

سأل كناق حالما تجاوز الباب:

- لماذا تجلسان في العتمة؟

- ننتظر من سيشعل الضوء، - مازح شبق ابنه مع ابتسامة خفيفة.

قطع قنشقوه شبق طرقات كثيرة في سني عمره الستّ والستين. ولكن لا يتذكر طريقتاً أذاه مثل طريق بولونيا. لم تدع له أفكاره الأديعية التي لا نهاية لها مجالاً للراحة. ولم تكن الأفكار التي تخالطها أو تهرب منها قليلة. وصدف أن كرموه على هذا المفرق من الطريق، وأن أهانوه كثيراً. وكما يحدث عادة حين يلتقي متنافران فقد كان هو ودولت - جري يتبادلان الابتسامات حين يلتقيان، والكراهية حين يتدابران. والمقاتلون الأديعية الذين تركهم في أرض الغربة؟ هؤلاء كان يعيدهم معه، يؤلمون القلب ويُرْعشونه، لا يفارقونه، يطفون دوماً على سطح الذاكرة. كان يقطع الطريق بصعوبة، يشعر أنه ترك شيئاً من لحمه، وإن لم يترك أياً من ولديه، مهموماً بما سيكون مصيرهم. ويظل يلتفت من حين إلى آخر نحو فيشنيفيسكي. وموضوع العودة إلى روسيا الذي لا يريد التفكير فيه؟.. كان هذا مرضاً في أعماق ذهنه لا دواء له. وفي هذه المسألة بقي قامبولت ينقّس عنه همه. وحين يشرع يفكر في ما ينتظر قامبولت يسمّره الهلع عليه والقلق.

لحظة تجاوز شبق عتبة بيته كان ظهور الأمير دودارقهو العائد إلى موسكو مع مجموعة من الفرسان بمثابة سباط عنيفة على ظهره. وشعر بقلبه وروحه من طريقة استقبال كناق لهم أن الولد خرج عن طوعه إلى الأبد.

VIII

ليس مامي ممن ترتجف قلوبهم مع اهتزاز العידان، ولا ممن يخافون من ظلالهم. هو رجل أسمر ربعة لا يسر منظره العين ولكن من ينكبهم منذ كان غلاماً

مراهقاً في القرية، وحين صار مرافقاً لخان القرم مسؤولاً، ليسوا قليلين. كانت حركة يده سريعة كحركة عينيه السوداوين الصغيرتين، وجسمه صلباً كمن يتمتع بقوة جسدية غير عادية. لا يسأل عن شيء في الحروب. ولا يرى ضيراً في الاختباء متى شعر بقرب الإخفاق. وما فيه من شر أكثر من الخير. وفي ساعات نوحه لا يؤلم ظفره حتى لو كان سينقذ حياتك. ولا يعرف ما يسمى إنسانية أو رحمة. وبسبب قدرته يسعد جداً متى وطئ عدواً على مبدأ: من لا شعور بالكرامة عنده يسوغ كل ما يفعله.

مامي الذي نشأ في ظلِّ مشاحنات والديه لم يعرف معنى الرحمة والمعاملة الحسنة بين اثنين. كان سبب استياء والدته سراس الدائم من والده ظاظمي هو افتقارهما إلى ما عند الآخرين، فكان حُلمه أن يغتني اعتقاداً منه أن المال سيعيد الوثام إلى الأسرة.

ولما صار مامي مقرباً من خان القرم بدأ يغتني من غنائم الحرب. يستوي عنده الجميع من أديغة وروس ونغوي وغيرهم. يستقل ما يسلب من كل إنسان كأن له عليه ديناً. وحين يتوقف دولت - جري عن غارات السلب والنهب يبدأ في التوتر والسخط على كل شيء. انتشى من كثرة المال الذي جمعه فصار يعدُّ نفسه أقوى رجل في القرم بعد الخان، وفي الأديغة. ولكنه رفض التفكير في أنه وحيدٌ تماماً في المكان العالي الذي يقف عليه. ولا يفهم أن من يغتني بسرعة يصبح قصير النظر.

والآن، بعدما فارق الأمير شبق قيصر روسيا، وحالف خان القرم، هذ المكانة العالية التي تبوأها مامي كقفاعة، وخسر كل ما عنده: البيت المستقل والأثاث الفاخر والأسلحة وتوابعها، إلا ما على جسده. ولكن بقي له ما جمع من ذهب ومن فضة. ومن كان لها الفضل في هذا هي مريم التي لم يثق بها طوال علاقتهما. احتفظ مامي بمريم، المرأة النغوي، كما كلب الدار، يشفق عليه صاحبه فيرمي له عظمة، ويغضب عليه فيركله. زوجة وليست زوجة، ينهرها ويسبها ويصفعها. وتبين له أن تلك المرأة التي يحتقرها أشدَّ من أي مخلوق آخر هي أخلص المحيطين به. أما سرباي الذي كان أمله أن يقف معه في ساعة

الشدّة، بل يضحي بحياته لأجله، فقد كاد يقتله. ولكن مامي نجا منه بفضل مريم أيضاً.

فكّر مامي وهو يحتبّي في كوخ صياد في الغابة الجبلية: "ماذا أفعل الآن؟ عشت سنوات من عمري أعامل مريم كممسحة لقدمي، لا أعرف أهي زوجة أم خادمة. كنت أود أن أجد فتاة أديغة. عاشت نُكْر في قلبي إلى أن سلبها مني أشد الناس عداء لي قلقت. وظننتُ أن ابنة شبق الصبية الناشئة صارت في متناولي فخدعني أنفهُ الناس وبتغ الأعرج. وفي النهاية لم يبق لي إلا المرأة النغوي. الحقيقة أني ما كنت أعرف نفسي؛ وإلا فبم تتأخر مريم عن كنت أشتهيهن؟ جميلة، حلوة المعشر، رحيمة، لو عرف دولت - جري بما خدمتي به لمزقها إرباً إرباً..."

انتفض مامي من الضجيج، وقف وراء الباب والسيف بيده مستعداً لقطع رأس من يدخل الغرفة. ولما تجاوز الضجيج المألّي للغابة كوخ الصياد نظر عبّر النافذة. رأى في النهر الضيق على ضوء القمر أيلًا عظيم القرنين، وضحك حين تسمر الذئب الذي يطارده على الضفة: "هذا هو يا منحوس، أنت ترى نفسك قوياً ولكن هرب منك الأسرع عدواً. وأنا لاحقت الكثير معتداً بنفسي، بينهم من أدركته وقضيتُ عليه، وحدث أن نجوت بنفسي كذلك الأيل. ولكن لم أفلح مهما اجتهدتُ في أن أمس فتاة أديغة، أحضنها، أشكو إليها... لم يكن نفوري من مريم لأنها قبيحة أو لا تعجيني. ومهما حاولت لم أستطع أن أنسى أنها كانت في حريم دولت - جري. - غادر مامي النافذة الصغيرة، واستلقى على الصوفا الخشبية. أفزعه أيضاً أنه متى انقضى الصيف تحرك الصيادون معاً فلن يستطيع الانتفاع من هذا الكوخ. توجه إلى القرم آملاً أن يجد مخرجاً إلى وقتها: - ما أغرب أن لم يخطر لي هذا إلى الآن!.. كم في العالم من شباب تزوجوا من مطلقات وأرامل؟ لم تكن مريم في الحريم يعبت بها من يشاء. الوحيد الذي كانت تتقاسم معه الفراش هو الخان. سأتناسى هذا الواحد، ولن أجد مثل مريم في إخلاصها وتضحيتها..."

قال لنفسه وهو على طريق الغابة مشجعاً إياها: "سهّل لي شبق تحقيق نيتي وإن تسبب في طردي من النغوي. فتح لي طريق القرم. سأصطحب مريم إلى

بيت والدي دون خوف أو ضجيج. وبعدها سأرتاح إن استطاع تاخ المصدور أن يُصنفي لي قلب قلقت دون مزيد من الانتظار. عندي من الذهب والفضة ما يكفيني إلى آخر عمري. أرمم بيت والدي وأعيش فيه تغبطني القرية... أقول هذا ولكن تاخ لا يُعتمد عليه. ولن يتردد في إبدائي. ليس بين كل الأمراء المعارضين لشبق من يتحلى بالصدق والإنسانية. نزلت عند الأمير جان ريثما يزول الخطر فادّعى الجنون وأخذني إلى منحلة تاخ. وفي الحال وعدني الأخير أن يساعدني في ترتيب أملاك والدنا. ولكنه لم يعدني بالنزول في مضافته أو منحلته في وقت قريب. ذئب في الكلام وأرنب في التنفيذ. أليس ما جرى لي مأساة، أن أبقى وحيداً في الساحة لا يرضى قريب أو جار باستضافتي في حين لا أرى بين الأديغة من ينافسني ثراء؟! "

طرد مامي عنه أفكاره المؤلمة حين نزل من المرتفع ووصل إلى أسفل المضيق، وأغذّ السير بالحصان. ولكن رنّ في أذنه حالاً القول المأثور الأليم الذي رماه به والده: "الإرث يبقى للمنحوس". "أأنا المنحوس يا تات أم أنت؟ - غضب مامي حتى صعد الدم إلى رأسه. - ماذا تركت وراءك تفتخر به؟.. "

"مهلاً يا مامي، مهلاً، لا تلم والدك كلّ هذا اللوم! - نهض صوتٌ خفيّ يلجم غضبه، - لم يحمل عليك حقداً خارجاً عن الحدود. أن يعاديك قومك يعادل الموت. اتّهم والدك نفسه بالدم الكثير الذي أرقته من دماء قومك... - "ولكن أليس والداي من طرداني وأنا شاب؟ - استعاد مامي روحه المنهارة، حين بدأ يعيراني بما يُطعماني ويكسواني سلكت طريقاً لم يعلموني إياه، لا أندم على الطريق الذي اخترته. لو حرثت ليلاً ونهاراً يتصبب عرقى لما امتلكت جزءاً من مئة مما عندي الآن. الخطأ الوحيد الذي ارتكبته هو اكتسابي كثيراً من الأعداء. كم من أمثال قلقت مستعدون ليقطعوا عليّ طريقى في الأديغة؟.. "

حين وضع مامي قدمه على طريق القرم كانت الأرض أطف من أرض الأديغة التي تحرق أخمصى قدميه. وفي الليلة نفسها جاء بمريم، رأى لأماف المرأة الصغيرة التي تعمل في دار الجيران فتوقف لا يعرف ما جرى، ونادى ابنه زغاشت.

- ما الأمر يا والدنا؟ هل يزعجك شيء؟

- لا داعي للقلق، - قال لأماف لابنه ولكنه التفت وفي صوته القلق المستغرب. - كأن بيت المرحوم ظاظمي رُذّت إليه الروح. أرى في الدار امرأة صغيرة تعمل.

- ما هذا؟ - تعجّب زغاشت أيضاً مما سمع، أياكون مامي رجع ومعه زوجته؟ - محتمل، إن جاء بها الليلة فربما ليس في البيت الفارغ طعام، دع الكنة تتفقدهما، - قال لأماف وعاد إلى الغرفة.

صدف أن كانت نكر في بيت أهلها، فلما وصلت وراء والدتها رور إلى وسط الدار لحق الصبي ذو الأعوام الخمسة بأمه وهو يفرك عينيه:

- إلى أين يا نان؟

- وأنت لماذا لا تهدأ أيها الرجل الصغير؟ - عادت جدته فحملته، وضمته إليها وقبّلتها، ودخلت المراتان مع الصبي إلى دار ظاظمي. وضعت مريم المكنسة من يدها واستقبلت الجارتين بوجه ودود. أنزلت رور الحفيد من يدها وعانقت الجارة الجديدة. أما نكر فاكثفت بمصافحتها.

- لمن هذا الصبي الجميل؟ - مسحت مريم على رأس الصبي وسألت: - حماه الله، لا يخفى أنه إن كبر كان رجلاً شجاعاً.

- هذا اسمه بورن، ابن قلقت ونكر، - قالت رور وهي تعيد الصبي إليها. - إن كنت لا تعرفين فنكر ابنتنا، وأنا اسمي رور.

- سمعتُ بأسماء من في بيتكم، وإن لم أرهم، وكذلك باسم قلقت والأمير الكبير شبق. - ألقت مريم نظرة قلقة على الصبي ووجهها يُمتنع، هجم على خاطرها العداء بين قلقت وزوجها مامي، وأخفتُ انفعالها. - عندك حمّ عاقل يا رور. متى كان الجذر سليماً امتدت الفروع جيداً. لا شيء يُسعد الإنسان كالأسرة المتألّفة. ما معنى اسم الصبي؛ لم أسمع به البتة؟

- متى بدأت الريح تعصف حاملة الثلج قيل: بدأ "البورن"، يعني الريح العاصفة. ولد حفيدنا في الشتاء فسماه والده "بورن".

- ألا يزال مامي نائماً؟ قاطعت نكر الكلام وهي تنظر نحو البيت.

- لا، أوصّلني الليلة إلى البيت، وغادر وراء أعماله.

- قد لا يكون في البيت ما تطبخينه!

- لا أعرف ما عندنا وما ليس عندنا. أَلقيت نظرة على الدار صباحاً فراعني ما رأيت، فلم أسأل عن طعام أو شراب. - أسبلت مريم جفونها خجلة.
- سنأتيك إذن بما عندنا من طعام جاهز. كيف تصبرين وأنت لا تعرفين متى يعود مامي؟ - انصرفت رور مع الصبي ونكر، فنادتهما مريم قلقة:
- لا تتعبا من أجلي، ربما في البيت شيء يؤكل.
- حين زارت رور في صباح ما مريم التي تعب الجيران من أجلها صباحاً وظهرأ ومساء لعدة أيام، رأتها واقفة أمام نار الموقد متوهجة من الحر: اللحم المقطّع على الطاولة، وماء الباستا يغلي. وعلى رفّ الوجدان قرص من الجبن الطازج وآخر من الناشف. ونصف كيس من الطحين وراء الباب.
- ما أسرع ما اغتيت يا مريم! - تفقدت رور المطبخ مندهشة.
- الليلة عاد مامي محملاً بالطعام. ثم سافر مع الفجر. تعالي يا رور، اجلسي. أنا مُضيفتك اليوم. سأذيقك من أطعمة النغوي إن أعجبتك. - قدمت لها المضيفة المقعد.
- هل أنت نغوي؟ - جلست رور مستغربة، - كيف عرفت لعتنا إذن بهذه الجودة؟
- أنا مع مامي منذ عدة سنين، فتعلمت الأديعية لأني لست غبية جداً، - ضحكت مريم، - نحن زوجان منذ صار جاركم في القرم.
- من أين جاء مامي إذن بكل هذا الطعام ولا تكادان تصلان؟ - إن عاد إلى السرقة وقطع الطريق لاقى جزاءه وأنت معه، - ألقت نظرة إشفاق على المرأة.
- لا تخشي علينا يا رور، - كلمتها مريم مع ابتسامة، - أقسم مامي منذ تركنا القرم ألا يمد يده إلى ما ليس له.
- هذا حسنٌ جداً إن استطاع البرّ بقسمه!
- ولماذا لا يستطيع؟ ليس من طبع مامي الإخلاص بعهده. وها هو ونتغ الذي كان يزورنا عاد رجلاً صالحاً. ألن يصبح مثل ونتغ على الأقل؟.. نحن كنا من أسر القرم الغنية. ولا يمكن لمامي أن يطمع في مال أحد. ولكن خوفاً واحداً يغمرنا كلينا، وهو أنه أضرب بكثير جداً من الناس في هذه الناحية. إن كنت لاحظت فحين سألت عن الصبي نطقت باسم قلقت فأرعبتني. أشد من يخاف

منه زوجي هو قلقت. أعرف أن علينا دمه، وأنا مذنبون، ولكن ألا يقول الأديغة: حتى قاتِل الأب يُعَفَّر له! قلقت صهركم. يا رور إن استطاع زوجك وحموك إقناعه بطريقة ما فسامحه، فلن أنسى صنيعكم في الدنيا والآخرة.

- ليست هذه مهمة يستطيع أمثالنا حلها يا مريم. - تنهدت رور تتألم بكل جوارحها لمريم. ليقابل من ذكرت أسماءهم بمن فيهم جارنا. لن تسهل مهمته إذا بقي متخفياً. وإذا أُنْعِمَ حمي وزوجي أنه عاد إلى الطريق القويم فسيستفهمانه. وليس في أرض الأديغة من أمراء ومتنفذين وفلاحين من لا يسمع كلمة حمي. أفهمني مامي هذا الكلام!

- أعرف أن مامي متى تخلص من رهبة قلقت، وانضوى تحت جناحه فلن يجرؤ أحد على إيذائه. - أنهت مريم نبذة توسلها وقد بدا ارتياحها.

هذه المرة عاد مامي إلى البيت قبل منتصف الليل. استقبلته بالأحضان وبالكلام اللطيف كما في السنوات الكثيرة الماضية قبل أن تدع له الفرصة للجلوس أو الحديث. وقالت له بنبرة توسل:

- لا تدعني أعيش في قلق دائم يا روري الوحيدة. لا فائدة من حياتك كالجرمين فمئة عين ترصدك ومئة أذن تنتصت عليك.

- انتظري الخبر الذي سيأتي به الأمير تاخ بعد لقائه بقلقت... - ثم ضمَّها إليه دون آثار إجهاد، ومضى بها إلى الصوفا.

- أنت ساذجٌ إن كنت تصدِّق كلامه، - تسمرت مريم على أرض الغرفة. - زارنا تاخ عدة مرات ونحن في القرم. ومن ملاحظتي لكلامه وسلوكه فهو قادر

- صدَّقني - على أن ينكب الكثير من أمثالك. أنا توسلتُ إلى جارتنا رور ؛ ألن يراعي خاطر أهل زوجته مهما كان حاقداً عليك!؟

- ما كان عليك أن تدخل في الموضوع يا مريم. هذه ليست مسألة نسائية... - قال مامي عابساً.

- لا بأس، من خاطبتها كنَّتهم، لا حموها العجوز. - ضمته المرأة معتبرة ما فعلته صواباً، ونظرت إليه متوسلة. - لا يزال مصباح لأماف مضاء، أرجوك أن تذهب إليه، النهار والليل يستويان عندنا.

وقف مامي مطرقاً بعض الوقت يفكر، ثم خرج من البيت متردداً. وخاطب نفسه في الطريق: " التوسّل أهون من الموت. إن صبرت على الجانيه ريثما يأتي النغوي جماعتي مطالبين بالجزية فسأستعيد صهوة حصاني رغماً عنهم. سمع اسمه مع أصوات انصراف مُسني الجوار لحظة وصوله إلى النافذة فتوقف.

- رأيت مامي خارجاً عن طريق البستان مع الفجر بكامل زِيّه النظيف وسلاحه، ولكن لم أدعه يشعر بي. - قال زغاشت.

- لا تستوي النظافة والجريمة. - علّق لأماف.

- أخبرت زوجته نساء أسرتنا أنه تاب عن الإجماع.

- لو عرفت أن مامي عاد إلى الصواب لاعتبرت المرحوم ظاظمي بُعث من قبره. دخل مامي إلى المضافة مستحيماً، لا يرى من اللائق المزيد من الإنصات على حديثهم.

- ليلتكم سعيدة يا لأماف وأنت يا زغاشت، - حيا مامي الأب والابن بإيماء من الرأس دون مصافحة. ولم يمد الآخران يديهما إليه. ولكن العجوز أسرع بالقول متأملاً عينيّه:

- إن كنت تفعل خيراً فاجلس، وتكلّم. - أين نذهب بك نحن وإن كان الأمير شبق رماك من سرج حصانك. عشنا عمرنا والسقف يلامس السقف.

- لم يجد شبق من يقدر عليه سواي كما تقول الحكاية: طُلِبَ إلى كلّ من الحاضرين أن يضرب من يقدر عليه، فضربت العجوز القطة... - قال مامي لنفسه ما في قلبه من حقد باسمًا: "صعبُ معرفة من سيسقط من سرج الحصان: أنا أم شبق...". - لا، سأبقى واقفاً. - أكمل مامي كلامه: - لا تؤاخذاني، سمعتُ توأ حديثكما أنت وزغاشت. صحيح ما قالتَه مَنْ في بيتي لرور. أقسمت أمام نفسي ألا أفعل الشر في ما تبقى من عمري. وسأبرّ بقسمي. أعرف أنني مارستُ كثيراً من الشرور. وتسببتُ في موت المرحوم والدي قبل أوانه. ولكن لن أستطيع أن أكفّر عن ذنبي وإن أردت. توسّط لي يا لأماف مع قلقك ليغفر لي إساءتي إليه.

- لم ينكشف عليّ الصهر إلى الآن.¹ ولا انكشفت عليه. - أفلت من لسان الجار لأماف. إن كنت تريد من يتوسط لك فترجّ الواقف أمامنا. اضطر الصهر والحلم أن يتلاقيا بسبب أعمالهما التي لا نهاية لها في قضية الأديعة. ران الصمت على المضافة. وامْتُئِع وجه مامي، وتداعى قلبه. وفيما هو يرغب في الخروج احتدّ وقد صعد الدم إلى رأسه، ولكن رجله لم تطاوعاه. - لماذا لا تقول شيئاً يا ولد؟ ألم تسمع ما يريد جارك؟ - نظر العجوز إلى ابنه من تحت جفونه. - أنتظر رأيك يا تات. - ماذا تريدني أن أقول؟ - ابتسم العجوز، - العادة أن يلبي طلب مَنْ في مصيبة، نَقْدُ له رجاءه، ولو إكراماً لظاظي. خرج مامي من المضافة معسول اللسان فرحاً كمن أهدى حصاناً بسرجه غير أنه لم يملك وهو يجتاز أرض الدار إلا أن يوتخ نفسه: " تمرغون أنفي بالتراب لأني في مأزق. أبعدوا عني خطر قلقت وأعيدوا إليّ طمأنينتي، تروا النغوي الذين صرتم من نصيبهم قد رأسوني عليكم!.. وساعتها سرنى من سيتوسل ؛ أنتم أم أنا.."

IX

أفرحت نتائج الاجتماعات الاعتيادية للمخوش والبسلني والأبزاخ قلقت. وأسعده أن أخته انسجمت مع أسرتها الجديدة، ومع قريتها. استقبلته داريه مسرورة حتى نسيت أنها حامل. وتلهّفت ماذا تقدّم له. كان قلقت قرر السفر صباحاً مشتاقاً إلى الجانيه، فخوراً بما أنجز. ولكن حاتاي أخبر القائد الفلاحي حين التقى به آتياً من البسلني برغبة الأمير أبشق بلقائه فوجب على قلقت أن يتأخر. لم يكن قلقت نسي سلوك الأمير الأب قايتقوه معه، وكلامه الجارح، وموافقة الأبناء أباهم في زيارته السابقة للقبرتاي الكبرى. ولكن لم يحقد عليهم لهذا

¹ كانت العادة ألا يظهر الصهر أمام الحم، ووالد الحم بداهةً، إلا بعد مدة طويلة من الزواج، وفي مراسم خاصة.

الموقف. استقبله أبشوق بترحيب، ولكن قلقت لم يقابله بالمثل. ومع ذلك غلب أديغيته فسأل عن والده، فاكتنسى الأمير بالحزن وأجاب بنبرة وقور:

- والدنا ليس على ما يُرام. يلازم الفراش غالباً. العمر يقهره.

- ونحن ينتظرنا هذا المصير يا أمير. ما العمل، مع العمر يهرم الإنسان، - تنهد الأمير مشقوقه، مضيف أبشوق، ونظر نحو الباب. ثم تظاهر كأن أحداً ناداه، فخرج من المضافة. ولما بقي الرجلان وحدهما سأل أبشوق عما يجب باختصار، وبدأ الكلام على ما يشغل باله:

- كنت بدأت مشروعاً قيماً يا قلقت ولكن لم يتحقق لك. باعنا تيمرقوه وشبق إلى قيصر روسيا رائحين إلى موسكو وغاديين. وسما له بتقسيمنا.

- لم ينفرد قيصر روسيا بتقسيمنا. بل قاسمته تركيا والقرم حلفاؤكم. - وخز القائد الفلاحي الأمير القبرتاي.

- هذا ما حدث، - انكسر صوت أبشوق، وزاغت عيناه، - ولكن لا بأس بحظكم بالقياس إلينا. صرتم من حصة جيرانكم وأبناء دينكم.

- ماذا قدم النغوي لنا إلا أن يحاربونا ويدمروا قرانا وينهبوا مالنا بالإتاوة! - ارتفع صوت قلقت، - لا فائدة من التشارك في الدين إذا وضعك ابن دينك تحت قدميه.

- ألم تتعاشوا في السنوات الأخيرة على خير؟ كنت أراكم كأُنكم تفاهتم.

- صبر دولت جري ريثما أظلمت مخافة الروس. الآن لا أظنه سيتحسن، بل العكس.

- لماذا؟

- وقتها لم نكن من حصة خان القرم. والآن تنازلت عنا الدولتان اللتان لا علاقة لهما بنا لصالح الخان نهائياً.

- لا يا قلقت، لم تفهم جيداً معنى الاتفاق. من يأتك محتلاً فلا شك أنه سيحاربك، ويحرقك، وينهبك. ولكن متى صرت من أملاكه فسيحرص عليك ويحميك.

- إذا كنت تفكر هكذا بطريقة أذكى منا يا أمير، فلماذا تخاف من روسيا؟ تبعاً لتقديرى، هؤلاء ستجد عندهم، بالقياس إلى الترك - النغوي، نوعاً من الصراحة والعدالة.

- ما هذا الكلام يا قلقت؟! - احتدّ أبشق كاضماً نفسه، هل نسيت أننا كأسرة متجهون نحو القرم؟ أما من ضاع في حضن الروس فهو تيمرقوه البغيض. زوج ابنته للقيصر وتسيّد الساحة لا نجرؤ على مكالمته. وأهل الابتين الآخرين وقفوا ضدنا. فلم يبق لدينا مجال للحركة. وبدؤوا يفعلون بنا ما تقول إنّ القرم كانوا يفعلون بكم. وما الفائدة من القبرتاي الصغرى؟ ليست شيئاً بالقياس إلينا. في يوم واحد يمكن تدميرها؟ ولكن انظر إلى من يدعمونها، سيعجنونك بالتراب كأن لم تكن.

- يا أمير، ناورت والتفتت فعدت إلى ما يحرق قلبي. - ابتسم قلقت وأجبر الأمير على إظهار عينيه اللتين كان يُخفيهما، وجمع كل ما لديه وصارحه: - لو توحدنا، نحن أعراق الأديغة الاثني عشر في دولة، دون أن يسخر أحدنا من الآخر، لما طمعت فينا روسيا ولا تركيا ولا النغوي، ولا غيرهم. ماذا قال الأديغة؟ متى ابتعد الحروف عن القطيع افترسه الذئب. هل تتذكر جواب والدك حين جئتمكم بأفكارى؟ وكيف قابلتموني؟ قابلني والدكم بالسخرية.

- لا، يا رجل، ليس الأمر هكذا، - نظر أبشق محرّجاً نحو الباب، - لم أسمع والدنا قال سوءاً بحقك أو بحق غيرك. اللهم إلا تيمرقوه العنيد.

- لا يُروى ما لم يُقل، - لم يترجع قلقت، - لا تظنوا أنني لست إنساناً لأني فلاح! عندي عقل، وأتعلم كيف جرى تأسيس الدول، وحياتها. تقودني القضية الأديغة فأود أن تتعلموا من عندهم دول وتقيسوا عليها. ما العيب في هذا فأكون مادة للسخرية؟

- لا أفهم ما تخوض فيه الآن يا قلقت، - تظاهر أبشق بالضحك. خفض صوته ونظر نحو الباب ثانية. وهمس له: - ما أريده شيء آخر. كنت زرت دودارقوايه، وأباته حابله وغيرها من القرى. وعرجت إلى هنا. ووعدني أمراء البسلني والفلاحون أن يساندوك. وبين الأباطلة والبجدوغ وغيرهم كثيرون ممن يمكن أن يطيعوك. لو تعاونا وأدبنا تيمرقوه لكان مدخلاً ممتازاً إلى الدولة.

- يا أمير، - قال قلقته واضعاً النبر على كل كلمة، - كنت قلت لك أيضاً سابقاً، وأكرر الآن، أنا لا أفكر في تأسيس دولة بالقوة والحرب. صحيح أن قيصر روسيا سفك كثيراً من الدم في سبيل تأسيس الدولة، وإلى الآن لا يرحم أعداءها، وسيسفك مستقبلاً، هذه معلومة استقيتها من الابن الأكبر لشبق. هذه الطريقة لن تفلح معنا. وفكرت طويلاً في هذا الاتجاه. الأمراء الروس لن يتراجعوا عن هذه القسوة، والعبيد يفرحون بسفك القيصر لدم هؤلاء الأمراء، ويؤيدونه. نحن متى بدأنا بسفك الدم تفانينا. وأنت تعرف جيداً عناد الأديغي. أنا لي رأي آخر. لن نزيح الأمراء. دعونا نتفقد أنفسنا ونختار أميراً عاقلاً، لكل قرية أميرها ؛ ألا يمكن العثور على أمير راجح العقل بينهم؟

- تسأل فأجيبك: نعم بالتأكيد. لا نستطيع ترتيب أمورنا ولكننا نرتب العالم متى اجتمعنا. - تمطى أبشق معتداً بنفسه. واصطنع سعلة. - المشكلة يا قلقته هي كيف تُفهم تيمرقوه أي أستحق أن تقدمني القبرتاي كلها؟ ومن سيفهمه؟

- لست وحدك يا أمير، شبق ومشقوه عندهما أفكار الدولة... - حين بدأ قلقته يسرد أسماء الأمراء الذين يرشحهم هو عارضه أبشق:

- البسلني كلهم لا يساوون أكثر من بضع قرى من إمارتي. وأنتم الجانيه كثيرون ولكن الأمير شبق أهان نفسه مختاراً أين يتجه.

- والأبزاخ ليسوا قليلين.

- هؤلاء لا أمراء عندهم. ألم تشتترط أنت أن يكون الحاكم العتيد أميراً؟ ضحك قلقته، واختتم كلامه:

- يا أمير، قمنا بجولة في أرجاء إقليم الأديغة كما في بداية النقاش، وعدنا إلى نقطة البداية. لا أظننا سنجد وسيلة تفاهم بيننا.

لم يأت قلقته طوال طريق العودة على ذكر الحديث الذي دار بينه وبين الأمير أبشق لرفاقه. ولم يسأل داور ولا تمتج. كان الأمير ترجّاه أن يبقى الحديث سرّاً بينهما فقصرّوا طريقهم بأخبار أخرى.

...

كان الأمير شبق في مضافته مستعجلاً على عودة قلقت. لا يبتعد عن البيت في جولاته. ينتظر الجار بعدما عاد من بولونيا وقد تخلّى عنه كتناق، ولا ينسى عودته لقامبولت قائلاً في نفسه: "من تؤمّله يصبح غريبك". وفي تلك الأيام ابتعد عن الدار مرة واحدة؛ بعد أن انقضت مآتم ضحايا بولونيا زار العجوز لأماف يريد التنفيس عن ضيقه. وأنجز هذه الزيارة في يوم واحد. والآن لما رأى قلقت قد عاد إلى البيت سيطر عليه قلق شديد لم يختبره في أيام غيابه.

"أيّ أمل أعطيته لولدي الأصغر الذي لم ينبت شارباه بعد فجعلته غريباً لي؟ - لام شبق نفسه غير راض عنها، - إذا كنت سأقف إلى جانب قلقت في شأن تأسيس الدولة فما شأن قامبولت الذي لا يزال غضاً؟ متى صار محدثاً ومناقشاً لجارنا؟ أنا المسؤول عن كل شيء. أليس كتناق وقامبولت ومينسور أولادي، ألسنت من رباهم؟ اصطدمتُ بنفسي بما كانت زهرة لا تقبله مني. تركت لهم الحرية، يرتبون أمورهم بأنفسهم، ويعيشون وفق عقولهم، يصلون بأيدهم إلى ما تريده قلوبهم. ولم يحرمهم أفمق من الإنسانية - الشفقة. انتزعْتُ ابني حقيقة من العالم الذي تقبله بقلبه وروحه بسبب خداع القيصري، ولكن النتيجة هي أي عرقلته ولم ينفعني. والوحيد الذي فهم هذا هو لأماف. ولكنه سألني في موضوع الدولة سؤالاً جارحاً: "ألم تتأخر يا أمير؟ أن نحققها متأخراً أفضل من أن لا نحققها البتة..."

دخل شبق أرض الدار خلف البيت لا يجد راحة في المضافة. برّد الهواء في الصباح الصيفي على وجهه الأحمر العريض. وبدأت أوراق الأشجار الذابلة من الحر تعود إلى حالها.

أجفل صوت الباب الصادر من دار الجيران شبق. ونادى قلقت الخارج من البيت بصوت مرح:

- الحمد لله على السلامة يا قلقت، طال غيابك!

- أنت من تستحق التهنئة يا شبق، لا أنا. أدام الله عليكم الصحة، أهنتك بسلامة العودة. - أسرع قلقت نحو الأمير. - ألم تعد بالشباب كلهم دون خسائر؟

- يا حسرتي يا قلقت! - لا حرب دون خسائر. - خسرتنا تسعة وثلاثين مقاتلاً.

- يا للبؤس! أليست المآثم تملأ قرى الجانيه إذن! - أطرق قلقت حزناً. - لا تؤاخذني يا شبق؛ هل كنت مجبراً أن تصطحب شبابنا ليحاربوا في آخر الدنيا؟ - وهل تطنني ذهبث متحمساً للحرب لو لا أن اضطررتي الخان دولت - جري؟! - قال الأمير غاضباً، - وأضيف إلى الموضوع خداع القيصر لي. ما العمل؟ فات الأوان. تفضل إلى مضافتي نفطر معاً. لا أحد في بيتك يجهز لك مائدة. كنت زرت لأماف فرأيت ابنك ونكر هناك.

قال شبق لنفسه وهو في طريقه إلى المضافة: "ما أمامك أسهل تناولاً بكثير مما وراءك. ولكن هذا أيضاً يجب أن تراه وتقرر إن كنت قادراً عليه. أنا لم يكن قلقت ورائي، ولا إلى جانبي، وُلِد وصار رجلاً على مرأى مني. من أين جاء الفلاح الشاب بهذه الأفكار متجاوزاً إياي؟ ومن أين أتى بفكرة الدولة؟ وأنا أول من بادر إليه بهذه الأفكار، ولكني أبيت سماعها. وكيف كنت أقبلها؟ حين شرفني الجانيه بالإمارة الكبرى التي ورثها لي المرحوم والذي لم تترك لي جماعة الأمير تاح فرصة للتفكير في الدولة. مرت السنوات جزافاً ونحن نتصارع. كنت أقول في نفسي: "الفلاح الشاب لا يدع نفسه تشعر بالملل. حين شعر بالفراغ خطر له أن يؤسس دولة للأديغة" فأسخر منه بيني وبين نفسي، وأوافقته بلساني فأبقي كلامي أملاً فحسب. والآن بعدما عاد كتناق فتوجه إلى روسيا كي لا يحنث بقسمه للقيصر، وأفهمني الولد الأصغر الذي صار رجلاً تأييده لقلقت، عدت فتوجهت إلى قلقت. وعلى قول لأماف: ما جدوى هذا الآن؟ لير رأي الزعيم الفلاحي..."

أكل قلقت العائد من سفر طويل بشهية. ولما رُفعت المائدة بدأ شبق الحديث بقامبولت مناوراً:

- ورثنا القدماء كثيراً من الحكم. لا تقاوم من يأتي من بعدك، لا يقصدون به عجزك عنه جسدياً فحسب بل إن الشباب أنشط منا بعقولهم، وأبعد نظراً. وما أنت تعمل منذ وقت طويل في موضوع الدولة في حين نحن غارقون في

صراع الأمراء. ولدي الذي ولد بالأمس اقتنع بأفكارك. ووقف إلى جانبك. والآن يجادلني.

- أنا لم أستطع التأثير فيك يا شبق. فهل أثر فيك كلام قامبولت؟ - ابتسم قلقت.

- أصعب المصائب حين يعجز المرء عن معرفة الاتجاه الذي سيسلكه. - تنهد شبق عميقاً، - ركبني الهلع من أن يفنى عرق الجانيه على يد النغوي الذين جعلهم الله جيراننا، فركضتُ إلى موسكو. - ولم تنجح محاولتي. وخالطتُ القبرتاي والبجدوغ والأبزاخ وغيرهم، فلم أتفاهم معهم. ولما يئستُ عدت فتوجهت إلى النغوي لانعدام مخرج آخر، ولكن كم كنتُ محرجاً وأنا في طريقي مطرقاً إلى الخان دولت - جري.

- لماذا سمحت لكتاق أن يعود إلى موسكو بعدما حسمت الأمر وتوجهت إلى تركيا والنغوي؟ - طرح الجار سؤال المناقشة الذي كان ينتظره الأمير. - جماعة الأمير تاخ هم أول من سيشنون الحرب عليك. لا أرى من المقبول ألا يطيعك ابنك وأنت أمير الجانيه ولك كل هذه القدرات!

- ليس الأمر على هذه الدرجة من السوء يا جاري، - حنى شبق رأسه إلى الخلف وثبت نظراته على السقف، - ليس الموضوع أن كتاق خرج عن طوعي ولكنني فهمت أن من سلّمته بيدي للقيصر في عزّ شبابه، وتنصّر، وتحول قلبه إلى قلب روسي، لن يصبح حليفاً لي أو لك. فلم أعرقله. ينافس سلطان ابن الأمير الكبير تيمرقوه. يريد أن يصبح رجلاً مهماً.

- لا أعرف ماذا سيحقق كتاق، ولكن سلطان، أخا زوجة القيصر، سيحلّق عالياً. - ابتسم قلقت، ثم عاد إلى الجدّ، وقال: - ربما كان عدم عرقلتك الشاب تصرفاً صحيحاً. ولكنه ضرر بالغ لمسألة الأديغة. ومن سيسوّغ له سلوكه بين الأمراء والفلاحين قليلون.

- هذا أمر انتهى يا قلقت. أين بلغت أنت بمشروعك؟ ما رأي المخوش والبسلني والأباطة والأبزاخ؟ - كرر شبق ما يَعد به ابنه قامبولت.

- أيّدي أمراء المخوش والبسلني وفلاحوهم تقريباً إلا الأمير الأحمر قريب دودارقوه. وفي هذا أفادي كثيراً قريبك جامبيج ومشقوه.

- أنا لن أراجع عن وعدي لولدي. ولن أدخر جهداً، غير أن أماننا خطرين.
- وما هما؟

- سترى الأمراء تاخ وفواخ وجان سيتحركون متى سمعوا بنوايانا قائلين: ما حاجتنا نحن إلى الدولة بعدما صرنا أجزاء من دول. وسultan تركيا، وخان القرم، وقيصر روسيا معهما لن يقبلوا أن تؤسس دولة. سيشنون علينا حرباً. والحكوف والأبازخ والبجدوغ يُشيعون بوجوههم متى ذكرت لهم موضوع الدولة. يجزعون إذ يتصورون أنهم سيخسرون شيئاً مهماً.

- لا أعرف رأي تيمرقوه، ولكن أبشق يطمع في منصب حاكم البلاد.
- أتنازل له عنه. حين نصل إلى النهاية لا فرق عندي بين تيمرقوه وأبشق ومشوقة. إن لضمنتُ ألا تصل السلطة إلى شخص سيء مثل تاخ فأنا لن أرشح نفسي.

- يسرني أن تقول هذا يا أمير. ولكن لا يعجبني ترددك في مسألة الدولة. -
صحح قلقت موقف الأمير، - لن يتحقق لك مشروع تبدأ به دون اقتناع تام.
- وأنا أفهم هذا، - امثّق لون المضيف. وتغير صوته. - ما أقوله هو حالي أنا. حين زرت لأماف خرجت من عنده والأفكار تتنازعني. مامي عاد إلى بيت والده برفقة زوجته النغوي بلا خوف أو حياء. ورمم الدار كلها. يعود متأخراً في الليل، كما قبل لي، ولا يقضي النهار في البيت. وأنا أستغرب كيف تغفر لمثل هذا التافه الجرح البليغ الذي أصابك به. لو كنت مكانك لأزهقت روحه منذ زمن بعيد.

- يا شبق، - قال قلقت بحدوء وابتسم، - كنت تعهدت أن أزق روح سليل الكلاب هذا أينما كان، ولكنه وجد من يحتمي به ضدي. وسطّ حمي زغاشت، وأبلغني لأماف بالرغبة نفسها. أليس من العيب تجاؤزهما؟
- وكيف أقنعهما؟

- أقنعهما أنه رجع إنساناً.

- وأنت هل صدقت؟

- يقال: من يعتد التبول في ماء النبع فلن يكفّ عن عادته. ها أنت ستراه عائداً إلى جرائمه إن عاجلاً أم آجلاً متى بدأ النغوي يخالطوننا.

- وأنا هذا رأيي. من أهان والده فلن يعود إنساناً ولو نصّبته حاكماً.

- لو كان مامي وحده لهان الأمر يا شبق، - مسح قلقت وجهه براحتيه، ومده نحو الأمير. - لا يعرف أحدٌ متى صار الأديغة بشراً. ليس قبل سائر الأقوام، ولا بعدها. يعيشون منذ الأزل، يتآلفون مع من يخالطون من الغرباء، ويحترمون من يخالطونهم. الأديغي عقله نشيط، لم يترك شيئاً لم يرتبه بلسانه الذرب الذي منحه إياه الله. فكّر في عواقب كل خطوة يخطوها. والآلهة المتعددة، والإله الواحد، أحسنوا إليه. وكرّموه بأرضه الجنة. ومنحوه الجبال العالية والغابات الكثيفة والشواطئ اللطيفة. ووضعوا تحت تصرفه أخصب الأراضي حيث تصبح العصا المغروزة في الأرض شجرة. الله لا حدود لقدرته فما السرّ الذي سلبه منه الله إذن؟ لم يمنحه الإدراك بأن هذه الخيرات التي وهبه إياها يمكن أن يسلبها منه غيره. صار شغياً في الأرض التي يعيش عليها ويجد فيها ما يحتاج. ولكن هذا أخمل عقله، وقصّر نظره. وقف إلى جانب الآخرين معتقداً أنه مثلهم. ولكن لم يتفق معهم. لا يمكنك الانتصار على أحد دون أن تكون لك دولة. ولن يحترمك أحد. بل إنك إن لم يسد الوفاق أسرّتك لم تنسجم مع قريتك.

- بدأت كلاماً جميلاً جداً، واختتمت بأننا لا نصلح لشيء. - تعرق رأس شبق من أفكار الجار.

- إن لم نضع شرعة الأديغة في يد شخص واحد فلن نصبح دولة، ولا بشراً. - اختتم قلقت كلامه لم يراجع. - لا تحزن يا شبق، ما يخدعنا نحن هو تبادل المعروف بيننا. ها أنت أهديت العريس ابن الأرملة بضعة خراف وبقرة حلوباً، أفلم تكن هداياك إلى غيره مثلها أيضاً؟ لا أقصد أن أعيرك بمعرفك، ولكننا نفسد بذلك أخلاق الفلاحين الذين يتأملون منك... والآن هل يؤيدني ابن تلك الأرملة إن دعوته إلى مشروع الدولة؟

قال الأمير شبق لنفسه مرتعّباً: " اسمع ماذا يقول، وبمّ يعيرني... هذا الرجل تجاوزنا وذهب بعيداً ونحن لا نحسب حسابه. لا أظننا لنلحق به ولو طاردناه".

ليس من السهل أن تتصوّر السرعة التي يهاجم بها الشراكسة العدو. يأتون في سرعة البرق، فيرعبون أعنى جيوش أوروبا. الفارس والفرس مدربان معاً على نحو عجيب فيخيّل إليك أن مثل هذا الإنسان لا يُعجزه شيء. المقاتل الشرکسي لا يستسلم للأسر، يحارب ما دام فيه روح.

إ. سبنسر

هو شجاع كالشرکسي. هو صلب مثله.

(أقوال مأثورة من الشيشان)

الشرکسي مدجج بالسلاح،
هذا يمنحه الاعتداد والفرح.
معه درعه وخوذته وقوسه،
وجعبة السهام، وحبل الطرائد،
وسيفه وخنجره
لا يصدر صوت من أيّ منها،
لا فرق عنده بين الركوب والسير على الأقدام، دائماً متين،
مظهره واحد في الحالتين: لا يُهزَم.

أ.س. بوشكين

... ينظر فيعتدّ
بأنه شرکسيّ خلّق هنا.

م. ي. ليرماتوف

I

لا تنسى غشوناي رغم انقضاء عام على زواجها من إيفان غروزني وصايا أمها حين سلكت طريق موسكو: "استقرّي بين من تعيشين معهم، ولا تنسي من فارقتهم، واحتفظي في قلبك بأديغيتك في الأزمات، وفي مواقف الفرح. احمي شرفك، ولا تجلبي لنا العيب. نحن مصيرنا كما كتب الله، وأنت، مهما جرى لك، ولو أنك في مكان بعيد، سنحمل معك فرحك وحزنك. ولكن احتفظي بالأديغية؛ لا تخطئي أبداً".

العام الواحد ليس كافياً لتقييم الموقف. استطاعت غشوناي ماريا ابنة الثامنة عشرة، بفطنتها ودكايتها، وبمناادة القيصر لها أحياناً تدليلاً بـ "كوشيني"، مما يدلها على مكانتها عنده، أن تحصل على الكثير. تعلمت بروسيّتها المحدودة أن تعبر عما في نفسها، وأن تقرأ وتوقع. واعتنقت المسيحية عن قناعة. والفضل في هذا إخلاص إيفان غروزني للدين، ورجال الدين المتابعون لها بقيادة رئيس الأساقفة مكاري. وربما كان هذا، ومحافظتها على روحها الأديغية، احترامها لنفسها، واحترامها كذلك لعلاقات مجتمعها الجديد، كل هذه الأسباب عززت مكانتها في وسطها في خلال وقت قصير. وكان بين حاشية القيصر، وبين الأبعاد عنه من لا يكون لها المودة، غير أنهم يكتمون ما في نفوسهم.

كان أول من تحدث إليهما إيفان غروزني بعد زواجه ببضعة أيام من أجل دفع الفتنة عن أسرة القيصر الجديدة امرأتين.

- أنت يا بربارة ربّي ولديّ على ألا ينسبا والديهما. وأنا راضٍ عنك في هذا. أغفر لك إخفاءك ولديّ حين رُفّت ماريا إلى الكرملين. ولكن لا تكرري. - قال القيصر للعجوز، - أرى ولدي إيفان ينشأ قاسياً، ويسوّني هذا. لا ينسى أمّه وقد مضى على وفاتها أكثر من سنة. ولا يدع فيدور أخاه يهنأ بالراحة. وأنت لست بعيدة عن معرفة هذا. ستفهمينهما منذ اليوم أن ماريا تيمريوكوفنا هي زوجة القيصر، وأنها بمثابة والدتهما. وأفهميهما أي أنا السبب في هذا الزواج. وإن لم تفعلي هذا فالويل لك. أليس كذلك يا غريغوري لوكيانوفيتش؟

سأل القيصر جهة الباب الذي يقف إلى جانبه سكوراتوف ماليوت. ودون انتظار الجواب، ومُسمعاً الحضور غير الكثيرين، تظاهر بسؤال فيسكوفات: أليس صحيحاً يا إيفان ميخائيلوفيتش؟

التفتت بربارة فزعة إلى سكوراتوف وفيسكوفات. ثم توجهت إلى القيصر بإشارات الصليب وجسدها يرتجف من الكلام القاسي.

- على الركبتين، على ركبتك اركعي أمام القيصر العظيم!

- يا سكوراتوف ماذا تقول! نهره القيصر، ولاطف العجز التي ارتمت أمامه: - انخفضي يا بربارة، لم أستدعك لهذه الغاية. عودي إلى الولدين. وأفهميهما كلامي. احتفظي بالإله في قلبك. - رسم الصليب على المرأة التي أخضعها عابساً.

وتوجب في اليوم التالي أن يتكلم القيصر إلى أخيه الأصغر وزوجته. لا لأنه سمع ما لا يُرضي عن زوجته، بل تحسباً لما قد يجري. وأفهمهما على نحو موارب ما يريد:

- ما حياتكما أنت وزوجتك بعد ما جرى في روسيا؟

- يسرني ما فعلتَ برغبتك يا قيصر روسيا كلها، - ارتفع صوت أخيه يوري.

ألقى القيصر نظرة ودّ على أخيه وسأله:

- لستَ في اجتماع النبلاء - قادة الجيش، لا تنسَ أنك أقرب الناس إليّ. ثم رقق صوتك في حضرة زوجتك الجميلة. - شمل القيصر زوجة أخيه بنظرة دافئة لأنه هو من اختارها له. وكما ابتسم لها أول مرة رآها، فعل الآن. ثم سأل أخاه دون أن يلفت انتباهه إلى تلك النظرة: - لماذا لا تقول شيئاً يا يوري؟

- أنساني سروري باقترانك بزوجة جميلة ما أريد أن أقول يا قيصرنا العظيم، - والتفت إلى زوجته لا يعرف إن كانت سترضى بعبارة " زوجة جميلة "

- أتكون أجمل من زوجتك؟

- لم تخطئي في هذا يا قيصر روسيا كلها. - أنقذت الزوجة زوجها من الموقف الحرج. - أنا أشهد، رغم كوني امرأة، بأنها أجمل من رأيث. أدعو لكما أن تعمّرا طويلاً على الحب والصدق.

- وأنا أدعو لكما بالعمر الطويل والحظ السعيد. - وافق يوري زوجته.

- حياكما الله، وهذا رأيي أنا في ماريا كوشيني. - بدا على القيصر سروره بالمرأة التي اختارها. وقال لأخيه الأصغر مع ابتسامة خفيفة ساخرة:
- ومع ذلك كنت اتهمت الأديغة بالتمرد!

- فهمتُ أخيراً عدم جواز الكلام على ما لا تعرف. سامحي يا قيصرنا، أراجع عما قلتُ. - انحنى الأخ وأضاف: - جلستُ إلى أقربائنا الجدد أكثر من مرة، كل كلامهم وطباعهم وسلوكهم مما يُغبطون عليه. لم أر فيهم تلك الروح المتمردة.

- وهذه نظرتي أيضاً إلى سيدة روسيا. - أضافت السلفة إلى كلام زوجها، - نلتقي كل يوم فلا يحدث أن تنسى النهوض لي ومعانقتي والسؤال عن زوجي وعن أولاد القيصر. ولست وحدي بل تحترم كل من يدخل إليها، وتنهض لهم، حتى الخدم.

- هذه طبيعتها يا كَنَّتِي العزيزة. رفع القيصر رأسه كبيراً. ولَبَّتِ الكلمات الودودة قلبه، - وأنا أيضاً تنهض لي حالماً أدخل إليها. أقول لها: لا تفعلي هذا ؛ سيدهُ البلاد ينهضون لها، ولا تنهض هي، ولكنها تقول: هذه عاداتنا. وهذه العادة لها جانب إيجابي وجانب سلبي. لا يمكن القيام لكل ذي رأس إن كان يستحق أم لا. وأنا أتركها على أمل أن تتخلى عن هذه العادة مع الأيام...

"عَجَلْتُ كثيراً في البحث عن العيوب!" - قالت يوليانا لابن حميها، - لا أحسد من صارت زوجتك. كنت فرحتُ حين تزوجتَ على أمل أن نخلص من نظرتك الغاضبة. حين كنت تكلمني من أجل أخيك لم أكن أخلو من الإعجاب بك. ولكن القدر كتب على جبیني اسم أخيك. والان وقد تزوجت وأنت والد الطفلين الملكيين، لا بأس أن تُخفف نار شهوتك. ولا بد أن تترك الفتيات اللواتي تجني عليهنّ... " ثم أجابت باختصار متصنعة المزاح:

- اقنع يا قيصر روسيا إن لم يكن لسلفتي إلا هذا العيب، ونحن فرحون. خير لك أن تقابل الناس بمفنيين مسبلتين من أن تقتلهم بعينيك.

- نعم يا يوليانا، كلامك في محلّه. وأنت يا أخي لا تنظر إلى زوجتك بجفاء. يسرني أنكما تكلمتما بالخير على زوجتي ماريا. وأنا هذه نظرتي إليها. لن أغفر لأي إنسان يتكلم عليها بالسوء في حضورها أو غيابها.

- نحن معك في هذا. نحن أول من سيرفض. - اختتم يوري باسمه واسم زوجته.

انقضى على هذا الحديث عامٌ.

مضت الأشهُر دون أن تعترض أيُّ مشكلة ماري غشوناي. تمثل لما يعجبها وما لا يعجبها. مخلصاً لزوجها، تقضي أيامها في الكرملين، لا تملّ من رؤية زوجها بضع مرات في اليوم. وتفرح إذا التقت بأخيها الأكبر سلطان ميخائيل مرة أو مرتين في الشهر. ولما علمت بعودة كتياف الذي نسبته كلياً توسطت له فأرسل جندياً عادياً إلى حرب ليفون. كانت وجمت قليلاً لا تعرف ما تقرر بشأنه ولم تُبدِ ميلها إليه بقلبها. ومن ذكر سيرته لها هو زوجها وليس أخاها سلطان، ولا دودارقوه أحد أعضاء الوفد المستطلع الخاطب الآتي من موسكو.

يتعجب المقربون منها ومن يسمعون أخبارها من أن المرأة الأديغية تزيد معرفتها بالروسية، وتندمج في وسطها الجديد يوماً بعد يوم. وكثيرون كانوا يودون التأكد من أخبارها، ومحادثتها، دون الاكتفاء بسماعها. وفي المرات القليلة التي تخرج فيها من الكرملين لا يتسع الشارع للجماهير التي تتابع عربتها المزينة. ولم يكونوا يودون رؤيتها فحسب، بل رؤية الزيِّ الأديغي الذي يبدو قوامها من تحته رشيقاً طويلاً. وتبدأ الفتيات ارتداء ملابس ضيقة تخطط للجسم الرشيق تحتها بدلاً من الملابس الفضفاضة. وأول من ألبست الثوب الضيق لماريا هي فيفرونيا. ولم تتأخر زوجة أخي القيصر عن غيرها في تفصيل ثوب ضيق. وكان إيفان غروزي أول من امتدح قوام يوليانا من خلال ذاك الثوب. وهكذا انتشر بفضل ماري الثوب الضيق الذي يحفّ بالجسم، والقبعة غير العالية المطرزة بخيوط الذهب والفضة. وتصرفت النساء المرائيات بهذا الطراز كما يرغبن.

وفهم من رأوا في مشغولات زوجة القيصر مهارتها في التطريز. وثمّنوا ممارساتها لدينها الجديد. وأعجبت غشوناي بالأغاني الروسية، وحفظت ألحانها وكلماتها. وبدأت تغني مع الصبايا عندما يجتمعن مساءً. ويستغرب من يسمع إتقانها لبعض الألعاب وممارستها لها مع القيصر. ولا تسمح لنفسها أن تنسى عادة الاحترام التي استقنتها من قومها، ونصائح والدتها. وهي من جهتها تستغرب كل ما لا تعرفه. وتخفي امتعاضها من بعض ما تراه عملاً بنصيحة أخيها،

معللة نفسها بأنها ستعتاد عليها. وبعد بعض الوقت تسخر من نفسها على ما اعتادت عليه.

كل شيء على ما يرام في حياة غشوناي. وسَطُها الجديد يجبها ويُعزّها. وهي وإيفان كمن يعرف أحدهما الآخر منذ بداية العمر. والأهل الذين أوصاهم القيصر ألا يتسببوا في الأقاويل قريون وبعيدون ينفذون الأوامر. وكما يقال إن ساكن بيت الحديد يحتاج إلى إبرة حديد ولو كان يغمره الذهب فليست الحياة كلها كما ترغب. فيها كثير من المفاجآت. ولم تكن غشوناي عاجزة عن أن تفهم أن الحياة لا تجري كلها باستقامة أشعة الشمس، وأن الطريق الممهد لا بد أن تعترضه خنادق. وأنها لا بد أن تعاني بعض القلق من جهة ولذي الزوج. كل شيء على ما يرام ولكن الولد الأكبر ليس كالأصغر. لا تستطيع أن تضمه إليها وتطوّعه. ولم تكن تشكو إلى أحد هذا المسلك. الزوج يسألها دائماً عن سلوك ابنه نحوها، ولكنها لن تصفهما إلا بالخير إلى أن تسيطر على كل شيء.

في أحد الأيام، فيما القيصر عائد من نزهة على الأقدام في الكرملين، خرج إيفان ابن القيصر من غرفة ماريا المفتوح بابها يفرك عينيه، فلما رأى والده ارتقى في حضنه رافعاً نحيه، لا يرد على مربيته. ووقفت غشوناي واجمة على الباب. وبدأ فيدور الأخ الأصغر ييكي تأييداً لأخيه.

- اسكتنا ؛ ماذا جرى لكما؟! - وسألها وهو يبعد الصبيين اللذين التصقا به، وسأل المرأة يريد أن يقول: انظري ما أصغرهما إلى الآن.

- لماذا تعانقني هذه؟ - نظر الصبي إيفان ساخطاً إلى غشوناي.

- وأنا تمسح على رأسي وتقْبَلُني، - وافق فيدور الذي كف عن التباكي أخاه.

- هكذا! - تظاهر القيصر بالتعجب، وسألها: - لا يعجبكما ملاطفتها لكما؟ ماريا زوجة والدكما، تحبكما فتعاملكما كأملكما.

- ليست أمّنا! - لم يسمح إيفان لوالده بإكمال كلامه، - تفوح منها رائحة أخرى.

- اسكتْ يا إيفان! - غضب الأب، ونهر ابنه، ثم نصح الزوجة التي لا يدينها: - اغفري لي يا كوشيني، يا حمامتي الصغيرة!

- وكنت تسمي أمنا هذا الاسم!.. - أفلت إيفان من يد والده في حين أن الصغير لم يُفلح.

- إيفان، امش أمامي إلى غرفتي!
حاولت غشوناي أن تقطع طريق زوجها فلم يقبل:
- أنت لا ذنب لك ؛ ارتاحي!

مرّ القيصر في سنيه الاثنتين والثلاثين بمصاعب كثيرة ولكنه لا يتذكر مثل هذا الموقف. يذرع أرض الغرفة عاقداً يديه وراء ظهره. ويتجاوز ولديه الواقفين معاً ذهاباً وإياباً. وينظر إليهما من تحت حاجبيه: " ماذا أقول لهما؟ نهرُهما وعاتبتهما ونصحتهما ولم يمنعهما كل هذا من أن يعيراني." ليست أمنا، "ليست حمامتك..." - توقف القيصر وتنهد: - ماذا كنتما تريدان؟ ألا أتزوج بانتظار أن تصبحا رجلين؟ كان من الممكن أن أعيش هكذا، ولكن لن تفهما الآن أن القيصر ليس حرّاً في نفسه..."

- ما العمل الآن إذن؟ - سأل القيصر ولديه حذراً.

- لم نُشعل لأمنا شمعة منذ زمن طويل... - أجاب الأكبر كأنه كان ينتظر سؤال الأب.

- سنشعلها لها إذن - وافق مرتاحاً - وندعو إلى الإله أن يغفر لنا سلوكنا الخاطئ.

وقف الثلاثة مع شموعهم أمام الأيقونة...

"يا إلهي العزيز، ارحمنا، وأعنا. - توجه القيصر إلى الإله ناسياً سطوته، - أنا بين نارين، وحريص على الطرفين. أربي ولدي منذ فقدا والدتهما، أعطيهما روحي وقلبي. ومن حلت محل أمهما حنون عليهما. وأنا تزوجتها برغبتى. وأريد أن أعيش معها، أشاركها الرأي، لا يمكن أن أعيش أرملة..."

أعاد القيصر ولديه وقد هدأ قلباهما. ضمهما إليه ونصحهما كأم:

- يا ولدي، لست كسائر الرجال آكل وأشرب وأنام فحسب. البلاد مسؤوليتي. مشغول ليلي ونهاري بتوطيد أسسها وحمايتها. ولا أنساكما طرفة عين. كنت أحب والدتكما أنستاسيا. ولكن الأشرار نكبوني ونكبوكما فيها. أنت يا فانيا أولى بأن تفهم الأمر لأنك الأكبر. وعليك أن تفنع أخاك

الأصغر. أنا قيصر ولكني إنسان. وقائد دولة. لن يحترمني الناس إن بقيت أرملة. الأفضل أن تكون عندي زوجة ترعاكما، ونتفاهم جميعنا. أليس كذلك يا إيفان؟

- صحيح، أفضل ولكن لا أستطيع نسيان ماما. - أجهش فانيا بالبكاء. - لا أعرف ولكني أرتجف متى لمستني الأخرى.

- ستعتاد يا ولدي، - ربّت الأب على رأس ولده. - وأنا نشأت أفتقر إلى حنان الأم. ماذا بيدي، كُتِب علينا أنتما وأنا، حياة اليُثم. ماريا امرأة صالحة رحيمة. احترمها شعورها نحوكما وإن لم تكون مثل أمكما تماماً. لا تهينها. هل تفهمان ما أقول؟

- أنا مثلك فانيا، متى بدأ يبكي بكيت معه.

- كلاكما ولدان ملوكيان لا يجوز أن يراكما الناس تبكيان. جنبكما الله ما يدعو إلى البكاء! العبا وامرحا! متى رأيتهما فرحين اطمأنت نفسي.

دخل القيصر بعد قليل من حديثه مع الولدين إلى زوجته الشابة. كانت ماريا قلقة جزّة لا تفهم سبب تصرف الولدين معها على هذا النحو. تتمشى على أرض الغرفة متوترة لا تعرف ما تقول أو تفعل. نظرت إلى زوجها بوجه واجم وعينين باردتين. وتسمرت في مكانها.

- يا عزيزتي كوشيني، - عانق القيصر زوجته. ثم أفلتها وألقى عليها نظرة دافئة. - لا تيأسي، الولدان لم ينسيا بعد أمهما. يُحِبُّل إليهما أحياناً أنك سلبتهما إياها.

- لا أريد البتة أن أنسيهما أمهما، - كنت أريد أن أقرّبهما إليّ بالكلام اللطيف، ولكن إيفان الصغير لا يريدني مطلقاً.

- أريد أن أنصحك في هذا الشأن. - ابتعد عنها ونظر إليها مُشفقاً، - لا تضميهما إليك كثيراً في هذه المرحلة. لا تتوسلي إليهما إلى أن يعتادا عليك. دعيهما هما يتوددان إليك. متى فهما شيئاً فشيئاً صدّق عاطفتك نحوهما فستخذانك أمّاً حقيقية، وسترين هذا قريباً.

- سأطيعك لأن من لا يتأمل الأحسن يصطدم بالأسوأ يا زوجي العزيز. كلامك صحيح. - نظرت ماريا في وجهه وقد هدأ قلبها.

II

مضى زمن طويل لم يشعر فيه الأمير تيمرقوه بالقلق مثل هذا اليوم. لما عاد دومانقوه من موسكو، وروى له إعجاب القيصر بابتته الصغرى، وتعميدها، وعقد قراها على القيصر، وكيف جرى عُرسُها، ارتاحت نفسه، واستعاد ثقته وقوته، وبدأ يقسو على أعدائه. والآن حين أخبره أقرباؤه الجدد بقدمهم إليه لم يكن أول ما فكر فيه هو شخصه وأسرته، بل آل قايتقوه الذين ناصبوه العداة في القبرتاي، ومن يتحالفون معهم.

قال تيمرقوه وهو ينظر إلى الأسفل من ضفة ترج: "كانوا سخرُوا مِنِّي متهمين إياي أَنِّي توجهت إلى روسيا في آخر العالم، ولكنهم من بقوا الآن وسط الساحة غارزين فيها عموداً مدبباً أجرد. وضعنا حداً لزعيم القوموق في الشرق. وفي الجنوب الغربي تخلت تركيا والقرم عنهم. بقوا دون حلفاء. كان قايتقوه العجوز ألقى عليَّ اللعنة - فتح الله له باب الخير حيث رحل - ولكن اللعنة ارتدت إليه. لا أندم على حملتي عليهم برفقة الجيش الروسي حين آذوني جداً. ولو استطاعوا لكلفوا زعيم القوموق بإحراق القبرتاي الصغرى كلها. ماذا قال لي الأمير العجوز في ذلك اليوم رغم موقفه الدليل أمامي؟ "ستكون نهايتك مثل سلوكك إن كان الغرباء سيحالفونك هكذا..." لم تخطئ في توقُّعك أنك لن تشهد هذه النهاية. ما سيجري لي لا يعرفه إلا الله. ولكن ما توقَّعت لي يمكن أن ينطبق على أولادك. حين عرضنا عليكم، مشقوه وأنا، أن نتعاون ونصبح دولة فنحمي قومنا، أجبنا "الأديغة يعيشون طوال عمرهم مشتتين، ولن يقبلوا الوحدة" ولم تعبأ بنا. ولو فهمتنا لما احتجنا إلى خطوة أخرى. والآن كما ترى، قلقت الفلاح الذي لم نسمع كلامه يجعلنا نعص أصابعنا ندماً. سمحنا لهم بتمزيق البلاد من وراء اقتالتنا الداخلي. نعيش عمرنا ومن تعلق قبعته على غيره يمتدح نفسه. - غرق تيمرقوه في فكرته المهيمنة عليه، ومرت أمام عينيه حياته من طفولته إلى اليوم. تذكر أن الألعاب التي جرت في الاحتفال بيوم الحصاد هذا العام من سباق للخيل، والتنازع على قطعة الجلد، وشد الحبل، والرمي، وغيرها، شهدتها في طفولته، فابتسم سعيداً. ونظر إلى السماء بقميص مفتوح الأزرار، ناسياً صداعه، وقد حنَّ إلى حياته السعيدة الماضية.

على الضفة الأخرى للنهر انقضّ الصقر كصخرة وصرع الأرنب الذي أفلت منه، وفي الهجمة الثانية أمسك به. وحاول حمله، فلم يستطع. فبدأ ينتفّه. وفي الحال انقضّ صقران متتاليان، والغربان تحوم حول الصقور تخاف أن تأكل معها، ولكنها جفلت من صراع الصقور فهربت. وفيما الصقور تتنازع على الأرنب هجم ثعلب من الأجمة، واختطف الأرنب غير عابئ بصراخ الغربان.

- هل رأيت ما جرى يا عليمخان؟ نظر تيمرقوه إلى الحارس الممسك بزمام الحصان.

- تبيّن أن الثعلب أشدها دهاءً.

- الثعلب أشد دهاء لأنه عاقل... - سكت تيمرقوه لحظة، وتابع: أوحى إليّ ما جرى للصقور بشيء ما.

- أعجبني الغربان أكثر منها.

- لماذا؟

- الغربان هاجمت الثعلب، وصرخت عليه في حين خسرت الصقور طريقتها في تنازُعها.

- أصبّت ما في نفسي، لم تضعُ تربية جدّك صالح لك، - وفي الحال أظلم وجه تيمرقوه المنير: - ألمني أن الأديغة مثل هذه الصقور. لا أقول إنهم بلا حيوية، ولا يعيشون الحرية. ويفتقرون إلى الرجولة، ألم تر ما جرى للصقور؟ نحن أيضاً مثلهم. ننكب أنفسنا في تحاسدنا وتنازُعنا.

- ألسنا يا أمير أديغة كما يقول جدي؟!!

- صالح أيضاً يقول هذا؟

- ولماذا تستغرب؟

- لأن أمتنا كانت تقول لنا الكلام نفسه. وكان والدنا يروي أن جدنا إينال كان يرمي الأديغة بالقول نفسه متى أغضبه.

رفع الأمير الكلفة مع عليمخان محدّثه. ولما كان الأخير يعرف أن الأمير اختاره من بين الحراس كرمي لجده طاب له الحديث:

- يا أمير، كلائمك على قومنا سمعته كثيراً من جدنا. يقول: إن تجرّدنا من هذه الصفات لم نعد أديغة.

- هكذا! - صاح تيمرقوه مُخفياً أنه يمزح. - لم أعرف إلى الآن أن صديقي صالح ليس أديعياً. أأكون من البالقَر المتكلمين بالأديعية؟
- والله لا أعرف يا أمير. - ارتحف عليمخان من السؤال المفاجئ. - لم أسمع منه مثل هذا، إن كان هذا رأيك...

- مهلاً، مهلاً، لا يشحب وجهك إلى هذا الحد، ولا يخطر لك ما لا حاجة إليه. أنا من غضب الله عليه. حارسُ أمير القبرتاي الكبير لا يعرف المزاح. إياك أن تغَيِّر لهذا السبب نظرتك إلى جدك وإلى جيراننا البالقَر! ليت الأديعة كلهم كانوا كصالح. والبالقَر أناس ممتازون كرماء. لا تصدِّق ما يقول ثرثارونا أحياناً بحِقِّهم، ولا تقبل منهم. ونحن أيضاً أناس وإن كان عندنا نواقص كثيرة، بيننا الصالح والطالح. أنت وأنا أديعة أنقياء كماء الساقية الصافي.

- لا أعرف إن كنّا مثل ماء الساقية، ولكن لا شكّ عندي في أننا أديعة. -
أجاب عليمخان من أعماقه.

كان الأمير يودّ تغيير حارسه: "أنت تعتدّ بأديعتك ؛ هل نسيت أن قلقت أنفذك من حرس الأمير أبشق؟" ولكن الخاطرة التي جاءت له لجمته. - وأنا يؤذيني أبناء قومي بإصراري على أديعتي، وأوذيتهم. غلبت آل أبشقوه وآل أنزور، وآل جانسخ، ولا أجهل أنهم سيغلبونني متى امتلكوا القوة. ما السبب؟ ألسنا جميعنا أديعة؟ ما هذه الأديعية التي لا نفكّ نمتدح بها أنفسنا إذن؟ وماذا تعني؟ من يفعل الخير أديغي ومن يفعل الشر أيضاً أديغي. أخشى أن نفني أنفسنا بأنفسنا ونحن نغشّ بالرياء الأديعية التي ورثنا إياها قداماؤنا. - انتشل صوت انخيار الضفة تيمرقوه من خواطره. وفيما يراقب البقعة التي يتموج فيها الماء خطر له الأمير شبق فجأة. الرجل الصالح تغير بسبب تدخّل أموره إلى رجل قلق لا يعرف الاستقرار في مكان. ماذا جرى يا ترى للجانيه؟ لم يُحسن صهري القيصر التصرف مع شبق. أقول هذا ولكن من يعرف ماذا في مخططات الرجل الحاكم لكل هذه البلاد؟ أظن الأمير شبق بالغ في الاستعجال. ما أسهل أن يجري لك ما جرى للصقور إن لم يكن بينك وبين الناس التسامح والتنازل، سيظهر الأقوى وينزع ما في فمك. يَمْ يمكن أن تنتقد شبق؟ لم يدّخر جهداً. قاوم خان القرم سنوات غير خائف من احتماء الخان بتركيا. ولم يتضعض أمام أعداء

الداخل حتى دون حرب. كانت روسيا الوحيدة التي يمكنها إيقاف غارات الترك والنعوي السنوية فتوجه إليها. ولكن استقامته ضاعت بين الدولتين عاجزاً عن التصرف. ولو سمع نصيحتي لما قبلت بتحالفه مع الخان. ولو صبر لربما التفت إليه القيصر ثانية. الحق أننا لم نقعد نحن أيضاً مكتوفي الأيدي: قاومنا زعيم القوموق، ووقفنا مراراً في وجه الخان نفسه، ولم نسمح لحليفه الأمير قايتقوه بالانتصار علينا. الآن تراجعوا حين صار القيصر صهري، ولكن لا يجوز الركون إلى هدوئهم. نسمع ما يتسرب منهم، وأعرف أنهم أرسلوا موفديهم السريين إلى تركيا والقرم..."

- لا يعجبني جلوسك على الضفة يا أمير، - قطع قلقٌ عليمخان تداعيات الأمير.

- ما الأمر؟ هل تخاف أن ينهار موضعي كتلك الضفة؟ - ابتسم الأمير للحارس راضياً عن حرصه عليه.

- نهر ترج نهر غدار، لا تعرف ماذا يخطر له.

- مكاني ليس كذلك الذي اغار. - قال تيمرقوه مؤكداً حدّره. - هذه الضفة حجرية.

صدر وفُغ حوافر حصان من منعطف أجمة الخوخ البري، وترجل الفارس في حضرة الأمير:

- عندك ضيوف يا أمير.

- هل هم القادمون من موسكو؟ - نهض الأمير مسرعاً.

- هؤلاء لم يصلوا بعد. جاءك الأمير مشقوه من البسلني برفقة أميرين.

- قلت لي مشقوه؟! - سأل الأمير بعدما ركب. - جاءني إذن ضيوف كبار... - وقال لنفسه: "أليكون مشقوه جاء يهنئي؟.. لم أره منذ زرته بعدما عاد من روسيا خالي الوفاض. ومن معه يا ترى؟ وأيّ تحنئة بعد مرور سنة وأكثر؟ البسلني عرق عجيب. ينفذون كل ما يخطر لهم، خيراً أم شراً، ويسوّغونه..."

تصافح الأميران اللذان لم يلتقيا منذ مدة طويلة، وتعانقا. ورحّب بالأمير جامبج والأمير بجمرز، رفيقي مشقوه. وقال مشقوه دون ملاحظة شكواه:

- يا أمير لم تستطع روسيا حليفتك، وتركيا عدوتي، أن تمنعانا من التزاور وإن تقاسمتانا.

- يا مشقوه، لا ذنب لي. لا تتحامل عليّ، - بادله تيمرقوه المزاح. - أنا لم أفعل إلا متابعة الطريق الذي اخترتماه أنت والأمير شبق.

- وهل طلبنا منك مصاهرة القيصر الذي لم يعبأ بنا في البداية، ثم خدعنا؟.. - سأل مشقوه مُظهرًا للمضيف غمزه لرفيقه.

- إن كان عندك ابنة جديرة بهذه المهمة فلماذا لا تصاهر القيصر؟.. - سأل تيمرقوه ضاحكاً، وأضاف: - الحقّ يا مشقوه جئت تحاصمني أم بصفة صديق؟..

- مهلاً، - رفع مشقوه يده وقاطع المضيف. - هل ترى البسلي لأول مرة؟ ساحنا يا بجمرز أنا وجامبج، لم ننس أنك من الأباطة. ليس لنا نية المجادلة، ما العمل؟ جئنا مهنيين، وإن مضى على المناسبة أكثر من عام، هذه طبيعتنا نحن البسلي والأباطة. التهنة لا تتعلق بالزمن. ندعو لابتكم أن تترك عقب خير فيكم، وتخطو خطوة خير إلى من صارت منهم. وتصبحوا أقرباء سعد. وأن تنتهي مآسي الأديغة مع المناسبة.

- حياكم الله ورضي عنكم! - دعا تيمرقوه الضيوف كلاً باسمه إلى الجلوس. وأجابهم: - لتعدّ كل خطوة خطوتوها بالخير عليكم. أدعو لكم أن تعيشوا بصحة جيدة، وألا يحدث لكم أي مكروه، ويكسبكم أولادكم الثناء، وبنائكم الجمال. وتعيشوا ويعيش أطفالكم شيخوخة سعيدة. - ثم أضاف بعد قليل بهزة رأس حزينة: - هذا نظام العالم: من عنده ابن يبحث له عن زوجة، ومن عنده ابنة عن زوج. لا يرضي الله بابتة لا تتزوج! ولكني أفهم أن ما جرى ليس فرحة كبيرة. لم يكن الطرفان مجبرين، أنا وعجوزي كنا نتمنى صهرًا من الأديغة فرأيتم مصير البنت الصغرى. جعلت من بناتي فدية لقومي. ربما عدّبت بناتي ولكني أرحت قومي فهم يعيشون في أمان. ها هو الأمير شبق رفض طلب القيصر وزوجها لابنك يا جامبج. وأنا وصلني الخبر متأخراً. ولكنه وضع شعبه في موقف صعب.

- ما العمل يا تيمرقوه، ما من رجلين يتفق عقلاهما، حتى الأطفال يختلفون فيتشاجرون. - دخل جامبج في الحديث، - لا أعز أحداً بعد الله مثل شبق. ربي لي ولدي. ونؤلي إياه. ما كان اختار طريقاً سيئاً لولا أن خدعه القيصر. - لا، لا أدين شبق. - استعجل تيمرقوه، - أشفق عليه فحسب، - لا يخطر لي أي سوء نحو صديقي.

عاد مشقوه فاستلم زمام الحديث يريد ألا يتورطاً في النقاش. - إذن يا تيمرقوه، وقد صار القيصر صهرك، أرجه أن يلغي الاتفاق المعقود بين روسيا وتركيا، وأن يؤسس منا دولة واحدة. فإن حقق لنا هذا سميناه بالصهر الحقيقي للأديغة. فإن لم يفعل هذا فأفهمه أن من الممكن أن تحدث مأساة في بلاد الأديغة تمسه وتمس تركيا. الفلاحون بزعامة قلقت يصعب التحكم فيهم. - وأنا أنوي أن أبليغه هذا في أول لقاء لي به، - وافق تيمرقوه باللسان على ما لا يريده في عقله. ولكن ما أدلى به بجمرز الأمير الأباضي أجفله: - ألسن أديغياً فتنكشف على صهرك؟

تكلم تيمرقوه بكبرياء:

- القيصر لن يأتي إلينا، ولكن من أجل قضية الأديغة يمكنني، لا أن ألتقي به فحسب، بل أن أرمي بنفسي في النار! لا تعجبني طريقة تناولكم الطعام. كأنكم لم تقطعوا طريقاً. هيا صُبِّ الباخسمه في الأقداح يا عليمخان! ربما كان الله قدّر أن تأتوني اليوم يا ضيويني الأعزاء، سأطليكم على أخباري. حان موعد وصول ضيوفنا من موسكو.

الضجة التي صدرت من أرض الدار قبل أن ينهي الأمير كلامه أجفلت الجالسين إلى المائدة. ودخل دومانقوه إلى المضافة وقال:

- أقرباؤنا صاروا في ضواحي إيداريه.

- هل أرسلت الفرسان لاستقبالهم؟

- انطلق مئة فارس.

- هذا هو يا مشقوه، ويا ضيويني الأعزاء، - قال تيمرقوه متصبراً، - وجب عليكم أن تقاسموني قلقي في غمرة مزاحي. لا أعرف إن كان ما أفعله، وأطلب منكم فعله، منسجماً مع الأديغة، ولكن علينا استقبال ضيوفنا بالإنسانية.

- ما حَمَلْنَاهُ اللَّهُ حَمَلْنَا، تَعَالَوْا، - خرج الجميع من المضافة.
أُسْرِعْ جَامِيجَ بَاجْتِيَازِ الْعَرَبَاتِ الْكَثِيرَةِ، وَصَهْوَاتِ الْخَيْلِ الْحَمْلَةِ الَّتِي تَوَقَّفَتْ عَلَى
بَابِ دَارِ تَيْمَرْقُوهِ، وَهَمْسٍ فِي أُذُنِ بَجْمَرِزِ:
- مَا أَكْثَرَ مَا عَتَلُوا إِلَيْهِ، كَأَنَّهُمْ حَمَلُوا مُوسَكَو كُلِّهَا!
- أَلَمْ تَعْرِفْ إِلَى الْآنَ أَنَّ قَيْصَرَ رُوسِيَا الْعَظِيمَةِ غَيْرُ شَبَقٍ الَّذِي صَارَ قَرِيبِكَ؟! -
أَجَابَ بِجْمَرِزِ الْبَرِيِّ جَامِيجَ، - أَيْ أَنَّ يَزُوجُ ابْنَتَهُ لِمَنْ عِنْدَهُ كُلُّ هَذَا الْغَنَى، بَلْ
أَعْطَاكَ، فَنَكَبَ نَفْسَهُ...
...

أَوْسَطُ أَوْلَادِ الْأَمِيرِ أَبْشَقُ الْخَمْسَةِ جَامِبُولَاتٍ وَمَشَوَسْتُ دَخَلَا مَضَافَةً. وَقَالَ
الْأَكْبَرُ جَامِبُولَاتٍ وَهُمْ عِنْدَ الْبَابِ:
- يَا أَمِيرَ، إِنْ أَذِنْتَ لَنَا، فَسَنَسَافِرُ فِي مَجْمُوعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْفَرَسَانِ لِأَنَّا وَجَدْنَا
ثَغْرَةً.
- أَلَيْسَ لِلثَّغْرَةِ اسْمٌ؟ - رَفَعَ أَبْشَقُ حَاجِبِيهِ الضَّخْمَيْنِ الْأَشْقَرَيْنِ دُونَ اسْتَعْجَالٍ.
- أَمْرَاءُ الْبُسْلَانِيِّ الَّذِينَ اسْتَقْبَلُوا مَعَ تَيْمَرْقُوهِ مَوْفِدِي الْقَيْصَرِ يَعُودُونَ إِلَى دِيَارِهِمْ.
إِنْ حَاصِرْنَا هُمْ عِنْدَ غَابَةِ بَيْسِهِ وَطَّه...
- وَمَعَهُمْ أَمِيرٌ مِنَ الْأَبَاطَةِ. - أَضَافَ مَشَوَسْتُ.
- هَلْ جَنَّتِمَا؟! - صَاحَ أَبْشَقُ وَهُوَ يَنْهَضُ كَالدَّبِّ الْغَاضِبِ. - ارْتَاحُوا أَنْتُمْ،
وَلَا تَوَرَّطُونِي أَنَا وَلَا أَنْتُمْ! - لَا تَظُنُّوا أَنِّي وَأَعْمَامُكُمْ لَا نَخْتَمُ بِمَا يَحْدُثُ فِي
الْقَبْرِتَايَ فِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ. نَحْنُ الْيَوْمَ فِي مَوْقِفٍ عَلَيْنَا أَنْ نَحْمِي رُؤُوسَنَا فِيهِ.
وَلَكِنْ لَا حَاجَةَ لِأَنَّ يَعْرِفُ كُلُّ مَنْ يَرَاكُمُ هَذِهِ الْحَالِ. سَنَرَى مَا سَيَجْرِي لِمَنْ
أَهَانَنَا عَلَى صَهْوَةِ حِصَانِهِ الرُّوسِيِّ مَتَى مَا انْتَهَى مِنْ إِمْرَتِهِ الْكِبَرَى. وَلَكِنْ لَا
تَعَلَّقُوا الْآنَ بِكَلَامِ جَارِحٍ عَلَى مَنْ صَاحَرَ الْقَيْصَرَ. إِنْ تَكَلَّمْتُ كَثِيرًا عَلَى مَا
لَيْسَ بِمَقْدُورِكَ أَهَنْتَ نَفْسَكَ. لَمْ يَرْتَبْنَا جَدُّكُمْ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ. سَنَتَصَرَّفُ وَفْقَ
الْأَخْبَارِ الَّتِي سَيَأْتِينَا بِهَا أَعْمَامُكُمْ الَّذِينَ أَرْسَلْتَهُمْ إِلَى الْقَرَمِ وَتُرْكِيَا، - تَسْمَرُ
أَبْشَقُ الَّذِي كَانَ يَذَرَعُ أَرْضَ الْعُرْفَةِ أَمَامَ أَوْلَادِهِ فَجْأَةً: - أَسْنَانُ عَجَلَةُ الْعَرَبَةِ
تَطَأُ الْأَرْضَ بِالتَّنَاوُبِ، وَسَتَقِفُ أَسْنَانُ عَرَبَتِنَا إِنْ عَاجَلًا أَمْ أَجَلًا فِي مَحَلِّهَا...

III

الجمرة تعود فتذكو نازها في ساعة ما ولو غمرتها بالرماد.

وجد الناس الأمان في السلام الذي غرسه الأمير شبق في الجانيه بمساعدة روسيا. وانكبوا على الإنجاب وتربية الأولاد. يكّدسون محاصيل السنتين، وكل الناس من منهم على الطريق، ومن في الغابة، ومن في العمل... تخلصوا من عادة الاحتياط والارتياب. وكما يقال إن الأديغي مهما أحسنت إليه نسي متى خذلته مرة واحدة، بدؤوا ينسون من جلب لهم مثل هذا الأمان. لم يكن شبق يعبأ كثيراً بامتداح الناس له، ولا بتصرف الناس على هذا النحو، بل يفضل ما تحقق له على ثناء الناس. يعرف أنه متى اتفقت روسيا وتركيا الآن ضد الأديغة فستثور ضجة، فكان يفكر ليلاً ونهاراً في الاحتمالات القائمة. ولكنه لا يجد البداية المتوقعة، وكيفية التصدي لها. كان الأمير الكبير يحترق في داخله حقاً ولكن يُحَيِّل لمن لا يعرفه أنه هدأ وانتفى كل ما يقلقه.

آل الخريف إلى نهايته، فلما حصد الناس غلاتهم، وبدؤوا يجمعون المواشي في الأفنية، تحقق ما كان يتوجس منه شبق: ظهر في الجانيه والقرم من يُذكون النار في الجذوة المدفونة تحت التراب. كان قد فهم أنّ تلميح دولت - جري له وهما في بولونيا حول العودة إلى فرض إتاة على الأديغة يكشف عن النية الحقيقية لدولت - جري. ولكن ما مناسبة الإتاوة بعدما تحالفا بدلاً من أن يجمعا قوتيهما؟ ربما كانت الكلمة أفلتت من فم الخان على سبيل المزاح المقصود به الإرهاب، ولكنه سمع بعد العودة من بولونيا ما يثير غضب دولت - جري، ويُفقد الثقة بالأمير شبق.

- ما يقول أمير الجانيه شيء وما يفعله شيء آخر. - غضب خان القرم، ونهض من كرسيه، كان قد قال لسرباي وهو يضرب على صدره بالسوط المطوي إن شبق يتظاهر بالوقوف إلى جانبنا، من جهة هو معنا ومن الجهة الأخرى مع روسيا. وقد سَقَر ابنه الأكبر إلى موسكو من جديد، ولم يعترضه. ولما اعترض على مامي الأشد إخلاصاً لي منه سَرَحته حالاً من جيشي، وطردته من القرم. إذا كان هذا سلوك شبق فتوَعَّلوا في الجانيه، واجمعوا ما كنا ننجي منهم سابقاً دون أي نقصان. أمير الجانيه قطع بيده الغصن الذي يجلس عليه.

لم يكن كلام الخان خالياً من الصواب كلياً. ألا يعرف الخان ما يجري عند جيرانه، وهو الذي يعرف ما يجري في موسكو البعيدة؟ ولم يكن الوشاة الأديغة قليلين بالإضافة إلى من يرسلهم من القرم. ولم يكن قلقك صارح شبق بأن أعداءه لن يغفروا له سلوك كتناق، فقد كان شبق نفسه يفهم، ولكنه ظل مخلصاً للعهد الذي قطعه لابنه الأصغر، دون أن يظهر هو في الصورة تماماً، يأمل بتحالفه مع قلقك أن يُنسي الناس ابنه الأكبر كتناق، ويرفعه ثانية إلى أعلى الموجة، ويتحالف أكثر الأمراء والنبلاء والفلاحين معه من جديد. ولكن رغم أن الله أعطى شبق العقل والرجولة والدهاء فهو يتأخر في كل مشروع ينويه. يصرف كثيراً من الوقت دارساً الأمر من كل جوانبه. وبانتظار ما سيعقب الوعد الذي قطعه لقلقك وقامبولت، لأنه في جميع الأحوال أميرهم الكبير، متأملين أن يكون الملهم لهم في ما سيفعلون، انتشرت الأقاويل في القرى. وظهرت صدامات هنا وهناك. كان المشروع العاثر لشبق متعلقاً بأراضيه الزراعية والرعية، وبمواشيه، وبعماله وأجرائه، ولكن نار الأمراء، تاخ وفواخ وجان ومرتوق، الذين يقبلون عواطف الفلاحين وغيرهم ظلت تحرق وجهه حتى انتفض قلبه. وما هيّج الدم في رأسه هو نشاط جباة الإتاوة في القرى القريبة من بحر آزوف قرب التتر. وضع شبق في الاعتبار أن الزوارق الأديغية إن تصدّت لهم كما في السابق فسيستسبب هذا التصدي لهم في مصائب.

قال شبق لنفسه: "إذا كان في الوثيقة أن روسيا منحتنا لتركيا فلا شك أننا للقرم أيضاً. كنا نقف في وجه النغوي بصعوبة، والآن إن فعلنا ذلك فسيقف الجيش التركي معهم ويغيرون علينا. وهذا ما لا يدع لي مجالاً للراحة، ويغرس في طباعاً جديدة." الإنسان الملهوف كالدجاجة التي لا تعرف الاستقرار في مكان. يتورط دائماً في مسألة لا علاقة له فيها." على زوجتي أن تعرف أنني فهمت كلامها إليّ قبل أيام. لم يكن أهدأ مني في الجانيه من يوم خلقت إلى أن أصبحت أميراً للجانيه. ولما بدأت القرم تُغير علينا، وأمثال الأمراء تاخ وفواخ يهاجموني، أصبحت رغماً عني عصبي المزاج، لا أستقر في مكان. والآن إذا هاجم قلقك وقامبولت جباة الإتاوة الذين دخلوا البلاد فسيوقعاننا في ورطة لا مخرج لنا منها؛ إن لم يخرجنا من القرية فعليّ أن أوقفهما..."

كان رعاة شبق قد جهزوا بالتأكد علف الشتاء للقطعان ولكنه توجه إلى القرية وقد فهم من نظراتهم الجانبية، وبرودهم الصامت، استياء مكتوماً منهم. سرت الحُمى في جسده ولكنه لا يريد أن يعرف حراسه وراءه الخاطرة التي راودته. ولما ترجل في أرض الدار طلب من رفاقه أن ينتظروه، وتوجه إلى البيت بخطاً مستعجلة. وفي خلال مشيه شم رائحة خبز طازج تبّهته إلى جوعه. ولكن لم يكن لديه الوقت للطعام أو الجلوس.

خرجت السيدة زهرة بوجهها الأبيض الطافح والغضب في عينيها العسليتين. ونادت بشيء من الخشونة زوجها فاضحة موقفها منه:

- ادخل لحظة إلى البيت!

- مستعجل... أين قامبولت؟

- ماذا جرى لكما، الأب وابنه؟ حتى من يعمل أمام النار يتنفس شيئاً من الهواء النقي. - أَلقت نظرة استياء على زوجها. - لي كلام معك مهما كنت مستعجلاً.

دخل شبق إلى الغرفة دون جواب. وألقى نظرة اشتها على من وقفت أمامه، وأشفق على نفسه قليلاً: "من لا همّ له يسمن حتى من الماء. ما أعجب أنها حافظت على جمالها كفتاة في سن الزواج. وأنا شاب شعري وتغضن وجهي..."

"ثم صحا واستعجل:

- قولي ما عندك دون مناورة، الحراس ينتظرونني.

- أهملت ابنك الأصغر حتى أفسدت أخلاقه. لا أذكر أن كناق وجهه إلى كلمة نائية. في حين أن الأصغر بدأ بالتمرد حالما رفع رأسه.

- ما الذي جرى؟

- حين سمعوا أن جبة الإتاوة وصلوا إلى قرية ترام حابله جمع قلقت وقامبولت مجموعة غير صغيرة من المقاتلين وخرجوا مسرعين. أنت لا توجه الولد، لا أظنه سيكسب من جارنا إلا الشر. حين عاد قامبولت إلى الدار في ذروة الغضب فكرت في تهدئته ولكنه لم يسمع كلامي؛ قال: "نسمح لهم أن ينهبوا الجانيه بانتظار أن يتكلم أحدهم" وركب رغماً عني مشتعلاً من الغضب.

- توجست من هذا. - اصفرّ وجه شبق وجلس حيث يقف. - صرّث سريع القلق. صرت أخشى أن تذهب الأفكار المتضاربة بعقلي... لم تكفِ مشكلات الجانيه فبعثرت أولادي. من يقيم معه أولاده يطمئن قلبه. فمن يُطمئني أنا؟ أنتِ تمتدحين كُتّاق، وأنا يعيرني الأغنياء والفقراء بعودته إلى روسيا. نشبت في قرى الجانيه خلافات وجدالات.

- لم تدع أرضاً يا شبق لم تطأها بخوافر حصانك. - قالت زهرة بصوت يائس شفيق تريد مساعدة زوجها، - والتقيت برجال شجعان طيبين في تلك الأسفار؛ ألم تجد بينهم من يتجاوب معك؟ من لا يعرف الخياطة يتهم الخياط.

- يا حسرتي، لو كان ترتيب أمور القوم مثل خياطة ثوب على قياس الجسم لتعلمت أنا أيضاً الخياطة. - فرك الأمير وجهه الشاحب. وتنهد رافعاً كتفيه، - ولكن الأثواب التي ألبسْتُها للجانيه لم تكن على قياسهم، ولا أثواب أولادي. ولم ألق بمن يشير عليّ بما يناسبهم. لم أجد أفضل من طريق قلقت لولا أن الوقت فاتني.

- لا أعرف ماذا فعل بكما، الأب والابن، الشاب الفلاح. سلّبكما العقل. - مطّت زهرة شفّتيها. - لا تُسمع أحداً هذا الكلام مهيناً الأُمراء المشهورين. - أقول لك فحسب، ولا أقف بين الناس أطرح هذه الأفكار. - ابتسم شبق مرتاحاً للهِفَة المرأة لأجله، - أفهم ما يقلّقلك ولكن الله لم يميز بين سيد وعبد وفلاح حين ورّع العقل. الله وهب قلقت عقلاً نشيطاً خلافاً لمنشئه. - ماذا تقول يا رجل! - رفعت زهرة حاجبيها وجحظت بعينيها العسليتين. - ماذا وجدت لديه وليس لديك؟

- إن لم تبني لنفسك فلن يأتي أحد من تلقاء نفسه ويبنى لك بيتاً. - سبقني عقل جاري إلى هذه النتيجة.

- أنا لا أجد في هذا الكلام فكراً عظيماً. - ضحكت السيدة ساخرة، - متى استقر غريبٌ بين سكان قرية اجتمع سكانها وبَنَوْا له بيتاً.

- هذا تقليد أديغي. لا يدعون أحداً يريد الحياة دون بيت. حتى الكلب بينون له وجاراً. ولكني أقصد شيئاً آخر. أتكلم على بيت يتسع لكل الأديغة. قلقت هو أول من طرح فكرة أن المخرج الوحيد هو تأسيس دولة.

توهج خدا السيدة خجلة من أن فطنتها لم تصل إلى هذه الفكرة. ونهض شبق معتمداً على فخذه، ولام المرأة:

— أخبرتك أنني مستعجل، ومع ذلك استدرجتني إلى الحديث فأطلت جلوسي. متى خرج الفرسان من القرية؟

— ليس من زمن بعيد. ولكنك لن تلحق بهم من سرعتهم الجنونية.

— أحشى أن يتسببوا لنا بمشكلة إن لم ألحق بهم. — خرج شبق من البيت مسرعاً.

النجوي مجتمعون في البرية المقابلة لبيت لأفاف. وبين الرجال المحاصرين لهم بضعة نساء وعدد من الصبيان. ويُسمع الضجيج من بعيد. قلقته وقامبولت، وزغاشت الذي انضم إليهما، يقفون في وجه سرباي الضخم ذي العنق الطويل. ووراء الجبابة بأيديهم أعنة خيلهم.

— ما ذنبي أنا؟ — يبرئ سرباي نفسه. — أنفذ ما كلفني به خاننا الغالي فحسب. ولا أجمع زكاة لشخصي. ولستم وحدكم، سنصل إلى الحكوف الذين صاروا من حصتنا والأبزاخ والبجدوغ وغيرهم.

— ألا يكفيكم ما تكسبون إن لم تأخذوا منا الإتاوة؟ — سأل زغاشت زاماً عينيه.

— لا نفتقر إلى طعام أو لباس. — أجاب سرباي، — ولكن تكلفة الجيش الكبير باهظة.

— هذا ما فعله بنا الأمير الكبير شبق. — ترك الروس فهيج علينا الترك والنجوي. — صرخ صوت أجش.

— وجد من يبيعنا وأعطى ابنه للروس. قلبه في روسيا ولسانه مع خان القرم. هل يظن أن دولت — جري لا يفهم هذا؟ — نشر صوت رفيع غضبه.

— هذا غير صحيح يا رجل. ألم يحارب روسيا مع خان القرم؟ — سأل غيرهما بصوت هادئ.

— ليس هذا السلوك المرائي جديداً على أميرنا. — أجابه الصوت الرفيع، فعلاً الضجيج.

- اهدؤوا لحظة! - هدأً قلقت الرجال الغاضبين ولا مهم: - ألم تتفق على توحيد قوانا ؛ ماذا جرى الآن؟

- نحن وقفنا إلى جانبك، لا إلى جانب شبق. - أجابه المناقش الأول ذو الصوت الأجش.

- لم يهجرنا شبق إلى معسكر آخر. - بدأ قلقت الكلام معتدلاً بنفسه، - لم يتجه إلى روسيا أو القبرتاي أو المخوش عن سوء نية. عيبٌ أن تحاسب الإنسان على ما لم يستطع تحقيقه. ها هو ابنه الأصغر قامبولت حاضر معنا قلباً وجسداً لتحقيق الدولة. ولكن ماذا يفعل بابنه الآخر كتاق الذي لم يسمع كلام أبيه؟ أيقّته؟..

- لو كنتُ محله لأزهقتُ روحه! - قال سرباي بصوت واضح.
- هذه قسوة، كيف تسلب ابنك حياته؟ - لم يقبل الرجل الصارمُ نصيرُ شبق.
- يقول هذا لأنه لم يقع في مثل هذا الموقف؛ وإلا فالله لن يقبل منك رفع السيف على ولدك. - تابع قلقت كلامه دون أن يغير من إيقاعه، - لن أذهب بعيداً، المرحوم ظاظمي ابن قريتككم كم تعذب من أجل ابنه، ولكن لم يقتله.

- لا تقرنُ شبق القائد ومامي، لن ينسجما. - اعترض الرجل على قلقت، وأضحك الناس.

ولكن زعيم الفلاحين وجد ما يرد به عليه:

- شبق إنسان مثلي ومثلك وإن كان أميراً، يمكن أن يخطئ. لا يجوز إدانته لأنه لم يستطع تطويع ابنه الكبير. الولد اتجه إلى حيث عواطفه. ولا تنسوا أن قامبولت الذي وقف معنا مخلصاً رباه شبق. والآن هذا ما أريد أن أقوله لك يا سرباي: بوجودي أنا والفرسان ورائي لن نسمح لكم ببجاية الإتاوة من هذه القرية.

- فكّر يا قلقت في ما تقول. - توتر رئيس الجبابة، - إن قتلتمونا فسيأتي جيش النغوي، وبعده جيش تركيا. والحرب لن تجلب لكم ولنا إلا المآسي.
- لنتبارز إذن أنت وأنا! - أضاف قلقت مع ضحكة خفيفة، - إن غلبتني فلك أن تفعل ما تريد. وإن غلبتُك عدتم بالعربات الفارغة.

- ولماذا يقتل أحدنا الآخر؟ - لم يقبل سرباي.
- ما أطلبه شيء آخر. لتتصارع دون سلاح! لا فرق عندي بين أن أكون راكباً أو راجلاً. كما تريد أنت.
- ألقى سرباي متردداً نظرة على الفلاح. والتفت إلى رفاقه، فرفض بعضهم، وشجّع آخرون يعرفون أن رئيسهم يتمتع بقوة هائلة. ولا أحد يدانيه في القرم في المبارزات. أطول من منافسه قامه، ولا ينقص عنه في تركيبه الجسدي. وبعد تردد قال دون حماسة:
- اخترت وضعية الراكب.
- ركب الرجلان، وفيما يتخذان مكانيهما وصل شبق وترجل على باب دار لأماف. لم يلاحظ أحد من الناس القلقين على نتيجة المباراة وصول شبق. كان لأماف الذي لا ينكشف على الصهر معتمداً على السور يراقب ما يجري فاستقبل الضيف العزيز بحفاوة:
- تفضّل يا أمير، ضيفنا ضيفٌ خير. وصلت في وقتك!
- ما الذي يجري هنا؟ - استعد شبق لوقف الرجلين اللذين على وشك اللجوء إلى السلاح.
- إطمئن يا أمير، لا خوف، - ضحك لأماف، أراقب المشهد فأجد صهرنا مبالغاً في قدراته.
- ما الأمر يا لأماف؟
- اتفق مع هذا النغوي الضخم أن يصارعه.
- ولماذا؟
- إن غلبه تخلص من دفع الإتاوة، وإن غلب دفع ما يُطلب. نحن أعفينا ربما لأن مامي ابن بلدتنا.
- وأين هذا المنحوس؟
- اختفى حين رأى صهرنا قادماً.
- سخط دولت - جري لأن ابني توجه إلى موسكو. ستراه عاد وصادق مامي نكاية بي.

- كنت أخبرتك أن سلوك ابنك سيغضب الخان. كان عليك منعه بطريقة ما. الفتنة التي نشرها أعداؤك من الأمراء بين الفلاحين لا نهاية لها. وفي الجهة الأخرى القبرتاي آمنة كما لم تكن في أي وقت مضى. من عنده حليف قوي يحترمه أعداؤه.

- من وجده الأمير تيمرقوه ليس حليفاً فحسب بل قريب بالمصاهرة.
- كنت أنت قادراً على أن تسبقه ولكنك فضّلت شرف قومك. -هم الأمير أن يجيبه، غير أن لأماف تابع: - لا تقل شيئاً يا أمير، سنرى ما يحدث. - أمسك العجوز بطرفي العمود، ونظر نحو البرية زاماً عينيه القصيرتي النظر، في حين تحمد الأمير قلقاً على جاره.

تواجه الرجلان. وتبادلا الهجوم حالاً. ولكن كلاهما أفلت من الآخر حتى ليصعب معرفة الأقوى منهما. ولما أعادا الكرة توجه حسان قلقنت نحو سراي. وضاعف سرعته. ولما تلاحما حمل قلقنت خصمه من السرج، وعصره في غارب حصانه موجّهاً صدره إلى الأسفل، وثبته باليد اليسرى. ارتفعت صيحات الفرخ، ونظر لأماف وقد لمعت عيناه المنطفئتان في وجه الأمير. وقال شبق فرحاً:

- جاري بطل، هذا يصلح صهراً، يا زعيم الخير؛ أليس صحيحاً؟
- والله لا أعرف يا أمير يمّ علّق على هذا، - دبّ النشاط في مشية العجوز المتعثرة - حكمت عليه بأنه دعّي ولكنه تبين عن قوة هائلة. اختطف هذا الرجل الجسيم بكل بساطة من ظهر حصانه.

- لم يختطفه فحسب، بل كنتم حركته. - وافق شبق العجوز متحمساً. ولما التفتوا وقد توجهوا إلى المضافة رأوا سراي يفرك يده بعدما أنزله قلقنت من الحصان، فقال بنبرة اشتهاة: - لو كان عندي جيش فرسان من أمثال قلقنت لاعتبرتنا صرنا دولة.

- نساؤنا اللواتي ولدن صهرنا سيلدن الكثير من أمثاله يا أمير. - نولك الله مرادك! أنت ستشهد هذا ولكني لن أشهد. - قال لأماف دون نبرة حزن.

كان معظم الحديث بين شبق ولأماف في أثناء تناول الطعام وبعده هو كيفية تهدئة قلب الخان. ولكن الأمير الكبير تطرق بأسى وشعور بالمهانة إلى موضوع

خداع القيصر له، وعدم قدرته على تطويع قلوب أعراق الأديغة المختلفة. وانتقد نفسه على النهج الخاطئ الذي كان اختاره:

- ظننت نفسي أسير في خط مستقيم، ولكني أرى ذنبي ملتويًا حين ألتفتُ كما قالت الحية. أنثر في طريقي الأحجار وأنا أظني أفعل الصواب فأتعثر بها. لماذا لا يرى الله قلبي وروحي يتألمان من أجل قومي؟

- على المرء يا شبق أن يجمع بين النظر إلى الأمام والالتفات إلى الخلف في الوقت المناسب. أنت لن تكون كالحية التي تزحف، أنت قائد الجانيه، منحك الله عقلاً جيداً. ولكن لا فائدة من الالتفات بعد أن تنحرف عن الطريق وتخطئ. وكذلك لا أرى الفكرة الثانية لائقة بك. لا يخطر لك أن تتقاعد وتعتزل العمل. لا تعدّ نفسك تحيا لأنك تتنفس فحسب.

- ولكن يا لأماف، ينتهي العمر ونحن نؤجل عمل اليوم إلى الغد.

- وهذا غير مقبول، ليس ما خدمت به الجانيه قليلاً إن فهموك. لم تتصرف بتهوُّر كسائر الأمراء الذين أعرفهم. مهما كان عقلك راجحاً فلن تلحظ العينان، ولن يدرك العقل، في غمرة الصراعات التي لا نهاية لها ما يمكن أن تلاحظه عادة. إذا كان الإنسان حرّاً قلباً وجسداً رأى في الليل ما تمنعه الشمس من رؤيته في النهار. لا يُظلم الكون للنوم والراحة فحسب، بل خلق الله الليل للاستفادة من عقولنا.

- الحقيقة يا لأماف أنني لم أتوقع أن يكون لتصرف ولدي كل هذه النتائج السلبية.

- يا أمير، الابنة تزينك، والابن يجلب لك الاحترام. ولكن كتناق لم يأتك بالمديح. بل صدع أساسك. صهرنا أفهم الفلاحين الهائجين اليوم أنك بريء من هذه الناحية، وحماك. أثني عليك وعلى ولدك الأصغر.

- حياه الله، وجزاه عليه. - نهض شبق شاعراً كما في كل حديث مع لأماف بتجدد قوته، ودان نفسه بضحكة مرحة: - ليس كل ما ينبج يعض. كنت أظن صهركم يا لأماف في ما مضى يقول ويفعل ما ليس من شأنه، ولكني فهمت الآن أن قلبه لا يُضمّر إلا الخير.

شيع العجوزُ الأميرَ تعبيراً عن الاحترام، قائلاً في نفسه: " سيفيدك هذا إن لم تكن قد تأخرت".

IV

يُحْيَل إلى الصبي أن الأم البديلة تمد عليه يداً من ثلج. لم يكن مضى على زواج غشوناي كثير من الوقت حين اكتشفت هذا الشعور. عاد إلى أذنيها كلامُ للعجوز جارتها في القرية قريبٌ من هذا. حين جاءها أول مرة هذا الخاطر قالت لنفسها إنها ليست ربة غطاء رأس إن لم تكسب ودَّ الصبيين اللذين تركتهما المرحومة وتكنُ كالأم الحقيقة لهما. فاعتدّت بنفسها، ولكنها مهما توددت إليهما لم تجد طريقاً إلى قلب الولد الأكبر. أما الأصغر فقد كان يقلد الأكبر وإن بدا لها أنها قريبة منه في نصف السنة الأول، فاتخذ هو الآخر موقفاً عنيداً. لم تكن غشوناي تعصي نصائح الزوج القيصر، ولكن لا يمر أسبوع دون أن يجرحاه مرتين وثلاثاً بسبب سلوكهما أو كلام العجوز بربارة، فتذرف الدمع. وفي كل مرة يرتقي قلبها إلى ديارها التي ولدت ونشأت فيها، فيمر أمام مخيلتها أبواها وإخوتها ودارها الواسعة، وحديقة الأشجار المثمرة، وقمم أوشحه مافه المكلفة بالثلج، وتسمع لغة نساء قريتها العذبة، وصريف باب دارها الصغير. وهديزُ نهر ترج أغنية متعددة الألحان، تسلب القلوب والعقول. وأحياناً تستعرض حُطابها الأديغة فتجد نوعاً من تصريف همومها، ثم تمسحهم من مخيلتها بضحكة خفيفة. ولا تعرف سبب انضمام كناق الذي لم تره إلا مرة واحدة إليهم.

كل من خاططهم أحبواها، ودللوها، وإن لم يتقبلوها بعدُ على أنها سيدة البلاد الأولى، ولكنها عجزت عن تدبير أمور الأسرة القيصرية الداخلية. هؤلاء لم يكونوا أحراراً؛ فإن احترمت القيصر احترمت زوجته، وهذه حال كل الأقوياء والأغنياء الذين يستحمون بماء الذهب والفضة.

مضى زمن طويل على عودة الوفد الأسري من القبرتاي. والأخبار التي أتوا بها من البلاد التي لا تفارق قلبها مبعثُ فرح غشوناي. ومضى الصيف وهذه

الأخبار تفرّج عن همومها حين تفكر فيها. والخريف يتباهى بأوراقه الملونة. ويشعر المرء بدنوّ الشتاء من الهواء البارد القادم.

انكشاف عواقب عمل المرء خيراً كانت أم شراً في وقت ما أمر آخر. ويمكن للمرء أن يحتفظ بكثير من الأسرار لنفسه إلا الموت. ولكن من الصعب على المرأة أن تخفي ما في رحمها. وإن أخفاه الزوجان حياء فمنظر المرأة يفضحه. من عند غشوناي تفضي إليه بفرحتها؟ أقرب الناس إليها زوجها، ولكنها خجلت منه فلم تفعل. ولا تريد أن تُطلع سلفتها يوليانا. كانت اتخذتها ثقة مرة بعدما مضى عليها بضع سنوات زوجة لأخي القيصر دون ولد بحريّة زوجها فأطلعتها على همتها. وبربارة مربية الولدين؟ هذه التي لا يجوز إطلاعها البتة، إلى الآن لا تنسى الزوجة الأولى للقيصر، ولسانها طويل، توغر صدر ولدي زوجها عليها.

سخطت غشوناي على أعداء زوجها، من تعرفهم ومن لا تعرفهم، تريد التنفيس عن همومها: " ليس الزوج الذي قدره الله لي كما تظنونه في سرکم، وكما تقيّمونه. من تُكِنّ له الود يقابلک بمثله. ما أسرع ما رقت عينا رجل الدولة القاسيتين العابستين حين رأني حاملاً! عانقتي وقبّل وجنتي وعنقي ويدي الرفيعتين. لا أزال أراه راكعاً على ركبتيه، ممسكاً براحتي يقبلهما. لا يسمح لكم أن تعبثوا في البلاد كما تريدون فأنتم، النبلاء، أوّل الناس كرهاً له. لا تشاركونه أعباءه بل تتهمونه بما يستحق وما لا يستحق. لو استطعتم لمزقتم البلاد شرّ تمزيق، وبعتموها لمن يدفع لكم أكثر، سواءً كانت بولونيا أم النمسا... هذا ما قاله لي زوجي، وهذا ما كان يريد أداشيف وسلفستر وريبنين وغيرهم. والسبب في أنهم كانوا يعدّون حرب ليفون مجرد إجرام ولا يؤيدونه هو القلق على مصائرهم الشخصية. لا تظنوا أني لا أفهم شيئاً، امرأة أديغة متمردة، كما تسموني. نسيتم أنكم فرحتم حين مرض قيصرکم مرضاً شديداً فنشيطتم، ولم تسمعوا رجاءه تنصيب ابنه مكانه بل حاولتم اقتلاع الأسرة من جذورها والبحث عن أسرة أخرى؛ فمن الظالم فيكم: أنتم أم القيصر؟

كانت غشوناي تبدو ظاهراً مرتاحة إلى التطريز بخيوط الذهب غير أن الصوت الذي صرخ من أعماق صدرها الهائج أعادها إلى واقعها. تأملت في أرجاء الغرفة الصامتة المنيرة. وجسّت بطنها الذي تكوّر، ومسحت عليه. تذكرت أنه

قال لها: "إن كان صبيّاً سمّيته باسم والدي، وإن كانت صبية باسم والديتي" ففرحت لأن الملوك يلتزمون بأقوالهم. ثم نهضت ودعت إلى الإله أن يحفظ السلام في أسرتها وبلادها. ويسهل لها وضع جنينها. ويمنح الصحة لوالده الذي أوكل إليه حكم روسيا الكبيرة، ويحقق نواياه التي لا شك يعلم بها، ويُبعد عنه أعداءه، ويؤيِّده بمن في قلوبهم الخير له.

لم تلتفت سيدة القصر إلى صوت الباب، وشاركت يوليانا التي وقفت إلى جانبها دعاءها ولو أنها كانت أنهت شعائرها الدينية. أشعلتا معاً الشموع، وفارقتاها.

فرحت غشوناي لزيارة سلفتها لها. وابتسمت لها رغم أن نظرتها لم تعجبها.
- كلما اقترب وقت ولادتك زدت جمالاً يا ماريّا. - قابلتها يوليانا أيضاً بابتسامة.

- لا أعرف امرأة تغدو جميلة بهذا المنظر. - ولكن خديها توهجا خجلاً من الإطراء. وسخرت من نفسها داعية إلى الله ألا تصيبها بالعين: - هل تعرفين أن أمثالي يوصفُن في الأديغة بتشوه القامة؟ أنت بالقياس إليّ في منتهى الجمال.

- وهل تقيسينني إلى حالك اليوم؟ - سألت يوليانا اعتباطاً لا تستطيع البوح بما في نفسها.

- لا يا يوليانا، منذ أول يوم.
- لو لم أكن جميلة يا ماريّا، - انكسر صوت السلفة، ولكن احترامها لنفسها أعادها حالاً إلى واقعها، - لما اختارني القيصر لأخيه من بين كل الفتيات. هل كنت أعجب ذاك المسخ الذي يكاد يمتلك منظر الرجل؟..

- يا مصيبيتي ؛ لا تدعي أحداً يسمعك!

- وهذا أمر يعرفه من يجب أن يعرفوه.

- والقيصر يعرف؟

- كان الأفضل ألا يعرف.

- ماذا؟ - انتفضت سيدة القيصر.

- لا، لا يخطر لك أيّ سوء! - تظاهرت يوليانا بالتمويه على ما قالت. - لا تصبح رجلاً بتربية اللحية والشاربين. لا أريد أن أكون دمية لأيّ كان. أفضل أن ألتحق بالراهبات على هذه العيشة.

فتح الابن الأكبر للقيصر الباب بسرعة ونظر من خلاله. وضع يديه على خصره واثقاً من نفسه، وسأل المرأتين متأمراً عليهما:

- أين خبأتما فيدكا أخي؟

تظاهرت يوليانا بأنها لم تسمع شيئاً مُشعراً الولد باستيائها من عدم ذكّره لاسم أي منهما، وعدم تقديمه أي إشارة احترام. ولم تلتفت إليه. فأسرعت ماريا:

- فانيا، فانيوشا، - لا تقف عند الباب، تعال إلى هنا واجلس!

اعترض الصبي:

- أنت أيتها السمينّة، كم قلت لك، ليس اسمي فانيوشا، بل إيفان إيفانوفيتش، أنا ابن القيصر - أين خبأتما فيدكا، نحن نلعب لعبة الغميضة!

- هيه، أنت! - نحرت يوليانا الصبي مقلّدة إياه، صابّةً حقداً عليه. - ماذا تفعل أيها العاصي؟ من تسخر منها هي أمك. سترزقك بأخ أو أخت بين عشية وضحاها.

- هذه ليست أمي! - اشتعل الصبي غضباً. - والدتنا أنا وفيدكا هي أنستاسيا رومانوفنا. لا أريد أخاً ولا أختاً، أنا عندي فيدكا. أنت... والأخرى...

- أسكت! - صرخت يوليانا بصوت عنيف.

- يا عزيزتي يوليانا، اصبري... - أسرعت ماريا بالتدخل.

- لا يا زوجة قيصرنا العظيم. - نهت يوليانا الصبي إلى أنه يقف في حضرة زوجة القيصر. - كفاني ما صبرْتُ. يجب أن أعيد هذا العنيد إلى وعيه. ظلّوا يرتبون على رأسه ويُجلسونه في الأحضان بحجة اليُثم والشفقة عليه حتى أفسدوه. أغرب عن وجهنا حالاً!

ظهرت بربرة التي نهتها الصوت العالي على الباب ويدها الصبي فيدور. حيّت المريية كلاً من المرأتين على حدة، وخصّت زوجة القيصر بمزيد من الاحترام. ولم يُطق الصبي الأكبر هذا فاندفع قائلاً:

- يا ماما، لماذا تَحَيِّين هاتين؟ هما غريبتان!
- يا فانيا، فانيوشا، أيها الولد الملكي الذهبي، - نظرت العجوز من تحت حاجبيها فِرْعَةً وتظاهرت باستنكار ما سمعت. - لا تقلْ مثل هذا!
- قلْتُ وسأقول: هاتان امرأتان غريبتان!.. تعال! انتزع الصبي أخاه الأصغر من يد العجوز، ومضى به.
- لا تعبنا على إيفان ابن القيصر، لا يزال طفلاً. هو اليوم في مزاج سيء، لا أعرف ما الذي لا يعجبه. سأنصحه، وأُفهمه.
- قالت يوليانا غاضبة للعجوز المتراجعة خطوة خطوة، دون أن تسميها:
- وأنتِ قفي لحظة! من تربيهما أولاد القيصر، ولكن مَنْ نحن إليك؟ لماذا لا تنطقين اسميْنَا؟
- ساجحاني! أنساني الصبي... أنتِ يا ماريا تيمريوكوفنا التي أحترمها بالغ الاحترام زوجة القيصر العظيم المخلصة له. وأنتِ يا يوليانا ديمتروفنا زوجة يوري فاسيليفيتش أخي قيصرنا.
- لا تنسِي هذا بعد الآن، - ارتاح قلب يوليانا من انتقامها من العجوز. - انصربي الآن! وأغلقي الباب. وأُفهمي ولدي القيصر ما سمعتِ.
- ولما خرجت المربية من الغرفة تابعت كلامها:
- هذه هي المسؤولة عن كل شيء. وما الغريب في أن أنستاسيا كانت زوجة القيصر وولدت له صبيين؟ - التفتت نحو سلفتها تريد أن تعرف موقفها مما تقول، وخاطبت نفسها: "تفهم كلامي وإن أخفْتُ"، فأضافت كلاماً أقسى من سابقه: - يعبّر القيصر عن حبه لزوجته السابقة من خلال تعلقه بولديها.
- قلْتُ للقيصر قبل أيام: "المربية التي تنتمي إلى أسرة زوجتك السابقة تُفسد أسرتك الجديدة" فلم يقبل مني. وهل نحن من تسبب في وفاة زوجته؟ لا أنكر أن أنستاسيا كانت امرأة جميلة ذكية، ولكنها بعيدة عن المقارنة بك.
- تساءلت غشوناي كما في الأيام والأشهر الماضية: "ماذا تريد سلفتي؟" حاولت ألا تسيء الظن بها غير أن هواجسها نحوها بدأت تبرز: "كأنها تساندي وتحميني، إلآم تلمح لي إذن في شأن زوجي عبّر اغتيالها للمتوفاة؟ أتكون تحسدني؟ مسكينة، ما جرى لها مؤسف... تعيش حياتها تكاد تحمل اسم

الأنثى ولو كانت تستحّم بماء الذهب. أسمع لأول مرة بوجود مثل هذا النوع من الرجال. أنت وزوجك تعيشا الخطّ. تريدان أن تنتزعي مني كلمة وتنشرها يا سلفتي المرائية، ولكن لن أسمح لك أن تمسكيني من فمي وتُورديني الماء".

لم تكن يوليانا بعيدة بأفكارها عن ماريا. وهي تسأل وتجب كما تفهم: "يقال إن الشراكسة أناس متمردون، مزاجهم حارّ، نزقون، ولكن لا أرى فيها ما يعيب لأنه ليس للقيصر الهائج من هو أقرب منها إليّ بعدى. تستطيع أن تصبر وتحترم نفسها بغير ما يوحي عمرها. يبدو أن ما يقوله لي القيصر بشأنها صحيح. أنت لا تعرفين أيتها الشركسية الصغيرة المعتدّة بنفسها، ولكني أنا من يجب أن تشكرها منذ بدأ بطنك يتكور لأنني لا أترك زوجك الفاسق. أنا أتحمّل وزركما كليكما مع وزري أيضاً"

- إذن يا سلفتي الجميلة، - عادت يوليانا إلى حالها وسألت باسمّة: - أنا لا أخفي عنك أخبار أسرتي، وأنتم تحيون دون أي مشكلات؟

- لا أسرة دون مشكلات كما تقول والدي. شكراً لك على ما أوليتني من ثقة فرويت لي همومك ولكن كان الأفضل ألا أسمعها. وأطمئنك أن الحديث سيبقى بيننا. - أما في ما يخص أسرتي، - ابتسمت ماريا حذرة في وجه سلفتها، - فماذا أقول لك؟ أنا وزوجي مرتاحان، دعي حديث الولدين، هذان سيعقلان لاحقاً. وأنا راضٍ عن البيئة الجديدة التي انتقلت إليها وأنت في مقدمتهم. منحوني الثقة والراحة، - وضعت يدها على بطنها، - نحن بالانتظار. سنرى ما يحدث...

- حقق الله أمانيكما! - خطبت يوليانا، وضحكت في سرها، ثم سألت دون أي مناسبة: - هل لشراكستك دولة؟

- لا، لا يزالون، حسب معلومات زوجي، كما كانت روسيا إمارات في زمن مضى. وهي متفرقة. يتأملون أن يصبحوا دولة إن ظهر فيهم رجل قوي مثل زوجي.

- أليسوا يتصارعون إذن مثل جماعتنا؟

- يعدّ قيصرنا أن عليهم أن يمشوا مثل هذا الطريق.

- وهل صحيح أنك كنت تشاركين في سباقات الخيل؟

- من قال هذا؟ - صحيح أن رجالنا فرسان شجعان، ولكن أصدق كلام هو أنه لا يُسمح لنسائنا بامتطاء الخيل.
- عجيب ما تقولين!.. هل كنت تصيدين في الجبل؟ هل كان الرجال يصطحبونك؟
- ما تسألين عنه ليس من مهام النساء. هل ترينني من هذا الصنف من النساء؟
- لا، - انخفض صوت يوليانا.
- أيشيعون عني في غيابي ما يسيء إلي؟.. - ارتفع صوت غشوناي التي صبرت إلى الآن.
- كل هذه أمور يمكن أن تحدث في نواحيننا. لا تهتمي بها. أنت، لست مدربة على الخيل والسلاح، ولكن القيصر يحب الركوب والحرب. - ألقت يوليانا نظرة خبيثة على سلفتها. - وماذا تفعلين إن قال لك: هاتي السيف واركبي الحصان، سنحارب أعداءنا أو نذهب للصيد؟
- الفتاة الشركسية، غنية أو فقيرة، تربي وتعيش من أجل زوجها وقومها، ولذا لا بد أن تلبي متى سمعت هذا النداء، وتحمي معه أسرته وحكمه. أما الصيد فلا مشكلة كبيرة فيه. هذا حسب الاتفاق مع الزوج. ولذا نحن النساء يا يوليانا كتب الله علينا هذا الإخلاص. سأنقذ ما تقول والدتي مع زوجي وعريقي ومن جنث أعيش معهم: "المرأة الصالحة بيت، والطالحة قبو".
- نهضت يوليانا وقد وجدت حجة جيدة للنهوض، ليس لأنها لا تستطيع البقاء أكثر من هذا شاعرة بالإهانة مما سمعت، ولكن لأن الغيرة النسائية تغلبها: "اسمعوا ما تقول هذه! جاهزة لكل سؤال؛ ثم نقول: شركسية بريئة!.."
- نحن النساء، لو تجالسنا طوال النهار لا تمل إحدانا من الأخرى. ثم إنك حامل، فاستريحي، وأنا إلى أعمالي.
- يا يوليانا، - توسلت غشوناي إلى سلفتها، لا تطني أني لا أثق بك. كنت أود أن يبقى ما جرى لنا مع الصبي السلطاني بيننا.
- أنا لن أتكلم في هذا يا سلفتي العزيزة، ولكن بربارة؟ وأولاد القيصر؟
- هؤلاء اعتدنا عليهم.

لم تف يوليانا بالوعد الذي قطعت له لسلفتها ؛ فبعد بضعة أيام، سأل القيصر زوجته:

- هل صحيح يا كوشيني أن إيفان الصغير وصفك بالسمينة؟
- من أين جئت بهذا الخبر؟ - أخفت ماريا انفعالها، ولكنها لم تملك إلا أن تقول للزوج: - لا أريد أن يتهموا فانيوشا بمثل هذه الأكاذيب. لا تصدّق كائناً من كان القائل. رقت معاملة الأولاد لي كثيراً عن ذي قبل ربما بسبب نصائحك... وهكذا سيتحسن كل شيء.
كان القيصر مسروراً لما يسمع إن كان صحيحاً أم لم يكن.

...

في يوم عاصف بارد، بعد موعد الإفطار، رنت أجراس كنيسة وسبيني في الكرملين. وجاوبتها أجراس كنائس أخرى: أعلم سكان المدينة كلهم بأن الزوجة الشركسية للقيصر رزقت بصبي. ففرح من يودونهما، وبصق الأعداء...

V

أخبر أحد الصبيان ونتغ المترجل عند باب داره أن رجلاً سأل عنه أمس وأول من أمس.

- ألم يظهر اليوم؟ - التفت ونتغ للصبي الذي سلمه الزمام مخفياً قلقه وحذره.
- لا.

- سيعود إن كان بحاجة إليّ.

- لا أظن، جزم الصبي كعجوز صغير وهو يعالج السرج.

- هل كلمك؟ أم حُيِّل إليك هذا؟

- في اليوم الأول تابعتَه بالنظر ولم أكلمه، - قال الصبي يحل السرج المتعرق.

- حسناً فعلت يا جاري. - أثنى ونتغ على الصبي وهو يقدم بعض الشوفان للحصان. - الأفضل أن تحذر من الفرسان المتخفّين.

- وماذا يمكن أن يحدث في الظهيرة؟

- هؤلاء لا فرق عندهم بين ليل ونهار... - تذكر ونتغ مهنته يوماً ما. ولكنه غير الموضوع: - ما مظهره؟

- أليس هذا ما أريد أن أقوله؟ - بدأ الصبي من بعيد وهو يصب الماء على يد ونتغ، وأنهى باختصار: - رجل نحيف، لا يكاد يظهر من السرج.

- هاه، ليس مهماً إذن... - انتصب مامي حالاً في وجه ونتغ. وسأل نفسه غير راغب: "ماذا يريد إن كان هو؟ لم تقع عيني عليه منذ سنين. سمعت أن مامي عاد إلى دار والده القديمة... وتألم قلبه للمرأة شبه الزوجة له التي اشتكت منه، - نعم، ومضى وقتٌ أطول على آخر مرة رأيت فيها تلك المرأة اللطيفة... هل خالطت الأديغة يا ترى؟ ليست مريم ممن لا تُحب...". - خرج من أفكاره وتوجه إلى الصبي خجلاً من الدفء الذي داخل قلبه: - وماذا حدث بعد يا ناط؟

- وفي اليوم التالي جاء إلى دارك فتساءلت عما يشغل بال هذا الفارس ولماذا لا يتكلم إلينا، فدعوته إلى الدخول كما عودنا والدنا. ولكنه لم يهتم بدعوتي، ولا شكرني.

- يجب أن تعامل من يدعوك إلى الدخول حسب الأصول، غنياً كان أم فقيراً، صغيراً أم كبيراً.

- وهذا كان تعليق أمي، حكمت عليه بأنه ليس رجلاً صالحاً. ولما سألتها ماذا أبلغ ونتغ أجابني بأن معرفة الكثير تصدع الرأس، فإن قلت له: صاحبك في القرم، عرفني. وهو يعرف من يخبره بمكاني فليجديني!

لم يبق شكٌ في أن من قصده يومين متتاليين هو مامي.

- أظن أن من تخفى هو مامي يا باط. - شحب وجه ونتغ، - هل سبق أن سمعت باسمه؟

- وكيف لا أسمع!.. - شككنا أنا ووالدي فيه. ولكنك تتجنب أمثال هذا المجرم فلم نجد من اللائق أن نذكر اسمه.

- يسرني ذكاؤك يا باط. - شكراً، أنت تحرس داري، هكذا يجب أن يكون الجار.

- وأنت شكراً لك أيضاً. تحرص علينا. ولا تُحوجنا إلى شيء. لا تجعلني أغبط من عندهم آباء.

جلس وتغ أسفل خزان الحبوب راضياً عن ذكاء الصبي، وخلع قبعة اللباد ومسح العرق عن رأسه. ثم غطى رأسه بالمنديل اتقاء الشمس. — قال لنفسه: "بعدما عدتُ إنساناً سوياً كسائر الناس صار هذا الصبي صديقاً يؤنسني، وأتعجب من أين تعلّم كل هذا وهو في بداية عمره. يعيش هو وأمه وحدهما. يقال إن والده قضى في صراع الأعراق حين كنتُ أسيراً في تركيا. يعرف أكثر مما يعرف الرجال. كلما تقدمنا في الزمن نضجت عقول الأجيال الجديدة، وهذا واضح في المقارنة بجيلنا. في طفولتنا كنا نميز الأعراق بين مخوش وأبزاخ ومجدوغ... ولا يخطر لنا أننا جميعنا أدبغة. ولم يخطر لنا أعندنا دولة أو كان يجب هذا. لم نفتقر إلى أمراء وفلاحين ولكن لم يظهر بيننا أمثال قلقت وشبق ومشقوه وتيمرقوه. وكان بيننا الكثيرون من أمثال مامي الذين كنت منهم يوماً ما. كم من الصبيان والصبايا من أمثال هذا الصبي أرسلتهم ليكون ويصرخون إلى ما وراء البحر، إلى تركيا، والقرم، حتى إلى مصر. ألا يمكن أن يكون أولاد هؤلاء هم من يحمون البلاد الأجنبية كما يقول قلقت، ومن يجاربوننا؟" توافقت عودته إلى وعيه من جراء السؤال والنداء الموجه إليه:

— أراك قعدت الآن يا ونتغ؟

— وماذا تريدني أن أفعل يا باط؟

— تعال إلى عندنا أغدّيك!

— هذا ما تقصده؟ حياك الله يا باط، شكراً يا جاري. أنا أكلت من وقت قريب. سأستريح قليلاً بعد أن أنجزت خدمة حصاني وعرفّنتني على الفارس الباحث عني.

— الرأس المتعب يمتد إلى الوسادة يا ونتغ، — وافقه باط، ثم تابع يدين نفسه: — أنا لا أحب نوم النهار ولذا لستُ كسولاً. سأطعمك شيئاً لم يكن على مائدتك.

— ماذا؟ كان على المائدة كل ما يخطر لك من أطايب الطعام؟

— وماذا كان ينقصها؟

— ألا يكفي ما كان عليها من طعام وشراب؟

- ينقصها نوع واحد. قال وتنع لنفسه حزناً: "لم يكن من حظي أن يكون لي مثل هذا الولد. وكيف يكون عندي ولوقد أغرابي الأشرار مع بداية زواجي فقضيت سنوات في الموبقات. وبعثت الزوجة المخلصة النشيطة التي لم أعش معها أكثر من نصف عام إلى تاجر رومي، وفارقت قومي الحكوف. ولما شعرت شخصياً بالمآسي التي كنتُ أسببها للناس عاد إليّ وعيي. - ناديتني أرض المخوش التي أسست فيها يوماً أسرة. وهنا أيضاً كنت قريباً من الضياع. والآن أعيش وحيداً لا أنيس لي إلا صبي الحيران بعدما عجزت عن إحصاء ما عندي من الذهب الذي لا يعرف أحدٌ مقداره. وأم الصبي امرأة ممتازة، جميلة الوجه، ذكية. وما كنت لأهتم بفارق السن بيننا لو لم تكن عرجاء مثلي... كنت عشت معها ما بقي لي من العمر. ولكن الجميع سيسخرون مني قائلين: لا يتزاقص ولا يتزواج إلا متشابهان..."

عاد باط مسرعاً بيده جرة عريضة.

- خذ يا وتنع، اشرب من هذا اللبن البارد. يناسبك في مثل هذا اليوم الحار. لم يكن منه على مائدتك؟

- حقاً، لم يكن. والله فطنتك كبيرة يا جاري. - رفع وتنع الجرة ليشربها مع الثناء على الصبي. ولكنه عجز عن شرب اللبن السميك. فأكل منه بالملقعة - بلّغ والدتك شكري على هذا اللبن الطيب. إن كان عندي جازٌ مثلك فلن يهمني الجذب.

- أبعد الله الجذب عنا يا وتنع! هو أشدُّ ما تخاف منه والدتي. تجهم وجه الصبي ونظر إليه بعمق. - عندي لك رجاء واحد بمناسبة الحديث عن أمي.

- هات، ارتعب وتنع خائفاً من العجز عن تلبية الرجاء. وتأمل في عينيه الذكيتين.

- اطلب من أمي ألا تناديني بعد اليوم بهذا الاسم!

- أليس هذا اسمك؟ أولاد القرية ينادونك أيضاً به. وأنا لا أعرف لك اسماً غيره.

- هذا اسم دلّال من أمي ثبّته عليّ. أما والدي فكان سمان: جامبور. وكان يناديني به.

- عجيبٌ ما تقوله! - صرخ وفتح، - والله سَمَّاكَ والدك اسماً جميلاً. لن أسمح لأحد منذ اليوم أن يناديك بغيره. ولكن لا تكلفني أن أتكلّم مع والدتك في هذا الشأن! لا أستطيع يا جامبور أن أقول لها: لا تنادي ابنك باسم الدلال.

- وأنا لا أطلب من أمي تغيير اسمي، - تنهد الصبي عميقاً، - لتناديني في البيت باسم الدلال، ولكن لتناديني أمام الأولاد والجيران باسمي: جامبور!

- سألّني لك هذا يا جامبور. وأنا سأطّلعك إذن وقد وثقت بي على سرّي: ينادونني وفتح، ولكن كان عندي اسم حقيقي.

- أنت أيضاً؟

- لا أعرف أديغياً بلا اسمين، - ابتسم وفتح، - أحدهما اسمه الحقيقي، والثاني ما سمّته به الأم تدليلاً. لم يأت وفتح من والدي أو والدي. كلاهما رحل عن الدنيا يناديني: بَرَسِي. لسوء حظي سرقتُ وأنا شابٌ جداً في السابعة عشرة تقريباً سرج حصان الجيران فثبت علي الاسم.

- لم تكن صبيّاً جداً بهذا العمر يا برسي، - غلب على جامبور عتبه ورفضه.

- ولكن ربما كان الله قدّر هذا كما تقول أمي.

- لا يا جامبور، لا علاقة لله بهذه المسألة. لم يحدث لي إلا ما صنعت بنفسي. هدأت في السنوات القليلة الأخيرة فحسبُ أما قبلها فقد حقدتُ على هذا الاسم القبيح فاقترفتُ كثيراً من الجرائم. اليوم أنت صبي، ولكنك رجلٌ غداً. أخبرك لأنني إن لم أُطّلعك على ماضيّ بنفسي بل سمعته من غيري فستحتقرني. عشْتُ أكثر أيام عمري في الخطيئة. وها أنا الآن في غمرة تفكيري بشيخوختي يبحث عني أسوأ مجرم في الجانيه. يا حسرتي يا جامبور، يا جامبور! جرى لي في دنياي القبيحة ما يجوز وما لا يجوز. أنت في أول الطريق يا جاري. إذا كنت تريد أن تعيش رافعاً رأسك فاحفظ شرفك منذ صِغرك. يقول الأديغة: "أفضلُ لك أن يأكلك كلبُ إنسان صالح من أن يعضّك كلبُ إنسان شرير"؛ هل سمعتَ مثل هذا القول المأثور؟

- أسمعُه لأول مرة.

- احفظه! أنا فاتني الوقت، ولكنه لن يسمح لك أنت بالخطأ. ستذكر يوماً ما أن برسي - وفتح رواه لك.

التقت نظرتا جامبور وبرسي وتنهدتاهما.

وفي الصباح التالي، وفيما يجهب جامبور مع ونتغ المسافر حصانه، سأل جامبور:

- هل أنت ذاهب إلى ذلك الإنسان الشرير لأنه طلبك وإن كان كلبه سيعضّك؟

- الأدبغبي لا يسأل عمن قصده في مهمة، إن كان صالحاً أم طالحاً، بل يجهب حصانه ويمضي معه. أم تظننا لم نعد أدبغة يا جامبور؟

- لا، وهل نتخلى عن أصلنا؟! ولكن الله حريص على عباده فاحرص أنت على نفسك.

بقي الصبي الجار في أفكار ونتغ طوال نصف النهار على الطريق. قال لنفسه مستمداً الرضا والأمل من تقرب جامبور إليه: "يعرف ما يخطر على البال قبل أن يخرج من الفم. كان ذكياً من صغره. والآن، في السنوات القليلة الأخيرة، تحكم عليه بأنه عجوز حكيم. يخبرني بأنه سينضم إلينا، فلقت وأنا، في المستقبل القريب إن قبلناه. شكراً لك إذ قرنتني بقلقت، ولكن ما أبعد المسافة بيننا! زارني مامي أسوأ رجال الأدبغة، فتسوقني أدبغيتي إليه دون أي رغبة. ماذا يبغى هذا القذر أيضاً؟ هل أنا مدين له؟ هل عجيب إن زرتة في القرم بضع مرات فخدمني!.. ومن من المجرمين في إقليم الأدبغة لم أخدمه؟ لم أكسب الثناء لأجل هذا. إن كان مقدراً لي في سنوات عمري القليلة المتبقية فمن عليّ مساعدتهما اثنان: جامبور وميناج. أمثال هذين هم من إذا نفعتهم لم تندم... - وجم ونتغ مرتعباً من المعروف الذي خطر له. - ولكن هل ينتج المال المكسوب بالدم والدمع خيراً؟ ومن هؤلاء الفرسان المتدافعون؟" - اختبأ ونتغ في أجمة قرية خائفاً.

مرّ الأمير فواخ فارساً بسيف مشهر. والحراس يحاولون اللحاق به ولا يستطيعون. يلعب الأمير بالسيف ويصيح بأعلى صوته:

- أيها الجانيه، بالله عليكم أن تُسرعوا، أميركم الكبير فواخ أمامكم. الخائن شبق دفع البجدوغ والأبراخ إلى الاقتتال. رمى بيننا الفتنة التي تقودنا إلى فناء الأدبغة!

أسرع ونتغ بحصانه قائلاً: " يَمْ يهذي هذا الرجل!.. " ودخل بين الحراس وسألهم:

- ماذا جرى لكم؟

- أفلتَ منا الأمير الذي فقد عقله! لا نستطيع اللحاق به لأن حصانه سريع...

أطلق ونتغ العنان لحصانه، فلحق بالأمير سريعاً، فصاح الأخير به:

- أيها الأمير شبق اللعين، أنا انتُخبْتُ أميراً للجانية، تريد أن تسليني منصبك القديم. أشهر سيفك إن كنت رجلاً!

- أنا لستُ شبق، أنا ونتغ!

- نعم، نعم أيها المجرم! إن كنت سارق سرج فأنا سارق خيل. - ضحك الأمير من أعماقه مُبرِزاً سنَّه الساقطة.

أسقط ونتغ السيف من يد الأمير فواخ يائساً من عودته إلى عقله. وصدمه من الجانب فأسقطه. فكبلوه وهو يسب ويلعن، ولما أجلسوه سخر من ونتغ وهو يحفظ بعينه:

- ماذا يا شبق اللعين، هل بقيت بلا منصب؟! - انتهى من الضحك وبدأ يقلد الثيران. ثم أدار وجهه الغائر وشرع يبيع على حراسه مكشراً عن أنيابه.

- يا حسرتي ؛ انظر إلى أين وصل هذا الرجل؟ جُنَّ من الغيرة... قَيِّدوه أو احبسوه في الخزان؛ وإلا نكب شخصاً بريئاً... - عاد ونتغ إلى طريقه يهزُّ رأسه أسفاً.

لم يكن الأمير فواخ قدّم له شيئاً كي يتألم من أجله، يكفي أنه إنسان. حزن وهو يستعرض لقاءاته به. وتذكر أن بؤادر جنون كانت تظهر في سلوكه، وأنها بداية ما وصلت إليه حالته اليوم.

وصل ونتغ مع المساء إلى ترام حابله. رأى لأماف في مجلسه على زاوية السور فترجّل له، ودنا منه طلق الوجه، فقابله العجوز بالمثل، ودعاه إلى المضافة. ولما انتهت الأسئلة التقليدية كشف ونتغ عما يشغل باله:

- أنا ركبت في مهمة يا لأماف، ولكن لا أعرف رأيك.

- لا يسافر أحد إلا في مهمة، - ضحك العجوز من بين لحيته وشاربيه، إن لم تكن مهمتك ملحّة يا وتنغ فلا تتحدث عنها سلفاً، فليست هذه من عادات الأديفة. لا يزال أمامنا ليل ويتلوه نهار. ولكن أكمل إذ بدأت.

- يسرني ترحيلي بي. والحقيقة مهمتي مع جارك مامي، ولكن لم أشأ أن أمر بباب دارك دون تحيتك. لا أعرف ما يريد. مرّ عليّ في يومين متتاليين صدف أن غبت فيهما.

- لا شك أن يحتاجك إذا زارك في المخوش. - ألقى عليه المضيف الآن نظرة عميقة، - صحيح أننا جيران ودارانا ملتصقتان ولكنه نادراً ما يخاطبنا إلا امرأته اللطيفة. لا نعرف نواياه ولا مهمته. كنت سمعتُ الكّنة ومريم تتحدثان قبل قليل، - يا ولد! توجه العجوز إلى ابنه، - رافقُ ضيفنا إلى عند الجيران، ولكن لا تنس يا وتنغ أن الأديفة لا يبدلون المضيف.

- وهل ضيفنا ولد صغير فلا يعرف تقاليد الأديفة يا والدنا؟ - ردّ زغاشت بابتسامة مازحة على والده.

رأت مريم وتنغ يدخل دارها فاستقبلته كأحد أقربائها ناسية أن زغاشت يرافقه. عانقته، ومسحت عينيها بغطاء رأسها. ثم قالت للجار وقد خجلت قليلاً:

- لا تؤاخذني يا زغاشت على استقبالي لونتغ الذي أحبه كأخي. لولا هذا الرجل لبرد قلبُ مامي تجاهي. لم يكن وضعي يشي بأنه سيجيء بي إلى هنا، وستكونون جيران خير لي. أنا من ألحّ على وتنغ أن يأتي إليك. أنت من حوّل الخيط الرفيع المتبقي لي من حظي في أنوثتي إلى حبل متين. كنت راغبة جداً في رؤيتك. كنت نذرت إن واثاني الحظ وعدت إلى بلاد الأديفة أن أشكرك فأني به بشهادة زغاشت. وقد بكيت من أجلك كثيراً يا وتنغ داعية إلى الله أن يسهّل عليك المصائب التي حلّت بك.

كان وتنغ يصارع قلبه قائلاً: " ماذا تريد هذه المرأة أن تقول لي؟ إن كنت مشتاقة إلي فقلولي دون شهود يا عزيزتي مريم " ولكنه كان مسروراً للكلام، يلقي إليها نظرات دافئة شاعراً بحنان الصدر الذي لامسه في عناقها، وكأن لم يبق في العالم غيرهما، وزغاشت يرصد الاثنين مختاراً، قائلاً: " أيّ عاطفة دافئة يتبادلان والزوج نصف القاتل لا يزال حياً؟ هل تريد زوجة مامي الجريح التودد إليه

بشفتيها أم أرى في علاقتهما شيئاً آخر؟..." ولكن لم يجد من اللائق الانصراف عنهما.

VI

ترجّل شبق عند باب داره متعباً بعدما جال في أرض الأديغة الشمالية الغربية شهراً كاملاً. كان قد نسي المشي ولكنه اختطف حفيدته الصغيرة من ابنته حين استقبلته ناسياً تعبهُ وهومهُ. وأمسك بعض الوقت بمن تفتّر قلبه، ثم همس في أذنها:

- هل جئتِ يا نوري الصغير؟

تمسكت الصغيرة بجدها أكثر ولم تُجِب. وهُرِعت مينسور لاستقبال والدها، وعانقته، ولكن الصغيرة رفضت:

- ابتعدي، هذا جدي أنا!

- نعم، نعم، أنا جدُّك. - نصح شبق الصغيرة وهو يمسح على ظهرها - لن أسلمك إلى أحد. ولكن لا تعاندي أمك. من يسمعك يقول إنك غيرُ مهذبة. حيا شبق الخدم الذين رأوه حاضناً حفيدته بإيماءة صامتة. والتفت إلى زهرة التي صعدت إلى المسطبة بنظرة ترحيب وشوق. ثم توجه إلى غرفته. وتبعته مينسور وقامبولت. وانتظرت زهرة ريثما أدار الخدم رؤوسهم فتبعتهما. نهضت مينسور الجالسة أمام والدها حالما رأت أمها بين قائمتي الباب. وقرب قامبولت المقعد إلى أمه. وقال شبق مرتفعاً قليلاً عن مقعده:

- تعالي يا زهرة، تعالي! - ثم سألها بعدما أجلسها: - ما أخباركم وأحوالكم في شهر غيابي؟

- وصلتَ بالسلامة يا شبق!.. - ردت عليه التحية.

- أين أُمق؟ لا أراه. - قلق شبق لغياب أخيه.

- ذهب إلى قرية جَتَشَاهُ بسبب اضطرابات هناك. - ابتسم قامبولت مستهيناً بسبب سفر عمّه.

- أي اضطرابات؟ - سأل شبق بحركة رأس سريعة.

- فلاحو القرية أحرقوا كنيسة فيشنيفيسكي.

- هذا لا يجوز! أبعد شبق الحفيدة عن فخذه فضمتها زهرة إليها. ثم غمرت مينسورا فأخرجتها من الغرفة.

- جرى ما جرى وانتهى يا والدنا، لا يمكن تغيير شيء.

- وكيف تصرف الأمير جان حيث وقعت الحادثة؟

- كان على رأس الفلاحين.

- وأنت؟ أنت وقلقت ماذا فعلتما؟ - دفع شبق خنجره جانباً ونهض. وقفزت زهرة جافلة:

- يا مصيبي يا شبق!..

- اطمئني يا سيدة، اجلسي، - بدا من نظرة شبق إليها ملاطفته لها وإن ارتفع صوته. - أريد أن أتكلم مع هذا الأمير في حضورك.

- وكيف أجلس في حضرة رجلين كبيرين؟.. - لم تجد زهرة في البداية غير هذا الجواب، ثم استدركت: - سأجلس إن كنتما ستحدان على راحتكما... يا قامبولت يا ولدي، ألا تتقبل شيئاً مما يقال لك!

ذرع شبق أرض الغرفة بضلع مرات صلباً واثقاً، وأصلح وضع زناره الفضى أكثر من مرة. ثم وقف إلى النافذة، وقال لمن وراءه بصوت حازم وهو ينظر نحو المحدة:

- أسمعك يا أمير. ثم استدار وكرر سؤاله: - ماذا فعلتما أنت وقلقت؟

- وماذا نفعل؟ هل نقف في وجه الفلاحين؟ قال قامبولت ووجهه يشحب. ثم خاطب نفسه مشفقاً وعاتباً على والده الغارق في أفكاره القلقة: "وقعت يا والدنا في موقف لن تصدقني فيه مهما قلت لك. الأزمة التي وقعنا فيها لم تبدأ اليوم. لو تجمعتم يا أمراء الأديعة قبل وقت طويل، واتفقتم، وأصبحتم وسطاء لمشروع دولة قلقت لما طمع فينا النغوي ولا تركيا ولا روسيا، ولعشنا فراضين عليهم هيينا. ولكنكم بدلاً من هذا دفعتم القوم إلى اليأس بنزاعاتكم. وكما يقول قلقت: الآن يخنقكم الحبل الذي لففتموه بأنفسكم على رقابكم" - يا والدنا ويا أمانا، - عاد قامبولت إلى حاله، وقال يغلبه الاحترام: لا تؤاخذاني؛ أقول لكما الحقيقة: توجهت بتصميم أكثر إلى الفلاحين وقلقت. كلما مضى الوقت على ما لم يستطع الأمراء والفلاحون إنجازه ظهرت عدالته على نحو

أوضح. متى كان قلقك عقد مؤتمراً للفلاحين؟ قبل سنوات كثيرة. ولكن طلبهم - رجاءهم من الأمراء عقد مؤتمر لهم لم يُجب. لم يجتمعوا مرة واحدة. مضت الأعوام وقُسمت أرض الأديغة قسمين. والفلاحون يعرفون المتسبب في هذا.

- ليس هذا سرّاً يا ولدي. - عاد شبق فجلس في مكانه مفتخراً بالاعتداد في صوت ولده ولو أن الموضوع ليس جديداً، غير شاعرٍ بمهانة أو حمية. - سأسرد لك أسماء الأمراء الذين حملوا مشروع الدولة بالتسلسل: قانقوه مشقوه، قنشقوه شبق، إيدارقوه تيمرقوه. نحن ثلاثة.

- وأكثر من ثلاثة يا أمير. أغفلت أسماء أخرى.

- ماذا؟ أسرعت زهرة بالتدخل، وفي الحال صحت فاختتمت بابتسامة سطحية: - هل أنت أمهر من والدك بالاعتداد؟

- وكيف ألحق بوالدنا! - نظر قامبولت بحياء في وجه الأم، وفي الوقت نفسه إلى الأب. - لأني أستقلّ عدد من يقفون عثرة في طريق تأليف الدولة الأديغة.

- لا تقلب كلامي! - احتد شبق ولكنه ابتسم، ونظر بفم جامد إلى المرأة، - أسمعني إذن ما تعرف!

- إذا توجهنا إلى القبرتاي: آل قايتقوه، وآل أنزور، وآل جانسخ. وفي البسلني - الأباطة: آل أباته، وآل بجمرز. وفي الجمكوي: آل بولت. وفي البجدوغ: آل أسقال، وبشحالافوه. وفي الجانيه عندنا: تاخ وفواخ وجان ومرتوق. وأرفقنا بهم المتنفذين من الأبراز والمخوش والناخوي. لا تحزن يا والدنا: الأسماء الثلاثة التي ذكرتها أضيفها إلى القائمة السابقة. إذا توجهتم، أنتم الثلاثة إلى روسيا فقد مددتم أيديكم إلى تركيا والنعوي فبقينا وحدنا في الساحة.

- هل تقصد أننا لم نفعل شيئاً؟ - وجم شبق مغلوباً بالشعور بالإهانة.

- هذا كلام كبير يا والدنا، - خجل قامبولت واحمر خداه. وصقل صوته المنكسر. - أنتم الثلاثة خدمتم الأديغة بما تستطيعون. ولكن معروفكم بقي متجهاً إلى جهة واحدة. لو تجاوزتم موضوع الزعامات، ووقفتم بقلوب نظيفة مع قلقك لأوصلتموه حتى الآن إلى وضع ما.

- يا صغيري، يا ولدي... - ارتفع صوت زهرة خوفاً على ولدها، ولكن زوجها اعترضها:

- لا، اهدئي، الولد لا يجافي الواقع. يستوي عندي أن أدينه وأن أدين نفسي.
يقال: أنت تؤذي نفسك، والناس يعيرونك به.

- هذا ما يجري. هزت زهرة رأسها جزعة، وكررت الكلمات الأخيرة لزوجها
كما تحفظها هي: الله يؤذيك، والناس يعيرونك به.

- لا شأن لله بالموضوع... - تنهد شبق مستثقلاً ما سمعه. - ظننتني أسعى
وراء الأفضل فاصطدمت بالأسوأ. ولكني لا أندم على ما فعلت يا ولدي.
يمرضني ما لم يتحقق لي وخذاعهم. قل الحق ما دمنا تكلمنا على موضوع
الأديغة بهذه المساوية: هل أنت راضٍ عن إحراق الكنيسة التي أسرع عملك إلى
تفقدتها؟

- رأيي يتطابق مع رأي رفاقي الفلاحين يا والدنا... - بدأ قامبولت يشرح رأيه
ولكن والده أوقفه بسرعة:

- ألا تجلس يا ولدي ؛ لماذا أنت واقف؟ لا أحد يرانا، ولا أحد يشي بنا، كلنا
من أسرة واحدة.

- لا يا ولدي، لا تدعني أفعل ما لم أفعله في حضرتك إلى الآن.
- لن تنكسر رجلاه، ليبق واقفاً! - قالت زهرة فرحة بابنها، هادئة، - وقوفك
في حضرة والدك كوقوفك في حضرة السلطان. حياك الله يا ولدي، لا تسمع
كلامي أحياناً ولكنك لا تسمع للفلاحين المنفلتين الذين تقف في صفهم أن
يفسدوا أخلاقك. ولا تسمع لنفسك أن تنسى أنك ربيب أسرة أمير...
حسناً، تابع حديثكما، وأنا أتابع شؤون الأسرة.

- لا تملصني بهذه الحجة من همومنا، - ابتسم شبق للزوجة. - نحن محتاجون
إلى ملاحظاتك وفطنتك.

- أودّ يا والدنا أن أردّ على بعض كلام والدتنا. - استعجل قامبولت قبل أن
تخرج أمه.

- لا أغلى من الأم يا ولدي، إن لم تُفَضِّ إليها بما في قلبك فيلإى من؟ - ألقى
شبق نظرة دافئة على ولده.

قال قامبولت مرتباً ما في رأسه على لسانه:

- لو كان الأمر بيدي يا أمنا، لما سمحتُ لك أن تشبّهي وقوفي في حضرة الوالد بوقوفي في حضرة السلطان. ليس مثله فحسب، بل هو نفسه. ما الفرق بين والدنا والسلطان؟ قيصر روسيا يحكم دولة، والدنا أميرٌ قائدٌ لعرق الجانيه. وبتعبير آخر: هو سلطان دولة الجانيه غير القائمة. ولكننا مكتوفو الأيدي، وأفواهنا مكمومة لأننا لم نصبح دولة. وحين نفضي بنوايانا لأمرائنا يُعرضون عنا برؤوسهم، معتبرين أنفسهم سلاطين. ويُصم أيُّ منهم أذنيه بحجة أنه لا يحتاج المنصب إذا كان غيره سيتولاه.

- وأنا من أوائل من خطر لهم تأسيس دولة يا ولدي. - تنهد شبق من العودة بعيداً بالذاكرة، - ربما كنت في ذلك الوقت في عمرك. ولم تخلُ اجتماعاتنا، نحن أولاد الأمراء، من الحديث في همومنا. وكان الموضوع الدائم دولة الأديغة وإن لم نتفق. ثم نفترق مختلفين على الأذكي فينا. وكان يصدف أن نتضارب حتى تسيل دماؤنا. ولكن إن أردت الحقيقة لم يظهر بيننا من يجمعنا حوله، ويتصف بثبات قلقت. لم تتوصل عقولنا إلى ما يجب أن نفعل ومن أين نبدأ. وكنت أريد غالباً أن أكون الزعيم بين أقراني. ولم أكن أفضل شيئاً على تطويعهم. لم أنجح في شبابي. وفي شيخوختي ترون ما حدث لي.

- لا تتواضع إلى هذا الحد. - لم تقبل زهرة. - أنا من لا تتذكر شبابك؟ كنت تطوع أولاد الأمراء. وكنت زعيم أكبر مجموعة فيهم. ولا مشكلة في إنجازات شيخوختك. كنت في الأربعين حين انتخبك الجانيه كبيراً لأمرائهم. وإلى الآن أنت موضع ثقتهم. ويسمعون كلامك. وحين وجب عليك التوجه إلى النغوي على كُرهِ منك بعد خديعة روسيا عارضك الكثيرون في الجانيه، غير أن حظك غلبهم. والآن...

- اسكتي لحظة، - توجه شبق إلى المرأة بنبرة توسل، - تُخرجيني أمام الولد. أقول من أجل أن تعرفا فحسب. لا تتصورا أنني صالحت الترك - القرم - النغوي وسأنفذ ما يريدون، نعم يا ولدي، نعم. - أعاد ابنه قامبولت إلى وعيه لأنه رآه نص رأسه، - لا أحقد على أحد. ولكن لا أنسى من آذى قومي. جُلْتُ شهراً كاملاً في الضفة اليسرى لنهر بشره فلم ألتق بمن يُطيق تركيا والقرم.

- يا مصيبي يا شبق، وهل ستتوجه ثانية إلى من رفضت تزويجهم ابنتك؟! صرخت السيدة مما تتوجس منه. ثم خجلت من صوتها، فغطت فمها بيدها والتفتت إلى ولدها.

- كيف ترتعين مما خطر لك؟ - احتدّ شبق، - أليس ابننا مع من لم نزوّجهم ابنتنا! - ولكنه سرعان ما صحا فقال: - قد نشهد هذا إن عاجلاً أم آجلاً، وقد يخترمنا الموت قبله، أخشى أن تكون نهايتنا على يد الروس الذين قرّبناهم إلينا.

- والتر؟ ونغوي القرم؟ - أسرع قامبولت كمن سمع منكرًا.
- ولا أثق بالترك أيضاً... هؤلاء كحشرة الفُراد، متى التصقت بك صعب عليك انتزاعها من جلدك. اليوم يتصرف القرم - النغوي بقسوة لأن وراءهم دولة قوية. لن تكون سعيداً إن لفظك قومك فوجدت نفسك في أرض غريبة. مهما وطّدت نفسك فستضيع في الأرض التي لا جذور لك فيها.
- ونحن الأديغة؟

- لا تسمح لنفسك أن نقارن وضعنا بوضع النغوي. هؤلاء لم يستوطنوا القرم منذ زمن بعيد. من عصر أجدادنا فحسب. ولذا لا أريد من رفضت تزويج ابنتنا منهم، ولا النغوي ولا الترك. لا أرى اليوم من أتخالف معه غير قلقت. وكنا تكلمنا في هذا سابقاً. والآن أنتظر رأيك يا ولدي في ما حدث في قرية جتشاء.

- أنت أجبت على هذا وانتهى يا والدنا، ومع ذلك أقول رأيي: عيبٌ وظلمٌ أن تحرق كنيسة أو جامعاً أو أي بناء مسقوف آخر، ونوع من قلة العقل. إذا كنا سنأخذ من مثل هذا السلوك شعاراً بحجة مناصرة الإسلام فماذا نقرر بشأن المعابد التي أنشأها على أرضنا الروم المسيحيون؟ الآلهة المتعددة التي كان يعبدها قدمائنا لا تتفق مع ديننا الجديد، وهل نجتثُّ أشجارهم المقدسة؟¹ أرى أن يحتفظ كلٌّ بدينه مادام مقتنعاً به. لن أستطيع معاداة كتناق ولو أنه

¹ يقصد شجرة البلوط.

أخي الأكبر، واعتنق ديناً آخر، وانضمّ إلى من أهانونا. ولكن إن جاءنا بالسلاح فسأقبله بمثله ولو أن أمي ولدته.

- لن يبلغ أخوك هذا المبلغ! - ارتعبت الأم من كلام ابنها.

- لا يصل جنون كتناق إلى حد محاربة قومه. - عبس الأب في وجه الابن، - والله تكلمنا بما يكفي. وتطرّفنا إلى موضوعات كثيرة. وزال عني تعبي. - تمطى شبق، وتوجه إلى ابنه: - يا ولدي اطلب من الخدم إشعال النار في محددتي. واطلب من قلقت أن يعرّج علي فيها بعد الظهر. سنعمل معاً ونتحدث.

جلس الأبوان مدة بعدما خرج قامبولت، وكأنهما لا يعرفان من سيفتتح الحديث إثر القلق الذي نشره حديث الابن. كان القلق نفسه عندهما ولكن لكلٍ نظرته: السيدة الكبرى تتجنب التفكير في الأحداث، بدءاً من القبرتاي إلى البحر الأسود، مهما كانت، حسنة أم رديئة، ومهما حدث في الجانيه نفسها، ومهما فعل الترك النغوي بهم. همّها الدائم هو كتناق. عتبت عليه حين أخبرها بأنه سيعود إلى روسيا ولكن لا شيء لا يُغتفّر للولد. لم تكن أشجار الدار، والإسطبل الذي يُحفظ فيه حصانه، والمحددة التي يتحدث فيها إلى والده، والباب الذي يدخل ويخرج منه، والمقعد الذي كان يجلس عليه، والمائدة التي يجلس إليها، والغرفة التي لا تزال تُرتّب من أجله، تسمح للعجوز التي خرجت من الغرفة أن تنساه. وليس الاستياء الخفي الذي تشعر به نحو الزوج الذي اصطحب ولدها الأول إلى بلاد الغربة قليلاً. ولا يمضي على شبق يوم لا يخزه شعوره بالذنب نحو ابنه. ولكن من يفكر فيه اللحظة هو بمن يشبه من الأسرة الولد الأصغر الذي خرج الآن من الغرفة. استعرض آل قنشقوه، الأحياء منهم والأموات، ولكن لم يجد له شبيهاً. سأل شبق نفسه خائفاً من الحديث الصريح الذي أدلى به أمامه: "من أين جاء هذا الولد؟.. سمحت له أن يثرثر أمامي بدلاً من أن أصفعه. عدت أناضل من جديد من أجل موضوع الدولة الذي تتكلمون فيه ولكن آراء من قابلتهم طوال شهر كامل من متنفذين وفلاحين مختلفه. الأبراخ والحكوف والجمكوي نصفهم لا يريدونها. وما قاله لي البجدوغ والناخواوي، ومعهم الأباطة، عجيب: يكفي ما بقيتم فوق رؤوسنا تحقروننا. إن نصّبتم أحد أمرائنا سلطاناً وقفنا معكم" إن كانوا يتأملون أن

يظهر فيهم مثلُ هذا الرجل فأنا أتنازل لهم عن المنصب. ولكن هذه الاعتراضات لم تعد مهمة، من قبليّ بعداء واضح هم الفلاحون. هؤلاء إن أطلقت لهم الحرية لم يميزوا بين الصالح والظالم من الأمراء، أحرقونا جميعنا. وهل يحني خدم دارنا ومن يرتبطون بنا ظهورهم لنا حباً بنا؟ أمّي من يقطع الغصن الذي يجلس عليه بأني سأقف معه... وأسمح له أن يقول في حضرّتنا إنه لن يسأل حتى عمن ولدته أمه... مهلاً، مهلاً، أتساءل من يشبه قامبولت هذا؟ ولماذا أستمّر في البحث؟ ما ارتكبت من أخطاء في شيوخوتي، دُعك من كوني في شبّابي قائد مجموعة، أليس نسخة عني؟!" - لان شبق نفسه، وتنهّد.

- هذا ما حدث...

قالت السيدة الكبرى كأنها كانت تنتظر الجواب:

- أستمع إليكما، الأب والابن، فلا أسمع أي شيء مفيد. - نهضت زهرة متوهجة الخدين، - لا تؤمّل الولد وقلقت بما أنت وهم عاجزون عنه! ستجلب لنفسك مصيبة لن تنجو منها إلى الأبد. ألا يكفي ما جرى لنا بشأن كتناق؟..

- انفعلت السيدة الكبرى ولكنها تصبّرت. - نرتب شؤون الناس ونحن عاجزون عن ترتيب أمور أسرّتنا.

- عودي واجلسي ثانية، لا داعي للعجلة! - نصّح شبق المرأة عارفاً نفسه مذنباً: - ما أسرع ما صدّقت ما قلّ للولد!..

- لو لم أعرفك على حقيقتك لما اهتممت بكلامك. ولكن لا أتذكر أنك أهملت شيئاً تحقّق لك مما فكرت به أو لم يتحقّق. سأجلس ولكن ألم تأت من سفر، - عادت زهرة إلى المقعد لا تنوي الجلوس طويلاً.

- سأقول الواقع يا زهرة، ليس ما أندم عليه مما فعلتُ قليلاً. - قال شبق بصوت منخفض، ونظر إلى المرأة من طرف عينه. - خضّني جداً موضوع كتناق ولكن لم يهدّني تماماً. ما سمحت للخان أن يفعل بي هو المرض الذي أحمله معي.

- وماذا كان بيدك يا شبق؟

- كنت حراً بنفسي، ولو ليس بأي شيء آخر. كنت أستطيع ألا أحول نفسي إلى لعبة في حضرة الأمراء والمتنفذين والفلاحين. كان عندي أمل أن أحتمي في لجانته بقلقت في أسوأ الأحوال. وهذا هو سبب عدم اعتراضي عليه.

- إن كان هذا رأيك يا شبق فأملُك في قلقت قائمٌ. لا تلجمه إن كنت ترى ضرورة له. ساعده بالمال دون أن تظهر في الصورة... أنت من قال إنه طرد جباة الخان لا يلوون على شيء.

- ألم يكن قامبولت معهم؟ - سأل شبق وأجاب: - نعم، وهو ما يُصعّب قراره. ثم أخبرك بما هو أعجب: الخان ينوي أن ينصبّ موفده مسؤولاً عني.

- وما هذا؟ - توهج خد السيدة الكبرى.

- يريدون أن أتصرف وأن أعمل كما يريدون. ومن سيعينونه مشرفاً عليّ هو، إن كنت تتذكرين، مامي الذي جعلتهم يطردونه من القرم.

- نعم! - ألم يستسلم، لعنه الله، لمصيبته؟ لم أتصور أن الخان يُعيده إلى حاشيته بعد كل الكلام القذر الذي صدر منه بحقه. ألم يتحقق للأمير تاخ في شيخوخته ما يريد إن صحّ هذا الكلام؟!

- لا تصدّقي! - أشار شبق بيده فأسكت المرأة، - لا شك أن مصدر هذه الأخبار هو مامي نفسه. ولكن إن كنا من حصّة تركيا والقرم فلماذا لا يرسلون مشرفاً علينا؟ تبين فيشنيفيسكي عن رجل ذكي فتعامل معنا بوجّه ولم يُشعرنا؛ وإلا ألم يعينه القيصر مشرفاً علينا؟

- كنا ارتحنا في تلك السنوات وإن كان علينا مشرف. - قالت زهرة مع شيء من الحنين، وسألت بنبرة أنعم: - أليس كتناق مع الروس مهما تصرفوا معك؟ والآن لو التقيت معهم على كلمة... ليت ولدي المسكين لم يقع في مصيبة... وفي الحال دمعت عينا السيدة الكبيرة.

- أيّ مصيبة تتكلمين عليها؟! - انتبه شبق.

- ألم تلاحظ أنه لم يتأخر عن الفتاة الأديغة التي زفوها إلى القيصر فأسرع وراءها؟

- ما هذه الترهّات! لن يخطر لك تناق مثل هذه الأفكار! - نهض شبق الذي تحول لونه إلى الأحمر. ونصح نفسه وهو يذرع أرض الغرفة دون اهتمام بالمرأة

التي نُهَضّت معه: - لو تصرف ولدنا بمثل هذه المهانة وقلة الشرف لبلَغنا الخبر... لم يصلنا عنه شيء. كلما سألت عنه تصامّ الجميع. سننتظر الخبر الذي سيحمِله إلينا زوار دودارقه إذ ترجّيتهم. لن نبكي الولد وهو حي. نظر شبق من النافذة فلمح حفيدته وابنته فاستدار وسأل: - هل حان موعد عودة ابنتنا إلى بيت حميها؟

- ما هذا الكلام يا رجل؟ أمس فحسبُ وصلْتُ. هل مللت من البنت قبل أن تراها؟ - نظرت زهرة إلى الزوج واجمة.
- هكذا؟! لن أَمَلّ منها ولو أقامت معنا عاماً كاملاً. خفتُ أن تنقضوا العادة في غيابي... - عاد إلى شبق أفكاره وهمومه نحو قلقته وهو يسخر من نفسه ببراءة.

VII

الخلو يقطع الشهية، والمرّ يجلب لك الرجفة، ويَزِمُ الشفتين.
مرّ على غشوناي كثير من الأحداث في السنوات الثلاث التي أعقبت زواجها. جربت الخلو والمر. تراءى كل شيء لها في السنة الأولى حلوّاً ولكنها متى أعادت التفكير في الماضي فهمت مصدر المرارة القليلة فيها المخالطة للحلاوة. أن تكوني زوجة القيصر أمر حسن، وكذلك الاستحمام بماء الذهب، وأن يُقدِّم لك كل شيء دون أن تتحركي من مكانك، ولكن كيف تتفقيين مع أرمل له ولدان، ولا تعرفين طباعه ولا لسانه جيداً؟ بالتأكيد جرى التفكير في هذا قبل زواجها، ونبهتها أمها إلى من يمكن أن تصطدم بهم. ولكن أياً كنت فلن تقعد العمر خائفاً من كل مكروه محتمل. كانت غشوناي كآلاف الفتيات اللواتي يؤسسن كل يوم أسراً جديدة. هل سيأكلونها؟ هل عجيب إن كان لشريك الحياة ولدان؟ ليست الأم من ولدت الطفل بل من ربّته. ستربي من كتب الله عليها. ولم تكن تنسى قول والدتها: "من وقّق بين نيران الموقد يوفّق بين أفراد الأسرة". ها هما أختاهما لم يجر عليهما مكروه. صارتا جزءاً من أسرتهما الجديدتين، وأولادهما رجالاً، وبناتهما زوجاتٍ للخانات. وماذا تأخذ على سعيد - بولت ابن ألتنجاج؟ لا أحد يعدله.

تذكرت غشوناي الصبي الذي رزقت به في شتاء العام الماضي ومات بعد ثلاثة أشهر فانفجرت بكاءً: "لو كنت محظوظة لما جري لي هذا..." رسمت الصليب والدموع على خديها. وضمت إلى صدرها وسادة الطفل التي احتفظت بها. الصبي القوي الذي كان يتعرف عليّ حين أنظر في وجهه وأناديه: فاسيلي، مات فجأة " صرخت وبكيت حتى استنفرت الكرملين بأسره ولكن ما الفائدة؟ "الله أخذ مني ما أعطاني إياه" "أأخذه مني حقاً أم سلبني إياه الأعداء؟ لماذا برد جسده وسال حليبي من بين شفثيه المزرقتين كأنه فقاعات مريرة؟..؟

خرجت غشوناي من الفراش وثياب نومها يصل إلى عقبيها ووقفت حافية مرسلّة الشعر أمام صورة الإله. أشعلت الشمعة لابنها كما اعتادت طوال نصف العام الماضي. دعت لأجله، ولنفسها ولطفلها الذي لم يكد يطاء الأرض حتى توفاه الله إليه، وحاولت ألا تسيء الظن بمن وبما لا تعرف، فلا تكسب إثم أحد. ولكن الحقّ أنها تشكّ في الكثيرين. ودعت أن يرزقها من جديد بذوي روح. وإلا فلن يتقبلها الولدان أماً. ولن تستقر بين من دخلت عالمهم. طُرق الباب، ودخلت الفتاة التي ترتب الغرف، ولاطفت غشوناي وهي التي تعرف حالها:

– حان موعد الفطور يا زوجة القيصر!

– حالاً يا أغرابينا! – كانت غشوناي تعرف التقليد القائم وهو أنها يجب أن تقابل القيصر قبل الطعام، وأنها يجب أن تبقى واقفة ريثما يتخذ مكانه، فرتبت شعرها على عجل، ونظرت إلى الجدار الذي يفصل الغرف الأخرى.. وأنصتت بقلق حذر: – لا صوت من جهة إيفان فاسيليفيتش. ليس من عادته أن يبقى في الفراش صباحاً.

– رأيته هذا الصباح يتمشى في أرض الدار. – قالت أغرابينا وهي تمسك الثوب مع غشوناي.

– خفّ نوم إيفان فاسيليفيتش بعدما مات الصبي. – قالت غشوناي بصوت حادّ عالٍ وكأها غير مَنْ كانت قبل قليل تبكي في الفراش.. ولبست الثوب الجميل المفصّل على الجسم الرشيق والقبعة غير العالية والحذاء اللماع، وعلى الصدر صليب مربوط بالقلادة الذهبية. ولما نظرت إلى صورتها في المرآة الواسعة

التي تتسع لكل جسدها أصلحت وُضِعَ الصليب، ومسحت على حاجبيها بإصبعها، وقالت ؛ - تعالي يا أغرابينا.

دخلت غشوناي غرفة الطعام فحيّاها ممتحنُ الطعام ومرّتُ المائدة. تفقدت بنظرة سريعة ما على المائدة فرأت عليها كل ما يجب أن يكون: "اللسانات" المقطعة إلى شرائح رقيقة، والجبن المتنوع، والعسل والسمن والزبدة... والملاعق الذهبية والفضية والأسياخ. ومن ينتظرونه هو القيصر الذي لم تقع عينها عليه منذ عشاء البارحة. تودّ أن تقول الكثير من أعماق قلبها للزوج، ولكن كيف تفعل في حضور أمثال سكوراتوف؟ والليل، الوقت الوحيد الذي تبقى لها، لا تستطيع استغلاله كما تريد: إما أن ينتهي مع حب لا ينتهي، أو مع مشادة يدير بعدها كلُّ ظهره للآخر.

"كيف يمكن أن تتصارع مع زوجك في وقت الوجبات فحسب؟.." شملت غشوناي وهي تلوم نفسها الزوج الذي قال لها: "أنا متعب، لا يطاوعني قلبي". ثم كيف تقولين للزوج المرهق بأعباء الدولة: لم تعد تبتسم لي، ولا تنظر إلي، وكأنك نسيته؟ ألا نتقاسم الحزن على الصبي ولو أننا لا نبكي معاً؟ تقول لي سلفتي يوليانا: كفى، مضى على مأساتكما نصف عام! كيف تعرفين يا يوليانا وأنت لم تلدي ولم تربي ولم تحضني طفلاً؟ وأنا بهذا الكلام أبعد الزوج عني شيئاً فشيئاً".

سألت غشوناي سكوراتوف دون أي رغبة:

- أراك تقف في حضرتنا مع كل وجبة ؛ ألا تتعب؟

- لا، يا سيدة روسيا كلها، هذا عملي!

- يبدو أنني لستُ أنا أيضاً موضع ثقتك، - تظاهرت غشوناي بممازحته، وقالت له بصوت حازم: - ابتعد عن رأسي ودعني أكلُ على راحتِي!

- سأبتعد يا سيدة روسيا كلها، ولكن لن أنقض أمر قيصرنا الكبير... ها هو إيفان فاسيليفيتش القيصر الكبير قادم أيضاً. - هرع سكوراتوف لملاقاة القيصر وانحنى له ولكن القيصر أبعد يده اليسرى، وقابل زوجته التي وقفت له. ورسم الصليب، ودعا إلى الإله. ثم بقي الزوجان وحدهما.

وبعدما أكلوا قليلاً نظر القيصر إلى زوجته مع ابتسامة خفيفة:

- أنت جميلة جداً اليوم!
- اليوم فقط؟
- كل يوم.
- اشتقت إليّ أم مجاملة؟
- أنا مشتاق إليك دائماً يا كوشيني.
- شكراً، ظننتك نسيتني.
- لا، لا، لا يحظرُ لك هذا! تعرفين السبب الذي كان يمنعنا.
- ما العمل، الماضي لا يعود، - تنهدت غشوناي، - دعنا لا نتكلم اليوم في هذا الموضوع. - هل تتذكرين أن الأسقف مكاري نصحنّا في ذلك اليوم؟
- نعم... أنت جميلة جداً اليوم يا كوشيني. أود أن أراك...
- ها نحن جالسان يرى أحدهنا الآخر.
- ليس في هذا المكان، بل في غرفتك.
- متى؟
- الآن حالاً!
- لا، ليس في عز الظهيرة... في المساء...
- لم يتحقق الموعد المضروب. ففي اليوم نفسه، مع حلول الظلام، مات فجأة أخو القيصر.
- ولم يمض الكثير على هذه الحادثة حتى مات أقرب الناس إلى القيصر وأقوى مُسانديه الأسقف مكاري.
- بعد المأساة مأساة. المرض والبؤس يأتیان من حُرْم الفأس وينصرفان من خرم الإبرة؛ ففي خلال هذا العام شهد القيصر وماريا ثلاث مآسٍ. ولم تكن المأساة التالية القادمة مسرعة من طريق حرب ليفون قد وصلت إليهما بعد...
- حين تذكر القيصر ولديه انتصبت أمام عينيه طفولته هو وأخوه الأصغر. وحُيِّل إليه أن والدته التي سممها النبلاء وقفت وراءهما. وسبب اجتماعهم صعبُ الفهم. كلٌّ من زوجته السابقة وزوجته الحالية أطلت من باب مختلف، ونادته دون صوت كأنها تريد أن تقول له شيئاً. كيريل المتصنع الخبيث دخل إلى الغرفة يحمل على رقبته فانيا وفيدور. ويوليانا التي بقيت أرملة وراءهم. وترنّ في أذنيه

أجراس الكنائس. يبحث القيصر بوجه مرتعب حوله وينصت. لا أحد يمكن أن تشكّ فيه. وهو الوحيد الذي يعيش حالة القلق، وكل من عداه في راحة. ينهض القيصر وهو يرسم الصليب: "هل حدث لعقلي شيء؟" ثم يقترب من النافذة دون صوت. ينظر جهة مرتفع تاييس فيصل بأفكاره إلى من لا يؤيدونه في قضايا الدولة، المقيمين في نوفغورود وبسكوف. وييميني مطران هؤلاء يتسم في وجهه ساخراً. ثم ينفض رأسه وينهر نفسه: "اختلّ عقلي تماماً. يقول لي أهلي: عندك أعداء كثيرون فاحرص على نفسك. وأعرف من غير هؤلاء بكرهني. الأخ الوحيد المتبقي لي الآن هو فلاديمير أندريفيتش. أين هو الآن؟ لم أره بين الأعداء الآخرين، أظنه يتخيل أن طريق الحكم انفتح له بعد وفاة الأخ الآخر. يُخطئ إن انجّر وراء النبلاء الذين يخدعون. يضع رأسه بنفسه تحت حد السيف. مهلاً؛ أليكون أعدائي المطلون من الباب يرفضون زواجي من المرأة الشركسية؟ ألا يجوز أن يكون هذا السبب في حرمانني من الولد الذي سميت به باسم والدي؟ إن كانت المرأة تلك حجتهم فوالدي أيضاً لم تكن روسية. ولكن ألم يتخلصوا منها أيضاً؟.. وهل يعدّون كوشيني شركسية متمردة لأنها مخلصة لي؟ وميخائيل سلطان تيمرقوه من هذا العرق. هو أخ أكبر لزوجتي ولكنه لا يميز نفسه لهذا السبب. ولا يسعى إلى ملذاته. يجابه نغوي القرم. حارب في قلعة بولوسكا بتفانٍ واحتلها. وشارك عدة سنين في حرب ليفون. وسعيد - بولت، حفيدٌ حمي، واحد من قادة جيشي المخلصين. وابن الأمير شبق هو من ليّن قلبي لوالده. كنت رأيت في أمير الجانيه شبق رجلاً هادئاً عاقلاً ولكنه تصرف بنزق وتسرع. ولم يفهم أنني ما كنتُ لأسلّمه إلى الترك والنغوي المهيمين على البحر الأسود. يجب أن تكون لبلادي حدود بحرية وإلا لم يدع لنا الترك والنغوي مجالاً للراحة. كان الأمير شبق عارضني، ولكن أين يذهب وابنه في جيشي؟ سرى ما يحدث..."

فُرع باب القيصر بخذر. ارتعب القيصر من منظر سكوراتوف الذي دخل يلهث:

- وماذا أيضاً؟

- خبر سيء يا قيصرنا.

- قُلْ!

- لن أقول يا قيصر روسيا... الخائن...

- من؟ سأل القيصر بصوت عالٍ.

- كوريسك هرب إلى بولونيا...

تداعى جسد القيصر وهو يزرّق. وارتجفت أطراف شفتيه. وعاد إلى الكرسي وقد جحظت عيناه رغماً عنه، وتهدّلت كتفاه. " كيف لم أعرف حقيقة كوريسك الذي وقف إلى جانبي منذ شبابنا؟ كان عليك قبل أن تتصرف هكذا أن تتذكر المواقع التي حاربت فيها بإخلاص وشجاعة. لم تُسئ إليّ بل إلى روسيا التي نذرت لها روحك". نهض القيصر وقد غطى الدم عينيه، وشحب وجهه. وقف مقابل سكوراتوف كأنه هو المسؤول عن كل شيء، وسأله وكأنه سيقنتله بنظراته: - من بقي لنا الآن نثق به؟

ودون انتظار الجواب انصرف عنه القيصر.

- الله فحسب يا قيصر روسيا، والذين أرفقهم بك لتوطيد الدولة وتقدمها.

- حياك الله، - تسمر القيصر على أرض الغرفة. - أنا لم يفارق الله قلبي لحظة. وبتعاليمه أعيش وأحكم البلاد، والآخرين يعادون بلادهم... - إذا كان كوريسك باعني فمن تتوقع أن يبقى سندي؟ لا تعرف. ولا أنا... ألا يزال خونة ذلك اليوم أحياء؟

- نعم أحياء، - لمعت عينا سكوراتوف، - وزادوا الليلة ثلاثة.

- تعال! - لحق سكوراتوف بالقيصر. لم يتجه القيصر حين نزلا إلى القبو إلى حيث يُحتفظ بالخونة. وشهد على هذا بقوله لمن وراءه: - أليس ابن النبيل الخائن برونين بينهم؟ إن كان بينهم فاستدعه لي.

كان ملك إنجلترا قد أرسل أسدين في قفص مقابل الدين الصغيرين اللذين بعث بهما إليه القيصر في العام الماضي. لم يكن القيصر يهوى الأسود كما يهوى الدببة والكلاب، والجوارح القوانص، ولكنه يطعم الأسدين الهدية أحياناً بقطع من اللحم عبر شبّاك القفص. وينصرف عنهما مستاء من تنازُعهما على ما قدّم لهما. والآن نظر إليهما وقد قاما له بعين أخرى: " أفضل ما يمكن أن يُرمى به إليهما هو الخائن كوريسك... ولكن في موعد لاحق..."

عمرُ ابن النبيل برونين أقل من ثلاثين عاماً. ولكن التعذيب ولحيته الكثيفة وشعره... توحى بأنه عجوز. وكل ما عليه من لباس ملطخ بالدم. حاسر الرأس حافي القدمين. والدم المتخثر عقد الشعر. قابل الشاب نظرات القيصر القاسية بمثلها. التفت إلى الأسدين، وخمّن ما ينويانه ولكنه لم يُبدِ ضعفاً.

- هل أنت ابن النبيل الخائن برونين؟ - سأل القيصر.

- والدي أريستراخ أرخبوفيتش النبيل كان إنساناً حقيقياً بالقياس إليك. كان يحب بلاده وأسرته! - قابله الشاب بنبرة متعالية، ونظر في عيني القيصر مستعداً لما ينوي الأخير بحقه.

- ارموا به في القفص! - ابتسم القيصر، وقال وهو منصرف: - سيفهم من هو أشد إخلاصاً للبلاد.

سأل القيصر حين عاد إلى غرفته عن فيسكوفات.

- لا يزال غائباً في دار الطباعة حيث أرسلته صباحاً.

- اطلبوه. من جاءني في غيابي؟

- لم يظهر أحد من الشماسين والنبلاء يا قيصر روسيا كلها.

- ما أسرع ما اختبؤوا!! - غمغم القيصر، وكرر لفيشنياكوف: - استدعوا فيسكوفات!

لم يكن القيصر يريد مقابلة أحد. ولم يطلب فيسكوفات حباً به أو يُفضي إليه بـهـمه. كان يعرف أنه من جماعة أداشيف وسلفستر وكوريسك، وإن كان متكتماً لم يمسك عليه ذنباً ملموساً. ولما قيل للقيصر إن حالة فيسكوفات ساءت حين قرأ ما فعل كوريسك وهو يتصفح الكتاب الذي يُطبع، أرسل إليه طبيبه الشخصي. وخاطب نفسه يتميز غيظاً: "أفلت مني الخبيث من جديد. أعرف أنه مع كوريسك، ولكني لا أستطيع الإمساك به بالجرم المشهود. يُرضي الجميع، ويكتم أفواههم. ولكن الحق يقال: يعمل معي منذ عدة سنوات فلم أجد من هو أمهر منه في ترتيب الملفات. تتداخل أمور كثيرة تتنني عن عزمي..."

دخلت ماريا جزعة، وحيّت الرجل، وقالت وهي ترسم الصليب:

- حمى الله بلادنا وأسرتنا، وعاقب الخونة!

- هذا ما يجري في البلاد يا ماريا، - قال القيصر بعدما جلسا مدة يتبادلان النظر، - كنت أحمّن أن في البلاد أعداء كثيرين. ولكن لم أتوقع من كوريسك مثل هذا تحاهي.

- وهل عرفت هذا الآن فحسب؟ هل نسيت أي كنت أخبرك بأنه ليس رجلاً صالحاً؟ - سألت ماريا الزوج بلطف.

- وأنت من أين تعرفين هذا؟ - قابل القيصر زوجته بمزيد من الحرص.
- أعرف... - أجابت غشوناي بعد سكتة. - كانت أنستاسيا رومانوفنا تُخبرك ولكنك لا تصدّقها. وهل تتذكر أنك ضحكت حين أخبرتك بأن أخي لا يثق به؟

- ومع ذلك يتهموني بالظلم!... - تنهد القيصر عميقاً وقد اجتمع عليه قتلهم زوجته السابقة وإهانتهم له.

- وأنت لا يمكن إلا أن تكون ظالماً مع أعدائك وأعداء بلادك. - أيدت غشوناي زوجها. - وأنا يشيعون عني، إن كنت تسمع، أي نزقة ظالمة، أدفع بك إلى ارتكاب الأخطاء بحق البلاد.

- ما من خبر يدور في البلاد لا يصل إليّ. لا تهتمي بهؤلاء!

- كيف خدعك كوريسك إذن؟

- كنت أعمى وأصم في شأنه يا ماريا، - دان القيصر نفسه بصوت منكسر، وغضب في اللحظة نفسها: - سأجعل من هذا نحساً على النبلاء! - خطر له تقديمه ابن النبيل برونين للأسدين، ولكنه قرّر أنه ليس من الضروري إخبار المرأة بكل ما يعرف فسكت. وكان سعيداً بما سمع. وغيّر نظرتة إلى ماريا التي بدأت عاطفته نحوها تبرد.

- لا ترأف بالنبلاء الذين يحاربونك! - انتصب في وجه ماريا من جديد صبيها البريء فتألم قلبها. مهما قيل عني فأنا لن أراجع إذا تعلق الأمر بالبلاد وبأسرتنا. سأكون معك ما دام فيّ روح.

- شكراً يا كوشيني، أنعشت قلبي!

- أقرباؤك الشراكية، - ابتسمت ماريا، - هل تعرف ماذا يقولون عن الأعداء؟ " مدّ يدك إلى روح من يمد يده إلى عينك!"

- " مَدَّ يَدَكَ إِلَى رُوحٍ مِنْ يَدِهِ إِلَى عَيْنِكَ! " - كَرَّرَ الْقَيْصَرُ الْقَوْلَ الْمَأْثُورَ ، -
قَوْلَ صَائِبٍ . أَنَا بِحَاجَتِهِ جَدًّا . الْآنَ أَفْهَمُ يَا كُوشِينِي سَبَبَ حَدِّثِكَ . جِئْتَ مِنْ
عِرْقٍ وَاثِقٍ أَبِيّ .

عَقَدَ الْقَيْصَرُ لِقَاءَاتٍ كَثِيرَةً فِي الْكَرْمَلِينَ خِلَالِ أَشْهُرِ الْخَرِيفِ الثَّلَاثَةِ . وَشَارَكَ فِي
اجْتِمَاعِ مَجْلِسِ النِّبْلَاءِ . وَتَكَلَّمَ فِيهِ مَرَّتَيْنِ . وَأُطْلِعَهُمْ عَلَى سِيرِ الْأُمُورِ فِي الْبِلَادِ .
وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالنِّبْلَاءِ لَا يَرِيدُونَ تَقْوِيَةَ الدَّوْلَةِ ، وَلَا يَعْمَلُونَ شَيْئًا
مِنْ أَجْلِهَا ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا مَصَالِحَهُمُ الشَّخْصِيَّةَ ، وَأَنَّ الْخِيَانَةَ تَغْلِبُ عَلَيْهِمْ . وَأَنَّهُمْ
لَا يَرِيدُونَ أَنْ يَفْهَمُوا مَا تَعْنِي حَرْبُ لِيْفُونِ لِرُوسِيَا الْعَظِيمَةِ . وَسَاءَ حِينَ كَانَ
يَتَكَلَّمُ عَلَى كُورِبْسِكِ تَظَاهَرَتْهُمْ بِالْجَلْبَةِ ثُمَّ هَدَوْهُمْ . وَبَعْدَهَا أَيْدَهُ قَادَةُ الْجَيْشِ ،
وَلَكِنَّهُ أَدْرَكَ مَا فِي وَجُوهِهِمْ مِنَ الرِّيَاءِ . وَمِنْ اسْتِطَاعِ تَطْوِيعِهِمْ وَإِخْضَاعِهِمْ هُمْ
الشَّمَاسُونَ الَّذِينَ يَرْتَبُونَ وَثَاقَ الدَّوْلَةِ . وَلَكِنْ هَذَا لَمْ يَحْسِنِ سِيرَ الْأَعْمَالِ . وَكَانَ
عَدَدُ الْهَارِبِينَ إِلَى بُولُونِيَا - لِيْتُونِيَا يَزْدَادُ .

رَأَى الْقَيْصَرُ فِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ أَنَّهُ حَانَ مَوْعِدُ إِعْلَانِ مَا كَانَ يَكْتُمُهُ الْقَيْصَرُ :
" إِنْ لَمْ تَعُدْ أُمْتِي تَحْتَاجُنِي فَرِمَا لِأَنَّهُ قَرَارُ اللَّهِ الَّذِي زَعَمْنِي عَلَيْهِمْ . سَأَتَنَازِلُ عَنْ
الْعَرْشِ قَبْلَ أَنْ يَلْعَنَنِي اللَّهُ ، وَقَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ كِبَارُ بِلَادِي وَصِغَارُهَا لِعَنَاتِهِمْ عَلَيَّ ،
وَقَبْلَ أَنْ تَفْخَرَنِي تِلْكَ اللَّعْنَاتُ " ، فَخَرَجَ مِنْ مُوسْكُو فِي الثَّلَاثِ مِنْ كَانُونِ
الْأَوَّلِ / دَيْسَمِيرِ عَامِ 1564 ، مُتَوَجِّهًا إِلَى جِهَةٍ لَا يَعْرِفُ بِهَا أَحَدٌ ، مُصْطَحِبًا
مَارِيَا ، شَاحِنًا وَرَاءَهُ أَمْلَاكَهُ فِي مِئَةِ عَرَبَةٍ . وَصَلَ فِي الْبَدَايَةِ إِلَى قَرْيَةِ كَلُومَنْسِكِ ،
وَقَضَى فِيهَا أَسْبُوعَيْنِ رِيثْمًا يَتَحَسَّنُ الْجَوَ الشَّتَائِي . ثُمَّ قَضَى بَضْعَةَ أَيَّامٍ فِي قَرْيَتِي
تَايْنِيْسِكِ وَتَرْوِيْسِكِ . ثُمَّ تَوَقَّفَ فِي الْمَدِينَةِ الصَّغِيرَةِ أَلَكْسَنْدَرْوْفْسِكِ الْوَاقِعَةِ شَمَالَ
مَدِينَةِ فِلَادِيْمِيرِ . وَفِي الشَّهْرِ الْأَوَّلِ مِنْ عَامِ 1565 أَبْلَغَ الْقَيْصَرُ الْأَسْقَفَ فِيلِيْبَ
بِأَسْبَابِ تَخْلِيهِ عَنِ السُّلْطَةِ ، وَخِلَاصَتِهَا عَدَمَ رِضَاهُ عَنْ مُمَارَسَاتِ النِّبْلَاءِ
وَالشَّمَاسِينَ وَقَادَةِ الْجَيْشِ وَالتَّجَارِ وَالْعَسْكَرِيِّينَ وَرِجَالَ الدِّينِ .

سَمِعَ سُكَّانُ مُوسْكُو الْبُسْطَاءُ الْخَبَرَ ، وَوَصَلَ إِلَى أَرْجَاءِ الْبِلَادِ الْمَخْتَلِفَةِ ، فَتَحَقَّقَ
لِلْقَيْصَرِ مَا كَانَ يَتَأَمَّلُهُ : ارْتَعَبَ النِّبْلَاءُ وَالْأَمْرَاءُ ، وَوَقَفَ التَّجَارُ إِلَى جَانِبِهِ ، وَبَدَؤُوا
يَجْمَعُونَ لَهُ النُّقُودَ . وَخَرَجَ عَامَةُ النَّاسِ الْخَائِفُونَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ إِلَى الشُّوَارِعِ ،
فَتَشَاوَرُوا وَقَرَّرُوا الْإِبْتِهَالُ إِلَى اللَّهِ أَلَّا يَتَنَازَلَ الْقَيْصَرُ عَنِ الْمَهْمَةِ الَّتِي نَذَرَهُ لَهَا

فتبقى روسا يتيمة. وكلفوا الأسقف فيليب بتبليغه تفويضهم إياه بأن يفعل ما يشاء بمن يعصي أوامره، فوعد القيصر من توسلوا إليه بالعودة حين يؤلف الجيش الخاص الذي سيوطد النظام ويقوي الدولة. فقسم البلاد إلى قسمين، محتفظاً بالسلطة عليهما كليهما، وعاد إلى موسكو على حصان أزرق محققاً مراده. أنست تلك الأيام الصعبة ماريا أنها السيدة الأولى في البلاد، ولكنها عادت إلى حالها حين وجدت نفسها في الكرملين.

VIII

الربيع في أوجه، والخضرة تعم الطبيعة. جئو النهار كأنه يزاحم الصيف، ولكن الأمير تاخ يرتدي صداراً بنصف كُم مززراً عليه بأزرار خشبية يدفع الصدر اعتاد عليه في نومه، وفي إقامته في البيت، وخارجة، لخوفه من الهواء البارد.. ولا يتعرق لأنه فقد ما عليه من لحم. والتبغ لا يناسب مرض الصدر ولكنه يحتفظ بالغليون في فمه لإخفاء نكهته الكريهة. يحرص على نفسه فلا يتنفس عميقاً. ولا يكفيه ما يتنفس من أنفه فينفرج فمه حالما يرفع الغليون منه. ويعرف أنه لم تبق فائدة في الباخسه أو ماء العسل أو دوائه المر. ومع أن الوجه الرقيق تحول إلى وجه ميت أو وجه من طين فعيناه تلمعان من الحرارة الخفيفة التي يبعثها فيه مرض الصدر. وهو يحارب من أجل الحياة لأنه عدو عنيد لنفسه. ويحتفظ بالأمل ما دام يتنفس. ويعتقد نفسه قادراً على الإيقاع أرضاً بأحد خصومه.

"أليست مأساة ألا يكفيك الهواء الذي لا تتسع له الدنيا؟ لا نعمة تعدل الصحة ولكن الأصحاء لا يدركون. من عنده مرض مزمن تكف عيناه عن رؤية ملكه وأسرته، وأنا لم تعد عيناى تقعان على شيء. - اشتكى الأمير تاخ لنفسه يائساً. العاري الحافي لا يعرف أين يذهب بصحته، وأنا يمزقني السعال. ومع ذلك لا بأس بحالي. ما جرى للأمير فواخ هو المأساة. فقد عقله تماماً في آخر العمر، وفقد المحيطون به السيطرة عليه. فحبسوه في خزان الحبوب. ولما عُذته قبل أيام لم يتعرف عليّ. نبخ عليّ ككلب مسعور. ثم هدأ، وبعد قليل بدأ يلطم صدره، ويرفع يديه جاحظ العينين، قائلاً: "أنا أمير الجانيه الكبير.

إياكم من مخالفة أوامري!" يا حسرتي يا فواخ! لو كانت الرياح تجري بما تشتهي سفننا لتجنّبتني أنا مرض الحنجرة، وأنت عشت بعقلك. والحقيقة لم يكن الله، ولا غيره، ليرشحك لمنصب كبير الأمراء بوجودي. ولو اتخذتك معاوناً لفرحت. وهذه كلها بقيت شهوات وآمالاً ماضية. وأنا من جهتي أخاف أن أتفلس ملء رئتي. ولذا أقيم في المنحلة. وأنت تقيم في الخزان تنبح على من يدنو منك. هل خصّونا يا صديقي العزيز بأمراض العالم؟ - تنهد تاخ غير قادر على التحمل، وعاتب الله: - أأنا من كان يعجز عن مقارعة شبق اللعين لو أعطيتني الصحة؟! أنا لا أكفّ عن التفكير حتى في نومي، وأرتب أمور العالم؛ كنت قادراً على قيادة الأديغة؟ ما كنت لأركض هنا وهناك مثل شبق الفارغ الرأس. كنت أخضعتهم وحافظت على مصلحتي الخاصة. نعم غنيّ العقل يغلبه المرض. ومن لا عقل عنده يعيش سعيداً. لا أزعج أن شبق اللعين بلا عقل، و سيسخر مني من يسمعي، ولكن لا يتأمل مثل عقلي حتى في الأحلام. نعيش منذ سنين تحت سيفه إذ أوكلوا إليه الإمرة الكبرى كرمي لوالده وهو لا يستحقها. وكلما ظننا أنفسنا استعدنا المنصب منه سحب منا مجموعة من الأمراء، لا أعرف كيف، وبقينا وحدنا في الساحة. وكلما ظننا أنفسنا أغرقناه طفا من جديد. ما كنت لأهتم بالموت لو رأيته تحت حوافر حصاني!!" - صرخ الأمير تاخ من أعماق قلبه.

الحزن والفرح يُنسيان أي إنسان مرضه أو يُغرقانه في التفكير. ومتى صحا عرف أنه أضّر بنفسه، ولكن الوقت فات. تأثر تاخ بالسعال الذي لم يعد يتسع له الصدر ويمزق الحلق. تناول ماء العسل الدافئ بيديه المرتجفتين، ونظر جزعاً إلى خلايا النحل المبتوثة في السهل. وها هو الآن بعدما هدأ سعاله فرحاً بأفكاره. يحسدها: "هذه النحللات هي التي تستحق الحياة. يجمعن لي العسل دون كلل أو ملل. فيمنحني القوة ويحفظن عليّ حياتي. ولماذا أُرهب نفسي في عداة شبق؟ - ثم عاد إلى عقله وقال: أنا أطلق عليه الألقاب والنعوت من حقدني عليه، ولكن لو لم يكن له شأن لما استقبله القيصر بشخصه ولما أرسل إليه جيشه. وما كان استطاع التفاهم مع سلطان تركيا حين خاب أمله من القيصر. وتحالف مع دولت - جري، وحارب معه، ولكن أظن حلفهما انتهى. ولو

كنت مكان خان القرم لما قبلتُ منه إرساله ابنه الأكبر إلى القيصر. وإن صح كلام الناس فقد بدأ يمتد بطموحه إلى الشمال مستقلاً ما حصل عليه. خبيت لا يُطلعك على ما في قرارة نفسه؛ ثم نصيَّفه بفارغ الرأس. الآن انتهى شبق، وأخطر ما في الجانيه هو قلقك. وقف الشاب الفلاح في الساحة ونحن لا نعيه اهتماماً. سبقنا شبق اللعين إلى اكتشاف قوته فتحالف معه، يسافران معاً، ويستضيفه في مضافته، ويستميل إليه الفلاحين عبر خادمه الذي صار صهره. ويساعدهم بالمال دون أن يظهر هو في الصورة. ومن أنا ساخطٌ عليه أكثر منهم هو مامي. أنا أعطيت هذا الذي نبت له رأس حمار، واستضيفته، وترجيته، ولم أفلح أخيراً في دفعه إلى قتل شبق أو قلقك. ألم تكن فرصة مناسبة إذ فقد الأمير الكبير كل شيء؟ وبدلاً من هذا يترجاني أن أُكَلِّم قلقك ليسامحه، ويشغل بال جيرانه بموضوعه. وهل كان قلقك يوماً صديقك فأصالحك به أيها المهرج؟ وجدت ملجأ؟ لا تُخطئ في موضوع فنشقه! ليس وضعه كما يُخيل إليّ أو إليك. لن أصالحك بقلقك فأبقى أنا وحيداً، أفرك القُرَاص. أنا أعرف ما تستحق، وكيف أعاملُك..."

- يا جمال، هل تعرف ما خطر لي؟ نادى تاحُ النحال وقد قطع القُرَاص أفكاره.

- ها أنا قادم حالاً، أحمل لك معي قرصاً من العسل بشمعه.
- أبعد هذا عني! هل أستطيع أن أكل كل يوم عسلاً؟ - أبعد الأمير صحن العسل. - جهِّز لي حساءً من القُرَاص إذ يقال إنه دواء.

- هذا سهل يا أمير. وراء تلك الأجمة كثير من القُرَاص. - "يا إلهي ما أشد ما يجب نصف الميت هذا نفسه! ماذا ينبت على الأرض ولا يطلب مني تحضيره دواء؟ لو عرف أن.. ه يشفيه لأكله". - التف النحال وراء الأجمة يحتج في سره. وظهر بعد قليل حاملاً باقة كبيرة منه.

- أراك جئت بالفروع والجنذور؟! - نظر الأمير بعين الود إلى النحال. - حسناً فعلت يا جمال إذ قد يكون الدواء في أي منهما. اغلِ كلاً على حدة. ثم إن الأوراق يجب أن تكون غضة.

- اطمئن يا أمير، أعرف هذا! - ابتسم جمال وهو يتذكر أنه يراقبه وقت جني العسل غير واثق منه، - انظر ها هو الحساء تحت الأوراق. أ تكون فائدته أعظم يا أمير إن أكلته نبيئاً؟

- لا، لا. ارفع رأسك يا جمال وانظر إلى العالم. نحن في جنة ولكننا اعتدنا عليها فلا نشعر بها. الغابة والسماء والنهر، والنحل يعمل ويغني... ما أصعب أن تترك هذا الجمال وترحل إلى الأبد. - جفل الأمير من التصريح المفاجئ بخوفه. وتوجه إلى النحال متأثلاً من الحمى التي في جسده: - ما أسعد الحياة بصحتك ولو من أجل رائحة القراص التي في يدك.

- وما نعاني فيها من مشاق يا أمير؟ - أفلت من فم النحال همّه دون تفكير. - كل مشقة تهون إن كنت في صحتك. ها أنا أنظر إليك ؛ ألسنا نعرف بعضنا منذ خمسين عاماً، فلا أتذكر يوماً واحداً مرضت فيه. وهذا بفضل الهواء النقي الذي تتنفسه. أشكر نحلاقي، وادعُ الله من أجلي!

- أدعو الله يا أمير أن تتمتع بصحة دائمة، وأن لا تُحوّجك نحلاتك إلى العسل!

- يا حسرتي يا جمال، أعرف أنك ما كنت لتقصّر لو عرفت أن الله سيستجيب لدعائك. ولكن الله أغفلني. عندي من الذهب والفضة، وأصبح في المال ؛ ثم أطلب منك أن تسقيني ماء القراص!.. يقال إن الله عادل... ولكنه لم يلتفت إليّ. أعطاني الملك وتركني غير حرٍّ في البيع والشراء. - قطع الأمير حديثه اليائس فجأة، ثم قال بصوت مصقول: - ولكن هناك ما أَرْضاني به الله: أعطاني من العقل. هل تتذكر العبارة السديدة التي انتزعتها من الأمير فواخ؟

- وكيف لا أتذكر؟ - أعاد النحال العجزو القول إذ يعرف أن الأمير يحب المديح: ليقَ أعداؤنا تحت أقدامنا، وأخيارنا في حضرة الله تعالى!".

- هذا ما سيذكرنا به الناس بعد موتنا. لا تظن أني أمدح نفسي يا جمال، أقول الواقع فحسب. لم ألقَ في حياتي بمن ينافسني في العقل. لا أتكلم على الأمير فواخ، هذا مفروغ منه. نافسني حتى جُنَّ فحُس في الخزان. من لا أفهمه الآن

هو الأمير جان. سيقتله الحسد هو الآخر. هذا التافه يريدني أن أقبله حليفاً كما كان يطلب الأمير فواخ.

- يبدو يا أمير أنه هو الآخر يقفز في الهواء متبححاً.

- والله لقد أصبت يا جمال. هذا قول مأثور، أما أنا فأتي بالأقوال الصائبة من إبداعى. - حسناً لا تدع الحساء يبرد.

- ريثما يخرج منه البخار يا أمير، - لا بأس، حرارته مقبولة، ولكنه مرّ قليلاً. اخلطه بشيء من ماء العسل، أو اشربه بعده.

- سأشربه ولو مرّاً. ما من شيء لا آكله أو أشربه إن عرفت أنه سينفعنى. - غصن الأمير وجهه وشرب. أنت لا تعرف يا جمال؛ المرّ هو الدواء... فيم كنا نتحدث؟ الأمير جان القصير. ماذا تظن سبب عدم قدمه إلى منحلتي منذ زمن طويل؟ لم أقبل أن أبيعه قطعتي من الجنة. كيف تتعامل مع أمثاله؟ أنا من غضب الله عليه! كلهم يغارون منى. وهل يستطيع هؤلاء مجاريتى؟ أوه! الحمد لله أنعشني الشراب. سأتمشى على ضفة النهر فأروّح عن نفسى. الحق هل حبسوا نجاق حيث أرسلته؟ لماذا تأخر؟

سمع النحال العجوز وهو خارج من وراء دورة المياه، وأوراق القراص معه، الأمير في نوبة سعال، فابتسم وهو ينظر جهة النهر: " لا أظنك تُشفى ولو حمموك بماء الفضة. انقضى عمرك أيها النّفاق التعيس. لا أعرف إن كان اليوم أو غداً ولكنك ستقضى في نوبة سعال كهذه".

- لم يواتني الهواء البارد القليل الآتي من ضفة النهر يا رجل. - قال تاخ وقد ازداد شحوباً، وفي اللحظة نفسها جعله وقّع حوافر الحصان القادم يرفع رأسه. - لام الأمير نجاق المترجل على مسافة منه قبل أن يفتح الأخير فمه: - هل أرسلتك تتزوج هناك؟ ما الأخبار؟

- نقّدت ما أرسلتني لأجله يا أمير، وجدته بصعوبة. سيأتي إلى المكان المحدد بعد الظهر.

- وما حاجته في أن لا يأتي إلى الآن؟ - لم ينطق هو أيضاً اسم المعنى كما اتفقا، - لم نخدع إذن، كلّ شيئاً لنركب معاً. ليس ما نقصده بعيداً يا جمال.

سنعود قبل هبوط الظلام. نفعني ما حضّرته لي، فليكنّ جاهزاً فاتراً وقت عودتنا!

وصل الأمير تاخ ونجاق إلى المكان المحدد. غابة البلوط هادئة. لا يتحرك فيها إلا أطراف الأغصان. أحياناً يصدر من عمق الغابة صوت أصمّ لطائر ما، والريح المتعبة تدفع بأعالي الأشجار إلى التهامس. والشمس الآيلة إلى الغروب ترسم ما يشبه أقدام الكلاب على ذرا الأشجار.

- أين من سينتظرننا إذن؟ - لم يصبر الأمير تاخ. ولكن مامي ظهر من وراء الأشجار راكباً، فألقى تاخ نظرة رعب على حارسه. - لا حاجة إلى العراك، - قابل الرجل الأسمر الرقيق الذي واجهه بابتسامة عتاب خفيفة: - يا من جعل الله يومه مئة، كأنك تجعل الأمير ينتظرك. لم يكن هذا من عادتك... لا تترجل! سنذهب إلى المنحلة و...

قطعت ضربة سيف نجاق رأس مامي قبل أن يكمل الأمير كلامه. وسقط الجسد النازف على الأرض. وارتمى الحصان على بطنه.

- ما هذا يا رجل!.. - نظر الأمير إلى الحارس بعينين مندهشتين، وغضب حين رأى الدم على كُمّ كسائه: - لو تُثني بدمه الوسخ... أما انتظرت إلى أن يُفِلّت يدي!

- لم يحدث له ما لا يستحقّ. الرجل الأديغي لا يُصافح من على ظهر الحصان!

- تصرفنا مع من لا يعرف الأديغية بما يستحق. حسناً، هذا ليس مهماً. - أشار الأمير بطرف السوط إلى الكيس الذي على صدر نجاق، - ضع الرأس في الكيس متى تصقّى دمه.

- ماذا نفعل به؟

- تأخذه إلى قلقت.

- نعم؟ لماذا؟ لا أستطيع أن أفعل هذا وحدي...

- ما المشكلة في هذا بعدما قطعت الرأس؟ أنا سأنتظرك في المكان الكثيف المعروف من الغابة. ومتى رجعت أعطيتك كيس ذهب. ستضع رأس مامي أمامه قائلاً إن أميرى انتقم لك وللاأديغة.

- وبقية الجسد على الأرض؟

- لا تهتم يا نجاق بما لا حاجة إليه.

تناثرت النجوم في السماء ريشما اختبأ تاخ في الغابة الكثيفة من قرية قنشقوه. وأطل منها القمر المستدير المتوهج. والطيور تتوقف شيئاً فشيئاً عن التغريد. وصدر صوت البوم من مكان غير بعيد باعثاً الرهبة في قلب الأمير: " هذا فال شرّ. البوم يتنبأ بموت إنسان آخر. ليتّه توقف قبل أن يعود القاتل نجاق. الحبيث عنده فطنة قوية ولذا سيشكّ في الأمر... كان مامي يظن نفسه سيؤتني فإذا بي أمر بقطع رأسه. أضعنا سنوات من العمر في الكلام. متى تنفست قليلاً فسأقطع النّفس عن الآخرين..."

صدر وقع حوافر خيل مسرعة من البعيد الهادئ. عاد تاخ إلى السرج. وسأل نجاق العائد بلهفة:

- هل قابلته؟

- نعم، قابلته.

- قل دون ملاحظة! - شعر تاخ وهو يجانب الحصان ويده على مقبض سيفه بنذير شر، - وبدأ نفسُهُ يضيق.

- كيف أعبر لك يا أمير؟ - ألقى نجاق الكيس الذي فيه الرأس، وبعد تردد بدأ: - لا تؤاخذني، أبلغك ما قيل لي: " أبلغ الأمير تاخ الذي كلّفك بإرسال هذا الرأس أنه أهانني بالجريمة. سأريه كيف يُقطع رأس الإنسان فإياه أن يقع في يدي!"

- ما هذا؟.. هل وصّفتني بالمجرم؟! كيف يستطيع من لا عقل له قيادة الفلاحين والأمراء؟ إن كان هذا ما وصل إليه... - صرخ تاخ، وهُرع إلى خنجره، ولكن الدم سال من فمه غزيراً قبل أن تصل يده إليه. وتوسّل بصعوبة: " يخنقني يا... - ارتخت يدها المتشبثتان بعُرف الحصان، ووقع على حاركه.

يلبس الشركسي أحسن ما عنده من ثياب في اليوم الذي سيّتجه فيه إلى المعركة. وهذا اللباس يُضفي عليه مظهراً أخذاً متناسباً مع الخوذة اللماعة، والدرع، وجعبة السهام، والسرّج المتقن. وبهذا تتميز جيوشهم المختارة. تأخر الشراكسة في المعرفة عن الشعوب الآسيوية، وتفوقوا عليهم في ملابسهم وأسلحتهم. وبالقياس إلى ما أعرف من ملابس، فليس في آسيا فحسب، بل في أوربا أيضاً، أجمل منها، فهي فوق الجميع جمالاً وتناسباً مع الجسم.

خان — جري

ما يعدّه الشراكسة دليل غنى هو السلاح الممتاز. لباسهم خفيف، وهذا يتناسب جداً مع الحصان والمعركة.

ج. ش. بيس

الزي الذي اختاره الأديغة متناسباً مع قوامهم ونمط معيشتهم، يتجاوز حدوده. ولا يقتصر الأمر على كونهم القوم الأرقى في علاقاتهم الاجتماعية، بل كانوا مثلاً في عاداتهم وتقاليدهم ولباسهم. وهذا يشرح سبب تجاوز الزي الشركسي حدود شمال القفقاس إلى ما وراءه. القوزاق مثلاً أخذوا زيّهم وطريقة ركوبهم من الشراكسة.

إ. ن. ستودينيسكايا

الكتاب الثامن

I

لا فرق بين المهمتين اللتين أُرسِل مامسرقوه لأجلهما: موضوع الأسرة، وموضوع البلاد. حقاً كل مهمة أتت من مصدر غير مصدر الأخرى: الأب والأم، ولكن لم يكلّفه أيّ منهما بأن يعرّج في طريقه على خانية قاسم فيقابل أخته الكبرى ألتنجاج، ويصطحبها. وليس قُربُ خانية قاسم من موسكو هو السبب الوحيد لهذا التصرف، فقد كان مامسرقوه يعرف جيداً أن أخته رقيقة القلب، وأن لا إزعاج في اصطحابها.

- كنت استأثت قليلاً إذ كان يكفي أن تنفذ مهمتك وتعود إلينا يا أخي الصغير ولكن حسناً فعلت إذ اصطحبتي. - أَلقت ألتنجاج نظرة رضا إليه، ومسحت على كتفه، - المسكينة غشوناي لم أرها منذ عامين حين توفي صغيرها، ستفرح لزيارتنا.

- نعم؟! - صاح مامسرقوه، وحُيِّل إلى أخته أن العربة تهتز. - لماذا لم تخبرونا بالمصيبة التي جرت لأختنا الصغيرة؟ - وأضاف بصوت مرتخٍ إلى عتابه الشاكي: - لم نعرف إن رُزقت ابنتنا بصبي أو مات... لنقل إن عقل غشوناي لم يستوعب الأمر فما بال صهرنا الذي بيده روسيا كلها؟ وأنت يا ألتنجاج؟.. - ثم غضب: - إذا كان أخونا سلطان يعيش مع الروس فهل تخلى عن أديغيته؟

- فكّر في ما تقول يا أخي! - تنهدت ألتنجاج حزينة. - دعنا نفكر في وضعنا كلنا، سلطان ونحن وأنتم. الأديغي لا يميز مهما قال أو فعل بين أمير ومتنفذ وفلاح. الجميع سواءٌ عنده. ولكن الروس يتصرفون تبعاً لرغبة القيصر. ينفذون ما يقول، ويرفعون إليه طلباتهم بحرص. نحن أقرباء للقيصر فحسب. قد يستجيب لنا وقد لا يستجيب.

- علينا أن نكون، حسب كلامك، حريصين إذا كنا سنطلب شيئاً من القيصر.

- القيصر الذي صار قريبنا ليس التعامل معه كما لو صاهر كأمير أدغي شاب تقول له ما تريد وتطلب منه بحرية. بل صهر كوالذي يعيش في ظل القيصر، أو من تعيش معه ملجأ، بالقياس إلى أمرائنا، يرى نفسه أعلى منا، ولا يسمح لك بالاقتراب منه. هؤلاء مثل النار، لا يجوز الاقتراب منهم كثيراً ولو سمحوا لك؛ سيحرقونك. عليك أن تتصور قيصر روسيا ناراً هائلة على قمة الجبل. اكتفِ بأن يصلك دفءها من بعيد.

- أي نصائح تقدمينها لي؟! - انتفخت عروق مامسرقوه وقد بدا الارتباب على وجهه الطافح. - هل يسيء صهرنا معاملة أختنا الصغيرة؟ لا تخفي، لا يهمني إن كان قيصرًا!

- تُبين يا أخي الصغير عن أنك أدغي حقيقي. - أسرعت ألتجاج فرجة من أقوال أخيها. ونظرت إليه بؤفرة فرحة بأن عندها أخاً سنداً. ومسحت على كتفه ثانية. - لن يسمحوا لك بأن تلمس القيصر ولو كنت مصارعاً، فلا تخطر لك مثل هذه الأفكار! كلُّ يرتب شؤون أسرته وفقاً لتفكيره. لماذا يسيء القيصر معاملة أختنا وقد تزوجها عن رغبة؟ حقاً، ما من أسرة إلا تظهر فيها مشكلة ما.

- أفهم كل هذا، ولكن ألسنا أهل الصبي الصغير؛ فكيف تسوِّغين ألا نشارك في مأتمه؟ لم يرض مامسرقوه التخلي عن أدغيته كما يفهمها.

- لست على حق يا أخي الصغير، - أصلح ألتجاج الموقف، - لا يقام مأتم كبير للصبي الصغير. ولا يبلغ الأقرباء. وربما الروس يشبهوننا في هذا. الأسرة والدولة سيان. لن تتدخل في شؤون دولة روسيا؛ صحيح؟ غشوناي أختنا، ولكنها في بيت القيصر. إن أطعني فلن أدعك تتدخل في هذا الموضوع. ها أنا تقبلت عادات النغوي الذين أعيش بينهم وتقاليدهم. لا أتدخل فيهم دون استشارة شريك حياتي.

- هل تعتقدين أن غشوناي انسجمت مع الروس؟ كان القلق هيمن على مامسرقوه ولو أنه بدا مقتنعاً بنصائح أخته.

- هل كانت أقامت معهم خمس سنوات لو لم تنسجم معهم؟ - ضحكت ألتجاج فرحةً بلهفة مامسرقوه على أخته. - نشأت غشوناي قوية الشخصية

لأن والدنا ووالدتنا جميعنا منحناها مزيداً من الحرية لأنها العضو الأصغر في الأسرة. ولكنها لا تفتقر إلى العقل وحسن الكلام والتصرف. ليس سهلاً أن تحمل الأغراب على أن يتقبلوك وأن تنال ثقتهم. ويضاف إلى هذا الحسد والمؤامرات. أنا زوجة خان صغير، ومع ذلك تعلمت لغتهم وعاداتهم. وتجاوزت صعوبات كثيرة. وبعد هذه المرحلة فحسبُ تناسيت أنني لستُ من النغوي. أختنا زوجة قيصر دولة كبرى. هذا سهل قولاً ولكنه يحمل معاني كثيرة.

- لا تتعالِ أختُنَا بحجة أنها صارت السيدة الأولى في دولة عظمى! لا تسبِّب لنا العار، ولتستقرَّ مع الزوج!- غير مامسرقوه رأيَه راعباً في أن يُحلَّ أخته محل والدته في النصيحة. وتابع كلامه جاداً: - أنت تعزريك بعضُ الوسواس ولكن أليست رُبِّيت في أسرة أدغية مهما كانت قوة شخصيتها؟ وهل ستنسى قول أمنا: إرضاء الزوج يتوقف على حسن كلام الزوجة. لا تقبلي منها أنت أيضاً إن تصرفتُ بصيبانية. ونحن لن نقبل. هذا ما نصحني به والدنا قبل انطلاقي.

- ووالدتنا؟ ابتمست ألتنجاج بحبث.

- حسناً فعلتِ إذ سألت عنها، - أثار وجه مامسرقوه كاملاً. وسرت في عينيه محبة دافئة، - هناك أمور كثيرة لا يفطن لها الشاب. الأب والأم مختلفان في مشاعرهما. كلما تقدمت في العمر أدركت حبَّ أمنا لنا الذي لا حدود له. لا يمر يوم لا تأتِي فيه على ذكرِكم، ولا تصل إليكم بقلبها: أنتِ وملخرب وغشوناي، وسلطان.

- لأننا نعيش بعيداً عنها يا أخي. وأنتم أيضاً في قلبها ودمها.

- وأنا لا أدعي أنها تكرهنا. ولكنها ترتاح لرؤيتنا ليلاً ونهاراً، غير أنكم، الغائبين، من لا تنتهي من سيرتكم.

- أفهم هذا. - وجمت ألتنجاج. - وأنا أُم منذ زمن بعيد. حين قال الأديغي: الولد نار هائلة، اختصر ما في نفوسنا. أحسستُ بأن الأم تضحي من أجل الأولاد، وتُجنَّبُ أياً منهم أن يتألم ظفروه، حين أصبحتُ أمّاً أعيش عمري ومحبي لأمي تزداد. وكلما جئت أزوركم تردَّد في أذني بألم ما كانت تقول، وأضمها إلى صدري من بعيد.

- وما الذي لا تنساه كل هذه الأيام؟

- "تألّفي معهم يا بنتي ولو عانيت من المصاعب. المؤدّب ينال حصته وحصّة غيره. من تُحسني إليه أيّاً كان يفتح لك قلبه". كانت تنصّحي بمثل هذه الكلمات اللطيفة، ثمّ تضيف ولولها يتغير: "إن لم يحترموك، وأنت لا تؤدّينهم من قلبك، فلا تكتمي؛ بيت والدك مفتوح لك، لن تكوني ضيفة فيه..."

- ماذا قلت؟ ما هذا الكلام العجيب؟ - ضحك مامسرقوه بصوت عالٍ حتى أجفل الحراس وراء العربة. - قالت لي الكلام نفسه في شأن غشوناى. ما أرقّ الأم! لن تسمح لذبابة أن تقع عليكم ما دامت قادرة.

- كانت نان تُعيدنا إلى بطنها لو كان يتسع لنا! - ابتسمت ألتنجاج أيضاً مؤيدة أختها. ثمّ عادت إلى الجدّ وقالت: - الأم تقول ما عليها، ولكن إياك أن تقولي هذا الكلام لغشوناى بصراحة. تُعزّ مكانة سيدة القيصر التي تشغلها. تساند زوجها بقلبها وعقلها.

- الآن أعدت الطمأنينة إلى قلبي. - تنفّس مامسرقوه ملء صدره. - الروس لن يلفظوها إذا كان النغوي تقبّلوكما، أنتِ وملخرب. والآن أخبرك بالمهمة الأهمّ من غيرها، والتي كلّفني والدنا بها: لا بد أن يزودنا صهرنا بجيش يوطّد سلطتنا. سأطلب من سلطان وسعيد - بولت مساعدتي. وأنتِ اعلمي ما تقدرين عليه. - سكّت قليلاً، ثمّ مزح: - إن لم يُلبّ هذا الطلب فسأستعيد ابنتنا منه.

- ما ترجوني من أجله يا أخي ليس من شأن النساء. - ضحكت ألتنجاج، - ولكن لن ندخر جهداً أنا وابني وأخي الأصغر.

مطّ مامسرقوه جسده الضخم في العربة بعدما مشيا بعض الوقت صامتين، وشكا:

- كيف تنتقلون بهذه العربة الوثيرة؟ كأنك راكب في أرجوحة. تسبب لي النعاس.

ودون أن يضيف شيئاً قفز من العربة الجارية بسرعة. تعلق بعرف حصانه ذي الصدر الواسع الذي يسوقونه مع العربة، التفتت ألتنجاج مرتعبة، فرأت أختها راكباً حصانه، فعادت إلى مجلسها. تجاوز مامسرقوه العربة مع فارسين. عدا

الثلاثة حتى اختفوا عن الأنظار. وبعد قليل لحقت العربية والفرسان الذين وراءها بالفرسان الذين ينادونهم، وحالما عاد مامسرقوه إلى جانب أخته سألت:

- ما أخبار الأمير شبق؟ لا حد لما يقال بحقه في نواحيننا.

- لا يُشيعون عنه ما لم يتسبب فيه. أشار مامسرقوه عابساً. - لا يستقر على موقف، يتنقل من هذا الجانب إلى ذاك. والآن يدور في الجانيه والبجدوغ والمخوش، وكان قد وصل إلى ديارنا. صار من الصعب معرفة ما يريد الأمير الكبير. لا أدينه لأنه تخلى عن صهرنا، وأنا ما كنت لأغفر لأي شخص لو فعلوا بي ما فعلوا به، ولكن لا أفهم تحالفه مع ألد أعدائه خان القرم. - سمعنا أنه تخلى عنه.

- وهذا صحيح. ولكن هل تعرفين مع من تحالف الآن؟ سأل مامسرقوه وأجاب: - من كنتم تمدحونه في وقت ما: قلقت.

- لم أندم على امتداحي له. وأخبره أيضاً تصلنا.

- كيف؟ - جحظت عينا مامسرقوه الكبيرتان، - تعرفين ما يجري عندنا أفضل منا ولكن لا أعرف المصدر.

- لا عجيب في هذا يا أخي، وهل قيصر روسيا صهرنا عبثاً؟! سلطان من أقرب النبلاء إليه ويجب سعيد بولات جداً، وكتاق ودودارقوه رجلان صلبان مع أخي.

- ألم يتزوج دودارقوه وكتاق بعد؟

- دودارقوه متزوج، وكتاق لا.

- احذري من كتاق! - أفلت من مامسرقوه ما كان يخاف منه.

- هل تعرف شيئاً منكرًا عنه؟

- لا أعرف عنه منكرًا أو غير منكر، ولكنه زارنا مرة واحدة فأحبّ غشوناي جداً على ما أظن.

- أسمع هذا لأول مرة... - وبعد قليل اعترضت ألتنجاج على ما سمعت: -

لا تساورك مثل هذه الظنون إن لم يغازلها. وأنا ما أكثر أولاد الأمراء الذين غازلوني قبل أن أتزوج! وبينهم من دخلت قلبه، ومن لم أعجبه.

- ولكن لم يلحق بك أحد منهم إلى أستراخان. كتناق كان ترك الخدمة في الجيش الروسي، وبعدها تزوجت أختنا عاد سريعاً إلى موسكو.
- لا تَرَوْ، في أي وقت، ما لا تعرف صحته. - نصحت ألتنجاج أخاها. ثم مازحته: - وهل تظن أن حُطابي مجانيين فلا يعرفوا أنني لن ألتفت إلى أحد بعدما تزوجت؟ إذا كان كتناق تجزأ وعاد إلى خدمة القيصر فقد حسنت صورته في عيني. صدف أن عاد الشاب زمن زواج غشوناي، وحسب.
- ربما كان رأيك أ صوب. ولكن أريد أن أحمي أختي من مبدأ: كل شيء ممكن. ما يشغل بالي أكثر من أي موضوع في حديثنا هو رأيك في قلقت. كيف يذكرونه؟ بالخير أم بالشر؟
- إذا كان ظهر بين أديغة الغرب رجلٌ مثل قلقت فمن رشحه بحماسة ليجابه الترك والنغوي هو أخوك سلطان.
- ألا يعرف أن صهرنا تقاسم أرض الأديغة مع سلطان تركيا؟
- لا أنت ولا أنا يمكننا إدراك ما في ذهن السلطان. ربما تتأمل تركيا أن تستملك هذه الأراضي يوماً ما. لا يفعل صهرنا شيئاً ليس فيه مصلحة للبلاد.
- هل اتخذ منا إذن مصدرَ فائدة قريية؟
- وأنتم أُلستم جزءاً من سائر الأديغة؟
- لا تقولي لي مثل هذا، سننقريني من صهرنا.
- هل فعل والدنا ما ليس فيه فائدة يا مامسرقوه؟ - سألت ألتنجاج حزينة ترمّ عينيها. - لا أقول إنه يعيش لفائدته الشخصية أو فائدة أسرته. ضحى بنا أنا وأختي من أجل حماية الإمارة وحياة الناس في أمان. لا ألومه على هذا. ونحن لم نمت وإن تعذبنا. أعاد الأمل إلى الآلاف من الناس.
- ما أعجب أفكارك يا أختي! - صاح مامسرقوه راضياً بما يسمع. - صرت ترتبين أمور الدول ونحن نائمون.
- ربما لو كنت مكاني لنظرت إلى أبعد مما أرى. زوجي وولدي مع القيصر. يعرفان ما يحدث في أي مكان. ويساهمان بالقول والفعل في كثير من الأمور. ويفضيان إليّ ببعضها شاء أم أبيا.

- وأفهم هذا يا ألتنجاج. - زَمْ مامسرقوه شفتيه خجلاً، - ولكن يحزنني أن القيصر تزوج من أختي زواج مصلحة.

- ما العمل؟ علمنا عالم كلابٍ تتهارش، تقرب والدنا من نغوي أستراخان - قازان حين قطع الداغستان والفرس سبل الحياة أماننا فحمى الإمارة، والآن يتأمر سكان القبرتاي بعضهم على بعض فتمضي إلى صهرنا طلباً للنجدة.

- ما تقولينه صحيح. آل قايتقوه يستون أسناغم علينا. ومن يحيطون بهم لا يريدوننا. نتحارب، نحن الأمراء، على من قبعته أعلى. ومن الطرف الآخر يضم أنصار قلقت كل الفلاحين إلى جانبهم. وهل تعتقدين أن هؤلاء سيُحسنون معاملتنا متى أحسوا بحلاوة الحكم؟ ألا يفهم شبق الذي عاد فتحالف مع قلقت أنهم سيقنلعون جذوره وجذورنا؟

- ليس شبق على ما تقول تبعاً لما سمعته من والدنا، - كانت الأخت الكبيرة بدأت تتشاءب وقد ملّت من الكلام فأدارت وجهها مغلقة فمها بيدها. - عنده عقل نبيه وفطنة. يفكر هو الآخر دون أن نعرف في أمور أخرى. صعب أن تعرف ما وراء أفعال المرء دون معرفة نواياه.

داعب النعاس عيني ألتنجاج المرهقة من الطريق ومن كلمات مامسرقوه اليائسة. كان الأخير راضياً عن ثقة أخته فيه ومساواتها له. وهذا هو أيضاً يذيب قلبه جلوسها إلى جانبه مشتاقة إليه كما لو كان حبل مودة الأم تصلهما. فأغمض جفنيه حريصاً على تنفّسه، وانتصبت أمام عينية دائرة وقريته وقمتا أوشحه مافه اللتان تشبهان سرج الحصان. وشيئاً فشيئاً جرّه التفكير: " لم أكن أفهم قصد والدنا حين يقول إن العالم مركب بطريقة عجيبة. كنت أقول: ما العجيب في أن تكون مائدتك جاهزة مع الصباح، وحصانك جاهزاً، ومضافتك مفتوحة في المساء، وتجد فراشاً دافئاً في الليل. على أننا كلما مضى بنا العمر بحثنا عنها في أيامنا، وثُناها. من كان سيدري أنني وأختي، سنكون هكذا في أرض الغربة؟ وأنا سنتجه إلى الصهر نتوسل إليه لفائدتنا؟ للضرورة أحكامها. كلام أختي صحيح. متى وقعت في ضيق بحثت عن المخرج. والعقل يعمل بلا إرادة. وما لا يأتي بالكلام نقدته بالقوة. ومن لا تقدر عليه أسبلت له جفنيك. وتوسلت إليه. لو لم يتوجس والدنا من خطر يدهاها ما كان دفع بي إلى الطريق. يريد أن

يحتز من غدّهم... " - تذكر ما جرى له وهو في زيارة ملخرب، فضحك وجسده الضخم يرتجّ وصوته يصدح. ولفت انتباه ألتنجاج.
- هل وصلنا؟

- لا، تذكرت محاولة رجل كسيح من النغوي أن يغدر بي ونحن نتصارع، كاد يُسقطني أرضاً. لهذا يقولون: من لم يخالط الناس فكأنه لم يولد. ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن أستفيد من تلك الحركة في مصارعاتي.

- ألم تعتزل المصارعة إلى الآن؟

- سأظلُّ أصارع إلى أن أجد من يغلبني،- قال مامسرقوه ضحك. - متى هُزمت ونقصت قوتي فلا بد أن يظهر من يغلبني. ولكني إلى الآن معتدٌ بقوتي حتى لو أن للأرض حزاماً لرفعتها.

- إياك أن تصارع في موسكو بهذه الحجة. بين الروس من يشبهون عمالقة الأساطير. وصهرنا يحب المصارعين.

- سنتفاهم أنا والقيصر إذن، - مرة أخرى ضحك مامسرقوه من أعماقه.

...

في السابع عشر من حزيران / يونيو، في ذروة جمال الصيف، من عام 1565 وصل مامسرقوه وأخته في موكب من الفرسان. ولكنهما لم يجدا أختهما وصهرهما في الكرملين. ولما قيل لهما إنهما في مستراح ألكسندروفسك على مسير يوم من موسكو قضيا الليل في المدينة، وحالما فتحا عيونهما في الصباح اصطحبهما المضيفون إلى هناك.

سمعت غشوناي بقدوم أخيها وأختها فاستقبلتهما بالأحضان ناسية أنها زوجة القيصر. واستقبل القيصر زواره من الفقفاص مباشرة، لا من المنبر. وتفحص وجوههم بعينه الصغيرتين مع ابتسامة مجاملة. وتفحص مامسرقوه على نحو خاص من الرأس إلى القدمين.

كان المضيفون والضيوف على طاولة الطعام مع المساء على ضوء الشموع في القاعة الكبيرة. على يسار القيصر زوجته غشوناي وألتنجاج، وعلى يمينه مامسرقوه وسلطان. ومقابلهم سكوراتوف وباسمانوف وغريازنوف. ومدير المائدة والخدم وراءهم. ووراء الرجلين الأديغيين رجل آخر. والمرأة الواقفة وراء سيدة

القصر وسيدة الخان جاهزة لأي أمر، لا تدعهما تقومان بأي حركة. وكلما رُفع النَّحْبُ ارتفع الكلام. وزاد المرح، وتوهجت وجنتا المضيف. وانطلق لسانه:

- أرى صهرنا رجلاً ممتازاً، - همس مامسرقوه لأخيه.

- ومتى شرب قليلاً طلب منك أن تصارعه... - همس سلطان في أذنه باسمًا.

- لست راضياً عن قريبي، يرفع كأس الخمر ويضعها. - قال القيصر لا تميز جدّه من هزله.

ترجم سلطان لأخيه الأكبر كلام القيصر.

- يا إيفان فاسيليفيتش، - استعجلت غشوناي لأنها تعرف براءة زوجها، لا تُخرج قريبيك، المسلمون لا يشربون.

- هاه، فهمتُ - رفع القيصر حاجبيه، هؤلاء شركاسة وإن كانوا مسلمين. ألا يشرب الشركاسة؟ - نعم، نعم، قلت لي عندهم الباخسمه وشراب العسل...

- ثم مزح: - في المرة القادمة هاتوا معكم منهما. مامسرقوه تيمريوكوفيتش مسلم ولكن ميخائيل تيمريوكوفيتش النبيل لم يعد مسلماً. المسيحية لا تحرم الخمر. أكلفك أن تشرب الكؤوس الثلاث التي فوّتها أخوك الأكبر يا ميخائيل.

وإن لم تفعل نزعت عنك حالاً لقب النبيل. اعتنوا بقائد جيشي النبيل!

- يا لمصيتي... - قالت ألتنجاج بعفوية، ثم أغلقت فمها.

- مهلاً، مهلاً، لا تعاقبوا أخي الأصغر بسببي. - نهض مامسرقوه بكل ضخامته ونظر إلى صهره بوجه طلق صريح. - لن يضرنني هذا القليل وإن كنت مسلماً. الله يتفهم أننا في حال ضرورة فلن يعاقبني. أرفع هذه الكأس على شرف الصهر، ومن أجل أن تعبش روسيا في سلام.

نهض القيصر فنهض كلٌّ من على المائدة. كان مامسرقوه امتعض في البداية من وجود النساء بينهم ولكنه لم يقبل نحوضهن الآن:

- أرجوكم ألا تقفوا جميعكم. يجب أن يبقى أحد الرجال جالساً على المائدة. وإلا فُهم أن موعد انصرافنا حان. هذه هي العادة في نواحيننا.

- لا بأس أن يبقى قيصرنا جالساً. - قال باسمانوف.

- كيف يجلس الصهر وابن حميه واقف؟ - قالت غشوناي تريد أن تعلّم زوجها شيئاً من تقاليد الأديغة.

غمز سكوراتوف غريازنوف ممتعضاً من كلام غشوناي: " اسمعوا ماذا تقول! - وهل عجيب أن خرجتما من رجم واحدة؟ تقيس القيصر العظيم إلى الأمير الشاب! تريد أن تدخل تقاليدهم إلى مجتمعنا وكأننا بلا تقاليد... افرحوا إذ يُعزّون أختكم القاسية، ويعاملونكم بإنسانية..."

- إن كان هذا رأيكم فليبق القيصر جالساً! - قال مامسرقوه وهو يرفع الكأس، - وعلى رأي كبارنا يكفي أن تمسك طرف الطاولة ولذا ها أنا أُمسِكُه بيد واحدة. - حقق الله لكم دعائي!

- صبو لنا من جديد أنا ومامستريوك كأساً أخرى - أمر القيصر لما رفع ضيفه الكأس. - وأنا أرفع هذه الكأس متمنياً ازدهار روسيا وسلامها، وأن يُصاب أعداؤها بالعمى والصمم.

تقارب قلبا القيصر ومامسرقوه منذ اللقاء الأول. أحدهما كان مرتاباً نزقاً، يشتعل كالنار فجأة، لا حدّ لما يمكن أن يفعله بك. وإن عطف عليك غمرك بكل ما عنده. أما مامسرقوه فكان على المألوف من الرجال الضخام، سليم النوايا بريئاً من الخبث، مستعداً أن يملك على رأسه. ومن الصعب إغضابه. وإن وترّته صعبت السيطرة عليه كدبّ هائج. كان الرجلان يتشابهان في بعض الطباع ويختلفان في أخرى. ولكن أقوى الدواعي إلى تقاربهما هو إعجاب القيصر بأصحاب القوة البدنية العظيمة.

بعدما قضت ألتنجاج بضعة أيام مع أخيها وأختها، وجب عليها أن تعود إلى خانيتها، فنصحت أخاها:

- يا أخي، لا يعجبني سلوكك مع هؤلاء بنواياك البريئة. انتبه إلى نفسك. صهرنا خبيث، يستشفّ ما في داخل الإنسان. لا تجعله يخبّن أنك بسيط جداً. سينظر إليك على أنك خفيف العقل. ولا تفتخ مجالاً لجماعة سكوراتوف ليتخذوك محادثاً. هؤلاء أيضاً ما في قلوبهم غير ما على ألسنتهم. المهمة التي أرسلك والدنا من أجلها أهمّ ما أمامك فتابعها! أنا تكلمت مع ابني وأخي وأختي. والآن دورك.

- لا تقلقي يا ألتنجاج. وأنا لست ساذجاً فأشرب الماء من أنفي. ولا أجهل أين أتظاهر بالجنون، وأين أعمل عقلي.

لم يكن القيصر يهمل ضيفه، ولكنه يعرف أنه سيشعر بالارتياح إذا كان معه أشخاص من قومه، فأمر سكوراتوف:

- استدع لي ابن الأمير شبق، والأمير دودارقوه، وأرفقُ بهما بعض الشراكسة إن رأيت ضرورة.

- الآن حالاً أيها القيصر العظيم، - تراجع سكوراتوف لا يكفّ عن الانحناء، وسأل نفسه مغتاضاً: " ما الذي رآه قيصرنا في هؤلاء الشراكسة؟! لا يرفع نظرة المودة عن ضيفه الجسيم وكأن أمامه فتاة جميلة. وأما نحن فأهملنا ".

أدخل كتاق ودودارقوه إلى القاعة الكبيرة حيث نُصبت المائدة، فلم يعبأ مامسرقوه بتحيتهما. وتفحص كتاق وغشوناي بدقة، ولكن لم ير في أيٍّ منهما ما يُريه. ونظرت ألتنجاج سراً إلى أختها، ووزّعت غشوناي نظراتها بالتساوي على دودارقوه وكتاق ومن معهما من الجنود، وعادت فتوجهت إلى زوجها ولم تُلقِ نظرة خاصة على أي منهم. اطمأنت ألتنجاج في هذه اللحظة. ورأت في كتاق من النظرة الأولى حرارة عاطفته السابقة نحو الفتاة التي أعجبت يوماً ما. ولكنه استطاع، على عادة والده، أن يضبط عواطفه ويكبتها. وبهذا ارتاح مامسرقوه أيضاً من وساوسه.

عاد إلى المائدة نشاطها. ومتى ملّوا من الطعام والشراب وضع القيصر آله الموسيقية في حضنه، فعزف بأصابعه النحيلة ألحاناً جميلة. وغنى بأعلى صوته أغاني روسية.

لم يترك القيصر مكاناً في الجوار لم يصطحب إليه الضيوف. وخرج معهم بضع مرات إلى الصيد. وكلف طوال تلك المدة سلطان وكتاق ودودارقوه بمرافقة مامسرقوه، محاذئين له. وما يثير فضول الضيف أكثر من كل ما رأى في استراحة القيصر هو المدافع وذخائرها ومصانعها. تفقّد المدافع، واختبر القذائف بيده قائلاً في نفسه: " لو كان عندي مدفعٌ من هذه لفرضت هيمنتي على أبشق وإخوته حتى كتمت أنفاسهم ".

أصطحب مامسرقوه بضع مرات إلى موسكو برفقة الشراكسة والروس. ونزّهوه في الكرملين. وطيف به في جناح القيصر وجناح أخته. وأزوه كنيسة فاسيلي

بلاجين. ثم جاء مع القيصر إلى موسكو فجال على الكرملين مجدداً. رأى القبو، والقفص الذي يضم دَين. وسأله مع ابتسامة تدل على نشوة خفيفة:

- هل أنت مستعد لمصارعة الدب؟

- وما المشكلة؟ أصارعه! أنت صارع الدبة الصغيرة، وأنا أصارع الدب الكبير.

- ضحك مامسرقوه كمن لا يعبأ بالأمر.

- لا، الدببة تمزقك. الأفضل أن تصارع رجالي الشُّجعان. - تراجع القيصر، ولكن لم ينس إقامة المصارعة التي تسره من أعماقه.

اجتمع كثيرون في النهار. واحتشدوا حول الحلبة، وجلس القيصر على منبره المعهود. هزم مامسرقوه الشاب الضخم الأحدث منه سنًا. وصرع بسهولة الآخر الأقصر من سابقه والأثخن رقبة. غير أن القيصر همس في أذنه:

- دُع من سيصارعك الآن يصرك!

- إن غلبني...

- لا، ليس بينهم من يقدر عليك. هل تريد إهانة الروس كلهم؟ لا مشكلة في هذا؛ أتركه يغلبك! وسينصرف الناس لا يسعهم العالم من الفرح.

نقذ مامسرقوه رجاء القيصر. ولكنه خرج من الساحة مغلوباً بالشعور بالإهانة. أصرطحب مامسرقوه قبل أن يُكمل ثلاثة أشهر من إقامته ضعيفاً إلى بسكوف ونوفغورود. ورافقوه إلى ساحات حرب ليفون ولكنه لم يدعوه يشارك فيها. ولما عرض عليه القيصر زيارة فولوغدا التي يحبها القيصر لم يقبل:

- كفى ما أرينني إياه يا صهرنا، قيصر روسيا العظيم. حياك الله، كرمّنتي. أنا ممثّل لك. رأيت ما يكفي لأسرده متى عدت. والآن يسرّني، إذ حان الوقت للعودة، أن تُرفق بي الجيش الذي رجاك من أجله الوالد.

وفي القيصر بوعده: في الشهر الأول من خريف عام 1565 اتخذ مامسرقوه طريقه إلى القبرتاي. وركب معه في السفينة الشَّماس الذي عينه القيصر رجيفسك ماتفي. وامتلاّت السفينة الأخرى بالرماة والقوزاق. وفيما هم ينحدرون نحو نهر الفولغا وصلوا إلى أستراخان. ووصل إليها الجيش الذي يقوده داشكوف إيفان على الأقدام بعد شهرين من العام الجديد. فلما التقى الجمعان

دخل مامسرقوه بهما إلى أرض القبرتاي ناشراً الفرخ بين أنصاره، والرعب بين أعدائه.

...

أُعلن عبْر أجراس كنيسة الكرملين عن انتهاء شعائر يوم الأحد.
وخرجت ماريا زوجة القيصر برفقة امرأتين من النبلاء مقربتين منها من كنيسة
وسبين، وعادت إلى غرفتها.
واعترضها فجأة على الطريق كتاق.
اختلجت كتفا زوجة القيصر من تحت غطاء الرأس الكشمير، وأسبلت جفניה.
وكلما مضى الوقت ضاقت المسافة بينهما.
وقف كتاق جانباً مسبلاً ذراعيه وحيّاً زوجة القيصر.
وردّت الأخرى متمهلة، بتحية قيصرية، وبصوت وقور قلق:
- صباح الخير أيها القائد ألكسندر.
- حياك الله يا زوجة القيصر ماريا.
التفتت غشوناي. كانت المرأتان المرافقتان له تتحدثان جانباً.
- ظننتك ستقول لي: "حياك الله يا غشوناي"، - حنت رأسها قليلاً تريد أن
تحفي عنه ما في وجهها من فرح وخجل ومشاعر أنثوية.
- لا يليق بجندي عادي أن يخاطب زوجة القيصر باسمها قبل الزواج.
- نعم، نعم، لا فائدة من إعادة ما أمر الله ألا يعود إلى الأبد، كما هو حرام.
ما أحوالك أيها الجندي؟ وما أخبار أهلك؟
- كلهم بخير يا سيدة البلاد. الله يشملنا بعطفه.
- بلّغهم تحياتي، وبلّغ أرض الأديغة سلامي.
- حياك الله وحماك، أنت والقيصر العظيم.
تبادلا تحية متحفظة، وافترقا.
في جبال أرض الأديغة أماكن، وإن أردت الدقة في أرض الجانيه، متى اقتربوا من
أحدها دَعُوا إلى الله: "دعني أعبره بأمان".

يعبر الغابة طريقاً محدد تظن نفسك تمشي عليه فإذا به ينعطف فجأة فيضيق جداً. فإن كان الفارس جاهلاً، ولم يحرص على نفسه فقد يقع في الخندق العميق. ويخيل إليك أن ما يغلي في قعره جهنم ذاتها. كان كتاك في العاشرة حين جاء إلى هذا المكان برفقة عمه أقمق. وما إن تجاوز المنعطف وقد رأى هذا المكان العجيب لتوه، حتى ارتعش قلبه، وصاح بصوت طفولي:

- ياه، كم هو عجيب!

وأجابه من الضفة الأخرى، وببرة التعجب نفسها:

- ياه، كم هو عجيب!

- عجيب، عجيب... - أجابه وهو يهدأ صوتاً كأنه من تحت قبة السماء.

- ما أعجب هذا يا أقمق! - كرر كتاك متشبهاً بعرف الحصان، لا يعرف سبب خوفه.

- هذا صدى صوتك، - ابتسم أقمق. - ألم تسمعه قط؟

- مثل هذا؟ لم أسمع.

وبعدها...

بعدما تكرر الحادث مع كتاك وقد تجاوز العشرين، وكان ضيفاً في القبرتاي آنذ، رأى في الشمس الملتهبة التي تنطفئ فتاة جميلة... رأى غشوناي.

- هيه، من تشبه هذه؟ ظن صوتاً يصرخ من أعماقه.

- هيه، هذه تشبه! - كان الصوت العالي كأنه صدئ ينبعث من قلبه...

وبعدها صار كتاك يتردد كثيراً على حافة الجبل تلك، على حدود السماء اللامتناهية. يحب كثيراً أن يجلس في ذلك المكان صامتاً، ينصت إلى ما يعتلج في قلبه. ولكن لم يعد يجد فيه فرحة كبيرة، ولا ما يدعو إلى العجب كما في الماضي...

وها هي الآن، لحظة تتراعى أصوات الأجراس إلى عنان السماء يوم الدعاء إلى الله، غشوناي جميلة في الكرملين. جمال جدير بالتعجب، ولكنها الآن زوجة سلطان. انتهت غشوناي زمان.

II

جلس أبشق في المضافة ولم يماطل في مهمته:

- أنت وأنا يا أمير مربوطان الآن إلى عربة واحدة. كلانا مهموم بأديغيتيه، ويبدو ظاهراً أننا نجرها معاً، ولكن السوط الأديغي - الروسي يجلد ظهري أكثر ما يجلدك.

- أياكون من يعرفون هذا منك يظنونك تغشني؟ - فهم شبق مغزى الكلام ولكنه مازح ضيفه باسماء.

- وليس هذا مستبعداً يا أمير. متى كنت مربوطاً مع غيرك إلى العربة فما أسهل أن يقع السوط على ظهرك. ولكني أحتك بهم أكثر في ناحيتنا، ولذا أظنهم يظلموني من وراء صدقي واستقامتي. وأنت لا تجهل هذا بالتأكيد. نشر الأمير تيمرقوه الروسي الوجه جيش أسياده مستفيداً من منصبه ومن صهره. ما إن نتفوه بما لا يعجبه حتى يقابلنا بصدر حصانه، ويشهر علينا سيفه.

- ما الذي يساوي بين الراكب والراجل يا أمير؟! - تنهد شبق يعرف ما يعانيه هو، - أنت وأنا مربوطان كما قلت إلى عربة الأديغة. إذا كان السوط الأديغي - الروسي بدأ يجلد ظهرك الآن فمنذ زمن بعيد يصتر على ظهري السوط الأديغي - النغوي، والسوط الروسي - التركي. ولكن في الحقيقة رضخت إذ اقتنعت أنه لم يجر علي ما لا أستحق.

- لا يا أمير، لا. إن قلت أنت هذا فماذا سيكون مصيرنا؟! - نظر الأمير أبشق ساهماً في وجه المضيف، والتفت إلى أخيه الأصغر جانسخ وإلى ابنه قازي. وتابع عتابه: - إن حثت الحصان مقتنعاً برأيك فلا تشد الزمام. كل يوم تتعقد المسألة الأديغية. ما إن نمسك طرفها حتى ينتزعها منا غيرنا أو يعقدونها لنا. إن لم نبق على رؤوس إخوتنا الصغار وأولادنا وساعدناهم في جر المسألة الأديغية فما فعلناه وما عشناه عبث في عبث. وكما كان والدنا يقول، - نخض أبشق قليلاً احتراماً لمن ذكر اسمه ففعل من في المضافة مثله. - متى انطفأت نار الموقد فأول من يقصدونه طلباً للنار هو الجار.

- هذا صحيح يا أبشق، كان والدك الأمير قايت رجلاً حكيماً فطيناً، فتح الله له باب الجنة حيث رحل، وكان قال لي مرة الكلام ذاته. أذكر كثيراً قولي له: ما

العمل إن لم تجد ناراً عند الجار القريب لسبب من الأسباب فلا بد من أن تقصد البعيد.

- ربما كانت زيارتك إلى روسيا وإحباطك من قَبيلهم هما ما يُدْكَرَانك كلام والدنا. ما أملنا؟ دنينا دنيا عارية، لا تعرف الخير إلا أن تجرب الشر، كما يقال.

بدا من لون قامبولت الواقف إلى قائمة الباب استياؤه من كلمات الضيف المبطنة حتى غيّر وضعية وقوفه. ونظر إلى والده مهموماً بما سيجيب به، وقال لنفسه: " لماذا يناور هذا الرجل؟ فهمنا ما يريد فليقله وكفى! ووالدنا يحب جداً لعبة الغمضة. وعمنا يهز رأسه مع الاثنين فلا تعرف من يوافق. أنا أعرف من يجب أن يحاور هذين: قلقنت! هو الآخر لا أدري إن كان نسي أديغيته وحق الجار. لا يأتي وهو يعرف أن عندنا ضيوفاً... "

- ربما هو هذا، يا أبشوق، - أجاب شبق متنهداً، ولكن ليس الروس وحدهم من أحبطوني. في البداية غوي القرم، ثم تركيا، وفوق كل هؤلاء أعداء الروس من الأديغة. والآن حرمت أمري وتقاعدت فتنفست من جديد.

- نعم يا أمير، هل تقصد أنه لم يبق ما يُقلقك؟ - تظاهر أبشوق باستغراب ما يسمع. ونظر في وجه أقمق الذي لم تختلج عضلة فيه. وسأل ابن المضيف: - هل تصدّق طريقة تقاعد والدك يا قامبولت؟ هل أنت من بين من نصحوه أن يرتاح في شيخوخته؟

- كيف أقول هذا لأمر الجانيه الكبير يا أمير؟!

- تخاف منه أم تتحرّج؟

- أليس والدنا يا أمير فلا نخاف منه ولا نتحرج ولا نخترمه؟! ألسنا أديغة؟ ساحوني على إطالتي الكلام، لا أظن أن من اهتم بقضايا الأديغة يمكن أن يستريح. عصرنا، أنتم ونحن، عصرٌ يجب أن نجيب فيه على الأسئلة الكثيرة التي تنهض في وجوهنا للقضية. متى فوّتنا رأس الحصان لم تبق فائدة في اللحاق بذيله. نحن في مأزق...

- يا ولد أنت تتكلم كثيراً، - اعترض شبق ابنه ولو أنه مسرور لما يسمع.

- دَعَه يتكلم يا أمير، لام أبشَق مضيفه، ملتفتاً نحو ابنه قازي، يعني: هل تسمع ما يقول. - لماذا تشد اللجام؟ هذه هي أفكار من يقف إلى جانبه أيضاً. قل لي من يحرض هؤلاء؟ نحن أم عالم الأديغة الذي أطلعناهم عليه؟ أم نفني أنفسنا في ما لا نقدر عليه فأفئنا أولادنا معنا؟

- هؤلاء يا أمير أظنهم ينظرون إلى أبعد منا بعدما ورطناهم في أخطائنا معتقدين أننا نفعل الأحسن.

- هذا لأن عندهم من يحرضهم ومن يطوعهم، وما يشجعهم على التفكير. - قال أبشَق غير خافٍ ما يرمي إليه، ثم سأل: - أليس قلقت في القرية؟ كيف لا يزورنا وهو من يحارب من أجل الأديغة؟ كنا افترقنا قبل أعوام دون أن نتفق. أيكون حاملاً علي؟ لو عرفت في ذلك الوقت أن تيمرقوه سيفعل بنا ما فعل لوافقت قلقت بالتأكد... كنت نصبتك أنت أو ابن إيدار نفسه سلطاناً... والآن ترون بأعينكم ما جرى لكم ولنا. روسيا تحشد في القبرتاي جيشاً إثر جيش. والصوت الروسي يغلب على الصوت الأديغي. شتموا عن سواعدهم وسوقهم، وبنوا في ثلاثة أشهر قلعة في ملتقى نهر سونج بنهر ترج. وسموها اسماً غريباً.

- سموها تيريك، - حدده قازي الواقف إلى جانب قامبولت.

- انظر الاسم الذي وجدوه له، - سأل أفمق مستغرباً الاسم: ما معناه؟

- سأقول لك يا أخي معناه، - ابتسم شبق، - الروس سموّوا ترج بتيريك. وإن لم أخطئ فهو اسم شخص.

- لم تخطئ يا أمير، - لم يستطع جانسخ الذي كان يرفض الاسم إلا أن يتدخل، - أحاطوها سريعاً بجدار عالٍ. وترفع الكنيسة أعلاها. ومدافعها مصوبة في كل اتجاه. وتغص بالنبالين والجنود. وألقوا أغنية لمدينتهم يصرعون بها الجوار في المساء: "تيركي لنا تيركي".

- والله إن الروس عرقٌ عجيب... - خطر كتاك لشبق فجأة. - يجبون تغيير اسم ما ليس لهم. لا بأس بما سموّوا به ترج. انظروا ما سموّوا به أعوانهم: هذا ألكسندر، والآخر ميخائيل. وإيفان وفاسيلي وغريغوري. وسمّوا زوجة القيصر ماريا. وقد عمدوا هؤلاء ولكن هل عمدوا نهر ترج أيضاً؟ وبدلاً من أن ينادونا:

الشركس، ينادوننا: شاركاس، وبدلاً من بِسْلِمَن¹: باسورمان. مهلاً، متى كان الإنسان غاضباً سهل عليه الاتهام الظالم: أَبْقُوا على أسمائنا.

ضحك أبشق من أعماقه، وفَسَّر سبب ضحكته:

- أَبْقُوا على أسمائكم لأنهم يتوسلون إليكم...

- القيصر صهْرُ تيمرقوه ولكن ما علاقته بي؟ - كان شبق رفع حاجبيه ولكن سرعان ما دفعه السؤال القادم إلى خفضهما.

- أليس ابنك الأكبر من قادة جيشه؟

- كان إلى الآن من جنوده العاديين، - قال شبق بصوت خجول، ثم تفقد أخاه وابنه بنظرة قلقة سريعة وسأل: - لا عِلْم لنا، وأنت من أين سمعت؟

- جاءنا به مامسرقوه الذي أتى بالجيش من موسكو. سحبوه من الجنود العاديين، بوساطة من ابنتهم زوجة القيصر، وألحقوه بسلطان، ما اسمه الروسي، نسيته؟

- ميخائيل، - ذكّر قازي والدّه.

- نعم، نعم، فألحقوه بميخائيل معاوناً. وما يُدرينا نحن إن كان خيراً أم لم يكن. وأخبروا أنه قَرَبه إليه يعتني بأمره.

تظاهر شبق أنه لم يفعل لِمَا سمعه، ولكن عبارة " وما يُدرينا نحن إن كان خيراً أم لم يكن" الآتية في عُرْض الكلام أغاظته من جديد فتألم قلبه. وكان من يعرف الموضوع هو أخوه أفمق فنظر إليه من طرف عينه، ولكن لم ير فيه ما يُريه. وبدا على قامبولت رضاه إذ كان يعتدّ بما تحقّق لأخيه.

تمكن شبق من احتواء ما ثقل عليه: "هذا ما حدث" ولكنه لم يستطع إطفاءه تماماً: " هذا يتلهف والآخر يتألم قلبه والثالث يقرص، ويشيع أخباراً سيئة... أنا غضبت، ولكن ربما لم يقل ضيفي ما قال عن كتاك بسوء نية. من يعرف ما سيجري للولد البائس؟ هؤلاء لا يزالون شباباً متحمسين... ليتهم لم يسببوا لهم الارتياح فيهم وهم يجتمعون بدافع من تعاطفهم الأديغي. لا داعي للمثول كثيراً في حضرة زوجة القيصر حتى لو لم تكن أي نتائج سلبية... وتيمرقوه ليس

¹ الاسم الدارج للمسلم عند الأديغة إلى يومنا.

صالحاً ؛ مضى على عودة مامسرقوه من موسكو نصف عام ولم يُخبرنا بشيء عن كتناق. لا ألومه على عدم إرسال فارس لإخباري، ولكن يأتي فرسان كثيرون من تلك الناحية. ماذا منعه من أن يرسل مع أحدهم خبراً عن ابننا؟.. كيف تفهم الآن الخبر الذي حمّله من لا يودني ولا يوده؟ لابد أن أرسل أحداً إلى موسكو يأتيني بالخبر اليقين؛ فمن عندي أثق به؟ أعمق! سأتابع الموضوع بعد أن نعود من رحلتنا أنا وأبشق إلى القرم والتقائنا فيها بسلطان تركيا. والحقيقة لولا السلطان سليمان ما زرت القرم. لم تقع عيني عليه بعدما تقاسمتنا صهرنا الروسي وصهرنا التركي...". وحين تذكر شبق أن دولت - جري أيضاً صهرٌ للأديغة انفجر ضاحكاً حتى لفت انتباه كل من في المضافة.

- ما الذي يضحكك يا أمير؟ - سأل أبشق.

- تذكرتُ أصهار الأديغة - كل أصهارنا: السلطان التركي، وخان القرم، والقيصر، يهاجمونا.

- صحيح والله يا شبق. ملاحظتك دقيقة. - نظر أبشق من وجهه الذي أكسبته الباخسمة نضارة، وأضاف رأيته، - ولكنك بالغت في مهاجمة سلطان تركيا وخان القرم. أوافقك بلا أي تردد ولو كان سلطان ابن آل إيدار مع ابنك.

- وهل أمدحه إن كان ابني معه؟ - تكلف شبق الحلم ولو أن تعريض ضيفه أسخطه، وأضاف إلى كلامه: - يمكن الحديث عن كلٍ منهم على حدة تبعاً للرأي الشخصي فيهم.

- وهذا أيضاً صحيح والله. - تظاهر أبشق بالتراجع عن كلامه.

- ولكن بالنسبة إليّ - اختتم شبق ما بدأه غير عابئ بتراجع الضيف، - أعربتُ عن رأيي، والثلاثة ليسوا صالحين.

- أوافقك يا أمير، أوافقك، - قال أبشق ما يريد متظاهراً بإدانة نفسه، - من حالقناهم مسلمون على أي حال. ثم أريد أن تصفّو قلوبنا نحوهم يوم اجتماعنا بهم.

قطع صوت الباب كلام أبشق، ونهض، تبعاً للعادات، كل من في الغرفة لقلقت الداخل بضخامة.

- لمن أنهض إن لم أنهض لقلقت؟ - ابتسم أبشق واقفاً للزعيم الفلاحي.
- تفضلوا اجلسوا، لا يقوم الأديغة عن المائدة، - لا يرى قلقت نهوضهم من أجله لاثقاً. - صافح أكبر الضيوف سناً: - أهلاً بالأمير أبشق. عدتُ توأً إلى البيت فأخبرت أن لشبق ضعفاً كبيراً، فجئت. - أجلسوه بجانب الضيف خلافاً لتراتب العمر فلم يستطع إلا أن يرد على كلمة الأمير أبشق: - يا أمير، سامحني ولو أنك ضعيف، ولا أقصد تعليمك العادات، تقول أديغيتنا: عليك المساواة بين كل من تتعب لأجلهم. حين جئتُ إلى نواحيكم قبل أعوام كان والدك، أسكنه الله الجنة، احترمني وعاملني بإنسانية. وهز رأسه بخفة تحيةً لمن كانوا يخدمون المائدة.

- أفحمتني هذه المرة يا قلقت، أمسكت بي من يدي التي تؤلني. برأ أبشق نفسه مازحاً وما في قلبه غيرُ ما على لسانه. تعرف ما في قلب كل إنسان من وجهه. وكان والدنا من هذا النوع. كان يكشف السر الذي تودعه أعماقك. وكان سلّم الإمارة الكبرى للقبرتاي إلى تيمرقوه حين انتهت ولايته، ولو ظلّ قائدنًا لما وقعنا في مصائبنا الحالية. ولم يكن والدنا عدواً لمشروعكم يا قلقت. ولكنّ تنافر القوم أفناه. وما يجري معنا اليوم ترونه عياناً. ولكن لا داعي لليأس. ما نحيا لأجله، أنتم ونحن، هو قضية الأديغة. سلّموا علّمكم إلى أمير حكيم مثل والدنا يجمعكم. وأنا قررت أن أقف معكم متى عدنا من القرم.
- إذا كنت تنوي هذا يا أمير فلماذا سفرك أنت وشبق إلى القرم؟ - سأل قلقت الضيف بصراحة جارحة.

كان شبق معتاداً على أسلوب جاره فأخفى عدم ارتياحه. أما أبشق فقد رفع حاجبيه الأسودين ومازحه:

- يحتاج سؤالك إلى وقت خاص للإجابة. أخاف إن فكرت بالإجابة أن يمتد الوقت كما في قضايانا المتشابكة. لاحقاً يا قلقت، سنجلس متى عدنا من القرم، ونسمع من كلّ ما في نفسه. ونفكر معاً في الطريق المقترح. والآن إن لم نستجب للدعوة فهذا عيبٌ بحقنا. إن عرفت ما في قلب عدوك وصديقك سهّل عليك طريق المستقبل.

...

ليس الشهر الأول من الشتاء في القرم بارداً. الشمس تشرق ولا تؤذي، وما يدخل منها عبر نوافذ قصر الخان لا يكفي. أغلب ما يدخل من النوافذ يضيع في الستائر والبُسط المزخرفة على الجدران. على المائدة المستديرة البارزة من الظلام، والحافلة بأنواع الفواكه والشراب، أربعة أشخاص ليس في الغرفة غيرهم: السلطان سليمان والخان دولت - جري يجلسان متقابلين، والأميران شبق وأبشق كذلك. مضى نصف النهار ولكن أياً من الأربعة لم يمد يده إلى شيء مما على المائدة. اللغة الأديغية التي وضعتها أمه على لسانه كافية لإفهام الأميرين. وما لا يفهمه دولت - جري يترجمه له الأمير أبشق بحماسة. السلطان الذي بادر بالكلام أطال الحديث، والآخرين ينصتون وكلُّ محتفظ بأفكاره وآرائه. وأكثر ما يشغل حديث سليمان دون خبث ودون إهانة هو ما جرى في الجانيه من أحداث. واعتبر اعتذار شبق عن الخطأ الذي ارتكبه بتقريبه من الروس، وعودته إلى التحالف مع المسلمين، ومحاربته من جديد في بولونيا وليفونيا ضد الروس بطولاً وعدالة. ولكن لميح له إلى عدم قدرته على ضبط ابنه.

- من لا يجوز البتة في عصرنا هذا أن يرفع رأسه، - قال سليمان بثبات، - هو المدعو قلقت الفلاح الناشط في الجانيه. وليس في الجانيه وحدها بل تصلنا أخبار مزعجة مفادها أنه يجمع الأديغة كلهم. وفي هذا لست على حق يا أمير، وتُبدي نحوه ليونة. وتتجاهل أفعاله. أنت من سيندم قبلنا. متى تجرأ عليكم الحفاة ونهضوا سحقوكم. متى نجمت العشبة الضارة من الأرض وجب استئصالها من جذرها.

- وهذا رأيي أنا يا موفد الله - وافقه أبشق، وهزّ دولت - جري رأسه. قال شبق في نفسه محاججاً أبشق: "هل نسيت تعهدك بالانضمام إلى قلقت متى عدت من القرم؟، ما تقوله اليوم تنقضه غداً. من تتملقه ليس من قومك ولا من بلادك؟ فماذا تتأمل منه؟.."

- لا تنس يا أمير الجانيه أنك حتى لو عدت إلى طرفنا فإن قيصر الكفار ما يزال يحتفظ عذبا في ذهنه بذكري إسرائيل إليه. - قال السلطان باسمًا كأن بلا حقد. ولم يتراجع الأمير شبق عارفاً مغزى الكلام:

- إن كان هذا صهرنا فأنت أيضاً صهرنا، وولدتك امرأة منا يا موفد الله.
- الصهر الكافر أقرب إليكم. - الآن ضحك السلطان من قلبه. وبرهن على كلامه في شبه مزحة، - صحيح أنجبتموني، وصهركم، ولكني صاهرتُ غيركم بثلاث زيجات أخرى. وأعيش من أجل بلادي، وعندني من أتالم لأجله، فلا تتأملوا مني، لن أستطيع أن أقدم لكم شيئاً مهماً. المزاح يحبه الله، - تغير وجه السلطان بسرعة، - ولكني سأبلغكم ما يشغل بالي. لا يُقلقني الجانيه ولا البسلي ولا البجدوغ ولا غيرهم ممن قابلي. همي الكبير هو ما يجري في القبرتاي. قد تجد بين الناس من يقول: ما شأنك بهم، لا هم قومك، ولا بلادك. لماذا يستغربون اتفاقاً بيني وبين قيصر روسيا التي تتغلغل كل سنة في الأرض؟ الأديغة في تلك البقعة مسلمون أيضاً. لا شأن له بها حتى يقيم بها مدينةً قلعةً.

- صحيح يا موفد الله. الأمير تيمرقوه جرّ الروس إلى منطقتنا. ولكن لا علاقة لهم بنا. - وافقه أبشق بصوت صريح.

- لماذا لم تقاوموهم إن لم تكن لهم علاقة بكم؟ لماذا لم تحرقوا مدينتهم القلعة؟
- نفكر في هذا ليلاً ونهاراً، ولكن كيف تحارب جيشاً منظماً.

- إذا كان الأديغة تحلّوا عن شجاعتهم الأزلية فاستدعوا الخان دولت - جري!
أي كلام يائس يصدر منك يا أمير والله فوقنا نستظلّ بظله؟! ابدؤوا أنتم فحسب، وينضم الجانيه إليكم، ونحن نساعدكم فنمزقهم إرباً إرباً.

لم تفارق عبارة السلطان: " وينضم الجانيه إليكم " ذهن شبق طوال الأيام الثلاثة التي قضوها في القرم وعلى طريق العودة. ما إن يظن نفسه نسيها حتى تهاجمه كذاب الصيف العضوض. كان أبشق موقناً أن حلمه تحقق، لا تسعه الدنيا من الفرح فنفر منه شبق. وندم على مرافقته ولم يكتم عدم رضاه حين سأله:

- لا أعرف ماذا تتأمل يا أمير، أما أنا فيخيل إلي أن رحلتنا إلى القرم بلا جدوى.

- ما هذا الكلام يا شبق؟! ألم تسمع مبلغ قلقهم الإسلامي؟ قالوا لنا: الله قيوم، ونحن موجودون فلا تتراجعوا أمام الروس. لا أفهم سبب امتعاضك في ظل وجود حلفاء من هذا النوع.

- لأني شمتُ رائحة الدم يا أمير... - عبر شبق عن سبب قلقه.

- علينا أن نفرح يا أمير إذا كانوا يريدون شنَّ حرب على روسيا! سيطردون الروس الكفار الذين استُجِرُّوا إلى بلادنا ونبقى وحدنا فيها. ويستفيدون من قلقك. سنؤسس الدولة التي يحلم بها؛ ومن غيرنا، أنت وأنا، يشرفونه بمنصب السلطان؟!

- يا حسرتي ؛ هل هناك سلطنة وحربٌ سهلتان؟! إن اصطدمت الدولتان القويتان فنحن من سيُسحق بينهما... - تنهد شبق ممزق القلب، وخاطب نفسه: " كلٌّ يئنّ تبعاً لثقل مرضه. أو يغني أغنية أمله كما يريد. أخشى أن يُفنيك أملك الكاذب قبل أن تصبح سلطاناً... " وبعد ما قطعوا مسافة لم يستطع شبق إلا أن يسأل عن ابنه الذي يقلق له: - يا أمير هل كلامك عن أن زوجة القيصر توسّطت لولدنا صحيح؟

- لا أعرف إن كانت هي السبب أم لا، ولكن تعيين ولدك معاون قائد جيش صحيح.

- هذا هو؟ المهم سلامته مهما فعلوا لأجله... - نظر شبق وقد اطمأنَّ إلى الطريق البعيد الذي أمامهم.

ومن أين كان للأمير شبق أن يعرف أن القيصر أوفد ألكسندر - كتناق ليقابل أباه، وأنه بانتظار عودته...

III

فهم القيصر أن من المستحيل أن يقوم شخص واحد بأعباء حرب ليفون والأسرة وقسمي البلاد الأوبريشنا والزيمشينا.¹ وتحليل شؤون الأعداء والخونة، ولكنه لم يعرف التراجع معتقداً أن المساعدين قليلون. وأن المعرقلين كثيرون. فإذا أضيف إلى هذا كله ما زرعه شيئاً فشيئاً سنوات الطفولة فيه من الارتياب، وسنوات حكمه الصعبة من القسوة، بدا لكل المحيطين به النرق الشديد والعصبية المفرطة كما يشيع عنه أعداؤه، فيتبادل المقربون منه نظرات الوجوم. ولكن تأسيس الدولة التي يقودها، وتوطيدها، وحمايتها كان يُنسيهم كل هذا، ويُغيّر نظرتهم إليه وإن كانوا لا يودونه في سّرهم. وليس في هذا ما يدعو للعجب. متى كنت سلطاناً أجبرت الحياة أن تجمع بين القسوة واللف في كلامك.

كان القيصر يسعى إلى توطيد انتصاراته الداخلية رغم أن حرب ليفون تتأرجح منذ عدة سنوات بين النصر والهزيمة. كانت الدولتان رغم تحاُجهما من العرق السلافي لا يجوز أن تتحولا إلى أعداء، ولكن النمسا التي مصلحتها في الحرب تدخلت فتوقع بينهما. يريد إمبراطور النمسا إبعاد روسيا عن بحر البلطيق، ومنع سفنها من الإبحار فيه، وألا تعود إليها مدن ليفونيا التي احتلت، ولكن القيصر لا يعرف التراجع عن استعادة أراضي أجداده مهما حاربوه أو توسّلوا إليه. واتفأقه الوحيد معهم هو تخليه عن المطالبة بعرش بولونيا. ولهذا سخر منه أعداؤه من ورائه مدّعين أنه رضخ لهم، ولكنه لا يتنازل في موضوع البحر. وقد فهم أن العلاقة بين ملك بولونيا وإمبراطور النمسا علاقة مصلحية، وأنهم لن

¹ قسم القيصر أرض روسيا إلى قسمين: الزيمشينا وهي مجموعة مقاطعات يحكمها النبلاء، وله مجلس يسمى مجلس الدوما، ويتمتع باستقلال ذاتي، والأوبريشنا وهي ممتلكات خاصة يحكمها القيصر نفسه. وإدارة هذا القسم أوجد هيئة من الموظفين تحمل الاسم نفسه تألفت في البداية من ألف شخص، وزادت إلى ستة آلاف، ومنهم البوليس الخاص الذي كان أفراداه يلبسون ملابس مريضة ويحملون المكانس، ويجرون وراءهم الكلاب حتى سُموا بـ"كلاب القيصر".

يسلّموه كوربسك وغيره من الخونة، وأنه لا يجوز الوثوق بهم؛ فكيف تصدق ادعاءهم رغبَتهم في السلام؟

لم يكن القيصر يجهل أن الحرب مأساة تكلف الدم والدمع وتحضّ أسس الدولة التي أقامها بشق النفس، والتي ما تزال غير ثابتة الأركان، ويتساءل ليلاً ونهاراً: "هل نحن بحاجة إلى البحر الذي سيفتح لنا أبواب أوروبا أم المهمُّ إغلاق حدود روسيا تماماً أمام الأعراب؟ من يفهمني فيجيبني على هذا السؤال؟ رجال الدين؟ المطران فيليب لم يفهمني. ولما بدأ يعارضني معتبراً نفسه أعلى مني عاقبته بما يستحق فكفّ عن تعليمي. كنت أعتب على المطران مكارى ولكن من أين آتي بمثله الآن؟ وفي نوفغورود الساعية وراء الحرية قام الأسقف بيّمين الذي قلبه مع الخائن كوربسك. أسمع أنه يغتابني رافضاً الأوبريشنا والزيميشنا والنبلاء لا يريدونني مطلقاً. يتسممون في وجهي لأنهم يخافوني. أوبريشنا؟ هذا معي. لا يخالف أمرى. والنبلاء الأديغة¹، ومستثمرو الأراضي؟ والتجار، وعامة الناس؟ هؤلاء لا أعرف عنهم الكثير ولو أنه عيبٌ عليّ، فهم أساس البلاد وقوام حياتها. لا أعقد اجتماع اليوم من أجل الأمراء والنبلاء والمحيطين بي ورجال الدين المغرورين. هؤلاء أمامي كل يوم يتملقونني، ويكذبون عليّ. بل أريد معرفة رأي عامة الناس المتنوعين الآخرين. وإن اقتضت الضرورة فهؤلاء من سيحاربون أعدائي السريين والعنليين. سنرى ما يجري..."

بقي القيصر في الفراش منذ أن أفاق في منتصف الليل. تَفَقَّد الغرفة المظلمة فلم ير فيها شيئاً. يشعر من الضوء الخافت الذي يعبر النافذة بأنه يفيق باكراً جداً. ومتى أطبق جفنيه عادت الأفكار التي لا نهاية لها فهاجمته: "اليوم سأأخذ قرارى بشأن الحرب حين أتكلّم في اجتماع مجلس زمسكي². وإن قالوا لي: "أوقِفِ الحرب، وأعدّ أراضى أجدادك التي استرجعتها منهم؟" فهل أفضل التخلي عن الحكم على أن أسمع منهم هذا الكلام. إن لم يحدث هذا فستجّه، كوشيني

¹ من يُعرفون في لغة الأديغة بـ "وَزَق". وهم طبقة أدنى من طبقة الأمراء.

² هو الهيئة النيابية العليا في روسيا القيصرية في القرنين الساس عشر والسابع عشر، وتتألف من مجموعة من النواب ينتمون إلى مختلف الطبقات.

وأنا، إلى بلاد الشركس. سنستريح في الجبال بين الصيد واستقبال الضيوف دون مناقشات وجدالات... — جعل الأمل الكاذب القيصر يسخر من نفسه. — هل يرحب الشركس بي إذا ذهبت إليهم غنياً، قيصراً دون عرش؟ وهل أمورهم المتداخلة أحسن من أمورنا؟ هل يمكن لموفدي إلى أمير الجانيه أن تنجح مهمته؟ كيف سيتعامل معه الأمير شبق ومن قيل إنه زعيم الفلاحين؟ مهمته فيها فائدة له ولنا... والسلطان التركي يرسل إليّ كل بضعة أشهر يطلب إزالة المدينة القلعة. سينتظر طويلاً إلى أن أغلقها... القضية الأهم إلينا حالياً هي حرب ليفون دون أن يعني هذا إيقاف مشاريعنا في بلاد الشركاسة..."

أزاح القيصر اللحاف الرقيق عن جسده، ووضع الرجلين البارزتين من تحت الجلباب على السرير. أشعل الشمعة دون استدعاء الخادم ووضعها أمام صورة الإله. ودعا إلى الله أن ينجح اجتماع زمسكي اليوم. ثم انصرف عنها ونظر نحو غرفة الزوجة. وأنصت لعلها أفاقت إذ خطر له أن يسامرها. ولما فتح الباب السري للزوجين لمعت الشمعة في عينيه. كانت ماريا أمام الأيقونة ترتدي جلباباً طويلاً مفتوحاً، والشعر الطويل الكثيف ينسدل على ظهرها. ولما انتهيا من الدعاء حضن المرأة وهمس لها:

- ألا تنامين أنت أيضاً يا حمامتي الصغيرة؟
- كيف أنام وزوجي لا يطرقه النوم يا حي؟ ردت ماريا هامسة بصوت يذيب القلوب واضعة أصابعها الدافئة على الشفتين اللتين امتدتا له. — عيبٌ أن نفعل مثل هذا أمام صورة الإله...
- حين صارا في الفراش سأل القيصر ماريا ورأسها الجميل على صدره:
- هل تحبيني إلى هذا الحد فتشعري بأرقي؟
- من يتقاسم الوسادة عن حب يعرف أحدهما ما في قلب الآخر.
- إذن أنت لا تنسيني.
- هذا ليس مجرد كلام، بل شعور حقيقي. فرحك فرحي، وحمك حملي.
- على كتفي الصالح والطالح؛ فكيف تقاسميني الحمل؟
- إن لم أحمل معك كل نوع من الأحمال فكيف نترافق؟ إذا كانت آهتنا جمعتنا دون معرفة أحدنا بالآخر فما على جباهنا، وما سيكون، واحدٌ.

- ولكن أعدائي يصفونني بالظالم مهما فعلت من حسنات.
- لا أرى ظلماً في حماية أسرتك ومنصبك وبلادك، ومجابهة من يُشهر عليك
السيف. لو كنت رجلاً لفعلتُ مثلك. ومن هذا القبيل قول الأديغة: " مُدَّ
يدك إلى روح من يمد يده إلى عينك!" لا تتراجع إن كنت عادلاً. وأنا أدمعك
وإن وقفت وراءك. إن تصرفتَ على نحو صحيح تصرفتُ معك، وإن أخطأتُ
أخطأتُ أيضاً. وإصلاح الخطأ رجولة.

- الآن أفهم يا كوشيني لماذا يَحْمِلُونك مسؤولية كل الأخطاء التي يتهموني بها.
- سأقول لك إذ بادرْت: يقولون إني أدفعك إلى ارتكاب كل الأخطاء التي
تجري في البلاد. ويُحِيل إليهم أن من اقترح فكرة الأوبريشنا والزعمشينا هي
زوجتك الشركسية المتمردة. يغتابني من لا يعرف قومي بأني غرستُ فيك
طباعهم المتمردة؛ الله يبني وبينهم! كيف تحاسب من لا يرى أبعد من أنفه؟ لم
يكفّ النبلاء مهما نصحتهم عن ألا يمسخوا أفواههم بأطراف أكمامهم من
كسلهم حتى منعتهُم.

- حياك الله يا كوشيني على أنك فهمتني وتشقيت لي من أعدائي النبلاء. لم
ألتق في حياتي بامرأة عندها مثل هذه الأقوال الصائبة المفيدة.

- لن أسمح لك بهذا الكلام، - تنهدت غشوناي، - وأنت الزوج السابق
لأنستاسيا التي يذكرونها بالخير إلى الآن؟

- لا تدعينا نتكلم على أنستاسيا!.. - أخفى القيصر ألمه، واستدرك بعد
سكينة قصيرة: - ليس لأنها كانت سيئة، عشنا معاً ست عشرة سنة. وكانت أمٌ
ولدي... فَرَّقَ أعداؤنا بيننا... سمعتُ غشوناي بأذنيها نبضَ قلب زوجها فندم
القيصر على الحديث الذي بدأه. وقتت قلبها ما سمعت: لا أريد أن أقارن
بينكما ولكن لا أستطيع أن أفعل هذا حتى لو أردتُ. تتشابهان في طباعكما
ومحبتكما، وإنسانيتكما يا كوشيني. ولكن، بما أُنِي بدأت الحديث، سأقول لك
الفرق بينكما: يعزز قوتي موافقتك لي في شؤون البلاد، لا في أمور الأسرة
فحسب، وتصديك للأعداء. تعرفين أُنِي أعيش من أجل البلاد التي ورثتني إياها
والدي وجدِّي، وأُنِي أود أن أعمل لأجلها. أنا راضٍ عنك يا كوشيني. -

انقلب القيصر على جنبه وضَمَّ إليه غشوناي بكل حرارة. وهمس لها وقد تنفس الصعداء مما تخلص منه من هموم: - أحبك. لماذا تبتسمين؟ ألا تصدِّقين؟ - لأنِّي تذكرت ما رأيته منك في الخريف الماضي... - نظرت غشوناي إلى زوجها بحياء.

- ما المضحك إلى هذا الحد؟

- لم يكن في ما فعلت حرجٌ يا رُوحِي الوحيدة. ولكن أرجوك ألا تكرره.

- دَكِّرْني إذن بما أضحكك!

- لم يكن مُضحكاً يا حيي، جلوسك أمام يوليانا على ركبتيك.

ارتعب القيصر مما سمع، وصعد الدم إلى رأسه. وبدأ بعضَ الحديث راغباً في تبرئة نفسه. ولكن غشوناي وضعت أصابعها على شفتيه فلم تدعُه يُكمل. وترددت في أذنها كلمات الحب العميقة التي وجهها إلى يوليانا، ولكنها لم تعيِّرَ بها. بل قالت له تدلِّله: - لا، لا، لا تقل شيئاً. كنت سمعتُ كل شيء. ولكن هذه مرحلة من حياتنا مرت. لا عتبَ لي على يوليانا التي كنت تتوسل إليها. لولا أن هناك وازعاً ما عندها لما التحقت بالدير، فاعتبرني لم أر شيئاً ولا أعرف شيئاً. وهذا من أشدَّ ما أثر فيَّ بعد وفاة صغيرنا. ولذا أعدك ألا أذكره لك مرة أخرى.

- ساحبيني يا كوشياني. - توسل القيصر بعدما جلس لأياً متردداً. ثم قَبِلَ جبينها ملاطفاً إياها، ولمس شفتيها. وهمس في أذنها: - شكراً لك، هذا ما أحبك من أجله يا حبيبتي.

- وأنت ساحبني يا رُوحِي الوحيدة. لم يكن من داعٍ لأذكركَ بها في يومك هذا الحافلٍ بالمهام. لا تتراجعُ مهما سلك النبلاء معك؛ أنا معك. التصقت به غشوناي بجسدها الرقيق الدافئ.

موسكو مزدحمة في الصباح المقرر لاجتماع المجلس. لا لأنَّ الناس نزلوا إلى الشوارع رفضاً له، أو لأنَّ ربح الربيع العنيفة تعبت في العالم. الحانات مغلقة. والملاهي لا تعمل. ولم يُسمح للمسلحين والمتسولين والمحتجين أن يقتربوا من حدود الكرملين، بل أن يمشوا في الشوارع القريبة منها. أعلنت الأجراس لأهل المدينة قُرب موعد الاجتماع. والمنادون على تقاطع الشوارع يلهجون بالثناء

على القيصر. ويشيدون برجولته وطيبته. والمنادي القريب من نافذة القيصر لا حدود لكلماته الجميلة.

ألبست كوشيني - غشوناي زوجها دون أن تدع المهمة للمسؤول عن ملابسه في المناسبات. ثم سأله وهي تتفقدته وتبتسم له:

- هل تسمع كلمات المنادي الجميلة بحق قيصر روسيا كلها؟

- يكرر ما قيل له فحسب، - تظاهر القيصر بممازحة زوجته وإن كان مسروراً

مما يسمع ومما قيل له. - ليس هذا المهم بل النبلاء الذين سينظرون إليّ شزراً... رفاق المطران يمين الذي جئت به من نوفغورود، كانوا رجال دين عاملين مع رئيس الأساقفة أفاناسي الذي عزلته قبل وقت قريب... ووشاة الخائن كوريسك. ادعي لي يا كوشيني المخلصة أن يتحقق لي شيء مما أتمنى.

- حقق الله نواياك الحيرة، ونصر حظك على حظوظ من لا يُكْتَنون لك المحبة.

- رسمت غشوناي الصليب على زوجها، ولمست وُجْته بنعومة. ورسمت الصليب ثلاث مرات في إثر الرجل المنصرف حاملاً قلبها.

أدى رئيس الأساقفة فيليب الصلاة التي يساهم فيها القيصر مع كل الموفدين قبل افتتاح الاجتماع. ثم توجه المجتمعون إلى القاعة الذهبية. وجلس كلٌّ في مكانه المحدد بانتظار القيصر. ولما أطلّ نَحَضُوا له وانحنوا. ثم جلس قريباً منه، على مقاعد أخفض، أخوه وولده إيفان وفيدور. هدأت القاعة الكبيرة باستثناء بعض السعالات. وأول من لاح لعيني القيصر هو رجل الدين يمين. ثم زعماء الزيمشينا شلياندين فيدوروف، ومستيسلافسك بيلسكر. ويبدو في وجوه النبلاء والتجار والمتنفذين أصحاب الأراضي والعسكريون المختلطون برجال الدين، وصُنَاع السلاح والمزارعين، الحب الذي يُكونه للقيصر. ويظهر في الصورة بعض الأغنياء الذين ينظرون إليه شزراً. فيبادلهم بنظرة كراهية. لا يستعجل على الكلام، يجعلهم ينتظرونه، فيُفرغ صبرهم.

- جمعتمكم اليوم لأساهم بقولي وفعلي في أمورك. - قرع القيصر الأرض بعصاه الذهبية وأكمل، - أريد أن أعرف اليوم إخلاصكم لروسيا المسيحية التي بوأني الله حكمها. ولكن سأتكلم قبل هذا على الأوضاع الداخلية والخارجية. سأبدأ بالنبلاء. أنتم، إن كنتم تتذكرون، من دفعوا بي إلى الهيام على وجهي. ويعرف

المقصودون أنفسهم وإن لم أذكر أسماءهم. هؤلاء لا يهتمون بالبلاد. ولا يثمنون قيمة الحكم. لا همّ لهم إلا مصلحتهم. يستقلّون ما عندهم، ويجمعون ما ليس عندهم. ينسون أن يدفعوا الضريبة التي هي قوام الدولة، وبدونها لا جيش ولا سلاح. وإذا أمرتُ باعتقالهم قابلوني بالاحتقار والكرهية. وإذا حكمت على الخونة بالإعدام سمّوني بالقاتل. ولو لم أفكر في هذه القضايا وأعمل من أجل الدولة لكانت بولونيا والقرم والنمسا احتلت أرضنا منذ زمن بعيد. ومن لم يتفهّم هذا فلا يقفْ أمامي قائلاً: أنا روسي! هذا أولاً. وثانياً: يحدث ألا تنقذ أوامري داخل الدولة، كما هي الحال في تول وبسكوف وسمولنسك وغيرها... وعلى سبيل المثال أرسلت إليهم مرتين أمراً بإقطاع بعض الضباط الشراكسة أراضي فتجاهلوا الأمر! وأرسلت إليهم للمرة الثالثة فإن لم ينفذوا فالعقاب. لا أحسن إلى الشراكسة بالأرض وبالسلاح لأنهم أنسبائي. نحن بحاجة إليهم لحماية حدودنا الجنوبية من الترك - النغوي، ومن الفرس جهة الجنوب الشرقي، وللوصول إلى الدول المسيحية وراء البحر. هم من حالفونا بعلم الله. وسلطان تركيا وخان القرم لا يقبلان إنشاء قلعة في بلاد الشركس، وإقامة قاعدة عسكرية في أرضهم. وبولونيا والنمسا تؤيدانهما. وإن انسحبنا فقدنا البحر الأسود الذي ليس لنا. وإذا كنت تخليت عن الشراكسة القريبين من البحر الأسود بسبب إلحاح الترك والنغوي القريبين منهم فأنا أعرف أنهم لا يكرهوننا، ويعتبروننا أمّهم. وقد أرسلت ألكسندر كتاك ابن أميرهم شبق، معاونَ قائد جيش إلى والده. وأوكلت إليه الاجتماع بزعيم عامة الشركس لإقناعه بمنع تركيا والقرم من اقتحام أرضهم، ومن الاقتراب من تيريك، وإفهام من يعيش منهم في منطقة نهر بشره وجهة نظرنا. وسينظر إلى بعضكم شزراً بحجة أن هذه أيضاً حرب. نحن لا نرفع السيف بوجه أحد، ولا ندخل بيتاً لم ندعَ إليه. ولكن من يُشهر علينا سيفه سيقضي تحت سيفه كما قال قائد الجيش نيفسكي...

سُمع همس خفيّ في قاعة الاجتماع الكبيرة التي لا يتردد فيها غير صوت القيصر العالي فألقى الأخير على الجمع نظرة غاضبة. وتابع كلامه بتصميم أكبر:

- إذا كان هذا ما تتعجبون منه فليس فيه ما يدعو للعجب لأن هذا هو الواقع. - وبعد سكتة قصيرة أضاف كاتماً ألمه وعتبه بصعوبة: - والان أخبار

حرب ليفون التي لا يوافقني الكثيرون عليها. من استشرته في استعادة أرض أجدادنا هو الله القيوم على الجميع، كباراً وصغاراً، أغنياء وفقراء... ومكاري رئيس الأساقفة بعده. سمح لي كلاهما فباشرت في مشروع حماية أرضنا. قلت مرة إن حدودنا كانت تصل إلى الساحل الشرقي للبلطيق فلم يفهمني الكثيرون. وأداني أداشيف وسلفستر. بل انضم إلى القائمة أقرب القادة إلى كوريسك الذي وضع نفسه تحت تصرف ملك بولونيا. أنتم النبلاء والأمراء والتجار من تحتاجون إلى بحر البلطيق... ألقى القيصر نظرة على عدوه المطران بيمين فأجبره على أن يخفض رأسه المنتصب. وفي الحال وقف الجميع معاً مؤيدين للقيصر:

- الإعدام للخونة!

- ليكن قيصرنا أمامنا!

- زِدْ الضرائب!

انتظر القيصر ريثما هدأت الأصوات، ثم نخض وقال لهم محبباً ومعبراً عن رضاه: - والآن ابحثوا عن وسائل تحسين أعمالنا. وأنا سأتابع أعمالي. وأسلم رئاسة الاجتماع إلى أصحابها. استدار القيصر وغادر يتبعه ولداه مع تحيات الاحترام. قال القيصر كلمة واحدة لزوجته التي استقبلته:

- أَيْدُونِي!

- حياك الله يا روحي الوحيدة! - ابتسمت غشوناي في وجه الزوج تصقّق له. ثم عانقته. - هذا هو الأسلوب الذي ينبغي التعامل به مع هؤلاء ليعرفوا قيمتهم الحقيقية!..

حين جلس القيصر على العرش الناعم، وجلست غشوناي إلى جانبه وأمسك بيدها الناعمة، حينها فحسب، شعر بأنه سلطان، وبأنه محظوظ...

IV

يحتاج الراكب إلى أكثر من شهر لقطع المسافة بين بَحْجَسَراي والقبرتاي، ولكن سرباي قطعها في ستة عشر يوماً. وصدف لحسن الحظ أن وجد الأمير أبشق في مضافته يوم وصوله. ولما أطلع المضيف على المهمة التي أوكّلها إليه دولت -

جري أقلقه الخبر الذي كان ينتظره في السنوات الأخيرة الماضية، وأخبره برأيه مع شيء من الحزن:

- لا يُستحسن الدخول في حرب أهلية، ولكن ما العمل؟ الأديغة وقعوا اليوم في هذا الموقف. لا يحدث لنا مكروه إلا من صنع أيدينا. كان على تركيا والقرم أن تفعلوا هذا منذ زمن طويل كي لا نصل إلى هذا الموقف ولا تتمزق أرض الأديغة. أخبر صهرنا دولت - جري أني جاهز منذ اليوم.

- هذا الموعد يا أمير هو وصولي إلى القرم. - تظاهر سرباي برُفْع مؤخرته عن المقعد احتراماً للقائل ولمن سيبلغه، ودعا له وللخان أن ينصرهما الله على الروس الكفار. وأن يطلق للخان الحرية في أرض الأديغة.

- شكراً أيها الضيف. ونحن هذا هدفنا.

- سيطمئن قلبك من هذه الناحية سريعاً يا أمير. ستصبح حراً في أن تنعم بحياتك دون تهديد من أحد... والآن سأشاركك سرّ الخبر المزعج الذي لا أعرف صحته، - تفقد سرباي المضافة حذراً، ونظر جهة الباب.

- اطمئن يا سرباي لا أحد يسمعنا. - ابتسم أبشق في سره.

- مهمتي لا يعرف بها حتى رفاقي. حسناً فعلت إذ أبعدتهم عني.

- وهل تظننا نعيش لا نفطن إلى شيء؟! - ضحك أبشق حتى اهتزت وجنتاه الطافحتان. - متى جاؤونا بسرّ دفّناه في مكانه. أسمعك يا سرباي.

- مرة أخرى تجاهت تركيا وروسيا بالسلاح.

- هل تعرف عمر سرك؟ - رفع أبشق حاجبيه السميكين وتوجه إلى ضيفه، -

منذ سمح الأمير تيمرقوه للروس أن ينشئوا قلعة ترج في أرضنا. ثم إني لم أسمع هذا عن طريق الإشاعات، بل كان سلطان تركيا أخبرني به في القرم.

- أليس الأمير شبق مطّلعاً على الخبر إذن؟

- لا، أخبرني وحدي.

- هل تعرف إذن تحالف الأمير شبق وقلقت؟ سأل الضيف يريد إطلاع المضيف على أمر لا يعرفه.

- وأعرف هذا، - ضحك أبشق ثانية من تحت شاربيه، - سأخبرك إذن يا ضيف بأمر لا تعرفه: - كنتاج ابن شبق، وقلقت ضيفان في هذه الأيام عند تيمرقوه.

- على ما يبدو يا أمير، - شحب وجه سرباي، وابتسم بمرارة خجلاً من أنه لم يأت إلى المضيف مجديداً، - أنت تعرف ما يجري أفضل مني. أنا العبد المأمور، لا أساوي خنصر دولت - جري. - حضر الرجل نفسه للاستمتاع باللحم المشوي واللباسا والشلامه. وأثنى على المائدة: - ليس ما يُطبخ في البيت كزودة الطريق الجافة... والآن اسمح لي، على مبدأ: متى أكل الضيف نظر إلى الباب، أنا في عجلة من أمري. وطلب خائناً المنير ألا يشيع خبر زيارتي.

- وكيف تسافر في منتصف الليل؟ ألسنت في ضيافة أسرة أديغية؟ مضافة أمير أديغي؟ - اعترض أبشق جدياً.

- لو كان الأمر بيدي يا أمير لأقمت معك إلى أن تملّ مني. أتمنى أن أقضي الليل والنهار مع متحدث لبيب مثلك. ولكن ما العمل يجب الانطلاق قبل الفجر.

- ماذا بيدنا إذا كان الخان مستعجلاً عليك؟ - نهض أبشق مع الضيف. - أنت، على طريقة المرحوم مامي، النار في ذنب حصانك دائماً. لا تستعجل كثيراً، احرص على نفسك. ألا تعرف ماذا جرى لمامي؟

- يا حسرتي يا أمير، أعرف وحسب؟ لم أشهد في السنوات الأخيرة مصيبة أصعب منها... - أسبل سرباي جفنيه وضمّ ذقنه الضخمة إلى صدره، وبقي حزين الوجه قليلاً ثم رفع رأسه فجأة وقال جاحظاً بعينه كمن يبكي: - سألني يا أمير، دفع بي الشيطان إلى الخطأ. لو لم تأت على ذكر طريقة قتل مامي لرجعت دون أن أروي لك المصيبة التي حلّت علينا، نحن والترك. السلطان سليمان أعلى الغالين علينا، توفاه الله إليه...

- ماذا تقول؟! - فغر أبشق فاه مندهشاً ذاهلاً، ثم صحا بسرعة فعزى سرباي. - لم ألاحظ عليه أي مرض في زيارتي إليكم قبل زمن غير بعيد. كان نشيطاً...

- ليس سهلاً أن تعيش في عصرنا سبعين سنة يا أمير. ربما كان يشكو من قلبه. أعلنّا الحداد من أجله نحن والترك. لنأمل ألا يتغير موقف تركيا منا.
- نعم يا سرباي، الجميع متساوون في حضرة الله، مدّ الله في عمر الجميع!.. الإيجابية الوحيدة هي أن لا تتغير في اتفاقنا.
- اطمئنّ من هذه الناحية يا أمير. - سأل سرباي وقد تخلص من حزنه: - هل تعرف ما فعلت أرملة المرحوم مامي؟
- من أين لي أن أعرف، وماذا بإمكانها أن تفعل؟ - كان أبشق يعرف بالموضوع غير أنه ادّعى جهله به، - ربما تعيش مع الأديغة وحيدة لا تعرف أين تتجه.
- ما فعلته هذه المرائية الصغيرة عجيب. استولت على كل ما جمع مامي في حياته، وتزوجت من وثنغ الأعرج. ربما ليس بين الأديغة الآن من هو أغنى من هذين اللذين في عداد الموتى. نحن بقينا على فقرنا نعمل رُسلًا للأمرء والخانات والسلاطين. لا أسرة ولا بيت، كما يقال.
- ولماذا لم تتزوج أيها البائس إلى الآن؟ أما كنت تستطيع أن تضمّ تلك المرأة الغنية إليك؟
- من كان يعرف أنها ستفعل هذا ولما يبرّد جثمان زوجها؟ - أخفى سرباي أنه غازها أكثر من مرة فرفضته.
- من كان وراء قوله: ما تتأخر عليه يفوتك، واحد من أمثالك يا سرباي. - ضحك أبشق مع شيء من الإشفاق عليه.
- لن أدع نصف الميit هذا يأكل مال صديقي بهذه الحجة. - زمّ سرباي فمه وحفظ بعينه.
- كان أبشق غير عابئ بتركة مامي بعدما ودّع ضيفه وبقي وحيداً، ولا بما يمكن أن يفعل سرباي. عادت إليه وسأوسه وشواغله وقد زادت.
- قضى أبشق اليوم التالي والأسبوع كله يؤرقه ما أمامه من مهام: "إذا قرر جيش القرم اقتحام أراضي الأديغة في الغرب فقد صارت لهم. وسيؤدّبون أمرأهم الذين لا يسمعون الكلمة. هؤلاء لن يتوقفوا إلى أن يمرّغ أحدهم أنوفهم بالتراب. ولكن ما العمل إن استداروا إلينا؟ وما مصيرنا؟ هذا إن لم يتجاوزوا

بيتاغورسك. إذا هاجموا قلعة ترج فسأشهر سيفي معهم. ونعيد تيمرقوه الذي لم تعد عيناه تريان أرضه إلى وعيه، والروس الطامعين في أرض غيرهم. أقول هذا ولكن قد لا يكون الأمر كما أتوقع. كان السلطان التركي أخبرني أن جيشي تركيا والقرم سيترافقان، وسنرافقهما نحن، فماذا جرى الآن؟ أليكون نشأ بينها خلاف ما؟.. على كلام سرباي يتأمل دولت - جري أن يبقى كل شيء كما كان، ولكن السلطان سليم الذي خلف سليمان يمكن أن يقضي على نوايانا. هذا مستحيل! أي مهمة يقوم بها كتاق وفلقت عند تيمرقوه؟ لا حاجة للسؤال عن هدف كتاق، هذا رجلٌ قيصر روسيا؛ فكيف رافقه قلقت؟ ومن أرسلتهم يستطلعون الوضع لم يأتوا بخبر مفيد. ماذا أفعل؟ لا وقت عندي لأي شيء تبعاً للفارس الذي أرسلوه إليّ على عجل، ولعودته مسرعاً..."

جمع أبشق في المضافة، كما كان يفعل والده في المواقف المصرية، إخوته وأبناءهم الذين ارتدوا قالب الرجال وأبناءه هو. وبعدما أطلعهم باختصار على القضايا التي تشغل باله وجه السؤال إلى الجميع:

- ما العمل؟

ساد المضافة صمتٌ ثقيل. إخوته الأصاغر ينظرون في وجهه جالسين في صف. وأولادهم إلى قائمتي الباب بقامات مشدودة ينتظرون ما سيقول آباؤهم. لم ير أبشق ابنه الأوسط بين الشباب غير أن فازي سبقه قبل أن يسأل:

- لا داعي إلى اليأس يا والدنا مهما كانت ظروفنا.

- تُخطئ يا ولدي إن تصورت أنني يائس. - التفت أبشق إلى ولده، وقال بصوت صارم: - سألتكم عما يجب أن نفعل ولم أَسْتَدِرَّ شفقتكم. - ثم سأله بلطف موهماً على قسوته: - أين أخوك الأصغر؟

- ليس أخي شَجِنَقوه بعيداً، حان وقت عودته. قال جانسخ بدلاً من ابنه، ثم التفت إلى تَبِشَنَقوه الذي يعرف إلى أين أُرسِل، يحذّره من أن يقول شيئاً. وتابع كما عادته في ملاطفة إخوته الكبار: - لا يليق بي أن أستلم زمام الحديث في حضوركم، ولكن ساحوحي سَأَدلي برأيي في سؤال أبشقوه. كلام

سلطان تركيا وخان القرم لك والخبر الذي جاؤوك به الآن لا يتوافقان. لا تقتصر حاجتنا على جيش القرم ؛ يجب إرفاق الجيش التركي به.

- هل تفهم يا أخي أنك تطالب بالحرب؟ - سأل أسلانجج التالي لأبشق في العمر.

- لن يكفؤا حتى يدفعونا إلى شرّ حرب دولة ضد آل إيدارقوه. - أجاب تيبشنتقوه الجواب الذي يريده محامياً عن أخيه. - لن يدعونا نرتاح!

- ما أستغربه يا أبشق، - قال جانسخ وقد شجّعه أخوه الأكبر، - هو استغلال تيمرقوه منصب كبير الأمراء لمصلحته الشخصية. ألم يبق في القبرتاي أميرٌ يعترض على هذا؟ لماذا لا يعزلونه بتهمة الكذب عليهم وإساءة السلوك معهم؟

- السبب هو أنه لم يبق في القبرتاي نظام. - جزم أبشق باختصار، - من الصعب إنزال من تُركبهم السرج. ثم إننا منحناه الوقت ليوطّد حكمه، وحلفاؤنا يكذبون علينا. والآن مجاهدته وحدنا بمثابة الانتحار. خان النغوي يتكلم على جيشه ولا يأتي على ذكر جيش تركيا. وكما أخبرتكم فقد يكون السبب هو الموت المفاجئ للسلطان، لا أعرف. ومع ذلك، فكما يقول قازي الذي لا نعيه اهتماماً أحياناً، - ألقى أبشق نظر رضا على ابنه، - لا داعي لليأس. إن كنتم تنتظرون كلامي فهذا رأيي: - إن دخل جيش القرم وحده إلى إقليم الأديغة وأدّب من في المنطقة العائدة له منهم فلن نعلّق بشيء خيراً أم شراً. ولكن، من يعرف ماذا ينوي هؤلاء، إن طمع في أرضنا فسنقاومه بالإجماع. ومتى رافقه الجيش التركي وهاجموا قلعة مدينة ترج فلا شك أننا سندعمه. ولا تشكّوا في أن آل إيدارقوه سينتهي حكمهم حينها. ولن يقف زعيم الداغستان مكتوف اليدين... هل بقي من يدلي برأيه؟

- يا والدنا، ويا أعمامي، أريد أن ألفت انتباهكم إن سمحتم إلى موضوع آخر أيضاً، - ترجى قازي مستمداً الثقة من ثناء والده عليه.

- وهل تظننا لم يبق لنا إلا رأيك، - احتدّ أبشق، - إن ابتسموا في وجهك رأيت بين أسنانهم قطعة جبن.

- قد يدلي برأي مفيد على مبدأ: عقلان خيرٌ من عقل واحد.

- صحيح يا كبيرنا، الأصغر منك يعلمك كيف تتصرف، - وافقه جانسخ.
- لو أطمعتموني كنت اقترحت عليكم مقابلة ضيوف تيمرقوه. - قال قازي متلهفًا.

- كيف تريدني أن أقابل من تجاوزوا إمرتي؟- صاح أبشق محمرًا، وسأله متذكرًا ما لم يقبله منه يوماً ما: - أم خطر لك كما أردت مرة أن نهاجم بالسلاح أمراء البسلني والأباطة الذين حلّوا ضيوفاً على تيمرقوه، مهنئين؟
- لا يا والدنا، متى حدث هذا؟! - دان قازي نفسه على الفكرة الطائشة خجلاً منها، - كان جدي يقول: لا تُهمل أعدى أعدائك إن كنت تجد عنده شيئاً من العقل؛ استفد منه!

- نعم والدنا نحن، وجدكم أنتم، من كان يقول هذا. يسرني أنك لم تنسه. - مرة أخرى امتدح أبشق ولده، ثم ألقى نظرة استفهام على إخوته: - في كلام هذا شيء جدير بالتفكير يا أسلانج. أنا كلّفتك بهذا. اصطحب تيشنقوه وقازي. استقبلوا الابن الأكبر لشبق متناسين كونه في الجيش الروسي، وكذلك قلقت، متى ما انصرفا، وادعواهم إلينا!
نظر جانسخ من النافذة على إثر الصوت الصادر من جهة الدار. واستغرب ما رآه:

- من هذا الذي على حارك حصان شجنقوه؟
نفض الجميع وخرجوا من المضافة.
- يا ولد، - نادى أبشق من المسطبة، - من هذا الذي تحمله؟
- أسير روسي يا والدنا، - ضرب شجنقوه الأسير بالسوط فرفع رأسه.
- ماذا تنوي بحقه؟
- سأحرث عليه، وأحفر، وأكلفه بكناسة روث الخيل.
- من ترجّاك أن تفعل هذا يا عديم الإيمان؟
- عند الأنزور والمودار أمثال هذا من المقاتلين الأسرى.
- لا تُسمعني هذا الكلام! - أعده حالاً إلى حيث أخذته منه! مهلاً! نادى شجنقوه الذي وضع رجله في الركاب، وأفهم من إلى جانبه: - لن تعيدهو على حارك الحصان. عاملوه أولاً بإنسانية، أطعموه، واعتذروا منه. أركبوه، واتركوا له

الحصان. أصدر أبشوق أوامره، وعاد إلى المضافة. وبعد ثلاثة أيام نفّذوا له دعوة الضيوف التي اقترحها قازي. ولكن قلقت هو من أتى لأنه وجب على كتاك أن يعود إلى موسكو عبر أستراخان.

- لا أعرف إن كان لاثقاً دعوتك وأنت في طريق العودة إلى بيتك. كنت أود أن نتحدث، - بدأ أبشوق من بعيد فاختر قلقت الطريق:

- لا ضيرَ في هذا يا أبشوق. لماذا لا أزورك إن كنت تريد مقابلي؟ ولكني لست ضيفاً مقيماً. عليّ أن أكون الليلة عند أختي. وهذا سبب انطلاقي مع الفجر. ثم إنّ تصارُحنا بما في قلوبنا لا يحتاج إلى وقت طويل.

- وهذا صحيح يا قلقت. - قال أبشوق في نفسه: " لا أظنك ستستفيد معلومات مهمة من هذا الرجل الضخم" - ولكن لن أسمح لك بمتابعة طريقك دون أن تذوق من طعامي.

- إن لم تُلح عليّ في غيره قبلتُ بكل سرور. ما أحوالكم؟ في ريفكم محاصيل جيدة، وأشجاركم ملأى بالفاكهة، والمواشي تملأ المراعي. بارك الله في محاصيلكم!

- رضي الله عنك، وأطعمك منها معنا! - قال أبشوق مرحباً، وتغيّر حالاً: - نفرح بما نفعل اليوم أملين في الأحسن، ولكن لا نعرف ما يجتبه الغد. نتصدع بدلاً من أن نتكاتف. ونتباعد يوماً بعد يوم.

- وهل تستغرب هذا يا أمير؟ لم يظهر إلى الآن زعيم يجمعنا ويقودنا. لا همّ لأحد إلا أن يوطّد عشّه. وما قلته تواء لا يفارق لسان تيمرقوه الذي كنا في ضيافته.

- لا تصدِّقه! - صاح أبشوق محتدأً. - لا يمكن أن يكون لإيدارقوه الخائن مثل أفكاري.

- وتيمرقوه يقول بحقك الكلام نفسه.

- إذا كان إيدارقوه ذو الرأس الضخم يقول هذا في حقي فمن المؤكد أنه لا يوقّر شيئاً بحق الأمير شبق... - سكت لحظة ثم رفع رأسه الضخم. - وما رأيك أنت؟

- وماذا سيكون رأيي؟ موقفي هو بالضبط ما تمنعون تحقّقه لي. إذا توحدنا، الأديغة، في دولة واحدة، فلن نعيش على مزاج الدول الأخرى.

- وهل قلتَ هذا لتيمرقوه؟

- قلتُ، وأقول لك. وليسمعي الأمراء الآخرون والمتنفذون. صارح قلت المضيف بما لوّعوا به قلبه كل هذه السنين. وأردفه في قلبه بكلمات جارحة "الفلاحون هم من سيكونون علاجكم!"

نحس قلت بعدما غلب الابتسام الخبيث على ما لم ينطق به، مُظهرًا رضاه التام عن لقائهما.

شيع أبشقر ضيفه، وقال لنفسه وهو يتابعه بوجه عابس: "كلما اجتمعنا قررت في نفسي ألا أسمح له برُفّع رأسه. وهو الآخر يلقي في وجهي كلمات مُغرِضة. ولكن لا أفهم سبب اشتياق أحدنا إلى الآخر متى تباعدنا..."

...

كان النهار اقترب من نهايته حين اقتربت مجموعة الفرسان الفلاحين المرافقة لقلقت من حدود القرية المخوش التي نزلت فيها داريه أخته كنة. وكان ظاهراً على قلقت ورفاقه وعلى خيلهم الإجهاد. ومن دلائل إغفالهم أمرهم أن حصان أحدهم تعثر فالتفت إليه الزعيم الفلاحي دون غضب وتبّته:

- أمسيك الزمام جيداً أيها الشاب! - وما إن استدار برأسه حتى قال بنبرة قلق: - في قرية المخوش حادث مؤسف، عدد كبير من الفرسان يتدافعون صوبنا.

اقترب الفرسان، وقبل أن يصلوا تماماً لجم حاتاي الذي يتقدمهم حصانه، وقال:

- الله حاء بك إلينا يا قلقت. وصلتم في وقتكم تماماً! - كان لونه شاحباً واللهفة في عينيه، ولكنه عانقه مغلوباً بالفرح - الأمل

- ماذا جرى لكم فأرى كل هذا القلق في وجهك؟

- ظننا أن مستطلي النغوي يأتوننا من الشمال الشرقي فوصلنا بهذه السرعة.

- ابتسم حاتاي دليلاً على اطمئنانه. - والآن وقد رافقنا لا داعي لليأس. اخترق نغوي القرم أرض الحكوف، ونكبوا بعض قرى المخوش.

- أهو دولت - جري؟ - صارح فقلت بصوت أصم؟
- لا، بل ابنه عادل - جري قائد جيش الفرسان. إن لم يصلوا هذا المساء فقد يصلون صباح غد.
- وأنتم ماذا فعلتم؟
- استنفرا كل من يستطيع حمل السلاح في القرية.
- هذا قليل. النغوي لا يمضون إلى الحرب بأعداد قليلة. أرسلوا من يبلغ القرى المجاورة. - تابع فقلت أوامره وهو يمتطي حصانه الضخم الصدر: - ضعوا رصاداً للعدو في كل غلوة حصان أو اثنتين. النغوي لن يخوضوا معنا حرباً ليلية، ولكن لا شك أنهم سيهجمون قبيل الفجر.
- أي مكان أفضل لمواجهتهم؟ - سأل حاتاي وقد رُدت إليه الروح.
- هؤلاء كثيرون لن نقدر على مقاومتهم بصدور الخيل والسيوف، علينا بالخدعة: ورّعوا المقاتلين إلى ثلاث مجموعات. علينا إيهامهم أننا نجابههم من جهات مختلفة. ثم خطرت لي فكرة: هجوم النغوي ليس موجهاً إليكم أساساً بل إلى قلعة ترج الروسية. ولكنهم ينوون إرضاخ المخوش والبسلني. وها نحن سنرى إن لم يعبروا من المعبر الضيق لنهر ينجج الصغير، ويهاجموا قريتك.
- النغوي مقاتلون ممتازون لأنهم يمارسون الحرب طوال عمرهم، فلا حدَّ لحيلهم. ولكننا نحن أيضاً لا نشرب الماء من أنوفنا.
- هل نحتشد نحن وراء نهر ينجج أيضاً؟ - نظر حاتاي مستغرباً في وجه صديقه.
- سأدفع حياتي من أجلكم إن أخطأت، وإن صحَّ تقديري حينما قريتك. ما رأيك؟
- ماذا سيكون رأيي؟ أنت معقدُ أملنا. ألم تلاحظ مدى اطمئناني ساعة رأيته؟ - وافقه حاتاي غير خجلٍ مما اعتمل في قلبه.
- لم ينم أحد من أهل القرية ليلاً إلا الأطفال. ومع بدء ارتفاع الشمس رجع الكشافة الذين أرسلهم حاتاي. النغوي يلتفون على يسار نهر ينجج وأمامهم أكثر من مئة فارس.

ارتاح فقلت لتتحقق توقّعاته، وبشّ حاتاي ورفاقه في وجهه. وأخبر المجموعات الثلاث المتمركزة في الغابة المحيطة بالمرعى كاهلال. حالما وصل جيش النغوي إلى وسط المرعى هاجمهم المخوش من كل الجهات. ورغم أنه لم يكن لدى النغوي نية مجاھتهم فقد لحق المخوش ببعضهم وأسقطوهم من ظهور خيلهم. كان همُّهم النجاة بجلودهم نحو جيشهم الأمّ. أخفى عادل - جري استيائه حين أبلغوه بالموقف، ولكن الأفضلية كانت لهدفه الأصلي فساق جيشه نحو الجبال الخمسة.

V

حين وافق المجتمعون القيصر على متابعة حرب ليفون زاد الأخيرُ تعداد الجيش خلال سنة، وزوّده جيداً بالسلاح. وزاد من عدد رماة السهام. ووسّع صلاحيات سكوراتوف وغرزيانوف حتى لا يعودا إليه للاستشارة. وأسكت خصومه النبلاء والأمراء والمتنفذين، وزاد من قدرة القادة المنتمين إلى العامة، وفتح الطريق أمام التجار. وحشد الجيش ضد نوفغورود المتمردة فأراق الدم، وسبّب الدعر لكثيرين من خصومه فانكمشوا على أنفسهم، ولكن زاد من حقدهم عليه. وأفرح زعماء الدول المعادية ومن لجأ إليهم مثل كوريسك.

في يوم من أواخر شهر آب قال القيصر لرجل الدين فيليب: - إن وافقتني أن تدعو معي إلى الله أن يحقق أهداني فأنا جاهزٌ لأسحب جيشي من حرب ليفون.

- لا أنقض أوامر الزيمشينا يا قيصر روسيا. - نظر إليه الكاهن حزينا، وأضاف وهو يسبل جفنيه: - دم الإنسان يجري في كل مكان، بعلم الله ودونه.

فهم القيصر مغزى كلام الكاهن الحذر فجزم غاضباً:

- لا شيء يجري في العالم دون علمه. إن كنت تظن أني لم أتوجه إليه من أجل استعادة أرضنا والوصول إلى " بلطيقنا "، وثُفِّكر مثل صديقك بيمين، وكان أمثال أداشيف - كوريسك ضلوك، فبرئ نفسك أمام الله!

- لا أستحق مثل هذا الاتهام يا قيصر روسيا. أنا في حضرة الله طوال عمري، وفي خدمة دينه. مقصودي هو أن ما حدث في نوفغورود وحزني عليه ليسا من

دون علم الله. أصلي من أجلك كي يحقق الله نواياك الخيرة. - رسم الكاهن الصليب ثلاث مرات على القيصر، مؤكداً على " النوايا الخيرة".

- لا أسمى إلا وراء الأهداف الخيرة. - تكلم القيصر الآن بنبذة أهدأ، وأفهمه سلوكه المستقيم: - لا أسلبهم ما ليس لي، ولا أسمح لهم أن يسلبوني ما هو لي. عَقِبَ هذا الاجتماع، وبعد انقضاء عدة أيام عليه، ظلت عبارة " دم الإنسان يجري في كل مكان، بعلم الله ودونه" تطفو على سطح ذاكرة القيصر: " في هذا الاستنتاج ما هو موجه لي، وما ليس موجهاً. لا يعني توصيتي رجال الدين لانتخابك رئيساً لهم أن تكون أصدق مني في علاقتك بالله. ما قلته صحيح، الدم يسيل في كل مكان، ولكن هل ما يشنه زعماء الدول الأخرى من حروب أقلّ مما أفعل؟ الإنجليز والإسبان والبرتغال ضموا إليهم نصف العالم، لا يميزون ما لهم وما ليس لهم. وما أسفك أنا الدم لأجله هو أملاك الروس، فإن حملتني وحدي وزّر دماء العالم فقد تجيّت عليّ، وضيّعت خدمتك قومك بدينك. إن أردتم ألا أسفك الدم فساندوني، وقفوا إلى جانب دولتكم، ولا تخونها. ليست روسيا لي وحدي. أنت لا تصلح رئيس رجال دين لبلادك. أنا أخطأت في شأنك، لم أعرف أنك تؤيد يمين، وهو نفسه مستعد لأن يحل محلّك بكل بساطة. أظني سأحلقك به إن بقيت تتصرف معي هكذا. أعرف أنكم كنتم تريدوني سلطاناً شكلياً أرى حدود بلادي ولا أفعل شيئاً. ولو استطعتم لمنعموني من ضمّ خانات قازان وأستراخان إلى روسيا. ويسوؤكم أني صاهرْتُ الشراكسة. افتحوا عيونكم جيداً وتأملوا العالم لتروا أن ليس في أوروبا دولة لا تضم قوميات أخرى. وها هي تركيا لم يكفها ما احتلت من أرض فعبرت البحر الأسود لتنظر نحونا بعيون تتر القرم".

تأمل القيصر موسكو من أعلى نقطة في الكرملين. ومرّ بعينيه على مواقع احتشاد الجيش الذي سيتحرك به غداً. ولما نظر جهة نافذة ماريا رتّت في أذنيه كلماها أمس:

- ألا يجوز أن يقود غيرك الجيش إلى المعركة يا روعي الوحيدة؟
- هل ترين قيادة الجيش ليست من مسؤوليتي أو لا تليق بي أم تُخفين عني شيئاً؟ - غلب على القيصر ارتياحه، غير أنه أخفاه.

- لا سِرَّ أخفيه عن الزوج، - تغيّرت سحنة غشوناي مما سمعت.
- أثق بك من هذه الناحية يا حيي، - تراجع القيصر عن ارتيابه بسرعة، وابتسم لها، - يسرّني أن تقلقي عليّ.
- لا أقلق عليك وحدك، بل على نفسي أيضاً... لا أمل لي غيرك... - انفجرت غشوناي باكياً. لم يدعونا هنا حتى بطفلنا الوحيد. ولم يرزقنا الله بغيره.
- تُفنين نفسك بلا جدوى يا ماريا. لا تخافي، الله يحميني من كل مكروه. - ضم القيصر إليه الجسد الرقيق المرتعش. وقبّل جبينها ووجنتيها بلطف. ومرّ بيده على خصرها النحيل المتين. - تمدينني بالثقة وتمنحيني القوة. لا تقلقي على قيادتي الجيش إلى الحرب. أشجّع مقاتليّ حين أتقدّمهم. أنا لا أخوض المعركة بسيف مُشهر. ولكن ليقاتلي الملك سيغموند بأي سلاح يريد إن كان رجلاً، وليصطحب معه كوريسك!.. - أخرجه من أفكاره الغراب الذي ارتقى أعلى الشجرة هارباً، فنظر إلى ستاريسك الواقف إلى جانبه.
- الغربان أزواج وجماعات، لا أعرف لماذا هذا وحيد؟ - قال ستاريسك بقلق خفيف، وندم، - سأله القيصر:
- هل تريد أن تقول إن جلوس الغراب الأسود على شجرتنا فأل شرّ؟
- لا، لا، أيها القيصر، لم يخطر لي مثل هذا، - ارتعب ستاريسك، الغربان تعيش طويلاً. ليست من الطيور المنحوسة.
- لا أحب الغربان؛ تقتات على الجثث.
- أأكون تلبس عليك بالصقور؟ - قابله ستاريسك بابتسامة مرائية: " ليس مطمئناً عليّ، يرتاب في أمر ما. إن لم يكن شيء من هذا فلماذا يدور بي في الكرملين باشاً بوجهي؟.. أأكشف له ما ينويه بحقه شلياندين أم لا؟ إن تحقق ما خططوا له فأنا أول المستفيدين. وإن لم يتحقق فما النتيجة؟ عرش القيصر عالٍ، مُغرٍ، ولكن الروح أحلى من كل شيء. ماذا سيقول الناس بحجّي إن خنت أخي؟ ماذا كان موقف والدتي لو كانت حية؟ ولو كان يوري أخي حياً لما جعلتهم يطعمون في الحكم. ولا مخرج غيره. إيفان وفيدور لا يزالان صغيرين.

وإلى أن يكتمل عمرهما سنعيد البلاد إلى السلم. ونعيد الناس الذين أسكرتهم رائحة الدم إلى الوعي..."

- كان عمري عبثاً لو عشتُ إلى الآن يا أخي لا أُمَيِّزُ الغراب من الصقر. - ضحك القيصر عالياً دون حقد. ثم نصحه ووجهه يُمتُّع: - ليس من الضروري أن نمضي معاً إلى حرب الغد يا فلاديمير أندريفيتش. أنا من فرض الله عليه حرب ليفون فلا بد لي من المشاركة فيها. وأنت يجب أن تبقى في الكرملين... الولدان لا يزالان صغيرين. وماريا زوجة القيصر تعرف موقف الولدين منها... لا ثقة لي بخصومنا الأشرار.

- لا، لا يا قيصر روسيا كلها، - ارتعب ستاريسك الآن جداً، عليّ أن أكون حيثُ تكون أنت، بل ثَبَّتُوا علي لقب الجبان وأنا في الحرب! تدعُ أعدائي يهتموني بما لا أستحق. اطمئنْ إذ يبقى هنا من تثق بهم.

- وهل تثق بسكوراتوف ماليوت؟ - سخر القيصر مما قاله على سبيل المزاح.

- لا، لا أثق به، أفوضُ أمره إلى الله. ولكني لا أشكُ في صدقه المبالغ فيه.

- ثِقْ بميخائيل الشرکسي أكثر منه. لا تتجاوزَه!

- لا خطر إذن! سأمضي معك دون التفات إلى الورا! - صاح ستاريسك، وفرح بأنه إن لم تنجح المهمة فسيحتمي بمرافقته للقيصر. ثم غيّر الموضوع متذرعاً بمن سمع اسمه: - حسنٌ إذ يعود الأمير شبق فيتجه إلينا. أظن تهديد سلطان تركيا وخان القرم كانا أربابنا قليلاً. من الصعب التكهن بما سيكون عليه سلوك السلطان الجديد سليم.

- لو لم نتصرف هكذا لساءت أوضاعنا في منطقة الشرکس. احتفظنا، ولو أغضبنا الأمير شبق، بما وراء القفقاس وآسيا والقيرتاي التي سندخلها. سلاطين الأتراك، الماضون منهم والآتون، متشابهون. ما إن جلس سليم على العرش حتى بدأ يجادلنا في القلعة التي بنيناها على نهر ترج. يهددنا بالحرب؛ ما شأنه بما؟ ووصلنا خبر مفاده أن جيش فرسان القرم بقيادة عادل - جري ابن الخان دولت جري اخترق إقليم الأديغة الغربي. ووصل إلى الجبال الخمسة حتى اعترضه الفلاحون العامة فدمّروه. سنتوجه إلى إقليم الأديغة متى عدنا من ليفون، ونوطد أساسنا فيه. لماذا نُفِلت الشراكسة من يدنا وهم يريدوننا؟ حقاً

بينهم من لا يريدوننا، وقلوبهم نحو الترك والتتر. من يريدنا يصلحنا، ومن لا يريدنا نتودد إليه، كلٌّ حسب كلامه وقوته. هذا هو عالمنا. ما لا تأخذه أنت يأخذه غيرك.

عاد ستاريسك إلى اطمئنانه: "يفني نفسه بالارتياح الذي لازمه طوال عمره، ولكنه في الحقيقة لا يعرف شيئاً. - حسنٌ جداً أن أقنعته بأن أبقى معه. إن تبين أن أحدنا ليس منّا؟ يبدو أن لا أحد منهم محروم من الرجولة. ولكن كما يقول السلطان: على ظهر الخائن خائن آخر. من يعرف ماذا يمكن أن يخطر لأحدهم؟ إن ارتعب ووشى بنا انتكبنا جميعنا. ولكن لن يجدوا تهمة لي. جالسهم بضع مرات فلم أفتح فمي بخير أو بشر. وفي الاجتماع الأخير فحسب قرروا أن يعهدوا إلي بالحكم فابتسمت ولم أطلعهم على ما في نفسي. ولكن ألم أشاركهم الجلسة واستمعت إليهم وإن لم أشاركهم في الحديث؟.. في كلامهم نصيب من الصحة. القيصر أخي ولكنه متفرد بالرأي. يجلب إلى البلاد التتر والشراكسة ومن لا نعرفهم. والموردوفا والوذمورت والشوفاش¹. يزعمون أنهم معنا ولكنهم يستنزفوننا، ويخدعوننا. التتر يملؤون موسكو، سيتحكمون فينا خلال بضع سنوات. ينفذ كل كلمة تنطق بها المرأة الشركسية، ثم يدّعي أنه سيتوجه إلى أرضهم متى عاد من ليفونيا! ستتوجه إن لم يرموا بك مكتفياً أمام سيغموند! ومن سيفعلون بك هذا هم من أفراد جيشك ولكن لا تعرفهم... مهلاً، مهلاً، - انغرز ما يتوجس منه ستاريسك مرة أخرى في قلبه كالإبرة. - إن غافلتني جماعة شلياندين، ففعلوا بي ما ينوون فعله بالقيصر؟ إن فعلوا بي هذا فلا أعرف وقتها... أخبره أم لا؟.. لا يزال أماننا يوم. الصباح أفضل من المساء..."

رنت أجراس الكنائس في الصباح المنعش الذي تلا ليلة صيفية حارة معلنة أن الجيش المتجه إلى حرب ليفون يقوده القيصر بنفسه. القيصر سعيد، يلبس الدرع، ويبدو من تحت الخوذة المتطاولة أطول مما عليه. وعلى المرفقين والركبتين

¹ الأولى والثانية من الجمهوريات الروسية الاتحادية التتية الآن، والثالثة من البالق

الطورانيين، ومن التابعة الروسية أيضاً.

تلمع كاسيات معدنية تقي من ضربات السيوف. وإلى جانبه السيف الذي يكاد يصل إلى الأرض، وعلى ظهره زردٌ مُدَوَّر.

أَلقت غشوناي نظرة أخرى عبْرَ النافذة على زوجها الذي يركب الحصان، متألّمة خائفة أن يحدث مكروه لزوجها. ودعت إلى الله أن يعيده سالمًا منتصرًا. ورسمت الصليب. ودعا للقيصر نفس الدعاء ستاريسك الواقف إلى جانبه. ولحّت كنتاج الذي يودّع، في جملة المودّعين، القيصر مع أخيها الأكبر سلطان، فدعت له أيضًا، ورمته بنظرة عابرة.

استعرض الجيش الضخم الذي يقوده القيصر في موسكو قواته. الناس المتجمهرون على جوانب الطريق يحنون رؤوسهم للقيصر حتى يكادون يلامسون بها الأرض. وبينهم من يجثو على ركبتيه. ويدعون له وهم يمسحون دموعهم. ويصيحون بأصوات قوية متقاطعة:

– رافقتكم السلامة!

– لتفرق خيلنا أرض الشليات – النمسا بخوافها!

– عودوا بالنصر!

القيصر مسرور، ويسأل القيصر أخاه مُخْفِيًا ابتسامته:

– هل ترى يا أخي تقدير الناس لنا؟ وهل تسمع كلماتهم؟ جفونك منتفخة كأنك لم تنم الليلة قلقاً من رحلة اليوم.

– لا يا قيصر روسيا كلها، نمت جيداً. رَفَقْتُك تمنحني القوة. وأرى في عامة

الناس ما يجعلني أفكر فيك. لِيَرِ النبلاء الذين لا يحبوننا والأمراء محبة العامة لنا!

– اعتبرْ موضوع هؤلاء منتهياً! – القيصر يبتسم ويأمر الحصان المغطى بقماش

أخضر مطرز بخيوط الذهب بالعدو من حين لآخر. تأمّل الطبيعة الرائعة برأس

مرفوع! لا تدع من وراءك يرونك في مظهر اليأس! أراك منذ البارحة متغيراً. قل

لي إن كان هناك ما يشغل بالك!

– لا، لا... – تظاهر ستاريسك بالابتسام. وأفلت منه طرف الموضوع الذي

لا يجرؤ على إعلانه، – لا أعرف ما أخاف منه... الإنسان يظل مشغول البال

بأمر ما. الحياة مركّبة من جوانب متعددة. تقابلنا بما يفرحنا، ما يحزننا، وما

يرعبنا... – نظر إليه مرثياً، قائلاً في نفسه: "خيرٌ لي أن أبوح له بالسر من أن

يكتشف أمرنا يوماً ما" - ها أنت مرح واثق من نفسك في حين أن لي ما يؤلمني.

- قل لي إن كنت واثقاً، أسمعك، - لم يُن القيصِر على نفسه استغرابه، ولم يلجم حصانه.

- إن لم يتبادل الأخوان الثقة انتهت علاقة القرى بينهما... - تشجّع ستاريسك وقرر ماذا يفعل، - متى منحت الجيش استراحة تكلمنا بتفصيل؛ لا يزال أماننا وقت كافٍ.

سَمَر القيصِر حصانه، ونظر بعينين جاحظتين إلى أخيه:

- أيّ وقت تعني؟ - أمر القيصِر بمنح استراحة للجيش في السهل المقابل للغابة، وابتعد هو مع أخيه إلى ما وراء شجرة، فسأله ثانية: - أيّ وقت تعني؟ أسمعك.

- لا يجوز أن تذهب إلى حرب ليفون يا قيصِر روسيا كلها. سيخونونك، عُذ إلى الكرملين!

- ماذا تقول؟! - ارتفع صوت القيصِر وتغير لونه، ثم قال بنبرة مجاملة: - من أين تعرف؟.. من أخبرك؟..

- أخبرني أحد رجالي قبل أن ننطلق...

- ولماذا سكّ حتى انتزعته منك؟

- لم أعرف كيف أبدأ، ولم أصدّق الخبر تماماً، ثم... خفّ منك. الخونة معنا في الجيش.

- من هم؟

- بيلسك، ومستيسلافسك، وفوروتينسك، وفيازيمسك...

- ومن أيضاً؟

- شيلياندين وفيسكوفات بقيا في موسكو.

- ها! - صاح القيصِر واستند بظهره إلى الشجرة. وقف بعض الوقت مغمض

العينين، ثم فتحهما وسأل منكسر الصوت: - ماذا ينوون بحقي؟

- متى ما بدأت المعركة يقيدوننا ويسلموننا إلى سيغموند.

- أقول لك شكراً ولكني غير راضٍ عنك. تأخرت في إخباري عما كان يشغل بالك. من أجل هذا كنت أسألك إن كنت خائفاً. اطمئن يا أخي، لا داعي لليأس. قودا أنت وألكسندر شيركاسك الجيش إلى المعركة، وأنا سأمر بإعادة من ذكرت أسماءهم إلى موسكو. من تتذكر أيضاً؟ فكّر إذا كنت نسيت أحداً. - ابتسم القيصر بمرارة.

- هؤلاء من هم في الجيش المرافق لنا. وفي موسكو ربما يكشف لك شيليادين وفيسكوفات عن آخرين.

- إن لم يكشفوا انتزعت جوفيهما مع الدم! - احمرّ وجه القيصر الممتنع. ولمعت عيناه اللتان غشيتهما الدم.

أخفي عن الجيش أنه انتزع السلاح من الخونة بحجة الاجتماع، وأعيدوا إلى موسكو مقيدين. وركب القيصر دون أن يقول شيئاً للقادة المربوطين إلى ظهور الخيل. وعاد مع الحرس من الأمام والخلف إلى موسكو.

وصل القيصر إلى الكرملين فبدأ من لا يعرفون ما جرى بالاختباء هنا وهناك. وأمر بخشونة سكوفاتوف وغريازنوف اللذان استقبلاه:

- اعتقلوا فيسكوفات وشيلياندين، وغيرهما ممن تشكّون فيهم! وقيدوا جماعة بيلسك الذين أعيدهم بالأغلال. وأنا سأستجوبهم بشخصي.

أسرعت غشوناي إلى زوجها حالما سمعت بعودته. كان القيصر ما يزال بلباس الحرب، والسلاح إلى جانبه، حاسر الرأس، والخوذة بيده. يذرّع أرض الغرفة دون وعي. والوجه شاحب تماماً. وعلى شدقيّه الزبد. ولم يتوقف رغم أنه لمح ماريا على قائمة الباب. ثم استدار بحركة خاطفة، وسألها دون تسميتها:

- هذه أنت؟

- أنا يا فانيوشا، اطمئن، وهات الخوذة، - أخذت الخوذة بصعوبة من الرجل الذي كان ينظر إليها دون ثقة، غاضباً. والتصقت بالدرع البارد ولمست شفّيته ووجنتيه. - دعنا نجلس، سيكون كل شيء بخير يا روبي الوحيدة. وأعلم ما جرى...

مرة أخرى انتزع القيصر نفسه من حضن زوجته. وفغر عينيه شاكاً فيها وسألها:

- هل كنت تعرفين حقاً بالخيانة؟

- ماذا تقول يا روحي الوحيدة!! - صرخت غشوناي.
 - كنت قلقة ساعة نويت السفر. - اعتقدت أنك كنت تخفين عني شيئاً...
 - يا إيفان فاسيليفيتش، يا حيي الوحيد، بالله عليك ما الموضوع الذي تتكلم فيه؟ - سألته بصوت حازم تريد إعادة الوعي إليه، ولامته: - هل سنجلس هكذا مكتوفي الأيدي؟ من يمد يده إلى عنقك يمدّها إلى عيني. لن ترأف بمن كانوا ينوون الشر بقيصرنا. وتُرهب من لم يخطر له مثلاً هذا. استدِرْ إليّ أخلع عنك الزرد. لا، لا حاجة إلى مساعدة. كنت أخلع عن والدي وإخوتي لباس الحرب.
 في الليلة نفسها التي تعرّض فيها شيلياندين وفيسكوفات للتعذيب بالحديد المحمّى كشفّا كل شيء. وفي الحال أرسل القيصر الفرسان لاستدعاء ستاريسك.

VI

لم يحدث أن كان الفلاحون مستائين من أمرائهم كما الآن. ولم يفكر الأمير شبق في سبب هذه الظاهرة. تذكّر قول والده: " سبب احتجاجات الفلاحين هو صراع الأمراء "، ففرك وجهه الشاحب معاتباً نفسه. ثم هرب منه القلب الصغير وهو يتأمل بعينيه الباهتتين عمود السقف ثم النافذة، فطاف في إقليم الأديفة. لو كانت الجانيه وحدها هي من رفع فيها الفلاحون رؤوسهم لكان الأمر. لم يكن بين إمارات الأديفة وقراها، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب مكان لم تمزقه الخلافات والتناحرات. ولم يخلُ الماضي من انتفاضات فلاحية، وفي تلك الحالات كان الأمراء المتعادون يتحالفون سريعاً فيُخدمون تلك الحركات. وفي تلك الأزمان كان الطامعون في أرض الأديفة من الرُّجُل والأشرار قليلين. يخالطهم أناس من مشارب مختلفة، ويعبرون أرضهم في طريقهم. ويأتيهم التجار والمبشّرون. وفي هذا الصدد عمل معهم بجِدٍّ أورشليم وبيزنطة والإغريق وغيرهم. والآن زاد عدد عابري أرض الأديفة - الجنة، من ساحل البحر الأسود إلى جبال القفقاس، المدركين قيمة هذه الأرض، الطامعين فيها.

نهض الأمير شبق مسرعاً وقد أدرك متأخراً جداً أن سبب طمع الأعراب والدول المجاورة في أرض الأديغة هو افتقارهم إلى دولة، وإلى نظام معين للحماية وجيش منظم، كما تعربد الفئران في البيت الخالي من القط. ولكن الرّجلين اللتين ثقلتا عجزتا عن حمله فأمسك بجدار الأريكة. ثم جلس خجلاً، لائماً نفسه على إحباطه، هو وغيره من الأمراء، مديراً رأسه نحو جاره: كان من الممكن أن يستلم منذ البداية علّم مشروع الدولة من قلقت الذي حمله سنوات عديدة، غير أن العجرفة الأديغية منعتهم. ولو ترك قلقت وتولى هو مهمته لأحبطه أمراء أعراق الأديغة الاثني عشر من أمثال الأميرين تاخ وفواخ، ومنعوه من الخروج من حدود الجانية. ولو اجتمع الأمراء الكبار للأعراق لتحاربوا على من الأولى منهم بالزعامة. كيف كنت تُقنع الأمير فايثقوه؟ وابنه أبشق الذي حلّ محله يرى نفسه كبيراً جداً. وتيمرقوه فوق كل هؤلاء، ذكي وصارم بعيد النظر. ولن يقبل الوقوف في درجة أدنى من غيره من الأمراء بعدما ناسب خانات أستراخان وقازان، ووطّد جذوره نحو قيصر روسيا.

لن تخطو خطوة لم يصل إليها عقل الأديغي دون أن تعرف من أين؟ إنه بريء القلب، يثق بالجميع، ويصدق كل ما يسمع. صار من يرغبون في الاستيلاء على كعكة القرن كلها أو الجزء الأكبر منها كثيرين، ولذا يغريه كل ما يسمع من هؤلاء. هذا الأمير يتوجه نحو القرم فيرتقي كتفها ويتطلع نحو تركيا، والآخر عقد أمله على روسيا، وآخرون لا يمانعون إن استطاعوا محالفة الفرس أو الروم الذين نسي أنهم مروا على جسده يوماً من الأيام. ومع ذلك فمتى اجتمع الأمراء، كبارهم أو أمراء القرى، وحنى لك أضعفهم رأسه فهو ينظر إليك بعين السخط والحقد، وإن أطلقت له الحرية وقف إلى جانبك يرى نفسه من مرتبتك. لا يعرفون تمييزاً بين الناس ولا الأقسام. يركبون مع أيّ طالب نجدة يطرق بابهم، ويحاربون إلى جانبه. ويضحون بحياتهم معتدّين برجولتهم. وإن طلب السلطان منهم ابنتهم الجميلة اجتمعوا وزوّوها إليه. ثم انكمشوا على أنفسهم لا تعرف السبب، ونفروا منه مهما كان غنياً.

ورغم أنهم يعيشون حياتهم يتنافسون على الرجولة والاستقامة فالكثير والحسد والسخرية المتبادلة والمؤامرات الصغيرة. كيف استطاعوا أن يُضيفوا هذه المثالب

إلى مكارمهم التي يُحسدون عليها؟ ألا تستوعب عقولهم أم أن الأقوام الأخرى كالأديغة أيضاً؟ خلق الله الإنسان فزرع فيه الخير والشر. والأديغة كغيرهم من تلك الطينة نفسها خرجوا. ومع ذلك أعطاهم لغتهم وشرعتهم المختلفتين عن كل ما لدى غيرهم. سيعيشون عمرهم على الأرض لا يعرفون من الأحسن والأقوى عليها والأجدر بالزعامة، يتنازعون على الحبل، يبحثون عن طريق الحرية التي هي مبتغاهم.

احترار شبق في تقييم قومه مُوازناً بين الحسنات والسيئات. تنفس ملء رئتيه متنهداً مرتعشاً وخاطب نفسه: "أحبكم مهما امتدحتكم أو عاتبتكم يا قومي الأعزاء. أنتم من منحتموني الحياة وريتموني حتى جعلتم مني رجلاً. حسناتكم وسيئاتكم مزروعة فيّ. وحجابكم على وجهي لا يسمح لي أن أنظر بعيداً. وكبرياؤكم وحُبثكم دفعاني كثيراً إلى التبجح. وحمية قلبي التي اكتسبتها منكم أوقعتني كثيراً في الخطأ. وبساطته وطيبته جعلتاني أحسن إلى الناس. الآن فحسبُ عرفت أني، مهما تلهفت، وصعدتُ إلى السماء ونزلت، لن أستطيع اكتساب طبيعة لم تزرعوها أنتم فيّ، ومن غيركم يمنحني عقلية أخرى؟ - رضىخ الأمير لما عاد إليه في شيخوخته ونهر نفسه: - ما الذي جرى لي اليوم فأنظّم أمور الأديغة في العالم؟ لماذا أريد أن أفرض أفكارى على الجميع؟ أنا عملتُ ما أستطيع... هذه طبيعة المسنين يبالغون في التفكير. تنبّه إلى كثير من أخطاء الماضي ولكن لن تلحق بما فاتك. ما يصل إليه عقلك تعجز عنه قدماء. رجلاي عاجزان عن حملي وركبتي تؤلمانني. كنت أودّ إحلال الولد الأصغر حملي وأنا في قوتي ولكن لا أظنني سأشهد هذا أيضاً. لن تخرج بشيء من الصراعات التي بدأت. الولد الأكبر سلبه مني قيصر روسيا، انبهر بالروس، فضاع كل أمل لي فيه. قامبولت يحمل قلباً أديغياً صميماً إن وثق به الجانيه وقدموه عليهم فقد ينفعهم أكثر مني إذ اتفق هو وقلقت جيداً. يطوف هنا وهناك بقلب غير مطمئن، يتشوّف ما وراء جبالنا على رؤوس أصابعه. إن تسنى له أن يحقق أفكاره استطاع ما لم يستطعه جيلنا. حمى الله أرض الأديغة! نساء الأديغة سيُنجنّ ويرين... ولكن ما من أمل كبير تبعاً لأطماع الأعداء في أرضنا. علمنا يشيخ مثلي أنا، أنسى اليوم ما حدث أمس، وأعيش في الماضي

البعيد. نرتعب مما سيحدث، ونفرح بالفجر الجديد، على رأي لأماف العجوز الطيب. يقولون لي: الثمانون ليست عمراً كبيراً، ولكنه ليس قليلاً بالقياس إلى ما شهدت من أحداث. لأماف عاش مئة سنة ومات بعقله وعلى رجليه. أنا اجتمعت مراراً بالقيصر وبسلطان تركيا وبخان القرم وتقاسمنا أفكارنا، ولكن لأماف لم يكن أقلّ منهم شأنًا في عقله وذكائه. كان يدرك ما ينويه بحقنا أولئك القادة. كنت خائفاً ألا يغفر لي القيصر ما فعلته فينتقم من ولدي حين عاد إليه ولكنه طمأنني أن القيصر لن يفعل مثل هذا، غير أنه أردفه بأن خان القرم لن يغفر سلوك ولدي. لا تزال فرحة العجوز في خيالي قائلاً حين دحر الفلاحون بقيادة قلقت جيش عادل - جري الذي اقتحم أرضهم: "سأموت قرير العين إن شهدت التتر مهزومين ولو مرة واحدة!" وأضاف خجلاً: "لا أقول هذا لأن جارك صهرنا بل لأنه صار خبيراً بالقيادة وتوسّع تفكيره". فوّت مناسبات كثيرة كان عليّ فيها أن أطيع صهرك. وها هو دولت جري يهددنا الآن بمهاجمتنا مدعوماً بالجيش التركي، يهددنا بشيّر حرب علينا نحن وروسيا، ويُخشى أن يؤيده السلطان الجديد سليم. سنرى ما يجري، ولن يكون أسوأ مما عبّرنا من مأس. لا ألعن من كانوا أعدائي من الأميرين تاخ وفواخ، والسلطان سليم ممن رحلوا إلى العالم الآخر. وأنا سأتنازل عن إمرتي، كما فعل مشقوه، متى حل موعد المؤتمر القادم في الخريف قبل أن أصبح مهزأة... "اعتمد شبق بيديه على ركبتيه ولكنه لم يستطع القيام. هزّ رأسه واستعان بمسند الأريكة للنهوض. ودنا من النافذة محنيّ الركبتين.

الصباح الصيفي عابس، والسحب القرمزية الثقيلة احتلت السماء بما يُنذر بالمطر. وربما كان هذا هو السبب في تفاقم آلام الركبتين. الدار الواسعة التي كان يتردد إليها الفرسان والمشاة زمن شباب الأمير هادئة الآن. والمحددة المهجورة وموقدها فاغراً الفم نحو السماء. قال الأمير لنفسه: "منذ زمن بعيد لم نوقد النار فيها" وتفقد يديه وقال: "هاتان لا تزالان قويتين، ولا يزال قلبي ونفسي مقبولين لولا أن رجلي خرجتا عن طاعتي. وأفمق وقامبولت ليس عندهما الوقت للعمل في الحدادة. لو وجدت الورشة جاهزة لأنجزت بعض الأعمال. وسيأتي قلقت كما كان يفعل أحياناً متى سمع الطرق على السندان.

ولكني لم أره. لا يزال غائباً في الغرب، هو وقامبولت، منذ يوم جنازة لأماف حين أخبروا باختراق جيش فرسان النغوي، فاندفعوا لصدّه دون أن يخبروني كما يفعلون عادة مع المسنين الذين لا ينفعون لشيء، وهذا ما كنت تلمّح لي به دائماً وأرفض قبوله، ففهمته الآن. نحن لم نوسّع معارفنا وعقولنا مغترّين بمناصبنا خلافاً لما فعل قلقت، وهذا ما هداه إلى مشروع تأسيس الدولة. الإنسان المكتفي فكره وقلقه محدودان. ولأماف كان من يستحق أن يكون سلطان الدولة المقترحة لولا أنه تقدّم في العمر كثيراً، أما نحن الأمراء فكنا نتناحر على المنصب، ونتأمر. كنت غضبْتُ حين رَشَّح الأمير مشقوه قبل زمن بعيد أيّ شخص عنده فكرة الدولة للمنصب، ولكن تبَيَّن أنه الصواب. لماذا تترك من يهديك الطريق القويم، كائناً من كان، وترغم من يضلُّلك؟..."

فارق شبق النافذة مغالباً رجله، وتناول من وراء الباب العكازة العجائزية المزينة. كان قد شعر بشيء من الإهانة حين جاءه قامبولت بها من القبرتاي معتقداً أنه لم يصل بعدُ إلى هذه المرحلة من العمر، ولكن الفتى كان لاحظ قدم الشيخوخة، وحاجة والده إلى رجلٍ ثالثة.

اقترب شبق وهو يتناول العصا من عُدتّه الحربية. وتفقد الصندوق الصغير المقدم من القيصر، المرصّع بالذهب والفضة. ولمس الدرع المهداة إليه من السلطان سليمان، والمصحف الذي قدّمه إليه خان القرم. وفي هذا العالم الذي أعادته إليه هذه الذكريات، حين كان في أوج قوته، ظهر فجأة شخص آخر: بُجَمَت المسكين الذي كان مخلصاً له قلباً وعقلاً، والذي قضى في أرض الغربة. وارتعب من فكرة التقائه به يوم القيامة. تألم قلبه، وأغمض جفنيه، ودعا إلى الله أن يغفر له ما أذنب بحقه، إذ دفعه إلى الجريمة لإنقاذ نفسه. وإذا كنتُ برأتُ نفسي أمام وتنع فقد بقيت مذنباً بحقّ بجمت. بقيت مخلصاً للجانيه مهما قبل في حقي. ليس عجباً إن أخطأتُ أحياناً فمن يعمل يُخطئ. أنا قدمت لهم الكثير، بل يمكن القول إنني ضحيّة بولدي الأكبر في سبيلهم. رحل تاخ وفواخ دون أن يفهما براءتي، في حين صالحني الأميران جان ومرتوق معترفّين بخطئهما، وأنا ساحتهم. والآن لماذا أقف مسرّاً في مكاني بحجة آلام الركبتين؟ هذا لا يجوز، كلما حرصتُ على صحي تفاقمت حالتي..."

أجفله صوت الباب الذي انفتح فجأة، ومع ذلك بشّ للحارس هو يلومه:

- أطلتم الغياب يا أيدار!

- خفنا أن نقطع عليك استراحتك.

- وهل أظل في استراحة دائمة؟ قضيتُ الليل الطويل بصعوبة. - ما كنتم لتعرفوا

ولو تمددت للأبد؟

- لا سمح الله يا أمير! كيف يصلك الموت؟ رأيته واقفاً إلى النافذة...

- لا بأس إذن، - قلق شبق في سِرِّه. - ما الأخبار؟

- في القرية مأمم.

- من؟

- عجوز آل برغاشت.

- هكذا! - نظر الأمير في وجه الحارس بوجه مرتعب. - سلّمني برغاشت

أسلان الراية إذن! نحن من عمر واحد. حدث في صبانا أن تضاربنا حتى

سالت دماؤنا. ومن وقتها لا أستطيع أن أقول إننا كنا صاحبين في شبابنا

وشيخوختنا، ولكن لم نتبادل كلاماً مهيناً. ولم يسمعي أحد أتكلّم عليه بسوء،

ولم يسمعه أحد. عاش حياته منطوياً على نفسه. ولا أذكر أنه شارك في أي

مؤتمر للجانيه. ولا أظن أنه كان عنده أصدقاء يسندونه. لم يهتم بشيء كما

فعلت. عاش حياته لأسرته فحسب وكان ليس في العالم غيره.

- يا حسرتي يا أمير! لو كان أسلان وحده هان الأمر. كثيرون بين الأديغة من

لا يهتمهم إلا أشخاصهم ولا يقلقون لو انقلب العالم، فلا يخطون خطوة زائدة.

أنا لا أقيسك بهم. سأمحي يا أمير، لا تتصورني أعبر عما في قلبك، ولا تعتب

عليّ إذ أقيسك إليه، قليلون في العرق من يشبهونك أنت وقلقت، يعيشون من

أجل القوم. لا شك أننا كنا عشنا حياة أخرى تماماً لو كنتم أكثر من اثنين.

- ما العمل يا إيدار؟ - تنهد شبق، - لو كان الأديغة متشابهين لربما تضامنوا

أكثر أو تشاحنوا... ليس من شأننا تقييم أسلان، بل ندعو الله أن يجعل من

بدل آخرته بدياه من أهل الجنة. أنا لن أستطيع زيارة أهله للتعزية. بلّغهم حالي

وحزني عليه، إن لم يرق لهم كان ثواباً لي. ولحّد لهم بضعة خراف.

صحا الجوّ في اليوم التالي فبدأ للأمير شبق أن حاله أحسن، فنادى حارسه وسأله:

- كيف حال حصاني؟

- مشتاق إليك يا أمير.

- هل تروّضه أحياناً؟

- كل يوم.

- هذا جيد، أسرّجه لي، وأوقفه عند المسطبة دون عِلْم السيدة الكبرى. ألن تساعدني على الركوب يا أيدار؟

- بكل تأكيد يا أمير!

- لا تخفْ عليّ من أيّ شيء متى صرْتُ على صهوته. - نظر إلى حارسه بعينين حادتين مرحتين.

رأت زهرةً من النافذة حصان الأمير إلى جانب المسطبة، فخرجت جزعاً ونادت:

- ماذا تنوي يا أمير؟

- عندي نوايا كثيرة. - امتطى شبق الحصان بمساعدة الحارس. ومازح السيدة الكبرى وهو يضع قدميه في الركاب: - لا تقلقي، لست ذاهباً إلى زفة عروس.

أريد الذهاب إلى ناحية بحر آزوف حيثُ ابن حميك وابنك. طال غيابهما...

- يا مصيبيتي ؛ نسيتَ حالتك! - مشّت زهرة إليه مادّةً يديها فرفض شبق:

- اهدئي! سأروض الحصان وأعود.

قال شبق باسمّاً بعدما خرج هو والحارس من القرية وعدّوا بحصانيهما قليلاً:

- ألا ترى السيدة الكبرى فقدتْ ثقتها بي إذ حبستْ نفسي في البيت!.. ما رأيك أنت يا أيدار في طريقة ركوبي؟

- لم يتغير شيء عن الماضي يا أمير.

- لتتسابقِ إذن! - فهم أيدار من نبرة الأمير ومن عينيه أنه لم يهرم بعد.

لازم الحارس الأمير متأخراً عنه مقدار رأس حصان ريثما قطعاً غلوة واحدة. وربما كانا قطعاً أكثر لولا أن رأيا جماعة فلقّت فعادا إلى الخب. قفز الفرسان

من خيولهم أمام الأمير حالما وصلوا. وأجابهم هو على تحيتهم:

- أهلاً بكم! والله أطلّتم غيابكم يا قلقّت. ما الأخبار حيث كنتم؟
- أقمنا هناك دون جدوى يا أمير ؛ لم يعبر الترك والغوي بحر آزوف. علمنا أن تركيا تنوي شنّ حربٍ على روسيا. الجيش الذي يقوده قاسم بيه، والذي يزيد تعداده على الثلاثين ألفاً، يتجه نحو خانية أستراخان. وينوي مهاجمة قلعة تيرك.

- لم تحملوا خبراً سعيداً وإن لم يعبر جيش العدو إلى جهتنا. هذه حرب، وما من حرب خيِّرة. يُخشى أن يورّطونا نحن أيضاً فيها... اركبوا وتعالوا! - وبعد مسافة سأل شبق: - يا ربي، هل يعرف القيصر بالأمر؟ وأجاب نفسه: لا بد أنه يعرف! ثم أعلن ما يجب أن يفعله: - يجب إخبار أعراق الأديغة كلها. لا يجوز أن نقعد بحجة أن نار الحرب لن تصل إلينا. أعتمد عليك في هذا وفي جمع زعماء الفلاحين يا قلقّت.

- وكنت جمعتُ الأمراء لو أطاعوني...
- أفهم الأمير الذي لا يطيعك في مثل هذا الموقف الحرج، باسمي وباسمك وباسم الأديغة كلهم، أنه بلا عقل. أين أخوك الأصغر يا أفمق؟ لا أراه بينكم؟
- قامبولت، - أجاب قلقّت بدلاً من المسؤول، - تولى قيادة جيش الفلاحين الذي تركناه على شاطئ بحر آزوف.

- هكذا؟ - ابتسم شبق، وفرحه يغلب تعجُّبه، كأنّ ما قرره بشأن ابنه قد تحقّق، ولكنه أضاف راغباً في كتمان شعوره: - حسناً إن كان على قدر المسؤولية...

VII

إيفان غورزني القيصر الذي ترك الجيش على الطريق وعاد حالاً إلى موسكو أمر في الأيام التالية باعتقال الكثيرين المعروفين من الجميع. كانت أوامر القيصر تنقذ حرقاً بحق سكوراتوف وغريازنوف وغيرهما وإن لم يخرج هو من مقرّه. وضاعت السجون والأقبية بالنبلاء وقادة الجيش ورجال الدين، وأُسِرَ هؤلاء. الجميع بانتظار أوامر القيصر بحق المعتقلين. لا يخرج القيصر الذي أهين من البيت منذ عدة أيام. ولا يسمح إلا لبضعة أشخاص موثوقين بالاقتراب منه.

ليس خوفاً بل لا يفهم سبب تفكيرهم في التآمر على قيصر هذه البلاد الواسعة، ويراه عاراً عليه. لو لم يكن يسعى لتوطيد الدولة، ولو كان يبدد أملاكها، ولا يحمي حدودها، ولو كان يقضي أيامه في اللهو والشرب، لرضخ لأيّ عقاب يرتؤونه. ولكنه لا يُنسي الأمراء الذين سلبهم إمرتهم الحقد الذي تجتمع في صدورهم عليه. ولا يرون ما يقدم من معروف للبلاد وللناس الفقراء. تأسف للكثيرين الذين لعب الخونة بقولهم دون أن يعرفوا بنواياهم الشريرة، ثم قال لنفسه غاضباً: "ما العمل، حين تُجثتُ الغابة يتطاير كثيرٌ من نثار الحطب..."

حين يبدأ القيصر يذرع أرض الغرفة محيّي الظهر شاحب الوجه لا يكفيه القصر الكبير: أحياناً يخطو خطوات طويلة، وأحياناً يبطئ. ثم يتوقف ساخطاً. يجلس، ثم يغرق في التفكير ساندأً رأسه براحتيه. ينهض فجأةً ويقف إلى رقعة الشطرنج، ويلعب نفسه. ويحدث أن يتناول في اليوم وجبتين أو ثلاثاً، وأن لا يأكل البتة. يطلب الطعام إلى غرفته ولا يذهب إلى المطعم. ولا يتبادل هو وزوجته أي كلام حين يجلسان إلى المائدة، اللهم إلا الصلاة التي تسبق الطعام، والصليب الذي يُرسم قبل القيام عنها. غشوناى تتفهم ما يغتلي في صدر الرجل فتحرص عليه، وتلاطفه ولا تثرثر معه. ولكن ما تعانيه هي أيضاً بلا حدود. عرفت طبيعة الزوج الصعبة فتخاف أن تفتتح هي الحديث، وتخوض في ما لا يجوز، فتزيد من أزمته.

قال القيصر يوماً لغشوناى:

- لم يغفر لي ستاريسك أن حلقْتُ لأمه شعرها وأرسلتها إلى الدير. كان ينوي أن يوجّه إليّ الشرور التي كانت تحملها أمه لي. إذا فعل بك أخوك هذا فما بالك بالأشرار الآخرين؟ كنت أتعجب من كوريسك فإذا بستاريسك يطمح إلى منصب القيصر. كان يريد أن يمسخنا، أنا وأنتِ وأطفالنا، وكل ما رزقنا إياه الله، من الوجود؛ فماذا يستحق؟

- إن كنتُ من تسألها يا إيفان غروزني، يا قيصر روسيا العظيمة، - مطّت غشوناى الجواب، ولكن القيصر استعاد منها الحديث:

- أنتِ، أنتِ يا ماريا تيمريوكوفنا، يا سيدة روسيا الأولى.

- إن أعطيتني يا عزيزي فلن أدعك تؤذي أقرباءنا، - قالت غشوناي حذرةً، ثم أكملت ووجنتاها تتوهجان: - ولكن من يعاديك يعادي الوطن فمُدَّ يدك إلى روح من يمدُّ يده إلى عينك!

- فهمتُ... - كرر إيفان الكلمة التي أعجبتة يوماً وهو يلعب الشطرنج، وبعثر بظاهر كفه أحجار الخصم غير المرئي الذي كان يلاعبه، وتوجه إلى المرأة: - حياك الله يا ماريا تيمريوكوفنا، أعدائي هم خونة الوطن، فلن أرحمهم أياً كانوا، أقرباء أم أصدقاء.

- كلامك قانون لي يا قيصر روسيا كلها، - أيدت غشوناي الزوج دون تردد. - من مدَّ يده إلى عيوننا انتزعنا روحه! - أعاد صياغة القول المأثور الأدبجي، وأمر بإحضار رئيس الأساقفة فيليب إليه. - نظرت غشوناي إليه تريد أن تقول إن الأفضل أن يذهب هو إليه، غير أن القيصر رفض: - لا ترجيني! أنا القيصر لا رئيس الأساقفة. أنا من يؤتة هذا المنصب الديني الكبير غير أنه لم يفهم. لا ينسى أي نفيث أهل آله آل كولشيف إلى دير سولوفيسك. ولا يزال يحتفظ بحقه عليّ منذ ذاك الحين. ولا يعترف بأي أمرتُ باستدعائه من ذلك الدير، وجعلته زعيم رجال الدين في الدولة. بل يُقنع نفسه أن الله منّ عليه، لا أثق به. حقاً كنت ترجيته أن يستلم المنصب بعدما اتفقت معه ألا يتدخل في شؤون أسرتي، ومنحته بعض الحرية، غير أنني أظنه يساند خصومي.

- أكثر من يحيطون بنا لا يستحقون الثقة بهم. - تنهدت غشوناي. - ما نغفره لهم لن يغفره أحد منهم لنا. يذكّرني ما يفعلون بك هنا بما كانوا يفعلون بوالدي هناك. ربما الناس متشابهون في كل مكان.

نصّ القيصر رأسه الهائج، ونظر بعين الرضا إلى زوجته:

- صحيح يا كوشيني. شرّ الناس وحُبثهم بلا حدود. لا يميزون الخير من الشر. من تُحسن إليه يُعاديك. أنا فهمتُ هذا منذ طفولتي. لا فرق بين روسي وشركسي وألماني وبولوني وتتري. من عنده السلطة يبحث عما فيه فائدة له. عرش السلطان عالٍ، غالي، مُغرٍ ولكن كثيرين لا يفهمون أنه يُحرق مؤخرة شاغله. وأن مشاغل الدولة التي لا تنقطع تغنيه، ويشيخ القلب منها.

- قومي أيها القيصر لا دولة عندهم ولا سلطان، ولكن همومهم لا تنتهي.

- يا أسفي يا كوشيني الحلوة، الإنسان يشتهي ما ليس عنده، ويُفنيه ما عنده، وكذلك القوم. ومع ذلك فلن تصبح أمة إلا من خلال الدولة مهما كانت الصعوبات. وهذا هو السبب في تَمَيُّ الشراكسة الدولة التي يفتقدونها. ابتسم القيصر ببراءة، - ونحن نسعى إلى تحالف قومك معنا. وتركيا لن تسمح لكم، ما أمكنهم، أن تصبحوا دولة. وإن أسسوا دولة فسيستباحون على كرسي الملك كما نحن. الشراكسة، حسب تقارير القادمين من عندهم، لم يصلوا إلى مرحلة الدولة. وقد لا تتحقق لهم. سأتوجه إلى ناحيتكم إرهاباً للتتر وتركيا متى انتهيت من مهامى القريبة وأخضعتُ أعدائي. سأفتح طريقاً عبر القبرتاي نحو الكارتفيل¹ والأرمن من أبناء ديننا الذين يعيشون وراء القفقاس. والشراكسة الذين تقاسمناهم مع تركيا سأتركهم يعيشون في إماراتهم المشتتة. وهم لا يريدون أكثر من ذلك.

ما إن ظهر رئيس الأساقفة فيليب في عباة الطويلة ومشيته الناعمة حتى نهض القيصر غير راغب في قطع حديثه. وفعلت غشوناي كما فعل زوجها ولكن الأسقف تجاهلها. حيّاهما بحركة رأس، ثم رسم الصليب عليهما، كلاً على حدة. وقبل اليد التي مدها إليه القيصر. واستدار إلى غشوناي ورسم عليها الصليب ثانية. وجلس على مكانه المخصص له مقابل العرش. وخرجت غشوناي تاركة الباب موارباً كي تسمع الحديث.

- أنت، بما أنك تترأس رجال الدين في روسيا، تعرف ما يحدث في البلاد دون حاجة إلى تذكيرك. أرى أنك لابدّ تقلق كما أنا للمشكلات التي تثيرها بعض الجماعات.

- أنت وأنا نفدز جنباً إلى جنب المهام التي أناطها الله بنا يا قيصر روسيا كلها.
- هل تتصور حملنا، أنت وأنا، واحداً؟- سأله القيصر دون ذكر اسمه ومنصبه، مستاء من مقارنته نفسه به.

برأ الأسقف نفسه مخفياً ارتعابه:

¹ أي الجورجيين.

- أقول هذا لأننا نعيش في دولة واحدة، وممتلك الوطن معاً يا قيصر روسيا كلها.

- أعرف أننا نعيش في دولة واحدة، ولكن لا يُعجبني قولك إننا نعيش فيها وممتلكها معاً.

- تُذنب بحقي أمام الله أيها القيصر الكبير، - خرجت العبارة الأخيرة من فمه بصعوبة فائقة رغماً عنه.

- أنا أُذنب بحق الجميع. رفع القيصر صوته في نبرة سخرية، - وما يجنونه من ذنوب بحقي كل يوم لا يأتي أحد على ذكرها.

- أنت، بعد إلحنا العزيز، من بيده كل شيء.

- لم أَسْتَدْعِكَ لأَذْكُرْكَ بأنك على رأس المسيحيين. بل من أجل الحرب التي أعلنتها على أعداء الوطن، وعلى إعدامهم المنتظر. ولا أسألك أن تأذن لي بهذا.

- ليس لي الحق في نقض أوامرك أيها القيصر العظيم. ولكني لن أستطيع أن آذن لك أن تزهق الروح التي غرسها الله في إنسان مذب أو بريء.

دخلت غشوناي والقيصر متورد الخدين لا يتحمل كلام الأسقف، فاحتدت بصوت عالٍ خجلة من التنصت عليهما:

- كيف تقول هذا وأنت تعرف أنهم أعداء الحكم، يريدون أن نبقي بلا دولة؟!

- أنتِ امرأة، وأنا رجل دين يا ماريا تيمريوكوفنا، الأفضل ألا نتدخل في ما ليس من شأننا.

- لا تنسَ أني زوجة القيصر العظيم! - أجابته غشوناي بكلام فظٍّ لم يتوقعه الأسقف.

توجه فيليب إلى القيصر شاحباً واجماً، ولكن الآخر ضغط عليه:

- اعتبر ما قالته لك ماريا تيمريوكوفنا زوجة القيصر كلامي أنا. أنهى كلامنا هنا. أكدت اليوم كما في الأيام الماضية أننا، أنت وأنا، لن نتفق.

- ولكن يا قيصرنا العظيم، - لم يتراجع الأسقف العنيد وإن كان يقول في قلبه: "الزوج والزوجة من طينة واحدة لا يسمحان لك بالدخول بينهما" - ألم نتفق حين رشحتني لهذا المنصب أن تعطيني بعض الصلاحيات؟

-لم أعدكَ بأن تحمي أعداء الوطن والخونة! - قال القيصر ونحضر، ففهم الأسقف أن الاجتماع انتهى.

بعد بضعة أيام، وبعدما أعدم بضعة أشخاص على الأعمدة، دخل القيصر إلى كنيسة وسبين، وتوجه إلى الأسقف فيليب طالباً منه الدعاء من أجله، ووراءه البوليس السري، فلم يرد عليه، فكرر الأمر ثانية وثالثة، فقام بين القيصر والأسقف خصام وشقاق، وبدأ الأسقف يوجه كلمات جارحة منتقداً ظلمه وسفكه الدم، فنهزه القيصر:

- كُفَّ عن هذه الثثرة!

- لو سكت كل ذي روح لتكلمت أحجار الكنيسة ودانتك!

- طلبت منك أن تصلي إلى الله من أجلنا، لا أن تهذي بما يأتي على رأس لسانك!

- إن سكتُ زدت أنت في جرائمك ومآثمك!

- هل تقصد أنك قديس وأنا قاتل؟ أعرف ما يغيظك! يعارضني أقربائي وأمتي بدلاً من أن يساندوني. يحكيون المؤامرات لقتلي. وأنت وكيل هؤلاء. لن نتفق، أنت وأنا، بهذا الموقف. لا تُعادِ دولتك، أو تنازل عن منصبك الديني!

- أنا لم أترجلك لأجل منصب. أنت تعرف هذا جيداً. ولم أدفع مالا لبلوغه. ولا مارست الحيلة لأجله. ما كان عليك إذن إخراجي من دير سولوفيسك حيث كنت أستريح.

تمالك القيصر نفسه في الوقت المناسب، ولم يتكلم في مكان آخر، غير أنه أمر في الأيام التالية بإعدام عدد آخر من الأعداء على الخوازيق. ولم ينس كلام رئيس الأساقفة وموقفه. وأمر رجال الدين في عدد من المدن بالكلام على فيليب رئيس الأساقفة متهمين إياه بما يستحق وما لا يستحق، فانتشرت أخبار تقول إنه معتقل في مدينة تغير، وأخرى تقول إنه دُفن حياً في مكان آخر.

مهما قيل فإن القيصر إيفان دشّن في روسيا قتل الناس وإبادتهم بعد ما جرى لفيليب رجل الدين. وأكثر مكان سُفك فيه الدم كان موسكو. ولم يكن يمضي يوم دون أن يُعدم اثنان أو ثلاثة في ساحة الكرملين على الخازوق أو تُقطّع رؤوسهم.

كلما اقترب موعد تقرير مصير رجال الدين في الدولة زاد اشتعال غضب القيصر الذي لا تفارق فكرة الانتقام رأسه، وتورطت فيها أسرته. لم تبق في غشوناي رحمة ولا لين، تتلهف على أن تفعل بأعدائها ما كانوا ينوون فعله بها. ولم يبق لولدي القيصر حديث إلا القتل والإعدام. ويُخيل للقيصر أحياناً أن المآسي التي تنتظرها السيدة الأولى والولدان تقرهم بعضهم إلى بعض. ويسرّه هذا ويجزئه: "أهو أمر إيجابي أم سلبي تحوّل قلوب زوجتي وولديّ نحو القسوة؟ سيظهر لهم أعداء كثيرون إن صاروا في موقعي ولكن لا يُجابهوني! يجب أن ينشأ الولدان قوين قادرين على مقارعة الأعداء، متمتعين بالصلاية والتصميم. عليهما أن يفهما الفرق بين أن تموت خائناً لبلادك، وأن تموت في سبيله. الخونة والساعون إلى إبادتنا لا رحمة لديهم. ونحن لن نأف بهم!"

- هل قلت شيئاً؟ توجه القيصر إلى زوجته وقد خرج من أفكاره.
- لا، ولكن أريد أن أترجّاك في مسألة.

- وما هي؟ - يجيبها سريعاً في ما يشكّ فيه: - إن كنتِ تريدين القدوم غداً إلى ساحة الإعدام فأنا أُخبرك أننا لا نسمح للنساء بهذا. لا تنسي يا كوشيني أن لا حاجة بك إلى مشاهد الدم لأنك امرأة. إما أن يقسو قلبك أو تنهاري.
- أود أن أسمع أنين من كانوا يسعون إلى قتلنا! وإن رفضتِ تنكرتِ بملابس الرجال وحضرتِ. وإن لم تر هذا مناسباً فاسمح لي أن أراقب من بعض منافذ الكرملين.

- تريدين التشقّي بعينيك من الأعداء. إن كنتِ متأكدة من أنهم لن يروك فأنا أسمح بالاقتراح الأخير. ولكن لا يجوز أن تكوني وحدك. اصطحي امرأة تثقين بها!

- شكراً يا روعي الوحيدة. أَرْضَيْتِي. ولكن عندي شيئاً آخر يُقلقني، لا أعرف كيف أصارحك به.

رفع القيصر رأسه عن رقعة الشطرنج التي يلعبها معها، وقال:

- أيّ موضوع يُقلقك بعد في حين أتوقع أن تنتهي مشكلاتنا غداً؟

- لا يزال فانيوش وفيدوش صغيرين، أخاف عليهما من مناظر الدم وقطع الرؤوس.

- هذان ترينهما صغيرين يا كوشيني، ولكنهما اتخذا قالب الرجال منذ مدة طويلة. ألا ترين أنني أصطحبهما إلى كل مكان وكل اجتماع؟ يسمعان حديثي ويريان أفعالي. أنا لن أبقي قيصرًا إلى الأبد. دعيهما يشعلان بمعروف البلاد ويمتاعبه. وليشما رائحة الدم والنار. ودونها لن يستطيعا الحلول محلي. لا أريد أن يكرر ولداي مأساتي أنا وأخي الأصغر في طفولتنا. نريهما بقدر الإمكان، وأنتِ يسريني أن تهتمي بهما وإن أساء إليك أحياناً.

صباح حار. أجراس الكنائس تترنّ في كل أرجاء موسكو. وأصوات المنادين في كل مكان يطلبون من الرجال الحضور إلى ساحة الإعدام. وخيل البوليس الخاص - رماة السهام التي عُلقَت بأذنانها المكانس ورؤوس الكلاب تجري في شوارع المدينة. يطردون من بيوتهم الرجال الذين يخبثون. ويسوقونهم تحت السياط إلى ساحة الإعدام. ومن يستلذّون سفك الدم يأتون من أنفسهم. وإن رأى الحرس بعض النساء اختبأت بين الرجال طردوهنّ.

يزداد عدد الناس الذين يسوقونهم إلى الساحة الحمراء. وركبت المشانق في نسق. وركزت الخوازيق. وقطع الحديد، لوازم تعذيب الخونة، تحمى على النار. وتُغلى قدور هائلة من الماء. والجلادون يقفون مقنعي الوجوه في نسق يلبسون السواد. والمحكومون اقتيدوا منذ مدة إلى أماكنهم. والذين قضوا شهوراً في الأقبية وتعرضوا للتعذيب والتجويع يقفون في ثياب رثة وحال مهينة خائري القوى. يغطي الدم لباسهم. ومن يتهاوون على الأرض كثيرون. ومن يُغمر عليهم يرشونهم بالماء. والجميع بانتظار القيصر الذي سيخرج من الكرملين.

ارتقى عامة الناس على ركبهم حين ظهر القيصر. وبقوا على جباههم حتى وصوله.

- اجثوا على ركبكم لقيصر روسيا كلها! - صاح سكوراتوف على المحكومين، فارتمى بعضهم ولكن أكثرهم لم يتحركوا. ولم يحنوا رؤوسهم رغم الضرب. نهض القيصر الذي أجلسوه في مكان عالٍ وأشار بيده علامة احتقار للخونة:

- اتركوهم! هؤلاء جاثون على ركبهم منذ زمن طويل. لا يعرفون أن لا رؤوس لديهم وإن حاولوا أن يحنوها. ولا أمل لنا في إعادة العقل إليهم، وإن استعادوها فلن نغفر لهم خيانتهم. أنتم من نهضت إكراماً لكم، إكراماً لإخلاصكم

لقيصركم وبلادكم التي تفدونها بأرواحكم وأفديها، من أجل الناس المستقيمين الذي حضروا يوم انتقام الوطن. الخونة الذين أوقفتم أمامكم خلال هذه السنين لا يريدون الحياة لي ولأسرتي وللبلاد. - التفت القيصر في غمرة كلامه نحو جدار الكرملين الذي تقف إليه غشوناي، ثم عاد إلى مستمعيه، - متى بدأت بمشروع فيه فائدة العرق الروسي وفائدة الوطن اعترضوني، وتأمروا عليّ. أنا من كان عاجزاً عن إنهاء حرب ليفون، والاستيلاء على بحر البلطيق إلى الآن؟ طوال سنين كنت أبدأ فيحملوني على إيقاف الحرب. دفعوني إلى إعادة أراضي التي استرجعتها بالدم، حتى بدأت من جديد. أنا من لم يكن كوريسك صديقه؟ باع بلاده والتجأ إلى الشليات. هؤلاء الماثلون أمامكم يدينوني، ويتهمونني بالظلم. أنا المذنب أم كوريسك أم هؤلاء؟

ألقى القيصر نظرة من فوق الناس الذين لا يصدر منهم إلا الهمس وحمة الخيل. ثم تابع بعد نظرة قاسية بدلاً من شارة الصليب، كلامه:

- حياكم الله على أنكم تفهموني. وتعرفون كيف تصرفت معنا نوفوغورد وبسكوف، وكيف قابلناهم. جماعة المطران بيمين كانوا يريدون إهداء المدينتين إلى بولونيا - لانفيا، والورقة التي تشهد على هذا وجدناها محبّة وراء الأيقونة في كنيسة أياصوفيا. وها هي! - يرفع الورقة عالياً ويديرها في كل الجهات. - هل كنت سأتوسل إلى من كانوا يريدون تفتيت الوطن؟ شتتناهم! ولو لم أتصرف هكذا لما غفر الله لي، ولا غفرتم أنتم. ولما لم أستجب لهم بدؤوا يحاربوني في وطني وأسرتي. ليس سراً على أحد قتلهم أنستاسيا التي رزقني بالصبيين. ولما أسست أسرة ثانية فعلوا بالطفل الوليد ما فعلوا بأنستاسيا. - ألقى القيصر الآن أيضاً نظرة خفيفة إلى جهة وقوف ماريا كأنه يسألها: هل تسمعينني؟ - لم يكف كل هذا فحرضوا أخي ستاريسك على محاربتني. وقد نال جزاءه دون اعتبار لقراءة. بين هؤلاء من يؤيد ستاريسك وكوريسك ويمين. لا رحمة لي ولا شفقة على الخائنين. وكما يقول الشراكسة الذين بيني وبينهم اتفاق سلام فمن مدّ يدك إلى عينه مُدّ يدك إلى روحه. ولكني لست مصاص دماء بشرية كما يصورني أعدائي لكم. لم أتخلّ عن إنسانيتي نحو المخلصين للوطن. لم أحكم على مئة وثمانين من الثلاثمئة الواقفين أمامكم بالموت. سأرسلهم إلى

المناطق الباردة حتى أعفو عنهم... هيا ابدؤوا بأشدهم ذنباً بين المئة والعشرين المحكومين بالموت: شليادين وفيسكوفات!

أصعدوا شليادين إلى منصة الإعدام وبطحوه أرضاً، وقطعوا رأسه بضربة فأس. أما فيسكوفات فتشبت بالأرض خلافاً لزميله، وصاح، وحاول أن يتخطى، ولكن لم يسمحوا له بالحركة. قادوه إلى المقصلة، وفرجوا بين ساقيه، ورأسه منكس. وفي الحال قطعه الجلادان بضربة من كل منهما إلى نصفين. وألقوا برأس أمين خزانة الدولة فونيكوف في الماء الغالي.

كانت الإعدامات تجري إلى غايتها حين أبلغ سكوراتوف القيصر الخبر المزعج. لم يفهم القيصر المستمتع بألوان القتل ما قيل له بادئ الأمر. وبعد ما جلس قليلاً سأل من وراءه:

— أي حرب تتكلمون عليها؟

— اخترق جيش من الترك — القرم تعداده ثلاثون ألفاً حدودنا.

— يريد السلطان سليم أن يحقق بالحرب ما رفضت تحقيقه له بالسلم. — قال القيصر بصوت يكاد يسمعه هو، — ولكنه لن يحقق شيئاً. ولن أفتح له طريق أستراخان المؤدي إلى فارس. وهذا هو السبب في تقويتي هذا الجانب هذا العام والذي قبله. وأنا واثق من الشراكسة. لاحقاً، لاحقاً يا لوقيانش، لا يجوز أن يسمع أحدٌ هذا الخبر اليوم. لا تدع الخونة المنتظرين أجلكم يشمتون. الأفضل من هذا أن تراقب كيف يرتعش الخائن فيازيمسك... استقبلته غشوناي في المساء بوجهه باشّ.

— أراك مريحة يا كوشيني، — ألقى القيصر نظرة حب إليها.

— أفرح يا روحي الوحيدة، — ردت غشوناي سعيدة، — لم يمر عليّ يوم أسعد من هذا خلال هذه السنوات منذ قتلوا طفلنا.

— ألم تدوخي من المشاهد المرعبة؟

— لا! — جازمت غشوناي متعالية. — لا تندم على ما فعلت، لو لم تتصرف هكذا لكنا نحن محلهم. الآن استمتع بالراحة عقلاً وقلباً. وفكر بما ستخدم به الدولة التي أكلها الله إليك. أعرف إخلاصك لشعبك وبلادك، ولذا أنا معك في كل مشروع تهّم به.

- شكراً يا كوشي، أنت الوحيدة التي تفهمني. ولكني أحمل أيضاً خبراً غير سارٍ.

- ما هو؟ - سألت غشوناي ووجهها يُمتقع.

- تريد تركيا الوصول إلى أسترخان وتيريك بالحرب. تشجعي ولو أنك لست جبانة. عندنا جيش قوي في تلك الناحية. وأرسلت أمراً بأن تتوجه قواتنا في سيربوخوف وتولا إلى هناك حالاً. وأصدرت أوامر أخرى إلى قادة الجيش. لا داعي لليأس.

- ولكن أليست حرباً... - انتصب أمام عينيها والداها وإخوتها الذين لا يفارقون مخيلتها. وأهمها الخبر المزعج لوطنها الجديد كما كان يُهمُّها أحواله المتعثرة.

...

كان القيصر قد أعملَ القتل في أعدائه وأعداء الدولة، وأرسلهم إلى حيث لا رجعة، ولكن توجب عليه الآن خوض حربين. لم يكن القيصر يعبأ بأي عدوٍ واثقاً من البوليس الخاص ورماة السهام الذين سلّحهم. ولم ينفكّ النبلاء والمتنفذون ورجال الدين الذين استكانوا مرتعبين عن التهامس فيما بينهم. ولكنهم كفّوا عن إنشاء مجموعات متآمرة كما في السابق. وكانت صناعة السلاح تتنامى، والناس أكثر حماساً للحرب، وأقل حديثاً عن الخيانة عن ذي قبل.

كانت الأمور تنحو ظاهراً نحو استقرار افتقدته البلاد في الماضي غير أن من يثق فيهم القيصر لا يزالون قِلَّةً. ويبدو هذا في سلوكه الحذر. لا يرى راحة إلا مع زوجته والولدين. يخاف من الطعام الذي يوضع على مائدته فيختبره أولاً بالخدم. ولا يسمح لأحد أن يخلق له لحيته وشاربيه. وكفّ عن حلاقة شعره. فإما أن يخلق بنفسه أو تحلق له زوجته.

الحرب ضد تركيا تُقلق القيصر أكثر مما تقلقه حرب ليفون. ليس لأن الموقف في الحرب الدائرة جنوب البلاد سيئة إذ ليس الجيش عاجزاً، ولا السلاح قليلاً بل لأن أخبار الحرب تبقى طويلاً على الطريق لُبُعد المسافة. ومع ذلك تصله

أخبار الحرب عن طريق أحصنة البريد التبادلي كل ثلاثة أيام. وبالطريقة نفسها تصل التعليمات إلى الجبهة. وترسل قوات جديدة براً وبحراً.

في أواسط شهر أيلول / سبتمبر دخل القيصر إلى الغرفة مشرق الوجه من الأخبار السارة. وقال للزوجة قبل أن يعبر الباب:

- اليوم الخريف المبكر جميل. والخبر الذي جئتُك به سارٌّ يا كوشيني. أوقف جنودنا زحف الجيش الذي يقوده قاسم باشا. والشراسة جابهوه بقوة، بل حاصروه من كل الجهات. ولم يبق إلا القليل على أسْرِهِم أو إفنائهم. استعدي للسفر إلى نواحيكم لأنني أريد أن أشهد انتصارنا بعيني. وأنتِ لم تري أهلك منذ زمن بعيد.

- متى نطلق؟ - هزّ الخبر غيرُ المنتظر مشاعر غشوناي.

- في الأسبوع القادم، ولكن لا يجوز أن يعرف أحد بالخبر إلى ساعة الانطلاق.

استعدت غشوناي لا يسعها فرح رؤية أهلها وقريتها. وأفردت صندوقاً خاصاً بالهدايا المتنوعة. مضى الأسبوع وحان الموعد، أفطر القيصر وزوجته وتغدياً معاً. وبعد الظهر فتح فيشنياكوف الباب متلهفاً، وقال:

- ماريا تيمريوكوفنا في حالة صحية سيئة!

انتفض القيصر الذي كان يكتب كتاباً لكرويسك، ونهض. ووصل مسرعاً إلى غرفة زوجته. غشوناي ممدّدة في السرير. تتهد ضامّة صدرها بيديها، وعيناها تكادان تخرجان من محجريهما، والزبد يسيل من شديقيها. انحنى القيصر على زوجته دون التوقف عند النساء اللواتي يعتنين بها:

- ماذا جرى لك يا كوشيني؟.. - عرف القيصر من النظرة الأولى إليها أنها سُمِّمَتْ.

- النار تحرق صدري يا روحي الوحيدة، - نطقت غشوناي بصعوبة.

- مرة أخرى آذاني أعدائي!.. أسرعوا بالطبيب، الطبيب! ما إن صاح القيصر بصوت وحشي حتى فارقت غشوناي الحياة!

كانت شمس الحادي والعشرين من أيلول عام 1569 تنحدر إلى الغروب.

VIII

لا تزال منطقة شمال القفقاس التي لا تعرف بعدُ رحيل ماريا تيمريوكوفنا في غمرة الحرب.

مهما كان جيش قاسم بيه مزوداً بالعتاد والسلاح، ومهما كان جنوده بواسل، فقد قطع الجيش الروسي الطريق عليه، ومنعه من الاقتراب من أسترخان. وحين توجه إلى قلعة تيرك مع خسائر كبيرة جابهه جيش خليط من القوزاق والقيرتاي على نحوٍ أعنف. ولما حاول التراجع منعه الجيش القادم من سيربوخوف وتولا. حوَصر جيش الترك - القرم من كل الجهات فوق في موقف لا يُحسد عليه. حاول قاسم بيه النجاة بالحيلة. وحاول المماطلة في التسليم بانتظار نجدة الجانيه. أحزن الخبرُ المتعلق بجيش قلقَت القادم من جانيه قاسم بيه أكثر مما أفرحه خبر النجدة القادمة من القرم، فصرخ:

- هذا مستحيل! ألم يعد الجانب الأيسر من نهر بشزة مُلكاً لتركيا؟
- يبدو أنه لم يعد ملكاً لتركيا ولا للقرم. - أجابه عادل - جري، وتمتم في سرّه: " أرهقت الجيش الممتاز باتباعك طريق نهر الدون، لا طريق الجانيه ".
- يجب أن أخبر قلقَت الذي حشد جيش الفلاحين في مواجهنا.
- بأي حجة؟

- هذا الفلاح العنيد ينبغي تربيته أو ترغيبه.
- لو كان هذا الفلاح الذي لا تعرفه يمكن تخويله أو إغراؤه لما جمع جيشاً من الفلاحين وجاهنّا. ليس الفلاحون وحدهم إلى جانب، بل الأمراء والمتنفذون والنبلاء. ولا أضنه قابلاً للإغراء.
- هل تقصد أنه لا يمكن لرجلين من الأديغة أن يتفقا؟! إذن أنا مغرور بأديغيتي عبثاً.

- ساجني، أليس تيمرقوه الذي يجاهنّا أديغياً أيضاً؟
- حذفته من قائمة الأديغة، صار قلبه قلب كافر.
- وماذا في قلب الفلاح قلقَت نحونا إذن؟
- لا أعرف يا عادل جري. لم أغَيّر قلبي الأديغي البتة رغم أني قائد جيش تركي، ومخلص لتركيا. - خاطب قاسم بيه نفسه، ثم غضب: - ما موضوع

كلامنا هذا! الأفضل أن نبحث عن مخرج. ولماذا لا يتحرك الأمير أبشق الذي كنت تمدحه؟ الأمير شبق لم يعد له وجود بالنسبة إلينا. والأعراق الأديعية الأخرى أدارت لنا ظهورها. ولا يُستبعد أن تحاربنا. ولكن هل انشق عنا أبشق وإخوته وأبناءؤه؟

- وأنا أفكر في هذه الأيام كثيراً في هذا الموضوع. صدق ما كان والدنا يقول بخصوص أسرة أبشق. ينتظرون ما سيحدث، يراقبون ويتصامون. المخرج الذي أمامنا من الموقف الذي نحن فيه الآن مخرج وحيد: الجيش الرديف سيدخل الجانيه بين عشية وضحاها فما إن يأتينا الخبر حتى نهاجم فجأة جيش سيريوخوف المواجه لنا، ونخرقه حتى نلتقي بجيشنا. إن كلفني بهذا فجيش الفرسان جدير بتنفيذه. ومتى تحقق لي هذا فسأحرق الجانيه العصاة.

كان قلقت يعرف أن الجيش الذي يقوده قاسم بيه وعادل - جري في ورطة. ويعرف أن من سيأتي لنجدتهم إنما يأتي من القرم. فأغلق معبر البحر بجيش الفلاحين. ولكن دولت - جري الذي قضى حياته محارباً كان أذكى منه. تظاهر بجيشه الجيش على المعبر والتف بجيشه السريع على بحر آزوف، وحشده فجراً في عمق الأرض التي لم تعد للجانيه. جعل الخبر المفرح عادل - جري يتحرك سريعاً في الليل. وخرق المحاصرين من نقطة ضعفهم دون التفات إلى خسائره، وانتشروا فجراً في السهل. وتراجع جيش مشاة قاسم بيه الذي كان يتعرض لخسائر دائمة من كل الجهات إلى المنطقة التي خرقها عادل - جري.

لا يزال تيمرقوه يسمع أصداء المعركة الشرسة التي خاضها. يمر كالحلم أمام عينيه، ويرن في أذنيه قراع السيوف، وتفاني المحاربين، وجندي المشاة الذي ينتزع الفارس من حصانه، ووجوه الرجال الخشنة، وشجاعة الشباب الذين تكاد شواربهم تنبت، وحممة الخيل الفزعة... ورغم القامة الصلبة فأثار العمر والإرهاق بادية على وجهه. رأسه منتصب باعتداد ولكنه ينظر إلى القائدين الروسيين أمامه بمودة. وهذان اللذان حلا ضيفين عليه أكثر من مرة ببادلانه نظرات المودة نفسها. ويتفقدان أولاده الجسام دومانقوه ومامسرقوه وبلغايرقوه واحداً واحداً بنظرات الغبطة. ومن رأياه أكثر من غيره وشهدا مهارته في المصارعة هو بلغايرقوه. ولكن لم يرياه في ساحة المعركة إلا في هذه الأيام. ولا

يصدّقان وإن كانا يريانه بأعينهما قدرة شخص واحد على الإطاحة بهذا القدر من الفرسان والمشاة.

يروى تيمرقوه لرفاقه ما يشعر به في يوم الخريف الحار موجّهاً صدره نحو نسيم رقيق:

- سيتغير الرعد لأن هواء بارداً يأتي من جهة الجبل. العادة في نواحيننا أن تأتي بضعة أيام باردة في النصف الثاني من الخريف يُعلّمنا بها الله اقتراب الشتاء. ثم يدفأ الجو ثانية. - يسكت قليلاً ويُكمل: - أثبتّم أيها الجنود شجاعتكم. ونحن لم نقصّر. أدعو الله أن نلتقي على خير وسلام. ثم يصافحهم مودّعاً.

- إذا سمحت يا أمير، قال الضابط رجيفسك، - سنصافح أولادك، ونشكرهم.

- كما تريدان، - يتنحى تيمرقوه، - يرى جرح يد دومانقوه وشحوب وجهه فيتألم، ويخاطب نفسه: "الولد المنحوس لم يقبل أن يعود مع الجرحى والقتلى الذين أمرت بإرسالهم. يتخرج من الجبن. لا خطر على ذراعه ولكن جرح كتفه عميق. أصابه سيف المحارب النغوي وهو يحاول حمايتي. وقد قتله حراسي في الوقت المناسب وإلا لو ضربه بكامل قوته لقضى عليه..."

قطع ثناء رجيفسك أفكار تيمرقوه. يهزّ الرجل الضخم يد مامسرقوه متفحصاً إياه. ويقول له بمودة:

- أنت رجل شجاع يا مامسرقوه. حتى عمالقة الأساطير لا يقاتلون مثلك. كنت أنسى موقعي أحياناً وأنشغل بمراقبتك.

افترق تيمرقوه والضابطان الروسيان على رضا. وحالما دخل الأمير مع أولاده حدود قريته إيداريه استقبله الكبار والصغار والنساء إلا من له ماتم بالترحيب. ترجل الجميع، وفي مقدمتهم تيمرقوه، عن خيلهم.

- حياك الله يا أمير، كسبتّم أنتم ومن معكم ثواباً عظيماً. - صافحه أول عجوز صادفه. - تشفيتّم لنا من النغوي وإن خسرنا بعض الرجال، فتح الله لهم باب الجنة. سيرتاح الأديغة ولو قليلاً من الوقت.

أطفال المحاربين يحضنون آباءهم، والآخرون يرتدون على رؤوسهم. واليافعون منهم يغبطون الخارجين من المعركة. والزوجات سعيدات يُخفين وجوههن خجالات من استقبال أزواجهن.

تقاطر على دار الإمارة كثير من الناس حتى أواخر الليل. والمهنتون يتلون المهنتين. وبقيت المضافة مشغولة زمناً طويلاً. وفي الصباح طاف الأمير الكبير برفقة بعض الرجال على أصحاب المآتم. وأرسل إلى القرى المجاورة كلمات تعزية دافئة. وحين عاد فزعوا بيت دومانقوه من الأثاث الزائد وحضّروه لإقامة حفلات الجابشه.¹

- لم تكن ضرورية، لا أظن أن عندنا من جروحه خطيرة. - تظاهر الأب بالاستياء.

- يتألم من جرحه يا والدنا، - قلق مامسرقوه. - إن خالط الشباب المرحين وسمع مزاحهم خففوا عنه آلامه. والتأمت جراحه على نحو أسرع. اكتفى تيمرقوه بمز رأسه.

انتهى البرد غير القارس بعد ثلاثة أيام. واستمر المعالج العجوز في مداواة جروح دومانقوه، ولم يطل الأمر بالمريض حتى تحسّن، وظل العوّاد يأتونه في النهار، وحفلات الجابشه في الليل تُلهيه.

صحا الجو في الأيام التالية، وتحلى الناس عن الملابس الدافئة التي جهزوها. وها هم الآن يتابعون أعمالهم بملابسهم الرقيقة. واستأنفت العصافير تغريدها. والطيور الداجنة تقضم أطراف الحشائش. والمواشي في المراعي. مدّ الديك رأسه خارج الدار، وصاح.

- لماذا تتوجه إلى الخارج، لا إلى البيت أيها الأهل؟ - نهر تيمرقوه الديك، وتوجه إلى غرفته، ولكن وقّع حوافر الحصان استوقفه. قال أحد الرجلين اللذين وصلا متلهفين جزعين قبل أن يتوقفا:

¹ حفلات سمر تقام للجرحي وأصحاب الكسور بتقاليد معينة تخفيفاً عن آلامهم. ولم يكونوا يجذونها كثيراً كما سيلي.

- جئنا بخبر سيء يا أمير! أُمِرنا بالإسراع فجرينا إليك ليلاً ونهاراً على أحصنة تبادلية. جيش القرم اقتحم الجانيه ويُحرق القرى. ويقتل من يصادفه كبيراً أو صغيراً. يتأملون النجدة منك.

- أيّ مأساة هذه! أمس فحسبُ هزمناهم، ظننت أنه لن تقوم لهم قائمة في أقل من عام...

بدّل الأمير للرجلين حصانيهما وصرفهما. واستدعى فوراً ولديه وحراسه. وأرسلهم لاستدعاء المحاربين الذين لم يستريحوا بعد. وقال لنفسه: " يتصور الجانيه أننا أقوىاء جداً وأننا هزمننا الترك والنعوي... " - أقول هذا ولكن هؤلاء آذاخم، يعرفون أن في ترج جيشاً روسياً. ويعرفون أن مقاتلين يأتوننا من روسيا. لا بد أنهم أرسلوا إليّ آملين في هؤلاء أكثر من أملهم فيّ. سأصل إلى الضابطين رجيفسك وداشكوف ريثما يجمعون رجالنا. لن نسمح للنعوي أن ينهبوا قرى الجانيه تحت أنظارنا ؛ أليسوا أديغة؟!"

اصطحب تيمرقوه مجموعة الرجال الذين اجتمعوا من إيداريه، ووصل بين عدوٍ وخبب إلى المدينة - القلعة. أخبر الضابطين بالأمر، كان رجيفسك أشد حمية فنظر إليه بعينين حادتين في حين وضع داشكوف ذقنه بين راحتيه واستمع كأنه غير مهتم، وقال الأول:

- نعرف ما يجري في الجانيه، ونتألم له ولكن لا شأن لنا بالأرض الواقعة على يسار نهر بشزة.

- لم آت إليكم جاهلاً هذا، - أضاف تيمرقوه مؤكداً: - كان الأمير الكبير شبق حليفكم يوماً من الأيام. والآن يتقرب منكم، وابنه الكبير في جيشكم. - يا أمير، منذ أن أصبحت تلك الناحية لتركيا، ليس لنا الحق في أن نخارب فيها، بل أن تطأها أقدامنا دون علم قيصرنا. - تدخل رجيفسك في الحديث، - وإلا كنا رافقناك ولو إكراماً لك، وعملنا ما نستطيعه.

- أخبرا القيصر إذن. أليس صهري مهما كان؟ ألن يسمع شيئاً من كلامي؟ تبادل الضابطان نظرات واجمة. السيدة الكبرى التي وصل خبر وفاتها اليوم هي ابنة الأمير الجالس أمامهما. أدركا أنه لا يعرف الخبر فنظرا إليه مُشفقين،

وأسبلا الجفون واتفقا بالنظر على ألا يخبراه. ثم تنهد رجيفسك ثقيلًا، ونصح الأمير:

- أين من سنخبره يا أمير؟! لا يصل من نرسله إليه مع تبديل الأحصنة في أسبوع. وفي مثل تلك المهلة تعود إلينا أوامره. وهذان أسبوعان كاملان. وفي خلاهما لن يُبقي التتار على أحد في الجانيه. ونحن لا نريد أن نُعَدَم على الخازوق. أقول لك واثقاً منك إذ أصبحنا أصدقاء إن صهرك لا يرحم من لا يسمع كلامه...

حين عاد تيمرقوه من المدينة - القلعة وجد أكثر من ثلاثمئة فارس قد اجتمعوا. أرسل الفرسان دون تفریط في الوقت، فدخلوا أرض الجانيه دون توقف. وعرف القبرتاي من الرسل الموفدين مثني، في اتجاهات مختلفة متقاطعة أن الحرب قريبة.

استقبل الحارس أيدار الأمير تيمرقوه ورافقه إلى المضافة فنهض شبق بخفة متغلباً على الرجلين اللتين كَفَّتَا عن طاعته. وصافح الضيف الكبير بحارة رغم أن اليأس كان قد نال منه، واغرورقت عيناه. ولم يكنف بالمصافحة بل عانقه. وقال بصوت مختنق:

- عرفت أنك ستمد إلينا يدك في وقت شِدَّتْنَا يا تيمرقوه، حياك الله ورضي عنك.

- جئنا نساعدكم على قدر طاقتنا يا أمير، - جلس الأميران، وأكمل تيمرقوه: - أنا تأملتُ كثيراً من القوات الروسية. وهم الذين أنقذونا في الحرب التي خضناها قبل وقت قريب. ولكن لا يُسمح لهم بعبور نهر بشزة إلا بإذن القيصر صِهري. غير أن الوقت سيفوتنا ريثما يخبرونه وينالوا موافقته. سأقول لك واقع الحال: لن أقول إني أتوجه إلى الحرب متردداً، ولكنّ قلماً - ارتياباً يستولي عليّ للمرة الأولى. دولت - جري أقوى منا بجيشه وبفرسانه.

- يا حسرتي يا تيمرقوه! ليتني لقيتُ حتفي في ساحة الحرب بدلاً من أن أبقى هكذا في البيت عاجزاً. - شكا شبق، ثم تماسك ورفع صوته، - لا تُساوِرك الشكوك، كل أعراق الأديغة نفرت لأجلنا. ونحن ليس تعدادنا قليلاً، والله معنا.

- الله مع الجميع يا أمير، - استلم تيمرقوه زمام الحديث. - لو كان الجيش الروسي معنا لدترنا جيش القرم حتى لا يتحرك ضدنا ثانية. والآن سأنصرف بعد أن اطمأنتت عليك، إذ أتيت محارباً لا ضعيفاً.

- وأنا سأذهب معكم! - أسرع شبق بالقول.

- لا يا أمير، لا، لم أُعرج عليك لأصطحبك إلى الحرب. أي حرب ستخوض ورجلاك لا تحملانك؟! وأنا رغم أنني لست مريضاً بفضل الله، بدأت قوتي تتضعضع. أظني سأتقاعد سريعاً.

- لا مشكلة لدي متى صرث على صهوة الحصان يا تيمرقوه، - لم يكن المضيف عازماً على التراجع. - سقطت وأنا يافع من شجرة التفاح فتضررت ركبتاي. أظن أن هذا هو ما يتجدد الآن. لا يزال جسدي بقوته، ويديأي أيضاً. أشفق تيمرقوه على الرجل المتلهف، المتوسل، الواثق من نفسه، الذي لا يتوقف عن الكلام خلافاً لعادته. وبعد جدال طويل اتفقا: سيدخلان ساحة المعركة معاً، وسيتفقدان الفرسان والمشاة. ولُيعرف الجانيه ومن أتوا لنجدتهم من الأعراق الأخرى أن الأمير شبق في ساحة المعركة رغم أن رجله لم تعودا تحملانه. ولكنه لن يخوض المعركة. بل سيُرفقونه بعدد من الفرسان ويصرفونه عنها.

قاد تيمرقوه شبق إلى مستنقع الخليج حيث يشتد وطيس المعركة، وإلى جانب الأميرين الكبيرين مامسرقوه وبلغايرقوه. يسرعون كثيراً، ولم يبق الكثير لبلوغ ساحة الاشتباك. ولا يزال أمام الشمس الزاحفة كثير من الوقت للغروب. والطبيعة هادئة كأن لا حرب ولا ضرب.

تدافعت كوكبة من الفرسان من منحدر التل. وأمسك القبرتاي بمقابض سيوفهم. والتفت شبق واطمأناً:

- لا تقلقوا، هؤلاء أصدقاء. والرجل الجسيم أمامهم هو قلققت.

تبادل الفرسان التحية، وتوجه قلققت إلى شبق مستغرباً:

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا أمير؟ نحن مسرورون لإقامتك في المضافة مستشاراً لنا.

- وهل أترك الأمير الكبير تيمرقوه يتوجه إلى المعركة وحده متحجباً بمرض رجلي؟! - سوّغ شبق سلوكه. - وأنتم إلى أين ماضون؟ - ألقى نظرة على قلقت ويسمت وزغاشت وداور وشيلان وونتغ، كلاً على حدة. ولما وصل إلى ابنه قامبولت اكتفى بهزّ رأسه له معتبراً سلوكه غير لائق.

- نحن نتفقد مواقف الفرسان والمشاة، - أجاب قلقت، - ننصحهم بما نظنه الأفضل. ونحثهم على ابتداع الخطط الحربية.

- وهل تراجع جيش القرم؟ وهل أنتم مرتاحون اليوم؟ - سأل تيمرقوه.

- لا، ليس عندهم مثل هذه النية. لم يتحركوا اليوم. أظن أنهم يستجمعون قواهم، أو يفكرون في حيلة ما.

- أنظر إليكم، - ابتسم تيمرقوه، - كلكم قادة عسكريون. من يقود الآخرين إذن؟

- اجتمعنا للتشاور. أفمق ويسمت وقامبولت قادة جيش الجانيه، وداور قائد الأبراخ، وحاتاي قائد البسلني والأباطة، وونتغ قائد المخوش. وليس البجدوغ والناخوي والحكوف بلا قادة.

- لا بأس إذن. - اطمأن تيمرقوه. - ونحن، أيّ موقع تفضلون أن نتخذ؟

- إن سمعتم كلامي يا أمير ففي الشمال الشرقي. شمال قرية جغن. في المضيق الكبير الذي لا نستطيع تغطيته. إذا خدعنا العدو فسيأتي من خلفنا، وسيوقع خسائر في صفوفنا. وإذا فعلتم هذا أمكنكم مهاجمة النغوي. - نظر قلقت بمودة إلى الأمير الكبير منتظراً الجواب. وأجابه تيمرقوه بنظرة مماثلة مُعجباً بأفكار الزعيم الفلاحي، واصطحب جنوده نحو الشرق. وظل يذهب بشبق إلى مختلف القطعات، ويدعه يكلمهم حتى رآه المحاربون. وقابله بأخيه أفمق وغيره من القادة. وبعد ذلك حاول شبق التشبث بموقعه، غير أن تيمرقوه رفض.

في اليوم التالي جاء الرُصّاد بخير مُفزع: تحرك جيش الفرسان المعادي كالجراد. يتدافعون ابتداءً من ساحل الخليج، حتى نواحي قرية جغن.

- الجراد متى وصل إلى المزروعات توزّعوا على جماعات؛ فإلى أي جهة ترون الأكثرية اتجهت؟ - سأل قلقت الرُصّاد.

- بالتأكيد من يتجهون إليكم وإلى جغن هم الأكثرية.

- إذن ينوون ما توقعته، من اتجهوا إلى الشمال ينوون مفاجأتنا من خلفنا. سيضغطون علينا من الجانبين فيضربونا من الأمام ومن الخلف. المتجهون إلى الشرق سيصددهم تيمرقوه. وأنتم توجّهوا حالاً إلى أفمق وقامبولت واطلبوا إرسال بعض فرسانهم إلينا. هيا، أسرعوا! - أطلق قلقت الفرسان الرصاد على وجه السرعة.

حشد قلقت فرسان الجانيه على هيئة مثلث كما تعلّم في وقت من الأوقات، فصاح من بينهم من لم يفهموا السبب:

- كيف سنقاتل العدو ونحن وسط رفاقنا؟

- سنخترق جيش النغوي بفضل ضرباتنا من الجانب فنشقه نصفين كما يشق الإسفين الخشب. - شرح قلقت الخطّة، - ثم نعيد الكرة حالاً، قبل أن يستعيد وعيه، ويهاجم زغاشت من اليسار. ويبقى الآخرون معي.

ظهر جيش الفرسان النغوي. وأسرعوا بالخيّل، ووراء قلقت بسمت وونتغ وأيدار. ولما رفع الزعيم الفلاحي يده انطلق جيش الجانيه.

التقى الجيشان، ولا يعرف أيّ من الطرفين التراجع. وقلقت يخترق الجيش المعادي موقعاً الخسائر في اليمين واليسار. ولا يفهم العدو ما يجري. والجنود المعتادون على القتال وجهاً لوجه مع خصم محدد لا يجدون أمامهم خصوماً. وفي لمح البصر فتح الجانيه شريطاً فارغاً في الجيش المعادي، وأعادوا الهجمة. وضربات سيف قلقت بين غمضة عين وغمضة. وإلى جانبه بسمت وونتغ، وشبلان وراءه يحرسونه من ضربة غادرة. وقف سرباي أمام قلقت جاحظ العينين. وتقابلا بسيفيهما. كان سرباي أقوى من كل من قتلهم قلقت إلى الآن. اعترضه على نحو مدروس. وأينما وجّه قلقت السيف قابله بالترس.

- هذا ما وصلت إليه يا عدوي الأزلي! - صاح قلقت متظاهراً بالسقوط من الحصان، وقبل أن يُنزل سرباي السيف ضرب قلقت رقبته الطويلة، فقطع رأسه. - يا لشماتتي! قضيتُ ثأري ولو متأخراً.

المعركة تمضي إلى نهايتها، وبدأ اليأس يدبّ في صفوف النغوي. ونجاح الذي كان عليه نذرٌ للأمر تاح تسلل إلى قلقت ولم يلاحظ بسمت وونتغ وشبلان

المشغولون بحمية المعركة إسقاطه قلقت من الحصان. ضرب بسمثُ القاتل دون وعي وهو يصيح، فقطعه نصفين ولكن قلقت لفظ أنفاسه الأخيرة...
كان عادل - جري يقود جيش النغوي الذي واجهه الأمير تيمرقوه. وكان أكثر عدداً من الفرسان القبرتاي الثلاثة بثلاثة أضعاف أو أربعة، فكان مقابل كل فارس أديغي ثلاثة أو أربعة فرسان منهم. لم يجد حراس تيمرقوه الفرصة لحماية أميرهم، ف وراء كل موجة من الأعداء تأتي موجة أخرى. يدور تيمرقوه بسرعة بالقياس إلى عمره. وضربات قوية، ولكن ألا تكسر خمسُ أيدي واحدة؟! أصابوه مرة بضربة خرقت الدرع الجلدية، ومرة أخرى أسقطت ضربة على كتفه يده اليسرى، وفي المرة الثالثة شعر بقوته تتضعع، وبقلبه ينهار. حمل الحراس الأمير من صهوة الحصان، وأجلسوه على الأرض. وأحاطوا به من كل الجهات...

نادى عادل - جري مقاتليه:

- لا تقتلوا أولاد الأمير تيمرقوه! بل خذوهم أسرى.

هجم قرابة عشرة فرسان على مامسرقوه، فرأى تيمرقوه المثخن بالجراح ابنه الذي انتزعوه من السرج. ولم ير بلغايرقوه.

توقف عادل جري عن البحث عن النصر بعدما أسر ولدي تيمرقوه، بل سحب جيشه إلى القرم.

...

لم تكن خسائر الأديغة المرهقين أقل من خسائر النغوي إن لم تكن أكثر. ورغم التهاني المتبادلة بالنصر غلبت المآتم الأفراح، فيخفضون رؤوسهم حزناً. وأول زعيم أقامه الله بين الفلاحين الأديغة قلقت الشجاع الطيب كان مصرعه في ساحة المعركة مأساة كبيرة، فأبته القوم كلهم. ووقف إلى جانب بورن، الابن الوحيد لقلقت، قامبولات وججان وجامبور وميناج وغيرهم من أصدقاء ابنه الشباب. وكان بين حضور الجنازة أمراء ومتنفذون تنفسوا الصعداء لمقتله ؛ إذ كان هذا الفلاح قادراً، عاجلاً أم آجلاً، على إزاحة نفوذ الأغنياء، فعاشوا تحت هذا التهديد.

كانت عودة قامبولت دون جروح خطيرة فرحة لشبق. وإذا كان مشاركاً في عزاء فقلقت كأنه في منتهى الحزن لوفاته ففي الوقت نفسه كان مرتاحاً لأن ابنه يمكن أن يحل محل الزعيم الراحل دون منافسة. وكان شبق فرحاً أيضاً لأن أخاه الأصغر الذي يتقدم في السنّ ويتأخر في القوة لن يكون منافساً لقامبولت. وكان فرحاً أيضاً لأن ابنته الوحيدة رجعت مع حاتاي إلى البسلني ولم تتزمل. ولكنه تألم لعودة الأمير تيمرقوه إلى القبرتاي مثخناً بالجراح، وولده في الأسر. وجمال بفكره نحو روسيا حيث ابنه كتناق غير راضٍ عنها لأنها لم تساعدهم. وقال لنفسه يغلبه الأمل: " الله العزيز يحميه إن لم يحدث له مكروه إلى الآن، ويعيده إلينا..."

تغيّر إيقاع الرعد وكأنها ستمطر. والريح الشرقية الباردة التي اعترضت الريح الجنوبية الحارة بددت السحب المتداخلة، وبعثرت أوراق الأشجار المتساقطة. وقلب البحر الأسود يهاجم الشاطئ متورماً. والسحب الرمادية الكثيفة تغطي الأرض شيئاً فشيئاً. اليوم يصبح ويكي ويضحك...

لو كان الأمراء الكثيرون الذين لم تتفق رغباتهم في أي زمان قادرين على قيادة هذا العرق الشجاع لأسسوا دولة قوية... ومن حسن حظنا أن تنافس هؤلاء، وتوازع السلطة بين الأمراء الصغار، يحذان من خطورة هذا لشعب الشجاع.

ب. س. بالاس

كان الأمراء الشراكسة مصيبة قومهم: عاشوا في تناحر دائم على الأقوى والأغنى فيهم. وحين لا يجدون المساعدة في بلادهم يستدعون مستشارين أ غرباً فيسلبون البلاد ويسلبونهم أيضاً.

نغومه شورا

خاتمة

ماذا جرى للأديغة في السنوات والقرون التالية؟.. كانوا لا يزالون في الصراع والتنافس والتناحر وعدم التسامح وسفك الدم وسفح الدمع.

يزعم العجوز قانشاو أنه في سنوات عمره المئة التي عاشها في الجبل العالي يرى منه أرض الأديغة كاملة سمع صوتها أيضاً. وفي رأيه أن القفقاس الشمالي الواقع بين بحر آزوف وبحر قزوين من أعلى مناطق العالم، ويلمع كالألماس والزمرد. الأعداء طامحون فيها منذ الأزل، يمزقونها، ويتصرفون فيها كأنهم أصحابها. دأبهم أن يزيدوا ثروتهم على حساب دم أصحابها، ويُعلوا من شأنهم فيها. وكان أشد الأقسام ظلماً في القرون الأخيرة من الألف الثانية تركيا وروسيا والقرم والنجوي، وخانات أستراخان.

والآن ها قد انتهت الحرب، ولكن هل ستنعِم أرض الأديغة بالأمان طويلاً، وهل سيشهدون حياة السلم. إذا كان الخطر القادم من جهة تركيا والقرم وروسيا سحابة سوداء فوق رؤوسهم فأين السلام؟ هل هذا سلام؟ مات تيمرقوه متأثراً بجراحه دون أن يعرف مصير ولديه الأسيرين مامسرقوه وبلغايرقوه. ومقاتلوه لا يزال صليل السيوف في آذانهم. والقرى المسالمة تحترق في اللهب.

لم يعرف تيمرقوه أن ابنه سلطان بعدما عُمد وحمل اسم ميخائيل شركس، وصار من أهم قادة الجيش الروسي، سيثون به إلى القيصر إيفان الرهيب فيُعدمه على الخازوق. ثم يندم بعدما اكتشف الحقيقة.

ولم يعرف تيمرقوه أن ابنته الصغرى عُشوناي التي عمّدها باسم ماريّا، وعاشت زوجة لقيصر روسيا كلها أكثر من ثماني سنوات يتبادلان الحب، سمّهما النبلاء، وأنهم شيعوها مع مظاهر الاحترام في كنيسة الكرملين.

ولم يعرف أمير القبرتاي الكبير تيمرقوه سهب النجوي الذي دُفنت فيه ابنته الوسطى ملخرب، زوجة الخان.

سؤال آخر أيضاً: ما مصير الأديغة الذين اندمجوا بالترك والروس والنجوي والعرب وصاروا من قادة جيوشهم البارزين؟ ولماذا لم يُساعدوا الشعب الذي خرجوا منه، والذي تعرض للكثير من الأهوال؟ الأرجح أن يوهان دو

غالونيفونتوبس قال الحقيقة: "الأديغة أصحاب عقول كبيرة، ومهروا في مجالات متعددة، ولكنهم لم ينفعوا بلادهم".

سنستبق الزمن ونذكر أسماء هؤلاء. هؤلاء ثلة ممن صاروا رجال دولة مهمين في روسيا: ميخائيل الشركسي سلطان بن تيمرقو الذي ذكرنا اسمه سابقاً. كان قائداً عسكرياً، ورجل دولة كبيراً، وأول نبيل من الأديغة في روسيا. ولاقى مامسرقو كثيراً من العناء في أسر القرم، ولكنه حرر نفسه أو حرروه، بل صار كبير أمراء القبرتاي لاحقاً. أما الأخ الأصغر بلغايرقو فلا يُعرف إلى الآن ما جرى له في الأسر. ولم يغفر الإخوة أبشق لمامسرقو عداء تيمرقو لهم، فاستدعوه مع أخيه الأكبر دومانقو بالخديجة إليهم، وقتلوهما. وكان ديمتري بن مامسرقو عضواً مشهوراً في مجلس زيمسكي. ومارس بوريس بن قامبولت مهام كبيرة في الجيش الروسي، ورتب نيكييتا سليل أسرة رومانوف. و ترأس إيفان بن بوريس مجلس الدولة الروسي لما توفي فيلاريث، والد أول قياصرة أسرة رومانوف. ومن الأسرة نفسها يعقوب بن كودانيت. وكان من أغنى أغنياء روسيا، وعضواً في مجلس الدولة.

والآن سندخل القرن السابع عشر. ميخائيل بن ألقو أصبح أول قائد عام في روسيا عام 1695. وكان ولدا ميخائيل بن يعقوب الشركسي بطرس وألكسي. عاش ألكسي سنوات طويلة حاكماً في سيبيريا. وصار في العاشر من أيلول عام 1741 مستشاراً لروسيا. ويسوغ القيصر بطرس الأول شكره له قائلاً: "من أجل ممارستك مهام الدولة بعناية، وحرصك على زيادة موارد الدولة، وزيادة الاحتياطات الغذائية، باستقامة ودون بحث عن مصالحك الشخصية، وإشرافك على صناعة المدافع والهاون ومعامل الحديد الذي تُصنع منه الأسلحة، وحماية موسكو وغيرها من مناطق الدولة..."

كان لا يزال في روسيا عدد كبير من الشخصيات المهمة من الأمراء الشراكسة. وقد ساهم هؤلاء بنصيب كبير في تحويل روسيا إلى دولة عظمى. ومن ردد¹

¹ الأمير المشهور. قام بتأسيس دولة للأديغة في مطلع القرن الحادي عشر. وللكاتب نفسه رواية تحمل اسمه، وترجمها مترجم هذه الرواية أيضاً.

انحدرت أسرٌ روسية شهيرة، منها سوروكوموف وكولتيفيسك وكوشكاريف... ومنهم فيدور وشاكوف، أعظم أدميرال روسي.

وكان خان - جري¹ قائد السرية الجبلية القفقاسية التي تحمي القيصر نيقولاي الأول. وكان ممثل القيصر الشخصي.

وكل هؤلاء عاشوا في روسيا. وتركيا؟

السلطين الأتراك في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر: سليمان الأول، وأحمد الثالث، ومصطفى الثالث، ومراد الخامس، وسليم الثالث، وعبد الحميد الثاني، كانت زوجاتهم أديغيات. وقد ولدنَ عدداً من السلطين الترك.

وكذلك زوجات شاه إيران عباس الأول، وعباس الثاني. وسلطان غروزين، وزعيم القوموق.

والمماليك الأديغة؟

هؤلاء أسسوا دولة عظمى، وكان لهم نفوذ كبير في مصر من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر.

والآن سنأتي على ذكر ما جرى في غرب القفقاس في ذلك الزمن القديم: الأمراء والمتنفذون الذين كانوا يهاجمون شبق ماتوا. وفي مآتمهم كان الناس يقولون: " ليجعل الله التراب الذي غطوهم به ناعماً كالقطن، وليسعدوا حيث رحلوا!"

ابتسم قانشاوا العجوز:

- من الصعب أن تعرف إن كان أمثال هؤلاء يستحقون تراباً ناعماً ؛ والأفضل في حالتهم أن تقول: صار رماداً لهم.

وما كانوا يقولونه في قلقته الذي سقط شهيداً يحمي بلاده ويحارب الأعداء، وبسمت وزغاشت وداور وماطج وشبلان، شيء آخر: " الخير الذي في أرض الأديغة حيث ارتكبوا كثيراً من الآثام ليس كثيراً جداً. ولا شك أن الخير سيقبل بعدما سقطوا أيضاً".

¹ للكاتب رواية بهذا العنوان، ترجمها مترجم هذه الرواية.

والأمير الكبير شبق؟

كان المؤتمر الذي ستساهم فيه الجانيه كلها يقترب. وهذا هو اليوم الذي سيقدرّون فيه، حسب رأيه، المصاعب الكثيرة التي عاناها، والقضايا المعقدة التي مرّ بها مع كثير من الأخطاء في حياته الماضية. لم يكن أمامه إلا يوم واحد، ولكنه يساوي كل ما عاشه.

تذكر الأمير القول المأثور الذي يمكن أن تعطيه عمر الشمس والسماء، وقال: "سيجري كل شيء كما ينبغي حتى لو تغيّر جذرياً"، ودخل في المساء اللطيف. ولم يركب كما عاداته سابقاً، وأمسك عكازة الشيخوخة التي لم تعد تفارقه. كانت العكازة صديقه الآن كما كان الحصان والسرّج في الماضي.

خرج من باب الدار. الشارع هادئ خالٍ. لم يكن سابقاً يجب هذا الهدوء. ولكن يحبه الآن، غير أنه لا يريد أن يرى أحد أنه تحول إلى عجوز ضئيل بلا حول.

شمّ الحصان رائحة سيده فنخر لأجله، فقال له: "في وقت آخر، سأزورك متى عدت".

كان يوم المؤتمر يقترب. وفيه يجب تغيير الأمير.

منذ زمن بعيد يحظى أقمق باحترام كبير في الجانيه. أظهر أنه ماهر في الإمرة. فمن غيره يستحق لقب كبير الأمراء؟! قال شبق هذا لأخيه الأصغر.

— ماذا يقال يا أخي الكبير. لا أشك أنك مثل كل الآباء تريد أن تجعل ابنك كبير الأمراء. وأنا فكرت منذ زمن بعيد في هذا: أوافق بقلبي وعقلي على أن يكون قامبولت كبير الأمراء.

— هل أنت جاد؟ — سأل شبق وقد اختلط فرحه بتعجبه. — ولكن لماذا أنت لا تريد؟

ابتسم أقمق حزينا:

— أنا تأخرت في الزواج. ثم إني أحب أخي الصغير، ومؤمن بقدرته. سيكون قائداً ممتازاً.

— وإن لم يقبل المؤتمر؟

— إن قررنا، أنت وأنا، فسيقبل. — ابتسم أقمق الآن بشيء من الخبث.

اتفق المؤتمرون على اختيار قامبولت كبير أمراء فأرخى شبق جفنيه اللذين غدوا ثقيلين دون أن يدري. تظاهر بإصلاح وضع القبعة فحنى رأسه يريد ألا يرى أحد دموعه المتسارعة، وقال: "أنا راض عنك يا إلهي. لن أنسى ما قدّمت إليّ من فضل وإن كنت لا أستحق. لا حدّ لقدرتك ؛ لو أعدت إليّ كتاب الآن..."

حين ماتت ماريّا، السيدة الأولى في القصر، كان بعضهم يقول إن كتاب في حرب ليفون، وهناك التحق بالقائد فيشنيفيسك الذي انضم إلى العدو، وقُتل في الحرب. وقال غيرهم: إنه أُعدم بأمر القيصر مع ميخائيل سلطان بن تيمرقوه. وجماعة ثالثة كانت تُقنع الناس أنه بسبب بطولاته الحربية أقطعه القيصر أرضاً في تفير أو بسكوف، وربما توجه كتاب مع الأتامان¹ إرمّاك إلى سيريا.

وما الجديد الذي حمله تصدي الأديغة لعادل - جري وقاسم بيه؟ - إن أردت الحق، - أجاب العجوز قانشاو، - لم تحمل المواجهة أيّ جديد لهم. بقي الأمراء الكبار، والأمراء المحليون والمتنفذون على صراعاتهم. وكما في السابق لا يزال أكثرهم ميالين نحو الدولة التي في الشمال، وغيرهم نحو الجنوب، ومجموعة ثالثة نحو الشرق. وفي خضم هذه الصراعات يُسفح الدم والدمع. ولكن من تسيل دماؤهم، ويزدرفون دموعهم هم الفلاحون الذين يروون الأرض بعرق جباههم. وماذا قدّم أولاد الزوجات الأديغيات للسلطين الأتراك وخانات القرم للقفقاس الجنّة؟ لا شيء! بل كان السلطين والخانات ينهبون أرض الأديغة، ويحرقونها، ويسفكون الدم فيها. وفي الفترة الزمنية الممتدة من منتصف القرن السادس عشر إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحدها هاجم التتر الأديغة بتحريض من تركيا أكثر من ثمان وستين مرة، مدمرين ومحرقين من وما فيها.

وهكذا ظل القرن يتلو القرن حتى جاء العام المشؤوم عام 1763 فبدأت الحرب الروسية - القفقاسية التي استمرت مئة عام.

¹ حاكم محليّ عند القوزاق.

الدولتان العظيمان روسيا وتركيا كانتا تتحاربان، ولكن أكثر ما يُسَفَك من الدم هو دم الشعوب الصغيرة. والأديغة لا يزالون منقسمين. تقنعهم القوى العظمى بأنها تسدي إليهم معروفاً فتحرض بعضهم على بعض، وتدفعهم إلى الاقتتال. وتدخلت إنجلترا وفرنسا وبولونيا متظاهرة بمساعدة الأديغة على حرب الحرية، ولا جدال في أنها كانت تبحث عن مصالحها.

انتهت حرب القفقاس عام 1864 في أرض الأديغة بنهاية واضحة. روى الأديغة الذين خاضوا هذه التجربة المريرة أرضهم بدمائهم. وكما يشهد مؤرخوها فقد أحرقت التجمعات السكنية فلم يبق منها إلا الرماد. ومأساة المآسي أنه توجّب على ما يزيد على خمسة ملايين إنسان أن يهجروا إلى الأبد أرضهم وقبورهم. وهؤلاء مشتتون الآن في أصقاع الأرض بلا دولة ولا أرض: في تركيا والبلقان والشرق الأدنى وأمريكا وإفريقيا وأوروبا.

بقيت القلة القليلة من الأديغة في شمال القفقاس: في القبرتاي وشركيسيا والأديغي وساحل البحر الأسود. وهؤلاء هم حماة العرق الذي عصفت به المأساة، وفخرها وتاريخها.

والآن هل نعيش طويلاً في أرضنا الأزلية؟ يتألم قلبي لماضيها وحاضرنا ومستقبلنا. ليحْمِنَا فَهْمُنَا، لا أرى أملاً غيره...

